موقف العقل والعلم والعالم

من رب العالمين

وعباده المرسلين

تأليف

مصطفى صبري

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقا

الجزء الرابع

الطبعة الثانية

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

دار

إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثالث [1]

موقف العقل والعلم من رسل الله

وما أظهره على أيديهم من المعجزات وأنبأهم به من البعث بعد الموت

الم ذلك الكتابُ لاريبَ فيه ، هدًى للمتقين ، الذين يؤمنونَ بالغيبِ ويُقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون ، والذينَ يُؤمنونَ بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على من اصطفاهم برسالته إلى الناس ، وجعل لهم من الآيات البينات الخارقة لسنته فى الكون علامات يمتازون بها على الذين أرسلوا إليهم ، أخص بالذكر منهم رسولنا وسيدنا محمداً ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد . فما لا يخفى على ذوى الأعين الساهرة ، بعد أن سادت المادة فى الغرب ، وأخذ الشرق يهتدى بهدى الغرب ، ما طرأ على القلوب الضعيفة من إنكار المعقولات والمغيبات التى فى رأسها رب المشرقين ورب المغربين ، حتى إن الأستاذ فريد وجدى بك سبق له فى مقالة من مقالاته المنشورة فى « مجلة الأزهر » (الجزء الخامس من المجلد

---

[1] كنت نشرت هذا الباب قبل سنين فى شكل كتاب أسميته « القول الفصل » وكتبت له مقدمة . فلما وفقنى الله نشر تمام الكتاب أخذ الباب الثالث مكانه منه ومعه مقدمته .

الثامن) أن جعل الإيمان بالغيب الذى هو أول صفة وصف الله بها عباده المفلحين ، مقابلا للإيمان بالواقع . فنزّل الإيمان بالغيب بهذه المقابلة منزلة الإيمان بغير الواقع .

وحتى إن هذا الأستاذ قال فى أثناء مناقشة جرت بينى وبينه ، ونشرت فى ضمن مقالات من الطرفين على صفحات جريدة « الأهرام » قولا ذكرته مرات كثيرة فى هذا الكتاب وأحصيته بين أسباب تأليفه ، وكان ذلك قبيل تولى الأستاذ رئاسة تحرير مجلة الأزهر أعنى أيام كان حرًّا عن الوظيفة الرسمية الأزهرية .

وهذا قول الأستاذ أعيده هنا بنصه :

« ... فى تلك الأثناء وُلد العلم الحديث ، وما زال يجادل القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها ، فدالت الدولة إليه فى الأرض ، فنظر نظرة فى الأديان ، وسرى عليه أسلوبه ، فقذف بها جملة إلى عالَم الميتولوجيا (الأساطير) ثم أخذ يبحث عن اشتقاق بعضها عن بعض ، واتصال أساطيرها بعضها ببعض .

« فجعل من ذلك مجموعةً تقرأ لا لتقدّس تقديساً ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى كان يستعبد لها الإنسان نفسه ، ويقف على صيانتها جهوده ، غير مدّخر فى سبيلها روحه وماله .

« وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ، ويقتبس من مدنيته المادية ، فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا ، ووجد دينه ماثلا فيها فلم ينبس بكلمة لأنه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به ، متيقناً أنه مصير اخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية .

« وقد نبغ فى البلاد الإسلامية كتّاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم ، فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دسًّا فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم ، تفادياً من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض » .

ثم أدخل الأستاذ نفسه فى الذين أسلاهم الاتصال بعلوم الغرب ، عن دينهم ثم أخرجه من بينهم . ولا حاجة لتنبيه القارئ النبيه إلى أن الدس الذى ذكره الأستاذ لنوابغ الشرق الإسلامى المستبطنين للإلحاد بعد ارتشافهم من مناهل العلوم الغربية ، له أنواع وأساليب لا تحد ولا تحصى ، حتى إن منها الإدخال والإخراج اللذين خصهما لنفسه كما يظهر من الاطلاع على صورتهما المذكورة فى مقدمة الكتاب . ومن ذلك الوقت الطويل الذى لفتنى إفشاء الأستاذ فيه عن كتاب المسلمين المستبطنين للإلحاد ، واستبطنتُ أنا أمرهم ، لقيت من دسائسهم ما يجعل أسباب التأليف التى ذكرتها وأطلت الكلام فى ذكرها فى مقدمة الكتاب ، محصولَ الاستقراء الناقص ، حتى استدركت مافاتنى فى المقدمة من تلك الأسباب ، وذكرته فى أمكنة مختلفة من صلب الكتاب .

وأبرز مميزات هؤلاء الكتّاب والعلماء المتفقين معهم أنهم ينكرون المعجزات الكونية ، ويعتبرونها من المستحيلات ، وقد علم القارئ مما سبق كيف أنكرها الأستاذ فريد وجدى بك ، وأنكر معها البعث بعد الموت ، وردّ جميع آيات القرآن الواردة فى كل من الموضوعين إلى المتشابهات التى لا تفهم معانيها .

وبعضهم يخص إنكاره بمعجزات نبينا من ذلك القبيل ، ويعتبر تجرده منها ميزة له على سائر الأنبياء ، حتى إن فضيلة الأستاذ المراغى قال فيما كتبه تقريظاً على كتاب « حياة محمد » الذى أخلاه مؤلفه عن المعجزات ، والتقريظ منشور فى صدر الكتاب:

« وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحنّا بما تعيا العقولُ به حرصاً علينا فلم نرتَب ولم نَهِمِ

ومن مميزاتهم البارزة فى الأيام الأخيرة أنك تراهم يسعون أن يقيموا مقام نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عبقرية يجعلونها موضع عناياتهم ، ويكتبون عنها بدلا

من نبوته ، تفضيلا لمناقبه التي يتفق على تعظيمها من يدين برسالته الدينية ومن لايدين له برسالة ، على التي ينفرد بتعظيمها المسلمون .

وقد أفصح أحد دعاة العبقرية ـ أعني به الدكتور زكي مبارك ـ عما أضمره غيره ، فقال في مقالة منشورة في العدد الخاص من مجلة «الرسالة» بأول العام الهجري ١٣٥٨ :

« سيأتي يوم ـ قريب أو بعيد ـ يثور فيه الناس على الأمور الغيبية ، ولكنهم لايستطيعون أن يثوروا على عبقرية محمد » ومعناه أن نبوته غير مأمون أن يثار عليها حتى من الذين يدينون بها، لكونها من الأمور الغيبية . فينجلي من هذا أن تخصيصهم العبقرية بالبحث والدرس ناشئ من عدم كون نبوته صلى الله عليه وسلم متيقنة عندهم تيقن عبقريته ، وإلا فماذا هو دافعهم إلى هـذا التخصيص الرامي إلى إنساء نبوته في ترويج عبقريته إن لم تكن العبقرية أفضل وأسمى من النبوة وأسلم من الشبهة؟ . أليس غريباً أن يقوم كاتب من المسلمين فيكتب حياة سيدنا محمد كما يكتبها كاتب أجنبي عن الإسلام منصف مقدر لعظمة محمد نافذ النظر في أعماق عظمته ، ولكنه على كل حال غيرُ تام التقدير حيث لا يجعل نبوته التي هي معدن تلك العظمة الجامعة للعظمات ، في رأس مايُعنى به من حياته ، أو غيرُ تام الحظ حيث لا تدركه الهداية الإلهية للإيمان به على أنه نبي من أنبياء الله .

فإن قيل ـ اعتراضاً عليّ ـ إنّ كاتبنا الساعي لإثبات عبقرية نبينا لا ينفي نبوته ، أقول : وهذا عبقرية الكاتب[1] . لكن واجب القارئ اليقظ أن يبحث عن سبب

---

[١] فهو يمثل دور المعنى بعبقريته فقط من دون تصريح بنفي نبوته ، وقد كان آخر من زملائه نفى معجزاته غير القرآن ، فكأنه أبقى القرآن دليلا لنبوته ، على أنه سيأتي كلام منا على هذا الإبقاء ، وهناك زميل ثالث يتوقع الثورة على الأمور الغيبية التي تندرج فيها النبوة والمعجزة مطلقاً . أي يثور عليها حالا في هذا الأسلوب . فبالنظر إلى مجموع هذه الأقوال والأدوار التي يكمل بعضها بعضاً ، تنهار النبوة وتبقى العبقرية ، ويتحقق قول المستشرق مؤلف « الأبطال » : « محمد البطل في صورة النبي! » ذلك القول الذي لايستبعد كونه ملهماً لكتاب العبقرية من تلاميذ المستشرقين في الشرق ، مايكتبون .

هـذا الانحراف فى اختيار الموضوع ، ويقولَ فى نفسه ماذا هو منشأ التهالك من كتّابنا العبقريين على هذا النوع من مواضيع الكتابة عنه صلى الله عليـه وسلم فى زمان ضعف فيه الإيمان بالأمور الغيبية ، حتى لم يُستبعد وقوع الثورة عليها من الناس ؟ أليس فيه تأييد لذلك الضعف ، واشتغال بملافاة ما كاد يُنسى وينكر من نواحى عظمته بما لا يقبل النسيان والإنكار منها ؟ مع أن فى هـذه الملافاة أيضاً تأكيداً لإنساء ما أصبح على وشك النسيان .

وهذه النقاط الدقيقة اللائحة ببالى إن كان أناس من القراء ينكرون خطورها بأذهان كتّاب العبقرية كان ذلك إنكاراً منهم لعبقرية الكاتبين أنفسهم ، وإساءةَ الظن بهم أكثر مما يرون منها فى ظنى بهم ؛ فإن كان مسلمو زماننا لاخوف على دينهم من تشكيك المشككين بالنسبة إلى كل زمان مضى فى الإسلام ، وكان الكاتبون المصريون النوابغ أجدر الناس بالاعتقاد على صحة عقائدهم وسلامة نواياهم حتى بعد إفشاء الأستاذ فريد وجدى بك عن سرائرهم ومراميهم فى كتاباتهم ، فأرضى أن أكون أنا الملوم بسوء الظن ، وأختار لنفسى هذا الموقف على مايختار هؤلاء الكتاب للمسلمين من موقف الحق !

ثم إن الكتابة والتأليف لابد أن يتضمن دعوة القراء إلى الاقتناع بشىء ، فإن كان فى دعوة الناس إلى الإيمان بعبقرية سيدنا محمد كسبُ القراء من غير المسلمين فهذا الكسب الحاصل من الاعتناء بعبقريته المؤدى إلى صرف الأذهان عن نبوته لايعوّض خسر المسلمين لاسيما من غير العرب ، فما هى الفائدة التى تعود إليهم من عبقرية محمد الذى لم يبق رواج نبوته ؟ بل وما فائدة غير المسلمين من عبقريته غير أن يروا كتّاب المسلمين حولوا أقلامهم إلى وجهتها مستشعرين عدم رغبة الناس اليوم فى حديث نبوته ، بل حديث نبوة أى نبى كان ، لكونها من الأمور الغيبية التى قلما يؤمن بها الجيل الحاضر من الناس ؟ . فالمسألة إذن جعل محمد صلى الله عليه وسلم نبياً عصرياً إن زالت زعامته

للمسلمين كافة فلا يزال زعيما للعرب . ولغير العرب أن يحتفظوا باتباع خطته مع هذا التحول فى موقفه ، باعتبار أنها خطة معقولة . وكذا الحال فى مواقف سائر الأنبياء صلوات الله عليهم : فللمنتمين إلى دينهم أن يعتبروهم عباقرة زمانهم فى صور الأنبياء ، وليس أدل على عبقريتهم من اقناعهم الناس برهة من الزمان بنبواتهم . ولا يقال بصدد تبرئة الكتّاب الذين أتعقبهم وأتهمهم بإنكار النبوة وتحويلها إلى العبقرية لاسيما فى فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : إنهم لاينكرون النبوة وإنما يجمعون إليها العبقرية التى لاشك فى أنها صفة عالية لايجىء منها أى ضرر وأى نقص لنبوة النبي، بل يكون اتصاف النبي بالعبقرية زيادة فى شرفه ومنقبته ـ لأنى أقول أولا ، واستعيذ بالله أن أكون من المفترين عليهم بما هم بريئون منه : علامةُ إنكار النبوة فيهم القاطعةُ فى دلالتها إنكارهم المعجزات ، وهما ـ أى المعجزة والنبوة ـ سيان فى كونهما من الأمور الغيبية الخارقة لسنن الكون التى ينتهى إليها إنكار ماينكرونه فى هذه المسائل . نعم ربما تعترف تلك الطائفة بالنبوة لا بمعنى النبوة التى تعد من الأمور الغيبية ، والتى يعتقدها المسلمون والمليون جميعاً ، ولا عبرة بهذا الاعتراف طبعا ؛ وربما يعترفون بالمعجزات أيضا لكن لابمعنى المعجزات الخارقة لسنن الكون حقيقة ، وإنما هى أمورلايصح عدها من المعجزات اعتبروها معجزات ، كمافعل الأستاذ فريدوجدى بك، عند ما كتب الأمور الخارقة للنواميس فى وقعة بدر ، وذلك فى سلسلة مقالات منشورة فى مجلة الأزهر بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة »

فهو لم يلتفت إلى ما بين الخوارق الحقيقية الواقعة فى بدر ، وبين العنوان القائل « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » من التناقض حيث لايتفق الاعتراف بالأمورالخارقة للنواميس الطبيعية مع العلم والفلسفة المعروفين بين الكتاب العصريين. لكن الأستاذ يروغ بين إنكار الخوارق وبين الاعتراف بها فى رئاسة مجلة الأزهر ، وهوثابت القدم فى إنكار الخوارق الحقيقية التى لابد أن تكون المعجزة الحقيقية منها،

كما لابد من كون علامة النبوة الحقيقية هى المعجزة الحقيقية الخارقة المدودة من الأمور الغيبية .

وليس أدل على كون إنكار المعجزات الخارقة التى تلازم النبوة ، ملازما لإنكار النبوة ، من أن الدكتور شبلى شميل ناشر فكرة الإلحاد فى البلاد العربية بحماسة وصراحة ، يسمّى الإيمان بالأديان إيماناً بالمعجزة[1] .

وثانيا إنهم لا يكتبون عن عبقرية سيدنا محمد كضميمة إلى منصب نبوته ، بل مستقلة عنه ومغنية ، لا سيما عن المعجزة التى تلازم النبوة ، وربما يقارنون بين النبوة والعبقرية مدعين للعبقرية الإعجاز اللازم للنبوة . وهذا أوضح دليل على كونهم مجتهدين فى إهمال النبوة وترويج العبقرية بدلا منها ، انظر إلى قول الأستاذ فريد وجدى بك ، فيما كتبه فى الجزء السابع من المجلد الحادى عشر من « مجلة الأزهر » بعنوان «السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » :

« تمتاز العصور النبوية (يعنى عصور الأنبياء) بالخوارق للنواميس الطبيعية فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل كان لها أقوى تأثير فى حمل الشعوب التى شهدتها على الإذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم . وقد حدثت أمور من هذا القبيل فى العصر المحمدى صاحبَت الدعوى فى جميع أدوارها وكانت أعظم شأنا وأجل أثراً من كل ماسبق من نوعها . ولست أقصد بها ما تناقله الناس من شق الصدر وتظليل الغمامة وانشقاق القمر وما إليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس ، ومما يتأتى توجيهه إلى غير مافهم منه . ولكنى أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يد محمد صلى الله عليه وسلم فى أقل من ربع قرن ، وقد أعوز أمثالها فى الأمم القرونَ المديدةَ والآمادَ الطويلة .

---

[١] راجع المقدمة التى كتبها الرجل لتعريب كتاب بوخنر فى شرح مذهب داروين . والتعريب طبع مع المقدمة فى مطبعة جريدة «المحروسة» بالاسكندرية سنة ١٨٨٤ .

« وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نكتبه فى هذه السيرة على أن لانسرف فى كل ناحية إلى ناحية الإعجاز مادام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشىء من التكلف ، مسايرة لمذهب المبالغين فى التثبت والمحافظة على الدستور العلمى ثقة منا بأن بحثا لاتحترمه النخبة المثقفة ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى فى عرض المسائل وتحليلها لايمكن أن يؤدى إلى ماقصد منه من الخدمة العامة »

ولنا تعليقات على هذا الكلام سبقت فى الجزء الأول من الكتاب خشينا الإطالة فى نقلها هنا مهما كانت هامة ، وحسبنا فهم القارئ من قول الأستاذ انه يستخرج من غير المعجزات معجزات ويردُّ المعجزات الحقيقية المبنية على أسباب غيبية غير طبيعية والتى هى معجزات النبوة الحقيقية التى هى أيضا من الأمور الغيبية غير الطبيعية ، إلى أساطير الأديان ، كما حمل الآيات الواردة فى القرآن عن معجزات الأنبياء إلى المتشابهات غير المفهومة ، لما جرى بينى وبينه النقاش قبل بضع سنوات ، كل ذلك لإنكار المعجزات الخارقة للنواميس الذى يلزمه إنكار النبوة أيضا لسببين . أولهما كون المعجزة علامة النبوة فمن ينكرها فلا بد أن ينكر النبوة ، وثانيهما أن منشأ إنكار المعجزة كونها من الأمور الغيبية مع أن النبوة نفسها التى هى اتصال خاص بالله من الأمور الغيبية أيضا .

بقى أن واجب الإنصاف الذى لايؤدَّى إلا بإيتاء كل ذى حق حقه ، يقضى بأن لا يكون درسى لمسألة العبقرية خلوًّا عن تقدير كتاب « عبقرية محمد » للأستاذ العقاد . فقد أصدرت حكمى ضده قبل مطالعته بمجرد سماع اسمه ورؤية بعض إعلان عنه فى الصحف والمجلات ، ثم لما قرأته أعجبت به ، لاسيما ببعض مباحثه ، وإن لم أرجع عن حكمى الصادر ، نظراً إلى كون مؤلفه أيضاً من دعاة العبقرية ومروّجيها بدل النبوة ومعجزاتها . ومع هذا فهو لم يتوقع الثورة على النبوة كما توقعها الدكتور زكى مبارك ؛ ولم يصادم البداهة فى سبيل إنكار معجزات الأنبياء ملغياً جميع الآيات

الواردة بشأنها فى كتاب الله ورادًا لها إلى المتشابهات التى لا يحصل القارئ منها على معنى مفهوم ، كما صادم الأستاذ فريد وجدى بك ؛ ولم يمتد فى سبيل إنكار معجزات نبينا الكونية على كتب الحديث ساعياً لتشكيك الأذهان فى صحة كل ما رواه أئمة المسلمين عنه صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال إلى أن ألنى ركن السنة من بين حجج الإسلام ، كما فعل معالى هيكل باشا كل ذلك فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « حياة محمد » ؛ ولم يحرف الكلم عن مواضعه فى تأويل آيات القرآن الناطقة بالخوارق كرفع عيسى عليه السلام إلى السماء ، ولم يهن مقام القرآن بادعاء مجاراته لعقيدة العرب الجاهليين فى تصوير الشيطان ، كما حرف وأهان فضيلة الشيخ شلتوت فراراً عن الإيمان بالغيب .

وفضلا عن عدم تورط الأستاذ العقاد فى أمثال هذه السخافات التى تورط فيها غيره من دعاة العبقرية ومنكرى المعجزات ، فإنه أحسن فى الدفاع عن سيدنا محمد رداً على اتهام من يتهمه من الغربيين بالاستسلام للذات حسه ، وأحسن فى الدفاع عن الإسلام فى مسألة تعدد الزوجات ، مع أنه لم يسبق وعد منه فى الدفاع عن الإسلام عند تعريف كتابه . وقد أصاب فضيلة الأستاذ الأكبر المراغى فى أمره باشتراء جملة من كتاب العقاد لتوزيعها فى مدارس الأزهر ، أكثر من إصابته فى تقريظ كتاب هيكل باشا .

الحاصل أنى وجدت الأستاذ العقاد أمثل دعاة العبقرية فى اتزان الكلم . أما كون قلمه أقوى فإنى أعرفه قبل كتابه هذا . ثم إنى بعد كل هذا الاعتراف بحق الأستاذ أراه مخطئا كزملائه فى إنكار المعجزات الذى يشهد به قوله فى ص ٢٨ وعلامات الضعف بادية فيه رغم حسنه وطلاوته :

« قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه ، والجزيرة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه ، والدنيا مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه ، وماذا من علامات الرسالة

أصدق من هذه العلامة ؟ وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير ؟ وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق ؟ علامات الرسالة الصادقة ، وهى عقيدة تحتاج إليها الأمة ، وهى أسباب تتمهد لظهورها ، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أدائها ؟ .

« فإذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها ؟ ، وإذا تعذر عليها أن تجتمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟ » .

وقوله فى ص ٤٨ : « إنما نجحت دعوة الإسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ، ومهدت لها الحوادث ، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته ، فلا حاجة بنا إلى خارقة ينكرها العقل » الخ

والأستاذ يعرف كما أعرف أنا أن منكر المعجزات الخارقة المبنية على أسباب غيبية، لابد أن ينكر النبوة الحقيقية التى هى من الأمور الغيبية أيضا ، وإن لم يعرف أن تلك المعجزات غير مستحيلة عند العقل ، وسيعرفه أيضا بعد مطالعة كتابى . وإنى لا أطيل الـكلام مع الأستاذ كما أطلته مع غيره ، وإنما أقول له : إن القرآن الفاصل بين كل حق وباطل يفصل بيننا فى هذه المسألة أيضا . وطريق فصله هـكذا :

نحن نرى الأستاذ العقاد القائل بكون نبوة سيدنا محمد وليدة تهيؤ الزمان والمـكان الممتد من جزيرة العرب إلى كل الدنيا ، وليدة التهيؤ العام المتولد من الحاجة العامة إليها ، وكانت حاجة طبيعية صادفت شخص محمد المستعد للاضطلاع بالأمانة بصفاته العالية الظاهر من كونه عبقريا فى الدعوة ، عبقريا فى العسكرية ، عبقريا فى السياسة ، عبقريا فى الإدارة ، عبقريا فى البلاغة ، عبقريا فى الصداقة ، عبقريا فى الرئاسة ، عبقريا فى الزوجية ، عبقريا فى الأبوة ، عبقريا فى السيادة ، عبقريا فى العبادة ، عبقريا فى الرجولة ، عبقريا فى كل ما يلزم لنجاحه فى الدعوة ، من غير أن يخالط ذلك التهيؤ والحاجة العامة العالميتين شىء من الخوارق واتصال بعالم الغيب — نراه ينسى القرآن

أو يتناساه عمداً بين أسباب نجاح الدعوة الإسلامية مع كونه أعظم الأسباب الذى لايعدله بل لا يدانيه سبب آخر ، ومع كون الأستاذ يستدل بما يستدل به من الأسباب والعلامات على نبوّة سيدنا محمد ، بعد تحقق نجاح الدعوة بانتشار الإسلام ومضىّ عهد الداعى مقرونا بالنصر والتوفيق . وهذه الحالة إنما تكون علامة على نبوة سيدنا محمد بعد مضىّ عهد الدعوة متأخرة عن أوانها بكثير ، فماذا كان العامل الأول فى الدلالة على صدق صاحب الدعوة عند أول القابلين بها السابقين فى قبولها ، والذين هم رضى الله عنهم أسس صرح النجاح ؟ ، لا شك فى أنه القرآن !

ثم إنا نرى الأستاذ الذى نسى هذه العلامة الأولى والكبرى للنبوّة لم ينس أن يستمد فى كتابه على حسب مناسبات الأبحاث بآيات من القرآن ، وكان ذلك من أسباب نجاح كتابه فى التأثير على القلوب ، فهل يمكن أن لا يكون للقرآن الذى أثّر حتى فى نجاح كتاب « عبقرية محمد » للأستاذ العقاد تأثيرٌ فى نجاح دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ لا يمكن الأستاذ أن ينكر ذلك ، ولاأن ينكر تفوق القرآن على جميع أسباب النجاح التى عددها من التهيؤ العام والحاجة العامة فى العالَم ، ومن اجتماع أنواع العبقرية فى شخص الداعى .

فماذاهوموقف القرآن إذن من محمد العبقرى الذى كانت دعوته ـعلى رأى الأستاذـ فى غنى عن المخالطة بشىء من الخوارق الغيبية ليتسنى لها النجاح ؟ ، وكان متوقعا من الأستاذ أن يعين موقف القرآن من محمد العبقرى فى مبحث « البليغ » من كتابه ليكون مؤديا لحق البحث ، فلم يفعل . فإن كان قراء كتابه المعجبون به كما أعجبت أنا لم يسألوه عن موقف القرآن من محمد البليغ العبقرى فى بلاغته ، فإنى سائله عن ذلك ، وسائله : هل هو كلامُ الله أم كلام محمد نفسه ؟ .

فإن كان كلامَ الله المنزل بنصه على محمد بواسطة الملك فهو يتناقض مع المفروض

آنفا فى نبوة محمد من العبقرية المستغنية عن الخوارق الغيبية ، لكونه أكبر خارقة وأكبر اتصال منه بعالم الغيب .

وإن لم يكن القرآن كلام الله ، بل كلام محمد نفسه عزاه إلى الله كما أشار إليه الدكتور زكى مبارك من دعاة العبقرية فى قوله : « إن محمدا حرم نفسه الشهرة بإجادة البيان وبفضل الكتاب الذى بلغه عاش البيان » وسيجىء نقله مع أقواله الأخرى .. إن كان القرآن عند الأستاذ العقاد صاحب كتاب « عبقرية محمد » الساعى لتجريده من الخوارق ، كما هو عند الدكتور زكى مبارك ، كان محمد كاذبا فى نسبة القرآن إلى الله على الرغم من قول القرآن : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء » وكان هذا الكذب أكبر مناف للنبوة والعبقرية معاً .

فإن تساهل العبقريون وذهبوا فيما بينهم إلى عدم التنافى بين العبقرية والكذب غير مصارحين به غير أمثالهم ، فماذا يقولون فى تحدى القرآن الإنس والجن مجتمعين على أن يأتوا بمثله ؟ مع أنه لايتصور صدور التحدى عن عاقل من البشر على أن يأتوا بكلام مثل كلامه ، فهل يمكن عند دعاة العبقرية أن يكون محمد العبقرى متهوراً مجنوناً فى تهوره إن أمكن عندهم أن يكون كاذبا ؟ ، وهل يجوز عندهم ائتلاف العبقرية بالجنون أيضا كما جاز ائتلافها بالكذب ؟

ونحن نحاشى محمداً صلى الله عليه وسلم من كل ذلك .

أقول للكتاب العصريين بعد هذا السؤال الواضح : إن كنتم تؤمنون برسالة محمد من الله بمعناها المعروف عند المؤمنين بالأنبياء فاصدقوا فى إيمانكم ، ولا تكذّب قلوبكم أقوالكم ولا تكذّب أقوالكم بعضها بعضا ، فليس لكم أن تقيسوا عبقرية محمد على عبقريتكم التى تسهّل الكذب فى أعينكم ، فأين هذا الذى تحدثون به أنفسكم من أن يكذب محمد الأمين على ربه الذى يقول « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين »

وقد يُنطق الله كتّابنا المصريين ، بالحق فيقول مؤلف « حياة محمد » ـ ونعم ما يقول ـ عند الكلام على الأقوال المختلفة فى سبب نزول قوله تعالى « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » ص ١٨٠ :

« ومهما تكن الحقيقة الثابتة التى لا تختلف الروايات عليها للواقعة أو الوقائع التى نزلت الآيات فيها ، فإنها تصور ناحية من نواحى العظمة النفسية لمحمد كما تصور صدق إخلاصه تصويراً قويا . وهذه الناحية تصورها كذلك هذه الآيات التى نقلنا من سورة « عبس » ويشهد بها تاريخ محمد كله . تلك أنه كان يصارح الناس بأنه بشر مثلهم يوحى ربه إليه لهدايتهم ، وأنه ـ وهو بشر مثلهم ـ معرض للخطأ لولا عصمةالله إياه . فهو قد أخطأ حين عبس لابن أم مكتوم وتولى عنه ، وهوقدكاد يخطىء فيما نزلت عليه آية الإسراء فى شأنه ، وكاد يُفتن عن الذى أوحى إليه ليفترى غيره . فإذا نزل عليه الوحى ينبهه إلى ماصنع فى أمر الأعمى ، وفى أمر هذه الفتنة التى كادت قريش تدفعه إليها ، صدق فى تبليغ الوحى إلى الناس صدقه فى تبليغ رسالات ربه ، ولم يقف حائل من أنفة أو كبرياء ، ولا وقف اعتبار إنسانى ، حتى مما يسيغ الفضلاء ، دون إعلان هذا الحق فى أمر نفسه . فالحق إذاً ـ والحق وحده ـ كان رسالته . وإذا كان احتمال أذى الغير فى سبيل ماتؤمن به بعض ماتطيق النفوس الكبيرة ، فإن إقرار العظيم بأنه كاد يفتن ليس مما ألف الناس صدوره حتى من العظماء . إنما يخفى هؤلاء أمثال ذلك من الأمور ويكتفون بحساب النفس عليه ولو حسابا يسيراً . فهو شئ إذاً أكبر من العظمة ، وأعظم من كل عظيم ذلك الذى يتيح للنفس هذا السمو على العظمة ، ويفوق كل عظيم هو النبوة التى تملى على الرسول صدق الإخلاص فى إبلاغ رسالة الحق جل شأنه » .

والشاهد فيما نقلناه عن كتاب هيكل باشا وحبذناه هو الفقرة الأخيرة الناطقة بعظمة النبوة التي تسمو على العظمة . ونحن نضيف إليه قولنا : نعم إن النبوة هي الشيء الذي يسمو على العظمة وتقصر عن مداه العبقرية .

وانظر عظمة النبوة المتجلية في قوله تعالى : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » وقوله : « وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

فهما أبلغ من الآيتين المذكورتين من قبل نقلا عن كتاب هيكل باشا في الدلالة على عظمة محمد النبي صلى الله عليه وسلم في صدقه وإخلاصه لكونهما تصارحان بقصوره في عجزه عن الإتيان بآية تخضع الناس لتصديق مدعاه عن نبوته التي لا مدعى لنفسه غيرها يمتاز به على الذين أرسل إليهم .

وللكلام عن موقفه صلى الله عليه وسلم من الآيتين الأخيرتين اللتين ذكرناها وأشباههما بقية نوردها في محلها ان شاء الله .

* * *

نعود إلى ما كنا فيه : ومن مميزات الطائفة العصرية أنهم لا يعوّلون على كتب الحديث وما فيها من الروايات المتعلقة بمعجزات نبينا . ولذا جاء كتاب « حياة محمد » خلواً عن المعجزات الكونية وأقرّه عليه فضيلة الأستاذ المراغي والشيخ رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » . وللوصول إلى هذه الغاية يطعن من يطعن منهم في مكان كتب الحديث مطلقا من الثقة ، ويُعنى من يعنى بعبقرية سيدنا محمد بدل نبوته ، لكنهم متفقون في هذه المرحلة من الدس على الاعتراف بأهمية القرآن وسمو مكانه ، قائلين : إنه المعجزة الوحيدة .

وقولي لهؤلاء القائلين — وهم دعاة العبقرية — : إن القرآن إن كان معجزة ، وكان

أفضل وأعظم ما وصل إلينا من محمد صلى الله عليه وسلم فهو معجزة نبوته لا معجزة عبقريته ، لأن العبقرية لامعجزة لها ، وأن الذين لجأوا إليها أرادوا أن يتخلصوا من المعجزات التي تدور مع النبوات .

وأصل المسألة أن النبوة كالمعجزة في كونها مخالفة للعلم الحديث الذي سبق قول الأستاذ فريد أن دالت إليه الدولة في الأرض ، وفي كون الذين ينكرون المعجزات من الكتّاب ينكرون النبوات أيضا ، وإن كانوا اليوم أجرأ على المصارحة بإنكار المعجزات بالنسبة إلى إنكار النبوات . بل العلم الحديث الذي يؤمنون به والذي قذف بالأديان جملة إلى عالَم الأساطير ، يمنعهم من أن يؤمنوا بالله الذي لم يثبت عندهم وجوده إلى الآن ثبوتا علميا مبنيا على التجربة الحسية ، ولذا قال الأستاذ فرح أنطون منشئ مجلة « الجامعة » فيما مضى عند مناقشة الشيخ محمد عبده[1] :

« إن الدين هو الإيمان بخالق غير منظور ، وآخرة غير منظورة ، ومعجزة ووحي ونبوءة وبعث وحشر وسؤال وحساب وثواب وعذاب في الجنة والنار ، وكلها غير محسوسة ولا معقولة . ولهذا كان العقلاء من الفلاسفة ورجال الدين في كل ملة ينادون بإبعاد العقل من الدين » . وكان هـذا القول أيضاً من الأسباب التي دفعتني إلى تأليف هذا الكتاب .

أما الشيخ محمد عبده فلم يصل إلىّ رده على مناظره بما يقنع قراء ذلك الوقت ومَن بعدهم ، ولو كان أتى بجواب مقنع يشهد له بالغلبة على خصمه لـما اجترأ الأستاذ فريد

[١] والمناقشة منشورة في باب « الردود » من كتاب « فلسفة ابن رشد » للأستاذ منشئ المجلة المذكورة .

وجدى على أن يقول فيما كتبه ردًّا علىّ عنـد مناقشة مسألة المعجزات ، وذلك بعد المناقشة الجارية بين الشيخ المفتى والأستاذ المنشى بأكثر من عشرين سـنة : « إن الشرق الإسلامى لمـا رأى دينه ماثلا فى عالم الأساطير التى قُذفت فيه الأديان جملة بيد العلم الحديث الغربى ، لم ينبس بكلمة لأنه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولـكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقنا أنه مصير أخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية »[١] .

وأما محاولات الأستاذ فريد نفسه اليوم أن يتكلم الفينة بعد الفينة ضد العلم الذى قذف بالأديان جملة ـ وفيها دين الشرق الإسلامى ـ إلى عالم الأساطير ، والذى جعل له الأستاذ الدولة فى الأرض ، وذلك بعد أن تولى الوظيفة الأزهرية ، ومضى عليه زمان ظن أن الناس نسوا ما كتبه أولا من أن الأمر ـ أى أمر دفاع الشرق الإسـلامى عن دينه ـ أكبر من أن يحاوله ، وكان الأستاذ قد أقفل بهذا الـكلام الطريق على نفسه وعلى غيره ؟.. فليس من الأمر فى كبير ولا صغير كما يظهر من مطالعة كتابنا ونحن إن تغاضينا هنا عن صعود الخطر من دولة العلم ـ الذى ركع الأستاذ لسلطانه أولا ثم لم يستطع أن يرفع رأسه ـ إلى مسألة وجود الله ، اكتفاء بمـا كتبنا عنها فى الباب الأول ولم نعترف فيما كتبناه من أول الأمر بأى سلطان من أى دولة ... فنحن إن تغاضينا عن صعود الخطر إلى مسألة وجود الله كفتنا الفتنة الناجمة فى مسألتى إنكار المعجزة وإقامة العبقرية مقام النبوة ، شرًّا حيث تسبب هذه الفتنة انهيار عقيدة

---

[١] ففى قول الأستاذ فريد وجدى هذا أعظم دليل على أن الشيخ محمد عبده لم يكسب القضية لحساب الإسلام ، حتى إن الأستاذ لايعد دفاعه عنه أمام طعن خصمه فى الأديان عامة بلسان العلم الحديث المبنى على التجربة الحسية ، كلمة منبوسة . ومن هذا جعلت كتابى هذا استئنافا لتلك المناقشة الجارية فيما مضى بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون ، فإن لم يكن الأستاذ فرح أنطون موجوداً اليوم ، فالأستاذ فريد وجدى وغيره من ورثة عقليته أحياء يرزقون .

كون القرآن كلام الله وأحاديث سيدنا محمد أحاديث رسول الله ، وبلاغه كل البلاغة أن المصريين من علماء الدين مثل الشيخ شلتوت وكيل كلية الشريعة وعضو هيأة كبار العلماء فضلا عن الدكاترة والأساتذة من الكتّاب مثل الدكتور هيكل باشا مؤلف كتاب « حياة محمد » ، نراهم يستسهلون على أنفسهم المخالفة لمرويات كتب الحديث فيما لايوافق أهواءهم طعنا فى ثبوت تلك الروايات عن رسول الله بحجة أن أهل النقد من علماء الحديث وجدوا فيها أحاديث موضوعة ، فيرتقى المصريون من غير علماء الحديث بهذه المرتبة من النقد الخاص لبعض الأحاديث ، إلى الطعن فى جملتها باحتمال الكذب فى الاسناد حتى أصبحت السنة من بين الأدلة الشرعية ملغاة عندهم ساقطة عن حيز الاعتداد والاعتماد . ولم يبالوا باحتمال الصدق القائم الغالب فى غير ماتكلم فيه علماء الحديث الاخصائيون بالتعليل، بل فيما صرحوا فيه بالتصحيح أيضاً .

وأصل منشأ الجرأة على التوسع فى تكذيب الرواة - إلى حد أن لايبالى بما يتضمن هذا التوسع من تكذيب الأحاديث الصحيحة أيضا الثابتة عند علماء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصعدَ الأمر من تكذيب الرواة إلى تكذيب الرسول - كون النبوة عندهم عبقرية لارسالة حقيقة من الله ، فيكون سهلا عندهم على الرواة القدماء أن يعزوا إليه ما لم يقله ، ويكون سهلا على المصريين أن لا يصدقوه فيما قاله أيضا .

هذاحال الحديث وطريق رفضه، ثم يجيء دور القرآن ، ويكون طريقهم إلى رفضه استعمال الجرأة أيضا إن لم يكن فى تكذيب رواته ففى تأويل معناه ، لاعبين بعقول القراء الغافلين ، وغيرَ مبالين بما يتعدون فى تأويلاتهم عن حدود مراد القرآن - فلو نظروا إليه نظرهم إلى كلام الله لالتزموا بعض التحوط وخشوا بعض الخشية أن يكونوا مخطئين فى التأويل ، لكن مبدأ التحول المصرى من النبوة إلى العبقرية يحل

جميع هذه المشكلات ويفتح أمام المؤول أوسع باب . مثلا : إن الآيات الدالة على رفع عيسى عليه السلام كنا ولا نزال نفهم منها رفعه حياً كما فهمه جميع السلف من المفسرين ، حتى جاء الشيخ شلتوت فادعى أن المراد رفع روحه ، فهل هو الذى أصاب فى تفسيره حين كان الجميع متفقين على الخطأ ؟ كلا ، بل إنه هو المخطىء كما يأتى بيانه فى محله ، لكن عقيدة إنكار المعجزة ومبدأ التحول المصرى من النبوة إلى العبقرية يصغّران أمثال هذه الخطايا فى عيون مقترفيها .

وأجرأ نماذج التأويل فى القرآن بعد ماسبق للأستاذ فريد وجدى من رد آيات المعجزات وآيات البعث بعد الموت التى تملأ كتاب الله إلى المتشابهات غير المفهومة ، ما ادعاه الشيخ شلتوت منكرا لوجود الشيطان ـ كما صوره القرآن شخصا يرى ويسمع ، ويقول ويجادل ، ويتكبر فيؤمر بالسجدة لآدم ويعصى الله ، ويعِد ويمنّى ، وينسل ويعيش إلى يوم الوقت المعلوم . ثم يعذَّب فى نار جهنم مع الذين اتبعوه ـ من أن القرآن جارى عقيدة العرب الجاهليين فى تصوير الشيطان . وهذا قلب دلالة القرآن ومرتبته مع مرتبة العرب فى المتبوعية والتابعية رأساً على عقب . والواقع أن الشيخ نفسه حريص على مجاراة الكتّاب المصريين فى إنكار الأمور الغيبية مثل المعجزات وغيرها بدلا من مجارات القرآن عقيدة العرب .

ويقرب منه فى البعد عن مراد القرآن تأويل انفلاق البحر لموسى ومن معه حتى اجتازوه وغرِقَ فرعون وجنودُه ، بالجزر والمد البحريين ، وقد عزى هذا التأويل إلى الشيخ محمد عبده الذى يفهم أن بدعة إنكار المعجزات فى صورة تأويلها مأثورة للكتّاب المصريين من زمانه ، بل رد النبوة إلى العبقرية ـ وقد راجت (موضته) أخيرا بين الكتّاب ـ هو الذى عبّد طريقه بمصر حيث عرّف النبى والرسول فى تعليقاته على شرح الجلال الدوانى للعقائد العضدية ، بغير ماهو معروف عند علماء الإسلام فى تعريفهما وسيأتى الكلام منا على كل من المسألتين إن شاء الله .

ومثله تفسير الشيخ رشيد رضا صاحب « مجلة المنار » قوله تعالى «انشق القمر» بقوله : « ظهر الحق » وتفسير الشيخ شلتوت لآيات رفع المسيح عليه السلام برفع روحه ، وقوله فى نزوله الممدود من أشراط الساعة والمشار إليه فى آيتين من القرآن: « انه لامحل له بعد سقوط رفعه حياً »

والشيخان لايعتدان بعد الآيات بالأحاديث الواردة فيما أنكراه مهما كثرت ، حتى إن أحاديث نزول عيسى تبلغ سبعين حديثا على مانقله صديقنا العلامة الشيخ زاهد فى رده على الشيخ شلتوت من كتاب «التصريح بما تواتر فى نزول المسيح» للمحدث الكشميرى لكن المنكر لايلتفت إليها بحجة أنها أخبار آحاد .

سبعون حديثا مرويا عن الرسول صلى الله عليه وسلم بألسنة رواة مختلفين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، لابد أن تكون لها قيمتها التى لا يكفى لإسقاطها التعلل بأنها أخبار آحاد ، فلو أتى بمثلها سنداً لصحة خبر من الأخبار الواردة فى كتب التاريخ لكفى فى إفادة اليقين وزاد على الكفاية ، فإن كفى هناك لكونها رواية تاريخية ، ولم يكف هنا لكونه رواية المسلمين عن نبيهم ، فما أسوأ هذه السمعة سمعة المؤلفين المسلمين عند المؤلفين المسلمين؟! وبئست التهمة شبهة الكذب[1]

[١] ومنشأ الخطأ من الذين يشكون فى صحة وقوع المعجزات الظاهرة على أيدى الأنبياء ؛ حين لايشكون فى صحة الوقائع التاريخية المشهورة ، أنهم يخلطون مسألة وقوع المعجزات فى أذهانهم بمسألة إمكانها الذى يحتاجون فيه إلى دليل آخر غير دليل الوقوع. وما داموا لا يعرفون ذلك الدليل القائم على إمكان المعجزات الذى يخلطونه بمسألة وقوعها ، فلابد أن تكون أدلة الوقوع التاريخية متأثرة عندهم من دليل الإمكان الذى لايعلكونه فى مسألة المعجزات، بخلاف الوقائع التاريخية التى تتفق مع سنة الكون وتعد عادية بالنسبة إلى المعجزات ، فيصدقونها من غير حاجة لهم فيها إلى معرفة دليل الإمكان .

والآن وبعد أن تولى كتابنا هذا إثبات إمكان المعجزات وتعريفه المحتاجين إلى معرفة دليله فلا محل للشك فى صحة المعجزات ولا فرق فى دليل الوقوع بينها وبين صحاح واقعات التاريخ =

نعم إن المؤلفين المسلمين مهما عظم شأنهم فلا ثقة بأمانة السلف منهم عند الخلف المصريين ، حتى إن الأحاديث المروية عن رسول الله لم يصح منها على تقدير مؤلف « حياة محمد » إلا واحد فى كل مائة وخمسين حديثا كما سيجىء ذلك أيضا . فعلى هذا لا يوزن للأحاديث السبعين الواردة فى نزول عيسى إلا أقل من نصف قيمة حديث واحد صحيح .

ثم إن رواة تلك الأحاديث لا مصلحة لهم فى اختلاقها لأن رفع عيسى عليه السلام ونزوله مما لا يعنى الرواة المسلمين الذين اتهمهم مؤلف «حياة محمد» فى الأحاديث الدالة على معجزات نبيهم الكونية ، بالمحاباة الدينية . فلو كانوا اختلقوا هذه الأحاديث السبعين لزم أن يكون ذلك منهم تأييداً لآيات القرآن التى فهموا منها رفع عيسى ونزوله مع عدم المصلحة فى هذا الفهم أيضا . أما احتمال كون علماء الإسلام الماضين غالطين جميعا فى فهم آيات القرآن بشأن عيسى ، وكاذبين فى رواية الأحاديث تأييدا لهذا الغلط فهو غاية فى سوء الظن بهم من ناحيتى الدراية والرواية ناشئة من ضعف صاحب الظن فى هذه النواحى ، وإذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه . وسيجىء منا مزيد شرح لكون الغلط فى فهم الشيخ شلتوت لآيات الرفع والنزول .

الحاصل أن المصريين من علماء الدين والدنيا المتعمدين لإنكار الأمور الغيبية مثل المعجزات وغيرها ، ذهبوا فى تفسير آيات القرآن وتقويم أحاديث نبينا مذهبا يكاد يكون ملعبا ، فلا ينفعهم فى تصحيح باطلهم قول الله ولا قول رسول الله ، على أن الله ورسوله أيضا من الأمور الغيبية . فإذا لم تقم آيات البعث بعد الموت فى كتاب الله حجة على وقوعه عند الأستاذ فريد وجدى ، وآيات الشيطان على وجوده عند الشيخ شلتوت كشخص حى عاقل ، ولا السبعون حديثا على نزول عيسى عليه.

= العادية غير المحتاجة إلى دليل الإمكان ، بل دليل الوقوع فى المعجزات أقوى منه فى العاديات لكون روايات الناس فى المعجزات مدعمة بشهادة الكتب المقدسة .

السلام فى آخر الزمان فأى قول الله والرسول ينفع فى إثبات أى مطلب أو قطع أى نزاع؟[١] .

وأصل المسألة أن للمتعلمين المصريين من الكتّاب عقيدة راسخة أرسخها فى أذهانهم العلمُ الحديث المادى الذى يؤمنون به فوق إيمانهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وهى إنكار الأمور الغيبية مثل المعجزات والنبوة بمعناها المعروف عند المليين[٢] فلو لم يكن فيهم هذه العقيدة ونظروا إلى قول الله ورسوله نظر المحايد غير المقيد بعقيدة مانعة عن قبول ما يخالفها لأمكننا وقفهم فى حدود قول الله ورسوله[٣] .

فواجب علماء الدين اليوم غير المتفقين مع الكتّاب المذكورين مكافحةُ عقيدتهم المانعة عن الإيمان بالأمور الغيبية مكافحة علمية تُبين ما فى العلم الذى بنوا عقيدتهم عليه من الجهل . وفى زماننا طائفة من علماء الدين لم ير الدين خيراً منهم تهيّبوا مكافحة تلك العقيدة المانعة عن تصديق الأمور الغيبية مثل المعجزة والنبوة وغيرها ، ولم يتهيبوا مكافحة نصوص الكتاب والسنة بتكذيب الثانية وتأويل الأولى بما يحرف الكلم عن مواضعه . فأردت أن أقوم فى هذا الكتاب بهذا الواجب مستعيناً بتوفيق الله تعالى فوضعت الباب الأول لإثبات وجود الله الذى هو فى رأس الأمور الغيبية ، ووضعت هذا الباب الثالث لإثبات النبوة والمعجزة والنشأة الآخرة .

---

[١] ومن طريف التلق أن المعتدين على الآيات والأحاديث رفضا أو تأويلا مرهقا ، لا يتحملون حملات النقد من المدافعين عن حقوق كتاب الله وسنة رسوله ويعدونها اعتداء عليهم ، إذا وجدوا فيها شيئا من الشدة التى ليست إلا وطأة الحق . وظنى أن كف أصحاب « الثقافة » عن نشر مقالتى فى الرد على مقالة الشيخ شلتوت المنتشرة فى « الرسالة » كان سببه هذا التلق .

[٢] وهم متفقون فى هذه العقلية العليلة مع الأستاذ فرح أنطون الذى ناظره الشيخ محمد عبده ولم يتغلب عليه .

[٣] لكنهم لما اقتنعوا بعدم وجود الأمور الغيبية واستحالة المعجزات فما رأوه منها فى كتب الحديث طعنوا فى صحته ، وما رأوه فى القرآن أولوه .

موقف العقل والعلم[1]

من رسل الله والآيات الظاهرة على أيديهم وموقفهما من البعث بعد الموت

إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ـ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد .

هذه الموضوعات أعنى النبوة والمعجزة وكذا النشأة الأخرى تذكر فى كتب أصول الدين بعنوان : « السمعيات » بناء على أنها مستندة إلى السماع من الأنبياء المبعوثين من الله المؤيدين بالمعجزات ، ومعجزاتهم منقولة بأخبار متواترة أو مشهورة .

---

[١] دفعنى إلى كتابة هذا الباب أن الدكتور هيكل باشا الذى ألف كتاباً فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم وأخلاه عن المعجزات المذكورة فى كتب السيرة والحديث ، رأيته يسعى فى مقدمة الطبعة الثانية لتبرير ما فعله ، بإنكار ثبوت تلك المعجزات التى سماها المعجزات الكونية، من حيث الرواية وإنكار وقوع مايخالف العقل وسنة الكون ، من حيث الدراية .

وقد علم القارئ من مقدمة كتابى هذا كيف ادعى الأستاذ فريد وجدى بك استحالة المعجزات والبعث بعد الموت ، حين جرى بينى وبينه النقاش بهذا الصدد على صفحات الأهرام .. وعلم أيضاً قول الأستاذ فرح أنطون منشئ مجلة « الجامعة » ومناظر الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية : « بأن جميع الأديان لا تتفق مع العقل لأن الدين هو الإيمان بخالق غير منظور وآخرة غير منظورة ووحى ونبوءة ومعجزة وبعث وحشر وثواب وعقاب فى الجنة والنار وكلها غير محسوسة ولا معقولة » .

فتبين أن مرض العقلية للأساتذة الثلاثة كلهم من نوع واحد مستول على المثقفين العصريين بمصر ، وقد عالجنا منه فى البابين السابقين بحمد الله مايتعلق بوجود الله ونعالج فى هذا الباب العقليات المريضة المتعلقة بالمعجزات والنبوة والنشأة الآخرة إن شاء الله ، ومنه العون والهداية .

فمسألة وجود الأنبياء ومعجزاتهم ، ووقوع البعث بعد الموت تنبنى على الأدلة السمعية لا على الأدلة العقلية التى يدركها الإنسان ولو لم يسمعها من الأنبياء ، كوجود الله . وليس وجود ماثبت بالسمع كوجود ماثبت بالعقل بمعنى أنه لايترتب على عدم وجود السمعيات مثل الأنبياء ، محال عقلى كما يترتب على عدم وجود الله ، إلا أن يكون ذلك محالا بالواسطة أو بالأوفق لاصطلاح المتكلمين محالا بالغير، كلزوم الكذب فى إخبارات الله تعالى . وبهذه الطريقة فقط يكون ماثبت بالنقل ضروريا ، يعنى أن وجود الله يُثبَت أولا بدليل عقلى ضرورى ، ثم يُثبَت إمكان السمعيات مثل النبوة والمعجزة والآخرة بدليل عقلى أيضاً مبنى على وجود الله ، ثم يُثبَت وقوعها بإخبارات الأنبياء المؤيَّدين بالمعجزات عن الله الذى لايتصور منه الكذب كما قال خضر بك من علماء الدولة العثمانية فى زمن السلطان محمد الفاتح ، وهو أستاذ الخيالى صاحب التعليقات الدقيقة القيمة على شرح العلامة التفتازانى للعقائد النسفية — فى منظومته النونية المعدودة من المتون الكلامية :

وواقع كل مانص الصدوق به   من ممكن كصراط أو كميزان

ولهذا الفرق بين الوضعين سيرانى القارئ لا أقيم على وجود الأنبياء ومعجزاتهم والنشأة الآخرة دليلا عقليا يساوى فى القوة دليل وجود الله ، ولا أطيل الكلام فى هذا الباب كما أطلت فى الباب الأول إلا نقاش منكرى المعجزات الكونية مطلقا أو لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وحسبك فارقا بين المسألتين أن النبى ليس بواجب الوجود . ولهذا أيضا ليس لمنكرى هذه المسائل أن يطالبونا بإقامة الدليل العقلى عليها سوى إمكانها ، على أن لنا أن نقيم فيما سيأتى دليلا عقليا يكاد يفيد اليقين العقلى بلزوم وجود الأنبياء زيادة على دلالة معجزاتهم عليهم ، وكذا النشأة الآخرة فى وجوبها نقلا وفى إمكانها عقلا .

ومع أن النبوة لا يقوم عليها دليل يفيد الوجوب والضرورة المنطقية فهى واقعة

تستند إلى التجربة التي يعتبرها المصريون الدليل العلمي ، غير أن النبوة لا يجربها إلا النبي نفسه ، وغير النبي يجربها بمعجزته ، وتقوم تجربة معجزته مقام تجربة نبوته ، ومن هنا يعلم أن المعجزة لا تنفك عن النبوة ، ويعلم أيضا تفوّق الدليل العقلي على الدليل التجربي حيث يثبت بالأول وجود الله الواجب الوجود ، وبالثاني وجود النبي غير الواجب الوجود . وهكذا يكون إثبات كل مالا يجب وجوده ، بالأدلة التجربية التي تفيد ما دون الوجوب أعني الوجود المادي الوقوعي ، ويعلم أيضا أن تعبير المصريين عن الفلسفة المادية « بالفلسفة الواقعية » تفضيلا لها على الفلسفة الميتافيزيقية غير كافل للفضل المطلوب ، لأن هناك مرتبة أعلى من مرتبة الوقوع وهو الوجوب أي ضرورة الوقوع .

أما إثبات إمكان النبوة والمعجزة والنشأة الثانية فمن أسهل الأمور بعد ثبوت وجود الله القادر على كل شيء . ومن هنا قال « شيله ر ماخر » و « ريتجه ل » : « إن الإيمان بالمعجزات لا ينفك عن الإيمان بالله » ومعناه أن من يؤمن بالله فلا بد أن يؤمن بالمعجزات أيضا . وقال « استوارت ميل » عند انتقاده لإنكار « هيوم » المعجزات : «إن من لا يؤمن بوجود فوق الطبيعة ولا بتدخله في شؤون العالم لا يقبل فعل إنسان خارق للمادة على أنه معجزة ويؤوله مطلقا بما يخرجه عن كونه معجزة ، لكن إذا أومن بالله فلا يكون تأثيره في العالم وسلطته عليه فرضية محضة بل احتمالا جديا . والحكم بعدم تدخل الله في شؤون العالم إنما يمكن بمعرفة السنة الإلهية في الماضي ، أو بمعرفة ما يلزم منطقيا أن تكون السنة الإلهية كذلك » .

نعم معنى عموم قدرته تعالى على كل شيء أنه قادر على كل شيء ممكنٍ إمكانا عقليا . لكن نطاق هذا الإمكان أوسع بكثير مما يظنه منكرو المعجزات ، فيدخل في الممكن كل ما ليس بمحال عقلي ولا مستلزم للمحال كجمع النقيضين ورفعهما والدور والتسلسل . ومن العجب أن منكري المعجزات فقط ، أو منكري المعجزات والنبوة

معا ينكرونها على ظن أنها غير ممكنة ، وهم من غفلتهم يقيسون الإمكان والاستحالة بمقياس قدرة الإنسان ، وينسون قدرة الله التى ليس ببعيد عنها أن تهدم السماوات والأرض وتنشئها من جديد . ونحن لا نتكلم فى هذا الكتاب إلا مع المعترفين بوجود الله ، فارضين أننا قد فرغنا عن إثباته نهائيا فى الباب الأول الذى أوشك من طوله أن يكون كل الكتاب ، وقطعنا دابر المنكرين .

ولا شك أن الله الذى فطر السماوات والأرض لا يصعب عليه أن يرسل إلى بنى آدم الذين هو خالقهم أيضا رسولا منهم فيوحى إليه ما يشاء ، وأن يظهر على يديه خارقة من خوارق العادات كخلق ثعبان من العصا ، وهو خالق العصا ، والثعبان وجميع العالم من عدم ، من غير أن يُعدّ خلقه أو خلقهما معجزة ولا يصادفَ منكِرا . وما أبدع ما قال « ويليام استانلى جون » من كبار المنطقيين الإنكليز : « القدرة التى خلقت العالم لا تعجز عن حذف شىء منه أو إضافة شىء إليه ، ومن السهل أن يقال عنه إنه غير متصور عند العقل ، لكن الذى يقال عنه إنه غير متصور ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم » يعنى لو لم يكن هذا العالم موجودا وقيل لمن ينكر المعجزات ولا يتصور وجودها : سيوجد عالم كذا ، كان جوابه إن هذا غير متصور وكان نفى تصوره أشد من نفى تصور المعجزات .

بل إذا نظرنا فى خلق العقل الذى هو أكبر معجزة وأول رسول من الله إلى عباده ، ثم إذا نظرنا فى أن يبعث رسولا إليهم ويجعل على يديه علامة لرسالته ليعلموا بالرسول الأول العام خالقهم ، ويتعلموا من الرسول الخاص تفاصيل ما يأمرهم به الخالق وما ينهاهم عنه ، كما يبعث الملك عامله إلى رعيته بمرسوم من عنده ... إذا نظرنا ، فإن إرسال الرسل إلى الناس وجعلهم ممتازين ببعض المعجزات التى هى أوسمة رسالتهم ،

أسهل من خلق معجزة العقل فى الإنسان وجعل نوعه ممتازا بها [1] لأن الأول من هذين الأمرين فى متناول القدرة البشرية أيضا ، فيستطيع الملك أن يرسل رسولا إلى شعبه ويخصه بمرسوم منه لا يوجد فى يد غيره ، ولا يستطيع أن يمنح رسوله العقل ، وكوننا نرى الأمر بالعكس فنظن ما هو أكثر وقوعا أسهلَ لكثرته ، وما هو أقل وقوعا أصعبَ لقلته ، لا يغير الحقيقة المعقولة عند قطع النظر عن القلة والكثرة .

وقولنا هذا أسهل وهذا أصعب مبنى على تقدير عقولنا فى المقارنة بين الأمور من حيث السهولة والصعوبة ، وإلا فجميع الممكنات سهلة متساوية الإقدام فى السهولة بالنسبة إلى قدرة الله ، والممكنات لا تحد ولا تنتهى إلا فى المحال الذى يقدّره العقل

---

[١] ولهذا قال « شاتوبريان » : « الإنسان حيوان ميتافيزيقى » لامتيازه بالعقل فالإنسان نفسه يكفينا مثالا للمعجزة .

ولا يجوز أن يقال انتهاز الفرصة من قولنا بأن العقل أكبر معجزة : إن رسول العقل يغنى عن إرسال الرسل كما قال المعرى :

أيها الغر إن خصصت بعقل　　فاسألنه فكل عقل نبى

لأنا أجبنا فى ضمن أقوالنا عن هذا الاعتراض ، تخصصنا العقل الذى هو أكبر معجزة ، لأكبر واجب وهو إثبات وجود الله ، ولا نهمله بعد هذا أيضاً فنحتكم إليه فى جميع الأمور المهمة ، وقد جعلناه فى هذا الكتاب صاحب الحكم الوحيد فى تمييز الممكن من المستحيل حتى بنينا عليه أيضاً إمكان بعث الأنبياء وإمكان إظهار الخوارق على أيديهم من الله القادر على جميع الممكنات . ومع كل هذا فقد أشرنا آنفا إلى أن الناس لايستغنون بعقولهم عن عباد الله الذين اصطفاهم لدعوة الخلق إلى صراطه المستقيم ، كما أن كون الرعية من ذوى العقول لايغنيهم من أن يرسل إليهم الملك عاملا من عنده ينزلون إلى قوله ويعتبرونه قول الملك .

ثم إن معجزة العقل على عظم قدره بل عظم إعجازه لا تعد معجزة لكونه نعمة عامة فى سنة الله لجميع بنى آدم ، فهو عادة من هـذه الناحية لا خارق العادة ، مع كون المعجزة فى عرف العلماء من الخوارق ، ونحن إنما ذكرنا العقل ولفتنا إلى أنه أهم من المعجزات الخارقة وإن لم يكن معدوداً منها ، تقريباً للخوارق إلى الأذهان .

المحض ويفصل بينه وبين الممكن بميزانه ، وليس لغير هذا الميزان حق البتّ في حدود الإمكان والاستحالة . فلا يقال هذا ممكن وهذا محال بالنظر إلى تجربة الوقوعات . وهذا على الرغم من أن الغافلين الذين ينكرون النبوات والمعجزات يعتمدون في إنكارهم على تجربة الوقوعات الحاضرة لكونهم لايقدرون الله وعظمة قدرته كما قال تعالى «وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » وقال : « قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ولكونهم في عصر رواج التجربة وكساد العقل المحض ، يرون السماوات والأرض مخلوقة فيعترفون بإمكانها غير مستبعدين ، ولا يرون في عصرهم نبيا ولا معجزته التي ليست بأعظم من السماوات والأرض ، فيقولون إنها غير ممكنة ، ويقولون إنها غير مؤتلفة مع نظام العالم .

وبعض الجهال يقولون إكباراً لمكتشفات العلماء الغربيين في العصر الأخير :

« معجزات العلم قد أوفت على معجزات الدين في ماضي القرون »

فيستصغرون معجزات الأنبياء عليهم السلام التي أنكرها منكروها استعظاما لحصولها بإذن الله مباشرة من غير توسل إليها بالوسائل العلمية غير الخارجة عن الوسائل الطبيعية ، وفي هذا ميزة المعجزة التي يصغر بجانب أصغرها أعظم المكتشفات العلمية. ومن هذا يقول المنكرون ، باستحالتها ويرون فيها خرق نظام العالم ، حتى إن بعض الجهال من هذه الطائفة المنكرة يحتاج إلى تأويلها وتنزيلها إلى ما دون الخوارق ، مع أن المعجزة لا بد أن تكون خارقة لنظام العالم وإلا لا تكون معجزة بمعناها الحقيقي .

فنقول للمنكرين وهم يدّعون أنهم يؤمنون بالله : أليس واضع ذلك النظام هو الله ؟ فكيف تقيدون الله بالنظام الذي هو واضعه بقدرته وإرادته واختياره ؟ فهل يكون القادر المختار عاجزا عن تغيير ما وضع ؟ أما أنه لم يغيره فيما رأيناه وهو سنته التي لن تجد عنها تحويلا فذلك بالنسبة إلينا ، ومعناه أنا لا نقدر على تبديل سنة الكون ، فلا

تكون النار إلا حارة محرقة لكل ما من شأنه الاحتراق بموجب نظام العالم ومصلحتنا في استمرار نظامه أنا نعتمد عليه مطلقا في أمورنا وحاجاتنا وتحصل لنا منه قواعد مضبوطة ، ولكن نظام النار هذا مثلا الذي نحن مقيدون به - لا خالق النار وواضع نظامها - ليس بمانع أن يجعلها الله بردا وسلاما على نبيه وخليله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، تأييدا لرسالته من عنده .

فنظام العالم العامُّ الذي اتخذناه في الباب الأول من هذا الكتاب دليلا على وجود الله تعالى الذي هو واضع النظام ، يكون تغييره الذي نعبر عنه بالمعجزة - والذي هو أيضا نظام من الله ، لكنه نظام خاص استثنائي - دليلا على وجود أنبيائه . ومن هذا يمكننا أن نعد تأييد الأنبياء بالمعجزات من سنن الله أيضا .

والنظام الأول العامُّ هو الذي يسمونه القوانين الطبيعية والذي يزعم منكرو المعجزات أنه لا يمكن تغييرها ، لكن الحق أنها قوانين موضوعة غير ناشئة من طبيعة الأشياء حتى لا يمكنَ تغييرها . ومعنى كونها قوانين أنها قضايا كلية مطردة الصدق إطراداً عاديا غير بالغ مبلغ الضرورة والوجوب ، فلا يكون خلافه محالا عقليا ، لأن تلك القضايا مبنية على التجربة ، والتجربة مهما اطردت نتائجها وتبجح العلم الحديث وهواته بالاستناد إليها فلا تكفي في استناد القضية الضرورية إليها ، لأنها إنما تدل على العادة لا على الضرورة المنطقية . وقد وفّينا حق الكلام في مبلغ التجربة من قوة الدلالة ، وفي مقارنتها مع الدليل العقلي في أمكنة عدة من الباب الأول من هذا الكتاب . فإن كانت الضرورة شرطا في القانون ولم يكف اطراد الصدق عاديا فليس هناك شيء يصح أن يقال « قوانين طبيعية » ولذا أنكر الفيلسوف « هيوم » العلم واجتهد « كانت » في أن يجعل قوانين العلم أي العلم الحديث المبني على التجربة ، ضرورية فلم ينجح . وقد سبق حل هذه المسائل أيضا في هذا الكتاب . قال « أميل سسه » : « إن العلم مع كونه ترقى كثيرا في مطالعة الطبيعة لم يثبت في وقت من الأوقات أن

القوانين الطبيعية قوانين ضرورية هندسية » يعنى أنها ليست مستحيلة التغير .

وقال « ليبنتز » : « ليست القوانين الطبيعية عندية محضة كما ادعى « بايل » ولا ضرورية بالضرورة الهندسية » وكان يقول « ما يدار بالماكينة حسن لكنه غير ضرورى » وقال الرياضى الشهير « هانرى بووانكاريه » فى كتابه «الفرضية والعلم»: « القانون التجربى عرضة دائما للتصحيح فهو لايزال يُتوقع تبديله بقانون أقوى منه » وقال أيضا « لو كانت الهندسة علما تجريبيا كانت علما تخمينيا ووقتيا » .

ومما يجدر بالذكر هنا أن مبنى علم الهندسة على أن كل ما ليس بمتناقض فهو ممكن . وقال « هوكسله ى » من مشاهير علماء الإنجليز : « أنا لا أعلم محالا غير التناقض ، ولهذا يوجد محال منطق ولا يوجد محال طبيعى » وفى معنى هذا كنت قلت فيما سبق : يوجد محال عقلى ولا يوجد محال تجربى .

فلا شبهة فى إمكان المعجزات ، والذين ادعوا أنها محالات عقلية ، كالأستاذ فريد وجدى عندجريان المناظرة بيننا فى مقالات كتبناها متقابلات ونشرتها جريدة الأهرام قبل بضع عشرة سنين، لم يميزوا ماهو غير واقع بالنظر إلى تجربتنا[1] عماهو محال، فى حين أن بينهما فرقا عظيما ، لأن المحال أخص مما ليس بواقع ، فهو يزيد على غير الواقع بعدم إمكان الوقوع ، وفى حين أن التجربة الدالة على مجرد الوقوع أو اللاوقوع لا تصعد إلى مرتبة الحكم بضرورة الواقع باستحالة غير الواقع ، إذ الحكم بالضرورة أو الاستحالة أو الإمكان من اختصاص العقل ، وليس من شأن التجربة . فالإمكان أوسع نطاقا من الوقوع بكثير ، والوقوع ضيِّق ، وضرورة الوقوع أضيق ، كما أن الاستحالة

---

[١] على أن التجارب الماضية من مختلف الأمم فى أزمنة الأنبياء تشهد بوقوع المعجزات . فوجود الأنبياء المعروفين صلوات الله وسلامه عليهم وشهود الناس بمعجزاتهم ثابتان، على أن لايكون ثبوتهما دون ثبوت أى رجل من رجال التاريخ ووقائعه المشاهير .

التى هي بمعنى عدم الإمكان أضيق من عدم الوقوع ، فههنا خمس مراتب : الإمكان ، والوقوع ، وضرورة الوقوع ، وعدم الوقوع ، واستحالة الوقوع ، فتحكم التجربة فى الوقوع واللاوقوع فقط ، حتى ان حكمها فى اللاوقوع لا يكون كليا بتمام معنى الـكلمة[1] أما الثلاثة الباقية فالحاكم فيها العقل . وقد يكون الممكن أمرا عظيما تقصر التجربة عن الوصول إليه ، فيظنه قصير العقل مستحيلا أو يكون الواقع كثير الأمثال جداً فيظنه ضروريا ، مثلا يرى النار تحرق دائما ما من شأنه الاحتراق ، فيحكم بأن إحراقها ضرورى لا يمكن انفكاكه عنها ، مع أن الضرورة أو الاستحالة تندر جدا ولا تختلف مع عظمة الشىء أو تفاهته ، مثلا إن جعل العصا حية ، أو إبراء الأكمه والأبرص ، أوشق القمر من الممكنات بالنسبة إلى قدرة الله ، بل يمكنها إيجاد الـكون العظيم فى آن واحد ، وإعدامه بعد وجوده فى الآن الثانى ، ولا يمكنها إيجاد بعوضة وإعدامها معاً فى آن واحد ، أو جعلها تحرك أجنحتها ولا تحركها فى آن واحد ، لأن فيه جمعا بين النقيضين ، وهو محال لا تتعلق به حتى قدرة الله .

فإذن يكون منشأ إنكار المعجزات واستبعاد وقوعها إن لم تكن عقيدة المنكر المستبعِد فى نظام العالم أنه من طبيعة الأشياء لا يقبل الانفكاك عنها وليس بجعلٍ اختيارى من الله ، حماقةً محضة ، إذ لابد إذا كان الله جاعل نظام العالم وكان مختارا فى جعله ، أن يقدر على تغييره متى شاء ذلك . فالله تعالى فى عقيدة المؤمنين إذا شاء يسلب

---

[١] ومن هنا لا يرى « استوارت ميل » الوجوب والضرورة فى أى مسألة تثبت بالتجربة مهما كثر عدد التجارب الواقعة فى جميع أزمنة الماضى ، فهى ليست بشىء إزاء عدد الحالات غير المتناهية التى يحتفظ بهـا المستقبل احتياطا . والقول بأنه لا سبب داعيا على أن لا تكون حالات المستقبل طبق الماضى مؤيدة بالتجارب السابقة ، خروج عن مبدأ التجربة وإقامة مبدأ آخر مكانها .

الأشياء ماجرت سنته فيها ، ويكون هذا السلب خرقا منه للعادة لاخرقا للعقل حتى يكون محالا ، فكما تكون إماتة الأحياء من القتلة بإذن الله يكون إحياء الموتى من أنبياء الله أيضا بإذنه ، ولا فرق بين الحالين إلا بكثرة وقوع الأول وقلة وقوع الثانى مع تساويهما فى الإمكان . وكذا الكلام فى إحراق النار ماتحرقه أنه كما يكون بإذن الله يكون كف النار عن الإحراق بأمر الله ، ولا فرق بين الحالين بالنسبة إلى قدرة الله[1] .

بل التحقيق أنه إذا وقع الإحراق فليس ذلك من النار ، إذ الفاعل الحقيقى فى كل شئ هو الله وليس فى الكون مؤثر غيره ، فمن عزا فعل الإحراق إلى النار والإطفاء إلى الماء وقال إن كلا منهما فاعل له فعل خاص به ثم ادعى بملء فيه أنه ثابت بتجربة ومعاينة كل أحد فى كل زمان ومكان ، فقد وهم لأن الثابت بالتجارب والمشاهدات إنما هو حصول الإحراق والاحتراق عند مماسة النار ومقارنتها ، لا أن فاعل فعل الإحراق ومؤثر هذا الأثر أعنى الإحراق هو النار . ولا يلزم من اطراد الأثر ودورانه مع النار أن تكون هى علته الفاعلية لأن العلة أمر لايرى ولا تتعلق به المعاينة والمشاهدة حتى يصح تعيين العلة على أنها النار ، وحتى يدعى أن ذلك مجرب مشهود ! ومن هنا يتبين أن كثيرا من الأمور التى يظنها الظانون أنها ثابتة بالتجربة والمعاينة ، ليس كما يظنون، فيجب على صاحب النظر الدقيق فى المجربات أن يحدد مدلول التجربة تحديدا دقيقا ولا يتعدى حدودها .

---

[١] ولذا قال استوارت ميل: « إن الله الذى أوجد سلسلة الأسباب والعلل قادر على تعطيل عمل هذه السلسلة ، فلا تكون المعجزة خارقة للعادة بهذا الاعتبار ولا يختل قانون السببية ، فسبب المعجزة إرادة الله » ومراده من عدم كون المعجزة خارقة أنها غير مخلة بقانون السببية وهو الناحية المهمة للمسألة ، لوجود سببها الذى هو إرادة الله ، وإلا فالمعجزة تخرق العادة بتعطيل عمل سلسلة الأسباب .

وما أحسن ماقال الفيلسوف «مالبرانش» كما فى « مطالب ومذاهب » فى مبحث « الدين فى الأزمنة الأخيرة » : « إنما نرى نحن توالى الحادثات ولا نرى الرابطة التى تربط أحد الطرفين بالآخر ، فلماذا تبقى هذه الرابطة مستخفية عنا ؟ لكونها شيئا إلهيا لا يوجد مثله فى المخلوقات » .

وهذا عين ما قاله علماؤنا الأصوليون : « لا تثبت العلّية بالدوران » . ففى حادثة الإحراق والاحتراق نرى الاحتراق والجسم المحترق ونرى معهما النار ، ولا نرى كون المحرق هو النار أى لا نعيّن النار على أنها هى فاعل الإحراق وعلته كما نعين القابل أى المحترق على أنه الجسم الفلانى ، وإن كنا نرى الإحراق والاحتراق فيما رأيناه دائما يقترنان ويدوران معها . وذلك لأن العلية لا ترى ولا تثبت بالدوران ، وليست رؤية المقارنة رؤية العلية . فهذه الدقيقة قد فهمها « مالبرانش »[1] وفهم قبله علماء الإسلام المجتهدون ونعم مافهموا ، وزاد مالبرانش فى الفهم عند تطبيقها على المسائل المادية فقال : إن سبب كون العلية غير مرئية أنها شىء إلهى لايوجد مثله فى المخلوقات ، ونحن إنما نرى المخلوقات فى الحادثات .

ولا تقل أيها القارئ إن التردد فى كون علة الاحتراق الفاعلية هى النار بعد مشاهدة النار مع كل حادثات الاحتراق ، مكابرة ظاهرة لأنى أقول : على أى دليل قطعى الدلالة تبنى حكمك هذا ؟ فإن بنيته على التجربة المشاهدة فالتجربة لاتشاهد العلية لأن

---

[١] حتى إن الفيلسوف « هيوم » الذى هو أشهر مشاهير المنكرين للمعجزات فهمها أيضاً بدليل قوله : « إذا أمعنا فى النظر فنحن لا نرى القوانين والأسباب ، وإنما نرى الحادثات والنتائج فنقول بالعلية والضرورة من غير أن نراهما ، فإذا ضربنا إحدى كرتى « بيلاردو » تأخذ الكرة الثانية تتحرك أيضاً ، فالذى نرى بحواسنا هو هذا القدر ليس فيه غير الحادثات ، وليس فيه غير تقدم حادثة وتأخر أخرى ، فالحادثات ترينا أنفسها دون عللها وأسبابها » انتهى مع قليل من التوضيح وقال « كوويه ر » ترائى نقل الحركة من جسم إلى آخر موضحا لنا ، منشأه اعتيادنا الحاصل من مصادفته فى كل مكان . وقال « كانت » « مسألة أنه كيف تكون المقابلة والمناسبة بين الجواهر مشكلة ولا شبهة فى أن حلها خارج عن نطاق علم البشر » .

العلية أمر معنوى لايرى ، وإنما مدلول التجارب ومشهودها كون النار مجتمعة مع حادثة الاحتراق والجسم المحترق ودائرة حيثما دارا ، وإن بنيته على الدليل المنطق فالمنطق لا يعترف بدلالة دوران شيء مع شيء ودوام اقترانه به ، على كون صلة أحدهما بالآخر صلة العلة بمعلولها ، لاحتمال أن تكون صلة الاقتران وإطراد الاقتران المشهودة بينهما غير صلة العلية والمعلولية ، فادام احتمال أن يكون الله الذى هو خالق كل شيء والذى نحن نتكلم فى مسألة نبوة الأنبياء ومعجزاتهم مع المعترفين بوجوده وكونه خالق كل شيء ؛ هو خالقَ فعل الإحراق ، وأن تكون إرادته هى العلة للاحتراق وهو معلولها وأثرها الصادر منها دون أن يكون صادرا من النار وإنما توجد النار مع الاحتراق كالشرط العادى غيرَ محتاج إليه فاعله ، وقد اشترط ليكون نظاما ووسيلة يتوسل بها عباد الله فى قضاء حاجاتهم أى ليكون شرطا بالنسبة إليهم لا بالنسبة إلى الفاعل يحتاجون إلى مراعاته ولا يحتاج هو إليها ، بمعنى أن خلقه الاحتراق مع النار وبدون النار سواء عنده وبالنسبة إلى قدرته وإرادته ، فلو شاء أن يخلق الاحتراق مع الماء والانطفاء مع النار لفعل ... ما دام هذا الاحتمال موجودا ومرجحا على احتمال كون فاعل الإحراق هو النار ، توحيداً لفاعل الكائنات[1] واختياراً لصيانة انتظامها من التشتت الحاصل من تعدد الفاعل تعدداً يكاد يكون على قدر عدد الكائنات ، وما نرى فيها من الأسباب المؤثرة فى المسببات أو بالأصح أشباه الأسباب فمجرد ظواهرَ ساترات للسبب الحقيقى الوحيد الذى هو إرادة الله . ولا يجوز القول بالأسباب فى دين التوحيد إلا على تقدير أن تكون سببيتها مجعولة مستعارة لا أصلية غير قابلة للتبديل والتغيير ، ولايقولُ لشيء من الأشياء فى الكائنات بخاصة ناشئة من ذاته غير قابلة للانفكاك عنه إلا الطبيعى المنكر للإله بالمرة أو المعترف بالإله غير المختار . ولذا قال « مالبرانش » الفيلسوف الشهير

---

[١] ألا ترى أن علماء أصول الدين من أهل السنة قائلون بأن الله تعالى هو خالق أفعال عباده لا العباد أنفسهم ، مع كون الإنسان أولى بأفعاله من النار بفعل الإحراق .

الذكر كما فى مبحث المعرفة من « مطالب ومذاهب » :

« ليست العلة الحقيقية إلا واحدة لأن الإله الحق واحد والقوة التى فى الطبيعة وفى كل شىء عبارة عن إرادة الله ، فالاعتراف مثلا بأن الشمس تعطى الحركة والحياة للأشياء يكون شركا ، وباستطاعة الملائكة والمقربين لو اجتمعوا لتحريك ورقة من أوراق شجرة ، يكون تناقضا » .

وقال المتكلمون الأشاعرة قبل « ما لبرانش » ونعم ما قالوا : « إن الكائنات بأجمعها مستندة إلى الله من غير واسطة » .

ويحسن أن نتذكر هنا ماسبق ذكره عند النظر فى صلة النفس بالبدن من القانون الذى وضعه « ليبنتز » وسماه « الوفاق السابق التقدير » « آرمونى پره أتابلى » وهو قانون كبير شامل لجميع أجزاء العالم الفردة فى مناسبة بعضها ببعض ، فلا تأثير ولا تأثر بينها أصلا عنده لكون كل منها بسيطا لانوافذ لها حتى تدخل فيها أشياء وتخرج ، وإنما حصول أثر الواحد « موناد » فى الواحد الآخر بتدخل الله ، بمعنى أنه تعالى أراد عند تنظيم الأشياء أن يراعى الواحد فى تنظيم غيره ، وأن يراعى غيره فى تنظيمه فيتوازنَ الجميع .

وقال « هيوم » : « إذا نظرنا إلى أى شىء أول مرة فلا ندرى ما الذى يستمد ذلك لأن يفيده ؟ وليس فى الكون ذرة نستطيع تخمين ما تحوزه من قوة ، ولا أى شىء نستطيع القول بأنه معلول تلك القوة . فتعقب واقعةٌ واقعةً أخرى ، لكن حواسنا لا ترى القوة التى تمشى بهذه الماكينة ، لا نراها فى أى صفة محسوسة من صفات الأجسام المادية ، فكل ما نعلمه أن النار حارة ، لكن التلازم بين النار والحرارة يظل دائما فوق علمنا » .

يريد أن يقول : إن كل صفة أو خاصة من صفات الأشياء وخواصها ليس بينها

وبين تلك الأشياء تلازم عقلي يجعلها ضرورية لها ، ويجعل انفكاكها عنها مستحيلا ، فلا نعلم لماذا كان السكر حلوا والملح مرا والسم قاتلا والنار محرقة . فكما لا نعرف أسباب ذلك لا يُعرف قبل التجربة اتصافها بصفاتها الخاصة ، فلا ترون فى مرائيها الخارجية ما يفيد معنى من تلك المعانى ، حتى إن من لم ير السم إذا رآه لا يخطر بباله أنه يقتل الإنسان، وربما لايأبى تناوله . فكل هذه الأحوال يرينا أنه ليس بين الأشياء وخواصها تلازم عقلى غير قابل الانحلال كالتلازم بين الأربعة وزوجيتها والثلاثة وفرديتها ، ولذلك تعلمه أنت قبل تجربتهما . كما تعلم أن الثلاثة فى ثلاثة تكون تسعة ، ولا تحتاج فى تعلمه إلى التجربة ، فهذه مسائل رياضية تفيد القطعية والضرورة لكونها مبنية على الأساس العقلى ، وتلك مسائل طبيعية مبنية على التجربة التى لا يبلغ مدلولها مبلغ الضرورة ، ولا يستحيل خلافه عند العقل . ولهذا : أى ولكون مسائل العلم الطبيعى مبنية على التجربة التى لا تدل على القطعية الضرورية وإن دلت على القطعية الواقعية ، أنكر « هيوم » وجود القوانين الطبيعية وقال : إنها عادات مشهودة على أنها نتائج الحادثات وليس بأمور أزلية ضرورية تتبعها الحادثات . وهذا الكلام من هذا الرجل الملحد لدرجة « بوخنر » الألمانى ولكنه أذكى منه بكثير وأدق فهما ، يؤيد ما نبهنا إليه على طول كتابنا من بطلان الدعوى التى تجعل الثقة العلمية مقصورة على التجربة وتفضلها على البراهين العقلية المنطقية والتى هى أساس الإلحاد العصرى .

هذا ، ولا يعاب علىّ أن استظهرت بكلام فيلسوف ملحد مثل « هيوم » لايدين بالله ولا بالنبى ومعجزته ، فى الرد على الذين يعدون معجزات الأنبياء من المستحيلات، ولا يثقون بالأدلة العقلية ثقتهم بالتجارب الحسية التى تبنى عليها قواعد العلم الحديث ، لأنى أنظر فى القول ولا أنظر فى القائل ، فأتتبع من أقوال كل قائل ناحيتها الأقوى ، ولا يعنينى أن يكون القائل من أنصار عقيدتى أو من خصومها ، بل يعجبنى أن أجد شاهدا لها فى كلمات الخصوم . أليس أولى بموقفى تجاه منكرى المعجزات بحجة منافاتها

لقوانين الطبيعة ، أن يكون أحد من الفلاسفة المعروفين تـكلم فى قيمة تلك القوانين، ولم يكن ذلك منه لإثبات إمكان المعجزات كما أنى أتـكلم فيها لإثباته . فاعتراض « هيوم » على القوانين الطبيعية حق فى نفسه غير مجاب عنه ، والفيلسوف نفسه بعيد عن الاتهام بمحاباة المؤمنين بالأنبياء ومعجزاتهم .

وقال « هيوم » أيضا : « إن الناس عامة لايرون أى إشكال فى الحادثات الطبيعية مثل سقوط الأجسام الثقيلة إلى الأرض ونمو النباتات وتكثر الأنواع بالتوالد والتناسل، وتربى الأبدان بالأغذية ، وهم مقتنعون بفهم القوة التى تلد هذه النتائج فلا يبقى عندهم احتمال الخطأ فى النتائج ، وفى الحقيقة أنهم لما يرون العلة بحسب التجربة والعادة يحكمون بظهور معلول يوافق تلك العلة ، فمن الصعب إقناعهم بكون أى علة يعقبها غير معلولها . ولـكنهم إذا وقعت زلزلة أرضية أو مصيبة غير معتادة يؤمنون لذلك بقوة غير مرئية ، ومع هذا ذات عقل وإرادة ، ويقولون بكون تلك الحادثات غير القابلة للإيضاح أفعال هذه القوة .

« بيد أن أصحاب الأفكار العميقة والفلاسفة يعلمون أن القوة التى توجد الحادثات المعتادة الواقعة كل يوم غير قابلة للإيضاح أيضا مثل القوة الموجدة للحادثات الهامة غير المعتادة ، ولذلك يحملون الحادثات كلها على فعل القوة التى يحملون الواقعات غير المعتادة على فعلها ، فليست العلة الحقيقية عندهؤلاء الفلاسفة لـكل معلول قوته الفطرية بل إرادة الوجود الأعلى » .

وهذا القول أيضا الذى يتضمن تحبيذ أولئك القائلين بتوحيد القوى وردكلها إلى إرادة الوجود الأعلى ، مما يعجبنى صدوره من « هيوم » رغم كونه من ملاحدة الفلاسفة ومن غلاة منكرى المعجزات ، وهو والفيلسوف الفرنسى الملحد أيضا « جوستاف لوبون » ما سرتنى أقوال الفلاسفة الذين نقلت عنهم واستشهدت بهم فى هذا الـكتاب سرور قولها ، إذ وجدت فى قـــول « لوبون » أبلغ شهادة

بوجود الله وأصرحها كما سبق فى آخر الفصل الرابع من الباب الأول، ووجدت فى قول «هيوم» أقوى رد على منكرى المعجزات بادعاء استحالتها ، وهذا على الرغم من كون « هيوم » نفسه منكرا للمعجزات مشتهرا بإنكارها لعدم اعترافه بوجود الله الذى لا معنى لإنكار المعجزات بعد الاعتراف بوجوده .

الحاصل أن المعجزات لاينكرها إلا المنكرون لوجود الله ، ومن الغرابة أن جمهورهم يتمسكون هنا بنظام العالم الذى أنكروه حين أنكروا وجود الله فيقولون : انه نظام للعالم ناشئ من طبيعة الأشياء لايمكن خرقه بالمعجزات . وقد علم القارىء مما سبق فى هذا الكتاب أن « بوخنر » إمام الملاحدة أو بالأصح لسانهم المحامى عن مذهب الإلحاد يجعل نظام العالم عبارة عن المصادفة والفوضى ، فكيف يمكنه أن يدعى فى مسألة المعجزة أنها تخالف نظام العالم مع أنه منكر لنظام العالم قبل إنكاره المعجزة بحجة أنها تغيير لنظام العالم ؟ فأى مانع فى المصادفة والفوضى يمنع تغيير شئ فى مجاريهما احتفاظا بنظامهما الذى هو عدم النظام ؟

أما إذا كان الله موجوداً عند أناس ، ثم رأيتهم لايعترفون بسعة قدرة الله التى وسعت خلقَ السماوات والأرض ، لخلق معجزة بتغيير أقل جزء من أجزائهما ، فذلك منهم حماقة تختلف عن حماقة الإلحاد ، إن لم تكن أكبر منها كانت أظهر ، وما أحسن قول أبى العلاء :

إذا آمن الإنسانُ بالله فليكن لَبيبا ولا يَخلِط بإيمانه كفرا[1]

---

[١] حكى إلىّ أحد أصدقائى الثقات من علماء الدين ــ وقد مضى على الحكاية أكثر من أربعين عاما أيام كانت تركيا معقل الإسلام وعدد الملاحدة فيها من المتعلمين لايبلغ عدد الأصابع لاسيما من اشتهر منهم بالإلحاد كان منحصراً فى شخص الدكتور عبد الله جودت طبيب العيون ــ حكى إلىّ عن مجلس طال الكلام فيه بين أصحاب العقليات الحديثة المتقاربة الذين يصعب عليهم الاقتناع بعقائد الدين .. فقال أحدهم وهو الأستاذ حسين جاهد يالچين ــ إن لم تخنى ذاكرتى ــ الذى صار بعد إعلان الدستور من الشخصيات البارزة فى حزب الاتحاد والترقى ثم فى حزب الكماليين وليد الحرب العالمية الأولى =

ثم إن إنكار المعجزة يتضمن إنكار النبوة ، فتشتد الحماقة وتتضاعف فيمن يؤمن بالأنبياء وينكر معجزاتهم ، لأن نبوتهم تبدأ من الإيحاء إليهم الذى إن لم تكن معجزة لعدم اقترانه بالتحدى فهو معجزة من حيث إنه خارق للعادة ، وأن منكر المعجزة ينكرها لخرقها العادة .

وبناء على شدة الاتصال بين إنكار المعجزات وإنكار النبوة نرى الذين يكتبون عن الأنبياء عليهم السلام من غير تعرض لمعجزاتهم ، يصورونهم ويترجمون عن حياتهم كأنهم لا يمتازون عن الناس إلا بما يمتاز به العظماء والحكماء الأماثل من دون أن يكون لهم صلة خصوصية بالله تعالى غير فطرتهم التى فطرهم على أن يكونوا عظماء وفى مقدمتهم .

وقد يكون تصوير الأنبياء كما صور أولئك الكتّاب ، موافقا لرأى الشيخ محمد عبده حيث قال فى تعليقاته على شرح الجلال الدوانى للعقائد العضدية بعد ذكر الأقوال فى تعريف النبى صلى الله عليه وسلم ص ٣ :

« أقول قد يعرّف النبى بإنسان فطر على الحق علما وعملا أى بحيث لايعلم إلا حقا ولا يعمل إلا حقا على مقتضى الحكمة ، وذلك يكون بالفطرة أى لايحتاج فيه إلى

= والقاضى على الدين مع كل شىء فى تركيا القديمة — قال: « إن رأس المصاعب عندى الإيمان بوجود الله ! ! وبعد الإيمان به لا أستصعب وقوع أى شىء فى الدنيا والآخرة ولا أتردد فى الاعتراف بإمكان وقوعه ، فكل شىء سهل بعد الاقتناع بوجود الله » .

وإنى مع تقدير استقامة المنطق فى فكرة الإلحاد هذه — على معنى أنه يعجبنى من هذا القول إدراك قائله بسهولة وقوع كل شىء بعد وجود الله — فيكون التوقف فى قبول مايخالف سنة الكون مثل المعجزات من الله واضع تلك السنة متى شاء ذلك ، عيباً كبيراً على المتوقف . . . — مع تقدير استقامة المنطق فى قول الرجل كل التقدير ، لا أكتم من ناحية أخرى شدة رثائى على ما فيه من الغفلة عن أن وجود الله لا دليل فى الدنيا على وجود شىء يعدل فى القوة دليل وجوده ، وقد انجلت هذه الحقيقة بكل وضوح على قارئ هذا الكتاب إن شاء الله ، ولم يقل الفيلسوف ديكارت عبثا : « إن الله مبدأ العلم كما أنه مبدأ الوجود » .

الفكر والنظر ، ولكن التعليم الإلهى ، فإن فطر أيضا على دعوة بنى نوعه إلى ماجبل عليه فهو رسول أيضا وإلا فهو نبى فقط ، وليس برسول فتفكر فيه فإنه دقيق » .

وأنا أقول ليس فى تعريف الشيخ شئ من خصائص النبوة والرسالة لا وحى ولا ملك مرسل ولا كتاب منزل ولا معجزة ، وعليه فمن أين يعرف كونه « لايعلم إلا حقا ولا يعمل إلا حقا » من أين يعرفه هو نفسه ؟ ومن أين يعرفه بنو نوعه إذا دعاهم؟. نعم فى تعريف الشيخ : «ولكن التعليم الإلهى» لكنه يمكن حمل هذاالتعليم أيضا على الفطرة ، ثم يرد عليه السؤال المذكور : من أين يعرف أنه تعليم إلهى[1]؟.

---

[١] ولهذا ترى علماءنا الذين دونوا العلوم الإسلامية يدخلون البعث والوحى ، ولاسيما الوحى فى تعريف النبى والرسول ، ويقولون هو إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ ما أوحى إليه ، ثم يقسمون الوحى إلى ثلاثة أقسام : الأول ماثبت بلسان الملك فوقع فى سمعه بعد علمه بالمبلغ بآية قاطعة ، والقرآن من هذا القبيل . والثانى ما وضح بإشارة الملك من غير بيان بالكلام . والثالث ما ألهمه الله تعالى بأن أراه بنور من عنده . والذين يرون الاجتهاد للأنبياء من علماء الأصول جعلوه قسما رابعا وسموه وحياً خفيا ، وما ينقسم إلى الثلاثة الأولى التى بها يصير النبى نبيا ، وحيا ظاهرا .

هذا وقد لقيت بعد انتشار الطبعة الأولى للباب الثالث من هذا الكتاب على شكل كتاب مستقل مسمى «بالقول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لايؤمنون» واحداً من القضاة الشرعيين يدافع — مع إعجابه بكتابى فى انتقاداته على غير الشيخ محمد عبده — عن تعريف الشيخ للنبى متمسكا باشتماله على « التعليم الإلهى » الذى لم أغفل أنا عنه فى الطبعة الأولى وما رأيته صالحا للتمسك لأنه ليس بصريح فى التعليم الإلهى الخاص — بالأنبياء المبلغين عن الله وإنما هو مطلق يعم ما يقع لمن دونهم من ذوى الآراء الصائبة الراجعة أيضاً إلى امتياز لهم فى جبلتهم عن الناس العاديين ولاشك أن تلك الآراء الصائبة أيضاً من تعليم الله وفضله على من يشاء من عباده الذين ليس بضرورى أن يكونوا أنبياء بالمعنى المعروف للكلمة بل مايسمونهم عباقرة . ويؤيد ماقلنا كل التأييد أن قيد التعليم الإلهى لم يرد إلا فى الجملة التى أتى بها الشيخ تفسيراً للفطرة فيجب أن لايكون هذا التعليم الإلهى شيئاً خارجا عن جبلة النبى ، وقد كنت قلت فى الطبعة الأولى « لكنه يمكن حمل هذا التعليم أيضاً على الفطرة والآن أقول إن الحمل عليها واجب متعين . فلايكون تعريف الشيخ بالنبى بمجرد هذا القيد أى التعليم الإلهى تعريفا صحيحا مانعا عن أغياره ، ولو كان كل تعليم إلهى منحه الإنسان بمقتضى قوله تعالى « الرحمن =

ويؤيد ماقلنا أن الشيخ بنى حتى دعوة بنى نوعه على الفطرة لاعلى أمر خاص من ربه كما يؤمر به الأنبياء ، حيث قال معرفا للرسول بعد تعريف النبى : « فإن فطر على دعوة بنى نوعه إلى ماجبل عليه » فنص فى موضعين من هذه الجملة على الفطرة والجبلة ، ثم ختم كلامه بقوله : « فتفكر فيه فإنه دقيق » وتفكر أنت أيها القارئ فى أن النبى والرسول على تعريف الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية سابقا ليس بالنبى والرسول اللذين يعرفهما الإسلام والمسلمون بل الملّيون كلهم ، وإنما هو رجل من أمثال الذين يثقون بأنفسهم فى صحة آرائهم ومبادئهم ، ويأمل الناس فيهم الصلاح والإصلاح . ولا يكون مراد الشيخ إلحاق هذه الطائفة الممتازة من الناس بالأنبياء والرسل ، بل مراده تنزيل الأنبياء والمرسلين المعروفين صلوات الله عليهم ، إلى منزلتهم تفاديا عن مؤونة الخوارق التى تلازمهم فى معجزاتهم وكيفية الإيحاء إليهم .

تفكر فيه وفى كون صحافة مصر المنحرفة عن الثقافة الإسلامية إلى الثقافة الغربية

= علم الإنسان » وقوله « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم » يجعله نبيا لزم أن يكون جميع الناس أنبياء .

فالحق الخالص البعيد عن محاباة صاحب التعريف ومعاداته أن مجرد قوله ولكن التعليم الإلهى المحفوف ماقبله وما بعده بالنص على أن حالة النبى المعرف بهذا التعريف الممتازة ناشئة من جبلته الخاصة من غير أن يصعد حصول تلك الحالة الممتازة فيه إلى الأسباب الخارقة التى لايقبلها عقل العصريين الذين لايؤمنون بالغيب والتى لا داعى لوضع هذا التعريف الشاذ المنى بتجريده عن الخوارق الغيبية إلا مماشاتهم فى عقليتهم ... ان مجرد ذكر قيد التعليم الإلهى فى التعريف غير الملتئم فى النظرة الأولى مع تلك العقلية لا يكون المقصود منه بعد هذا التحليل والتحقيق إلا ذر شىء من الرماد فى بعض الأعين أو دس فى الكلام لا من نوع الدس الذى أفشاه الأستاذ فريد وجدى عما يفعله توابع الشرق الإسلامى المستبطنون للالحاد ، فى كتاباتهم ، لأنه يلزم أن يكون ذلك من دس السم فى الدسم لكن قول الشيخ محمد عبده : « ولكن التعليم الإلهى » فى تعريفه الذى يتغلب فيه الفساد على الصلاح تغلباً ساحقاً وينجلى من مجموعه انجلاء ظاهراً ، من قبيل دس الدسم فى السم . ولذا قال فى مختتم كلامه « فتفكر فيه فإنه دقيق » وماذا حاجة الشيخ فى لفت الأنظار إلى دقة التعريف لو كان ذلك تعريفاً للنبى المعروف عند الناس ؟

لاتزال تشيد باسم الشيخ قائل هذا القول والآمر فى خاتمته بالتفكر الدقيق ، ثم تفكر فى إنكار الأستاذ فريد وجدى معجزات الأنبياء جهارا نهارا على صفحات «الأهرام» أثناء مناقشته إياى فى إمكانها بله وقوعها ، تلك المناقشة التى استمرت أياما وعُين الأستاذ قبل انتهائها مديرَ « مجلة الأزهر » المسماة يومئذ « نور الإسلام » ورئيس تحريرها ، ثم تفكر فى كتاب « حياة محمد » لمعالى الدكتور حسين هيكل باشا وهو مثل فؤاد أم موسى فى معجزات نبينا المثلة لحياته المعنوية ، والتى خصص لها الأستاذ الهندى كاتب حياته صلى الله عليه وسلم قبيل الكاتب المصرى فى مجلدات، مجلدين .

فإن قيل:[1] ليس هناك من ينكر معجزة القرآن ولا يشهد بها ، وإنما يخلون حياة نبينا صلى الله عليه وسلم عما يسمونه المعجزات الكونية لعدم ثبوتها تواترا كما ثبت القرآن ، ولإمكان التأويل فى بعضها بالحادثات المادية كما أول معالى هيكل باشا حادثة جواد « سراقة » فى طريقه إلى المدينة الذى كبا مرة ورمى راكبه على الأرض وخسف حافره الأرض مرة ثانية ، وكان خرج لتعقيب الرسول أثناء الهجرة ؛ فأولها بالكبوة العادية[2] وكما أوّل سورة الفيل اتباعا لتأويل الشيخ محمد عبده فى تفسيره ، ولصعوبة تمييزها من حادثات السحر والشعوذة وأعمال أهل الصناعات الغريبة ، ولذا قال الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » فى عدده الذى صدر بعد كتاب « حياة محمد » راداً على الذين اعترضوا على الكتاب ، وقد أثبته معالى مؤلفه فى مقدمة الطبعة الثانية وأنا أنقل منها :

---

[١] هذا السؤال يطول ذيله إلى آخر ما سأنقله من مقدمة كتاب « حياة محمد » وجوابه أطول ذيلا وأعنى به تمام ما كتبته بعد انتهاء النقل من ذلك الكتاب إلى آخر كتابى هذا تقريباً ، فضلا عما كتبته فى أثناء النقل من التعليقات .

[٢] مع أن سراقة صاحب الجواد لم يؤولها بها ، بل تشاءم منهما واضطر إلى الاصطلاح مع النبى صلى الله عليه وسلم . والعجب من منكرى المعجزات أنهم إذا رأوا مايقبل التأويل قالوا هذا ليس بمعجزة لأنه لايخرق العادة ، وإذا رأوا مايخرقها قالوا هذا محال مخالف لسنن الكون .

« أهم ماينكره الأزهريون والطرقيون على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات ، وقد حررتها فى كتاب « الوحى المحمدى » من جميع مناحيها ومطاويها فى الفصل الثانى وفى المقصد الثانى من الفصل الخامس بما أثبتّ به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالذات ، ونبوة غيره من الأنبياء بشهادته لايمكن فى عصرنا إثبات آية إلا بها ، وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه (أى علماء عصرنا) لاحجة ، لأنها موجودة فى زماننا ككل زمان مضى ، وأن المفتونين بهم الخرافيون من جميع الملل ، وبنيت سبب هذا الافتتان والفروق بين مايدخل منها فى عموم السنن الكونية والروحية وغيرها »

وقال فضيلة الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فيما كتبه تعريفا بكتاب هيكل باشا ورداً على المعترضين : « لم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا فى القرآن[1] ، وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحنّا بما تعيا العقول به   حرصا علينا فلم نرتَب ولم نهِم »

وكأن فضيلته يريد أن يستشهد بقول البوصيرى رحمه الله هذا على عدم ظهور المعجزات الكونية على يد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وانحصار معجزته فى القرآن ، وسيجىء جوابنا إن شاء الله مفصلا على قول هذين الشيخين : شيخ المنار وشيخ الأزهر .

وقال معالى هيكل باشا فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه اعتذارا عن عدم ذكر شىء من معجزات نبينا الكونية فى الكتاب المسمى « حياة محمد » وجوابا على مؤاخذيه من الذين سماهم المشتغلين بالعلوم الدينية :

---

[١] فقد ظهر اتفاق فضيلة الشيخ المراغى والشيخ رشيد رضا بل الشيخ محمد عبده أيضاً مع الدكتور هيكل باشا والأستاذ فريد وجدى فى إنكار المعجزات .

إننى لم آخذ بما سجله كتب السيرة وكتب الحديث ، ولم أنهج فى التعبير عن مختلف الحوادث نهجها . ولقد كان يكفينى رداً على هذا أننى أجرى فى هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة [١] وأكتبه بأسلوب العصر ، وإننى أفعل ذلك لأنه الوسيلة الصالحة فى نظر المعاصرين لكتابة التاريخ وغير التاريخ من العلوم والفنون ، وما كان لى ، وذلك شأنى ، أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها ، وبين هذين وبين النهج والأساليب فى عصرنا الحاضر بون عظيم ، إن النقد فى الكتب القديمة لم يكن مباحا بالقدر الذى يباح به اليوم ، وإن كثرة الكتب القديمة كانت تكتب لغاية دينية تعبدية على حين يتقيد كتاب العصر الحاضر بالنهج العلمى والنقد العلمى [٢] لكنى رأيت من الخير أن أتبسط بعض الشىء فى بيان الأسباب التى دعت المفكرين من أئمة المسلمين ، كما تدعو كل باحث مدقق ، إلى عدم الأخذ جزافا بكل ما ورد فى كتب السيرة وفى كتب الحديث [٣] والى التقيد بقواعد النقد العلمى » ص ٤٦ ــ ٤٧

---

[١] الطريقة العلمية التى يتبجح بها معالى المؤلف ويباهى باتباعها فى تحرير كتابه ، والتى يدعى أنه بنى عليها إنكار المعجزات ، هى الطريقة نفسها التى يدعى ملاحدة الغرب أنهم بنوا عليها إنكارهم لوجود الله .

[٢] إذا كان قانون الدين لاسيما حديث (من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) يجزى الكاذبين بنار جهنم ، وقانون التحرر من القيود الدينية لايعترف بالجزاء على أى جرم جرى فى الخفاء وبقى على ذلك ، فمن أظلم السخافة وأسخف الظلم أن يوضع أقوال الكتاب المؤمنين بالدين تحت شبهة الكذب لكونهم مؤمنين متقيدين فى أقوالهم ، ويؤتمن بأقوال الكتاب غير المقيدين بالدين لعدم كونهم متقيدين به ، ولله در المعرى حيث يقول :

وما الناس إلا خائفو الله وحده إذا وقع النمى فى كف ناقد

[٣] لم يبق فى كتب الحديث والسيرة محل للآخذ بما فيها أن يأخذ به جزافا بعد أن غربلها ونخلها علماء الإسلام أنفسهم بدقة لا مثيل لها فى الدنيا ، فنقد الرجال ، أى نقد رجال الحديث ، علم مدون فى الإسلام فعلا ليس كالنقد العلمى قولا مجرداً يكرر لجاذبيته فى أفواه الكتاب العصريين ، وليس بعد غربلة الأحاديث النبوية ورواتها بأيدى علماء الإسلام الإخصائيين مجال لمدقق إلا مدققا معاديا يركل الغربال والمنخل ويرفض الكل جزافا . ولنا كلام فى هذا الصدد لا تسعه هذه التعليقة الموجزة فنرجئه إلى ختام النقل عن كتاب المؤلف .

وأول هذه الأسباب ما بين تلك الكتب من خلاف فى رواية الكثير من الأمور المنسوبة إلى النبى العربى ، فقد لاحظ الذين درسوا هذه الكتب أن ما روته من أنباء الخوارق والمعجزات ومن كثير غيرها من الأنباء كان يزيد وينقص دون مسوغ إلا اختلاف الأزمان التى وضعت هذه الكتب فيها ، فقديمها أقل رواية للخوارق من متأخرها ، وما ورد من الخوارق فى الكتب القديمة أقل بعداً عن مقتضى العقل مما ورد فى كتب المتأخرين ، وهذه سيرة ابن هشام أقدم السير المعروفة اليوم تغفل كثيراً مما كتبه أبو الفداء فى تاريخه ، ومما ذكره القاضى عياض فى الشفاء ، ومما ذكر فى كتب المتأخرين جميعا ، وكذلك الشأن فى كتب الحديث واختلافها[١] . فبعضها

[١] الزيادة فى كتب متأخرى المؤلفين فى السير على ما كتبه متقدموهم ، كان الأقرب إلى العقل والإنصاف أن تحمل على اطلاع الأواخر على ما يطلع عليه الأوائل كما هو الباعث المعروف على تلاحق التأليفات بعضها مع بعض ، فلو كتب الحديث عين ما كتبه القديم ولم يزد عليه شيئاً لاستغنى عن كتابه . وهناك سبب آخر وهو أن موضوع كتب السيرة كان يختص بغزوات النبى صلى الله عليه وسلم يؤيده أن تلك الكتب تسمى أيضاً بالمغازى ، حتى قال الحافظ ابن حجر : إن السير والمغازى مترادفتان، وفى الفقه كتاب السير والجهاد ، كما أن فيه كتاب الصلاة وكتاب البيوع مثلا ، ثم توسع المتأخرون فى الموضوع فزادوا فيه من سيرته صلى الله عليه وسلم مطلقا . فلما لم يعرف مؤلف «حياة محمد» هذا التطور فى موضوع كتب السيرة ، أو بالأولى لما لم يعرف خصوصية ماقبل التطور ، أساء ظنه بزيادات المتأخرين .

نعم إن كتب السيرة مطلقا لا تعدل كتب الحديث فى صحة الرواية ، ومعالى المؤلف كما أخطأ هنا فى التسوية بينهما فى عدم الاعتماد أخطأ أيضا فى اختيار ما فى كتب السيرة على ما فى كتب الحديث إذا وقع الخلاف بينهما ، مثل غزوة ذى قرد كتب أصحاب المغازى كونها قبل صلح الحديبية وتبعهم المؤلف ، لكن مسلماً يذكرها بعده وهو الأصح كما حققه ابن حجر فى « فتح البارى » ، ومثل غزوة ذات الرقاع يقدمها أصحاب المغازى على غزوة خيبر وتبعهم المؤلف لكن الأصح كونها بعدها كما فى صحيح البخارى . ومن هنا يظهر أن تأليف كتاب عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الصحة يتوقف على درس كتب الحديث أكثر من كتب السيرة الذى هو أسهل بكثير من الدرس الأول والذى لا تجاوزه استطاعة أمثال المؤلف . =

يروى قصة من القصص وبعضهم ينقلها وبعضهم يضعفها[1] ، فلا بد للباحث فى هذه الكتب جميعا بحثا علميا أن يضع مقياسا يعرض عليه ما اختلفت فيه وما اتفقت عليه، فما صدقه هذا القياس أقره الباحث ، وما لم يصدقه وضعه موضع التمحيص ، إذا كان مما يقبل التمحيص ص ٤٧ ـ ٤٨ .

« وسبب آخر يوجب تمحيص ما ورد فى كتب السلف ونقده نقداً دقيقا على الطريقة العلمية ان أقدمها كتب بعد وفاة النبى بمائة سنة أو أكثر وبعد أن فشت فى الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاق الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الذيوع والغلَب ، فما بالك بالمتأخر مما كتب فى أشد أزمان التقلقل والاضطراب . وقد كانت المنازعات السياسية سببا فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه ودونوا ما اعتقدوه صحيحا منه من جهد وعنت أدى إليهما حرص الجامعين على الدقة والتمحيص حرصا لا يتطرق إليه ريب . ويكفى أن يذكر الإنسان ما كابده البخارى من مشاق وأسفار فى مختلف أقطار الدولة الإسلامية لجمع الحديث وتمحيصه، وما رواه بعد ذلك من أنه ألفى الأحاديث المتداولة تربى على ستمائة ألف حديث لم يصح لديه منها أكثر من أربعة آلاف ، وهذا معناه أنه لم يصح لديه من كل مائة وخمسين حديثاً إلا حديث واحد. أما أبو داود فلم يصح لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة وكذلك شأن سائر الذين جمعوا الحديث وكثير من هذه الأحاديث التى

= ثم إن المؤلفين فى المغازى كثيرون وليس ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ أقدمهم [illegible] يبتدئ من إبان بن عثمان رضى الله عنه المولود سنة ٢٠ ثم عروة بن الزبير المولود بعد . شرحبيل بن سعد ، ثم الزهرى المولود سنة ٥٠ وهو أستاذ أستاذ البخارى وإمام كبير فى الحديث لقى عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز ويحتمل أن يكون تأليفه فى المغازى بإشارة الأخير .

(١) والمؤلف يتبع المنقل والمضعف إما محافظة على مبدأ سوء الظن بالمؤلفين المؤمنين ، أو فراراً من مؤنة التدقيق الذى يمكن أن يسفر عن بعد نظر [illegible] القصة .

صحت عندهم كان موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء انتهى بهم إلى نفى الكثير منها . فإذا كان ذلك شأن الحديث وقد جهد فيه جامعوه الأولون ماجهدوا ، فما بالك بما ورد فى المتأخر من كتب السيرة ، وكيف يستطاع الأخذ به دون التدقيق العلمى فى تمحيصه » .

وأنا أقول : مسألة تمحيص الأحاديث النبوية وتمييز مايوثق به منها عن غيره ، واختيار أفضل طرق التمييز وأسماها مهما شق ذلك ، لايمكن أن يعالجها ويقوم بواجب تحقيق الحق فيها لوجه الحق الذى قد سبق فى مقدمة الكتاب أن الدكتور هيكل باشا يبحث عنه فى كتب الغربيين ، أحد أو طائفة أو أمة ، لاسيما فى الأعصار الأخيرة التى ليس فيها وجه ينظر إليه غير وجه المادة ، مثل ماعالجها علماء الإسلام المتقدمون وقاموا بواجب تحقيق الحق فيها « لوجه الحق » الذى لا يكون له معنى أصدق من « وجه الله » ولنكتب هنا مرة ثانية قول المعرى :

وما الناس إلا خائفو الله وحده   إذا وقع النمى فى كف ناقد

فلو أخذت أشرح أهمية المسألة وما بذله أولئك العلماء الأعلام فى انتقاد الأحاديث وانتقائها لزم أن أكتب كتابا فى ضخامة مجموع كتب الحديث مع شروحها والملقات عليها ، تلك الكتب التى تغص بها دور الكتب الإسلامية والاستشراقية ، لأن كتب الحديث كلها انتقاد وكلها انتقاء .

حسبك شاهدا فى هذا ما قاله هيكل باشا نفسه : إن البخارى وحده انتقى ما كتبه فى صحيحه وهو أربعة آلاف حديث من ستمائة ألف حديث وأبا داود وحده انتقى ما كتبه فى سننه وهو خمسة آلاف إلا مائتين من خمسمائة ألف حديث . فأى همة جبارة هذه وأعنى بها تدقيق ستمائة ألف حديث لكتابة أربعة آلاف حديث أو تدقيق خمسمائة ألف حديث لكتابة خمسة آلاف : فهذا العمل العظيم المحير للعقول فى سبيل تمحيص الأحاديث النبوية والذى يحق أن يكون فخر العلم الحديث الإسلامى وعلمائه ،

يستخدمه هيكل باشا فى زعزعة مكان الثقة بكتب الحديث فى قلوب الناس ، وقد كان الإمامان البخارى وأبو داود توخيا بعملهما هذا المثل الأعلى فى التمحيص والتوثيق. فليخش الله وليتقه أو ليسدد فهمه من قلب الأمر فاتخذه تهمة وسلاحا ضد كتب الحديث مطلقا ، على أن يكون فيها كتابا البخارى وأبى داود أيضا اللذان ليس كل منهما إلا روح التمحيص بالنظر إلى تعريف المتهم نفسه .

ولقد أساء معاليه جدا فى تفسير اختيار هذين الإمامين مااختاراه فى جامعيهمامن الأحاديث فقال فى اختيار البخارى مثلا : « وهذا معناه أنه لم يصح لديه من كل مائة وخمسين حديثا إلا حديث واحد فقط » فهو يزعم أن البخارى مثلا ينفى صحة جميع مابقى بعد استثناء أربعة آلاف من الستمائة ألف حديث التى كانت لديه ، مع أن البخارى لم يقصد استيعاب مالديه من الأحاديث الصحيحة بله استيعاب الأحاديث الصحيحة مطلقا ، وإنما أراد وضع مختصر يحتوى من الأحاديث النبوية طائفة فى أعلى درجات الصحة نظرا إلى الشروط الضيقة الملتزمة عنده حتى أخذه مسلم عليه فى أول صحيحه وعده من الإفراط فى الاشتراط وذهب الحاكم وتبعه البيهقى والحافظ أبو بكر بن العربى وإن لم يسلم لهم بذلك ، إلى أن شرط البخارى ومسلم أن لا يخرجا إلا حديثا سمعاه من شيخين عدلين ، وكل واحد منهما رواه أيضا عن عدلين كذلك إلى أن يتصل الحديث على هذا القانون برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الحافظ أبو بكر محمد بن موسى الحازمى فى كتابه « شروط الأئمة الخمسة » : « لم يلتزم البخارى أن يخرج كل ما صح من الحديث ، كما أنه لم يخرج عن كل من صح حديثه ولم ينسب إليه شىء من جهات الجرح ، وهم خلق كثير يبلغ عددهم نيفا وثلاثين ألفا ، لأن تاريخه (أى البخارى) يشتمل على نحو أربعين ألفا وزيادة ، وكتابه فى الضعفاء دون سبعمائة نفس ، ومن أخرج عنهم فى جامعه دون ألفين وكذا لم يخرج كل ماصح من الحديث.

ويشهد لصحة ذلك ما أخبرنا أبو الفضل ابن أحمد بن محمد أنبأنا ابن طلحة فى كتابه عن أبى سعيد الماليني أنبأنا عبد الله بن عدى حدثنا محمد بن احمد قال سمعت محمد بن حمدويه يقول سمعت محمد بن اسماعيل (يعنى البخارى) يقول «أحفظ مائة ألف حديث صحيح وأحفظ مائتى ألف حديث غير صحيح » وأنبأنا أبو مسعود عبد الجليل بن محمد فى كتابه أنبأنا أبو على أحمد بن محمد بن شهريار أنبأنا أبو الفرج محمد بن عبد الله بن أحمد أنبأنا أبو بكر الإسماعيلى قال سمعت من يحكى عن البخارى أنه قال « لم أخرج فى هذا الكتاب إلا صحيحا وما تركت من الصحيح أكثر »

فانظر ما قاله البخارى نفسه من أنه يحفظ مائة ألف حديث صحيح وأن ما تركه من الصحيح أكثر مما كتبه فى كتابه ، ثم انظر ما قاله هيكل باشا عن البخارى أنه لم يصح لديه من الأحاديث المتداولة وهى ستمائة ألف إلا أربعة آلاف ، يقول هذا فى مقدمة كتابه التى ادعى أنه كتبه على الطريقة العلمية فيسند إلى البخارى ماصرح هو بخلافه ، أفهذا طريقته العلمية ؟ وقد كنت لما كنت فى بلادى قرأت فى كتاب أحد من كتاب الترك المصريين أيضا حديث انتقاء أربعة آلاف حديث للبخارى من ستمائة ألف مع استغلال هذا الانتقاء لإثارة الشبهة ضد كتب الحديث ، فهذا الاتفاق بين كاتبين شرقيين يدل على اتحاد مأخذهما وكون ذلك المأخذ كتب أعداء الإسلام المستشرقين فيكون معنى الطريقة العلمية التى ادعى مؤلف « حياة محمد » اتباعها تبريرا لعدم اعتماده على كتب الحديث ، هى الطريقة العدائية لتلك الكتب ومكانتها فى الإسلام كأن أصحاب هذه الطريقة أعلم من الأحاديث بما صح لدى البخارى من البخارى نفسه .

مقصود مماليه من إثارة الشكوك جهد ما يستطيعه ومالا يستطيعه فى صحة كتب الحديث والسيرة ، تأييد مادعاه من عدم وجود معجزة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم غير القرآن ، بإسقاط ما روى فى كتب السيرة ثم ماروى منها فى كتب الحديث ، عن حيز الاعتداد متوسلا إلى هذا الإسقاط بإسقاط تلك الكتب نفسها أو على الأقل

بتنزيل ما فيها من الأحاديث الصحيحة منزلة النادر الذى هو فى حكم المعدوم .

وعلى كل حال كان الواجب على معالى وزير المعارف بمصر لا سيما وهو مؤلف كتاب « حياة محمد » أن يعلم أن أحاديث نبينا الصحيحة الصادرة عنه مدة حياته بعد مبعثه لا يمكن أن تنحصر عند البخارى فيما ذكره فى جامعه، بله فى بعض ما ذكر فيه كما ادعاه ، ولا أن يكون مسلمو خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، مقصرين نحو نبيهم إلى حد أنهم لم يضبطوا من أحاديثه إلا مقدار بعض ما فى جامع البخارى أو أبى داود .

ثم إذا فرضنا فرض المحال أن أحاديثه المضبوطة تنحصر فى ذاك المقدار كان الواجب على مؤلف «حياة محمد» أن يعلم أنه لا يخلو حتى ذلك القدر المضبوط من أحاديثه عما يكفى لإثبات أن له معجزات غير القرآن ، مع أن الأحاديث الصحيحة كثيرة جدا . قال صديقنا العالم الكبير الشيخ زاهد فى تعليقاته القيمة على « شروط الأئمة الخمسة » المارة الذكر : «قال الشيخ أبو بكر بن عقال الصقلى فى «فوائده» على مارواه ابن بشكوال إنما لم يجمع الصحابة سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مصحف كما جمعوا القرآن لأن السنن انتشرت وخفى محفوظها من مدخولها ، فوكل أهلها فى نقلها إلى حفظهم ولم يوكلوا من القرآن إلى مثل ذلك ، وألفاظ السنن غير محروسة من الزيادة والنقصان كما حرص الله كتابه ببديع النظم الذى أعجز الخلق عن الإتيان بمثله ، فكانوا فى الذى جمعوه من القرآن مجتمعين، وفى حروف السنن ونقل نظم الكلام نصًّا مختلفين، فلم يصح تدوين ما اختلفوا فيه ، ولو طمعوا فى ضبط السنن كما اقتدروا على ضبط القرآن لما قصّروا فى جمعها ، ولكنهم خافوا إن دونوا مالا يتنازعون فيه أن تجعل العمدة فى القول على المدون فيكذّبوا ما خرج عن الديوان فتبطل سنن كثيرة ، فوسعوا طريق الطلب للأمة فاعتنوا بجمعها على قدر عناية كل واحد فى نفسه ، فصارت السنن عندهم مضبوطة . فمنها ما أصيب فى النقل حقيقة الألفاظ المحفوظة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهى السنن السالمة من العلل ، ومنها ما حفظ معناها ونسى لفظها ، ومنها ما اختلفت الروايات فى نقل ألفاظها واختلف أيضا رواتها فى الثقة والعدالة ، وهى تلك السنن التى تدخلها العلل، فاعتبر صحيحها من سقيمها أهلُ المعرفة بها على أصول صحيحة وأركان وثيقة لايخلص إليها طعن طاعن ولا يوهنها كيد كائد . انتهى ماقاله أبو بكر بن عقال الصقلى .

ثم قال الشيخ زاهد: « ومما يلفت إليه النظر أن الشيخين (يعنى البخارى ومسلما) لم يخرجا فى الصحيحين شيئا من حديث الإمام أبى حنيفة مع أنهما أدركا صغار أصحاب أصحابه وأخذا عنهم . ولم يخرجا أيضا من حديث الإمام الشافعى مع أنهما لقيا بعض أصحابه ولا أخرج البخارى من حديث أحمد إلا حديثين : أحدهما تعليقا ، والآخر نازلا بواسطة مع أنه أدركه ولازمه ، ولا أخرج مسلم فى صحيحه عن البخارى شيئا مع أنه أدركه ولازمه ونسج على منواله ولا عن أحمد إلا قدر ثلاثين حديثا . ولا أخرج أحمد فى «مسنده» عن مالك عن نافع بطريق الشافعى وهو أصح الطرق أو من أصحها ، إلا أربعة أحاديث ، وما رواه عن الشافعى بغير هذا الطريق لا يبلغ عشرين حديثا مع أنه جالس الشافعى وسمع موطأ مالك منه وعده من رواة القديم . والظاهر من دينهم وأماناتهم أن ذلك من جهة أنهم كانوا يرون أن أحاديث هؤلاء فى مأمن من الضياع لكثرة أصحابهم القائمين بروايتها شرقا وغربا ، وجُل عناية أصحاب الدواوين بأناس من الرواة ربما كانت تضيع أحاديثهم لولا عنايتهم بها لأنه لا يستغنى من بعدهم عن دواوينهم فى أحاديث هؤلاء دون هؤلاء . ومن ظن أن ذلك لتحاميهم عن أحاديثهم أو لبعض ما فى كتب الجرح والتعديل من الكلام فى هؤلاء الأئمة كقول الثورى فى أبى حنيفة وقول ابن معين فى الشافعى وقول الكرابيسى فى أحمد وقول الذهلى فى البخارى ونحوها فقد حملهم شططا ... وأما ماقاله العلامة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه من أن أبا حنيفة لتشدده فى شروط الصحة لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثا ،

مهفوة مكشوفة لا يجوز ان يغتر بها ، لأن رواياته على تشدده فى الصحة لم تكن سبعة عشر حديثا فحسب بل أحاديثه فى سبعة عشر سفرا يسمى كل منها بمسند أبى حنيفة خرجها جماعة من الحفاظ وأهل العلم بالحديث بأسانيدهم إليه ما بين مقل منهم ومكثر حسبما بلغهم من أحاديثه ، وقلما يوجد بين تلك الأسفار سفر أصغر من سنن الشافعى رواية الطحاوى ، ولا من مسند الشافعى رواية أبى العباس الأصم اللذين عليهما مدار أحاديث الشافعى . وقد خدم أهل العلم تلك المسانيد جمعا وتلخيصا وتخريجا وقراءة وسماعا ورواية ، فهذا الشيخ محدث الديار المصرية الحافظ محمد بن يوسف الصالحى الشافعى صاحب الكتب الممتعة فى السير وغيرها يروى تلك المسانيد السبعة عشر عن شيوخ له مابين قراءة وسماع ومشافهة وكتابة بأسانيدهم إلى مخرجيها ، فى كتابه « عقدالجمان » وكذا يرويها بطرق محدث البلاد الشامية الحافظ شمس الدين بن طولون فى « الفهرست الأوسط » وهما كانا زينى القطرين فى القرن العاشر . وكتاب « عقود الجوهر المنيفة » للحافظ المرتضى الزبيدى شذرة من أحاديث الإمام ، وللحافظ محمد عابد السندى كتاب : « المواهب اللطيفة على مسند أبى حنيفة » فى أربع مجلدات أكثر فيه جدا من ذكر المتابعات والشواهد ورفع المرسل ، ووصل المنقطع ، وبيان مخرجى الأحاديث والكلام فى مسائل الخلاف . ومن ظن أن ثقات الرواة هم رواة الستة فقط فقد ظن باطلا ، وقد جرد الحافظ العلامة قاسم بن قطلوبغا الثقات من غير رجال الستة فى مؤلف حافل يبلغ أربع مجلدات ، وهو ممن أقر له الحافظ ابن حجر وغيره بالحفظ والإتقان » .

فقد تبين مما تقدم لاسيما من النقلين القيمين الأخيرين أن الأحاديث الصحيحة ليست كما أوهمه معالى المؤلف أقل من القليل ، بل على العكس أكثر من الكثير ، وكما أن لكتاب الله حفاظا فللسنة أيضا حفاظ حفظ الله بهم حكم قوله فى كتابه « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه

إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ولولم تكن السنة محفوظة بل ضائعة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لضاع منها حكم هذه الآية فى غير شطرها الأول ، مع أن هذا الشطر أيضا محتاج فى الأكثر إلى بيان السنة ، وضاع أيضا حكم قوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ولا يجوز أن يكون وجوب طاعة الرسول مقصوراً على المؤمنين الوجودين فى عصره . ولا ضرورة فى حمل الآية عليه بعد أن كانت سنة خاتم النبيين محفوظة بهمم رجال أرادوا بدافع حبهم لدين الإسلام أن تكون محفوظة وبذلوا فى حفظها جهوداً تبهر العيون إلا عين من أراد إعدامها وقلب الأمور حتى عد دافع الحب الدينى منقصة للمحافظ !

وما أعجب عقلية الكتاب المصريين لايرون فى أنفسهم وهم صفوة الشرق ، ولا فى كتاب الغرب وهم قادتهم، معجزة فينكرون معجزات الأنبياء، ولا يرون فى أنفسهم قدرة وحماسة فى حفظ أحاديث نبيهم ، ولا لتدقيق ما حفظ الحفاظ حتى ولا دافعا دينيا إليه فينكرون صحة الأحاديث المحفوظة ، ويحطون من قيمة الدافع الدينى ويملون أنفسهم بدعوى الطريقة العلمية فى تأليف الكتب من غير دليل لهم على هذه الدعوى غير تقليد الغربيين . فإن كان الغربيون المؤلفون فى السيرة المحمدية يلتزمون الطريقة العلمية وينتهجونها فى تدقيق حياة محمد صلى الله عليه وسلم حين لاينتهجها أئمة الإسلام المحدثون وكانت الطريقة العلمية توصل منتهجيها إلى الحق وكان معالى مؤلف « حياة محمد » يعتقد بكون نبوة محمد حقا ، لزم أن يصدق الغربيون أصحاب التأليف فى السيرة المحمدية نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيُسْلِموا أو أن لا تكون الطريقة التى سلكوها فى تدقيق حياته طريقة علمية أو أن لاتكون الطريقة العلمية تذهب بسالكها إلى الحق والحقيقة . فلا مندوحة من أن تكون النتيجة المنطقية للمقدمات الثلاث المذكورة أحد هذه الأمور الثلاثة ، ولا يمكن نقض هذا الإنتاج المنطقى ولو حدث مائة ألف (موضة) من الطريقة العلمية يتمسك بها المصريون مستخفين بالمنطق القديم . نعم

لا مندوحة من أحد الأمور الثلاثة الأولى التى ألزمناها أحدَ الثلاثة الأخرى . وأجدرُ ما فى تلك الثلاثة بالرجوع عنـه هو كون طريقة الغربيين المؤلفين فى حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم طريقة علمية أقوم من طريقة علماء الإسلام .

فقد علم القارئُ سـوء ظن معالى مؤلف « حياة محمد » بكتب الحديث ورواته ورميهم بالأغراض الدينية والسياسية ، وفى مقابل ذلك حسن ظنه بالمؤلفين الغربيين لاتباعهم الطريقة العلمية ؛ وليسمع الآن باختصار ماذا يقول العالم الهندى مولانا شبلى النعمانى مؤلف كتاب ضخم فى الحياة النبوية قبيل كتاب معالى هيكل باشا ، بهـذا الصدد وكيف يبتدئُ كتابه[1] :

« إن أسمى الوظائف والواجبات وأعظم الأفعال فى هذه الدنيا السعى لإصلاح وإكمال الأخلاق الإنسانية وآدابها . فواجب الإنسان فى هذه المهمة أولا أن يقتنع بفكرة صحيحة فى القواعد الأساسية لفضائل الأخلاق والزهـد والتقوى والشرف والـكرامة والأريحية والمساحة والعفو ، والصفح والعزم ، والصبر والتضحية والجد والهمة ، ثم السعى لنشر هذه الفـكرة فى وجه الأرض وإرساخها فى الأذهان .

« وطرق القيام بهذه الخدمة كثيرة كالوعظ للجماعات ، وإلقاء الخطب وتأليف الـكتب القيمة ونشرها أو تحميل تلك الفضائل للناس بالقوة ومنعهم عن خلافها .

« لـكن أفضل الطرق إلى هذه الغاية وأنفعها إراءةُ موجود تاريخى يثبت كون تلك الأسس الأخلاقية والتلقينات الأدبية فعلية حقيقية ، ويكون مثالا مجسما للفضائل ، لأن هـذا الوجود التاريخى دليل قطعى لمتانة تلك الأسس وسموها وماهيتها الفعلية ، فـكل قول من أقوال هذه الشخصية التاريخية يكون أوقع فى النفوس من ألف كتاب فى الأخلاق وكل إشارة منها يكون مطاعا كالأمر المبرم ، وفى الأصل أن الأمثلة أحسن من الدساتير وأقرب إلى الفهم .

[١] ترجم هذا الـكتاب إلى اللغة التركية وأنا عربت الـكلمة الآتية من تلك الترجمة .

« وكل الدنيا اليوم باعتبار مافيها من الفضائل الأخلاقية مدين لأمثال هؤلاء القادة الروحانيين والشخصيات القدسيين أعنى أنبياء الله المبعوثين إلى الناس فى أزمنة مختلفة وليس مساعى الدنيا غير تلك الفضائل إلا طلاء لبنيان المدنية .

« بيد أنا نفهم مما علمنا من تاريخ العالم أن كل واحد من الشخصيات العالية التى هى مُثل الاقتداء ، يمثل نوعا من الفضائل ويجسم صفحة من الكمال الخلق ، فالمسيح عليه السلام يعلّم الحلم والعفو والصبر والاحتمال والصلح والسلام والقناعة والتواضع ، لكن تعليمه هذا لاينطوى على قواعد الأخلاق اللازمة للحكومة والإدارة ، وما علّمه سيدنا موسى ونوح من نوع الفضائل والكمالات لاينطوى على ماعلمه سيدنا عيسى منها .

« فيظهر أن كل دور من أدوار التاريخ الإنسانى المختلفة كان محتاجا إلى واحد من تلك الشخصيات المقدسة ، وكانت حاجة ذاك الدور الخاصة به تقضى بذلك الواحد ، ومع هذا كانت الإنسانية منتظرة للإنسان الكامل الذى ليس بملك فقط أو قائد فقط بل زاهد متق أيضا فى الوقت نفسه ، وزعيم عام وموجود متواضع مطيع لخالقه مشفق على الخلق كريم قنوع فقير . فهذا الإنسان الكامل الجامع لكل موجودية إنسانية ذروةُ البشرية العليا وأكبر موفقياتها .

« وكما أن كل شئ فى الدنيا فان ، فهذا الإنسان الكامل أيضا ليس بخالد من حيث المادية ، فلهذا يجب أن يسجل ماقاله وأن ينقل من سلف إلى خلف وأن يثبت كل ناحية من سجاياه ويضبط كل عمل من أعماله ويروى بكل صدق وإخلاص ، وأن تصور كل حالة من حالاته ومواقفه ، لأن كل واحد من ذلك منبع نور لإرشاد البشر فى كل زمان وذخر هداية لإدارة الناس فى كل واد من أودية الحياة .

« ومن المصادفات الجديرة بالدقة والتأمل أن المعلومات التاريخية المتعلقة بمؤسسى الأديان السائرة صلوات الله وسلامه عليهم كلها ناقص ، وفى هذا مشابهة لكون كل

منهم ممثلا لبعض أقسام الفضائل الخلقية المختلفة فحسب ، فنحن لانعلم مثلا من وقائع حياة المسيح الممتدة ٣٣ سنة إلا مايختص منها بثلاث سنين ، حتى إن هذا النقص الزائد فى حياته المضبوطة حدا كثيراً من النصارى إلى إنكار وجود سيدنا المسيح بالمرة . ونحن لانطلع على مجددى إيران الدينيين إلا بشهنامة الشاعر الفردوسى . أما المرشدون الدينيون الذين ظهروا فى الهند فتاريخهم منتقب بنقاب الأساطير . ومنبع المعلومات عن حياة سيدنا موسى الكليم هو التوراة التى جمعت بعد وفاته بثلاثمائة عام.

« وربما كان هذا النقص فى المعلومات التاريخية عنهم حكمَ الطبيعة لأن تلقينات هؤلاء الأنبياء وأولئك المجددين والمرشدين لم تكن مما لابد منه بالنسبة إلى كل زمان فربما من أجل ذلك لم يخلد تاريخهم بجميع تفاصيله ، وإنما حفظت أقسامه التى كان لازما أن تعلم وتحفظ ، وأكبر حاكم فى تعيين حاجات كل دور من أدوار الزمان هو الطبيعة فمتى أحست هى حاجة أى دور إلى شىء فالله تعالى يعطيه من فضله .

« ثم ان كل ملة وكل طائفة من معتنق الأديان تقدس دينها وتفضله على دين غيرها . فلو وجهنا سؤالا عاما إلى جميع أهل الأرض عمن له الوجودية الفائقة من بين مؤسسى الأديان فلا شك أن الأجوبة على هذا السؤال ترد مختلفة بعدد اختلاف مرسليها فى الدين ، ولكن إذا زدنا تفصيلا وإيضاحا فى لفظ السؤال فقلنا مثلا : مَن ذا الذى ضبط جميع نصوص كتابه المنزل عليه ضبطا وثبت حرفيا بموثقية وصداقة لم تكونا من حظ الكتب المقدسة ؟ ومن ناحية أخرى قيد ونقل جميع وقائع حياته وجميع أعماله وأقواله وأسفاره وأخلاقه وعاداته حتى شكل لباسه وصورة تلبسه وخطوط وجهه وكيفية تكلمه ومشيه وطرز معاشرته ، وحتى أكله وشربه ونومه وتبسمه ومساعيه بجميع فروعه وتفاصيله ؟ فالجواب لابد أن يكون : محمد صلى الله عليه وسلم . »

لقد أحسن هذا المؤلف الفاضل فى التنبيه إلى امتيازه صلى الله عليه وسلم على سائر

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بل امتيازه على جميع مشاهير الدنيا وعظمائها الدينيين والدنيويين بضبط حياته وسيرته وحفظ أقواله وأفعاله[1] ، وأحسن خصيصاً فى التنبيه على حكمة هذا الامتياز بكونه يجمع كل نوع من أنواع الفضيلة وخصال العظمة لامختصا ببعضها . وأنا أضيف إليه أن كونه خاتم النبيين يقتضى أن يكون جامع الفضائل ومتمم مكارم الأخلاق ، وأن تكون تلك الفضائل الجامعة والمكارم الشاملة مأثورة عنه محفوظة ، إذ لا يأتى بعده نبى آخر يتمها ويصلح ما فسد منها . فيلزم أن يكون نبينا صلى الله عليه وسلم ممتازاً على أسلافه الكرام بجمع أسباب العظمة فى نفسه وانتقال أنبائه وأحاديثه محفوظة بحفظ الله تعالى ، إلى أمته التى بعث إليها وهى كافة الناس الموجودين فيما بين مبعثه وقيام الساعة . وليس فى القرآن ذكر سيرته وسنته ولو بقدر ما فى الكتب المقدسة القديمة من أنباء الأنبياء الذين نزلت عليهم تلك الكتب ، فلزم أن تكون سنته محفوظة بحفظ مستقل كما حفظ كتابه ، وقد كانت كذلك بفضل الله وبحمده ، فالآن وفى كل زمان من حق الإسلام أن يباهى جميع الأديان بحفظ كتابه وسنته . ولئن دخلت فى الأحاديث موضوعات فما لبث علماء الحديث ونقاده أن تعقبوها وتعرفوها وميزوها عن الصحيح الثابت . وليس فى الذين أثاروا الشك فى السنة من المستشرقين ومقلديهم من المسلمين المصريين بحجة وجود الأحاديث الموضوعة ، أحد وجد حديثا موضوعا بتعقيب وتدقيق من عند نفسه غير ما وجده علماء الإسلام المتقدمون .

ولا مغالاة أصلا فى نفى من يساوى محمدا صلى الله عليه وسلم أو يدانيه فى كون حياته بعد مبعثه إلى وفاته ولاسيما أحاديثه مع المناسبات الداعية إلى ورودها ، مضبوطة

---

[١] بينما حياة بعض مؤسسى الديانات ــ مثل محمد ــ واضحة معروفة ، ظلت حياة مؤسسى المسيحية على وجه التقريب مجهولة ويجب أن لا نبحث عنها فى الأناجيل كما فعلوا ذلك من قبل فإن العلم لم يعد يعتقد إمكان ذلك اليوم .

حياة الحقائق لجستاف لبون ص ٦٨ .Gustave Le Bon La Vie des Vérités P 68

مدونة . ولا محل لأن يقول قائل : كون حياته صلى الله عليه وسلم بكل تفاصيلها موضع اعتناء وتدوين لم يقع مثلهما لأى أحد فى الدنيا مسلم به ، وإنما الشبهة فى صحة المعلومات المدونة والأحاديث المروية ، لا محل لهذا القول بناء على أن الاعتناء المنقطع النظير إنما يؤيد صحة المدون المضبوط لاشبهة المشتبهين فى صحته ، فكلما زاد الاعتناء بالضبط ازداد احتمال صحة المضبوط قوة والشبهة فى صحته ضعفا . ولا نغالى أيضا إذا قلنا إن ضبط سنة نبى الإسلام أصح وأثبت من ضبط كتب أهل الكتاب .

فقد أدى كمال الاعتناء الإسلامى بحياة نبينا وتتبع أقواله وأفعاله ، إلى الاعتناء بحياة المتتبعين أنفسهم أعنى الرواة عنه ، وليس فى الدنيا أحد عُنى فى سبيل العناية به ، بكل من لقيه وبكل من روى عنه شيئا ، وبمن روى عمن روى عمن روي الخ والف فيهم الكتب فكتب فى طبقات ابن سعد وطبقات ابن ما كولا ، وكتاب الصحابة لابن السكن ، وكتاب ابن جارود ، وكتاب العقيلى ، وكتاب ابن أبى حاتم الرازى ، وكتاب الأزرق ، وكتاب الدولابى ، وكتاب البغوى و «أسد الغابة» و «الاستيعاب» و « الإصابة » ثلاثة عشر ألف صحابى مع تراجمهم ، ودُرس فى كتب أسماء الرجال من التابعين وتبع التابعين حياة مائة ألف رجل على الأقل . وعلى تخمين العالم الألمانى « أشبره نكر » خمسمائة ألف . فلا أغالى إذا قلت أيضا إن كيفية الاعتناء بحياة محمد صلى الله عليه وسلم معجزة من معجزات الإسلام . لكن معالى هيكل باشا مؤلف « حياة محمد » يحاول الحط من قيمة هذا الاعتناء لكونه من منكرى المعجزات . قال العالم الألمانى المار الذكر فى مقدمة كتاب تولى تصحيحه وطبع فى « كالكوتا » اسمه « صانه » : « إن الدنيا لم تر ولن ترى أمة مثل المسلمين ، فقد درس بفضل علم الرجال الذى أوجدوه حياة نصف مليون رجل » كما فى سيرة المؤلف الهندى المار الذكر ، وكتابه أصح وأثرى مراجع إسلامية أو غربية بما لايقاس عليه كتاب معالى هيكل باشا .

كان كل هذا التوسع فى تدقيق أحوال الرجال للاطلاع على منزلة رواة الأحاديث فى الصدق والضبط والأمانة . قال المؤلف الفاضل الهندى : « وسائر الأمم كانوا إذا أرادوا تدوين تاريخ قوم قيدوا كل ماسمعوه عنهم حتى ماسمعوا فى الشوارع، وكل رواية لا أساس لها من الصحة ، وليس لرواة تلك المسموعات وجود حقيق جدير بالاعتماد فينتخب من تلك الروايات ما هو أنسب للتخمين وأوفق للقرائن المتعلقة بذلك العهد وتعتبر هذه المنتخبات بعد مدة تاريخا . فقد أنشأ كتاب أوربا تاريخ الأوربيين بهذا الشكل » والمطلوب الأول عند علماء الحديث أن يكون الراوى ممن له صلة بالحادثة التى رواها أو استطاع إراءة سلسلة الإسناد مبتدئة ممن روى الحادثة متصاعدة إلى الراوى الأصلى وينظر خلال ذلك فى سجية كل من ذكر اسمه فى سلسلة الإسناد وخلقه ومسلكه وعقله ودقته وقوة ذاكرته وأمانته وعلمه ، ولم يكن من السهل الإحاطة بهذه الأحوال ، لكن المئات بل الألوف من المحدثين كرسوا جهودهم وأنفقوا أعمارهم فى هذا السبيل فكانوا يسيحون فى البلاد ويلاقون الرواة ويفحصون أحوالهم ويتعلمون أحوال من مات منهم من معارفه الأحياء ، فحصل من ذلك علم أسماء الرجال بجانب علم الحديث .

أما تأثير سياسة الحكومات فى رواية الأحاديث أو وضعها فيتداركه التزام تزكية الرواة . على أن الأموية والعباسية كانتا من أكبر دول العالم فى عهدها ، وكان الأمويون يسبون عليًا وأولاد فاطمة رضى الله عنهم فى خطب الجمعة ، ويختلقون أحاديث فى مدح معاوية رضى الله عنه وكذلك وضعت أحاديث فى زمن العباسيين تزلفا إليهم، ومع هذا فلم يلبث أن أعلن أئمة الحديث كونها زيوفا ولم يبق شئ منها حتى بقدر ما بقى من الأحاديث التى وضعها الشيعة والتى لم تنج هى أيضا من تعقب المحدثين .

نعود إلى مواصلة ما أردنا نقله عن كتاب هيكل باشا :

« والواقع أن المنازعات السياسية التى حدثت بعد الصدر الأول من الإسلام أدت إلى اختلاق كثير من الروايات والأحايث تأييداً لها . فلم يكن الحديث قد دون إلى

عهد متأخر من عصر الأمويين ، وقد أمر عمر بن عبد العزيز بجمعه ، ثم لم يجمع إلا في أيام المأمون بعد أن أصبح الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود على قول الدارقطني[1] ولعل الحديث لم يجمع في الصدر الأول من الإسلام لما كان يروى عن النبي أنه قال : « لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن ومن كتب شيئا غير القرآن فليمحه » على أن أحاديث النبي كانت متداولة على الألسن من يومئذ وكانت الروايات تختلف فيها . ولقد أراد عمر بن الخطاب أثناء خلافته أن يتدارك الحال في ذلك بأن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي في ذلك فأشاروا عليه بأن يكتبها فطفق عمر يستخير الله شيئا ثم أصبح يوما وقد عزم الله (أي خلق له أسباب العزم من القوة والصبر) فقال : « إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدا » وعدل عن كتابتها ، وكتب في الأمصار عنها : « من كان عنده شيء فليمحه » وظلت الأحاديث بعد ذلك تتوالد وتتداول حتى جمع ما صح لدى جامعيه منها في عهد المأمون » ص ٤٩ — ٥٠

أقول : لو كان مؤلف « حياة محمد » مشى على الطريقة العلمية كما يدعيه لما كتب هذه الكلمات ولم ينقل هذه الروايات مستدلا بها على عدم جواز الاعتماد على صحة الأحاديث المروية في كتب الحديث ، إذ لو كان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن

---

[١] قول الدارقطني هذا الذي هو تمثيل الموجود بالمعدوم شطط منه حيث يعدم الأحاديث بقوله هذا ، وهو أي هذا القول أحق بالإعدام لتناقضه مع عمله لكونه نفسه أيضاً من جامعي الحديث . والغريب أن الدارقطني من المجسمة المستدلين على مذهبهم السخيف ببعض الأحاديث وهو القائل في الله تعالى :

فلا تجحدوا انه قاعد ولا تجحدوا انه مُقعد

أي يُقعد من شاء إلى يمينه ومن شاء إلى شماله . فيفهم أن الشعر الأبيض في جلد الثور الأسود هو تلك الأحاديث الحقيقة لأن تكون في رأس الشعرات السوداء لتضمنها مالا يقبله العقل بشأن الله تعالى .

كتابة أحاديثه وأمر بمحو ما كتب أمراً ونهياً باتّين لما حاول عمر من أول الأمر أن يكتبها ولا استفتى الأصحاب فى ذلك ولا أفتوا هم بذلك . ثم لو كان عمر عاد أخيراً إلى العمل بقول النبى صلى الله عليه وسلم (من كان عنده شىء فليمحه) وكانوا هم محوا ما كتبوه لما كتب المحدثون بعدهم كتبهم التى نراها مثل موطأ مالك ومسانيد أبى حنيفة والشافعى ومسند أحمد بن حنبل وصحيحى البخارى ومسلم وسنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، فهل يقبل العقل أن الأمة كلهم حتى عمر والأصحاب خالفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينتهوا بنهيه ، وزاد المحدثون نخالفوا إجماع الصحابة أيضاً وأثبتوا ما محوا ، بل لم يثبتوا إلا زيوف ما محوا بعـد أن ضاع الأصل بمحوهم . فهذا غاية فى سوء الظن بكتب الحديث وعلمائه من مؤلف « حياة محمد » .

ثم إن الماشى على الطريقة العلمية فى الـكتابة يلزمه أن يفكر فيما ذا قد يكون مراد النبى صلى الله عليه وسلم بالنهى عن كتابة أحاديثه والأمر بمحو ما كتب منها؟ فهل النبى رجع عن الأحاديث التى قالها ؟ أو كان لا يريد أن تبقى أحاديثه بعده بل تنسى لـكونه بنفسه أيضاً شاكا فى صحتها كمؤلف « حياة محمد » ؟ أم يريد شيئا آخر يأتلف مع العقل وإن لم يأتلف مع مقصد المؤلف ؟ وكان يلزمه أن يفـكر أيضا كيف وصل إليه حديث الأمر بمحو الأحاديث المـكتوبة ولَم يُمْحَ مع الأحاديث ؟ أليس هو أيضا حديثا ؟ أم يصل إليه ما يحلو له ولا يصل إلى الناس مالا يحلو له ؟ .

كل هذه الأسئلة ترد على ناقل تلك الروايات الناهية عن كتابة الحديث نقلا يقصد به التشـكيك فى صحة الأحاديث الموجودة فى كتب الحديث بجملتها . نعم هذه الروايات معلومة أيضا لأئمة الحديث ومعترَف بهـا على أنها أساس مذهب بعض الأجلة ، فقد انقسمت آراء الأقدمين فى المسألة على طرفين من الـكتابة وعدمها ، ولـكل من الطرفين أدلة نقلية تمسكوا بها . ولم يذكر مؤلف « حيـاة محمد » مذهب القائلين بكتابة الحديث وأدلتهم وكاتبيه منذ عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، صيانة لدعواه

التى التزمها فى تأليفه من الانتقاض كما هو دأب المؤلفين الغربيين ، فتكون لهم عقلية مخصوصة فى مسألة تاريخية قبل أن يكتبوا كتابا يتعلق بها ، فيلتزمون تفسير ماصادفوه عند البحث فى المسألة على وجه يلائم عقليتهم المقررة ، ويكون هذا الالتزام وهذا التفسير منهم طريقة علمية ، وقد يجرهم التزامهم إلى خطايا أخرى عظيمة فلا يجتنبون ارتكابها فى سبيل الإصرار على عقليتهم ، وقد يصطدمون بما ينبههم على خطاياهم فلا ينتبهون . ومؤلف « حياة محمد » كتبها مفتتنا بفكرة يحسبها فكرة علمية وهى عدم إمكان المعجزات ! ومن أجل ذلك قال إن محمدا صلى الله عليه وسلم لامعجزة له غير القرآن . فإذا ذكر مافى كتب الحديث من معجزاته أنكر صحة مافى تلك الكتب . فارتقى الأمر من إنكار المعجزات وإنكار الأحاديث الواردة فيها إلى إنكار الأحاديث مطلقا ، وارتقى من الإنكار الثانى إلى إنكار كتابة الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم . فالطريقة العلمية أو بالأصح الطريقة المزعومة علمية أضلته السبيل وجرّت عليه جرائر . وتراه يكتب فى كتابه عن النبى فى خطبته التى ألقاها فى حجة الوداع قوله[1] : « وقد تركت فيكم ما أن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا كتاب الله وسنة رسوله » وكيف يقول إنه ترك فى أمته سنته ليعتصموا بها مع كتاب الله وقد كان نهى عن كتابة السنة وأمر بمحو ما كتب منها ، فأين السنة وأين خطبة حجة الوداع؛ لأنها أيضا مقضى عليها بالمحو بناء على حديث « من كتب منى غير القرآن فليمحه » .

هذا دأب مؤلفى الغرب ينقلون من الروايات مايوافق عقليتهم ويتركون مايخالفها، لكن مؤلفى الإسلام ولا سيما أئمة الحديث الناقلين عن رسول الله لا يستنكفون عن رواية الآثار التى لاتؤيد مااختاروه من المذهب ، مراعاة لشرط الأمانة . وأشد مما فعله مؤلف « حياة محمد » من التنويه بذكر الحديث الناهى عن كتابة الحديث فقط تاركا ذكر ما يقابله من أحاديث أخرى ، وأعظم منه جرما ، أنه حرف مذهب المانعين عن

---

[١] ص ٤٧٤ « حياة محمد » الطبعة الثانية .

كتابة الحديث الذى تمسك به كل التمسك ، عما أرادوه بمذهبهم هذا ، فقد اختلف فى كتابة الحديث وعدم كتابته ولكن لم يستخرج أحد من مذهب منع الكتابة عدمَ الاعتماد على الأحاديث الموجودة فى كتب الحديث .

وقد عقد الحافظ ابن عبد البر فى كتابه « مختصر جامع بيان العلم وفضله » بابين بصدد هذه المسألة عنوان أولها « باب ذكر كراهية كتاب العلم وتخليده فى الكتب » والثانى « باب الرخصة فى كتاب العلم » فذكر فى الباب الأول حديثا رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تكتبوا عنى شيئا غير القرآن فمن كتب عنى شيئا غير القرآن فليمحه) ثم قال : وعن أبى نضرة قلت لأبى سعيد الخدرى ألا نكتب ما نسمع منك قال تريدون أن تجعلوها مصاحف ؟ إن نبيكم صلى الله عليه وسلم كان يحدثنا فنحفظ فاحفظوا كما كنا نحفظ . وعن ابن وهب قال سمعت مالكا يحدث أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب هذه الأحاديث أو كتبها ثم قال : « لا كتاب مع كتاب الله » وقال وعن الوليد بن مسلم قال سمعت الأوزاعى يقول « كان هذا العلم شيئا شريفا إذا كان من أفواه الرجال يتلاقونه ويتذاكرونه فلما صار فى الكتب . ذهب نوره وصار إلى غير أهله » ثم قال المؤلف أعنى الحافظ ابن عبد البر : « من كره كتاب العلم كره لوجهين : أحدهما أن لا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به ، ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ كما قال الخليل .

ليس بعلم ما حوى القِمَطْرُ   ما العلم إلا ما حواه الصدر »

أقول ويحسن هنا تذكير ما نقلناه سابقا عن « فرائد » ابن عقال الصقلى : « إنما لم يجمع الصحابة سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مصحف كما جمعوا القرآن لأن السنن انتشرت وخفى محفوظها من مدخولها فوكل أهلها فى نقلها إلى حفظهم ولم يوكلوا من القرآن إلى مثل ذلك ، وألفاظ السنن غير محروسة كما حرس الله كتابه ببديع النظم الذى أعجز الخلق عن الاتيان بمثله ، فكانوا فى الذى جمعوا من القرآن مجتمعين وفى

حروف السنن ونقل نظم الكلام نصا مختلفين ، فلم يصح تدوين مااختلفوا فيه ، ولو طمعوا فى ضبط السنن كما اقتدروا على ضبط القرآن لما قصّروا فى جمعها ولكن خافوا إن دونوا مالا يتنازعون أن تجعل العمدة فى القول على المدون فيكذّبوا ما خرج عن الديوان فتبطل سنن كثيرة فوسموا طريق الطلب للأمة فاعتنوا بجمعها على قدر عناية كل أحد فى نفسه » وهو كلام حسن جدا .

وقال الحافظ ابن عبد البر أيضا . « من ذكرنا قوله فى هذا الباب فإنما ذهب فى ذلك مذهب العرب لأنهم كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك ، والذين كرهوا الكتاب كابن عباس والشعبى وابن شهاب والنخعى وقتادة ومن ذهب مذهبهم وجبل جبلتهم كانوا قد طبعوا على الحفظ فكان يجتزئ بالسَّمعة ، ألا ترى إلى ما جاء عن ابن شهاب أنه كان يقول أنى لأمر بالبقيع فأسد آذانى مخافة أن يدخله فيها شيء من الخنا ، فوالله مادخل أذنى شيء قط فنسيته . وجاء عن الشعبى نحوه . وهؤلاء كلهم عرب وقد جاء عن ابن عباس حفظ قصيدة عمر بن أبى ربيعة : « أمن آل نعم أنت غاد فمبكر » فى سمعة واحدة فيما ذكروا وليس أحد اليوم على هذا ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم . وقد أرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتاب العلم ورخص فيه جماعة من العلماء وحمدوا ذلك ونحن ذاكروه بعد هذا إن شاء الله . وقد دخل على إبراهيم النخعى شيء فى حفظه لتركه الكتاب . وعن منصور قال كان إبراهيم يحذف الحديث ، فقلت له إن سالم بن الجعد يتم الحديث قال إن سالما كتب وأنا لم أكتب (قال ابن عبد البر) فهذا النخعى مع كراهته لكتاب الحديث قد أقر بفضل الكتاب » .

وقال فى الباب الثانى : « عن أبى هريرة : لما فتحت مكة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب قال فقام رجل من اليمن يقال له أبو شاه فقال يارسول الله اكتبوا

لى ، فقال صلى الله عليه وسلم (اكتبوا لأبى شاهٍ) يعنى الخطبة . وعن عبد الله بن عمرو قال كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتنى قريش وقالوا أتكتب كل شىء تسمعه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم فى الرضا والغضب فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال (اكتب فوالذى نفسى بيده ما يخرج منى إلا حق) وعنه أيضا ما يرغبنى فى الحياة إلا خصلتان : الصدقة والوهط أما الصدقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها . وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره . وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قيدوا العلم بالكتاب) .

« وفى باب العلم من صحيح البخارى قول أبى هريرة . ليس فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أعلم منى بأحاديثه إلا عبد الله بن عمرو بن العاص المار ذكره أسلم قبيل أبيه وكان هو وعلىّ وأنس ممن يكتبون الحديث . فنى « تقييد العلم » للخطيب البغدادى أن الصحابة كانوا يجتمعون حول أنس ليستمعوا منــه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يخرج من جيبه صحيفة ويقول « هذه أحاديث سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيدتّها » .

« وعن إسحق بن منصور قال : قلت لأحمد بن حنبل من كره كتابة العلم ؟ قال كره قوم ورخص فيه آخرون قلت له لو لم يكتب العلم لذهب، قال نعم لولا كتابة العلم أى شىء كنا نحن ؟ قال إسحق وسألت إسحق بن راهويه فقال كما قال أحمد ».

وفى سيرة الفاضل الهندى المارة الذكر نقلا عن سنن أبى داود وابن ماجه « أنه لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت هـذه الوثائق حاضرة : الأحاديث التى كتبها عبدالله بن عمرو بن العاص وعلى وأنس ، العهود المكتوبة مثل صلح الحديبية،

الأوامر المرسلة إلى القبائل المختلفة والرؤساء ، أسماء ألف وخمسمائة صحابى . »

فقد انجلى من كل هذا أنه كتب فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء كثير من أحاديثه وما لم يكتب منها بقيت محفوظة فى الصدور إلى أن جمعها أئمة الحديث فى كتبهم . وعدم كتابتها أولا كان ناشئا من اهتمام العرب بالحفظ أكثر من الكتابة فكأنهم كانوا يعدون المكتوب عرضة للإهمال وعدم الاهتمام بالنسبة إلى المحفوظ فى صدورهم ، على عكس ما يتوهم . فمن استخرج من عدم كتابتهم الأحاديث اعتماداً على حفظهم ، عدمَ صحة الاعتماد على ما كتبه جامعو الصحاح بعد زمان مما وصل إليهم من محفوظات الرواة واعتبارَه مكتوبا من غير أساس صحيح كما فعله مؤلف « حياة محمد » ، كان كمن استخرج من اعتماد الحفاظ على حفظهم معنى عدم الاعتماد وقلب نفس الأمر إلى عكسه .

بل نقول : وقبل أن جمع الأحاديث جامعوها مثل البخارى ومسلم وغيرهما قام أئمتنا المجتهدون مثل أبى حنيفة ومالك والشافعى وأصحابهم بتدوين علم الفقه الذى هو أيضا من معجزات الإسلام الخاصة به فدونت السنة أيضا فى ضمن هذا العمل العظيم قبل تدوين المحدثين فازدوجت المعجزتان وكُتب الخلود للسنن وكان هذا مساعدة كبيرة متقدمة لعلم الحديث ونقل رواته ، ألا يرى أن عمل إمام معروف من أئمة الفقه بحديث من الأحاديث يعتبر مؤيداً لدرجته من الصحة. بقى أنه لا يرد علينا وعلى الحافظ ابن عبد البر الذى نقلنا شيئا من كتابه عند ما ادعينا اهتمام العرب بالمحفوظ أكثر من المكتوب ، الاعتراضُ بالقرآن ، لأنه مكتوب ومحفوظ معا ، لكن الحديث لما لم يكن فى مرتبة القرآن لزم إما أن يكون مكتوبا فقط أو محفوظا فقط ، فمن فضّل الكتابة نظر إلى أنها أبقى ومن فضل الحفظ نظر إلى أنه أدعى إلى الاهتمام وان زيادة الاهتمام كفيلة بالبقاء أيضا . وهذا تمام تحقيق المقام.

نعود إلى النقل عن كتاب هيكل باشا : قال معاليه :

« ومع ما أبداه جامعو الحديث من حرص على الدقة لا ريب فيه فقد جرح

بعض العلماء كثيراً من الأحاديث أثبتها جاموها على أنها صحيحة . قال النووى فى شرح مسلم : (قد استدرك جماعة على البخارى ومسلم أحاديث أخلاً بشرطهما فيها ونزلت عن درجة ما التزماه[١]) ذلك أن الجامعين قد جعلوا مقياس السند والثقة بالرواية أساسَهم فى قبول الحديث ورفضه ، وهو مقياس له قيمته لكنه وحده غير كاف ، وعندنا أن خير مقياس يقاس به الحديث ويقاس به سائر الأنباء التى ذكرت عن النبى ما روى عنه عليه السلام أنه قال : (إنكم ستختلفون من بعدى فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله وما خالفه فليس عنى[٢]) وهذا مقياس دقيق أخذ به أئمة المسلمين منذ العصور الأولى ومازال المفكرون منهم يأخذون به إلى يومنا الحاضر» .

وأنا أقول: معالى هيكل باشا يظن أن أهل الحديث لم يراعوا ما ذكره مقياساً لقبول الحديث أو رفضه من موافقة القرآن أو مخالفته، فقد راعوه فى حدود معقولة وغير محتاجة إلى

[١] قد عرفت مما سبق أن النزول عن درجة ما التزماه ليس نزولا عن درجة الصحة إلى درجة عدم الصحة كما أوهمه أسلوب كلام معاليه وإنما معناه النزول عن أعلى درجات الصحة ؛ بل النازل عن درجة الصحة مطلقا فى اصطلاح الحديث يكون حديثا حسنا والنازل عن درجة الحسن يكون حديثا ضعيفا ، والحديث الموضوع أو الحديث المنكر غير ذلك .

ثم إن ما انتقد على البخارى ومسلم اللذين جمعا فى صحيحيهما مايقرب من عشرة آلاف حديث مئتان وعشرة أحاديث انفرد اشتركا فى اثنين وثلاثين منها واختص البخارى بثمان وسبعين ومسلم بمائة، وليس مئتان وعشرة من عشرة آلاف بكثير مع أن الانتقاد على البخارى ومسلم فى تلك الأحاديث قد كان على أنها غير مستجمعة لشروطهما لا لأنها أحاديث غير صحيحة .

[٢] هذا الحديث موضوع قال عبد الرحمن المهدى : الزنادقة والخوارج وضعوا حديث (ماأتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله الخ) وكذلك قال يحيى بن معين : « إن هذا الحديث موضوع وضعته الزنادقة » والعجب من معالى الباشا يرمى الأحاديث الصحيحة بشبهة الوضع ثم ينتقى حديثا موضوعا لإثبات مدعاه فى رمى الأحاديث ، ومعناه أن ظنه بالزنادقة أحسن من ظنه بأئمة الحديث . ومما زاد فى الغرابة أنه لو عرض هذا الحديث الذى تمسك به، على القرآن لخالف ماورد فيه من أمر الله باتباع رسوله فيما آتاه مطلقا غير مقيد بعرضه على القرآن : قال تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

بنائه على حديث وضعته الزنادقة وأعجب معاليه لتوافقه مع غرضه ، وراعوا معه شروطا تتعلق برواية الحديث وشروطا تتعلق بدرايته والقياس الذى ذكره داخل فى شروط الدراية وليس مقياس القبول والرفض منحصراً فيه بل معه شروط أخرى درائية وشروط أخرى روائية . ومعاليه لا يعير اهتماما بشروط الرواية التى هى أول ما يجب على جامعى الأحاديث مراعاتها كما لا يهتم بها مؤرخو الغرب عشر معشار اهتمام المحدثين ، مع أن علم الحديث كالتاريخ من العلوم النقلية التى يلزم أن تكون صحة النقل هى أول ما يطلب كونه مضمونا فيها . أما ناحية الدراية فلا يكون لها المنزل الأول مهما كانت أهميتها، وإلا انقلبت العلوم النقلية علوما عقلية . ثم إن النظر فى الناحية العقلية من اختصاص المجتهد أكثر من المحدث الذى موقفه موقف الصيدلانى من الطبيب وإن العقول متفاوتة ، فلعل الحديث الذى لا يتفق مع عقل امرىء فيرفضه رغم أمانة الراوى ، يتفق مع عقول آخرين أبعد منه نظراً وأقوم فهماً . والحديث المشهور : « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلَّغ أوعى من سامع» يشير إلى هذه الدقيقة المهمة . فهذا الحديث الجليل يدل المحدث على أهدى سبيل.

وفى إمكانى أن أوضح هذه الدقيقة بمثال لا أحتاج إلى استحضاره من بعيد : فلو فرضنا كون معالى هيكل باشا من المحدثين واعتبرنا مخالفة القرآن مقياسا لرفض الحديث كما اعتبره هو ، كان كل حديث ورد فى معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم غير القرآن مرفوضا عنده بناء على أن القرآن يمنع فى زعمه وجود معجزة لنبينا غير معجزة القرآن حتى إن هذا الزعم هو الذى حداه إلى تفضيل هذا القياس على غيره مع أن كون القرآن يمنع وجود معجزة لنبينا غير معجزة القرآن فكرة خاطئة استولت على عقل الباشا تقليداً منه لدعوى المستشرقين التى سنبطلها إن شاء الله . فهذا القياس الذى له قيمته إلى حد ما ، لا يذهب بهذا المحدث إلى نتيجة سالمة عن الخطأ لكونه مقياسا عقليا يختلف باختلاف عقل القائس قوة وضعفا .

ثم إن كون مخالفة القرآن مقياساً لرفض الحديث لا يستقيم في جميع الأوقات إذ يمكن أن يكون الحديث المخالف قطعي الثبوت ومتأخر الورود عن القرآن الذي يخالفه فيكون ناسخاً للقرآن كحديث « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » هذا مثال للسنة القولية الناسخة للقرآن ، ورجم الزاني المحصن والزانية المحصنة المعدود من الحدود الشرعية المعنيّ بإقامتها في الإسلام على طول تاريخه ، ثابت بالسنة المشهورة الفعلية فإن النبي صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا وغيره ، وبها نُسخت آية الزنا في القرآن القائلة « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » في حق المحصن والمحصنة . وهذه المسائل التي لا يعرفها معالي هيكل باشا ، وربما يتعجب منها لكونه لا يقيم للسنة وزنا تستحق به أن تصح في نفسها بله أن تكون ناسخة للقرآن ، هذه المسائل أيضاً مما ينبئ عن الأهمية الراجحة لناحية الرواية في الحديث كما ذكرنا من قبل . ثم إن لمعالي الباشا مسلكا عجيبا في فهم معنى موافقة الحديث ومخالفته للقرآن سيطلع عليه القراء .

وقال أيضا : « وحق أن المسلمين قد بلغ اختلافهم بعد وفاة النبي حدا دعا الدعاة إلى اختلاق الآلاف المؤلفة من الأحاديث والروايات ، ومنذ قتل لؤلؤة بن المغيرة عمر ابن الخطاب، ومنذ تولى عثمان بن عفان الخلافة بدأت الخصومة التي كانت بين بني هاشم وبين بني أميـة قبل رسالة النبي العربي فظهرت من جديد . فلما قتل عثمان وقامت الحرب الأهلية بين المسلمين وخاصمت عائشة عليا وأيد عليا من أيده بدأت الأحاديث الموضوعة تكثر إلى حد أنكره علي بن أبي طالب حتى روى عنه أنه قال (ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلا ما في القرآن) وما في هذه الصحيفة أخذتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فرائض الصدقة[1] (على أن ذلك لم يقف رواة الحديث عن

[١] لماذا لم يمح علي رضى الله عنه الصحيفة التي كتب فيها ما أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فرائض الصدقة بناء على الحديث الموضوع الذي تمسك به معاليه وعده من أسباب =

روايته ، ولم يقف قوما عن وضع الحديث لهوى يدعون إليه أو لفضائل يزعمون أن الناس أحرص على اتباعها حين ينسب إلى رسول الله حديثها ... » ٥٠ — ٥١

«وقد كثرت هذه الأحاديث الموضوعة كثرة راعت المسلمين لمنافاة الكثير منها لما فى كتاب الله ، ولم تنجح المحاولات التى بذلت لوقفها فى زمن الأمويين فلما كانت الدولة العباسية وجاء المأمون بعد قرابة قرنين من وفاة النبى كان قد أذيع من هـذه الأحاديث الموضوعة عشرات الألوف ومئاتها ، وكان بينها من التضارب وفيهـا من التفاوت مالا يخطر بالبال . إذ ذاك قام الجامعون بجمع الحديث وتولى كتّاب السيرة كتابتها فقد عاش الواقدى وابن هشام والمدائنى وكتبوا كتبهم أيام المأمون وما كان لهم ولا لغيرهم أن ينازعوا الخليفة فى آرائه مخافة ما يحل بهم . لذلك لم يطبقوا بمـا يجب من الدقة ، هذا المقياس الذى روى عن النبى عليه السلام من وجوب عرض ما يروى عنه على القرآن ، فما وافق القرآن فمن الرسول ، وما خالفه فليس عنه[١] .. وقد ورث المتأخرون عن السلف هـذه الطريقة فى كتابة السيرة لاعتبارات غير اعتباراتهم . ولو أنهم أنصفوا التاريخ لطبقوا الحديث على سيرة النبى العربى فى جملتها وفى تفصيلها دون استثناء لأى نبأ روى عنها لا يتفق وما ورد فى القرآن الكريم[٢]

= عدم اعتماده على الأحاديث المجموعة فى كتب الحديث وهو : (لاتكتبوا عنى شيئا غير القرآن ومن كتب شيئا غير القرآن فليمحه) ؟

[١] يعقل إلى حد ما اشتراط عدم المخالفة للقرآن فى قبول الحديث ولـكن اشتراط موافقته للقرآن لايترك للسنة مكانا مستقلا بين الأدلة الشرعية بل يجعلها مستغنى عنها لاسيما إذا أريد بموافقة الحديث للقرآن ورود ذكر ماورد فى الحديث ، فى القرآن كما فسرها بعد أسطر من كلامه .

[٢] أطال المؤلف الـكلام فى وجوب اتخاذ الموافقة للقرآن أو مخالفته مقياسا لقبول الحديث أو رفضه على الرغم من كون هذا الوجوب المزعوم مبنيا على حديث موضوع مخالف للقرآن ، وقد نبهنا من قبل على أن عدم الاتفاق مع القرآن لايوجب رفض الحديث مطلقا إذ قد يكون الحديث المخالف ناسخا للقرآن وقد تـكون مخالفة الحديث للقرآن فى زعم الزاعم لافى نفس الأمر . والعجب أن أحاديث المعجزات التى أراد معالى المؤلف رفضها وأثار فى سبيل رفضها الشبهة فى صحة ما كتب فى كتب الحديث مطلقا ، من هذا القبيل كما ستعلمه .

فما لم يكن مما تجرى به سنة الكون ولم يرد ذكره فى كتاب الله لم يثبتوه ، وما كان مما تجرى به سنة الكون محَّصوه ثم أثبتوا منه ما ثبت لديهم بالدليل اليقينى ، وتركوا منه ما لم يقم الدليل عليه[1] ٥١ — ٥٩ .

أقول : من المعروف عن المأمون وأخيه المعتصم أنهما كانا يقولان بخلق القرآن ويرهقان العلماء على القول به حتى إنهما كانا يعاقبان من خالفهما منهم فى ذلك ومحنة الإمام أحمد فى عهديهما من أجل هذه المسألة أشهر من أن تذكر . فيلزم بالنظر إلى ادعاء معالى الباشا أن تكون كتب الحديث ـ لاسيما وقد كتبت فى أيام المأمون ـ مشحونة بأحاديث موضوعة تعضد مذهبه ، مع أنه لا يوجد حديث واحد ينطق بخلق القرآن وإن وجد ما ينطق بأنه غير مخلوق . فمعاليه يدعى أنه ما كان للعلماء أن ينازعوا الخليفة فى آرائه مخافة ما يحل بهم ، والواقع يشهد بأنهم نازعوه وأنهم لم يخافوا ما يحل بهم . ومعاليه يدعى أن فى كتب الحديث آلافا مؤلفة بل عشرات الألوف ومئاتها من الأحاديث الموضوعة على وفق أهواء الخلفاء الأمويين والعباسيين الشديدى البطش ، وليس فيها أحاديث من ذلك القبيل . وإن كان هناك أحاديث موضوعة فى مواضيع أخرى ما خفيت عن أنظار المحدثين النقاد ، وفى حادثة المتوكل مع ابن السكيت لما طلب المتوكل منه المفاضلة بين ابنيه وبين الحسن والحسين رضى الله عنهما فأجاب بأن قنبرا خادم على أفضل من ابنى المتوكل فقتله فى الحال ـ دليل على عكس ما ادعاه معاليه .

ومن أمثلة شجاعة العلماء الجبارة الجديرة بالذكر هنا ما كتبه صديقنا الأستاذ الكبير الشيخ محمد الخضر حسين فى مجلة « الهداية الإسلامية » الغراء من أن عبد الملك بن مروان رأى أن يدعوا الناس إلى مبايعة ابنيه الوليد وسليمان بولاية العهد ،

---

[١] اشترط فى صحة الحديث هنا موافقته لسنة الكون زيادة على شرط موافقته للقرآن وهذا الشرط الزائد هو أساس الشرط الآخر عنده بل أساس الداء الذى جر عليه ما أحصيناه من جرائر الأخطاء .

وكتب فيما كتب إلى والى المدينة هشام بن إسماعيل أن يدعو أهل المدينة إلى هذه المبايعة ففعل وأطبق أهل المدينة على البيعة إلا سعيد بن المسيب فإنه امتنع بعلة أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين . فكتب هشام إلى عبد الملك يخبره بأن أهل المدينة بايعوا قاطبة ولم يأب منهم إلا سعيد بن المسيب، فكتب عبد الملك إلى هشام بأن يأمر سعيدا بالمبايعة فإن أبى عرضه على السيف فإن أصر على عدم المبايعة جلده خمسين سوطا وطيف به فى أسواق المدينة .

وصل كتاب عبد الملك إلى هشام واتصل بهشام ثلاثة من أصدقاء سعيد وهم سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله ، فأخبرهم هشام بما أمر به فى شأن سعيد . والظاهر أن هشاما لم يطلعهم إلا على ما أمر به عبد الملك من عرض سعيد على السيف إن امتنع من البيعة ، ولم يذكر لهم ما جاء فى الخطاب من ترك قتله إذا أصر على رأيه واستبدال الجلد بالقتل . ارتاع الفقهاء الثلاثة لهذا الخبر وخشوا أن يصمم السعيد على عدم المبايعة ، فيناله عقاب القتل ، فأخذوا يدبرون وجهاً لتخليص سعيد من هذه الورطة متى صمم على عدم البيعة حتى وصلوا إلى تدبير عرضوه على الوالى فقبله ، وكانوا يظنون أن ما دبروه من الوجوه لإنقاذ سعيد سيجد من سعيد لينا وقبولا حسنا .

لذلك ذهب الفقهاء الثلاثة إلى سعيد وقالوا جئناك فى أمر عظيم : إن عبد الملك كتب إلى الوالى يأمره بأن يعرض عليك المبايعة فإن لم تفعل ضرب عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالا ثلاثا فأعطنا إحداهن وهى :

أن يقرأ عليك الكتاب فتسكت ولا تقول لا ولا نعم ، فيكتفى الوالى منك بهذا السكوت فتمضى على ما صممت عليه من عدم المبايعة وتدرأ عن نفسك عقوبة القتل

سعيد : ما أنا بفاعل .

الفقهاء الثلاثة : تجلس فى بيتك ولا تخرج إلى الصلاة أياما فيعتمد الوالى فى عدم

إنفاذ أمر عبد الملك على أنه قد طلبك من مجلسك فلم يجدك .

سعيد : أفعل هذا وأنا أسمع الأذان فوق أذنى : حى على الصلاة ؟! ما أنا بفاعل.

الفقهاء الثلاثة : انتقل من مجلسك بالمسجد إلى مكان غيره ، فإن الوالى يطلبك فى مجلسك فإن لم يجدك أمسك عنك .

سعيد : أفرقاً من مخلوق؟ ما أنا بمتقدم شبراً ولا متأخر . ولما رأى الفقهاء صلابة سعيد وأيسوا من قبوله إحدى الخصال التى عرضوها عليه خرجوا والأسف على سفك دم سعيد يملأ صدورهم .

وما كان من سعيد إلا أنه خرج إلى صلاة الظهر وجلس فى مجلسه الذى اعتاد الجلوس فيه من قبل ولم يكن من الوالى إلا أنه بعث إليه فأتى به ، فقال له : إن أمير المؤمنين كتب يأمر إن لم تبايع ضربنا عنقك .

سعيد : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيعتين .

هشام : أخرجوا سعيدا إلى الشدة ومدوا عنقه وسلوا عليه السيوف ففعلوا وسعيد مصر على عدم البيعة .

فلما رأى هشام إصراره أمر به فجرد من بعض الثياب ليذوق ألم الجلد وضربه خمسين سوطا ثم طافوا به فى أسواق المدينة ومنعوا الناس أن يجالسوه .

انتهى النقل عن مجلة « الهداية الإسلامية » .

أقول : فكان ما فعله سعيد بن المسيب كما قال فضيلة الأستاذ كاتب المقالة فى عنوان مقالته: « مثلا أعلى لشجاعة العلماء » وكان ما فعله عبد الملك وواليه مثلا أعلى اسخافة الملوك وعمالهم . ومعالى الدكتور هيكل الذى لايرجو من علماء عهد الأمويين والعباسيين ــ عهد تدوين الأحاديث النبوية ــ غير المماشاة لأهواء الزمان وحكامه ، إنما يقيس أولئك العلماء بمشايخ الأزهر الذين شجعوه على تأليف كتابه فى السيرة مسيئا ظنه بروايات السيرة والحديث ، والذين أثنوا على هذا الكتاب أو دافعوا عنه .

نعود إلى النقل عن كتاب هيكل باشا :

« وأكبر ظنى أن الذين كتبوا السيرة كانوا يؤثرون هذا الرأى لولا أحوال العصر أيام المتقدمين ، ولولا أن ظن المتأخرون أن فى ذكر مالم يرد به القرآن من خوارق ومعجزات مايزيد الناس إيمانا على إيمانهم ؛ لذلك حسبوا أن ذكر هذه المعجزات ينفع ولا يضر ، ولوأنهم عاشوا إلىزماننا ورأوا كيف اتخذ خصوم الإسلام ماذكروه منها حجة على الإسلام وعلى أهله لالتزموا ماجاء به القرآن[1] ، ولقالوا بما قال به الغزالى ومحمد عبده والمراغى وسائر المدققين من الأئمة[2] ، ولو أنهم عاشوا فى زماننا هذا ورأوا كيف تزيغ هذه الروايات قلوباً وعقائد بدل أن تزيدها إيمانا وتثبيتا لـكفاهم ذكر مافى كتاب الله من آيات بينات وحجج دامغة[3] ٥٣ .

« أما ومضرة الروايات التى لايقرها العقل والعلم قد أصبحت واضحة ملموسة فمن الحق على كل من يعرض لهذه الأمور أن يراعى جانب الدقة العلمية فى تمحيصها خدمة للحق وخدمة للإسلام ولتاريخ النبى العربى ...

« ولو أننا عرضنا كثيراً من الأمور التى ترويها كتب السيرة وكتب الحديث على مافىالقرآن لما وسعنا إلا أن نأخذ برأى الأئمة المدققين ، فقد كان أهل مكة يطلبون إلىالنبى أن يجرى ربه على يديه المعجزات إذا أرادهم أن يصدقوه ، فنزل القرآن يذكر ماطلبوا ويدفعه بحجج مختلفة . قال تعالى : (وقالوا لن نؤمن حتى تفجر لنا من

---

[١] لايجوز رفض ماورد فى السنة من سيرة نبينا صلى اللهعليه وسلم بمجرد أنه لميرد به القرآن ولا بمجرد أن خصوم الإسلام اتخذوه حجة على الإسلام وعلى أهله وإنما ينظر إلى كونه حجة عليهما فى نفس الأمر ، وستتضح لك حقيقة هذه المسألة إن شاء الله .

[٢] ذكر المؤلف منذكرهم من الأئمة الثلاثة المدققين على ترتيب أزمنتهم لاعلى أن محمد عبده يقل عن الغزالى والمراغى يقل عنهما فى الإمامة والتدقيق . وأنا لاأدرى كيف يكون للغزالى رأى فى مقياس قبول الحديث أورفضه يتفق معرأى معالى هيكل باشا أو مع رأى من يتفق معه من الإمامين، فى نفى معجزات نبينا غير القرآن وفى عدم الاعتماد على كتب السيرة وكتب الحديث التى كتبت فيها أحاديث المعجزات وفى مخالفة تلك الأحاديث للقرآن .

[٣] لنا كلام فيما سيأتى إن شاء الله على هذه النقاط .

الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا) وقال تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) ولم يرد فى كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة على اختلاف عصورهم برسالة محمد إلا القرآن الكريم[1] هذا ، مع أنه ذكر المعجزات التى جرت بإذن الله على أيدى من سبق محمداً من الرسل كما أنه جرى بالكثير مما أفاء الله على محمد ، وما وجه إليه الخطاب فيه ، وما ورد فى الكتاب عن النبى العربى لا يخالف سنة الكون فى شىء[2] ص ٥٤ .

« أما وذلك ما يجرى به كتاب الله ، وما يقتضيه حديث رسول الله (يعنى القول المذكور الموضوع) فأى داع دعا طائفة من المسلمين فيما مضى ويدعو طائفة منهم اليوم إلى إثبات خوارق مادية للنبى العربى ؟ إنما دعاهم إلى ذلك أنهم تلوا ما جاء فى القرآن عن معجزات من سبق محمدا من الرسل فاعتقدوا أن هذا النوع من الخوارق

---

[١] لم يحسن معاليه التعبير عما حاول إفادته هنا فاستعمل «الإرادة» فى محل الأمر والتكليف، إذ لو كان الله أراد بمعجزة القرآن أن يؤمن الناس كافة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لآمنوا ولم يبق على وجه البسيطة أحد إلا وقد أسلم . ولعله لا يعرف أن إرادة الله تستلزم وقوع ما أراده من غير أدنى تخلف ، ولا الكلمة المأثورة المشهورة: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» ولا إجماع المسلمين عليها .

[٢] فيه امتداح معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأنها لا تخالف سنة الكون كما أن فيه شيئاً من انتقاص معجزات غيره من الأنبياء عليهم السلام بأنها تخالف سنة الكون .

المادية لازم لـكمال الرسالة فصدقوا ماروى منها[١] وإن لم يرد فى القرآن[٢] وظنوا أنه كلما ازداد عددها كانت أدل على هذا الـكمال وأدعى أن يزداد الناس بالرسالة إيمانا .
ومقارنة النبى العربى بمن سبقه من الرسل مقارنة مع الفارق فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو مع ذلك أول رسول بعثه الله للناس كافة ولم يبعث إلى قومه وحدهم ليبين لهم ، لذلك أراد أن تـكون معجزة محمد إنسانية[٣] عقلية لا يستطيع الإنس والجن الإتيان بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، هذه المعجزة هى القرآن وهى أكبر المعجزات التى أذن الله بها[٤] وقد أراد جل شأنه منها أن تثبت رسالة نبيه بالحجة البينة والدليل الدامغ سلطانه ٥٤ — ٥٥ .

---

[١] فيه تصديق المعجزات الـكونية للانبياء الماضين ، وتكذيب معجزات نبينا الـكونية وتكذيب رواتها المسلمين وهو يتضمن عاراً إن لم يكن على نبينا فعلى أمته. ومعاليه متوهم فى كل ذلك.

[٢] عدم وروده فى القرآن لايوجب عدم وروده فى الحديث ، وهو يصر على توهم التلازم بين الأمرين وعلى عدم التمييز بين المخالفة للقرآن وبين عدم الورود فيــه . ومن البين أنه لو لم يقبل مما ورد فى كتب الحديث والسيرة إلا ماورد مثله فى القرآن لـكان نبينا محمد صلى الله عليــه وسلم الذى هو أشهر رجل فى تاريخ الدنيا وأكثره من ناحية العـلم والضبط بحياته ، من أقل الرجال فى ذلك لأن القرآن لايتضمن من أنباء حياته غير القليل إلا أن القرآن ملأ هذا الفراغ باعتنائه بسنة الرسول قائلا : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وقائلا : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » وقائلا : « وأنزلنا عليك الـكتاب لتبين للنـاس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون » وقوله تعالى : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » على أن بيانه صلى الله عليه وسلم من بيان الله فلولا السنة أو لولا الثقة بالسنة التى هى مبينة لمجملات القرآن ومتممته من هــذه الحيثية على الأقل كانت رسالة القرآن ــ بالتعبير الحديث ــ مختلة غير مؤداة حق الأداء . فضياع السنة فى قرون الإسلام الأولى ضياع القرآن فى الجملة ، ووعد الله تعالى بحفظ القرآن فى قوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » يتضمن وعده بحفظ السنة أيضا . فأين تذهبون أيها المدعون ضياع السنة الصحيحة التى وعد الله حفظها فى ضمن حفظ القرآن ؟

[٣] مامعنى كون بعض المعجزات إنسانيا وبعضها غير إنسانى ؟ سنتكلم عليه .

[٤] لاشك أن القرآن أفضل المعجزات ولـكن إذا كان لنبينا معجزات أخرى مع القرآن =

« ولو أراد الله أن تـكون المعجزة المادية وسيلة إلى اقتناع من نزل الإسلام على رسوله بينهم لـكانت ولذكرها فى كتابه لـكن من الناس من لايصدقون إلا مايقره العقل »[1] ٥٥ .

وقال فى مقدمة الطبعة الأولى ص١٤ : «على أن لهؤلاء الذين يحمّلون الإسلام وزر انحطاط الشعوب الإسلامية من العذر أن أضيف إلى دين الله شيء كثير لايرضاه الله ورسوله واعتبر من صلب الدين ورمى من ينكره بالزندقة[2] وندع الدين جانبا ونقف عند سيرة صاحبه عليــه السلام فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبى

= ولم يكن جميع كتب الحديث والسيرة كاذبة وإنما الـكذب فى دعوى كون أصحاب تلك الـكتب تلوا ماجاء فى القرآن من معجزات من سبق محمداً صلى الله عليــه وسلم فاختلقوا معجزات له تقليداً لمعجزاتهم وافتراء على الله ورسوله ، ولم يكن التقليد منهم بل من معالى مؤلف « حياة محمد » لأعداء الإسلام المفترين الـكذب على كتب السيرة والحديث ... إذا كان الواقع فى نفس الأمر كذلك فهل يكون حقا علينا أن ننفى تلك المعجزات مراعاة لخاطر معاليه أو لخاطر أعداء الإسلام ؟

[١] فيه انتقاص لمعجزات سائر الأنبياء عليهم السلام بأنها لايقرها العقل وهو أشد من انتقاصها بما سبق من مخالفتها لسنة الـكون، لأن مالا يقره العقل يكون مستحيل الوقوع وينجلى منه رجحان معجزة نبينا أعنى القرآن على معجزاتهم عند معاليه . أما لزوم كون القرآن حين ينطق بتلك المعجزات ناطقاً بالمحال وكونه مقراً لما لايقره العقل فذلك لايهم معاليه ! !

[٢] ليس سبب انحطاط شعوب المسلمين دخول ماليس من دينهم فى دينهم إذ لايمكن أن يدعى أحد أن الإسلام طرأ عليه التحريف بأكثر مما طرأ على المسيحية مع أن الشعوب المسيحيين لايعتبرون مع الشعوب الإسلامية فى دركة واحدة من الانحطاط لاسيما عند معاليه وأمثاله من المسلمين المصريين. ثم ماهى التى أضيفت إلى الإسـلام واعتبرت من صلبه وكان منها للذين حملوا الإسلام وزر انحطاط الأمم الإسلامية العذر فى هــذا التحميل ؟ فإن كانت هى المعجزات الـكونية المضافة إلى معجزة القرآن ولم يكن لها أساس من الصحة ، فـكيف تسبب زيادة المعجزات الـكونية المـكذوبة على معجزة نبينا انحطاط شعوب المسلمين حين لم تكن تلك المعجزات الـكونية لسيدنا موسى وعيسى وهى غير مكذوبة عليهما ، سبباً لانحطاط اليهود والنصارى ؟ فهل من اللازم مطلقا أن لا يكون لنبينا معجزة كونية حتى تحمل كتب السيرة والحديث فى سبيل نفيها الـكذب ويحمل إثباتها أوزار انحطاط الشعوب الإسلامية ؟

مالا يصدقه العقل[١] ولا حاجة إليه فى ثبوت الرسالة . وما أضيف من ذلك قد اعتمد عليه المستشرقون ، واعتمد عليه الطاعنون على الإسلام ونبيه وعلى الأمم الإسلامية ، واتخذوه تـكأتهم فى مطاعنهم إلى يومنا الحاضر » [٢] .

وقال ص ١٧ « وهذا الاستعمار يؤيد كذلك دعاة الجمود من المسلمين وكذلك تضافر عمل الاستعمار على تأييد مادس على الإسلام من خرافات لا يسيغها العقل ولا يقبلها الذوق »[٣] .

وقال فى مقدمة الطبعة الثانية ص ٥٥ : « ولو أن أمة مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين ولم تحتج إلى التصديق بمعجزة غير القرآن لما طمن ذلك فى دينها ولا نقص من إسلامها [٤] .

---

[١] لم يذكر هنا كتب الحديث بجانب كتب السيرة لا لأنه يصدق مافيها من أحاديث المعجزات بل لأنه ماراجع كتب الحديث عند تحرير كتابه « حياة محمد » وهـذا نقص لـكتابه مهم، وهو فى ذلك أيضاً مقتف لآثار المستشرقين الذين لايراجعون كتب الحديث عند كتابتهم عن حياة سيدنا محمد، لأن مراجعتها تكلفهم عناء كبيرا لايحتملونه مهما كانوا ناشطين كما نبه عليه الفاضل الهندى كاتب السيرة .

[٢] طعنات المستشرقين فى الإسلام وفى نبيه تثير سخط معاليـه نحو كتب السيرة والحديث ورواة الحديث ولا تثير سخطه نحو الطاعنين أنفسهم .

[٣] مايطابق الواقع أن الاستعمار يؤيد التجديد الهدام للإسلام ويعادى الجمود على الإسلام ويعده جموداً فى وجهه. يشهد بهذا معاداة الاستعمار لتركيا القديمة ومحاباته لتركيا الجديدة محاباة أوهمت الغافلين من قوة الاستعمار العميقة قوة الترك الـكماليين وضعف غالى الحرب الماضية أمامهم فى غدها.

[٤] الإيمان بدين الإسلام مع عدم الإيمان بمعجزة نبى الإسلام غير القرآن يضر بالدين ويكون نقصاً فيه إذا كان سببه عدم الاعتماد على غير القرآن والاعتقاد بأن ماثبت فى الإسلام إنما يثبت بالـكتاب ولا اعتداد بالسنة أو كان سببه عد المعجزات الـكونية من المستحيلات العقلية . ومن أبعد مايتصور إلى درجة مثيرة للضحك أن يكون معالى هيكل باشا التزم تأليف الـكتاب عن حياة سيدنا محمد مستمداً فى ذلك من القرآن فحسب كما قال فى آخر صفحة من مقدمة الطبعة الثانية لـكتابه : « وفى مقدمة مايجب علينا خدمة للحقيقة وللعلم وللانسانية أن نتعمق فى دراسة سيرة النبى العربى =

فمادام الوحى لم ينزل بهما [١] فلا جناح على من يؤمن بالله ورسوله أن يجعل ما يتصل به من أمرها محل تمحيص ، فما ثبت بالحجة اليقينية أخذ به وما لم يثبت فله فيه رأيه ولا تثريب عليه ، فالإيمان بالله وحده لاشريك له لا يحتاج إلى معجزة[٢] ولا يحتاج إلى أكثر من النظر فى هذا الكون الذى خلقه الله . والشهادة برسالة محمد الذى دعا الناس بأمر ربه إلى هذا الإيمان وجنبهم ما يزيغ قلوبهم عنه لا تحتاج إلى معجزة غير القرآن ولا تحتاج إلى أكثر من تلاوة الكتاب الذى أوحاه الله إليه[٣] .

= تعمقاً يهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة التى تنشدها والقرآن أصدق مرجع لهذه الدراسة وهذا الكتاب لايأتيه الباطل ولا تعلق به الريبة .. فكل ماتملق بسيرة محمد يجب أن يعرض على القرآن فما وافقه كان حقا وما لم يوافقه لم يكن بحق » والمراد مما وافق القرآن ماورد به القرآن وقد عبر به فى كثير من كلماته التىسبق نقلها . ويؤيده أن مرمى هذه المقدمة التى كتبها لطبعة كتابه الثانية خلاصتها أنه لا يرى كتب الحديث وكتب السيرة مرجعاً صادقاً لاتتعلق به الريبة . فحينئذ يكون من حق امرئ أن يقوم فيرد كل ماورد به كتاب « حياة محمد » تقريبا ، بحجة أنه لم يرد به القرآن .

[١] يظن معاليه أن الوحى ينحصر فى الكتاب المنزل ولم يوح إلى نبينا غير القرآن مع أن الله تعالى قال فى كتابه : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » وقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » فهو لايعرف كون الوحى على قسمين : وحى متلو وهو الكتاب ووحى غير متلو وهو السنة .

[٢] إذا كان المانع من الاعتراف بالمعجزات الكونية عدم اعتراف العلم بما يخالف سنن الكون فهذا العلم الذى يخضع لحكمه العصريون من المسلمين لايعترف أيضاً بالله وحده لاشريك له ولذا قال معاليه فىأواخر مقدمة الطبعة الأولى لكتابه عن علاقة الإنسان بالكون وخالق الكون: « قد يقف العلم بوسائله حائراً أمامها لايستطيع أن يثبتها ولا أن ينفيها وهو لذلك لايعتبرها حقائق علمية » ص ٢٢

[٣] إن كان لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم معجزات غير القرآن وهذا مانعتقده بأدلة من السنة بل من الكتاب أيضاً كما سيتبين للقارئ ، فلا يجوز للمسلم أن يجازف ويقول : ليس لنبينا معجزات كونية ولا يحتاج الإيمان بالله ولا الشهادة برسالة محمد إلى تلك المعجزات ، كأن الله تعالى أظهر تلك المعجزات على يده عبثا مستغنى عنها . ثم لما كان نبينا مبعوثا إلى الناس كافة وفيهم أمم =

وقال أيضا ص ٥٦ : « لم يذكر التاريخ أن معجزة حملت أحدا من الذين آمنوا بالله ورسوله فى حياة النبي العربى على أن يؤمن به[1] بل كانت حجة الله البالغة عن طريق الوحى على لسان نبيه ، وكانت حياة النبي فى سموها هى التى دعت إلى الإيمان من آمن منهم وإن كتب السيرة لتذكر أن طائفة من الذين آمنوا برسالة محمد قبل الإسراء قد ارتدت عن إيمانها حين ذكر النبي أن الله أسرى به ليلا من المسجد الحرام

= غير العرب لاتدرك إعجاز القرآن إلا من أكب منهم على تعلم اللغة العربية وأنفق شطراً كبيراً من عمره فيه وجبل على طبع أدبى سليم ، فلا تصح دعوى استغناء هذه الكثرة العظمى فى تصديق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عن معجزاته الكونية التى روتها كتب الحديث أو على الأقل روت بعضها بصحة تفوق روايات تاريخ الأمم المقبولة .

إن لسيدنا موسى معجزات يؤمن بها اليهود والنصارى ولسيدنا المسيح معجزات يؤمن بها المسيحيون وهذا قبل أن نزل القرآن وآمنا بهما وبمعجزاتهما نحن المسلمين أيضاً، وليس طريق إيمان اليهود والنصارى بتلك المعجزات الواصلة إليهم بروايات من سلفهم إلى خلفهم ، أقوى وأثبت من أحاديث معجزات سيدنا محمد المروية فى كتب الحديث ، فلماذا إذن يؤمن كل من اليهود والنصارى بمعجزات نبيهم ولا نؤمن نحن المسلمين بمعجزات نبينا ؟ فهل كون القرآن أكبر معجزة وأفضلها يمنع من وجود معجزات أخرى لنبينا صلى الله عليه وسلم ؟ وهل الغرض من هذا التفريق بين معجزات الأنبياء وبين معجزات نبينا تكذيب روايات المسلمين وتخصيصها بعدم الوثوق أم الغرض تبرئة نبينا من معجزات الأنبياء الماضين التى لايقرها العقل ؟

[١] يرد عليه أن ماسماه التاريخ إن كان مأخوذاً من كتب السيرة والحديث فهى تشهد بمعجزات نبينا وإن لم يكن مأخوذاً منها وكان يذكر معجزات نبينا من غير ذكر من حملته المعجزات على الإيمان فلماذا يفضل غير المذكور فى التاريخ على المذكور المنصوص عليه إن كان ذلك التاريخ حائز الثقة ؟ وإن كان ماسماه التاريخ لايذكر معجزة ولا من حملته المعجزة على الإيمان فكيف يصح له القول بأن التاريخ لم يذكر أن معجزة حملت أحداً من الذين آمنوا بالله ورسوله فى حياة النبي على أن يؤمن، لأنه لما لم يذكر معجزات نبينا لم يذكر أيضاً أنها حملت أحداً على الإيمان، وليس للمؤلف الحق منطقيا أن يستخرج من هذا حكمه بأن المعجزات لا تحمل أحداً على الإيمان .

إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله[1] ولم يؤمن سراقة بن جعشم لما اتبع محمدا حين هجرته إلى المدينة ليأتى أهل مكة به حيا أو ميتا ، طمعا فى ما لهم على رغم ما روت كتب السيرة من معجزات الله فى سراقة وفى جواده[2] ولم يذكر التاريخ أن مشركا آمن برسالة محمد لمعجزة من المعجزات[3] كما آمن سحرة فرعون لما لقفت عصا موسى ما صنعوا » .

وقال أيضا ص ٦٢ « إن الفترة التى انتهت بقتل عثمان هى التى تقررت فيها القواعد الصحيحة للحياة الإسلامية العامة وهى لذلك وحدها التى يمكن الاعتماد الثابت اليقينى على ما وقع لمعرفة هذه القواعد الصحيحة[4] أما فيما بعد هذه الفترة فإنه على الرغم من ازدهار العلم والمعرفة أيام الأمويين وبخاصة أيام العباسيين ، قد اندست يد العبث بهذه القواعد الأساسية الصحيحة لتقيم مقامها قواعد تتنافى فى

---

[١] ماذا يريد أن يقول هيكل باشا ؟ فهل هو ينتقد حادثة الإسراء بأنها فشلت ولم تنفع فى هداية الناس إلى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يتوسل بنفى فائدة المعجزات إلى نفى المعجزات ؟ لكن المعجزات كما قيل انها تقسم الى معجزة هداية ومعجزة إنذار ، منقسمة أيضاً إلى معجزة تكريم للنبى كما فى الإسراء به إلى المسجد الأقصى ثم إلى السماوات ولا يلزم أن تكون المعجزة حتى معجزة الهداية ضامنة للهداية بالنسبة إلى كل زمان وكل إنسان ، وهذا القرآن مع كونه فى رأس معجزات الهداية ما آمن به إلا من شرح الله صدره للاسلام . فمسألة الهداية بيد الله فهو يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، ويهدى من يهديه إذا شاء من غير معجزة ومن غير نبى، إلا أنه لا يعذب الناس حتى يبعث رسولا، وبالمعجزات تتم حجته عليهم . وبهذا البيان يسقط ماذكره معاليه هنا جملة .

[٢] هو آمن بعد حين وأعطى أسورة كسرى فى فتح إيران .

[٣] لا معجزة عند معاليه غير القرآن ومراده من المعجزات التى لم يذكر التاريخ أن مشركا آمن عند واحدة منها برسالة نبينا ، هى المعجزات التى اختلقها التاريخ نفسه فلماذا إذن لم يختلق هذا التاريخ إيمان مشرك على الأقل مع كل معجزة اختلقها ؟ فهل عجز عن اختلاق الثانى الذى هو أسهل من الأول ؟

[٤] استثنى هذه الفترة الأولى التى جمع فيها القرآن لئلا يسرى العبث والتزييف اللذان ادعى استيلاءهما على الفترات اللاحقة وإفسادهما لحجية الأحاديث المجموعة فى تلك الفترات ، إلى القرآن .

كثير من الأحيان وروح الإسلام تحقيقاً لأغراض شعوبية فى أكثر أمرها ، وقد كان الأعاجم وكان الذين تظاهروا بالإسلام من اليهود والنصارى هم الذين روّجوا لهذه القواعد الجديدة ، غير متورعين فى تأييدهم عن اختراع الأحاديث ونسبتها إلى النبى عليه السلام [1] ولا عن ادعاء أشياء على الخلفاء الأولين لا تتفق وسيرتهم ولا تلتئم ومزاجهم » .

انتهى ما رأينا نقله من كلمات هيكل باشا فى مقدمة كتابه . وقد أطلنا فى النقل عنه — كما أطال هو فى التدليل على أنه أحسن صنعا فى تجريد « حياة محمد » عن المعجزات الكونية — حرصاً منا على أن لا نكون قد عزونا عند النقد عليه ما لم يقله أو لم يكن هو مراده مما قاله، وإنما أسأنا نحن الفهم والتفسير وبنينا اعتراضاتنا عليه .

فقد انجلى من هذه النقول الطويلة أن معاليه يتوسل إلى إسقاط معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم الكونية عن مرتبة الثبوت بإسقاط جميع الأقوال المروية عنه غير القرآن مع الأفعال المنسوبة إليه وجميع ما جرى عليه فى حياته مما ذكر فى كتب الحديث والسيرة ولم يُذكر فى القرآن ، عن رتبة الجدارة بالتعويل عليه ، على أن يكون

---

[١] هذا القول وهذه الدعوى تشبه قول الشيخ محمد عبده أثناء مناظرته الأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة « الجامعة » — ومقالات المناظرة منشورة فى آخر كتاب الأستاذ المذكور المسمى « فلسفة ابن رشد » تحت عنوان « باب الردود » — ما معناه وخلاصته أن الإسلام استعجم فى عهد المعتصم بدخول العناصر الأجنبية عن العرب فيه كالفرس والترك . ولعل معالى هيكل باشا اقتبس هذه الفكرة من الشيخ محمد عبده ثم مزجها بأقوال المستشرقين . وكنت أنا قبل رؤية هذه الأسطر من مقدمة الطبعة الثانية لكتاب « حياة محمد » أحمل كلام الشيخ ذاك على مغزى سياسى قوى وأقول فى نفسى إنه يغضبه إفلات الحكم من يد العرب حتى لا يسره ازدياد قوة الإسلام بدخول عناصر جديدة فيه وانضمامهم إلى المسلمين . والآن، وبعد أن ازددت علماً بأفكار الشيخ ومبادئه ، أذهب فى فهم معنى قوله المذكور مذاهب بعيدة وأحمله على مرامى عميقة لو سردتها لخرجت عن الموضوع إلى موضوع آخر لا يمكن توفية حقه إلا بتأليف مستقل .

سواء فى ذلك ما يتعلق بالمعجزات وما يتعلق بغيرها ، وأن يحق لكل شاك فى صحة ما ورد فى تلك الكتب من أولها إلى آخرها ، شكه !! [١] .

فإن صحت لماليه هذه الدعوى لزم أن يكون أول واجبه الإحجام عن تأليف هذا الكتاب الذى أسماه « حياة محمد » فمن أى مصدر كتب ما كتبه فيه إن كانت كتب السيرة والحديث غير جديرة بالثقة والتعويل [٢] وأصحابها متهمين بالأغراض السياسية والدينية ؟ وليس فى القرآن ما يكفى من المعلومات اللازمة لتأليف كتاب عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم مثل كتاب هيكل باشا ، لأن كتاب الله ليس كتاب السيرة والترجمة عن حياة نبيه . فإن كان التشكيك المطلق فى صحة ما عزى إلى النبى صلى الله عليه وسلم من الأفعال أو روى عنه من الأحاديث فى كتب الصفوة من أئمة المسلمين، غريباً من أى مسلم فهو ممن وضع كتابا عن « حياة محمد » أغرب ، فمن أى أصل اقتبس إذن ما ضمنه فى كتابه ؟ حتى إنه لا يمكنه أو بالأصح لا يجوز له ـ بالنظر إلى عقليته المفهومة واضحة من كلماته التى نقلناها وأطلنا فى النقل ـ أن يأخذ من كتب المستشرقين الذين يقدرون لمحمد صلى الله عليه وسلم وحياته قدرهما ولا يتعمدون الحق والإنصاف ـ على فرض وجود فريق منهم بهذه الصفة ـ لأن مصادرهم فى كتبهم أيضا

---

[١] لم تقتصر مطاعن هيكل باشا فى كتب الحديث والسيرة على مافيها من الروايات المتعلقة بالمعجزات كما نبهنا عليه من قبل أيضا وما كنا مغالين فى هذا التنبيه ، بل سعى معاليه لإلقاء الشبهة فى كل ماورد فى تلك الكتب وإن كان مقصوده الطعن فى رواياتها المتعلقة بالمعجزات فحسب ، وكان دافعه إلى إطلاق القول أنه لم يجد سبيلا خاصا للوصول إلى مقصوده هذا نعم كل مافيها بالطعن ولم يفكر فيما يترتب عليه أو لم يبال به . وعليه فارتقى واجبنا فى نقد كلامه من الدفاع عن معجزات نبينا غير القرآن وعن الروايات الواردة بصددها فى كتب الحديث والسيرة ، إلى الدفاع عن ركن السنة مطلقا فى الإسلام .

[٢] لو انتقد تلك الكتب بأنها تحتوى روايات وأحاديث لايوثق بها ثم عينت تلك الأحاديث والروايات وبينت أسباب النقد كما يفعله النقاد من علماء الحديث لهان الأمر ولم يقع جميع مافى تلك الكتب تحت الشبهة بحيث لا يميز صحيحه ـ إن كان فيها صحيح ـ عن سقيمه .

لابد أن تنتهى إلى كتب الإسلام التى زعزع هيكل باشا ثقة الناس بها وهدم معها كتب الآخذين منها .

ولا يمنع هذه الزعزعة وذاك الهدم كون معاليه استدرك الأمر فاستثنى الفترة الأولى من تاريخ الإسلام المعتبرة من بدئه إلى مقتل عثمان وأولاها الثقة حيث قال ص٦١ « ففى الفترة الأولى بقى اتفاق المسلمين تاما لم تغير منه روايات الاختلاف على الخلافة ولا غيرت منه حروب الردة ولا فتح المسلمين البلاد التى فتحوا . أما بعد مقتل عثمان فقد دب الخلاف بين المسلمين وقامت الحروب الأهلية بين علىّ ومعاوية واستمرت الثورات ظاهرة تارة ، خفية أخرى ولعبت الأهواء السياسية دوراً خطيراً فى الحياة الدينية نفسها » إذلم يجمع أحاديثَ النبى صلى الله عليه وسلم جامعوها ولم يكتب السيرة كتّابها إلا بعد الفترة الأولى ، فلا يكفى فى الوثوق بواقعات التاريخ الإسلامى كون زمان وقوعها قبل مقتل عثمان ، بعد أن كان كتّابها وجامعوها من رجال الفترة الثانية المفروض فيهم الغش والغرض ، ألا يرى أن الأحاديث والروايات الخاصة بالمعجزات لاريب فى أنها باعتبار مصادرها تتقدم الفترة المشبوهة ومع ذلك لم ينجها تقدُّمها الزمنى عن تشكيك معاليه فى صحتها .

ولا يفتح أمام الباشا طريقا لإمكان تأليف كتابه بعد أن أقفل الطريق على نفسه، أن يوجد هناك أحاديث صحيحة على نسبة حديث واحد فى مائة وخمسين حديثا ورواية واحدة فى مائة وخمسين رواية يمكن الاعتماد عليهما فى وضع كتاب عن حياة نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم كما ذكر الباشا نفسه هذه النسبة واعترف بها عند ذكر اهتمام الإمام البخارى وأبى داود بتمحيص الأحاديث ونقدها ، لأن معاليه ذاهب إلى اختلاط القلة الضئيلة بتلك الكثرة القاهرة المؤدى إلى فساد الجميع، غيرَ واثق بتمحيص البخارى وانتقائه أربعة آلاف من ستمائة ألف حديث . ولعل معاليه يبنى عدم وثوقه هذا على ما ذكره ــ وقد نقلنا عنه سابقا ــ من تجريح بعض العلماء لكثير من الأحاديث

التى أثبتها جامعوها فى كتبهم على أنها صحيحة [1] فمالى المؤلف مدع لفساد الكل حتى الباقى بعد إسقاط مئات الألوف وحتى الباقى بعد تجريح بعض معين من الباقى الأول . فلو لم يدّع ذلك لوجد أحاديث المعجزات فى البقية الباقية من انتقاء بعد انتقاء ونقد بعد نقد ، وما وسعه أن يجعل كتابه عطلا عن المعجزات .

هـذا هو النقد العلمى الذى يكرر الباشا ذكره عند ذكر الأسباب الناعية على أحاديث المعجزات ورواياتها والذى يدعى أنه أسّس كتابه عليه والذى أيضا ينقض هو نفسه أساس كتابه نفسه مع أساس المعجزات وأحاديثها . ويجعله معلقا على الهواء. وخلاصة نقدنا أن كتاب الباشا ينقض نفسه بنفسه . هذا واحد .

— ٢ —

الثانى هل فكر معاليه فيما يترتب على ما فعله حين أثار الشبهة فى صحة الأحاديث النبوية بجملتها وفى أمانة رواتها بجملتهم وفى جدارة كتبها بجملتها بأن يعول عليها ؟ يترتب عليه ويلزمه لزوما عقليا بيّنا هدمُ الركن الثانى من الأركان الأربعة التى يعتمد عليها الإسلام أعنى الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وهدم ماينبنى على الثانى من الثالث والرابع . ولنقل جدلا : لينهدم ما يلزم انهدامه إن لم يكن مبنيا على أساس صحيح وكانت الحقيقة على خلافه ولانبال بانهدام صلاتنا وصيامنا وزكاتنا وحجنا بانهدام ركن السنة لابتناء أحكامها التفصيلية عليها وكون الأحاديث مبيّنة لإجمال القرآن ومتممة له بهذه الحيثية ، فما كنا ندرى ـ لو لم تكن السنة ـ كيف نصلى ؟ وكم نركع ونسجد وكيف نزكى وكم يخرج المزكى من ماله ؟ وكيف يحج الحاج ومن ذا يعلم مثلا أن المرأة لا تصلى ولاتصوم أيام حيضها ثم تقضى الصوم، وأن الصلاة تجب على المريض ولا

[١] قد بينا فيما سبق معنى هذا التجريح وعدد الأحاديث المنتقدة فى صحيح البخارى ومسلم .

تجب على الحائض ؟ والتفاصيل المذكورة فى كتب الفقة عن مسائل هـذه العبادات لا نجدها فى الـكتاب . فيلزم عند اقتصار مدار العمل على الـكتاب أن يكون لقائل أن يقول : « هذه الأعمال التى يعملها المسلمون إلى يومنا هذا لاتستند إلى أساس صحيح ثابت فى الدين » وهذا انهدام صلاتنا وصيامنا وزكاتنا وحجنا [1] ولنقل لينهدم ما ينهدم ولا نبالى به ، لـكن سنة نبى الإسلام ليست كما زعمه وزير معارف مصر واهية الأساس لا تقاوم النقـد والتمحيص على الطريقة العلمية أو لا يبقى منهـا بعـد النقد والتمحيص شيء تبنى عليه الأحكام ، بل الطريقة المتبعة فى الإسلام لتوثيق الأحاديث النبوية أفضل طريق وأعلاها ، لا تدانيها فى دقتهـا وسموها أى طريقة علمية غربية أتبعت فى توثيق الروايات . حسبك أن نقـد الرجال أى رجال الحديث أصبح علما مدونا فى الإســلام له كتب خاصــة لا تستوعبها المجلدات ، نذكر منها « تهذيب الـكمال » للمزى وعليه شرح علاء الدين المغلطانى فى ثلاثة عشر مجلدا و « تهذيب التهذيب » للحافظ ابن حجر فى عشر مجلدات يذكر فى أوله أنه ألفه فى ثمانية عشر عاما و « الفاصل بين الراوى والواعى » للرامهرمزى و « ميزان الاعتدال » للذهبى و « لسان الميزان » لابن حجر . وقد ذكرنا من قبل أسماء الـكتب الجامعة لتراجم ثلاثة عشر ألفا من الصحابة وشهادة الدكتور « اشبره نـكر » الألمانى بامتياز الأمة الإسلامية بين أمم الدنيا فى الاهتمام بتمحيص الروايات وإحاطة الموضوع من أوسع نطاقه . فى صحيح البخارى مثلا ألفان وستمائة واثنان من الأحاديث المسندة سوى

---

[١] عجيب مالقى الإسلام والعلوم الإسلامية بمصر فى زماننا فإنى أسمع كثيراً من العلماء والعقلاء فيها يتبرمون بمناقشات المتكلمين وخوضهم فى مباحث الفلسفة مدعين الغنى عنها فى الاشتغال بمطالعة السنة ، مع أنك ترى ماطرأ على مكان السنة بمصر من اعتداء المؤلفين العصريين بكتبهم عليها ومن توانى علماء الدين فى كبح جماح المعتدين وتنبيه الغافلين ، بل ومن إشادة البعض من العلمـاء بتلك الـكتب .

المكررة [١] انتقاها من مائة ألف حديث صحيح يحفظها . وقريب من ألفى راو اختارهم من نيف وثلاثين ألفا من الرواة الثقاة الذين يعرفهم . وكتاب البخارى البالغ أربع مجلدات كبيرة يبقى بعد حذف أسانيده على حجم مجلد واحد متوسط الحجم ، فهل سمعتم وسمعت الدنيا أن كتاب تاريخ فى هذا الحجم يروى مافيه سماعا من ألفى رجل ثقة يعرفهم المؤلف وغيره من أهل هذا العلم بأسمائهم وأوصافهم ، على أن يكون كل جملة معينة من الكتاب مؤلفة من سطر أو أكثر أو أقل تقريبا سمعها فلان وهو من فلان إلى أن اتصل بالنبى صلى الله عليه وسلم فيقام لكل سطر من الكتاب تقريباً شهود من الرواة يتحملون مسؤلية روايته ؟ .

ولم يتأخر جمع الأحاديث إلى عصر المأمون كما ادعاه الباشا فيما سبق تمديدا للزمان الحائل بين مصدرها وجمعها ، بل جُمع فى عهد عمر بن عبد العزيز المتوفى فى ١٠١ وكان قد أمر فى هـذا الشأن بتشكيل دواوين يبلغ عددها ألوفا فجُمع أربعة آلاف حديث تتعلق بتفاصيل الأحكام الشرعية ، وخمسمائة حديث تتعلق بأصولها وكان الخليفة نفسه من كبار المجتهدين والمحدثين . ولم يتأخر التأليف فى الحديث أيضا إلى عصر المأمون فقد كان ابن شهاب الزهرى المتوفى فى ١٢٢ مؤلّف أول كتاب فى زمن عمر بن عبد العزيز وكان ابن جريج فى مكة المتوفى فى ١٥٠ وابن إسحق فى ١٥١ ومالك فى ١٧٩ فى المدينة وسفيان الثورى فى ١٦٠ فى الكوفة وحماد بن سلمة فى ١٦٧ أو ربيع بن صبيح فى ١٦٠ وسعيد بن أبى عروبة فى١٥٦ فى البصرة والأوزاعى فى الشام متقدمين فى جمع الأحاديث .

نعم قد يوجد بين الأحاديث أحاديث موضوعة وأحاديث منكرة وأحاديث ضعيفة ـ ويوجد شئ منها فى أحاديث المعجزات أيضا ـ لكن هناك مع كل ذلك أحاديث

---

[١] وعلى قول صديقى الأستاذ فؤاد عبدالباقى الذى عده فى كتابه « جامع مادة صحيح البخارى وأطراف البخارى » ألفان وستمائة وخمسة .

متواترةوأحاديث مشهورة وهناكأخبار آحادمتواترة المعنى وأخبار آحادفى رتبةالصحة وأخبارآحادفى رتبةالحُسن وهناكأحاديثمرفوعةوأحاديث مرسلة[1] فأئمةالحديثأنفسهم ورجالهم الثقات رتبوا الأحاديث الواصلة إليهم بأسانيد مختلفة على هذه المراتب وميزوا زيوفهامن صحاحها وكانالرواة المتهمون بالـكذب أو عدم الدقة معلومين عندهم فإذا دخل واحد من المتهمين أو المجهولى الحال فى سلسلة الإسناد لأى حديث أخل برتبته من القبول . واليوم أصبحت مرتبة ثبوت كل واحد من الأحاديث المضبوطة فى جوامع الـكتب المحصاة بمئات الألوف متعينة عندنا تعينا لا محل للريبة فيه . فالذين ينظرون من بعيد إلى ما يجرى فى علم الحديث الإسلامى من النقد الحر والرقابة الدقيقة ويطلعون منـه على أن علماء الحديث لا يقيمون فيما بينهم لبعض الأحاديث وزنا . ويقيمون لبعضها وزنا ناقصا ، ليس من الإنصاف أن يتخذوه وسيلة طعن مطلق فىقيمة الحديث وموقعه بينأدلة الشرع الإسلامى . ولولا أن علماء الحديث أنفسهم لم ينقدوا مايستحق النقد من الأحاديث لـما أمكن المستشرقين أن يعيبوا صحاحها بعتلاتها . فنقدُ علماء الحديث من تلقاء أنفسهم ما يستحق النقد من الأحاديث لا يكون نقيصة لصحاحها تزيل الثقة عنها بل مزية تجعلها جديرة بالثقة وهذه الصحاح ينبنى عليها أكثر أحكام الشريعة الإسلامية من عباداتها ومعاملاتها . ومن المؤسف المؤلم للمسلم أن يرى بلادا

---

[١] وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » رواه الشافعى فى الأم ، وكذا رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه عن أبى رافع مولى رسول الله وفى رواية الترمذى « ألا أنى أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه » وفى رواية مقدام « ألا وإن ماحرم رسول الله كما حرم الله » وهذا الحديث معدود من معجزاته صلى الله عليه وسلم المتعلقة بإخباره عن الغيب. قال الفاضل الهندى كاتب السيرة المارة الذكر من قبل : « إن هذا الإخبار كما ينطبق على المعتزلة القدماء ينطبق أيضا علىطائفة حديثة من الهنديين والمصريين لايعولون علىالأحاديث ويسمون أنفسهم أهل القرآن »

إسلامية اجترئ فيها على استبدال قوانين الأمم غير المسلمة بقوانين شريعتها ، ولم يكفها إلغاء العمل بشرعة الإسلام حتى زيد فى الاجتراء وطعن فى تلك الشريعة بدعوى عدم استنادها من ناحية السنة على أساس متين وقصر الأساس الصحيح على الكتاب، مع أن العمل ببعض الكتاب مهجور أيضا فى تلك البلاد . فلم يبق إلا دور أهمال البعض الباقى ثم الطعن فى أساس الكتاب [1] .

---

[١] وإنى لا أثق بإخلاص العصريين من الكتاب والعلماء الذين يقصرون اهتمامهم على القرآن ويهملون أسس الإسـلام الأخرى ، لا أثق بإخلاصهم فى اهتمامهم بالقرآن زيادة على عدم وثوق بكفايتهم العلمية التى توجب عليهم تقدير الأسس الأخرى فقد قرأت مقالة فى مجلة «الرسالة» بعنوان «القرآن والمسلمون» للشيخ العصرى محمود شلتوت وكيل كلية الشريعة وقرأت معها مقالة لصاحب المجلة الأستاذ الزيات يشيد بمقالة الوكيل ويعدها انبعاث الأزهر ورأيت مقالة الشيخ المثنى عليها تغفل ذكر ماعدا القرآن وتنحى باللوائم على كتب التفسير المعروفة المتداولة فى أيدى العلماء مدعياً أن أهل التفاسير الماضية مافهموا القرآن . وهذا القول منه يتضمن القدح فى الأئمة المجتهدين الذين استنبطوا الأحكام من القرآن . بل إن التفاسير القديمة ينتهى طرفها الأول إلى تفسير الصحابة والرسول صلى الله عليه وسلم.

ولعل الشيخ القادح لا يعجبه إلا مثل تفسيره فى مقالة سابقة له قائلة بأن القرآن جارى عقيـدة العرب فى تصوير الشيطان كشخص ذى حياة مع كونه فى الحقيقة عبارة عن نزعات الشر المنبثة فى العالم. فليس ببعيد أن يُلغى فى التفسير الجديد الذى يعجبه ، كثير من الأحكام المنصوص عليها فى القرآن بادعاء كونها مجاراة لأهواء العرب فى عهد الرسول القريب من عهد الجاهلية ، ويمكننى أن أذكر إباحة تعدد الزوجات مثالا لهذه الدعوى المنتظرة من الشيخ .

والحق أن القرآن الذى هو كلام الله لا يمكن أن تتصور فيه مجاراة الأهواء ، وإنما للعصريين أنفسهم أهواء يشذون بها عن المسلمين ويريدون إرهاق بعض آيات القرآن عليها، وهم فيما عدا ذلك من الآيات التى لا صلة لها بأهوائهم الشاذة عاجزون عن كتابة سطر يستحق أن يسمى تفسير القرآن من غير مراجعة كتب التفسير القديمة التى ادعى الشيخ أن أصحابها مافهموا القرآن ، أو مراجعة مابقى منها فى ذاكرتهم من تلك الآثار التى ورثوها معنا من العلماء الماضين فشكرناهم وكفروا .

وآخر ما أقول فى الذين يتظاهرون بحصر اهتمامهم فى القرآن نائين بجانبهم عن الحديث والفقه مثيرين الشك فى صحة الأحاديث ومدعين كون الفقه عبارة عن آراء الفقهاء ثم مستهينين من القرآن بتفاسيره القديمة فلم يبق إلا متن القرآن ، آخر ما أقول فيهم : قد كذّب القرآن فى هذا البلد =

وكيف يخطر ببال مسلم أن لا يكون ما فى صحيح البخارى الذى كان المسلمون إلى هذا الزمان يعتبرونه أصح الكتب بعد كتاب الله ، أو صحيح مسلم أو موطأ الإمام مالك أو مسند الإمام أحمد بن حنبل أو مسانيد الإمام أبى حنيفة أو الإمام الشافعى ؛ صحيحا حقيقة يعوّل عليه على الأقل كما يعول على كتب التاريخ المعتبرة عند علماء الغرب [1] أو أن تكون أمانة أئمة الإسلام المذكورين دون أمانة المؤرخين الغربيين وإخلاصهم للحق وتضحيتهم فى سبيله دون إخلاصهم وتضحيتهم، أو أن لا يكون بين عشرات الألوف من الأحاديث المروية فى كتبهم ـ ومسند الإمام أحمد وحده يحتوى من الأحاديث ما يقرب من أربعين ألفا ـ حديث واحد صحيح تثبت به واحدة من معجزات محمد صلى الله عليه وسلم الكونية ؟ .

عجيب جدا أن يكون المسيحيون صعدوا بنبيهم إلى درجة الألوهية إستنادا إلى معجزاته الكونية ويكونَ المسلمون استكثروا لنبيهم معجزة كونية واحدة تدل على نبوته ولو بالنظر إلى الذين لا يقدرون معجزة القرآن حق قدرها كالمستشرقين والعامة من الناس . فهل يظن منكرو المعجزات الكونية منا لمحمد صلى الله عليه وسلم أنهم يستجلبون بإنكارهم هذا إعجاب المستشرقين نحو نبينا ؟ كلا ، وإنما يعجب ذلك الذين ينكرون النبوئات من الغربيين. والذين لا ينكرون النبوات منهم يبقى نبى الإسلام

= قبل بضع عشرة سنة تصديقاً لبعض أعداء الإسلام من المستشرقين ـ كما كذّبت السنة أخيراً لإنكار المعجزات فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم تصديقاً لبعض الآخر من الأعداء ـ وعند ذلك انبرى من انبرى من كتاب المسلمين وعلمائهم للدفاع عن القرآن وصال على المعتدى . ولا أدرى لعدم كونى يومئذ بمصر ، هل بين المدافعين الصائلين الشيخ شلتوت أو الأستاذ الزيات أو الدكتور هيكل مؤلف « حياة محمد » وتخليها عن المعجزات غير القرآن ؟

[١] نعم أنا لا أدعى لأولئك الأئمة الذين لا شك فى أنهم أكثر خوفا من الله من مؤلفى الغرب وأنه لا ضمان أقوى لتجنب الكذب من مخافة الله ، لا أدعى لهم العصمة من الخطأ ، والأمانة والعدالة غير العصمة، مع أن كتب المؤرخين الغربيين لم تمحص ولم تغربل عليهم بعشر معشار ما غربلت كتب أئمة الإسلام بأيدى أئمة الإسلام الآخرين .

عندهم بفضل معالى هيكل باشا من غير معجزة ، لأنهم لا يقدرون إعجاز القرآن الذى لا يفهمونه . وفضلا عن هذا فمعاليه يلطخ سمعة كبار المسلمين الذين كانوا وسائط بلاغه عن نبيهم، بوصمة شبهة الكذب . فإذا كان الحق يقال مهما كان مراً فما فعل هيكل باشا فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه من إثارة الشبهة فى صحة أحاديث الرسول بجملتها[1] للتوصل إلى إثارة الشبهة فى صحة أحاديث المعجزات ، ومن التنازل عن ثانى المعقلين الرئيسيين من معاقل الإسلام الأربعة ألا وهو السنة ، فى سبيل التنازل عن معجزات نبى الإسلام الكونية — جناية لا تغتفر ، وتأييد مشيخة الأزهر لهذه الجناية أدهى وأمر . فكيف يتفق هذا التأييد وتدريس الحديث فى الأزهر بل تدريس أصول الفقه والفقه أيضا بمذاهبه الأربعة حال كون أكثر أحكامها مستندة إلى السنة ؟ فهل الأستاذ الأكبر المراغى يحاول بتقريظ كتاب الدكتور هيكل باشا وتقديمه للمسلمين تهيئة جو ملائم لإلغاء كلية الشريعة ؟ .

ومن دواعى الأسف أن كتاب معاليه الذى تخاطَفَ نسخه الراغبون فى قراءته واقتنائه من المسلمين بمصر حتى طبع ثلاث مرات فى أربع سنين، كان يكيل فى مرأى ومسمع من أولئك القارئين المسلمين طعنات تزيف على كتب كانت تعتبر من يوم تأليفها إلى هذا الزمان أصح الكتب فى الإسلام بعد كتاب الله مثل صحيح البخارى وصحيح مسلم وموطأ مالك [2] وغيرها من السنن والمسانيد ، فلم تعل فى مصر ولا فى غير مصر أصوات دفاع عن كرامة هذه الكتب المباركة عند المسلمين ولو بقدر الأصوات المرتفعة من النواب المسلمين فى برلمان مصر دفاعا عن كتاب « برناردشو »

---

[١] بل التشكيك فى كتب الحديث والسيرة على الإطلاق يؤدى إلى التشكيك فى القرآن أيضا لأن تلك الكتب هى المرجع أيضا فى مسألة جمع القرآن وما التزم فيه من الدقة فى ضبط الأصل .

[٢] أصح الكتب بعد كتاب الله على قول الإمام الشافعى موطأ مالك ، وهذا لاينافى قول الآخرين بأن أصحها بعد القرآن صحيح البخارى لكون البخارى وصحيحه متأخرين عن الإمام الشافعى.

الإنجليزى الذى كان يدرس فى الجامعة المصرية والذى فيه شتم نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أقبح شتم ، ولا بقدر صوت الأستاذ الأكبر المراغى شيخ الجامع الأزهر والشيخ رشيد رضا صاحب المنار دفاعا عن كتاب هيكل باشا الطاعن فى كتب الحديث [١] .

— ٣ —

الثالث أن المانع من إثبات المعجزات الكونية فى « حياة محمد » على ما يظهر من اعتذار مؤلفه فى مقدمة الطبعة الثانية هو مخالفة تلك المعجزات للقرآن . وربما تراه يعبر عن هذا المانع بعدم ورود تلك المعجزات فى القرآن ، لكن مخالفة القرآن شىء وعدم ورود الذكر فيه شىء آخر . فإن صح الأول صح كونه مانعا إلى حد ما . وليس الثانى بمانع ، صح أو لم يصح ! إذ القرآن لم يكن كتاب سيرة أو تاريخ لحياة محمد صلى الله عليه وسلم كما أنه لا معنى لتعليق صحة ما فى كتب الحديث والسيرة من معجزات نبينا الكونية ، بشرط كونها واردة الذكر فى القرآن فتكون تلك الكتب تكرارا لما فى القرآن مستغنى عنها .

فالقياس الذى يرى مماليه حتما على المسلمين تطبيقه على الأحاديث المنسوبة إلى

---

[١] لا يقال إن الطعن فى كتب الأحاديث المؤدى إلى انهيار أساس مهم من أسس الشريعة الإسلامية وقع من مؤلف « حياة محمد » فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه ، تبريراً لإهماله المعجزات المذكورة فى كتب الحديث والسيرة ، وجوابا عن الاعتراضات الموردة على المؤلف بسبب هذا الإهمال لكن تقريظ فضيلة الأستاذ الاكبر انتشر مع الطبعة الاولى وتقدم تلك الطعون الملحقة بالطبعة الثانية . لأنا نقول إن تقريظ فضيلته قبل الطبعة الثانية والطعون الملحقة بها لم يكن مقدما على الإهمال الظاهر فى الطبعة الاولى الذى ورط صاحبه فى الطعون المنتشرة مع الطبعة الثانية . على أنه كان فى استطاعة فضيلته أن يسحب تقريظه لكتاب الدكتور هيكل باشا بعد أن رأى طعونه الهدامة المصوبة نحو السنة فى الطبعة الثانية والثالثة ، فلم يفعل بل أذن فى نشر تقريظه مع كل طبعة .

نبيهم ليملءوا صحاحها من زيوفها ثم يمنفهم بإهماله ، مضطربٌ بين أمرين يحسبهما معاليه أمرا واحـدا فيذكر أحدهما تارة والآخر تارة أخرى وتارة يذكرهما معا وتارة يزيد عليهما مقياسا ثالثا . وقد جمع الثلاثة فى قوله :

« ولو أنهم أنصفوا التاريخ لطبقوا الحديث على سيرة النبى العربى فى جملتها وفى تفصيلها دون استثناء لأى نبأ روى عنها لا يتفق وما ورد فى القرآن الـكريم فالم يكن مما تجرى به سنة الـكون ولم يرد ذكره فى كتاب الله لم يثبتوه ... »

فالأمران اللذان يذكرهما ويحسبهما أمرا واحدا هما عدم اتفاق نبأ الحديث مع القرآن وعدم ورود ذكره فيه . وقد عرفت أن ثانيهما حشو مفسد والمانع الثالث المزيد عدم كونه مما يجرى به سنة الـكون ، وربما يعبر معاليه عن هذا المانع بكونه مما لا يقره العقل ويحسبهما أيضا واحدا ، مع أن المخالف لسنة الـكون أو لسنة الله شىء ، وما لا يقره العقل أو مالا يصدقه العقل أو مالا يسيغه العقل أو مالا يدخـل فى معروف العقل أو ما يبعد عن مقتضى العقل أو مالا يقبله العقل ، شىء آخر . وقد استعمل كل هذه التعبيرات فى تارات : فاستعمل كلا من الخمسة فى أمكنة مختلفة من مقدمة الطبعة الثانية والأولى لـكتابه واستعمل التعبير السادس فى صلب الـكتاب ص ١٤٢ فهناك أمور أربعة يذكرها معاليـه كأنها أمران ويعتبرها موانـع لصحة الحديث : مخالفته للقرآن ؛ عدم ورود ذكر ما فيه ، فيه ؛ مخالفته لسنة الـكون ؛ مخالفته للعقل . وليس الأول متحدا مع الثانى ولا الثالث مع الرابع . وليس الثانى بمانع كما عرفت ولا الثالث وهو المخالف لسنة الله أو سنة الـكون ، إذ يمكن أن يكون هذا المخالف معجزة ، وهو المطلوب . ولا يلزم أن يكون المخالف لسنة الـكون أو سنة الله مخالفا للعقل أى محالا ، ومن هذا تعد المعجزة من خوارق العادة لا من خوارق العقل وإلا لما أمكنت ولما وقعت . لـكن الذين لا يميزون خارق العادة من خارق العقل ويزعمون المعجزة التى هى من خوارق العادة وإن شئت فقل من خوارق سنة الـكون ، خارقة للعقل

أيضا ، ينفونها قائلين باستحالتها ، وهذا الزعم منهم ناشىء من زعم آخر هو عـدم إمكان خرق القوانين الطبيعية المقررة فى العلم الحديث المثبت المبنى على التجارب الحسية ، وهذا قول الملاحدة المادية ، وهذا أيضا هو الداء المزمن الذى استولى على عقول كثير من مثقفى المصريين والذى وقفنا مجهود كتابنا هذا ، على معالجته .

وأعجب شىء من المسلم عدم إقلاعه عن دعوى مبنية على نفى وجود الله وقدرته المسيطرة على الـكون . فمهما كان العلم المادى علما مثبتا ومهما كان ظنهم فى العلم المثبت المبنى على التجربة أنه لا يقبل التغيير والتعديل ولا يقر المعجزة ، فالعقل يفارق هـذا العلم المنقلب جهلا ويقر المعجزة أى يقـول بإمكانها . وقد أطلعنا القارىء فى أمكنة مختلفة من هذا الـكتاب على قيمة القوانين المثبتة بالتجارب .

ومعالى مؤلف كتاب « حياة محمد » النافى لمعجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الـكونية لو علم أن نفاة المعجزات من الغربيين بناء على استحالتها عقلا ، ، إنما ينفونها ويدعون استحالتها لعدم اعترافهم بوجود الله وبوجود أنبيائه ، لما نفى المعجزات عن حياة محمـد صلى الله عليه وسـلم وعلى الأقل لما بنى نفيها على أنهـا لا يقرها العقل . والأسف أن الذين استشارهم من شيـوخ المعاهد مكاشفا لهم ما ينتهجه فى كتابه ، شجعوه عليه بدلا من أن ينبهوه إلى أن المعجزات لا تنافى العقل . ويتصاعد الأسف تجاه فضيلة الأستاذ الأكبر فى تقريظ كتاب هيكل باشا ، بعد أن قال : « لم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا فى القرآن وهى معجزة عقلية » : « وما أبدع ما قال البوصيرى :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

ومعنى قول البوصيرى هذا بالنظر إلى إعجاب فضيلته به ان محمدا صلى الله عليـه وسلم لم يأت أمته بمعجزات لا تستسيغها العقول كما أتى غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم ويعنى بها المعجزات الـكونية ، مع أنا إذا فرضنا هـذا المعنى لذلك القول كان

ما أتى به البوصيرى القائل لهذا القول والقائل فى نفس القصيدة مثلا :

جاءت لدعوته الأشجار ساجدةً تمشى إليه على ساق بلا قدم

والقائل :

أقسمت بالقمر المنشق إن له من قلبه نسبةً مبرورةَ القسم

بل القائل :

وكل آى أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم

من الأقوال المتناقضة ــ هو ما تعيا المعقول به ، لاما أتى به الأنبياء من المعجزات الكونية . ولقد أغرب فضيلته فى استشهاده ببيت شعر أخطأ فى فهم معناه[1] وتغاضى لتمشية خطائه عن سائر أبيات القصيدة وهو بصدد الإفتاء المؤيد لإهمال معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم غير القرآن فى كتاب عن حياته ، لعدم اعتماد مؤلفه على كتب السيرة والحديث التى تُلصق بها تلك المعجزات . فكيف يستشهد ببيت شعر للبوصيرى المغلوط فى فهم معناه حين لا يُستشهد بالأحاديث المذكورة فى كتب الحديث ؟ مع أن بيت البوصيرى برىء مما توهم له الأستاذ الأكبر من المعنى ، وقرينة البراءة أبياته الكثيرة الأخرى التى أوردنا آنفا بعض نماذج منها ، وإنما معناه أن الإسلام لا يوجد فيه ما لا يقبله العقل كما وجد فى بعض الأديان المحرفة عن أصلها . أو معناه أن نبينا بعث بالحنيفية السهلة السمحة كما ورد فى الحديث وكما جاء فى القرآن ناعتا له (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) .

فإن اعترض معترض بكون المقارنة فى التوجيه الأول لا تقع بين الإسلام وغيره من الأديان المنزلة لعدم صحة اعتبار ما حرف منها دينا ، وبكون ما فى الأديان السابقة

[١] وقد ذكرنى هذا ماسبق لفضيلته أنه أخطأ فى فهم أقوال الفقهاء عند ترويج فتنة ترجمة القرآن الحادثة فى تركيا ، حيث كتب مقالة فى « السياسة الأسبوعية » و « الأهرام » واستدل على رأيه فى الجواز بأقوال العلماء المانعين كما يظهر ذلك من مراجعة كتابى « مسألة ترجمة القرآن » ص ٢٢ ــ ٢٤ الذى نشرته قبل بضعة عشر عاما ، وانتقدت فيه مقالة فضيلته وغيره .

من الشاق على التوجيه الثانى مما تميا به الأبدان لا مما تعيا به العقول [1] إن اعترض علينا فى التوجيهين ولم يجد غيرنا توجيها للبيت أحسن منهما ، فاللازم حينئذ حمل التبعة تبعة امتناع البيت عن التوجيه المعقول ، على عاتق قائله أعنى البوصيرى رحمه الله ، إذ ليس من الواجب على أحد أن يجد تفسيرا حسنا لبيت البوصيرى إن لم يكن هو أحسن إنشادَه . ولا يجوز إنكار معجزات نبينا الكونية طلبا لتقويم بيت شعر ، ثم لا يجوز مرتين أن يقال عن بيت مثله مضطرب المعنى : ما أبدعه ! كما قال فضيلة الأستاذ .

وكما أغرب فضيلة الأستاذ الأكبر أغرب معالى مؤلف الكتاب فى الاتفاق مع فضيلته على الخطأ فى فهم البيت وفى نسيان ماعداه من أبيات البردة ، ولم يكتف بتقبل هذه الفتوى المبنية على خطأ ظاهر فى الفهم بل جعل ثمن الشكر لفضيلته أن جعله فى عداد الأئمة المدققين مثل الغزالى ومحمد عبده .

ومهما وُجد فى أقوال الإمام الغزالى ما ينتقد عليه ، فليس فى الإمكان أن يكون له قول يتخذه الدكتور هيكل باشا سندا فى إنكار معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم غير القرآن . أما الشيخ محمد عبده الذى أزداد اطلاعا عنه بعد مجيئى مصر ما ازدادت أيامى بها ، على ضلع منه فى حدث مدبر ضد الإسلام كمساعدته الخفية لقاسم أمين فى إثارة فتنة السفور بمصر [2] أو على شذوذ مريب كقوله المنقول سابقا فى تعريف

---

[١] ويمكن أن يعد ما فى الإنجيل من الآية المشهورة الآمرة بتحويل الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن ظلماً ليضربه أيضاً ، مما تعيا به عقول الرجال الأحرار .

[٢] وبالنظر إلى قول الشاعر المشهور على جارم بك فى قصيدته المذاعة بالراديو من محطة الحكومة ليلة الاحتفال بذكرى قاسم أمين الثلاثين :

كنت فى الحق للامام نصيرا　　　والوفى الصفى من أصحابه

لم يكن قاسم هو مثير الفتنة والإمام مساعده ، بل الأمر بالعكس .

النبي أو على مجازفة تشف عن ضعف بصيرته فى العلم كإنكاره لبطلان التسلسل ونسبة كل ما قيل أو يقال فى إبطاله إلى الأوهام الكاذبة ، وقد سبق تفصيله فى الباب الأول والثانى من الكتاب ، والشيخ المراغى الذى كتب كلمة التحبيذ فى صدر كتاب لا يعترف لنبينا بمعجزة غير القرآن ويكذّب ماجاء عنها فى كتب السيرة والحديث ويسعى لرفع الثقة بتلك الكتب فى مسألة المعجزات وغيرها ويحسن ظنه بكتب المؤرخين الغربيين كما سبق منا فى ص١٥١ من الجزء الأول نقل كلمات عن كتاب معاليه تشهد بذلك ، فى حين أنه يسيء ظنه بكتب أئمة المسلمين ... كتب فضيلته كلمة التحبيذ والتقريظ على هذا الكتاب ورأى رأىَ مؤلفه فى نفى المعجزات الكونية ، وذهب من قول البوصيرى :

لم يمتحنا بما تعيا العقولُ به   حرصا علينا فلم نَرتَب ولم نَهِـم

إلى أنه أيضا على رأيهما غافلا عن أقوال البوصيرى من قصيدته فى غير هذا البيت، وباعد بين الدين والعلم وبين الفقه والدين [1] فهذا الشيخ وذاك الشيخ لا يعدهما من أئمة الإسلام المدققين إلا من لا يعرف الإسلام وأئمته المدققين .

ومما يمنع كون معنى بيت البوصيرى كما فهمه الأستاذ المراغى فضلا عن القرآن المانعة له من أبيات فى نفس القصيدة، أنه لو كان معناه أن نبينا لم يأت أمته بمعجزات تعيا العقول فى الاعتراف بها كما أتى غيره من الأنبياء ، لكان البوصيرى قائلا باستحالة معجزاتهم عند العقل ومنكرا لوقوعها فى أزمنتهم ، إذ المستحيل عند العقل وهو الذى يعيا العقل دون الاعتراف به ، لا يقع ولا يمكن وقوعه، ولذا أنكر الأستاذ فريد وجدى القائل باستحالة المعجزات عقلا ، وقوعها فى الماضى واعتبر جميع آيات القرآن المنبئة عن معجزات الأنبياء، من المتشابهات . لكن البوصيرى رحمه الله لايتصور أن

---

[١] تكلمنا على الأول فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (ص٩٥ ـ ١٠٤) وسنتكلم على الثانى فى الباب الرابع منه .

يكون فى هــذه العقلية الظاهرة البطلان . فهل الأستاذ الأكبر الذى فسر قول البوصيرى بغير ما أراده قائله ، فى عقلية رئيس تحرير « مجلة الأزهر » فى عدم التمييز بين خارق العادة وخارق العقل ؟

بقى أنه لا يقال عن فضيلة الأستاذ الأكبر، بعد غض النظر عن خطائه الفاحش فى فهمه لبيت البوصيرى الذى استشهد به : إن فضيلته ما أنكر فى تعريفه بكتاب هيكل باشا وبجازفته فى كيل التقريظ له ، معجزات نبينا غير القرآن، وإنما ادعى انحصار معجزاته القاهرة فى القرآن، وعنى بها معجزته القطعية التى يكفر منكرها . لأنا نقول بعد غض النظر ثانيا عن معجزاته غير القرآن الثابتة بالسنن المتواترة تواترا معنويا [1] بل الثابتة بالقرآن : فهل كل ما كتبه مؤلف كتاب « حياة محمد » فى كتابه ، مما يكفر منكره حتى يرى معجزاته غير القرآن لم تبلغ فى الثبوت هذا المبلغ فيخلى عنها كتابه ويقر له فضيلة الأستاذ الأكبر بهذا الإخلاء على تلك المعذرة ؟ فإن كان فى المعجزات غير القرآن ما ثبت ثبوتا يحكم على منكره بالضـلال إن لم يحكم بالـكفر ـ ولا شك فى وجـود مثله فيها ـ فهل لا يكفى عيبا على كتاب هيكل باشا أن يخلو عنه وعلى الأستاذ الأكبر أن يحبذ هذا الضلال ؟ وما فعله الباشا فى مقدمة الطبعة الثانية لـكتابه من سعيه لزعزعة ركن السنة فى الإسلام وسكوت فضيلة الأستاذ مادح الـكتاب على هذا السعى، لا شك فى أنه فوق الضلال .

---

[١] قال المحقق الدوانى فى شرح العقائد العضدية « إن معجزات نبينا المغايرة للقرآن وإن لم يتواتر كل منها فالقدر المشترك بينها متواتر كشجاعة علىّ وسخاوة حاتم » وقد صرح القاضى عياض أيضاً فى « الشفاء » بهذا التواتر .

— ٤ —

الرابع ماذا هو الباعث على إثبات معجزة عقلية وهى القرآن، لمحمد صلى الله عليه وسلم ونفى كل معجزة كونية عنه [1] وماذا هو الباعث على محاولة رفع الثقة بعامة الأحاديث النبوية فى سبيل نفى الثقة بأحاديث المعجزات ؟ فهل الباعث على ذلك ضعف مكان السنة حقيقة ، رغم كونها من أهم الأركان الأربعة التى تستند عليها الشريعة الإسلامية ، أم الباعث كون المعجزات الكونية لا يقبلها العقل مطلقا أو لا يقبلها العقل العصرى المبنى على التجربة ؟ وقد بينا فى مواضع عدة من الباب الأول وفى أول هذا الباب (الثالث) من الكتاب ، حدود التجربة وحدود العقل وأثبتنا أن العقل الذى ينظر إلى المعجزة الكونية نظره إلى المستحيل والذى تحكم عليه التجربة ولا يحكم هو على التجربة ، إنما هو عقل الذين لا يعرفون العقل وينكرونه وينكرون الحياة والروح وينكرون خالق العقل والحياة لعدم انقياد كل من هذه الأمور للتجربة ولا يمكن أن يكون مؤلف كتاب « حياة محمد » المؤمن بالله وكتابه المنزل على نبيه ، منهم .

لكن من الواجب أن يعرف معالى المؤلف أن منكرى المعجزات البانين إنكارها على دعوى استحالتها ، لا يفرقون بين المعجزات الكونية والعقلية ، ويرون الكل مخالفا لسنة الكون ، كما يرون المخالف لسنة الكون محالا . فمتى بلغ أى شىء مبلغ المعجزة والخارقة خالف سنة الكون وخرقها ، وإلا لم يكن معجزة إلا فى تعبيرات الأدباء

[١] كان فضيلة الأستاذ المراغى قال فيما كتبه تأييداً لإغفال المعجزات الكونية فى كتاب « هيكل باشا » : « لم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا فى القرآن وهى معجزة عقلية » وقد يضيفون إلى صفة « العقلية » « الإنسانية » كما قال هيكل باشا ص ٥٥ « مقارنة النبى العربى بمن سبقه من الرسل مقارنة مع الفارق فهو خاتم الأنبياء والمرسلين وهو مع ذلك أول رسول بعثه الله إلى الناس كافة ، لذلك أراد أن تكون معجزة محمد إنسانية عقلية » .

المتجوزين ، حتى ان النبوة والرسالة بمعناهما المعروف عند المليين معجزة مخالفة لسنة الـكون ، فمن يقول باستحالة المخالف لسنة الـكون يقول باستحالة النبوة والرسالة أيضا ، إلا أن تـكون من قبيل ما شاع فى ألسنة الـكتاب العصريين من رسالة المرأة ورسالة الرجل ورسالة « الجامعة » ورسالة «الأزهر » ورسالة الصحف ورسالة المجلة أو مجلة « الرسالة » . ومن غرائب العصر الذى يسود فيه عدم الاعتراف بالمعجزة والنبوة والرسالة، كثرة استعمال هذه الـكلمات وإن كانت فى غير مواضعها، ولعل مرمى المستعملين تنزيل هذه الأسماء من مسمياتها القديمة المستحيلة إلى مسميات جديدة معقولة!!

فلا فرق إذن بين المعجزة العقلية والمعجزة الـكونية ، فكلاهما محال عند الملاحدة القائلين باستحالة المخالفة لسنة الـكون وكلاهما ممكن الوقوع عقلا عند المسلمين بحول الله وقوته . فلو اعترفت الطائفة الأولى بوجود الله ووجود أنبيائه لقالت هى أيضا بإمكانهما من غير فرق .. ولا وجه للتفريق بينهما بإثبات المعجزة العقلية ونفى المعجزة الـكونية ، إلا أن يراد من المعجزة العقلية ما يكون منشؤه التفوق العقلى المنقطع النظير لمن أتى بالمعجزة فلا يخرج على سنة الـكون وإنما يكون مبلغه أسمى ما يستطيع إنسان أن يبلغه . وربمـا يجد القارئ المفـكر تلاؤما مع هذا التوجيه فى قول مؤلف المؤلف : ص ٤٤

« فحياة محمد حياة إنسانية بلغت أسمى ما يستطيع الإنسان أن يبلغ ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن ويصارح أصحابه بذلك [1] وقلنا عند الـكلام عن قصة شق الصدر إنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين المسلمين إلى هذا

[١] لا يخفى أن كاتب حياة نبينا مجردة عن المعجزات غير القرآن لو وجد حديثاً يصارح رسول الله أصحابه فيــه بأنه لايرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن لبادر إلى ذكر هذا الحديث قبل كل شىء حتى قبل ذكر الحديث الموضوع الذى تمسك به وهو يجعل القرآن مقياساً لقبول الحديث أو رفضه .

الوقف من ذلك الحادث أن حياة محمد كلها حياة إنسانية سامية وأنه لم يلجأ فى إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق وهم فى هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حياة النبى العربى كلها مالا يدخل فى معروف العقل ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع مادعا القرآن إليه من النظر فى خلق الله وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعبير القرآن للمشركين أنهم لا يفقهون، أن ليست لهم قلوب يعقلون بها » .

فهذا القول من المؤلف غاية فى التخليط والتشويش لا يصعب فهم ذلك لمن أحاط بتفاصيل ما قلنا فى تحليل أقواله ، ففيه اعتبار المعجزة مما لا يدخل فى معروف العقل أى ممـا يخالف العقل ، وفيه التسوية بين ما يخالف العقل وما يخالف سنة الـكون ، وفيه إيهام أن نسبة معجزة إلى الرسول غير القرآن تنافى بشريته ، وفيه توهم كون الاعتراف بالمعجزات مانعا عما دعا إليه القرآن من النظر فى خلق الله، وفيه الاستدلال على نفى المعجزات بقول الله تعالى : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » ، وكل ذلك خطأ ، وفيه زيادةً على الخطأ عدم اعتبار حياة الأنبياء السابقين الذين ظهرت على أيديهم الخوارق حياة سامية أنسانية ، وفيه إيهام أن الأولى بحياة النبى أن تكون حياة سامية إنسانية ليست فيها خارقة لسنة الـكون وإن شئت فقل : ولا لإرسال ملك ولا إنزال كتاب بنصه ، لأنهما أيضا من الحادثات الخارقة لسنة الـكون وقانون الطبيعة ، فلا تتوقف النبوة على شىء من هذا القبيل المستحيل وإنما معجزة النبى هى التفوق العقلى والخلق السامى الذى به يبلغ أسمى ما يستطيع إنسان أن يبلغ ! !

فمعنى كون القرآن إذن معجزة عقلية إنسانية مفترقة عن المعجزات الـكونية فى الإثبات والنفى ، أن يكون الإتيان بها من الإنسان ملتئما مع العقل، كمن أتى بكتاب يعجز غيره أن يأتى بمثله فى البلاغة أو فى أى مزية من المزايا !!

ففى هذه الأسطر المنقولة آنفا من كتاب « حياة محمد » أشياء كثيرة يؤخذ مؤلفه بها ، والمأخذ الأخير يتفق اتفاقا مع كلام الشيخ محمد عبده فى تعريف النبى

والرسول الذى نقلناه قبل الشروع فى نقل أقوال عن مقدمة الطبعة الثانية لكتاب هيكل باشا ونقدها ، نعم فى هذا المأخذ الأخير بعض مغالاة منا فى سوء الظن بعقلية المصريين فى مسألة المعجزة والنبوة كما أنا أخذناهم وقادتهم من علماء الدين . وماأجدر أيامنا معهم بقول الطغرائى :

وحسن ظنك بالأيام معجزة … فظن شراً وكن منها على وجل

ومهما غالينا فى سوء الظن بهم فلا تعدل مغالاتنا مغالاتهم فى سوء الظن بكتب الحديث ورواية المحدثين جملة بل الأئمة المجتهدين أيضا ، لحد ما يؤدى إلى إسقاط الأحكام الشرعية المبنية على ركن السنة من حيز الاعتداد والاعتماد والله يهدينا ويهديهم سواء السبيل .

— ٥ —

الخامس مما يقضى به الإنصاف ، ومع ذلك من الغريب ، أن الذين أرادوا تجريد حياة محمد صلى الله عليه وسلم من المعجزات الكونية حتى أثاروا فى سبيل هذا التجريد الشك فى قيمة السنة عند الإسلام ، إنما جنحوا إلى هذا الشذوذ الخطير المحدث وركبوا متن هذا الشطط والإسراف فى التضحية ، لدافع حسن فى نفسه وهو ترغيب عقلاء الغرب فى الإسلام وتحبيبه إلى قلوبهم وتقريبه من عقولهم ، فكأن المعجزات الكونية والروايات عنها فى كتب الحديث والسيرة أصبحت عيبا على الإسلام وحياة نبيه عليه الصلاة والسلام . وبهذه العقلية لابغيرها فسر الشيخ محمد عبده سورة الفيل من القرآن بما فسر ، واقتدى به معالى هيكل باشا حيث قال فى كتابه عند ذكر وقعة الفيل :

« كان وباء الجدرى قد تفشى فى جيش أبرهة وبدأ يفتك به، وكان فتكا ذريعا لم يعهد من قبل ، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وأصابت العدوى نفس أبرهة فأخذه الروع وأمر قومه بالعودة إلى اليمن، وفر الذين كانوا يدلون على

الطريق ومات منهم من مات . وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ، ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب . وبلغ أبرهة صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض فلم يقم إلا قليلا حتى لحق بمن مات من جيشه . وبذلك أرخ أهل مكة بعام الفيل هذا ، وقدسه القرآن » .

قال هكذا ثم كتب سورة الفيل بنصها كأنها جاءت طبق ما حكاه من أبرهة وجيشه ، أهلكهم وباء الجدرى من غير أن يكون هناك شىء من الطير الأبابيل ولا مما رمتهم به من حجارة من سجيل، كما لم تذكر سورةُ الفيل شيئا من وباء الجدرى الذى أبادهم فى حكاية هيكل باشا . فكانت صورة الحكاية مع ما كتب فى نهايتها من آيات السورة ، آية فى الجمع بين المتخالفين[1] فماذا تقولون فى مؤلف كتاب « حياة محمد » الذى كان يشترط فى قبول الأحاديث النبوية موافقتها للقرآن ثم نراه لا يراعى شرط الموافقة للقرآن فى تفسير القرآن ؟ فكيف لا يطمئن على صحة ماورد فى كتب الحديث من أحاديث المعجزات وغيرها ثم يطمئن على صحة تفسير سورة من القرآن بهذه الصورة المأخوذة من تفسير الشيخ محمد عبده أحد أئمة المؤلف المدققين ؟ يقول معالى المؤلف ومن يؤيدونه مثل فضيلة الشيخ المراغى والشيخ رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » : لم يرد فى القرآن ذكر معجزة كونية لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنا أقول : ولو كان ورد فماذا ينجع فى المنكرين مالم يعوزهم تأويل كتأويلهم فى سورة الفيل ؟[2]

---

[١] كان الشيخ محمد عبده قد أغضبه دخول أقوام غير العرب فى الإسلام وفى حكومة الخليفة العباسى المعتصم فقال : استعجم الإسلام فى عهده مع أنه لا غرابة فى استعجام الإسلام كما لا غرابة فى استعرابه لكونه ديناً غير خاص بقوم دون قوم وإنما الغرابة كل الغرابة فى استعجام القرآن العربى بتفسير الشيخ لسورة الفيل بما لا تتحمله لغة القرآن .

[٢] وكان الذى ينبغى للدكتور هيكل كاتب « حياة محمد » أن يقول عن حادثة الطير الأبابيل عام الفيل الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلا من أن يحرف السورة النازلة فى القرآن بشأنها عن معناها اتباعاً للشيخ محمد عبده وإلغاء للخارقة التى نصت عليها السورة وكانت معجزة لنبينا =

وكل هـذه التأويلات البعيدة التى لا يقبلها العقل على أنهـا مفهومة من النص القرآنى ولا يعدها تفسيرا بل تغييرا فاحشا ، إنما ترتكب لإحساس الحاجة إلى تطبيق الإسلام على رغبات المستشرقين من الغربيين وإمالته نحو هواهم ، إن لم تمكن إمالتهم نحوه التى هى فعل الأبطال الذائدين عن كرامة الإسلام بما لا يعوزهم من الحجج ، فى حين أن الوقف الأول موقف العاجزين الذين لا يستنكفون عن إجراء التعديلات فى الإسلام المعروف عند أهله بل عند الأجانب عنه الناقدين له ، ويقصدون بتضحيتهم من دينهم هذه إرضاء أولئك الناقدين والتخلص من نقدهم كما يشهد بذلك قول مؤلف « حياة محمد » بعد إثارة الشبهة فى روايات المتقدمين والمتأخرين ممن كتبوا السيرة :

« حسبوا أن ذكر هذه المعجزات ينفع ولا يضر . ولو أنهم عاشوا إلى زماننا هذا ورأوا كيف اتخذ خصوم الإسلام ما ذكروه منها حجة على الإسلام وعلى أهله لالتزموا ما جاء فى القرآن . ولو أنهم عاشوا فى زماننا ورأوا كيف تزيغ هذه الروايات قلوبا وعقائد بدل أن تزيدها إيمانا وتثبيتا لـكفاهم ذكر ما فى كتاب الله من آيات بينات وحجج دامغة » .

وأنا أقول مضرة هذه الروايات عن المعجزات تتصور عند معالى المؤلف وغيره من المتتبعين لعقليات الغرب ومرضاتهم ، بكونها مخالفة لسنة الـكون ومقتضى العقل وقد أسند معاليه عدم إثبات المعجزات فى كتابه إلى هذين المانعين مع الموانع الأخرى.

= صلى الله عليه وسلم تقدمته وتسمى هذه المعجزة المتقدمة على بعث الأنبياء إرهاصا ... كان الذى ينبغى للدكتور هيكل باشا أن يقول كما قال الفاضل الهندى كاتب السيرة المارة الذكر :

« انمحى جيش أبرهة بالحجارة التى رمتها الطير الأبابيل عليه وكانت آية من كبريات الآيات يجب على المسلمين والمسيحيين أن يتنبهوا لـكونها لم تقع لإنقاذ مشركى مكة من شر أبرهة الذى كان مسيحيا والذى كان دينه أعلى من دين مشركى مكة ، وإنما كان وقوعها إيذاناً لظهوره صلى الله عليه وسلم صاحبا حقيقيا لـمكة وكان معجزة من معجزاته ، ولذا قال الله تعالى فى أول السورة مخاطباً له صلى الله عليه وسلم (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) الخ .

وواجب المسلم عندنا، واجبه المتعين تجاه هذه الحالة مجابهة هذه العقلية الباطلة بردها على أصحابها وإثبات أن المعجزات الكونية لا تخالف مقتضى العقل وإن خالفت سنة الكون وأن مخالفتها غير مستحيلة ممن سنها، إثباتا علميا كما فعلنا فى أول هذا الباب (الثالث) من الكتاب. فإن لم يقم بهذا الواجب بل تقهقر أمام الناقدين الغربيين بالتنازل عن المعجزات الكونية والتبرؤ باسم الإسلام من رواياتها فى كتب الحديث والسيرة، بل من جميع الروايات التى اعتمد عليها أصحاب تلك الكتب ورفعوها إلى النبى صلى الله عليه وسلم سواء كانت متعلقة بالمعجزات أو بغيرها ، بحجة أن فى الأحاديث المنسوبة إليه موضوعات اختلطت بصحاحها والتبس الأمر. فهذا الذى هو فرار من الواجب إلى ما هو أسهل وأرخص[1] وإلى ما وراء الأسهل والأرخص من الأخس والأرذل ، لا يكون فيه أدنى فائدة فى استمالة الناقدين أعداء الإسلام إلى الإسلام وفى التخفيف من غلواء تعصبهم عليه، لأنهم يعرفون كتب الحديث والسير وما فيها وما بذل فى تمحيص رواياتها من المساعى الجبارة. فلا يقبلون تبرؤ المتبرئين من المسلمين منها على أنه تبرؤ الإسلام نفسه بل يعدونه مصانعة وتـكلما وضعفا ناشئا من الضعف فى نفس الإسلام . وهل يظن أن علماء الغرب وعقلاءه يقبلون مثلا تفسير سورة الفيل بما فسر به المتبرئون على أنه تفسير صادق مطابق للسورة ؟

ومثل الناقدين الأجانب الناقدون من أبناء المسلمين الذين لا تعجبهم معجزات نبينا الكونية المنسوبة إليه فى كتب الحديث والسيرة ، لا يقنعهم التبرؤ منها وتكون مصانعتهم واسترضاؤهم بالتنازل عما فى كتب الحديث والسيرة من روايات المعجزات

---

[١] أسهل وأرخص من تمييز صحاح الروايات عن زيوفها ثم الدفاع عن صحاحها ، ولا يظن أن فيه صعوبتين صعوبة التمييز وصعوبة الدفاع عن الصحاح، لأن صعوبة التمييز أزالها النقاد من علماء الحديث فيما مضى . وإنما رأس البلية ظن الفارين من الواجب عدم إمكان الدفاع عن الروايات الصحيحة أيضاً .

أشد مساسا بكرامة الإسلام وأشأم ، وهل هم الرادون وياللأسف من أصحاب القلوب والعقائد الزائغة فى قول معالى المؤلف : « ولو أنهم عاشوا فى زماننا هذا ورأوا كيف تزيغ هذه الروايات قلوبا وعقائد ، بدل أن تزيدها إيمانا وتثبيتا » ؟ وعلى أعناقكم أيها المتبرئون المتنازلون الفارون عن واجب الكفاح أمام أعداء الإسلام ، وزرُ تلك القلوب والعقائد الزائغة ، لا على أعناق مؤلفى السير وجامعى الأحاديث مثل البخارى ومسلم ومالك وأحمد وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وغيرهم رحمهم الله ورضى عنهم.

أليس سبب هذه الإزاغة ظنهم بالمعجزات الكونية أنها لا تتفق مع العلم ؟ فإذن لو نحيتم تلك المعجزات عن الإسلام وفاديتم الأمر بالتبرؤ من كتب الحديث وكتب السير ـ على الرغم من كون معنى هذا التبرؤ، التضحية بثانى الركنين الرئيسيين من أركان الإسلام وهما الكتاب والسنة ـ واكتفيتم بالكتاب أعنى القرآن ، فهل تظنون أنكم أنقذتم القلوب الزائغة وأنقذتم القرآن ؟ فماذا تفعلون بالمعجزات الكونية التى يعترف بها القرآن ولو بالإضافة إلى أنبياء الله السابقين[١] ويعتبرها آيات بينات وبراهين من ربهم ، رغم الشيخ صاحب المنار الذى زاغ قلمه مع القلوب الزائغة فاعتبر المعجزات الكونية شبهة وقال : « لأنها موجودة فى زماننا ككل زمان مضى وأن المفتونين بها الخرافيون » والذى استظهر بقوله مؤلف « حياة محمد » ؟ بل كيف تجردون القرآن عن المعجزة الكونية المضافة إلى نبينا ونبيكم مع سائر الأنبياء، ألا وهى على الأقل الوحى والنبوّة وإنزال الملك والكتاب، وكل ذلك يخالف سنة الكون ويأباه العلم الحديث المبنى على التجربة الحسية الحاضرة علم الزائغى القلوب ؟ فهل تتبرأون إذن من القرآن أيضاً، وتضحون كما ضحيتم بالأحاديث؟ بل إن هذا المدعو علماً لا يعترف

[١] أم تطمعون فى إقناع أصحاب القلوب وهم متعلمون ، بأن الآيات الواردة عنها فى القرآن ، بل وآيات البعث بعد الموت أيضاً التى تملأ القرآن والتى لا يقبلها العلم المذكور أيضاً ، آيات متشابهات غير مفهومة المعنى ولا مطلوبة الفهم كما هو رأى الاستاذ فريد وجدى ؟

بوجود الله الذى أرسل الرسل وأيدهم بالمعجزات ، وهو أى عدم اعترافه به أصل زيغ الزائغين وأساسه . فهل تتبرأون من الله أيضاً ، وتكونون علماء ذلك العلم الكاملين بدل أن تكونوا أنصاف العلماء ؟؟

فعلى القائمين بواجب الحيلولة دون زيغ القلوب المستعدة له أن يتشجعوا، فيصارحوا ذوى القلوب المذكورة بالحقيقة، إن كان القائمون أنفسهم أدركوها حق الإدراك ، ولا يداوروهم ، وتلك الحقيقة أن يقال لكل من زاغ قلبه بسبب المعجزات أو الخوارق المنسوبة إلى أى نبي من أنبياء الله بناء على أنها تخالف العلم : كن عاقلا قبل أن تكون عالما . وقولى هذا يضاهى ماقال « مونته نيه » : « إن الرأس الجيد الإنشاء أولى من الرأس الجيد الملء » فقد يكون العلم مشوبا بالجهل يشوبه علماؤه المتعدون به حدوده . وعند ذلك يفترق العقل عن العلم ويكون قوله الفصل. والمعجزات لاينكرها العقل كما بيناه فى أوائل هذا الباب ، فليس بصحيح مايقال إنها تخالف مقتضى العقل وإنما هو قول الذين التبس عليهم العقل الحر والعلم المقيد بسنة الكون، فظنوا الكل سواء . ويجدر بنا أن نورد هنا ماقلناه فى الفصل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب (الجزء الثانى ص ٢٧٥) ردا على المنكرين لوجود الله بناء على أن العلم لايعترف بوجوده وكان عنوان ذلك الفصل «موقف العلم من الله» وهذا العلم الذى لايعترف بوجود الله يريدون به العلم الطبيعى ، ومن دأب الغرب المادى والشرق المقلد أنهما يذكران العلم مطلقا ويريدان ذلك العلم ، كأنه لاعلم غيره . وهذا ماقلنا فى الفصل المذكور :

« القائلون بوجود الله لايقولون به على أنه موجود طبيعى بل يقولون به على أنه موجود ضرورى يضطرنا الدليل العقلى المنطقى إلى الحكم بوجوده واستحالة عدم وجوده . فهو موجود بوجود فوق وجود الوجود الطبيعى الذى لاضرورة فى وجوده وكان من الممكن أن لا يكون موجودا ، ولهذا تحتاج عند القول بوجود الوجود الطبيعى إلى التجربة الحسية فتراه بعينك أو تلمسه بيدك أو تحسه بحاسة أخرى ثم تستيقن

وجوده، ولا يضطرك عقلك قبل التجربة إلى الاعتراف بوجوده . ولا كذلك الموجود الضرورى الوجود . فمن الطبيعى أن لا يعلمه العلم الطبيعى الذى يختص علمه بالطبيعيات الممكنة الوجود والعدم . ونحن القائلين بوجود الله لا حاجة لنا بأن يعلمه العلم الطبيعى ولا أن نعلمه بواسطة ذاك العلم . فلو أن العلم الطبيعى أثبت وجود الله كوجود واحد من الطبيعيات لما أقنعنا ذلك، لعدم لزوم كون ما أثبت وجوده، واجب الوجود بل من الطبيعيات التى هى موجودة بالوجود الواقعى فقط لا بالوجود الواجبى الضرورى الذى هو الوجود بوصف مضاعف والذى هو وجود الله .

« فمن الطبيعى إذن أن يجهل العلم الطبيعى بالله ولا يجده فى الطبيعة . ولكن ليس بطبيعى أن يجهل علماء الطبيعة وهواتها أن العلم الطبيعى إذا لم يجد الله فى الطبيعة لعدم كونه من الطبيعيات وعدم تعلق العلم الطبيعى بما وراء الطبيعة ، لا يلزم منه عدم وجود الله مطلقا، فيكون واجبا عليهم أن يعلموا وجوده بواسطة غير العلم الطبيعى . فإن جهلوا به بناء على أن علم الطبيعة المبنى على التجربة الحسية لا يعلمه لم يكونوا معذورين لأن الإنسان لا يعيش بنوع واحد من العلم ولا يكون به إنسانا .

« ومن الطبيعى أيضا بناء مسائل العلم الطبيعى على التجارب الحسية وعدم التعويل على مالم يثبت بها من تلك المسائل ، ولكن من الجهل أن تُجعل التجربة التى هى القياس الأسلم والقسطاس الأقوم فى الطبيعيات لكونها أى التجربة الحسية نفسها من الأفعال الطبيعية ، مقياسا فيما وراء الطبيعة أيضا فيُحكم بناء على عدم دلالة التجارب الحسية على وجود الله ، بعدم وجوده .

« فعلى هـذا التفصيل يمكن أن يكون لقولهم : إن العلم لا يدلنا على وجود الله وجه معقول ، وذلك بحمل مرادهم من العلم على العلم الطبيعى . ولا وجه أصلا لقول « كانت » إن العقل النظري لا يدلنا على وجود الله ، لأن نطاق العقل النظرى لا يقاس ولا يحد بنطاق العلم الطبيعى ، فهو إنما يعرف الوجود المادى أى يعرف الوجود ولا

يعرف وجوب الوجود الذى يمتاز به الله ويمتاز بمعرفته العقل النظرى . ولا وجه أيضا لأن يطلق العلم فى القول الأول ويراد به العلم الطبيعى، كأن غيره من العلوم ليس بعلم أو ليس بعلم مثبت أو أن إثباته دون إثبات العلم الطبيعى؛ بل عرفت مما نبهناك عليه فى كثير من مباحث هذا الكتاب أن اليقين العقلى فوق اليقين الحسى . فليس لاحتكار اسم العلم على العلم الطبيعى ، كما هو دأب الغربى الحاضر ومقلده الشرقى ، وجه معقول. اللهم إلا أن يقال : إن أنفع علم فى الحياة الدنيوية يُستخدم فى حوائج البشر هو ذلك العلم الكثير الإنتاج الذى حصل به الرقى الأخير الصناعى فى الغرب . واستعمال مطلق العلم فى العلم الطبيعى من المحدثات الأخيرة أيضاً . وبقدر مايصح هذا التوجيه يظهر سر قوله تعالى : يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . » انتهى ماقلناه فيما سبق وأردنا إعادته هنا .

كما قلنا هنالك فى مسألة وجود الله نقول هنا فى مسألة المعجزات : إن الحكم فيها بالإمكان والاستحالة لا يدخل فى اختصاص العلم الطبيعى . نعم من اختصاصه الحكم بأن المعجزات تخالف سنة الكون بشرط أن لا يجاوز حكمه هذا إلى الحكم باستحالة المخالف لسنة الكون ، لأن هذا العلم لايعرف المحال ولا الممكن ولا الواجب بميزانه الذى هو التجربة الحسية وإنما يعرف الواقع وغير الواقع فى زمن التجربة ، وقد فصلنا ذلك فيما سبق غير مرة . أما مخالفة المعجزات لسنة الكون فنحن نعترف بها ولا ندعى أن المعجزات من الأفعال الطبيعية وأنها تنطبق مع سنة الكون التى هى سنة الله العمومية ، وإنما هى منطبقة على سنة الله الاستثنائية . ونحن لانقبل كون مخالفة المعجزات لسنة الكون مانعة عن وقوعها ، بل إن هذه المخالفة لازمة مطلوبة لتكون المعجزة معجزة ، ولا نقبل أن سنة الله بمعنى سنته فى الكون الطبيعى لن تجد لها تحويلا ولو كان المحول هو الله نفسه واضع تلك السنة .

ثم ليعلم الذين يتنازلون عن معجزات نبينا الكونية ويقصرون معجزته على القرآن

إرضاء لمنكرى المعجزات والخوارق من المستشرقين وتفضيلا لموافقتهم فى عقلية الإنكار على تجشم معارضتهم : أن القرآن مهما حُبب إليهم وأُعجبوا به ، فلا يبلغ تقديرهم وإعجابهم مبلغ اعتباره معجزة تثبت بها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد يُطمع منهم أن يعدوه أفضل كتاب فى الدنيا وضعه البشر . أما أنه كلام الله أنزل على خاتم أنبيائه ليكون له معجزة النبوة فأمر خارق لسنة الكون لن يقبله منكروا المعجزات والخوارق . وما دام أناس من المسلمين وفيهم معالى مؤلف « حياة محمد » ينكرون معجزاته الكونية لا لعدم استنادها إلى الروايات الصحيحة بل لكونها أيضا مخالفة لسنة الكون ، مخالفة للعلم ، مخالفة لمقتضى العقل ؛ فكيف يُنتظر من المستشرقين الذين لا يدينون بالإسلام أن يقبلوا القرآن على أنه من المعجزات الخارقة أعنى أنه كلام الله لا كلام سيدنا محمد؟ فالواجب إذن أن يداوى أساس الداء وتقاوم حملات المنكرين من جباهها . وما أجدر معالى المؤلف الذى لجأ إلى عصيان العلم فى مسألة الوحى والنبوة واعترض على سلطته [1] ما أجدره بأن يعصيه فى مسألة المعجزات أيضا التى لا تنفك عن النبوة ولا يعترفَ بسلطته فيما وراء الطبيعة مطلقا . لكنه ضحى هناك بالعلم وهنا ضحى بالمعجزات وكتب الحديث وشىء كثير معها من الإسلام، فى سبيل مماشاة العلم فلم ينتظم له المسلك .

أما المستشرقون الذين انتهج مؤلف كتاب « حياة محمد » هذه الطريقة الملتوية لقطع ألسنتهم المتطاولة ضد الإسلام من جراء روايات المعجزات الكونية ـ وما هو بقاطع كما عرفت ـ فإما ملاحدة ماديون أو نصارى متعصبون لدينهم . فإن كانوا ملاحدة فلا يرضيهم التنازل عن معجزات نبينا غير القرآن بحجة أنها معجزات كونية ولم يرد ذكرها فى القرآن ، رجاء أن يعترفوا بمعجزة القرآن . وإن كانوا

[١] يظهر ذلك بمراجعة الطبعة الثانية لكتابه ص ٤١ـ٤٢ وهذا دليل على أن العلم لايقبل الوحى والنبوة أيضاً وأنهما مما يخالف سنة الكون كالمعجزات .

نصارى فكيف يعترضون على معجزات محمد صلى الله عليه وسلم الكونية ويعدون الأحاديث المروية عنها عاراً على الإسلام لأجل كونها مخالفة لسنة الكون ومقتضى العقل والعلم ، فى حين أن معجزات سيدنا المسيح كلها كونية مخالفة لسنة الكون . وكان القرآن أفضل معجزة وأوفقها لأن يكون معجزة مؤيدة لنبوة خاتم الأنبياء يخاطب العقول الناضجة بإرشادات من سبقوه صلوات الله عليهم كلهم وكان بهذا المعنى حجة عقلية ، لابمعنى أنه ليس بمعجزة كونية خارقة لسنة الكون لأنه معجزة عقلية وكونية معا ، وكان خصيصا أحرى بأن يؤمن به الغرب الراقى الناضج العقل ، قبل الشرق ولكن أين ذلك من الغرب الذى يعمه فى طغيانه ويريد أن يخرج الشرق المسلم من دينه ويعاديه لدينه وقرآنه . وهذا فى حين أن المسلم الغافل يتنازل عن شطر دينه ومعجزات نبيه تزلفا إليه ، وهيهات لايرضيه إلا التنازل عن الشطر الباقى أيضا ، وهيهات من أصحاب القلوب الزائغة من الشرقيين أن يرجعوا بهذا القدر من التنازل إلى رشدهم مادام الغرب الذى هم مقلدوه لايعده كافيا ويستمر فى مناوأة الإسلام ومكافحته .

مَضى بهامامَضى من عقْلِ شاربها وفى الزُّجاجَةِ باقٍ يطلُبُ الباقى

فبالنظر إلى أن معجزة القرآن العقلية ما أثرت فى قلوب الغربيين المعدودين أعقل الأمم ، وإلى أن مرض الإنكار والاستبعاد للمعجزات الكونية قد أعدى الشرق من الغربيين ، ومع ذلك نراهم أى الغربيين لايزالون مرتبطين بالأنبياء الذين لهم معجزات كونية ، فالسعى فى تجريد نبينا عن المعجزات الكونية لاستمالة الغربيين ليس إلا غفلة ظاهرة وسذاجة باهرة .

وقد كتب معالى المؤلف فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه نوعين ممن انتقدوه : فكاتب مصرى مسلم بعث بمقالة إلى مجلة المستشرقين الألمانية نقداً لكتاب « حياة محمد» وبعث ترجمة عربية لمقالته إلى المؤلف يؤاخذه فيها على اعتماده على المصادر العربية

واعتباره القرآن وثيقة تاريخية لامحل لريبة فيها مع أن مباحث المستشرقين من أمثال « فيلد » و « جولد زهر » و « نولدكى » وغيرهم تدل على أنه حُرِّف وبدل بعد وفاة النبي والصدر الأول للاسلام ، واسم النبي بعض ما بدل فيه فقد كان اسمه « قثم » أو « قثامة » ثم بدل وصار « محمد » ليتسنى وضع الآية « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد» وأضاف الكاتب إلى أقواله هذه أن بحوث المستشرقين دلت كذلك على أن النبي كان يصاب بالصرع وأن ما كان يسميه الوحى إنما كان أثراً لنوبات الصرع التى تعتريه .

ومعاليه شكر الله سعيه رد على فرية تحريف القرآن فى صدر الإسلام بشواهد مفحمة من كلمات المستشرقين وعلى فرية الصرع بأدلة علمية حاسمة [٢] .

والنوع الثانى من نقاد كتاب « حياة محمد » سماهم مؤلفه ببعض المشتغلين بالعلوم الدينية الإسلامية الذين آخذوه بأنه يرجع إلى أقوال المستشرقين ولا يأخذ بكل ما سجلته كتب السيرة وما روته كتب الحديث متصلا بسيرة النبى العربى .

وربما يتوهم هنا متوهم فيلتمس عذرا للمؤلف فيما سلك فى كتابه من التوسط بين عقلية ذلك الكاتب المصرى المسلم الذى هو أبعد بكثير عن الإسلام من المستشرقين، وبين عقليات ذلك البعض من المشتغلين بالعلوم الدينية الإسلامية كما قال المؤلف نفسه:

« بينا يؤاخذنا غلاة المصدقين لما أسرف فيه المستشرقون بأنا نعتمد على المصادر العربية ونستند إلى ماورد فيها ، إذا بعض المشتغلين بالعلوم الدينية الإسلامية يؤاخذوننا بأننا نرجع إلى أقوال المستشرقين ولا نأخذ بكل ما سجلته كتب السيرة وما روته كتب الحديث متصلا بسيرة النبى العربى وأننا لا ننهج نهج تلك الكتب » .

---

[١] وكاتب المقالة أشنع مثال لمبلغ كتاب يعدون من المسلمين وهم كفار بدينهم وكتابهم ، فى تقليد الغربيين فى معاداة الإسلام العمياء .

لكن تحقيق الحقائق ووضع النصاب لها الذى هو واجب المؤلف فى أى موضوع من موضوعات المؤلفين الثقات الأثبات، لم يكن تأليفا بين المتساومين المتباعدين واختيار وسط تتعادل نسبته إلى الطرفين . وليس بمستقيم ظهور المؤلف عند الشكاية من تشدد المشتغلين بالعلوم الدينية عليه فى مظهر من أوخذ لعدم أخذه بكل ما سجلته كتب السيرة وكل ما روته كتب الحديث متصلا بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلا علم لنا بنص ما كتبوا فى مؤاخذته على أثر الطبعة الأولى لكتابه ، لكنا نحن لم نؤاخذه لعدم أخذه بكل ما فى كتب السيرة والحديث متصلا بحياة نبينا ، بل لكونه عند الجواب على مؤاخذة الأولين فى مقدمة الطبعة الثانية ، رمى كلّ ما فى تلك الكتب بشبهة الكذب .

— ٦ —

السادس إذا كانت المعجزات خارقة لسنة الكون وكان خرق السنة جائزا لامانع منه بل لازما ضروريا للمعجزة لتكون معجزة ، فلماذا يشهد القرآن بأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ؟ فهذا السؤال يمكن أن يخالج بعض الأذهان بعد مطالعة ما كتبنا إلى هنا، كما خالج ذهن هيكل باشا قبل مطالعة ما كتبنا حيث قال ص ٥٥ من الطبعة الثانية لكتابه :

« ولو أن أمة مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين من غير حاجة إلى التصديق بمعجزة غير القرآن لكان الذين آمنوا من أبنائها أحد رجلين : رجل لم يتلجلج قلبه ولم يتعثر فؤاده بل هداه الله إلى الإيمان أول ما دعى إليه كما هدى أبا بكر فآمن وصدق من غير تردد . وآخر لم يلتمس إيمانَه فيما وراء سنة الكون من خوارق بل التمسه فى خلق الله هذا الكون الفسيح الأرجاء الذى يقصر تصورنا دون إدراك حدوده فى الزمان

والمكان وتجرى أموره مع ذلك على سنن لا تحويل لها ولا تبديل [١] فاهتدى من سنن الله في الكون إلى بارئه ومصوره . سواء عند هذين أ كانت الخوارق أم لم تكن [٢] بل هما لا يفكران في هذه الخوارق على أنها من آيات فضل الله . ومثل هذا الإيمان يراه الكثيرون من أئمة المسلمين مثلا أسمى في الإيمان . ويذهب بعضهم كذلك إلى أن الإيمان الصحيح يجب أن لا يكون مصدره خوفا من عقاب الله أو طمعا في ثوابه بل يجب أن يكون إيمانا خالصا بالله وفناء تاما فيه » .

أقول من الغفلة أو التغافل أن يُبحث عن إيمان كإيمان أبي بكر في المصريين الذين يساوموننا ويشترطون في إيمانهم بالله وبالقرآن أن لا يعترفوا بمعجزات تخرق سنة الكون [٣] كأن الله غير قادر على خرقها، أوكأنه لم يكن هو الذى سنها، وإنما هي طبيعة

---

[١] ماقاله من النظر في خلق الله هذا الكون الجارى على سنته إنما ينفع في إيمان الرجل بالله خالق الكون لا في إيمانه بهذا الدين أى الإسلام، وقد قلنا في أوائل هذا الكتاب: إن سنة الكون ونظامه العام دليل على وجود الله ، وخرق تلك السنة يكون دليلا على وجود أنبيائه ، والدين المتضمن للتكليف من الله إنمــا يكون مبدؤه الإيمان بالنبي لا الإيمان بالله فقط . فمعالى الباشا الذى أراد تحليل إيمان الرجل الثاني بدين الإسلام من غير حاجة منه إلى التصديق بشيء من الخوارق ، لم يوفق لذلك. فماذا سبب إيمان هذا الرجل بنبى الإسلام بعد إيمانه بالله؟ فإن قال سبب إيمانه به القرآن وفرضنا أنه يفهم إعجاز القرآن قلنا إن القرآن أيضاً من الخوارق فلو لم يكن خارقاً لسنة الكون لما كان معجزة ولم يعجز الناس عن الإتيان بمثله .

[٢] يكاد الباشا يقول : « وسواء كان النبي أو لم يكن » ولا يعتذر عنه بأنه لايقول ذلك لأنه إذا لم يكن النبي فمن يدعو الرجل الأول إلى الإيمان ؟ لأنا نقول في جوابه ومن أين يعلم أن الداعى نبي من أنبياء الله إذا لم تكن معه علامة لنبوته ورسالته من الله ؟ وهى المعجزة الخارقة . فالذين لا تعجبهم المعجزات يظنون أن أنصارها يلتزمون وجودها مع النبي من غير حاجة إليها لا من النبي ولا من الذين أرسل إليهم .

[٣] وقد قال معاليه عن أبي بكر في كتابه في مبحث الإسراء : « مالبث محمد حين حدثهم بأمر إسرائه أن ساور أتباعه والذين صدقوه أنفسهم بعض الريب فيما يقوله . وقال كثيرون والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة أيذهب محمد ذلك في ليلة واحدة ويرجع =

الـكون ، كما قال بذلك كاتب المقالة من باريس التى نالت الجائزة الأولى من لجنة المباراة الصحفية بالقاهرة والتى مر الـكلام عليها فى الجزء الأول تحت رقم ٦ وهم لا يزالون فى إيمانهم بالله وبالقرآن طبيعيين ، وكأن القرآن لا يعترف مثلهم بتلك المعجزات الخارقة الظاهرة ولو على أيدى الأنبياء السابقين ، وكأنها رغم شهادة القرآن بها ليست معجزات معقولة مقبولة عند أصحاب العقول الراجحة ، أو كأن الإيمان بالقرآن جملة مع عدم الاعتراف ببعض ما فيه ، يعتبر إيمانا ويكفى فى دين الإسلام ، وكأنى بمعاليه يفتى فى كل ذلك بالجواز وتدور فتاواه على محور سنة الـكون التى لا تحويل فيها ولا تبديل . أما قوله المتناقض مع فتاواه وهو « بل هما لا يفكران فى هذه الخوارق إلا على أنها من آيات فضل الله » فغاية ما يفهم منه أن معاليه متردد فى هذه المسائل لم يستقر رأيه على شىء كما يقال عن المفتى المتردد فى الفتوى : « إنه يقدم رجلا ويؤخر اخرى » ومع هذا الاضطراب فى الرأى فهو أميل إلى نفى الخوارق منه إلى إثباتها تمسكا بسنة الـكون المؤيَّدة بالعلم وبصراحة القرآن القائلة : « فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » . لأنه إذا كانت هذه الصراحة القرآنية مانعة من الخوارق لزم أن تقع أنباء القرآن عن معجزات الأنبياء السابقين مثل إبراهيم وموسى وعيسى وصالح وسليمان وغيرهم صلوات الله عليهم ، تحت شبهة الـكذب والوضع كالأنباء المروية فى كتب السيرة والحديث عن معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم على رأى معاليه ، أو تكونَ الآيات الواردة فى القرآن الناطقة بأنباء معجزات الأنبياء آيات متشابهات غير مفهومة

= إلى مكة وارتد كثير ممن أسلم وذهب من أخذتهم الريبة فى الأمر إلى أبى بكر وحدثوه حديث محمد فقال أبو بكر إنكم تكذبون عليه قالوا بلى هاهو ذاك فى المسجد يحدث الناس قال أبو بكر لئن كان قد قاله لقد صدق إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

فهل أبو بكر الذى شبه به معاليه أحد رجلين مستغنيين فى إيمانهما عن الخوارق المخالفة لسنة الـكون لما سمع حديث الإسراء آمن به ؟ أم لم يؤمن وقال لا حاجة لى فى إيمانى إلى هـذه الخارقة المخالفة لسنة الـكون ؟

كما قال الأستاذ فريد وجدى بك وإن كان القرآن ينادى بقوله « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولـكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

معالى مؤلف « حياة محمد » لم يكن مبتكرا فى الاستدلال بقول الله تعالى « فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » على نفى المعجزات الكونية وإثبات مذهب الطبيعيين ، بل اكتشفه قبله من اكتشفه من المستشرقين ومن علماء الدين بعصر الذين ديدنهم تهيئة الأدلة المتمشية مع أهواء المتعلمين العصريين . لـكن المراد من الآية ليس كما يظنون ، وإنما هى مبينة لسنة الله فى أمم بعث فيهم أنبياء وأيدهم بالمعجزات فعصوهم وكذبوهم . وسنة الله إنزال العذاب عليهم كما قال تعالى « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين » وهذا المعنى فى الآية التى تمسك بها هيكل باشا ومن تقدمه، يدل عليه ما قبل الآية فى سورة الملائكة :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا استكباراً فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلاسنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

وما قبلها فى سورة الأحزاب : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

وما قبلها فى سورة الفتح : « ولو قاتلـكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون

ولياً ولا نصيرا سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

وفى سورة الإسراء : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لايلبثون خلافك إلاقليلا سنة من قدأرسلنا قبلك من رسلنا ولاتجد لسنتنا تحويلا ».

وكيف يمكن أن يكون معنى الآيات كما ظنوه فيكذّب به القرآن ما نص هو نفسه عليه من أنباء الأنبياء ومعجزاتهم الخارقة لسنة الكون ويكْذب فيما قاله فى آخر سورة يوسف « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى » .

أما القول بوجوب أن لا يكون مصدر الإيمان الصحيح خوفا من عقاب الله أو طمعا فى ثوابه وكذا القول بكون مرتبة هذا الإيمان دون مرتبة الإيمان الخالص ، فقد أراد بهمعالى الباشا أن يُدخل فى مبحث الإيمان بسبب المعجزات مسألةً عصرية أخرى، وهى انتقاد العقلية القديمة الإسلامية الداعية إلى مخافة الله ، وإن كانت لا تبدو المناسبة بين مسألة المعجزات الخارقة لسنة الكون وبين مسألة الإيمان بالله بدافع الخوف من عذاب الله أو الطمع فى ثوابه، بل وإن كان فى تطبيق هذين الدافعين على مسألة الإيمان بالله شئ من عدم الانطباق ، إذ الإيمان إنما ينبنى على عقيدة كون الشيء حقا، والعقيدة نفسها تقوم على أسباب حقيقية تختلف باختلاف متعلقها أو على تقليد محض، وليس بين أسباب كون الشئ حقا خوف المعتقد من الشيء الذى يعتقده ، فبناء على هذا لا يتصور أن يؤمن أحد بالله خوفا من عذابه وإنما يتصور الخوف من عذاب الله بعد الإيمان بالله، فلم يكن المؤلف محسنا فى وضع المسألة التى أراد انتقادها ، وإنما يعقل أن تكون الطاعة لله خوفا من عذابه أو طمعا فى ثوابه موضع البحث لا الإيمانُ به .

وعلى كل حال فإن انتقاد الإيمان بالله أو الطاعة له خوفا من عذابه وانتقاصَ هذا الإيمان أو الطاعة ينافى مسلك القرآن فى مدح الخائفين من الله ، مسلكه البارز فى آيات كثيرة لا تحصى لكثرتها كقوله « ولمن خاف مقام ربه جنتان » وقوله « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون» وقوله «إنما المؤمنون الذين إذا

ذكر الله وجلت قلوبهم » وما حث الله عبده المؤمن فى كتابه على شىء لحثه على تقوى من الله وما أكثر من الأمر بشىء إكثاره فى الأمر بالتقوى التى هى مخافته كقوله « واتقوا الله لعلكم تفلحون » وقوله «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب»[١] كما أنه لم يكرم مرتبة عنده لعباده تكريمه لرتبة التقى فقال : « إن إكرمكم عند الله أتقاكم » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « أنا أخشاكم لله وأتقاكم له » وماذا قد يكون الإيمان الخالص عند غير المعترفين بالكمال للإيمان الصادر من القلب التقى المشحون بمخافة الله ؟ فهل هو إيمان عبده به من غير مخافته ؟ ولا يعقل إيمان مجرد من كل دافع ، حتى أنهم إن قالوا نؤمن حبا فهو أيضا ليس بإيمان خالص مجرد من كل دافع . على أن التعليل لا ينتهى فى الحب لأنه أيضا يحتاج إلى علة دافعة إليه . فإن كان أساس العلل عظمة الله فعلاقتها بالمهابة والمخافة والإجلال أولى وأقوم من علاقتها بالمحبة ، ولأن المخافة والإجلال أحرى بموقف العبد .

فقدوجدنا المصدر الحقيقى للإيمان بالله وهو إدراك عظمته واستحقاقه للمعبودية . وأول ما يحصل بتأثير هذا الإدراك فى نفس الإنسان هو تصاغره بين يدى ذلك المعظم وتذلله [٢] وتخشعه له ومخافته منه تصاغرا وتذللا وتخشعا يوشك معها أن يرى محبته فوق حدالعبد وأدبه مع مولاه . وفى « أساس البلاغة » للعلامة الزمخشري « الإيمان

---

[١] انظر كيف يخص الله تعالى أولى الألباب بالدعوة إلى مخافته فى حين أن العصريين الذين يعتبرون أنفسهم عقلاء من الطراز الأول يعدونها منقصة .

[٢] لو كان الأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة « الجامعة » الذى ناظر الشيخ محمد عبده وانتقد على القرآن تعبيره عن بنى آدم بعباد الله كما سبق ذكره فى مقدمة الباب الأول (الجزء الثانى رقم٥٢) حيا واطلع على كلمتى هذه لقال : « ماهذا التصاغر والتذلل المنافى لكرامة الإنسان ؟ » ولا يعرف لذة التذلل لله والشرف الذى فيه إلا الأحرار الحقيقيون الذين يأبون التذلل لملوك الدنيا والتصاغر بين أيديهم والذين يعرفون الله كما قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

هيوب » [1] وليس بلازم أن تكون مخافته من عذابه كما صوروا المسألة قصداً لانتقاد مخافة الله وانتقاص أهميتها بل المخافة من الله نفسه كما قال عز من قائل « ويحذركم الله نفسه » وهى تنطوى على المخافة من عذابه أيضا كما تنطوى هذه المخافة الناشئة من إدراك عظمته، على محبته ، إلا أن المحبة لله العظيم لا بد أن تثمرها الرهبة والمهابة ، ومن هذا قال سبحانه وتعالى « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا » .

فمقتضى العقل أن تُهاب القوة التى تسيطر على جميع القوى ثم تُحَبّ لكونها فوق الجميع . ومن هذا لا يتصور الظلم من الله فيكون كل ما يفعله حقا وعدلا وحكمة . والقوة تزداد اقترابا من الحق كلما ازدادت كبرا واتساعَ نطاق، فتعتبر الغلبة بين الدولتين المتحاربتين استحقاقا للجانب الغالب على المغلوب ، ولا توجد محكمة تفصل بين الظالم والمظلوم فى مثل هذه المسائل، بل يُعترف بالحق للغالب بمجرد غلبته، فتعتبر قوة السيف حقا مسلما به ، وتكون معاهدات الصلح بعد الحرب وثائق حقوق للقاتل على المقتول، على عكس ما إذا كانت حادثة القتال بين الأفراد . لكن هذا الحق المبنى على الغلبة فى الحرب بين الدولتين اعتبارى وقتى لا حقيقى ودائمى ، لاحتمال أن تنهض الدولة المغلوبة فى المستقبل فتتغلب على الغالب الأول فينتقل الاستحقاق إلى جانبها فى استرداد ما أُخذ منها والاستيلاء على مازاد عليه ، أو لاحتمال أن تقوم قوة ثالثة فتقهر الجانبين وينتقل حق الاستيلاء إليها ، وهكذا يدور هذا الحق الاعتبارى الوقتى مع الأقوى الوقتى فالأقوى من الأقوى حتى إذا انتهت إلى قوة لاقوة فوقها وهى قوة الله أصبحت القوة عند ذلك عين الحق .

ففى الإمكان أن لا يحب الصغير المقهور الكبير القاهر ، وليس فى الإمكان أن لا يخافه حتى إنه لا يكون فى الإمكان أن لا يحبه أيضا إذا كانت محبته مبنية على مخافته

---

[١] ثم وجدت هذا القول فى « الفائق » للزمخشرى أيضاً ، منسوبا إلى ابن عباس رضى الله عنهما .

التي لا تفارقه . ولا تحسبوا أن هذه المحبة لا تكون صميمية لأن المقهور من جميع الوجوه لا يسعه إلا أن يحب قاهره ولا يسعه إلا أن يكون صميميا فى محبته وإلا يلزم أن لا يكون القهر تاما وهو خلاف المفروض . فكل أحد وكل شئ إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى لأنك إذا خفته هربت إليه فالخائف من ربه هارب إلى ربه . وإليه يشير قوله تعالى « ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » وقوله صلى الله عليه وسلم (لا ملجأ ولا منجا إلا إليك) .

وقد أطلت هذه المسألة التى دخلت فيها عرضا وتبعا لدخول مؤلف كتاب « حياة محمد »، ومع هذا فهى كانت حَرية بالتدقيق لأهميتها ، ولِما كنت أدرى من زمان أنها من مزالق العقليات الجديدة المتصوِّرة فى مخافة الله منقصة، وفى محبته غنى عنها ورجحانا عليها أو المتصورة تنافيا بينهما . وكنت كتبت هذه المسألة فى كتاب ألفته باللغة التركية لمّا كنت فى بلادى قبل ثلاثين سنة وأوردت فيه قول الشاعر :

وأبكى لنفسى رحمة من عِتابها ... ويبكى من الهجران بعضى على بعضى
وانى لأخشاها مُسيئا ومحسنا ... وأقضى على نفسى لها بالتى تقضى

وإذا كان هذا شعور إنسان رقيق الحس ومهذبه نحو إنسان يحبه ويتفانى فى حبه فكيف ينبغى أن يكون شعوره نحو ربه العظيم . ولعل الفكرة الغربية المتجهة إلى عدم التقدير لمرتبة مخافة الله السامية فى الإسلام وفى نفس الأمر قدرها ، تسربت فى عقول بعض المسلمين تقليداً للمسيحيين بواسطة تقليد الغرب المسيحى وتقليداً لمتصلفة الصوفية . ومن المعلوم أن إله المسيحيين رحيم فقط وليس بعزيز ذى انتقام ، حتى انه افتدى بنفسه عندهم فى العفو عن ذنب البشر وكان الذنب عظيما جدا فناسب أن يضحى المجنى عليه بنفسه ليعفو عن الجانى صاحب الذنب . ولا يمكن أن تكون فكرة فى الدنيا معكوسة إلى هذا الحد ، فالله يرحم البشر ويعفو عنهم ولا يرحمه البشر ويعفون عنه وكيف يعفون عنه ولا ذنب له وإنما الذنب ذنبهم والمذنب يعفى عنه ولا يعفى عن

الذى لا ذنب له وإنما أذنب عليه ، فيجعلونه فداء يفتديهم ويجزى نفسه بذنوبهم جزاء دونه جزاء سنمار « إن الإنسان لظلوم كفار » .

هذا تحليل مسألة الخوف من الله فكأن الذين لا يرونه متناسبا مع مقام الألوهية والعبودية من النصارى يرون خوف الله من الإنسان أنسب من عكسه . والمتصوفة الوجودية لا يفرقون بين الله وما سواه فلا محل للخوف !! .

وجوابى للذين لا يعجبهم إيمان المؤمن ـ أو بالأصح طاعة المؤمن ـ طمعا فى ثواب الله : أن الاعتراض على من أطاع الله طمعا فى ثوابه يتضمن الاعتراض على قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » وقوله مشيرا إلى نعيم الجنان المشاد بذكره فى الآيات المتقدمة : « لمثل هذا فليعمل العاملون » وقوله « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » وقوله فى وصف المؤمنين « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » وقوله : « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين » فالله تعالى فى الآية الأخيرة يأمر بدعائه خوفا وطمعا ويسمِّى الداعين له خوفا وطمعا محسنين والذين أناقشهم لا يعجبهم الخوف ولا الطمع فينهون الناس عنهما فأى القوانين أحق أن يتبع ؟ .

— ٧ —

السابع أصحيح أن فى القرآن ما يمنع وجود المعجزات لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كما ادعاه مؤلف كتاب « حياة محمد » واتخذ منه مقياسا يرفض به كل ما فى كتب الحديث والسيرة من أنباء معجزاته الكونية ؟ .

هذه الدعوى يبنيها منكرو المعجزات الكونية لنبينا على نوعين من آيات القرآن، فأولا يبنونها على ما يتكرر ذكره فى سور مختلفة من أنه لا تبديل لسنة الله ولا تحويل ، فيحملون سنة الله هذه على سنته فى الكون التى يسمونها القوانين الطبيعية

المستنبطة من نظام العالم ، ويقولون أو بالأصح بريدون أن يقولوا : « كما أن المعجزات الـكونية لا يقبلها العلم لـكونها مخالفة لسنن الـكون أى القوانين الطبيعية ، لا يقبلها كتاب الله أيضا فيصرح فى آيات عدة أن لا تبديل لسنة الله ، وقد سبق الجواب عنه، وأنه إن كانت تلك الآيات مانعة عن المعجزات الـكونية فلا يخص منعها بمعجزات نبينا بل يعم معجزات الأنبياء كلهم المقصوص أنباؤها مفصلة فى القرآن .

وثانيا يبنون دعوى كون القرآن يمنع وجود معجزات كونية لنبينا على ما يحكى فى آيات كثيرة من أن المشركين كانوا يقترحون على النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل الله عليه آية أى معجزة ليؤمنوا بنبوته فيكون الجواب أن الآيات عند الله وإنما النبى بشر مثلهم أرسل إليهم لينذرهم .

فرأى المستشرقون هذه الآيات [١] وانتهزوا من وجودها فى القرآن فرصة القول بأن محمدا لم تـكن له معجزة مثل معجزة موسى وعيسى ، ومرادهم من هذا القول أن محمدا لم يكن نبيا ، ورآها كثير من المتعلمين بعصر تعلما عصريا يدفعهم إلى التعويل على أقوال علماء الغرب المستشرقين أكثر منه على أقوال علماء الشرق أئمة الإسلام ، ورآهم ثم تابعهم من علماء الدين فى الأزمنة الأخيرة التى طرأ فيها الضعف على الإسلام وعلمائه ، من حدثتهم أنفسهم أن يكونوا أئمة كما كان السلف رضوان الله عليهم فابتدعوا إمامة يتبع فيها الإمامُ المأمومَ !!

رأى هؤلاء وهؤلاء النقص الذى رأى المستشرقون فى الإسلام ، نقص المعجزات ونقص التضاد بين الـكتاب والسنة فى مسألة المعجزات الـكونية نفيا وإثباتا ، لـكن الرائين المسلمين كلهم لم يفكروا فى أن السلف الصالح من رواة الأحاديث وجامعيها المتثبتين

---

[١] التى منها ما أورده مؤلف « حياة محمد » ونقلنا عنه سابقاً من قوله تعالى « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائـكة قبيلا أو يـكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » .

كالإمام البخارى ومسلم ومالك وأحمد وغيرهم ورواتهم من الثقات البالغ عددهم عشرات الألوف ، كانوا أكثر قراءة للقرآن واطلاعا على آياته من مستشرقى الغرب ومن أنفسهم أتباع أولئك الغربيين فى الشرق من الكتاب والعلماء ، فكيف فاتهم كلهم رؤية هذا التضاد بين القرآن وأحاديث المعجزات التى رووها وأثبتوها فى كتبهم .... كما لم يفكر راءو التضاد من المسلمين فى هذا ، لم يفهموا مغزى رؤية الرائين الأجانب فحاولوا أن ينتصروا لدينهم ويتداركوا نقص التضاد بين الكتاب والسنة فى أمر المعجزات بالطعن فى صحة نسبة السنة ، ونقصَ المعجزات الكونية فى نبىّ الإسلام ، بالطعن فى تلك المعجزات نفسها وإسقاطِ أهميتها فى تأييد النبوة على الرغم من ظهورها على أيدى الأنبياء المتقدمين ، حتى قال الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » عند دفاعه عن معالى هيكل باشا وتصويبه فيما فعله فى كتابه من إخلاء حياة نبينا عن المعجزات الكونية : « إن الخوارق الكونية شبهة عند علماء العصر لا حجة لأنها موجودة فى زماننا ككل زمان مضى وإن المفتونين بها هم الخرافيون » .

القول بأن المعجزات الكونية شبهة لا حجة الذى عزاه الشيخ رشيد إلى علماء العصر الغربيين هو مذهب الشيخ نفسه أيضا لأنه اعتمد فى دفاعه عن كتاب هيكل باشا عليهم واعتبر قولهم حجة حين لا يَعتبر معجزات الأنبياء الكونية حجة ولا تعبيرَ القرآن عن تلك المعجزات تارة بالحق وتارة بالبينات وتارة بالآية الكبرى وتارة بالسلطان وتارة بالبرهان وتارة بالفرقان ، حجةً فى أنها حجة : قال تعالى : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا » وقال : « ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات » وقال : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » وقال : « وآتينا عيسى بن مريم البينات » وقال : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » وقال : « وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف إنك من

الآمنين اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملأه » وقال : «فأراه الآية الكبرى » وقال : « وفى موسى إذا أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين » .

وقال هذا الشيخ فى كتابه « الوحى المحمدى » ص ٤٦ « وأما تلك العجائب الكونية فهى مثار شبهات وتأويلات كثيرة فى روايتها وفى صحتها وفى دلالتها [١] وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرة فى كل زمان ، والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهد العتيق والجديد[٢] .

فكان الشيخ وقد ذكر فى كتابه أمثلة مما يأتى به الصوفية الهندوس وفيها إحياء الموتى ، يسعى فى مقابل مايدعيه المستشرقون أعداء الإسلام من أن محمداً لم يأت بمعجزة كما أتى موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ، يسعى لأن يدعى فى مقابل ذلك أن معجزات أولئك الأنبياء لم تكن بمعجزات . ويقرب منه ماقاله هيكل باشا : « إن القرآن ذكر المعجزات التى جرت بإذن الله على أيدى من سبق محمدا من الرسل كما

---

[١] يظهر من هذا أن كل ما ادعى هيكل باشا فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه متجرئا على كتب الحديث والسيرة فإمامه فيه الشيخ رشيد . ومن غريب المصادفة أنه ورد إلى فى أثناء كتابة هذه السطور عدد مجلة (الفتح) الإسلامية ٦٥٥ فقرأت فيه مقالة للأستاذ الكبير صاحب المجلة يعد فيها كفريات غلام أحمد القاديانى وبينها قوله : « قد أعطانى الله اختياراً كاملا لأن أقبل الأحاديث الموافقة لإلهامى وأردها إذا خالفت آرائى » وقوله عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « ماصدر عنه معجزة واحدة فضلا عن معجزات » .

(٢) كما لايقدح فى الأحجار الكريمة والجواهر الفاخرة ولا ينقص من قيمتها الغالية ، وجود زيوف تشابهها وتلتبس مع أصولها الحقيقية فى أعين الغافلين وأنظارهم الحمق ، كذلك لايقدح فى آيات الله التى أظهرها على أيدى من اصطفاهم للرسالة إلى الناس ، وجود مشعوذين من أهل السحر والدجل. ولماذا لم يعتبر الشيخ من سحرة فرعون الذين لما رأوا عصا سيدنا موسى تلقف مايأفكون خروا سجدا وقالوا آمنا برب موسى وهارون حين لم يؤمن فرعون قائلا إنه لكبيركم الذى علمكم السحر؟ فكان ينبغى للشيخ أن يعتبر ويتعلم من سحرة فرعون تمييز المعجزة من الشعوذة بدل أن يتعلم من فرعون التسوية بينهما.

أنه جرى بالكثير مما أفاء الله على محمد وما وجه إليه الخطاب فيه. وما ورد فى الكتاب عن النبي العربي لايخالف سنة الكون فى شئ » فكأن ما ذكر القرآن من معجزات الأنبياء السابقين معيبة بمخالفة سنة الكون حين لايوجد هذا العيب فى معجزة نبينا التى هى القرآن، وعيب مايخالف سنة الكون عندهم أنه لا يكون ولا يقبل العلم أنه يكون . ولا يغرنك قول الباشا « إن القرآن ذكر المعجزات التى جرت بإذن الله على أيدى من سبق محمداً من الرسل » لأنه لو وقعت تلك المعجزات رغم مخالفتها لسنة الكون لم يذكر مخالفتها لها كعيب تنزهت عنه معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم ، بل لزم أن يكون وقوعها خارقة لسنة الكون مزية لها على المعجزة التى لا تخرق سنة الكون، لأن المعجزة التى تقع وتخرق بوقوعها سنة الكون لابد أن تكون أقوى من التى لاتخرق، فظهر أن مخالفة المعجزة لسنة الكون فضل لها لا عيب ونقص ، وإذا كان فى الخارقة من حيث أنها خارقة عيب فلا بد أن يكون عيبها فى عدم وقوعها . فلماذا إذن ذكرها القرآن وأكبرها ؟ .. وترى الباشا يقابل ما ذكره القرآن للأنبياء المتقدمين من الخوارق ، بما ذكره القرآن لمحمد صلى الله عليه وسلم من الانتصار فى الحروب . فماذا تفهمون من هذه المقابلة ؟ أليس الفرق فيما بينه وبينهم صلوات الله وسلامه عليهم كلهم أن القرآن نوه به بما يكون ونوه بهم بما لا يكون ؟ ..

عجيب هذا الجدال المحدث بين المستشرقين غير المسلمين والمستغربين المسلمين المبنى على تعصب كل من الطرفين لدينه على دين الطرف الآخر : فالمستشرقون يعيبون الإسلام بأن نبيه لم يأت بمعجزة وعجز عن الإتيان بها حين قيل عنه : « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » وهم لا يعدون القرآن معجزة وإن لم يقولوا عنه كما قال مشركو مكة المقترحون على النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية كما أرسل الأولون : « أضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر »؛ والمستغربون الغافلون يقابلون اعتداء المستشرقين، بالاعتداء قائلين : إن معجزات المرسلين الأولين لم تكن جديرة بأن تعد معجزات

للأنبياء لأنها موجودة فى زماننا كـكل زمان مضى وأن المفتونين بها الخرافيون والمنقول منها عن صوفية الهنوذ والمسلمين أكثر من المنقول عن العهد العتيق والجديد. وأنا أقول عنهم: « المستغربون » لـكونهم صدّقوا دعوى الغربيين أن لا معجزة لمحمد غير القرآن بشهادة القرآن نفسه وما ورد فى كتب الحديث والسيرة عن معجزاته مكذوب عليه ، وأقول عنهم : « الغافلون » لـكون اعتدائهم المقابل على المستشرقين يتضمن الاعتداء على القرآن أيضا .

وقال الشيخ رشيد أيضا : « إن آيات المرسلين لم يؤمن بها من شاهدها إلا المستعدون للإيمان بها وإن فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى وان أكثر بنى إسرائيل لم لم يعقلوها وقد اتخذوا العجل وعبدوها بعد رؤيتها ورؤية غيرها فى برية سينا . وقال اليهود فى المسيح لولا أنه رئيس الشياطين لما أخرج الشيطان من الإنسان وقالوا إن إبليس يفعل أكبر من فعله ، وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات إنما خضعت أعناقهم واستخذت أنفسهم لما لا يعقلون له سببا ، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك . ونقلوا عن المسيح أنه قال : (الحق أقول لـكم ليس كل نبي مقبولا فى وطنه)[1] وجعل يعنى المسيح القاعدة لمعرفة النبي الصادق تأثير هدايته فى الناس لا الآيات والعجائب فقال (من ثمارهم يعرفونهم) ومن استقرأ تواريخ الأمم علم أن أهل الملل الوثنية أكثر اعتمادا على العجائب من أهل الأديان السماوية ورأى الجميع ينقلون منها عن معتقديهم من

[١] الظاهر من هذه الجملة رفع الإيجاب الـكلى بمعنى أن بعض الأنبياء مقبول فى وطنه لا كلهم، مع أن الذين ينقلون هذا القول عن المسيح عليه السلام يريدون السلب الـكلى . فلو قال « ليس نبي مقبولا فى وطنه » بدون « كل » لـكان أوفق بالمعنى المقصود الذى هو عموم النفى مدلولا عليه بنـكرة فى سياق النفى . لـكن الشيخ أو من نقل عنه أتى بالـكل على ظن أنه أدل على العموم فأفسد المعنى وقلبه من عموم النفى إلى نفى العموم .

الأولياء والقديسين أكثر مما نقلوا عن الأنبياء والمرسلين وأن أكثر المصدقين من الخرافيين » .

وأنا أقول: في هذا البيان إيهام أن المعجزات الكونية أظهرها الله على أيدي رسله عبثا لأنها لن تنجح في تأييد رسالتهم ولم تكن خير وسائل إلى اقتناع الناس بصدقهم ولو بقدر اقتناعهم بصدق السحرة والمشعوذين والدجالين في دعاويهم، فكأن الله تعالى ما أصاب ـ والعياذ بالله ـ في اختيار المعجزات لأنبيائه إلا في معجزة القرآن التي تخاطب العقول والإفهام، مع أن قول الشيخ : « إن آيات المرسلين لم يؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للإيمان بها » يجرى في كل معجزة ولا تعزب عنه معجزة القرآن . فالمعجزة مطلقا لا يؤمن بها إلا المستعدون للإيمان، وهم الذين شاء الله هدايتهم لا الذين قالوا مثلا : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » ولا الذين جعل الله على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ولا الذين قال الله فيهم « كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به (أي بالذكر الحكيم) وقد خلت سنة الأولين » فشبه الذين لا يؤمنون بالقرآن بالذين لم يؤمنوا بمعجزات الأنبياء الماضين . ولقد أخطأ الشيخ في احتقار المؤمنين بالأنبياء المتقدمين بسبب معجزاتهم الكونية التي سماها « عجائب » فاستهان بها أيضا ، بأن أكثرهم من الخرافيين ، فكأنه قال آمن بهم السذج ولم يؤمن أصحاب العقول الراجحة مع أن رجحان العقل وخفته يجب أن يوزن بميزان الإيمان بالنبي الحق وآياته التي هي آيات الله والإعراض عنه، فمن آمن فهو أعقل الناس ومن كفر فهو أغباهم وأجهلهم[1] .

---

[١] والشيخ رشيد رضا يتبع فيما شذ وخالف فيه علماء الإسلام ، محمداً عبده ، وكذا الأستاذ الأكبر المراغي شيخ الأزهر السابق الذي كان هو أيضاً تلميذ محمد عبده مثل الشيخ رشيد، ولذا قال هيكل باشا بعد نقل كلمات الشيخين في تأييد كتابه وهو يقدم طبعته الثانية ص ٥٣ :

« وقال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في أول كتاب « الإسلام والنصرانية » : (فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري ، فلا يدهشك بخارق العادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة =

الحاصل أن فى معجزات الأنبياء عليهم السلام دلالة كافية على صدقهم فى دعوى النبوة للذين شرح الله صدورهم للإيمان ، ولا يقدح فى قيمة المعجزات ظهور أشباهها الزائفة فى أيدى السحرة والمشعوذين، ولذا لم يمنع هذا التشابه سحرة فرعون عن الإيمان بمعجزة موسى . ولا يقال إن السحرة كانوا عارفين بالفرق بين المعجزة والسحر بفضل معرفتهم بالسحر، ولم يؤمن فرعون لعدم معرفته بهذا الفرق المتوقفة على معرفة السحر،

= ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية ... إلى آخر ماقال : « لايصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة ، فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتاباً أو يرسل رسولا » .

فهؤلاء الشخصيات الثلاث ينتهى إليهم كل شذوذ وزيغ فى الدين بمصر فى عصر التجديد، وقد اجتمعت أسماؤهم حول الدفاع عن كتاب هيكل باشا وأصبحت مستنده فى إخلاء حياة نبينا من المعجزات . وقول الأستاذ الإمام عن الإسلام فى هذا النقل: « إنه لايدهشك بخارق العادة » يذكرنا قول الأستاذ المراغى : « وما أبدع قول البوصيرى : لم يمتحنا بما تعيا العقول به الخ » .

والقارئ الذى يرى فى مختتم النقل نص الأستاذ الإمام على وجوب الإيمان بإنزال الكتاب وإرسال الرسول بجانب الإيمان بالله ... يراه عالما بأن إنزال الكتاب وإرسال الرسول من خوارق العادة التى لايدهشك الإسلام بها على قول الأستاذ الإمام فى النقل نفسه، فيندهش من هذا التناقض ويعده غفلة عظيمة من الناقل والمنقول عنه، حتى إن القرآن خارق للعادة مرتين : بإنزاله وإعجازه ، وإن كان أقطاب إنكار المعجزات يغفلون عن كونه أى القرآن خارقا ، فلا ينكرونه . وما نسينا كون أحد الأقطاب الثلاثة أتى ببيت من قصيدة البوصيرى شاهداً على نفى الخوارق من حياة نبينا وغافلا عن أبيات أخرى من نفس القصيدة مفعمة بخوارقه صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان مبلغ الغفلة لأقطاب الشذوذ من علماء مصر ، بهذا الحد الذى لفتنا إليه تراءى لنا أن كون مؤلف « حياة محمد » وأشباهه من الكتاب تابعين فى إنكار المعجزات لشذاذ العلماء المتكتلين حول الشيخ محمد عبده ، ليس بأولى من عكسه الذى يجعل الإمام مأموما وينقل الإمامة فى مبدأ إنكار معجزات الأنبياء لاسيما معجزات نبينا صلوات الله عليه، إلى المستشرقين أعداء الدين الذين هم المراجع الأولى لأمثال الدكتور هيكل، ثم يلتحق بهم العصريون من علماء الدين بمصر ، وقد أشرنا من قبل أيضاً إلى رجحان هذا الاحتمال فى ترتيب التابع والمتبوع .

إذ لا عذر له فى عدم المعرفة بعد معرفة العارفين ، ولأن المؤمنين بموسى لم يكن كلهم سحرة، حتى يُعذر فرعون بعدم معرفته المعجزة من السحر . والذين ينتقدون الخوارق الكونية من معجزات الأنبياء تارة بحجة التباسها بأعمال السحرة وتارة بعدم كونها ضامنة لإيمان الأمم التى بعثوا إليها، فقد تعدوا بالمعجزات حدودها ، وطالبوا الأنبياء بمعجزات ملجئة لا تتفق مع اختيار المكلفين ، وتجعل الإيمان بالغيب معاينة لا يبقى معها امتياز المؤمن على الكافر بل يضطر الجميع عندها إلى الإيمان . وليس لنا أن نشترط فى نصاب دلالة المعجزة على صدق النبى أن يؤمن به كل من شهد معجزته ، ألا يرى أن دلالة المعجزة على صدق النبى فى دعوى النبوة لا تفوق دلالةَ البراهين العقلية على وجود الله، ومع هذا فقد لا تؤثر تلك البراهين فى قلوب الملاحدة الضالين . فهل يحد ذلك من قيمتها عند ذوى العقول السليمة ؟ .

وإنى أرى الشيخ رشيد الذى يقيس قيمة المعجزات بمقياس عدد الذين آمنوا بها ثم ينتهى منه إلى فشل معجزات الرسل الأولين ، فى غفلة عن الكثرة الهائلة التى تواجهها من أتباع الدين المسيحى الذين تغلبوا فى وجه البسيطة ، حتى استطاعوا أن يحولوا بين طائفة من علماء المسلمين وكتّابهم وبين دينهم وعقولهم، فجعلوهم ينكرون معجزات نبيهم الكونية ويرتابون فى أحاديثه المروية عنه فى كتب الحديث ويطعنون فى قرآنهم على ظن أنهم يطعنون فى معجزات الأنبياء المتقدمين، مع أن تلك المعجزات فى ضمان القرآن . فبماذا ترتبط بدينهم فى رأى الشيخ تلك الكثرةُ الهائلة المتغلبة ، حتى بعد انقضاء أوان هذا الارتباط ببعث محمد صلى الله عليه وسلم ، إن لم يكن لمعجزات سيدنا عيسى وموسى تأثير معتد به فى قلوب الناس ؟ .

ثم أقول : نحن المعترفين بالمعجزات الكونية نقدر قدر القرآن أكثر مما يقدره منكرو المعجزات غير القرآن . لكن فضل القرآن وتفوّقه بين المعجزات لا يوجب إنكار كل معجزة غيره بتنزيلها منزلة السحر والشعوذة والدجل أو منزلة أدنى من

منزلتها كما فعل الشيخ رشيد . ولم أقل عبثا إنا نقدر قدر القرآن أكثر من الذين يَظهرون بمظهر أنصار معجزة القرآن ومكبريها للتذرع منه إلى الاستهانة بغيرها من المعجزات ، لأن القرآن مشحون بالاعتناء بمعجزات الأنبياء الكونية ، فإذا كانت تلك المعجزات لا فرق بينها وبين أفعال الدجاجلة والمشعوذين أو كانت حتى دونها فى التأثير على قلوب الناس، ولم يصدقها غير الخرافيين، لزم أن يكون القرآن نازلا على وفق أهواء الخرافيين مكبراً لما يكبرونه ، وذلك ينقص من قدر القرآن أى نقص . وماذا هو الفرق بين مافعل الشيخ رشيد من تنزيل معجزات الأنبياء الكونية منزلة السحر والدجل وبين ماقاله كفار قوم موسى مثلا المحكى فى قوله تعالى : « فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى » ؟ وماذا هو الفرق بين قولهم هذا فى الزمان الماضى وبين قول عقلاء الغرب اليوم : إن القرآن كلام محمد لا كلام الله ؟ وما كانت معجزات سيدنا موسى سحرا لكن من لم يؤمنوا بموسى ادعوا ذلك ، كما أن القرآن لم يكن كلام سيدنا محمد لكن الغربيين يدعون أنه كلامه ، فهل يحط قولهم هذا من مكان القرآن ؟ كلا . فإذن لا يحط ما قاله قوم موسى سابقا وما قاله الشيخ رشيد لاحقا، من مكان معجزات موسى صلوات الله على نبينا وعليه .

وجملة القول أن وضع نبينا مع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ووضع معجزته مع معجزاتهم فى صف الجدال لأهل الكتاب، مسلكٌ شديد الخطر وتفريق بين رسل الله مخالف لمسلك القرآن القائل « لانفرق بين أحد من رسله » فكما أن القرآن الذى هو معجزة نبينا قولُ الله تعالى ، فالمعجزات الكونية الظاهرة على أيدى الأنبياء ـ وفيهم نبينا أيضاً ـ أفعالُه تعالى المؤيدة لهم، ولاوجه لتفضيل قول الله على فعله، فالمفاضلة بين المعجزات بإطراء بعض والحط من شأن ماعداه ليست من شأن العاقل، وكل منها أوفق لزمانه من غيره .. فمعجزة موسى بالعصا وقعت فى عهد رواج السحر فجاءت تفوقه وتبطله ، ومعجزة عيسى بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وقعت

فى عهد رواج الطب ، وهى ليست من جنس الطب المستند إلى التوسل بالأسباب ، ومعجزة نبينا فى عصر البلاغة والتبارى بها. وكل ذلك يمثل تفوق فعل الله أو قوله على أفعال البشر وأقوالهم . فإذا كان فى معجزة القرآن فضل على ماعداها من المعجزات فليس ذلك الفرق فى أصل الإعجاز وإنما هو فى اتحاد المعجزة مع الوحى فى القرآن حين كان سائر المعجزات منفصلة عن الوحى الذى هو المقصود الأصلى من النبوة وكانت المعجزات نفسها أموراً مقصودة لغيرها ، وهو تأييد الوحى بإثبات كونه من قِبل الله .

وكذا الحال فى موقف الإسلام من النصرانية واليهودية لا تفاضل بينها ، وكلها دين الله الذى أمر عباده أن يدينوا به فى برهة من الزمان ، وكل دين فى زمانه أفضل من غيره ولولا ذلك لما اختاره الله لذلك الحين . وملاك فضل الإسلام عليهما أن مضى دورهما وجاء دور الإسلام فى مختتم الجميع فنسخ الأديان الأولى وبقى إلى يوم القيامة لاناسخ له، فليس لأحد بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة أن يبقى متمسكا بالدين الماضى نائياً بجانبه عن الإسلام الذى هو الدين الحاضر . حتى لو فرضنا فرض المحال أن معجزات موسى وعيسى تفوق معجزات نبينا عليه وعليهما السلام عكس ما أثبته الشيخ رشيد رضا فى كتابه، لما كان لليهود والنصارى اليوم إلا أن يتبعوا دين محمد ويتركوا دين آبائهم الأولين الذين تقدم عهدهم عهد الإسلام، فيكونوا مسلمين بدلا من كونهم هودا أو نصارى، إذ لامعنى لكون الإنسان يهوديا بعد انقضاء عهد اليهودية أو نصرانيا بعد انقضاء عهد النصرانية ، إلا إذا لم يكن لمحمد صلى الله عليه وسلم معجزة كونية كما هو زعم الشيخ رشيد والدكتور هيكل، ولا غير كونية كما هو زعم اليهود والنصارى .

هـذا هو القول الأسلم فى المقارنة بين الإسلام والنصرانية واليهودية الحقيقيتين من حيث إنهما دينان سماويان كالإسلام . أما مقارنة الإسلام مع النصرانية الحاضرة

فلا وجه لها أصلا لكونها مقارنة بين الدين السماوى المحفوظ والدين الصناعى المحرف عن أصله ، وبعبارة أخرى الدين الذى لايقاوم أمام العقل والنقل ، ولم تجىء معجزات سيدنا عيسى لتأييد هـذا الدين المحرف المسمّى لإدامته بعد نسخه ومسخه ، فلا وجه للمقارنة بينها وبين معجزات نبينا بمناسبة المقارنة بين النصرانية الحاضرة والإسلام ، فضلا عن الاعتداء على تلك المعجزات بهذه المناسبة .

ولقد سلك منكرو معجزات نبينا غير القرآن مسلكا وعرا جرّهم إلى القدح فى كتب الأحاديث والسير ثم إلى القدح فى معجزات الأنبياء المتقدمين بل فى نبوتهم أيضا . وكان هذا التورط الثانى وقع منهم ملافاة للنقص فى معجزات نبينا ، فيجعلون القرآن معجزة وحيدة مطلقا بعد أن جعلوه معجزة وحيدة لنبينا . لكن هذا المسلك الذى يتضمن إعلاء شأن القرآن فى الظاهر يخالف مسلك القرآن نفسه ويتضمن قدحا فى القرآن أيضا كما بينا من قبل . ونبين هنا وجهاً آخر وهو أن القرآن تحدى بلغاء العرب أن يأتوا بسورة من مثله فلم يستطيعوا ، وهذا التحدى تمسك به الشيخ رشيد رضا وغيره فى إنكار كل معجزة لنبينا غير القرآن[1] وادعوا تفرد القرآن به ،

---

[١] نعم ذكر المتكلمون فى المعجزة شروطا منها التحدى لكن المحقق الدوانى نبه على أنه لايشترط فيها صريح التحدى بل تكفى قرائن الأحوال . والمعقول عندى أن يكون مرادهم من شرط التحدى مقارنة المعجزة بدعوى النبوة أعني يلزم لأن يعتبر خارق العادة معجزة ظهوره على يد مدعى النبوة تمييزاً لها عن الكرامة والإرهاص ، فلو اشترطنا فى كون المعجزة معجزة أن يكون من ظهرت على يديه تحدى بها الناس وطالبهم بالإتيان بمثلها كما وقع فى معجزة القرآن واستدل به الشيخ رشيد على انحصار معجزة نبينافيه وجاء هذا الاشتراط موافقاً لأقوال علماء الكلام، لزم أن لا يكون لنبينا فى جميع ماظهر على يديه معجزة واحدة عند المتكلمين إلا القرآن كما هو كذلك عند الشيخ رشيد ! وكيف يكون علماء الكلام متفقين مع هذا الشيخ فى إنكار ماعدا القرآن من معجزاته لفقدان شرط التحدى ، فى حين أنهم صرحوا بأن له صلى الله عليه وسلم معجزات كثيرة غير القرآن إن لم تثبت كل واحدة منها عنه تواترا فالقدر المشترك متواتر كجود حاتم وشجاعة علىّ ، كما نقلناه سابقاً من شرح المحقق الدوانى للعقائد العضدية . والتمسك بشرط التحدى ليس إلا من مناورات الشيخ إظهاراً =

مع أنه إن ارتفعت الثقة بكتب الحديث والسيرة، وكان أصحاب هذه الكتب لم يكتبوها لوجه الحق بل محاباة للاسلام ، كما ادعى ذلك المدعون من المسلمين عند إنكار المعجزات الثابتة بالأحاديث ، تأتّى لمن شاء من أعداء الإسلام المنكرين لمعجزة القرآن أيضا أن يقول : من الجائز أن يكون فى عصر النبى أتى آت من البلغاء بمثل ما تحدى به ، ثم لم تَرْوِه كتب الحديث والسيرة التى لايؤمَن على أنبائها من الزيادة والنقصان ، وليس فى الشرق ولا فى الغرب مراجع تاريخية لصدر الإسلام غير تلك الكتب ، فمن أين نثبت اليوم أن القرآن معجزة تحدت فأعجزت وسلمت من المعارضة ؟ وقد كان فضيلة الأستاذ المراغى قال فى مقالته التى نشرتها « السياسة » الأسبوعية و « الأهرام » أيام حدثت فتنة ترجمة القرآن بتركيا وإقامةِ الترجمة مقام الأصل العربى فى الصلاة وغيرها، وانحاز فضيلته إلى أنصار تلك الفتنة ومروجيها :

« إن قراءة الأعاجم للنظم العربى نفسه لايدلهم على الإعجاز وليس فى استطاعتهم فهمه ، والأمم العربية الآن ومن أزمنة طويلة خلت لا يفهمون الإعجاز من النظم العربى ، وقد انقضى عصر الذين أدركوا الإعجاز من طريق الذوق وآمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك، ونحن الآن نقيم على الإعجاز أدلة عقلية ونقول إن القرآن تحدى العرب وإنهم عجزوا وهذا يدل على أنه من عند الله » .

وكان الأستاذ فريد وجدى بك وهو من غلاة منكرى المعجزات بدعوى أنها مخالفة للعقل ، حتى إنه ينكر البعث بعد الموت أيضا للسبب نفسه .. كان هذا الأستاذ أنكر إعجاز القرآن بألفاظه ومبانيه فى مقالاته التى كتبها دفاعا عن فتنة ترجمة القرآن وقال « إنه لم يتحد أحدا ببلاغته ، وإنما تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله فى حكمته

= للمتكلمين فى مظهر الاتفاق معه، فهل هو، أعنى الشيخ، حين أنكر المعجزات الكونية الظاهرة على يد نبينا أو أيد قول من أنكر فكتب دفاعاً عن كتاب هيكل باشا ، أنكرها لكونها خارقة لسنة الكون أم أنكرها لفقدان شرط التحدى ؟

وشريعته » [1] وهذا مع كونه مخالفا لما قاله فضيلة الأستاذ المراغى ففيه أن الأستاذ فريد يعرف أن أمما إسلامية لم تعجبهم شريعة القرآن فاستبدلوا بها شرائع الغرب قبل استبدالهم ألفاظا أعجمية بألفاظه ومبانيه ، والأستاذ الذى ناصرهم فى تبديل ألفاظه لم يؤاخذهم يومئذ على تبديل شريعته . فمنكرو المعجزات كما يفرقون بين الكتاب والسنة فيدافعون عن الكتاب ويخذلون السنة ، يفرقون بين لفظ الكتاب ومعناه، فيتمسكون بمعناه ويخذلون لفظه ، ويتمسكون بلفظه فيخذلون معناه ، على حسب ما يقضى هوى التجديد العصرى .

ثم إن المتظاهرين بتكريس كل أهمية وكل تعويل على القرآن لئلا يكترثوا بغيره، تراهم يقاومون صراحة القرآن إذا شاء هواهم ذلك ، كما فعله الشيخ رشيد حين أنكر معجزة شق القمر التى سيأتى بيانها .

وانظر ماقاله الشيخ فى « الوحى المحمدى » بعد التنبيه على كون نبينا لم يتعلم القراءة والكتابة وكون قومه الذين نشأ فيهم أميين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الأمم وعلوم التشريع والفلسفة ص ٤١ — ٤٣ :

« وترى تجاه هذا أن موسى عليه الصلاة والسلام قد نشأ فى أعظم بيوت الملك لأعظم شعب فى الأرض وأرقاه تشريعا وعلما وحكما وفنا وصناعة ، وهو بيت فرعون مصر [2] ثم انه مكث بضع سنين عند حميه فى مدين وكان نبيا ـ أو كاهنا كما يقولون ـ فمن ثم يرى منكرو الوحى أن ما جاء به موسى من الشريعة الخاصة لشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة ناشئ فى بيت الملك والحكمة .

---

[١] وقد نقلت كلا القولين عن الأستاذين فى كتابى « مسألة ترجمة القرآن » .

[٢] وقال معالى هيكل باشا فى كتابه «حياة محمد» ص ٦٦ من الطبعة الثانية : « فى مصر نشأ موسى وفى حجر فرعون تربى وتهذب وعلى يد كهنته ورجال الدين من أهل دولته عرف الوحدة الإلهية وعرف أسرار الكون » !!

« ثم ظهر فى أوائل هذا القرن الميلادى أن شريعة التوراة موافقة فى أكثر أحكامها لشريعة «حورابى» العربى ملك كلدان الذى كان قبل موسى معاصراً لإبراهيم صلى الله عليه وسلم . وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الألمان فى حفائر العراق إنه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها، فلا تعد أحق منها بأن تكون وحياً من الله . ولم ينقل أن حورابى ادعى أن شريعته وحى من الله [١] .

« ثم يرى الناظر أن سائر أنبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعبدين بها ، وأنهم كانوا يتدارسونها فى مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم أخرى، فلا يصح أن يذكر أحد منهم مع محمد ذكرَ موازنةٍ ومفاضلة [٢] ويرى أيضا أن يوحنا المعمدان الذى شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا بنبأ غيبى ، بل يرى أن عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدرا وأعلاهم ذكرا وأجلهم أثرا، لم يأت بشريعة جديدة بل كان تابعا لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها وإصلاح روح أدبى لجمود اليهود

---

[١] وأنا أقول فى جواب ما ذكره الشيخ من وجوه الطعن فى نبوة سيدنا موسى: إن فرعون الذى نشأ موسى فى بيته ادعى لنفسه الألوهية وسيدنا موسى دعا الناس إلى عبادة الله ، فكيف يصح أن يقال انه نشأ فى بيت الحكمة والتشريع مع هذا البون الشاسع بين المنشأ والناشئ من حيث الهدى والضلال، وهل فرعون حكم فادعى الألوهية أوادعاها فحكم أى صار حكيما ؟ وحكاية حورابى العربى ملك الكلدان — وفيها وفى وصفه بالعربى تفضيل ذلك الملك العربى على سيدنا موسى الأعجمى — إن صحت فلا مانع من أن تكون شريعة موسى متوافقة فى بعض أحكامها مع نظم ذلك الملك، وموسى لم يدع لنفسه الأمية مثل نبينا حتى ينقضها اطلاعه على أحوال الملل وتواريخ الأمم . أما أن موسى كان نبيا ولم يكن حورابى فإن العصا التى هى على رغم أنف الشيخ تقطع قول كل خطيب ، ظهرت على يمين موسى . والله أعلم حيث يجعل رسالته .

[٢] كما أنه ليس فى الحق والعدل مافعله أهل الكتاب الذين لايؤمنون بنبى بعد نبيهم من إثارة الشبهة حول نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فكذلك لا يجوز لنا أن نذكر أنبياء الملل الذين لايؤمنون بنبينا ، بما يثير الشبهة فى نبوتهم كما فعل الشيخ رشيد ، فلسنا نحن المسلمين كأهل الكتاب، لانفرق بين أحد من رسل الله، بل نؤمن بهم عن آخرهم إيمانا لايحوم حوله شك الشاكين ولا شبهة المفرقين .

المادى على ظواهر ألفاظها . فأمكن لجاحدى الوحى أن يقولوا إنه لا يكثر على رجل زكى الفطرة ذكى العقل ناشئ فى حجر الشريعة اليهودية والمدنية الرومانية والحكمة اليونانية غلب عليه الزهد والروحانية ، أن يأتى بتلك الوصايا الأدبية . على أن منهم من يعزو جُلها إلى كونفشيوس المشترع الصينى وإلى غيره من الحكماء الذين كانوا قبل المسيح عليه السلام . ونحن المسلمين لا نقول هذا ولا ذاك وإنما يقوله الماديون والملحدون والعقليون وألوف منهم يُنسبون إلى المذاهب النصرانية » .

فقد قدح الشيخ فى نبوة سيدنا موسى وسيدنا عيسى وكتابيهما التوراة والإنجيل تفصيلا ثم تبرأ منه بما لا يعدله من الإجمال حيث ذكر وجوه القدح ولم يجب عنها ، وإنما اجتزأ بأن يقول « ونحن المسلمين لا نقول هذا ولا ذاك وإنما يقوله الماديون والملاحدة والعقليون » ومعناه أنا لا نقول ولكن ننقل أقوال القائلين ولانجيب عنها ، إذ لاجواب لها . وهذاهوالقدح بعينه ! فالشيخ يقوّل الملاحدة مالا يستطيع أن يقوله ، ويدل استنكافه عن الجواب على انتقاداتهم مع عدم استنكافه عن نقل تلك الانتقادات ، أنه يراها واردة . على أنه يرى الناظر فيما كتب الشيخ تحت عنوان « ويرى الناظر » وعنوان « فأمكن لجاحدى الوحى » شيئا كثيرا ينم على أن رأيه لا يبعد عن آرائهم . وحسبك أنه يعنيه انتقاداتهم ولا يعنيه أن يجيب عنها ، فلو عناه لأجاب ، وكيف يجيب والجواب الحاسم الذى هو معجزات الأنبياء قد قدح فيها الشيخ قبل القادحين ، حيث قال إنها شبهة لا حجة على الرغم من تعبير القرآن عنها تارة بالآيات البينات وتارة بالبرهان وتارة بالفرقان وتارة بالسلطان وتارة بالحق ، وقد سبق كل ذلك . نعم إن الشيخ قال أيضا ماقال عن تلك المعجزات إنها شبهة لاحجة ، عازيا له إلى علماء العصر ، لكن قد عرفت أن هذا الأسلوب من ألاعيب الشيخ وإلا فكيف يؤيد بقول علماء العصر هذا ، إن لم يكن قولهم مقبولا عنده ، ماالتزمه هيكل باشا فى كتابه « حياة محمد » من إهمال معجزاته صلى الله عليه وسلم الكونية ؟ .

فههنا أى عند الكلام مع جاحدى نبوة سيدنا موسى وعيسى الذين أحضرهم الشيخ رشيد أمامنا وأحضر معهم ما لديهم من شبهات واحتمالات عن أصل التوراة والإنجيل ومأخذهما ، وعند توقف إزالة الشبهات والاحتمالات على معجزات ذينك النبيين الجليلين ... عند هذا الموقف الدقيق الذى يعنينا نحن المسلمين بقدر مايعنى اليهود والنصارى ، يتبين عظم جناية المستهينين بالمعجزات الكونية المنكرين لأهميتها فى نبوة الأنبياء . فالأنبياء كلهم غير نبينا صلوات الله وسلامه عليهم ، على ما أدى إليه قول الشيخ رشيد، مفحمون من جانب جاحدى الوحى ، فإن كان عند الشيخ مايدفع الإفحام عنهم ولم يذكره عمدا فهو مع الجاحدين أعداء الأنبياء ، وإن لم يكن عنده ذلك فهو مفحم مع الأنبياء بصفة أنه مسلم يؤمن بالله وكتبه ورسله ، بل مفحم معه نبى الإسلام أيضا بصفة كونه مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل .

فيا أيها المتكلمون بلسان الإسلام ! لا تحدثوا الناس من غير ميزان ولا مقياس، فمن أسمى ميزات الإسلام على سائر الأديان السماوية أنه ضامن لتلك الأديان أيضا ، فإذا دخلت شبهة فى أصل واحد منها ، يتأثر الإسلام بها أيضا ولايسلم من عدواها . فإياكم أن تستهينوا بمعجزات الأنبياء عند إكبار معجزة القرآن، وتستهينوا بالسنة عند إعظام شأن الكتاب، فالكتاب لاينفصل من السنة، والقرآن لاينفصل من التوراة والإنجيل. فأنتم تعلمون دعوى اختلاق الشعر الجاهلى بعد الإسلام ، ولعلكم تعلمون أيضا ما ترمى إليه تلك الدعوى من إثارة الشبهة فى القرآن من ناحية الرواية ، بواسطة إثارة الشك فى أمانة الرواة المسلمين مطلقا . وكانت تلك الدعوى قد قوبلت بضجة فى الرأى العام الإسلامى بمصر ، ثم ظهر كتاب « الوحى المحمدى » فطعن صاحبه فى الوحى الموسوى والعيسوى ، وظهر كتاب « حياة محمد » فطعن صاحبه فى سنة محمد وظهر الطعن فى الطبعة الثانية كل الظهور، فلم يحرك كل من ذلك ساكنا فى الرأى العام وما أخل برغبة المسلمين لاسيما فى الكتاب الثانى ، مع أن صلة السنة بالكتاب وصلة

التوراة والإنجيل بالقرآن أشد وأقرب من صلة الشعر الجاهلى بالقرآن . والفرق المشهود بين الحالين لا يسفر إلا عما طرأ على الإسلام بمرور الزمان من ضعف فى الحماسة أو ضعف فى التفكير .

* * *

وعند كتابة هذه السطور — وأنا ما انتهيت عن الكلام فى الوجه السابع من وجوه النقد على كتاب هيكل باشا أو بالأصح على مقدمة الطبعة الثانية له — اطلعت على العدد الخاص من مجلة « الرسالة » بأول العام الهجرى ١٣٥٨ ورقم السنة هذا منى ، لأن المجلة كعادتها مؤرخة برقم السنة الميلادية ، وقد أعجبنى مما قرأت منها — وما قرأت جُلها — قصيدة « قومى بين الشرق والغرب » ومقالة « عندنا غدهم » و« روح العبادة فى الإسلام » و « أعظم يوم فى تاريخ العالم » إلا آخر المقالة الأخيرة التى يقول فيها كاتبها الأديب الأستاذ عبد العزيز البشرى :

« وبعد فإن بمعجزات عيسى عليه السلام قد ختم هذا الضرب من الخوارق التى تجرى على أيدى الرسل » ثم يقول : « إن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم تمتاز بأمرين: الأول أنها لا خلاف فيها لسنن الكون ولا مغايرة فيها لطبائع المخلوقات » .

ياللعجب ! حتى الأستاذ ابن الأستاذ الأكبر المرحوم سليم البشرى من شيوخ الأزهر السابقين يشارك الزاعمين بعصر من الكتّاب والعلماء أن لا معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم غير القرآن ، ولا أظن أن والد الأستاذ رحمه الله يقبل هذا الرأى لو كان حيا ولا أن الأستاذ نفسه يقبل ما يتضمنه وما يترتب على ما يتضمنه من المفاسد ولا ما يقصده الزاعمون أو زعماء الزاعمين منه . أما ما يتضمنه وما يترتب على ما يتضمنه فقد أسهبت فى إيضاحه لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . وأما ما يقصد منه فأقوله هنا :

أرى طائفة عصرية من الكتّاب والعلماء بمصر اتفقوا فيما بينهم على حصر معجزات

نبينا صلى الله عليه وسلم فى القرآن . وقد راقتهم هذه الفكرة كأنهم اكتشفوا بها حقيقة خفيت على من سبقهم من علماء الإسلام وعقلائه طوال تاريخه . وربما انتحلوها من علماء الغرب وعقلائهم أو على الأقل من علمهم وعقليتهم الحديثين ، وإنى أقول ما سأقوله بصدد الإفشاء عن مقصدهم الأقصى ، على أنه هو الآخر اكتشاف لى، كما أن نظرية حصر معجزات نبينا فى القرآن اكتشافهم، غير أنى لم أنتحل ما اكتشفته من الغرب ، وغيرى لا يستطيع الكشف عن مقاصدهم ، فإن استطاعه فقد لا يستطيع مجاهرتهم بها .

أيها القارئ العزيز ويا أيها الأستاذ عبد العزيز! إن عقول الطائفة التى أشرت إليها والتى لا أود أن تكون منها، مخطوفة بيد علم الغرب المادى ، وعهدى بالعقل الذى هو أشرف خلق الله أنه يأبى أن يخطفه خاطف العلم ويأسره آسره [1] إنهم لا يؤمنون بالمعجزة أى معجزة كانت ، لأن علمهم المثبت يمنعهم أن يؤمنوا بكل ما يخالف سنة الكون ، مع أن المعجزة لا بد أن تخالف سنة الكون وإلا فلا تكون معجزة . أما معجزة القرآن فإنهم يؤمنون بها لكونها معجزة لا تشبه المعجزة وإنما هى كلام أبلغ ما يكون فى الكلام ، وهم لا يرون فى أن يكون كلام أبلغ من كل كلام ما يخالف سنة الكون كقلب العصا حية وإعادة الميت حيا ، كما أنهم يريدون أن يتصوروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم على غير ما نتصوره نحن المسلمين القدماء ، ليس فيها ما يخرق سنة الكون وإنما عبقرية فى الفضيلة والنزاهة والحكمة والهداية إلى ما فيه سعادة الأمم ، وإن شئت فلا تقل عبقرية، لأن فيها أيضا شيئا من الخروج على سنة الكون، بل زعامة فضلى وكمال فى الزعامة دونه زعامة الزعماء ، إنهم يريدون أن يجعلوا محمدا

---

[١] وقد قلنا فى المطلب الثالث من الباب الأول من هذا الكتاب : إن العقل اكتشف العلوم وأدركها ولم يدرك العلم بعد ماهية العقل .

صلى الله عليه وسلم زعيما عربيا بزّ كل زعيم من كل أمة فى الصلاح والإصلاح . وقد سمعوا قول أحد المستشرقين عنه « بطل فى صورة نبى » ولا لزوم عندهم لأن يكون محمدالزعيم نبيا ينزل عليه الفينة بعد الفينة ملك يسمى جبريل ويأتى ببلاغ من الله بلفظه ومعناه[١] وهوالقرآن المعجز بمراسم إيحائه وإنزاله، قبل أن يكون معجزا ببلاغته، لالزوم لذلك لأن القرآن يكون حينئذ معجزة من المعجزات الكونية التى تنكرها هذه الطائفة الشرقية اقتداء بعلماء الغرب المنكرين لكل مايخالف سنة الكون ، ولا أشد مخالفة من إنزال ملك على بشر حاملا بلاغا متلوًّا من الله ومتمثلا على الأكثر فى صورة البشر .

فمنكرو المعجزات الكونية من العرب للزعيم العربى الأعظم صلى الله عليه وسلم ينكرونها عبثا إن لم ينكروا معها نبوته ورسالته المعروفة المعنى عند المسلمين منذ قرون الإسلام الأُوَل [٢] إلاأن تكون نبوة كما عرّفها إمام الطائفة الشيخ محمد عبده وسبق نقله منا ، ورسالة من نوع رسالة مجلة « الرسالة » وبعض كتابها ولكن من أعلى وأفضل فرد من ذلك النوع .

وليس لقائل أن يقول اعتراضا علينا : ولكن ماالضرر من أن لا يكون محمد رسولا مخالفاالسنن الكون إذافرضنا كونه رسولا طبيعيا موافقا لسنن الكون وفرضنا معه — وهو فرض مطابق للواقع — أنه قام بكل ما لزم أن يقوم به لو كان رسولا غير طبيعى كما يتصور المسلمون الأولون ، وأتى بمعجزات لا تختلف عن المعجزات إلا فى

---

[١] قال الله تعالى « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » .

[٢] ولكون نبوة الأنبياء والذى تضمنته من الوحى الخاص بهم ، مخالفة لسنة الكون التى لا يقر العلم المدعو بالعلم المثبت ما يخالفها ، تلعثم معالى هيكل باشا الذى ألف حياة محمد ، فى تأليف وحى محمد صلى الله عليه وسلم بالعلم تلعثما كاد يكفر به أى بالعلم فى سبيل الإيمان بوحيه . وقد أشرنا إليه من قبل . راجع ص ٤١ — ٤٢ من الطبعة الثانية من كتاب حياة محمد .

مطابقتها لسنة الكون [1] وإن شئت فقل رسولا إنسانيا وغير إنسانى بدل الرسول الطبيعى وغير الطبيعى .

وقبل أن نجيب عن هذا الاعتراض الذى أوردنا علينا ، نورد كلمات من مقالة الدكتور زكى مبارك المنشورة أيضا فى العدد الممتاز من مجلة « الرسالة » تأييدا لصحة اكتشافنا المار الذكر عن عقلية طائفة من المسلمين بمصر فى المعجزة والنبوة المحمدية :

قال : « كان محمد إنسانا بشهادة القرآن . وبنو آدم يؤذيهم أن يتلقوا الحكمة من رجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق» [2] « وفى غمرة هذه الضلالة نُسيت النواحى الإنسانية فى حياة الرسول وإلا فمن الذى يصدّق أن رجلا مثل محمد يضيع من عمره أربعون سنة بلا تاريخ ، ولأى سبب ينسى الناس أو يتناسون تلك المدة من حياة الرسول ؟ » .

ماذا يريد الدكتور زكى مبارك أن يقول ؟ فهل هو معترض على تأخر إعلان

---

[١] وكان الأستاذ فريد وجدى بك الذى هو من غلاة منكرى المعجزات يحاول فى الأزمنة الأخيرة أن يصور الإعجاز فى رسالة نبينا بما يشبه هـذا النوع الطبيعى الذى يكون إعجازه فى مبلغه من الكمال المنقطع النظير لا فى مخالفته الطبيعة . راجع ما كتبه فى مجلة « الأزهر » من المقالات بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » . وسبق ذكره مع الكلام عليه فى كتابنا هذا (الجزء الأول ص ١١٧).

[٢] فى هـذا القول تعريض للمسلمين القدماء الذين يتصورون لنبيهم أحوالا فوق الأحوال الطبيعية كالمعجزات ونزول الملك عليه بالوحى من السماء ، فكأنهم فى زعم الدكتور يصعدون محمداً صلى الله عليه وسلم إلى ما فوق البشرية . وهـذا ما يعنيه بقوله : « وبنو آدم يؤذيهم تلقى الحكمة من رجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » . وأنا أقول لايؤذى المسلمين أن يكون نبيهم بشراً وإنما يظن الدكتور ومن فى عقليته من المتعلمين العصريين أن تصور النبى كما يتصور المسلمون القدماء بأن ينزل عليه الملك بالوحى من الله وتكون له معجزات تخرق سنن الكون ، يخرجه من البشرية وينافى إنسانيته . ومن عجيب المغالطة استشهاد الدكتور على بشرية نبينا بقول القرآن ، كأن هناك من المسلمين من يشك فى أنه إنسان ، حتى إن الذين عابوه من جهلاء المشركين نقالوا « مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق» وأراد الدكتور تطبيق عقليتهم بغير حق على المسلمين ، لم يشكوا فى كونه بشراً، وإنما أشكل عليهم نبوة البشر كما أشكلت على الدكتور نفسه .

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى مبدأ العقد الخامس من عمره ؟ وإلا فما معنى نسيان الناس أو تناسيهم المدة التى تقدمت ذلك الحين من حياة الرسول ؟ فكأنه يقول إن حياة محمد الرسول أضرت بحياة محمد الإنسان حيث طغت عليها وأنست الناسَ ما كان له من حياته قبل مبعثه . مع أن الذين كتبوا تاريخه ما نسُوا ولا تناسَوا ما عرفوا من حياته قبل رسالته . لكن مؤرخى الإسلام ليسوا بكتّاب الرواية حتى يملأُوا فراغ ما يعرفون بما لا يعرفون . والله تعالى يتولى الجواب عن اعتراض الدكتور فيقول لرسوله : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون » ويقول « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » وهذا الفراغ فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل رسالته معدود من جملة ما جعل القرآن معجزة .

ولعل الدكتور كان يتوقع على الأقل من مؤرخى الإسلام القدماء أن يقولوا عن حياة سيدنا محمد قبل مبعثه: إنه قضاها فى التفكير فيما سيضعه موضع الفعل والتنفيذ من المبادئ، كما قال الأستاذ أحمد أمين بك فى مقالته المنشورة فى العدد ١٨ من مجلة «الثقافة» بعنوان « محمد الرسول المصلح » :

« كم أجهد نفسه فى التفكير وأجهد روحه فى البحث وكانت عزلته فى غار حراء وسيلة من وسائل تفكيره ، وفيم كان يفكر ويطيل تفكيره ؟ فى سوء ما عليه العالم وفى سوء ما يعتقد العرب وغير العرب وفى سوء الحالة الاجتماعية فى العالَم الذى رآه فى جزيرة العرب وفى العالم الذى رآه فى الشام . قد يكون هذا الفساد واضحا ، ولكن ما هو الحق ؟ وأين الحق ؟ كان هذا هو زمن التفكير ونوع التفكير ثم اهتدى وكان الوحى إيذانا بالهداية . ثم كان له بعد ذلك من الله قوة فى التنفيذ لا تبارى » فتأمل .

وقال الدكتور زكى مبارك أيضا : « كان محمد إنسانا قبل أن يكون نبيا » أقول إن كان هذا كقول بعض المسلمين القوميين أنا عربى أو تركى أولا ثم مسلم ، كان استهانة

بالنبوة، فلو فرض أن رسولا تكلم هذه الكلمة على معنى أن إنسانيته أهم في نظره من رسالته لسقط عن مرتبة النبوة والرسالة، كما يسقط عندى من يقول أنا من القوم الفلانى أولا ثم مسلم ، عن إسلامه الذى يعلو ولا يُعلى عليه . ثم قال الدكتور : وذلك من أعظم الحظوظ الذى غنمها فى التاريخ . فسيأتى يوم قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية ولكنهم لا يستطيعون أن يثوروا على عبقرية محمد » .

معناه سيأتى يوم قريب أو بعيد يثور فيه أتباع محمد عامة والعرب خاصة على نبوته وعلى الدين الذى أتى به ويستغنون عنهما، لكونهما من الأمور الغيبية التى لا يصدقها أهل العصور العلمية ، ولكنهم لايستطيعون أن يستغنوا عن عبقريته كزعيم غير دينى، فكأن عبقريته وبطولاته أظهر وأقوى من نبوته كما يدعيه بعض المستشرقين . ولا يخفى أن قول الدكتور هذا ثورة من الآن على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ودينه . فإن قال قائل : إن الرجل نفسه لا يريد أن يكون ثائرا على نبوته صلى الله عليه وسلم التى هى من الأمور الغيبية وإنما يقول عن ثورة محتملة يحدثها آخرون فى الآتى القريب أو البعيد ، فجوابى عليه أن المفهوم من كلام الدكتور أنه لا يأمن على نبوته من الثورة كائنا من كان الثائر ، بقدر ما يأمن على عبقريته . ولاريب فى أنه ينم على شك منه أو تشكيك فى نبوته ، فكأنه يتعزى بسلامة عبقريته ، عند وقوع الثورة على نبوته ، وكأن المطلوب عنده اعتراف الناس بعبقريته . ألسنا صادقين إذن فى القول بأن طائفة من الكتّاب المسلمين وبعض علماء الدين بعصر لايؤمنون بالمعجزة والنبوة على معناهما المعروف عند المليين ؟ لا سيما وهم يجدون فى محمد صلى الله عليه وسلم أوصافا عبقرية تؤهله لأعظم زعامة وتغنيه عن النبوة ، ودعوى النبوة منه كانت عندهم حيلة توسل بها إلى إقناع الناس بالإذعان لمبادئه، وفيها مصلحتهم وسعادتهم إن لم يكن فى الآخرة التى هى أيضا من الغيبيات غير المأمونة من أن يثار عليها ، ففى الدنيا . والاحتيال الذى لا يتفق مع النبوة يتفق مع العبقرية . وهكذا تكون عبقرية محمد مفترقة عن نبوته .

فلو قلنا اعتراضا عليهم إن العبقرية لا يمكنها أن تمدل رتبة النبوة ، وحسبنا فى ذلك إمكان اتفاق العبقرية مع الاحتيال الذى هو نوع من النفاق ، لـكان جوابهم: نعم إن النبوة أفضل وأسمى من العبقرية لولا أنها من الغيبيات التى تثار عليها بأنها أمر لا حقيقة لها ولا وجود إلا فى مخيلة أهل الدين !! فخلاصة كلام الدكتور زكى مبارك أن نبوة محمد لا يمكن الدفاع عنها تجاه الثائرين عليها ما أمكن الدفاع عن عبقريته، ويكون جوابى على هذا الجواب أن محمدا العبقرى من غير نبوة ، لايصير زعيم المسلمين، وإنما يصير زعيم العرب ، ولا جميع العرب بل الذين لا يؤمنون بنبوته . فهو زعيمهم ونبينا نحن المسلمين ، لا نرتاب يوما فى نبوته ، ولا نبنى ندافع عنها ، وأنا أحقر أمته دافعت عنها فى هذا الـكتاب لا لأن نبوته محتاجة إلى مدافعتى ، بل لأنى محتاج إلى شفاعته يوم يُعلم أيهما أحب إليه ممن هو نبيه أوزعيمه ؟.. على أن النبوة تتضمن الزعامة أيضا من غير عكس .

وقال الدكتور أيضا : « إنهم يصنعون بتاريخ الرسول ما صنعوا بتاريخ الأمة العربية . لأنهم أرادوا أن يخضعوا خضوعا تاما للمعجزات ، فالنبى لم يكن رجلا عبقريا وإنما خصه الله بالرسالة فكتب له الخلود ، والعرب لم يكونوا أمة قوية وإنما ارتفعوا بفضل الرسول » .

كنت أعيب على الترك المنتمين إلى الانقلاب الذى أحدثوه منذ ربع قرن فى تركيا، أنهم لا يعترفون بأى حق وفضل للإسلام على الترك ، فإذا بى أرى طائفة من العرب الذين انتشر منهم هذا الدين ، لا يريدون الاعتراف بفضل النبى العربى على العرب . وكأنى بالعرب الأحداث يريدون أن يأخذوا اللادينية من الترك الأحداث، كما أخذ الترك المسلمون دينهم من العرب القدماء . إن النبى عند الدكتور زكى مبارك لم يكن محتاجا فى عبقريته وخلود اسمه إلى أن يكون بفضل الله عليه نبيا ، كما لم يكن العرب محتاجين فى نهضتهم ورقيهم إلى أن يدينوا بالإسلام بفضل الرسول . فلو كانت للنبى عبقريته

من غير نبوة لكفته فى خلود اسمه ، ولو كانت للعرب قوتهم من غير دين لكفتهم فى رقيهم ونهضتهم تحت زعامة هذا العبقرى العربى بل تحت زعامة أى عبقرى كان .

وهذا من الدكتور غاية فى النكران بفضل الله على النبى العربى وبفضل الإسلام ورسوله على العرب . فهو أجرأ فضولى تعصب لرسول الله بما يُسخط الله وتعصب للعرب بما يسخط الرسول . لكن القرآن يقول لنبيه ردًّا على الدكتور : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » ويقول : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » . وقال عن العرب : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » فإن كان الدكتور لا يؤمن بكون القرآن كلام الله ويعتقد أنه كلام محمد ، فمحمد نفسه صاحب هذه الأقوال يكذِّب الدكتور القائل باستغنائه عن فضل الله عليه وباستغناء العرب عن فضل الإسلام ورسول الإسلام عليهم .

وحتى الأستاذ أحمد أمين بك يكذب دعوى الدكتور فى العرب حيث يقول فى مقالته المارة الذكر المعنونة : « محمد الرسول المصلح » .

« لقد نشأ فى جو خانق وبيئة مضطربة فاسدة وحالة اجتماعية تبعث اليأس ؛ فجعل من الشر خيرا ومن الاضطراب أمنا ومن الفساد صلاحا . فالعرب قد وهبت نفسها للأصنام ، وجعلت البيت الحرام ـ الذى بُنى ليُعْبَد فيه الله ـ مباءةً لثلاثمائة حجر أو تزيد ، تعبدها من دون الله . ومن تنصّر منهم أو تهوّد فقد تنصر أو تهود بنصرانية أو يهودية فقدت روحها ، وتقسَّمتها المذاهب والشيع ودخل على تعاليمها

الأولى كثير من البدع فلم تنجح فيهم يهودية ولا نصرانية ، والحنفاء الذين ظهروا قبل الإسلام كان صوتهم ضعيفا خافتا ، عجزوا ــ كما عجزت اليهودية والنصرانية ــ أن يغيروا شيئا من حياة العرب وعقلية العرب . ثم كانت حياتهم سلسلة سلب ونهب ، كل قبيلة وحدة بل كل فرع قبيلة وحدة ، وكل قبيلة فى عداء مع من جاورها ، لا أمن على الحياة ولا أمن على المال ، لا يفقهون معنى أمة ولا يفهمون معنى لحياة سياسية أو مدنية ، ولا يعرفون معنى لعلم أو فن ؛ فلو أنت قلت إن أحدا من الأنبياء والمصلحين لم يجد من اختلال أمته وفسادها ما وجد محمد من العرب وغير العرب ، ما عدوت الصواب » .

وإنى كنت قرأت قبل أن رأيت مقالة الدكتور زكى مبارك أشياء كثيرة عن خصوم المعجزات ، فرأيت منهم من يفرق بسبب المعجزات بين الرسل الذين لا نفرق بين أحد منهم ، ومن يفرق بين معجزة ومعجزة ، وما رأيت مثل الدكتور من يفرق بين الرسول وبين رسالته ومعجزاته . فمن ذا الذى قال له إن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإنسانيته شيئان مختلفان بحيث يُبحث أيهما بفضله كتب الخلود لمحمد؟ فالدكتور يكاد يحنق على نبوة محمد وإسلام العرب بسبب نبوته ، لأن الناس أفنوا تاريخ إنسانية محمد وعبقريته فى نبوته كما أفنوا تاريخ العرب فى الإسلام . فكأنه صلى الله عليه وسلم لو لم تكن له معجزاته من عند الله ولم يُسلم العرب على يده ، لكتب التاريخ عن أمة العرب وعن محمد العربى أكثر وأبهر مما كتبه، أو على الأقل ما يعدله [1].

فلعل الدكتور تشبّع أولا بالدعوى القومية التى تعلمها الشرق من الغرب بعد أن نبذها النبى العربى وسماها دعوى جاهلية ، ثم رأى بعض الأبطال القوميين المعاصرين

---

[١] ومما هو جدير بالاعتبار أن الدكتور على الرغم مما يرى أنه من غلاة دعاة القومية يحدث المفاضلة والمنافسة بين نبوته صلى الله عليه وسلم وإنسانيته ولا يستطيع أن يحدثهما بين نبوته وعربيته، لأن سيدنا محمداً نفسه أفنى قوميته فى دينه .

ـ وإنى لعلى يقين من أنه لايعرف زيفهم من خُلَّصهم ـ فتمنى لو كان محمد صلى الله عليه وسلم كأحدهم ، ولم يصبغ عبقريته بالصبغة الدينية الغيبية ، فلعل مجدالعرب كان إذ ذاك باقيا لهم ولم يذهب بذهاب قوة إسلامهم . وهنا يطول الكلام إذا وُفِّى بعض حقه .

لكنى أوجز القول فأسأل الدكتور : أكان يكون بيد محمد صلى الله عليه وسلم هذا القرآن لو لم يكن نبيا ، فإن أجاب بالإيجاب يلزمه أن لا يكون مؤمنا بأن القرآن كلام الله، أو على الأقل يلزم أن تكون نسبة القرآن عنده إلى محمد أصح من نسبته إلى الله ، ويلزمه أيضا أن يكون القرآن ومُنشئُه أعنى محمدا كاذبَين فى دعوى أنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، إذ لا يجرؤ إنسان عاقل على أن يقوم بمثل هذه الدعوى لأى كتاب ألفه ، لأن فى إمكان البشر أن يأتى بمثل كلام أحد منهم مهما كان مبلغه فى القدرة على إنشاء الكلام . وإن أجاب بالنفى ولم يكن نقصان القرآن من عبقرية الزعيم العربى خسارة لاتقبل التلافى، لزم أن لا يكون الدكتور مؤمنا بعبقرية القرآن إيمانَه بعقرية محمد . ثم لو لم يكن القرآن لما اعتنى بلغة العرب وخدمها مَن خدمها من علماء العرب والعجم تلك الخدمة التى لم تُخدم بمثلها أىُّ لغةِ أمةٍ فى الدنيا والتى لا يقدرها الجيل الحديث من العرب حق قدرها ، بل لو لم يكن القرآن لما كان بقاء اللغة العربية والعرب إلى يومنا هذا مضمونا ؛ وما ظنُّ الدكتور زكى مبارك بمصر : آلعرب أتوها بالعربية والعروبة أم القرآن والإسلام [1] ؟ .

---

[١] لا تجد فى العالم لغة من اللغات الراقية إلا وقد طرأت عليها تغيرات كبيرة وتطورات بحيث لا يفهم الجيل الحديث لغة الجيل القديم من نفس القوم أو يستثقلها ، إلا اللغة العربية الفصحى ، فتجد ماقيل أو كتب قبل أكثر من ألف سنة من النظم أو النثر العربى كأنه قيل اليوم أو كتب، أو أفضل مما قيل اليوم أو كتب . وهــذا بفضل القرآن الذى ثبت على ما كان عليه من لفظه المعجز لم تتبدل منه ولا كلمة واحدة، وبقيت لغة الفصحاء والبلغاء فى كل عصر غير متباعدة عن جاذبية محور القرآن، وكان من أثر تبعية الفصحى للقرآن غير منقادة للتطورات التى تقتضيها الطبيعة البشرية ، أن اتسعت مسافة الفرق فى اللغة العربية بين الفصحى الثابتة بثبات القرآن والعامية المتغيرة بتغير الزمان وأصبحت أكثر مما بينهما فى أى لغة أخرى .

فلا يستطيع عربى عاقل أن ينكر كون عبقرية محمد العربى كلها أو جلها بفضل القرآن الذى حصل عليه بفضل رسالته من الله ؛ حتى ان المنكرين لمعجزات نبينا ما وسعهم إنكار معجزة القرآن ؛ ولا يكون القرآن معجزة إلا إذا كان من عند الله ، ولا يكون من عند الله إلا إذا كان محمد رسولَ الله بالمعنى المعروف الغيبى للرسالة . وانظر فيما قاله الدكتور وتأمل جدا : « إن محمدا حرم نفسَه الشهرة بإجادة البيان وبفضل الكتاب الذى بلّغه عاش البيان [1] » .

وقال الدكتور أيضا : « وما يجوز عند جمهور المسلمين أن يقال : إن الله خص محمدا بالرسالة لأنه كان وصل إلى أسمى الغايات من الوجهة الإنسانية ولا أن يقال : إن الله اختار ذلك الرسول من العرب لأنهم كانوا وصلوا إلى غاية عالية من قوة الروح » .

جمهور المسلمين الذين عاتبهم الدكتور لا يجهلون أن الله أعلم حيث يجعل رسالته، ولكن أدب الإسلام وفلسفته لا يسوّغان دعوى الاستحقاق بين يدى الله لأى عبد من عباده، وإنما يقال إن أثاب فبفضله وإن عاقب فبعدله . فإن كان صلى الله عليه وسلم وصل إلى أسمى الغايات من الوجهة الإنسانية ـ ولا ريب فى أنه وصل ـ فقد كان وصوله إليه أيضا بفضل خاص من الله به ، وإن كان العرب اختار الله الرسول منهم لأنهم كانوا وصلوا إلى غاية عالية من قوة الروح ـ ولكن هل هو قبل إسلامهم أو مع إسلامهم

---

[١] الدكتور زكى مبارك كاتب هذا القول يجهر بتكذيب النبى العربى فى نسبة القرآن إلى الله ويعد هذا الكذب تضحية منه ، فكأن هذا الرجل الذى لايعى مايقول والذى ادعى من قبل استغناء محمد عن فضل الله عليه ، يزيد فيدعى فضل محمد على الله بالقرآن الذى عاش البيان العربى بفضله واستغنى محمد عن فضل الله عليه، أو يعد محمداً مغبوناً فى نسبة الرسالة من الله إلى نفسه ونسبة القرآن إلى الله !!

ثم إن هذا القول من الدكتور زكى يؤيد ما ذكرته سابقاً فى مغزى تخصيص معجزة القرآن بالاعتراف من منكرى المعجزات، قائلين إنها معجزة عقلية إنسانية !!

أو بعده بقليل أو كثير ؟ — وعلى كل حال إن كانوا وصلوا إلى غاية عالية فذلك بفضل الله أيضا . وقال أيضا وأنا أنقل عنه غير متتبع لترتيبه :

« أعتقد أن شخصية النبي محمد لم تدرس حق الدرس إلى اليوم فى البيئات الإسلامية، لأن المسلمين يجعلونه رسولا فى جميع الأحوال فهو لا يتقدم ولا يتأخر إلا بإشارة من جبريل ؛ ومعنى ذلك أن شخصية محمد فى جميع نواحيها شخصية نبوية لا إنسانية »

قلت: وكأن معنى قول الدكتور هذا ان نبوة سيدنا محمد تنافى إنسانيته . ثم قال:

« يضاف إلى هذا أن جمهور المسلمين يعتقدون أن النبوة لا تكتسب ، وهم يعنون بذلك أنها لا تنال بالجهاد فى سبيل المعانى الإنسانية ، وإنما هى فضل يخص الله به من يشاء . »

قلت : وهو كذلك رغم أنف الدكتور ، لأن ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن . ثم قال :

« وإنما غلبت هذه العقيدة لأن الإسلام نشأ فى بيئات وثنية أو خاضعة للعقليات الوثنية ، والرسول لم يشقَ بين قومه إلا لأنه حدثهم بأنه بشر مثلهم ولو أنه كان استباح الكذب فحدثهم بأن فيه عنصرا من الألوهية لوصل إلى قلوبهم بلا عناء » .

وأنا أقول هل قوم الرسول الذين شقِى هو بينهم ولم يصل إلى قلوبهم بلا عناء، لأنه لم يحدثهم بأن فيه عنصراً من الألوهية ، هم العرب الذين كان يقول عنهم الدكتور : « إن الله اختار الرسول منهم لأنهم كانوا وصلوا إلى غاية عالية من قوة الروح » ؟

إن المسلمين ، أيها الدكتور ، من العرب وغيرهم لو استباح النبيُّ الكذبَ فحدثهم بأن فيه عنصراً من الألوهية، لما آمنوا به نبياً . بله إيمانهم به على أن فيه شيئا من الألوهية. ولا مناسبة أصلا بين عقيدة المسلمين أن النبوة فضل من الله يختص به من يشاء من عباده ، التى هى عقيدة التوحيد الخالص ، وبين عقليات وثنية تتصور فى النبى عنصرا من الألوهية .

الحق أن المسلمين وأعنى بهم ما يعنى الدكتور بجمهورهم ممن كانوا على مذاهب الأئمة الأربعة أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد والذين أخذ أولئك الأئمة منهم، ومن كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة مثل الأشاعرة والماتريدية ومعهم كثير من غيرهم، ما أنكروا فى أي وقت من الأوقات كون النبى إنسانا ؛ وإنما الطائفة المصرية المارة الذكر ينكرون أن يكون الإنسان نبيا يأتيه وحى من الله على طريقة خاصة معلومة عند أنبياء الله الذين نعرفهم بأسمائهم المذكورة فى القرآن ، وربما يأتيه ملك أو ينزل عليه كتاب أيضا . وهذا مراد الدكتور مما عبر عنه بعنصر من الألوهية غيرَ مصيب فى تعبيره ، وإنما الرجل نفسه ومن فى عقليته يعتبرون النبوة الحقيقية عنصرا من الألوهية ويزعمون أنها لا تأتلف مع البشرية[١] . وهى عقلية قديمة جاهلية كافحها القرآن فى كثير من آياته كقوله « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ » وقوله « وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » وقد سبق أن الدكتور طبّق هذه الآية بغير حق على الذين يخالفهم من المسلمين فى العقيدة ، مع أن الآية تنطبق عليه نفسه ومن على شاكلته كما نبهنا إليه فى محل تطبيقه أيضا . فالرسول لم يشقَ بين المسلمين حين حدثهم بأنه بشر مثلهم ، كما أنه مااستباح الكذب عند ما حدثهم بأنه نبى يأتيه وحى من الله ، والذين يتصورون المنافاة بين الحالتين من الجاهليين القديمين والحديثين لم يكن خطؤهم فى أنهم ما قدروا النبى حق قدره فحسب ، بل أصل أخطائهم أنهم ماقدروا الله حق قدره كما نبه عليه القرآن الحكيم لأنهم بإنكارهم النبوة المعروفة عند المسلمين أنكروا قدرة الله على إرسال الرسل وإنزال الكتب. وانظر قول

---

[١] حتى ان النبى الذى لم يستبح الكذب حين قال لقومه إنه بشر مثلهم ، استباحه عند الدكتور حين قال لهم إنه نبى بالمعنى المعروف الذى يتوهم الدكتور أن فيه عنصراً من الألوهية وحين قال إن القرآن كلام الله لا كلامه ، انظروا إلى قوله السابق: « إن محمداً حرم نفسه الشهرة بإجادة البيان الخ » تجدوا فيه تصديق ما أقول .

القرآن الحكيم أيضا : « قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » والله تعالى أذن لاتصال الإنسان به بأن خلق فيه العقل والإدراك حتى زعم «پلوتن» الإسكندرانى أن الإنسان يتحد مع الله عند إدراك أى شىء من الأشياء . وقد تقدم بحثه فى الجزء الثانى (رقم ٢٤٥، ٢٤٧) عند النظر فى الفلسفة الحسبانية فى آخر المطلب الأول من الباب الأول . فالله الذى خلق العقل وجعله صلة بينه وبين الإنسان ، من غير أن يخرجه من البشرية ، على خلاف زعم «پلوتن» قادر أيضا على أن يجعل بينه وبين من اصطفاه من عباده صلة أخص من صلة العقل وينزل عليه وحياً أوضح من وحى العقل، من غير أن يخرجه أيضا من البشرية، على خلاف زعم الدكتور زكى وأمثاله .

هل يجوز أن تكون النبوة مكتسبة

فالنبى إنسان له اتصال خاص بالله تعالى فوق الاتصال الذى يحصل لكل عاقل عند تعقل ربه بالنظر فى أدلة الكون ، فيأتيه وحى منه ويكون إيحاؤه إليه فوق إلهام العلوم العالية للعلماء والمشروعات العظيمة للعظماء . فهذه المرتبة الإنسانية هى التى لا تُكتسب وتمتاز بكونها فضلا من الله خاصا لمن يصطفيه من عباده ، والتى يغيظ الدكتور زكى مبارك أن تكون كذلك . وليس هو أول من دارت هذه الفكرة فى خلده [1] ونحن بفضل الله نبين المحاذير المترتبة على كون النبوة مكتسبة :

---

[١] لم أرد بقولى هذا موافقة الدكتور على ما قاله من أن جمهور المسلمين يعتقدون أن النبوة لا تكتسب ، إذ المفهوم منه أن فى المسلمين من يفترق عن الجمهور ويقول بالنبوة المكتسبة ، بل فى تسميته النافين للنبوة المكتسبة «بالجمهور» إشارة إلى أنهم عامة المسلمين والقائلين بخلافه خاصتهم، مع أن القول بالنبوة المكتسبة لا يمكن إلا أن يكون قول من لا يؤمنون بالنبوة الحقيقية المعروفة فى الإسلام وفى سائر الأديان السماوية . نعم سمعت بعد مجيئى إلى مصر أن الشيخ جمال الدين الأفغانى اتهم بهذا القول فى الاستانبول وكانت صحة التهمة غائبة عنى منذ سمعت حكايتها ، فهل للدكتور =

فأولا ، يلزم على هذا التقدير أن لا يكون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، رغم كونه منصوصا عليه فى القرآن ، لأن باب الاكتساب يلزم أن يكون مفتوحا لكل طالب من أمة محمد وغيرها ، حتى إنه يلزم أن يكون فى إمكان الدكتور زكى مبارك مثلا أن يعد نفسه من المرشحين للنبوة وأن يحصل عليها كما حصل على الدكتوراهات.

وثانيا، لو كانت نبوة سيدنا محمد مكتسبة كما يريدون أى عبقرية وبطولة مجردة عن الغيبيات كان صلى الله عليه وسلم ـ وحاشاه أن يكون ـ كاذبا فى إسناد القرآن إلى الله والكذب مهما تصور العقل المصرى ائتلافه بالعبقرية والبطولة فالحق عندى كونه مخلا بهما ، أو على الأقل مخلا بكمالهما كما أنه مخل بالنبوة .

وثالثا، لم يكن منشأ اعتقاد المسلمين أن النبوة لا تكتسب هو العقلية الوثنية التى ورثوها من آبائهم كما ادعى الدكتور ، إذ لم يتخذ المسلمون نبيهم إلهاً ولم يعبدوه فى وقت من الأوقات، وليس فى عقيدة كون النبوة مرتبة تفوق مراتب الحكماء والعظماء العباقرة من الناس ولا تُنال إلا بفضل من الله واصطفاء خاص ، وتكون علامة هذا الاصطفاء من الله ما يظهره على يد النبى من خوارق نسميها معجزات ... ليس فى هذه العقيدة وفى تلك المرتبة شىء من الوثنية أو الألوهية للنبى، وإنما النبى يكون بهذه المرتبة

= زكى مبارك علم بموقف الشيخ جمال الدين من هـذه المسألة ؟ وإلا فمن ذا الذى شذ عن جمهور المسلمين عنـد الدكتور وقال بالنبوة التى تكتسب والتى يفهم أن الدكتور نفسه يفضلها على النبوة فى مذهب الجمهور ؟

وإذا كان إسناد القول بأن النبوة تكتسب إلى الشيخ جمال الدين الأفغانى صحيحاً فتعريف النبى الذى نقلته من قبل عن كتاب الشيخ محمد عبده تلميذ الشيخ جمال الدين يرمى إلى هذه النبوة المكتسبة، على الرغم من كون ظاهر كلام الشيخ التلميذ فى التعريف يأباها حيث بنى أمر النبى المعرف على الجبلة والفطرة ، لأن امتيازه فى الجبلة والفطرة غير مناف للاكتساب ، بل إنه يسعى لاكتساب النبوة ويجد من فطرته الممتازة عونا له فى اكتسابها . ولا يعقل أن يكون للشيخ التلميذ قول ثالث فى النبى غير النبى الحقيقى وغير النبى الزائف المكتسب .

عبد الله الخاص، حتى إذا أتاه ملك من الله لإنزال الوحى فليس هو أيضا إلا من عباده المكْرمين . ومنشأ السعى لجعل النبوة مكتسبة من الساعين عدمُ الإيمان بالنبوة الحقيقية التى عرّفناها واستكثارُ تلك الرتبة للبشر ، حتى رموا عقيدة النبوة الحقيقية بالعقيدة الوثنية، كما استكثر إخوانهم المتقدمون من جهلة أقوام الأنبياء فقالوا « إن أنتم إلا بشر مثلنا » . فيريد دعاة النبوة المكتسبة أن يجعلوا النبوة مِلكا مشاعا بين المجتهدين فى استجماع الأوصاف اللازمة لإرشاد الناس واقتيادهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم . ولا يُظن أن المقصود من رغبتهم فى أن تكون النبوة مكتسبة محاولةُ فتح الطريق أمام المستعدين لإحراز مرتبة النبوة من الناس العاديين ، بل المقصود تنزيل الأنبياء إلى درجة الناس العاديين بتجريدهم عن المعجزات وغيرها مما يخالف سنة الكون .

ورابعا ، بماذا يعلم أن الساعى لاكتساب منصب النبوة قد بلغ مسعاه وأصبح نبيا من أنبياء الله ؟ بماذا يعلم الناس ويعلم هو نفسه قبلهم ؟ وليس لنبوته علامة يقتنع بها فى نفسه كنزول الوحى ولا علامة تُقنع الناس مثل ظهور معجزة على يده ، لأن أنصار النبوة المكتسبة لا يعجبهم الأمور الخارجة عن سنن الكون ، وقد قلنا إن النبوة نفسها بالمعنى الذى نريده ، معجزة خارجة عن سنن الكون ، فلهذا لا تعجب الذين لا يعجبهم المعجزات . وقد يكون أساس الخلاف فى مسألة النبوة والمعجزة أعمق من هذا : وهو أن الدين يستند إلى الأسرار والمغيبات ، ولهذا جعل الله تعالى فى رأس أوصاف المهتدين بهدى كتابه ، الإيمانَ بالغيب فقال : « الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » . ومن شنيع الخطأ أن يحمل الغيب على مايقابل الواقع كما فعل الأستاذ فريد وجدى بك فى إحدى مقالاته فى « مجلة الأزهر » وقد سبق نقله ، بل المراد به ماغاب عن الحاسة كالملائكة والجن والوحى وأحوال الآخرة من البعث والنشور والحساب والثواب والعقاب

قبل وقوعها ، وكالمعجزات فى كيفية وقوعها غير مستندة إلى الأسباب الطبيعية. وأعظم الغيبيات الله سبحانه وتعالى .

فالنبوة اتصال الإنسان بهذه الغيبيات التى لا يحيط بها نطاق الطبيعة . ومن هذا قال « استوارت ميل » من لا يؤمن بوجود فوق الطبيعة ولا بتدخله فى شئون العالم لا يقبل فعل إنسان خارق للمادة على أنه معجزة ويؤوله مطلقا بما يخرجه عن كونه معجزة » .

وخامسا ، من أهم الفروق بين النبي الكاسب والنبي الموهوب له أن الأول يخطئ ويصيب والثانى لا يخطئ أبدا فيما بلغه عن الله ، وإن أخطأ فى اجتهاده فلا يستقر على الخطأ من دون أن ينبه عليه . والدكتور زكى مبارك أطلق القول ورماه على عواهنه من غير تمييز بين الأحوال المختلفة فقال : « كان محمد فى سريرة نفسه إنسانا يخطئ ويصيب بدليل ما وجه إليه من اللوم والعتاب فى القرآن » .

وسادسا ، النبي الحقيق المعصوم عن الخطأ المؤيد بالوحى والمعجزات التى هى علامات رسالته من الله وامتيازه على الناس ، للناس حاجة إليه ليهتدوا بواسطته إلى الطريق التى يحب الله ربهم أن يسلكوها وإلى نوع العبادة التى بها يعبدونه . وليس لأحد غير هذا النبي أن يعين بالضبط تلك الطريق وذلك النوع مهما كان مبلغه من العلم والحكمة، فالعلماء والحكماء يمكنهم أن يضعوا للناس مناهج الأخلاق ومبادىء الأفكار ويبينوا لهم وظائف نحو الخالق والخلق ، ولكن لا يكون أى واحد من هذه المناهج والمبادىء دينا . وإنما الدين يأتى من الله ويبدأ بالنبي كما قال العالم الكبير مترجم كتاب بول ژانه[1] فلا دين قبل مبعث النبي ولا يوجد دين فلسفى وإن وجدت

[١] كتاب جليل فى تاريخ الفلسفة ترجم قسم ماوراء الطبيعة منه إلى اللغة التركية هذا العالم الكبير التركى الملقب حمدى الصغير الذى قلما كان يوجد مثله فى عالم الإسلام والذى فجعت بنبأ وفاته قبل سنين ولقد مات رحمه الله غريباً فى بلاده حيث لم يبق لها اليوم علاقة بمثله من علماء الإسلام، ومن الغريب المؤسف أن مصر لم تتعود معرفة نوابغ العلماء من غير أهلها ، لاسيما الترك ، وقد نقلنا فى كتابنا هذا شيئا كثيرا من ذلك الكتاب القيم .

فلسفة دينية . فإذا جاء نبي وأعلن الدين فليس لأحد أن يستغنى عن الاعتراف به ، فهو كقانون الدولة يطيعه العامة والخاصة . وما ادعاه الأستاذ فريد وجدى بك فى كتابه « الإسلام دين عام خالد » أن علماء الغرب غير محتاجين إلى الاهتداء بهدى الشرائع المنزلة بحجة أنهم أنفسهم واضعو الشرائع والمذاهب ، مبنى على مذهب النبوة المكتسبة اللادينية وإنكار النبى الحقيق المبعوث من قبل الله الذى يكون وضع الدين من اختصاصه فقط . فعلماء الغرب حتى الإلهيون منهم الذين لايعترفون بالأنبياء والذين يهملون فى فلسفتهم مبحث النبوة، لادينيون على الرغم من أن لبعضهم أفكاراً عاليةفى الإلهيات . وقدذكرت فىأوائل الباب الأول من هذا الكتاب (الجزءالثانى ص١٩)أن لكون دينهم الرسمى النصرانية أثراً فى إهمالهم مبحث النبوة ، لأن النبوة فى هذا الدين أخرجت عن ماهيتها الأصلية ولُبّست بالألوهية فأضيعت معقوليتها . ومع هذا كان واجبهم البحث والتفكير فى مسألة النبوة على إطلاقها ، ولا يُعذرون فى السكوت عنها لمانع خاص لنبوة سيدنا عيسى عند المسيحيين ، لاسيما والدين السماوى فى الدنيا لا يبتدىء بالدين المسيحى فله تاريخ قبل المسيحية وأنبياء قبل المسيح . فماذا قول فلاسفة الغرب فى نبوة هؤلاء الأنبياء التى لا تشبه نبوةَ عيسى عليه وعليهم السلام والتى يلزمهم أن يصدقوها إن لم يصدقوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالغيرة المسيحية ، فماذا قولهم فى تلك النبوات وماذا موقفها فى فلسفتهم إن لم يكن محل فى الفلسفة لنبوة المسيح على الشكل الذى يتصوره المسيحيون ؟ فلو نظروا فى نبوات الأنبياء ودرسوها لإعطاء حقها فى الفلسفة بعدالفلسفة الإلهية لكانوا أدوا واجبا من واجباتهم ، وربما أصلحوا بفضل درسها ما طرأ على نبوة المسيح فى عقيدة النصرانية من الغلو المفسد للنبوة والألوهية معا . فيظهر أنهم رأواأنفسهم فى حالة الاضطرار بين رفض المسيحية الحاضرة وإنقاذ النبوة أو رفض الجميع أو إهماله الذى هو الرفض أيضا لكنه فى رفق وهوادة ، فاختاروا الأخير . فلو كان دين فلاسفة الغرب الإلهيين الإسلام لماوقعوا فى هذا المأزق،

أو لو كانوا مستغنين عن اتباع شرائع الأنبياء كأنهم أنفسهم ليسوا دون الأنبياء كما ادعى الأستاذ فريد وجدى ، لما أحجموا عن المصارحة فى إحقاق الحق وإبطال الباطل كما هى دأب الأنبياء .

هذا حال الفلاسفة الإلهيين فى الغرب الذين لا معنى لعدم اعترافهم بوجود رسل الله بعد الاعتراف بوجود الله غير المعنى الذى ذكرته . أما الأساتذة المصريون منا فقيهم من يقلد ملاحدة الغرب الماديين ولا يعترف بوجود الله ، والمعترفون به لا يعترفون علميا، فيفترقون عن الإلهيين الذين يعتبرون مسألة وجود الله فى رأس المعلومات المثبتة كما سبق قول العلامة « باستور » فى ذلك وقول الفيلسوف الكبير « ديكارت » : « إن الله مبدأ العلم كما أنه مبدأ الوجود » ويقلدون الإلهيين فى مسألة النبوة فلا يعترفون بالأنبياء مع وجود الفارق بين موقفهم وموقف الذين اقتدوا بهم . فكل تعللهم وتلعثمهم فى مبحث النبوة كإنكار المعجزات مطلقا تحت ستار إنكار المعجزات الكونية وميلهم إلى النبوة الكسبية أو النبوة الإنسانية التى لا تخرج على الطبيعة ؛ كل ذلك منشأه عدم الاعتراف بالأنبياء مع الظهور فى مظهر الاعتراف . إذ لا معنى للقول بوجود الأنبياء مع تجريدهم عن المعجزات ؛ وقد عرفت معنى اعترافهم بمعجزة القرآن ، فلو كانوا صميميين فى القول بوجود الأنبياء لما فرقوا بين معجزة كونية وغير كونية إلى حد الطعن فى معجزات الأنبياء المتقدمين من أجل أنها معجزات كونية والطعن فى سنة محمد صلى الله عليه وسلم المضبوطة فى كتب الحديث ، للاحتفاظ بسنة الكون ، وهذا خلط منهم للمذهب الإلهى بالمذهب المادى ورجعة إلى النزعة الإلحادية بعد الاعتراف بوجود الله وأنبيائه ، فلو أن القائلين بوجود الله من فلاسفة الغرب اعترفوا بوجود الأنبياء لما ترددوا فى الاعتراف بمعجزاتهم كونية وغير كونية ، إذ لا مانع بعد القول بوجود الله من تدخله فى الكون وإحداث تغيير وقتى فى سنته لتأييد أنبيائه .

فنحن لا نرى فرقا بين إنكار الأنبياء بتاتا وبين الاعتراف بهم مع إنكار معجزاتهم التى تتعدى حدود نظام الطبيعة والتى هى طوابع رسالتهم من الله المسيطر على الطبيعة ونظامها . والذين ينشدون أنبياء طبيعيين فكأنما يريدون أن تكون رسالتهم من الطبيعة لا من الله ، انظر قول الدكتور طه حسين بك فى مقالته النفيسة المنشورة فى مجلة « الثقافة » بعنوان « القلب الرحيم » :

«وما رأيت أعجب من أمر محمد صلى الله عليه وسلم فيما رأيت وما علمت من أمور الأنبياء رجل كان يطالبه خصومه وأعداؤه بالمعجزات فيتبرأ منها ويعلن إليهم أنه بشر مثلهم [١] وأنه لم يرسل ليبهر العقول بالأحداث العظام ، وإنما أرسل ليتلو على الناس قرآنا يتحدث إلى عقولهم فيملأها هدى ويتحدث إلى قلوبهم فيشمرها رحمة وبرا ، ثم لا يخلو أمره من هذه المعجزات التى تبهر العقول وتسحر الألباب دون أن تحدث فى طبيعة الأشياء حدثا أو تتجاوز بعادات الناس الجارية طريقها المألوف [٢] ، إنما هى معجزات ممتازات يراها الناس مألوفة يسيرة ويراها المفكرون نادرة باهرة ومقنعة مفحمة للمكابرين » .

فكأنه يتعجب من أمر محمد صلى الله عليه وسلم فى كونه نبيا لا يشبه الأنبياء وفى كون معجزاته لا تشبه المعجزات ولا تخرج عن مألوف العادات [٣] وهذا أوضح تعريف للنبى الطبيعى يذكره كتابنا المصريون ميزة لنبينا على غيره من الأنبياء ويسوقونه فى صدد المدح ، فكأن النبوة كانت على خلاف الطبيعة فى الأنبياء حتى أصبحت فى نبينا طبيعية . لكن عيب المخالف للطبيعة عندهم أنه مستحيل الوقوع ، وهو يتضمن الطعن فى نبوة غيره من الأنبياء طعنا لا يرضاه الإسلام لكون نبوتهم مكفولة من القرآن . وفضلا عن ذلك فإن هذا الطعن وذاك المدح إنما يكونان طعنا ومدحا على

---

[١] سنجيب عنه . [٢] يذكرنا قول الشيخ محمد عبده المنقول قريبا فى هامش الصفحة ١٢٨

[٣] وكأن معجزاته ما يعبر عنه عند الأدباء بالسهل الممتنع كأسلوب الدكتور طه حسين بك فى كتاباته !!

مزاج الملاحدة الماديين القائلين باستحالة مايخالف سنة الطبيعة؛ حتى إذا سمعه المستشرقون المسيحيون انقلب القدح فى نظرهم مدحا والمدح قدحا واعترافا من كتّاب المسلمين بعدم كون محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، لأن النبى الحقيق لابد أن يكون له حالة يضيق عنها نطاق الطبيعة وتتعداها إلى مافوقها، لتكون علامة رسالته من الله ويكون الذين يتبعونه على بينة من أمره . وما دامت هذه الحالة ممكنة للنبى بإذن الله فى نظر المعترفين بوجود الله فماذا السبب الدافع للمصريين إلى التزام تجريد النبى عن الحالة المميزة ؟ ولا يقال إن أفعاله المصلحة ونتائجها الصالحة تكفيانه ميزة وعلامة . وهذا هو السؤال الذى كنت أوردته على نفسى قبيل الشروع فى انتقاد أقوال الدكتور زكى مبارك، ثم لم أذكر جوابه، والآن أذكره : وهو أن الصلاح والفساد كثيرا مايختلفان باختلاف الأنظار ، فالحكم القطعى بصلاح الأفعال ونتائجها يتوقف على معرفة أن فاعلها مصلح حقيق ونبى من أنبياء الله ، فلو توقفت معرفة كونه نبيا أى مصلحا حقيقيا على تبين الصلاح فى أفعاله ونتائج أفعاله كان دورا . وفضلا عن هذا فإن بُعد مابين المشروعات ونتائجها يقتضى فى الأكثر مرور أزمنة طويلة قد يظهر فى آخرها أن القائم بدعوى الإصلاح كاذب فى دعواه . فيجب على الناس أن يكونوا من أول أمرهم مع مدعى النبوة الذى يتولى هدايتهم إلى الدين الحق ، على بينة من صدقه فيما ادعاه .

فالقاعدة المتخذة للناس مع النبى الحقيق المرسل إليهم من قبل الله أن يبحثوا فيه عن علامة من الله تدل على رسالته إليهم ، وهذا مما لا يجوز أن يشك فيه العاقل إن كان لله رسل وأنبياء حقيقيون وكانت للناس حاجة إلى وجودهم . فهل هم موجودون ، وهل للناس حاجة إليهم ؟ فلننظر الآن فى هذه المسألة، وبالنظر فيها نكون قد أدينا الواجب الثانى من الواجبين الرئيسيين اللذين تولينا القيام بهما فى هذا الكتاب مستعينين بتوفيق الله سبحانه وتعالى ، وذلك الواجب الثانى هو إثبات وجود أنبياء الله .

إثبات وجود الأنبياء

وجود الأنبياء إن لم يكن ضروريا ـ كما قلنا فى أول هذا الباب ـ كضرورة وجود الله فى إيضاح فلسفة العالم بجميع أجزائه ؛ إلا أن للنبوة أيضا أهمية كبيرة فى إيضاح فلسفة الإنسان الذى هو جزء من أجزاء العالم ، أهمية تجعلها جديرة بأن تعد من المطالب الفلسفية ، ولاشك أن النبوة إنما تتصور بعد مطلب الألوهية وتنبنى تماما على الاعتراف بوجود الله .

فإذا كان الله موجودا وهو خالقنا وخالق كل شىء ، كان أول واجب الإنسان التفكير فى أن خالقه لا يتركه سدى ، لاسيما وقد خلقه ممتازاً على سائر خلقه بالعقل والإرادة ، فيلائم عقله الذى به وجد ربه واستدل على وجوده كل الملاءمة ، أن تكون عليه واجبات تجاه من خلقه . لكن العقل لا يستطيع تعيين هذه الواجبات بالضبط والتفصيل ، لاعقل أحد يفكر فى نفسه ولا عقول العلماء والحكماء الذين يختلف آراؤهم ومذاهبهم فى تعيين الحق والباطل والخير والشر [1] فلا يُدرى أيها يوافق مرضاة الله من تلك الآراء والمذاهب المختلفة . ولا يصدّق العقل أن يكون الحق والصواب فى رأى الكثرة لأن هذه طريقة برلمانية لا تغنى من الحق شيئا ، ألا يرى أن التحقيق والترجيح فى المسائل العلمية لا يبنى على عدد الأصوات والآراء . ولو استقر القرار على أن يعمل كل إنسان بما يؤدى إليه فكره واجتهاده كان فوضى . فى وسط هذه الحيرة والتردد يحس الإنسان من صميم قلبه بالحاجة إلى رسول من عند ربه يسدد خُطاه ويبلغه أوامره ونواهيه ، فهو وحده يكون كمندوب رسمى من جانب الملك يحمل مرسومه من بين المندوبين من تلقاء أنفسهم .

---

[١] ومن هنا يرد اعتراض قوى على تعريف النبى بما عرفه الشيخ محمد عبده وقد نقلناه سابقاً من أنه إنسان فطر على الحق علما وعملا أى بحيث لا يعلم إلا حقاً ولا يعمل إلا حقاً ؛ فيقال من أين يعلم وبأى شىء يثبت كونه لايعلم إلا حقاً ولا يعمل إلا حقاً ، فثبوت هذا إنما يكون بتجربة حياته من أولها إلى آخرها ثم اتفاق الآراء على تصديقه فى كل ما يعلم وما يعمل أو بثبوت كونه نبيا . والأول غير ممكن والثانى مُستلزم للدور .

ومهما كان يوجد فى غير حامل الرسوم من هو أهل ، أو بالأصح من يرى نفسه أهلا لأن يقوم بما عهد الملك إلى حامل مرسومه أن يقوم ، فلا يعتبر مندوبَ الملك ولايجب على الناس أن يعترفوا به مندوبه ؛ فكذلك النبى الذى يراه منكرو المعجزات فى غنى عن تأييد نبوته بالمعجزة الخارقة لسنن الكون والذى لا يجاوز به معرفوه المصريون إلى ما فوق العبقرى فى الصلاح والإصلاح والكمال والتكميل، لئلا يبلغوا بميزته إلى ما وراء السنن الكونية ؛ فهذا النبى لايكون نبى الله ورسوله رسميا كرسول الملك الحامل لرمزه، لأن رمزالله ووسامه على رسوله هو معجزته الخارقة لسنن الكون الطبيعية والتى لا توجد عند النبى الطبيعى ولا عند صاحب النبوة المكتسبة . وكل ما عدا المعجزة ليس برمز للنبى الحقيقى مهما أعظمه الكتّاب المصريون ، فهم على الرغم من أنهم يكتبون فى النبى وحياة النبى لايعرفون موضوع ما يكتبون، أو يحيدون عنه عمدا [١] لأن الكلام فيمن بعثه الله إلى الناس كما بعث الملك مندوبه وعامله [٢] مع أن الذى يقدمه أولئك الكتّاب لنا على أنه نبى الله ليس بنبيه الحامل لرمزه الرسمى ، وإنما هو من يرونه أهلا لأن يكون نبى الله ، كالذى يراه بعض الناس أهلا لأن يكون

---

[١] فهل أولئك الكتاب يكتبون حياة محمد صلى الله عليه وسلم ليؤمن الناس بأنه عظيم من عظماء البشر أو بأنه نبى من أنبياء الله ؟

[٢] وكل مايأتى به النبى من الأفعال الطبيعية العظيمة غير المعجزة ويعجب العصريين أكثر من المعجزة فهو لايصلح أن يعتبر رمزاً قطعى الدلالة على أنه نبى الله، لكونه من جنس مايفعله البشر مهما كان مبلغه من الخطورة . وقد قرأنا بكل استغراب فى « مجلة الأزهر » من الأستاذ فريد وجدى بك أنه كان يحاول أن يستخرج من انتصار أهل بدر على قلتهم البعيدة عن كثرة المشركين، معجزة، ويترك المعجزة الحقيقية التى نطق بها القرآن من إمداد المسلمين بآلاف من الملائكة، وتقليلهم فى أعين المشركين أولا ثم إراءتهم مثليهم رأى العين، وإليه يشير قوله تعالى « وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا » وقوله « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء » .

مندوب الملك وليس بمندوبه فعلا . وكذلك من يرشحونه للنبوة من غير معجزة ومن غير أمر من الله أتاه بطريقة مخصوصة تختلف عن طريق ما يأتى العاقلَ العبقريَّ من عقله ، لأن هذا الرسول رسول عقله لا رسول الله وإن كان العقل أيضا رسولا من الله فى الإنسان ، فذلك العبقرى إذن رسول رسول الله لا رسـول الله مباشرة وبطريقة خاصة ، حتى إن مدعى النبوة من مثله بالإضافة إلى الله يكون كاذبا فى دعواه، وحتى إن الأنبياء المعلومين بأسمائهم صلوات الله وسلامه عليهم وفيهم نبينا صلى الله عليه وسلم لو كانوا أنبياء كما يتصوّر الـكتّاب المصريون ويُعجَبون بهلزم أن يكونوا كاذبين فى دعوى النبوة وأن يكون كذبهم معلوما عند هؤلاء الـكتّاب، لأن ما ادعاه الأنبياء لأنفسهم ليس من جنس ما يتصوره هؤلاء لهم ويُعجبون به منهم . فماذا يقولون فيما بلغه نبينا صلى الله عليه وسلم عن الله قوله مثلا « كتاب أنزلناه إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » وقوله « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » هل عندهم نزل على النبى كتاب من الله كان يقرؤه الله على النبى والنبى يتبعه فى قراءته ؟ كتاب يتوعد الله من قال عنه: « إن هذا إلا قول البشر » فيقول : « سأصليه سقر وما أدراك ما سقر » بل يتوعد فيه نبيَّه قائلا : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » كتاب إذا قال الذين لا يرجون لقاء ربهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله يقول النبى: « ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون »

هل نزل عليه حقيقةً كتاب من عند الله ؟ فإن كان نزل ولم يكن النبى كاذبا فى إسناد هذا الـكتاب إلى الله، وحاشاه أن يكون كاذبا ، كان معجزة خارقة لسنة الـكون وخارجا عن الحدود الطبيعية التى رسمها أولئك الـكتّاب للنبى ، ولهذا ترى معالى

الدكتور هيكل باشا فى مقدمة الطبعة الثانية لـكتابه (ص ٤٢) يقع على الرغم من إنـكاره المعجزات الـكونية فى حيرة بشأن الوحى فيقول : « إن العالِم النزيه القصد إلى الحق لا يستطيع أكثر من أن يقول إن ما وصل إليه العلم حتى هذا الزمان يقصر دون تفسير الوحي على الطريقة العلمية المادية » .

الحاصل أنه بعد ثبوت كون الله موجودا لا بد من وجود الأنبياء المبلغين عن الله ولا بد أن تكون إضافتهم إلى الله مضمونة بوجود معجزات لهم خارجة عن نطاق القدرة البشرية .

ثم إنه يُرى أناس الخير وأناس الشر فى الدنيا ربما لا يلاقون ما يستحقونه ، حتى لو فرضنا أن الإنسان يعلم واجباته بعقله ويستطيع تعيين حدود الخير والشر، فهو لا يقدر على وقف كل أحد عند حده، حتى الحـكومات لا يستطعن ذلك حق الاستطاعة ؛ وقد يلتبس عليهن الأخيار والأشرار فتعجز المحاكم العدلية عن إحقاق الحقوق وقد تكون هى مضيعتها عمدا وتُعين الظالم على المظلوم . فلا بد بعد هذه الحياة الدنيا من حياة ثانية تُستدرك فيها نقائص الحياة الأولى وتطمئن قلوب أهل الفضيلة بتوقع ملاقاتها ؛ حتى إن الفيلسوف « كانت » استنبط دليل وجود الله من لزوم الحياة الثانية ولزوم مجىء يوم الدين ليكون مالكَ ذلك اليوم وحاكمه ، وعده أقوى أدلة وجود الله كما سبق فى آخر الباب الأول من الـكتاب ، وقد كنا نحن انتقدنا عليه ذلك ؛ فهذا الذى لا نراه كافيا فى إثبات ذاك المطلب الأكبر أحسنُ دليل عندنا وأولاه على إثبات رسل الله، حيث تشتد الحاجة إلى وجودهم ليعلّموا الناس سبل الفلاح والنجاح فى يوم الدين ولا تتفرقَ بهم السبل على أيدى الرسل الفضوليين رسل المنكرين للمعجزات والرسالات الخارجة عن نطاق الطبيعة . فلئن كان الناس مسؤلين فى النشأة الثانية عن أعمالهم فى الدنيا كما هو المجزوم عندنا وعند الفيلسوف « كانت » فوجود رسل الله الذين يوثق برسالاتهم ووجود المعجزات المعرّفة لأشخاصهم ، يكون مقتضى العدل الإلهى : قال

تعالى « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » فإذا كان الله موجودا وجعل للإنسان حياة أخرى يحاسبه فيها على أعماله فى الحياة الأولى ، كان إرسال الرسل إليهم كالضرورى إن لم يكن ضروريا ضرورة وجود الله لوجود العالم.

فأول ما يكون ثبوته ضروريا على طريقة الفيلسوف « كانت » لحفظ الأخلاق عن الانهيار وصيانة حقوق الفضيلة من الضياع الأبدى ، هو وجود البعث بعد الموت ، ويأتى عنده ثبوت وجود الله بعده مبنيا عليه ؛ ويأتى عندنا بعد ثبوت وجود الله ووجودِ البعث ـ أيا كان الأول ثبوتا ـ وجودُ الأنبياء ، فلا ينفك وجودهم على كل حال عن ثبوت وجود النشأة الأخرى . والعجب أن فلاسفة الغرب المؤمنين بالله يؤمنون بالحياة الآخرة أيضا ويعتبرونها من المطالب الفلسفية ثم لاينتبهون إلى الاتصال الظاهر بين وقوع الحياة الآخرة ووجود الأنبياء ؛ أفلا يكون جزاء الإنسان فى الآخرة من غير إرسال رسول يبلغه ما يجب عليه أن يفعله فى الدنيا أو يتجنبه ، كمؤاخذة حكومة من الحكومات شعبها بعمل لم يسبق منها النهى عنه أو بترك عمل لم يسبق منها الأمر به ؟ وقول القائل : ليكف كلَّ إنسان عقلهُ رسولا ، لايلتفت إليه كقول القائل : ليجد الشعب بعقله ما تريد الحكومة أن يفعله الشعب وما لا تريد ، من غير قانون ينص على الواجبات والمحظورات : ولا أصدق قيلا من الله القائل : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

* * *

لما بلغ طبع هذا الكتاب إلى بابه الثالث الذى نشر من قبل على شكل كتاب مستقل باسم « القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » كما ذكرته وسببَه فى أول الباب ، ولزم اليوم تجديد طبعه لوضعه إلى محله من الكتاب ـ أرسلت إلى المطبعة نسخة من النسخ المطبوعة مع بضعة أوراق تضاف إليها فى الطبعة الثانية ؛ وتبين أخيرا أن ورقتين من تلك الأوراق ضاعتا بين المطبعة وحامل النسخة إليها ،

وكان محلهما تقريبا بحث النبوة المكتسبة الذى أوشك أن ينتهى هنا ، فرأيت أن أكتبهما واستخراجهما من ذاكرتى الضعيفة التى لا تزال تحفظ موضوعهما على الأقل .

فقد كانت أولى الورقتين تتضمن نقلا عن فضيلة الأستاذ عبد القادر المغربى فيما قرأته ونسيت الآن مرجعه ، أنه ذكر الشيخ جمال الدين الأفغانى واتهامه لما كان فى استانبول ، من علمائها بأنه قال فى خطبة ألقاها فى حفلة من الحفلات : «إن النبوة كانت فى الأزمنة القديمة [أزمنة الأنبياء] اتخذت صنعة من الصنائع » وكان والد الأستاذ الحاكى يومئذ فى استانبول حاضرا فى الحفلة ومشاركا للسامعين فى اتهام الخطيب ، حتى كتب رسالة فى الرد عليه . وفضيلة الأستاذ الحاكى يدافع فى النهاية عن الخطيب بعدم معرفة أبيه اللغة التركية التى كانت لغة الخطبة ، فكان صنيعه اتهام أبيه لإنقاذ الشيخ جمال الدين ، وهو دفاع لا يخلو من الغرابة . أما اتهام علماء الآستانة باختلاق هذه المسألة من عندهم افتراء على الخطيب كما يعتقده كثير من الكاتبين بعصر عن الشيخ جمال الدين ، فهو أبعد . وقد قرأت فى « أخبار اليوم » بمناسبة مرور ملك الأفغان أخيرا بالقاهرة فى طريقه إلى بلاده عائدا من أوروبا : « أن علماء استانبول حكموا بكفر الشيخ جمال الدين لشربه الدخان» وهو دليل على أن فى مصر كتابا يستبيحون فى قضية جمال الدين مالا يستباح من سخف القول .

أما ثانية الورقتين فكان موضوعها سؤالا ربما يرد على بعض الأذهان : لماذا ظهر الأنبياء كلهم بين أمم الشرق ، ولم يظهر نبى واحد بين الغربيين ، أليس فى هذا تصديق ماقاله الأستاذ فريد وجدى بك رئيس تحرير مجلة الأزهر من أن علماء الغرب مستغنون عن الاهتداء بقوانين الأديان المنزلة من السماء ، من حيث ان أولئك العلماء أنفسهم قادرون على وضع القوانين وواضعوها فعلا ؟

وجواب هذا السؤال أن عدد الأنبياء لا ينحصر فيما نعرفهم بأسمائهم المذكورة فى القرآن وغيره من الكتب المقدسة ، كما قال الله تعالى فى سورة النساء بعد ذكر أسماء

من الأنبياء : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما » فيمكن فيما لم يذكر فى تلك الكتب ولم يطلع عليه التاريخ أن يقع بعث نبى أو أنبياء فى الماضى القديم بين الأقوام الغربية أيضا . ثم إن أمم الغرب كانوا فيما نعلم ويعلم التاريخ من ماضيهم البعيد ، بعيدين عن المدنية اللازمة لأن تكون أى أمة صالحةً لاستقبال نبى يبعث إليها قابلة لخطابه ، حتى إن العلم والفلسفة وما ينطويان عليه من المدنية انتقلت إلى الغرب من الشرق .

وفى الماضى القريب جاء نبى الإسلام مبعوثا إلى الناس كافة شرقيهم وغربيهم : ثم قطع الغرب مراحل كبيرة فى الرقى حتى أصبح مغبوط الشرق فى التقدم والتمدن ، لكن مدنيتهم كانت مادية ودنيوية خالصة غير مقترنة بالرقى الروحى المعنوى ، بل مدنية فاجرة ومستهترة إلى حد أنهم يحتضنون نساءً أشباه عاريات فيراقصونهن فى الملأ من غير أن ينبض فى قلوبهم ووجوههم ووجوه الراقصات فى أحضانهم عرق من الحياء، ومن غير أن يحصل فى قلوب الحاضرين المشتملين فى الأكثر على أقارب المحتضنات، شىء من الأذى والاشمئزاز .. فلهذا لم ينفعهم أى الغربيين رقيهم فى التنبه والتقرب إلى الدين الجديد ، النزيه الذى دعا إليه نبى الإسلام، بل أبعدهم عن الدين مطلقا ذلك القانون الذى وضعوه دستورا لعلمهم الراقى ، القائل بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به، لأن الدين يكون فى الأكثر مبنيا على الغيب .

كانت مدنيتهم وعلومهم واكتشافاتهم فى العلم دنيوية محضة تهدف إلى اكتساب الدنيا والتنعم بمنافعها وملاذّها تاركين وراءهم الدين والآخرة، فلذا نرى أعظم حكومات الدول المدنية فيهم اقتصرت ديانتها على المظاهر والمراسم ، ونرى (أوجست كونت) زعيم الفلسفة الوضعية التى تعد أرقى فلسفة فى الغرب وتُعجب العصريين من مثقفى الشرق ، يتصور للإنسان ثلاث حالات وأطوار أولاها وأدناها المحكوم عليها بالزوال الحالة الدينية، وأخراها التى هى الحالة الكمالية الباقية الاشتغال بتدقيق الطبيعة وقوانينها .

وترى اسپنسر الذى كتب له على تعبير « قصة الفلسفة الحديثة » أن يكون أشهر فيلسوف انكليزى فى القرن التاسع عشر ، يقيس الأخلاق بمقياس الفوز والنجاح فى الحياة ، فيوصى باختيار الأوفق منها لمزاج الحياة والعادات المختلفة باختلاف الأمم والزمان والمكان.

فمن هذه الأسباب بقيت أمم الغرب المتقدمون فى كسب الدنيا ، متأخرين جدا فى الدين ، فعقلاؤهم تخلوا عنه بالمرة لعدم اتفاق دينهم مع العقل وكون عقلهم المقيد بالعلم المحسوس قاصرا عن إدراك وجوب البحث عن الدين المعقول . ولا يندر فى عقلائهم اللادينيين مَن تخلى عن العقل أيضا ، ألا يُرى إلى هيجل الفيلسوف الريبي الذى أنكر مبدأ التناقض وفضله أحمد أمين بك (راجع ص ١٢٥ من الجزء الثانى) على كانت وسمى فلسفته « حقيقة هيجل العليا التى تنسجم بالمتناقضات » .. تراه يتخلى فى فلسفته هذه (العليا)! عن العقل ، كما تخلى عن الدين الذى لا يجتمع مع الريبية المنافية للإيمان ، ومع ذلك فهذا الرجل اللادينى الذى لا يخاف التناقض ، يمدح النصرانية لما فى تثليثها المفسر بكون الله واحدا وثلاثة معا ، من التناقض. فحال عقلاء الغرب اللادينيين يُفهم من هذه الأمثلة. ومتدينوهم أخلدوا إلى دين محرف عن أصله ورثوه من آبائهم القدماء لا صلة له بالعقل كما لا صلة له بأصله الذى بلغه سيدنا المسيح وكما لا صلة لهم أنفسهم بالتفكير فى هذه النقاط المهمة ، وهم العامة . أما عقلاؤهم أى المتدينين المدركون لعدم اتفاق النصرانية مع العقل فيعتذرون عن هذا بادعاء كون الدين فوق العقل (ص ٢٠ جزء ثان) حتى إن ديكارت أعظم فلاسفة الغرب وأعقلهم صدّق هذه الدعوى فى قوله « ولما كانت الحقائق الدينية بطبيعتها غير مفهومة وجب أن تكون بعيدة عن متناول العقل » (ص ١٠١ جزء ثان) ولم يدرك عقله الكبير أن ذلك الادعاء يضر العقل والدين معا ولا ينفع الدين ، ويكون ديكارت ملتحقا فى تصديقه هذا بالمتخلين عن عقولهم ، والذى هو فوق العقل وفوق كل شئ صاحب الدين وواضعه أعنى الله الذى فرض الدين على خلقه المكرمين بالعقل . فعقلاء المتدينين فى الغرب يحاربون العقل ويستهينون به دفاعا عن دينهم كما استهان ملاحدتهم بالدين .

فمن هذه الأسباب التي أحصيتها وأوضحتها تأخر الغرب الراقى جد تأخر فى الدين وابتعد بُعد المشرقين عن التنبه والخضوع للدين المعقول، وبقى عدوا للإسلام بدلا من أن يعتنقه ويتقرب إليه . فأثبت عدم كونه أهلا — رغم رقيه — لأن يكون أمة نبى اتفق زمانه مع زمانه واتفق دينه مع عقله ، فضلا عن أن يكون أهلا لبعث نبى من أهله يدعو الناس إلى الحق ، ولو كانت النبوة صنعة وتجارة كان أعظم الأنبياء يتخرج من بلاد الغرب.

ومما يدل دلالة واضحة على انهماك الغرب الراقى فى معاداة الدين ومعاندته ، — لا سيما الدين المعقول — أن ويلسون رئيس جمهور الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق قرر فى نهاية الحرب العالمية الأولى التى اشتركت فيها تركيا وغُلبت مع زملائها ، قرر وضع تركيا تحت الانتداب (ماندا) بحجة أنها كانت تدار يومئذ بالقوانين المأخوذة من الدين ، ثم لعبت سياسة الإنكليز التى هى أدق وأمكر ، دورها — حتى فى مجازاة أعدائها — على محافظة استقلال تركيا إلى حد استخراج دولة غالبة منها وهى مغلوبة مع زملائها ، إعلاءً لاسم مصطفى كمال لتأخذ بيده ثأرها التاريخى عن تركيا المسلمة المجاهدة فى سبيل دينها وتقضىَ بهذه اليد على جميع معالم المقومات والمشخصات منها إلى أن أصبحت الترك المقطوعة الصلة بتاريخها ، أمةً غير أمتها وانقلب فتح تركيا لأعدائها الغالبين فى الحرب ، إلى فتح الترك نفسها بدلا من بلادها.

أما ما ادعاه رئيس تحرير مجلة الأزهر وذكرناه فى نهاية السؤال الذى طال جوابه، من استغناء علماء الغرب عن الاهتداء بهدى الشرائع المنزلة على أنبياء الله ، فقد قضينا عليه فيما سبق قريبا من هذا الكتاب .

* * *

نعود إلى مبدأ البحث وقد طال الكلام فى الوجه السابع من وجوه النقد التى أوردناها على كلمات الدكتور هيكل باشا فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « حياة محمد » ولم ينته كلامنا بعد ، وكنا قلنا فى أول البحث تقريبا : أصحيح أن القرآن لم يذكر فيه معجزة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما القرآن نفسه معجزته الوحيدة كما ادعى

الدكتور المؤلف والذين شجعوه على هذا الادعاء من علماء الدين ؟

المقصود من هذه الدعوى نفى المعجزات الكونية المذكورة فى كتب الحديث بإثارة الشبهة فى صحة مرويات تلك الكتب . ولكن أصول التوثيق فى إسناد الحديث التى التزم جامعو الصحاح مراعاتها فى كتبهم ، بمكان من الدقة والعناية لو لم يكن السببَ الأصلى عند الدكتور هيكل وغيره فى إنكار المعجزات غيرِ القرآن كونُها مخالفة للعلم المبنى على سنة الكون ، لما تجرأوا على رمى كتب الحديث والسيرة جملة باختلاق الروايات . وكأنهم حاولوا فى قصر معجزات نبينا على القرآن الذى قالوا عنه إنه معجزة عقلية ، إنقاذَ حياته صلى الله عليه وسلم من شائبة المعجزات الكونية المخالفة للعلم وسنة الكون . فمخالفة هذا النوع من المعجزات عندهم للعلم وسنة الكون جرّأتهم وحملتهم على سوء الظن بكتب الحديث وأمانة رواته ، حملةِ أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله إلى أمته ، على الرغم من اتخاذ علماء الإسلام فى ضبط الروايات عن نبيهم وتوثيقها طريقة لم تر مثلها دنيا الشرق والغرب ، وقد تصور أصحاب تلك الظنون السيئة فى إنقاذ حياة نبينا صلى الله عليه وسلم عن تلك المعجزات ، فضلَه على سائر الأنبياء .

لكن تلك المعجزات إن كانت مخالفة للعلم وسنة الكون وكان معنى مخالفتها لها أنها غير واقعة بل غير ممكنة الوقوع ، كما ادعاه الأستاذ فريد وجدى لما جرى بينى وبينه نقاش منشور على صفحات جريدة «الأهرام» قبل توليه رئاسة تحرير « مجلة الأزهر » ؛ لزم أن لا تقع من الأنبياء السابقين أيضا وأن تكون أنباء وقوعها المقصوصة فى القرآن كاذبة مختلَقة كأنباء وقوعها من نبينا المروية فى كتب الحديث والسيرة . فمادام الدكتور هيكل ومشجعوه لا يجترئون على التشكيك فى صحة أنباء القرآن فلا مندوحة لهم أن يعترفوا بالمعجزات الكونية ولو منسوبة إلى الأنبياء الأولين [1] اعترافا لا يبقى بعد ذلك مانع يمنعهم من الاعتراف بها منسوبة إلى نبينا ويضطرهم إلى القيام بدعوى منكرة

[١] ولا إخال أن عقل هيكل باشا وذوقه الأدبى يسوغان قبول ماذهب إليه الأستاذ فريد وجدى بك من كون آيات القرآن الواردة فى معجزات الأنبياء آيات متشابهة غير مفهومة .

تزول معها الثقة عن أفضل كتب الإسلام وأصحها بعد القرآن مثل كتاب البخارى ومسلم وسائر كتب السنة وموطأ مالك ومسند أحمد .

بل نقول لا تصح دعوى أن القرآن لم يرد فيه ذكر معجزة كونية منسوبة إلى نبينا ، ففى القرآن نبأ الإسراء به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وفى القرآن إمداد المؤمنين فى غزوة بدر بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين وخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وفى القرآن انشقاق القمر، قال تعالى : «اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولون سحر مستمر» وتأويله بأن ذلك سيقع عند حلول الساعة أعنى القيامة مخالف لصراحة صيغة الماضى ، وكذا يأباه ما بعده الدال على أنه آية أى معجزة ، والقرآن يعبر عن المعجزات بالآيات ويعبر عنها بالبينات ويعبر عنها بهما معا .

فالقرآن صرح بانشاق القمر على صيغة الماضى وسماه آية من الآيات التى أعرضوا عنها وقالوا سحر مستمر [1] فماذا يطالبنا بعد هذا منكرو المعجزات الكونية لمحمد صلى الله عليه وسلم قائلين : « لم يرد فى القرآن ذكر شىء منها ولو ورد لآمنا به » ؟ فإن قالوا جوابا على هذا الدليل الذى أتينا به من القرآن : « لكن انشقاق القمر أمر محسوس لا يخفى على أحد من سكان الأرض فى ذلك العصر ، فلو وقع لحكاه تاريخ الأمم » فإنى راد لجوابهم عليهم بأن هذا يكون منهم عدمَ اعتماد على إخبار القرآن حيث يبحثون عن إخبار آخر يؤيده ، وقد كانوا يقولون لو ورد ذكر معجزة لنبينا فى القرآن لآمنا بها ، هذا خلف .

ثم أقول عاكسا لجوابهم عليهم : لو لم ينشق القمر فى عصر نبينا ولم يشاهده أعداؤه المشركون فى مكة لكذَّبوا محمدا صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية وصار تكذيبهم

---

[١] وفى نعت هذا السحر بالاستمرار إشارة إلى أن معجزاته صلى الله عليه وسلم الكونية كثيرة لا تنحصر فى شق القمر، وهو رد بليغ على منكريها بالمرة .

المؤدى إلى تبين كذبه حادثةً هامة أدعى إلى تناقل الألسنة والأقلام بها من تناقل حادثة الانشقاق نفسه التى ربما لا يطلع عليها غير أهل مكة لإهمال ترصدها فى وقتها أو لغيم يسترها أو لحسبانها حادثة من الحوادث الجوية العجيبة التى لا تدرك أسبابها ولا تضبط فى ذلك الحين .

قال الفاضل الهندى متم كتاب السيرة المار الذكر من قبل : « من العلماء من فسر معجزة انشقاق القمر بأنه تراءى لأهل مكة كذلك وإن لم ينشق فى نفسه ، قال : « ومن هؤلاء العلماء شاه ولى الله الدهلوى صاحب « حجة الله البالغة » وإليه يميل الغزالى » وعندى أن هذا التفسير ليس خطأ بل أكبر من الخطأ إذ لا فرق بينه وبين ماحكاه القرآن عن موقف المشركين إزاء هذه المعجزة بقوله : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » فالقرآن يقول انشق القمر ويقول أولئك الذين لا يقال عنهم العلماء بعد قولهم هذا : لم ينشق وإنما خُيل للناظرين من أهل مكة الطالبين من النبى صلى الله عليه وسلم أن يظهر لهم معجزة ، منشقا وقد كان المشركون حملوه على السحر وهؤلاء العلماء يحملونه على التخييل !! .

ثم قال الفاضل المذكور : « إن أهل مكة رأوا القمر منشقا فهل هو انشق حقيقة أو تراءى كذلك فهذا لا يهمنا والله القادر على إراءة القمر منشقا قادر أيضا على شقه حقيقة » وإنى أرى فى هذا القول أيضا عدوى من جهل هؤلاء العلماء ، نعم إن الله يشق القمر ويُريه منشقا من غير شق ولكنه لا يكْذب فيقول عن القمر الذى لم ينشق ، انشق . أما ما رواه الفاضل المذكور من حديث أنس « ان أهل مكة سألوا النبى صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقين » [1] فلا يستلزم أنه لم ينشق ولا يلزم لرؤيته منشقا أن يكون غير منشق ، وهل غير المنشق يُرى منشقا والمنشق لا يرى منشقا؟

---

[١] التعبير فى جميع الأحاديث : « انشق القمر » إلا فى إحدى روايتين عن أنس .

فلايصح إذن أن يكون حديث أنس هو الذى سبَّب القول بتغيير معنى الآية وإنما السبب سوء فهم المغيِّرين .

ويشبه هذا الضلال فى التفسير أو يغالبه ما سمعته معزوا إلى الشيخ محمد عبده أنه كان يحمل انفلاق البحر لسيدنا موسى ومن معه ثم غرْقَ فرعون وجنودِه فيه ، على الجزر والمد اللذين كثيرا ما يقعان فى البحر . وحق القول فى سخافة هذا التوجيه من غير أن يناقش فى وقوع جزر ومد كهذا وفى علم موسى بمصادفتهما لزمان اجتياز البحر ، أنه تكذيب للقرآن فى ترتيبه انفلاق البحر على ضربه بالعصا حيث قال تعالى : «فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرق كالطود العظيم»

كأن الله تعالى قابل ابتعاد الشيخ فى تأويله عن القرآن بإبعاده عن العقل ، ألا ترى إلى أنه لم يفكر فى أن الجزر والمد البحريين يكونان متعاقبين فى العادة ، مع أن اجتياز موسى ومن معه البحر أثناء الجزر الذى فتح لهم طريقا فى البحر يبسا ، يستلزم أن يتوقف الجزر فتطول مدته ساعات بل أياما قبل تحوله إلى المد ، ليتسع الزمان الذى يحتاج إليه المجتازون لقطع المسافة بين الجانبين من البحر الأحمر التى لا تقل فى ظنى عن مائة كيلومتر تقريبا ، فلو كان موسى ومن معه راكبين أسرع سيارات زماننا لما تمكنوا من اجتياز هذا البحر بين جزره ومده .

ورأيت للشيخ رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده تأويلا فى قوله تعالى « اقتربت الساعة وانشق القمر» والمعنى عنده اقتربت الساعة وظهر الحق . ثم أتى لتأويله بدليل من « لسان العرب » وهو قوله : « انشق الصبح وشق الصبح إذا طلع وفى الحديث فلما شق الفجران أمرنا بإقامة الصلاة » وليس فى « اللسان » انشق القمر أو انشقت الشمس بمعنى طلعتا لأن انشقاق القمر والشمس عند طلوعهما غير معقول كمعقولية انشقاق الفجر والصبح عند طلوعهما . وقد يقال أيضا تنفس الصبح ولا يقال تنفس القمر أو الشمس . لكن الشيخ شيخ منكرى المعجزات الكونية قاس انشقاق

القمر على انشقاق الصبح والفجر ثم جعل انشقاق القمر كناية عن ظهور الحق، من غير مبرر فى كل ذلك سوى الإصرار على إنكار المعجزات . ولم يكن لينتظر من الشيخ القول بالتخييل مع القائلين الذين انطبق عليهم ما بعد الآية أعنى : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » لأن مذهب الشيخ تخصيص هذه التهمة بمعجزات الأنبياء المتقدمين كما سبق ، فلا يكون له أن يعيب معجزة نبينا بمثلها ! ولأن القائلين بالتخييل لم يريدوا إنكار معجزة شق القمر، وهم ليسوا من منكرى المعجزات المصريين، وإنما أرادوا أن يكون إعجازها فى إراءتها ، وليس لهم دافع غير ضلال فى الفهم مهما كان ذلك الضلال عظيما . أما تأويل الشيخ رشيد فهو لغو فى القرآن من أنواع اللغو الذى توسل به الأولون إلى عدم السماع للقرآن حين قالوا : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» وكان لغو الشيخ فى القرآن كيلا يسمع له، بعد أن أتى بألوان من اللغو كيلا يسمع أحاديث معجزة شق القمر التى عددها الأستاذ الفاضل الشيخ محمد ياسين [١] والتى أخرجها أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والحاكم والبيهقى عن على وابن مسعود وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وابن عباس وأنس ، ولذا قال ابن عبد البر : « روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا وتأيد بالآية الكريمة » وقال المناوى فى شرحه لألفية السير للعراقى : « تواترت بانشقاق القمر الأحاديثُ الحِسان كما حققه التاج السبكى وغيره ».

فالأحاديث المثبتة بمعجزة انشقاق القمر غير مقبولة عند شيخ « المنار » وقول القرآن « انشق القمر » لا يفهم منه انشقاق القمر وإنما يفهم منه معنى آخر غير انشقاق القمر ، قولوا بربكم هل الشيخ لاغ فى القرآن والحديث ولاعب بهما أم هو

---

[١] كتب فى مجلة « الهداية الإسلامية » الغراء هو والأستاذ الفاضل الشيخ محمد زهران رداً على الشيخ رشيد جزاهما الله خيراً ورضى عنهما .

غير لاغ ولاعب ؟ أجيبونى عن سؤالى هذا ولا تؤاخذونى بتشديد القول عليه ، فهل تريدون أن أقول للاعب بالقرآن : أحسنت ؟ وقبله عارض أستاذه محمد عبده كتاب الله فى قوله «فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق» .. الآية فحمل انفلاق البحر على الجزر والمد الطبيعيين : فمنكرو المعجزات الكونية لا يثقون بالأحاديث ويطالبوننا بدليل من القرآن فلما جئناهم به أخذوا يلعبون بمعناه منحرفين يمنة ويسرة. وقد كانوا وضعوا مقياسا لقبول الحديث وهو عرضه على القرآن ، ثم إنا نراهم لا يقتنعون بهذا ويعرضون القرآن على هواهم وعقيدتهم فى عدم المعجزات الكونية . فالقياس الأصلى عندهم للقبول هو الموافقة لعقيدتهم لا الموافقة للقرآن ، فلهذا لا يكفيهم قول القرآن « انشق القمر » فى إثبات معجزة انشقاق القمر ، فكأنهم يتصورون مانعا عقليا يمنعهم عن حمل الآية على ظاهرها وصراحتها وهو عدم إمكان هذا الانشقاق لكونه مخالفا لسنة الكون ، وقد تقدم منا الكلام بما لا مزيد عليه فى استئصال هذا المانع الذى استندوا إليه فى نفى المعجزات الكونية عن نبينا والذى أخذوه من المستشرقين من غير فهم ما قصده المستشرقون من الاستناد إلى ذلك المانع ، وهو عدم الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم. فهو ليس عندهم نبيا حتى تكون له معجزة تخالف سنة الكون كما كانت للأنبياء !!

ومما يجدر بالذكر هنا أنه نشرت مجلة « الرسالة » فى عددها ٤٦٢ مقالة للشيخ شلتوت وكيل كلية الشريعة وعضو هيأة كبار العلماء ، يجيب فيها على سؤال ورد إلى مشيخة الأزهر عن مسألة رفع عيسى عليه السلام من عبد الكريم خان بالقيادة العامة الإنكليزية لجيوش الشرق الأوسط ، ولعل السائل هندى قاديانى المذهب أراد الحصول على فتوى من الأزهر تؤيد مذهبه ، ولعل مشيخة الأزهر ندمت بعض الندامة على ما سبق لها من تنفيذ القرار الصادر عن هيأة كبار العلماء لفصل الطالبين الألبانيين القاديانيين من الأزهر ، إذ حولت السؤال إلى الشيخ كاتب المقالة من بين أعضاء الهيأة الذى

ستعرف نزعته القاديانية فى المسألة المحولة إليه [1] فكان جوابه أنه عليه السلام مات فى الأرض ورفعت روحه ولم يرفع حيا كما ذهب إليه المفسرون قبل الشيخ . وإذا لم يصح رفعه سقط القول بنزوله فى آخر الزمان ، كما ورد فى الأحاديث التى لا يعتمد عليها الشيخ المجيب رغم كثرتها بحجة أنها أخبار آحاد لا تبنى عليها المسائل الاعتقادية .

فهو كما خطّأ المفسرين فى مسألة رفع المسيح ، خطّأ علماء أصول الدين القائلين بنزوله على أنه من أشراط الساعة . والخلاف بين الشيخ شلتوت وبين المفسرين والمتكلمين والمحدثين راجع إلى الخلاف فى إنكار المعجزات والاعتراف بها بين المنكرين الذين منهم الشيخ والمعترفين الذين منهم أهل التفسير والحديث والكلام ، فمن لم يؤمن بالمعجزات فدأبه رفض الأحاديث والآيات الواردة فيها بالتشكيك فى ثبوت الأحاديث مهما كثرت رواتها والعبث فى معنى الآيات ، لا لكون الأحاديث غير ثابتة فى الحقيقة من طريق نقد الحديث المعروفة عند علمائه أو لكون الآيات غير ظاهرة الدلالة ، بل لعقيدة راسخة فى قلب الرافض تدفعه إلى إنكار المعجزات وسائر المغيبات أينما ورد ذكرها .

وقد أسلفنا فى أوائل هذا الباب (الثالث) الكلام عن أصل هذا المرض الذى يجعل التشكيك فى صحة الأحاديث والعبث فى تأويل الآيات سهلا على المنكرين . وعقل الشيخ شلتوت الذى لا يقبل معجزة الرفع والنزول لعيسى يقبل أن المحدثين كذبوا فى سبعين حديثا رووها فى نزوله كما أخطأ المتكلمون فى قبول تلك الأحاديث سندا لعده

---

[١] وكنت قد سمعت عند ما فاوضت هيأة كبار العلماء فيما بينهم للبت فى أمر الطالبين المذكورين أن فى الهيأة من يشذ ويتردد فى الإفتاء بكفر المنكر لكون نبينا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء، طعناً منه فى حجية الحديث الوارد فيه والإجماع المنعقد عليه ، وفى دلالة قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » عليه القطعية . وقد رددت على هذا العضو الشاذ شذوذه فى مقدمة الكتاب (ص ٤٥٦ — ٤٦٢ جزء أول)والآن أقول إن كان الشيخ شلتوت لم يتأخر التحاقه بهيأة كبار العلماء عن زمان درس مسألة الطالبين فهو أول من يخطر بالبال أن يكون ذلك الشاذ .

من أشراط الساعة ، وكما أن المفسرين أخطأوا فى فهم معنى الآيتين الدالتين على الرفع والآيتين الدالتين على النزول ، وإنما أصاب الشيخ شلتوت فى مقابل المخطئين وصدق فى مقابل الكاذبين .

وكنا كتبنا فى صدر هذا الباب شيئا كثيراً يتعلق بهذه المسألة وأرجأنا النظر فى آيات الرفع والنزول إلى محل مناسب فنقول :

ولعدم كون الشيخ فى مذهب اليهود والنصارى بشأن سيدنا المسيح بل فى مذهب الماديين ، لم يعترض على عقيدة المسلمين المأخوذة من قوله تعالى « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وإنما اعترض على عقيدتهم المستندة إلى قوله تعالى « بل رفعه الله إليه » وكان هذا الشيخ أنكر من قبل وجود الشيطان كشخص حى من شأنه أن يفعل الأفعال المذكورة له فى القرآن ويتصف بأوصاف متناسبة مع تلك الأفعال ، وكان المانع عنده عن وجود الشيطان هو عين المانع عن رفع عيسى عليه السلام ونزوله أعنى العلم الحديث المادى الذى لا يقبل إلا ما يمكن إثباته بالتجارب الحسية . وهذا المانع عن وقوع معجزات الأنبياء الكونية ووجود الشيطان عند المؤمنين بالعلم المادى أكثر من إيمانهم بكتاب الله وسنة رسوله ، يمنعهم أيضا عن القول بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مستبدلين بها العبقرية . فلا يكون كتابه كتاب الله الذى لا يجترأ على مسه بكل تأويل ولا أحاديثه أحاديث رسول الله الذى لا يجترأ على تكذيبها بكل سهولة . فلو لم يكن لإنكار رفع عيسى ونزوله أسباب خفية عند الشيخ المنكر ، ونظر إلى آيتى الرفع وأحاديث النزول نظر المحايد غير المرتبط بتلك الأسباب الخفية لذهب به نظره إلى التسليم بعقيدة المسلمين فى رفع المسيح عليه السلام ونزوله فى آخر الزمان ، ولا رأى مانعا عنهما فى آيات التوفى التى تمسك بها بدلا من الآيات والأحاديث القائمة على الرفع ثم النزول.

فكما أن قوله تعالى « بل رفعه الله إليه » وقوله «ورافعك إلىّ» ظاهران فى الرفع الخاص الذى يمتاز به عليه السلام ، لا رفع الروح العام لجميع الأنبياء والشهداء كما

ادعاه الشيخ ، فتعقيب قوله تعالى «وما قتلوه وما صلبوه» بقوله « بل رفعه الله إليه» قطعى فى الرفع الذى نقول به، لا الرفع الذى يقول به ، إذ لا معنى يليق بالنظم المعجز فى القول بأنهم ماقتلوه بل رفع الله روحه إليه كما فسر به الشيخ ، لعدم معقولية التقابل على هذا التفسير بين القتل المنفى والرفع المثبت ، بناء على أن رفع الروح يمشى مع القتل والصلب كما يمشى مع عدم القتل والصلب ، فلا يكون ما بعد « بل » ضدا لما قبله على خلاف ما صرح به النحاة من أن بل بعد النفى أو النهى يجعل مابعده ضدا لما قبله . وليس للشيخ المنكر لرفعه حيا مجال للجواب عن هذا الاعتراض .

أما آيات التوفى التى تمسك بها الشيخ فليس فيها تأييد لمذهبه يعادل فى القوة أو يدانى ما فى تكميل نفى القتل والصلب بإثبات الرفع من تأييد مذهبنا ، لأن المعنى الأصلى للتوفى المفهوم منه مبادرة ليس هو الإماتة كما يظن الشيخ، بل معناه أخذ الشئ وقبضه تماما [1] فهو أى التوفى والاستيفاء فى اللغة على معنى واحد ، قال فى مختار الصحاح : « واستوفى حقه وتوفاه بمعنى » وإنما الإماتة التى هى أخذ الروح نوع من أنواع التوفى الذى يعمها وغيرها ، لكونه بمعنى الأخذ التام المطلق . وهذا منشأ غلط الشيخ شلتوت أو مغالطته فى تفسير آيات القرآن التى يلزم أن يفهم منها رفع عيسى عليه السلام حيا ، لأنه ظن أن القرآن معترف بموته فى الآيات الدالة على توفيه، كما ظن أن التوفى معناه الإماتة نظراً إلى أن الناس لا يستعملون التوفى إلا فى هذا المعنى، وغفولا عن معناه الأصلى العام . فكأنه قال ، بناء على ظنه هذا : لا محل لرفعه حيا بعد إماتته . لكنه لو راجع كتب اللغة لرأى أن الإماتة تكون معنى للتوفى فى الدرجة الثانية حتى ذكر الزمخشرى هذا المعنى له فى «أساس البلاغة» بعد قوله «ومن المجاز»

---

[١] كما ان معنى التوفية جعل الغير آخذاً للشيء تماما ، قال تعالى : « حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه » وقال « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

والمعنى الأصلى المتقدم إلى أذهان العارفين باللغة العربية للتوفى هو كما قلنا أخذ الشىء تماما ، ولا اختصاص له بأخذ الروح .

ولقد فسر القرآن نفسه معنى التوفى الذى يعم الإماتة وغيرها فقال : «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها» فهذه الآية تشتمل على نوعين من أنواع توفى الأنفس الذى هو الأخذ الوافى ، نوع فى حالة الموت ونوع فى حالة النوم ، فلو كان التوفى ينحصر فى الإماتة كان المعنى فى الآية : الله يميت الأنفس حين موتها ويميت التى لم تمت فى منامها . والأول تحصيل للحاصل والثانى خلاف الواقع ، ولزم الأول أيضا أن تكون حالة الموت حالة إماتة الروح لا فصلها عن البدن . ومن هذا يفهم أيضا معنى التوفى فى قوله تعالى « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار »

ومعنى قوله تعالى على هذا التحقيق : «ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا» إنى آخذك من هذا العالم الأرضى ورافعك إلىّ . وفى قوله «ومطهرك من الذين كفروا» بعد قوله «متوفيك» دلالة زائدة على عدم كون معنى توفيه إماتته، لأن تطهيره من الذين كفروا بإماتة عيسى وإبقاء الكافرين لا يكون تطهيرا يشرّفه كما كان فى تطهيره منهم برفعه إليه حيا . فإذن كلٌّ من قوله تعالى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا بيان لحالة واحدة يفسر بعضها بعضا من غير تقدم أو تأخر زمانى بين هذه الأخبار الثلاثة « لإنَّ » ومن المعلوم عدم دلالة الواو العاطفة على الترتيب . فلو كان المراد من قوله تعالى « متوفيك » مميتك ومن قوله « رافعك » رافع روحك كما ادعى الشيخ شلتوت كان القول الثانى مستغنى عنه، لأن رفع روح عيسى عليه السلام بعد موته إلى ربه وهو نبى جليل من أنبياء الله، معلوم لا حاجة إلى ذكره . بل لو حملنا القول الأول أعنى « متوفيك » على معنى مميتك كان هو أيضا مستغنى عنه إذ معلوم أن كل نفس ذائقة الموت ، وكل نفس فالله يميتها ومَن مِن الناس أو الأنبياء قال الله له إنى مميتك؟ فهل لا يفكر فيه الشيخ الذى يفهم من قوله تعالى إنى متوفيك ،

أنه مميته ؟ إلاأن يكون المعنى إن الله مميته لاأعداؤه فالمراد نفى كونهم يقتلونه . وفيهأن كون الله مميته لاينافى أن يقتلوه لأن الله هو مميت كل من جاء أجله حتى المقتولين ، ولذا حمل كثير من المفسرين قوله « متوفيك » على معنى أن الله مستوفى أجله عليه السلام ومؤخره إلى أجله المسمى فلا يظفر أعداؤه بقتله .

وعندى فى هذا التفسير أيضا أنه يرجع إلى حمل التوفى على معنى الاستيفاء كما حملنا نحن لا على معنى الاماتة ، لكن التوفى والاستيفاء معناه استكمال أخذ الشئ لا استكمال إعطائه فليس الله تعالى مستوفى أجل عيسى عليه السلام بل المستوفى هو عيسى نفسه والله الموفِّى أى معطيه تمام أجله . فقد التبس التوفى على أصحاب هذاالتفسير — والعجب أن فيهم الزمخشرى — بالتوفية التى تتعدى إلى مفعولين وهو خطأ لغوى ظاهر . وفيه أيضا تقدير مضاف بين المتوفِى وضمير الخطاب حيث قال الله إنى متوفيك أى مستوفيك لامستوفى أجلك ، فزيادة الأجل تكون زيادة على النص ، كما أن زيادة الروح فى آيتى رفع عيسى عليه السلام نفسه زيادة على النص من جانب الشيخ شلتوت لإرهاق قول الله على خلاف ظاهر المعنى المنصوص . وهذه الزيادة إن كانت خلاف الظاهر بين الرافع وضمير الخطاب فى قوله « ورافعك » بأن يكون المعنى ورافع روحك، فهى فى قوله « بل رفعه الله إليه » أشد من خلاف الظاهر، أى غير جائزة أصلا لكونها مفسدة لما يقتضيه « بل » من كون ما بعده وهو « رفعه الله إليه » ضدّ ما قبله وهو قوله « ماقتلوه » ، بناء على أن رفع الروح يلتئم كما قلنا من قبل مع حالة القتل أيضا الذى اعتُنى بنفيه ، فضلا عن أن هذا الرفع أى رفع الروح ليس بأمر يستحق الذكر فى شأنه عليه السلام . بل إن قوله « متوفيك » أيضا مما لاوجه لذكره إذا كان المعنى مميتك ، ففى أى زمان تقع هذه الإماتة ؟ فإن وقعت حالا أى فى زمان مكر أعدائه به المذكور قبيل هذه الآية، كان هذا الكلام المتوقع منه طمأنتهُ عليه السلام على حياته ، أجنبيا عن الصدد بل مباينا له ، لأن فيه اعترافا ضمنيا لنفاذ مكرهم بأن يكونوا قاتليه

والله قابضَ روحه ، فهل فضيلة الشيخ شلتوت ينكر أنهم ما قتلوه كما ينكر أن الله رفعه إلى السماء حيا ؟. وإن وقعت إماتته فى المستقبل البعيد فليس فى الآية تصريح به مع أن مقام الطمأنة يقتضى هذا التصريح، كما أنه يقتضى كونَ الرفع رفعَه حيا ، بحيث لا تصريح بكون إماتته فى المستقبل البعيد فقوله «إنى متوفيك» على معنى إنى مميتك أجنبى عن المقام ، حتى إن توجيه العالم الكبير حمدى الصغير صاحب التفسير الكبير الجديد التركى ، بكون ذكر إماتته ردا على عقيدة النصارى فى تأليه المسيح ، لايجدى فى دفع هذا الاعتراض لكون ذلك الرد أيضا أجنبيا عن المقام الذى هو مقام الطمأنة والذى ينافيه كلُّ ما ينافيها . فالواجب الذى لم يحس بوجوبه أحد ممن تكلم قبلى واطلعتُ عليه فى تفسير قوله تعالى « إنى متوفيك »، إحساسى به ، حملُ « متوفيك » على معنى آخذك تماما السالمِ عن جميع الاعتراضات والتكلفات .

وقس عليه التوفى فى آية المائدة وهى قوله تعالى : « وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ماأمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم» ومعنى قوله «فلما توفيتنى» فلما أخذتنى من بينهم وجعلت صلتى بهم وبعالمهم الأرضى منتهية . فالمراد توفيه أى أخذه بالرفع لابالإماتة، وقد علمت أن التوفى فى اللغة وفى عرف القرآن لايختص بالأخذ من النوع الثانى ، أى أخذ الروح .

هذا تفصيل ما ورد فى القرآن متعلقا برفع عيسى عليه السلام . وفيه فضلا عن الآيات المذكورة آيتان يفهم منهما نزوله فى آخر الزمان ، فيكون فيهما أيضا دليلان على رفع سابق، كما كانت فى أحاديث النزول أدلة . وليس الأمر كما توهم الشيخ من أن حادثة الرفع لم يقم عليها دليل فى القرآن ولا محل لنزوله بعد سقوط رفعه .. ليس الأمر

كما توهم ، بل كل من آيتى الرفع ، وقد سبق ذكرهما ، وآيتى النزول وهما قوله تعالى فى سورة النساء « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » وقوله فى سورة الزخرف « وإنه لعلم للساعة » يعضد بعضهما بعضا . ولا يستطيع الشيخ المنكر لنزوله عليه السلام فى آخر الزمان أن يجد تأويلا لآيتى النزول المذكورتين ، من دون أن يذهب إلى تكلفات بعيدة، كما لا يستطيع أن يجد جوابا لما ذكرنا فى آيتى الرفع من القرائن التى لا تتمشى مع مذهبه الذى هو رفع روحه فقط .

فظهر مما سبق جميعا أن رفع عيسى عليه السلام بالمعنى الذى يعتقده المسلمون مذكور فى القرآن خمس مرات: صراحة فى آيتى الرفع واقتضاء فى آيتى النزول وتلميحا فى آية تطهيره من الذين كفروا .

ولك أن تضم إليها قوله تعالى عنه عليه السلام : « ومن المقربين » ففيه إشارة إلى رفعه إلى محل الملائكة المقربين بل فى قوله أيضا « وجيها فى الدنيا والآخرة »، لأن الوجيه بمعنى ذى الجاه ، ولا أدل على كونه ذا جاه فى الدنيا من رفعه إلى السماء ، وقوله عن أعدائه « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » فيبلغ أدلة القرآن على رفعه ثمانية .

ومن العجائب أن فضيلة الشيخ شلتوت عاكس الواقع مرة أخرى فحاول أن يستخرج من آية المكر دليلا ضد الرفع ، منكراً لأن يكون فى رفعه إلى السماء حيا مكرٌ من الله بأعدائه الماكرين ! وعنده أن مكر الله بهم المتغلب على مكرهم بنبيه حاصل فى إماتته ورفع روحه إليه لا فى رفعه حيا ، فكأن الله نفَّذ ما أراد أعداؤه أن يفعلوه به فقتله قبل أن يقتلوه أو نفَّذ قتلهم بإماتته ! فكان الله إذن مساعدَهم لا ماكراً بهم !

وانظر بُعد هذا التوجيه بالنسبة إلى مكره بهم فى رفع نبيه إليه حيا وجعل مسعاهم لقتله فى خياب بن هياب . . هذا ، مع أن تمام مكر الله بهم مذكور فى قوله « ولكن شبه لهم » بعد قوله « وما قتلوه وما صلبوه » الذى تغاضى عنه الشيخ بالمرة . وقول

القرآن عن سيدنا المسيح «وما قتلوه وما صلبوه» «بل رفعه الله إليه» لو لم يفهم منه رفع المسيح حيا وإعافهم رفع روحه، كما زعمه الشيخ وأصر على زعمه، فإذن يمكن أن يقول قائل إن القرآن لا ينفى قتل المسيح وصلبه فى صورة قاطمة لأن ، رفع روحه إلى الله لا ينافى كونه مقتولا ومصلوبا بأيدى أعدائه ، وإنما يكون هذاالقول بأنهم ماقتلوه وما صلبوه من قبيل الهزل . كما لو قتل أحد إنسانا ثم قال فى المحكمة لم أقتله ولم أقبض روحه وإنما الله قبض روحه ! فلو أن الشيخ صاحب هذا التأويل الذى يأمره به هواه لإنكار معجزة الرفع لم يغب عنه أن القرآن كلام الله، لصانه عن أن لا يكون لنفيه القتل والصلب عن المسيح إلا قيمة هزلية !! .

أما الكلام على المانع الحقيق عند كتّاب العصر الحديث وأتباعهم من علماء الأزهر ، عن الاعتراف بمعجزات الأنبياء عليهم السلام الكونية وغيرها مما يخالف سنة الكون كرفع عيسى ونزوله ووجود الشيطان ، فيضطرهم بسبب هذه المخالفة إلى تكذيب الأحاديث الواردة بشأنه وتأويل الآيات، مهما كانوا ظالمين لأئمة الحديث فى التكذيب ومبتعدين عن منطوق الآيات فى التأويل ، بل ظالمين أحيانا فى تأويل الآيات أيضا كقول الشيخ شلتوت فى مسألة وجود الشيطان إن القرآن جارى فيه عقيدة العرب الجاهليين وقولِ الأستاذ فريد وجدى بك فى آيات المعجزات والبعث بعد الموت إنها آيات متشابهة غير مفهومة المعانى ... أما الكلام على هذا المانع فقد وفيت حقه فى أوائل هذا الباب ، كما لم آل فيما سبقه من الكتاب جهدا لحل شبهة العصريين من الكتّاب والعلماء الذين لا يؤمنون بالغيب .

***

نعود إلى ما كنا فيه قبل الانتقال إلى مناقشة الشيخ شلتوت فى دعواه الشاذة عن رفع عيسى عليه السلام .. فكنا قلنا إن المنكرين لمعجزات الأنبياء الكونية

ينكرونها بسبب مخالفتها لسنن الكون والعلم الحديث المبنى عليها ، كما قلنا ذلك أيضا فى نهاية المناقشة مع الشيخ .

وهناك مانع آخر عندهم خاص بوجود معجزة كونية لنبينا صلى الله عليه وسلم أخذوه أيضا من المستشرقين من غيرفهم مرماهم فى البحث عن موانع المعجزات الكونية لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو أن القرآن نفسه حكى أن محمدا كان لا يلبى طلبات قومه فى إظهار المعجزات، كما ورد فى الآيات التى ذكرها مؤلف كتاب «حياة محمد» مستشهدا به على ما استشهد عليه المستشرقون من أن حياة محمد خلت عن المعجزات الكونية، وعطلما عليها كل ثقة بكل ما ورد فى كتب الحديث والسيرة من معجزاته . والفرق بين موقف المستشرقين وبين مؤلف الكتاب أعنى الدكتور هيكل باشا الذى تعلم طريق هذا التحطيم منهم ، انه يتعزى بادخار كل الاهتمام وكل الثقة للقرآن ، فى حين أنهم لا يأعنونه أيضا للأسباب التى ذكروها فى الأحاديث وسلم بها الدكتور، من عدم التعويل على صحة رواياتها وأمانة رواتها الملولين بالأغراض الدينية والسياسية ولا على تمحيص الجامعين للصحاح وتمحيص هذا التمحيص من علماء الدين الذين جاءوا بعدهم . وفرق آخر بينه وبينهم أنهم يعلمون جيداً أن التشكيك فى أمانة المنابع الإسلامية عن آخرها بالنسبة إلى الأحاديث يستلزم التشكيك فى تلك المنابع بالنسبة إلى القرآن أيضا ، وهذا الاستلزام يغيب عن دقة نظر الدكتور المؤلف ، فهو يسعى عبثا لترغيب المشككين الغربيين والذين وقعوا تحت تأثير دعايتهم من الغربيين والشرقيين ومنهم الدكتور نفسه ، فى القرآن ، مفرقا بينه وبين غيره من المعجزات ومادحا له بأنه معجزة عقلية . وليس له أن يتعزى بأن القرآن جمع قبل طروء الفساد على الروايات ، لأن نبأ هذا الجمع أيضا يصل إلينا من طريق رواة الحديث والسيرة المطعون فى أماناتهم .

ثم إن المشككين الغربيين الذين يستخدمون عقولهم المشحوذة للعمل ضد الإسلام بمهارة لا توجد فى مقلديهم ، ما اجترأوا بضعضعة مكان الحديث أولا والقرآن ثانيا ،

متوسلين إليها بضعضعة أصول الرواية ، وتمليلها بعدم ابتنائها على طريقة النقد العلمى والتمحيص العلمى الذى جرى عليها الدكتور فى تأليف كتابه، وخيل إلى الأذهان أنه أول كتاب فى الإسلام يتضمن بيانا عن حياة سيدنا محمد مبنيا على الطريقة العلمية ... ما اجترأوا بذلك ، بل جعلوا الكتاب والسنة يهدم بعضهما بعضا : ففى دعواهم المارة الذكر قريبا ينفى القرآن بنصوصه الواردة فى عدة سورٍ ، أيَّ آية أىْ معجزة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ويمنعُ صدق ما ذكر فى كتب الحديث والسيرة عن معجزاته ؛ فهل تنظرون أن المستشرقين أعداء محمد لا يكتفون فى تكذيب الأحاديث النبوية بتكذيب كتبها بل جعلوا القرآن أيضا يكذّبها ؛ وصاحب كتاب « حياة محمد » يقتدى بهم فى كلتا الخطوتين ؟ غير أن الفرق بينه وبينهم أن الغرض من تكذيبهم كتب الحديث لتكذيب معجزات نبينا ومن جعلهم القرآن أيضا يكذّبها، تكذيب كل معجزة منسوبة إليه حتى القرآن نفسه ، لينتهوا بهذه التكذيبات المتسلسلة إلى تكذيبه فى نبوته ؛ ولا نرضى أن يكون مؤلف كتاب « حياة محمد » يرضى بهذا ، إلا أنه ماذا يكون موقف محمد صلى الله عليه وسلم عنده ؟ إذا صح بالنظر إلى قول القرآن أُنه كان لا يلبى الطلبات الواقعة فى الإتيان بآية ، بل يقول دائما إنما الآيات عند الله وإنما أنا بشر مثلكم أو إنما أنا نذير مبين أو ليس عندى خزائن الله أو إنما الغيب لله أو ما عاثله ، ولا يقول جوابا لكل تلك الطلبات : آيتى القرآن . وإنما قال مرة واحدة عقب طلب الآية : «أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم» وهو ليس بصريح فى كون القرآن معجزة .

لا يتهمْنى القارئ ، والعياذ بالله، بأنى أنكر كون القرآن الذى هو أعظم معجزات نبى الإسلام وأفضل معجزات الأنبياء على الإطلاق ، معجزة . وإنما أنا أتصور وأصوّر عقليات المستشرقين واستنتاجاتهم من آيات القرآن التى استشهد بها مؤلف كتاب « حياة محمد » على نفى المعجزات الكونية لمحمد . فالآيات نفسها عند المستشرقين

أساتذة المؤلف فى الاستشهاد ، شواهدُ على نفى معجزاته مطلقا وإن لم يشعر به المؤلف، إذ لا ريب فى أنهم لا يعترفون بكون القرآن معجزة . فالتمسك بتلك الآيات ولو فى نفى ما عدا القرآن من معجزات نبينا لا ينبغى لمسلم يقظ يأبى أن يخدم أغراض أعداء الإسلام ، فضلا عن أن هذا التمسك لا يستقيم فى حد ذاته . والآن نورد تلك الآيات ثم نبين ما هو المراد منها :

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد « سورة الرعد » .

وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين « سورة العنكبوت » .

وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون « سورة الأنعام » .

ويقول الذين كفروا لولا أُنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب « سورة الرعد » .

بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون « الأنبياء »

الحكمة فى إنزال هذه الآيات تُتصور على وجهين :

الأول، أن كتاب الإسلام يرمى إلى تهذيب العقول وهدايتها إلى رشدها ؛ وقد كان الذين كتبوا التوراة والإنجيل للنصارى زعموهم المسيح إلها يقدر على التصرف فى الكائنات. فالقرآن الذى هو كتاب دين التوحيد يعتنى بتصحيح تلك العقيدة ويكرر أمر الله لنبيه بإعلان أن كل شئ بيد الله ، ليس للنبى من الأمر شئ ، وإنما هو عبده ورسوله ، وإنما الآيات ككل شئ عند الله لا يقدر محمد، على الإتيان بها من تلقاء نفسه ، فيقول الله له :

« ليس لك من الأمر شيء » ويقول « قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ويقول « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إليّ » وحتى يقول « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم من شدة حرصه على هداية الناس الذي قال الله عنه: « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ، يتمنى نزول ما يسألونه من الآيات ؛ لكن الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا يشرك في حكمه أحداً يقول لنبيه : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » ويقول « وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

فهذا الخطاب من الله لنبيه في القرآن يعطي فكرة جدية عن عقيدة الإسلام كيف تقدر فيها عظمة سلطان الله فوق عباده كائنين من كانوا ، كما أنه يعطي فكرة جدية عن القرآن هل يمكن أن يكون كلام سيدنا محمد وفيه هذه الآية الأخيرة ؟ .

فهذه الآية واللاتي ذكرنا قبلها وأمثالها التي لم تذكر ، مثل « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » نزلت لتفهيم الفرق بين الرب والمربوب وتثبيته في قلوب المسلمين، ليعلموا أنه ليس في استطاعة محمد أن يأتي بآية ولا بأي شيء إلا بإذن من ربه ورب كل شيء . وليس هذا خاصا بمحمد صلى الله عليه وسلم بل يستوي هو وسائر رسل الله فيه ، كما قال القرآن أيضا « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » . ولا يلزم من كون إنزال الآيات وإظهار المعجزات من اختصاص مشيئة الله عدمُ وجود

معجزة لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام غير القرآن، ولا عدمُ نفع المعجزات الكونية في إقناع الناس بصدق الرسل لابتذالها ووقوعها في كل زمان من غير الأنبياء ، كما أدعاه الشيخ رشيد رضا . فكأن هذا الشيخ المستخف بالمعجزات الكونية الناظر إليها نظره إلى أعمال السحر والشعوذة ، لا يسمع لقوله تعالى : « وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون» وقوله: « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

الثاني، لاشك في أن القرآن النازل على النبي العربي الذي يجدونه مكتوبا في التوراة والإنجيل ، أعظم معجزات هذا النبي بل أفضل معجزات الأنبياء على الإطلاق كما قلنا من قبل أيضا ، لأن غيره من المعجزات الكونية إنما هي وسائط لتصديق النبي وعلامات صدقه في دعوى النبوة عن الله والبعث إلى الناس ، والغاية التي تأتي بعدها هدايتهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة . فالقرآن المعجز يجد العاقل فيه الغاية والواسطة معا . فإذا كانت معجزات الأنبياء تلفت الأنظار وتستجلب القلوب إلى الكتب المنزلة عليهم وإلى قبول مافيها من الأوامر والنواهي على أنها بلاغ من الله ، فالقرآن يلفت بنفسه إلى نفسه وإلى قبول مافيه حقا وصدقا بل إلى قبول ما في الكتب المنزلة قبله أيضا . ولذا قال تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » وقال « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى » يعني أو لم يأتهم القرآن الذي هو بينة وشاهد صدق لنفسه ولغيره من الكتب المنزلة الأولى حيث نزل بالحق مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل وغيرهما . ويحتمل أن يكون المراد من بينة ما في الصحف الأولى ما في الكتب المنزلة قبل القرآن من التبشير بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم .

وليس في توبيخ مقترحي الآيات بأن يقال : أولم يكفهم القرآن آية أو ، أولم يأتهم

القرآن ، ما يستلزم عدم وجود معجزة لنبينا غير القرآن ؛ كما أن إجابتهم بأن الله قادر على أن ينزل آية أو أنه يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب أو إنما الآيات عند الله أو إنما أنت منذر ، لا تستلزم عدم وجود معجزة له مطلقا [1] وحسبك أنها لم تمنع وجود معجزة القرآن ، بل الواو فى «أولم يكفهم . » أو « أو لم تأتهم .. » تدل على أن له معجزة غير القرآن ، والمعنى : ألم يكفهم الآيات ، ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ألم تأتهم آية ولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى .

الثالث ، أن مقترحى الآيات أى المعجزات على الأنبياء يكونون فى الأكثر من المعاندين المتمردين عليهم ، لا يريدون إلا تعجيزهم ، فإذا جاءتهم لا يقتنعون بها ويطلبون غيرها ، فالله تعالى لا يستجيب لمقترحاتهم ولا ينزل آية يستميلهم بها إلى الإيمان بنبيه ، ولو شاركهم النبى فى استنزالها ، لأن الله يعلم أنهم لا يؤمنون كما قال « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » فيمسك آياته عنهم ويصونها عن أن تتخذ هزؤا أو تذهب أدراج الرياح . وقد يكونون ممن حقت عليهم الضلالة « لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » فيقول الله فيهم لنبيه : « أفأنت تنقذ من فى النار » ويقول «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلاً ما كانوا ليؤمنو إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

وقد يكون مرامهم فى طلب المعجزات اختباراً لقدرة من يدعى النبوة على إيصالهم

---

[١] كما أن جواب القرآن لما قال القائلون لرسلهم من الأمم الماضية : «إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين » قائلا : « قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » لم يستلزم عدم وجود معجزات لأولئك الرسل .

إلى حظوظ الدنيا الفانية وشهواتها، لا لهدايتهم إلى مناهج السعادة الأبدية ومدارج الإنسانية الحقيقية ؛ وقد يكون مع ذلك استخفافهم بشأن النبي صلى الله عليه وسلم واستعظام شأنهم أنفسهم كما قال الله تعالى : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها » ـ الفرقان ـ وقال : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا» ـ الإسراء ـ وقال : «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين» ـ الأعراف ـ

فالدكتور هيكل باشا أورد من هذه الآيات آيات الأنعام والإسراء مستدلا بهما على أن القرآن ينفي كل معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم إلا نفسه أي القرآن ؛ وليس فيهما دلالة على مدعاه ، فآيات الإسراء تحكي أنهم طلبوا آيات معينة غريبة، في بعضها غلو وشطط كقولهم « أو تأتي بالله والملائكة قبيلا » اي كفيلا ، ويفهم من أكثرها أنهم طلاب الدنيا لا طلاب الحق فعيبت عليهم مطالبهم ولم يُستجب لهم ، مع التنبيه على أن محمدا ليس بإله وإنما هو بشر رسول يعمل تحت إرادة الله ؛ وليس في كل هذا دلالة على أن محمدا لم يأت بأي آية ولا يأتي وإن أذن الله بها . ومدلول آيات الأنعام أنهم أقسموا بالله لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وقد علم الله أنهم لن يؤمنوا إذا جاءتهم ، حتى انهم لو أرادوا أن يؤمنوا لصرف الله قلوبهم وأبصارهم عن الإيمان، فلا يوفقون له ولا يؤمنون إن لم يشأ الله ، ولو جاءهم كل موجبات الإيمان وحضتهم عليه . فالمفهوم من هذه الآيات بكل وضوح أن الذين يُحكى فيها إقسامهم بالله على أنهم إن جاءتهم آية

ليؤمنن بها ، ممن حقت عليهم الضلالة فلذلك لا يأذن الله أن تأتيهم آية، وهذا موضوع يختلف كل الاختلاف عما ادعاه الدكتور المؤلف فى هذه الآيات من أنها تدل على أن محمداً ماجاءته أيّة معجزة غير القرآن ، وان مقترحيها عليه لم يُستجب لهم مطلقا ، سواء كانوا ممن لا يؤمنون ولو جاءهم ماسألوه من الآية ، أو ممن يؤمل منهم الإيمان . فلا دلالة فى هذه الآيات على ماادعاه من أن سيدنا محمدا ما جاءته أىُّ آية غير القرآن ، بل نقول إن فيها ما يدل على مجىء آية إليهم أول مرة فلم يؤمنوا بها، ثم اقترحوا مرة أخرى فرُد عليهم وشُـدد فى الرد وهو قوله تعالى « كما لم يؤمنوا به أول مرة » وفى آية الأعراف تأييد واضح لما قلنا حيث يقول « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » . وفى النهاية يقول : « ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

الرابع ، أن السنة الإلهية إنزال العذاب على قوم أرسل إليهم رسول فعصوه وآذوه أو سخروا منه ومن آيات نبوته ، وأصروا واستكبروا استكبارا . وكتاب الله ينص على هذه السنة الإلهية فى قوله « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » وقوله « فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » وقد ذكرنا فيما سبق أن المراد من سنة الله التى قال الله عنها فى كتابه : لن تجد لها تبديلا ولن تجد لها تحويلا والتى حملها المخطئون على سنن الكون الطبيعية وبنوا عليها إنكارهم المعجزات الكونية ، سنتهُ فى نصر أنبيائه وتدمير أعدائه ، ويكون هذا النصر وهذا التدمير آخرَ معجزات الأنبياء بالنسبة إلى المتمردين عليهم ، وتتقدم هذه المعجزةَ معجزات الهداية فيهتدى من يهتدى ويؤمن من يؤمن ، ويكون فى الباقين من يطلب معجزة أخرى تفوق الأُولَ ظهورا وبهورا، وتكون هذه المعجزة المطلوبة هى التى تأتى بعدها معجزة العذاب ؛ ولهذا يماطل الأنبياء عليهم السلام لاسيما الذين تغلب فيهم الرحمة ،

فى الإتيان بهذه المعجزة [1] والقرآن يشير إلى سنة نزول العذاب بعد هذه المعجزة فى كثير من آياته كقوله : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » ـ الإسراء ـ وقوله « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر . فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون » ـ الأنبياء ـ وقوله : « لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين » ـ الحجر ـ وقوله : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون » ـ الأنعام ـ وقوله : « قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لاأعذبه أحداً من العالمين» ـ المائدة ـ وقوله : « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » ـ الأنعام ـ .

وصدر الآية يدل على أنه كانت تأتيهم آية ولكنهم كانوا يغالون فى الآية التى يؤمنون بها إلى أن يقترحوا نزول الوحى عليهم ويؤتوا منصبَ الرسالة من الله . وطبيعى أن تقابل هذه الطلبات الطائشة منهم بالرفض والتوبيخ والإنذار وهذا كما قال بنو إسرائيل لسيدنا موسى « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » ـ البقرة ـ .

---

[١] وفى تفسير الفخر الرازى : قال محمد بن كعب القرظى إن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم تخبرنا أن موسى ضرب الحجر بالعصا فانفجر الماء وأن عيسى أحيا الميت وأن صالحا أخرج الناقة من الجبل فأتنا أنت أيضا بآية لنصدقك فقال عليه السلام ماالذى تحبون فقالوا أن تجعل الصفا ذهبا وحلفوا لئن فعل ليتبعونه أجمعون فقام عليه الصلاة والسلام يدعو ، فجاءه جبريل فقال إن شئت كان ذلك ولئن كان فلم يصدقوا عنده ليعذبنهم الله وإن تركوا تاب على بعضهم فقال صلى الله عليه وسلم بل يتوب على بعضهم فأنزل الله تعالى هذه الآية » أى آية الأنعام .

فالآيات التي طلبوها من نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يُستجب لهم فيها، لم يكن سبب عدم الاستجابة أن نبينا دأبه أن لا يستجيب لطلب الآية لعدم كونه نبيا كما زعم المستشرقون، ولا لعدم كونه لا يستجيب لطلب المعجزة الكونية كما زعم مقلدو المستشرقين منا تقليداً أعمى ، وكيف يكون السبب أحد هذين الأمرين المزعومين مع أن بعض الآيات القرآنية الحاكية للطلبات المرفوضة نفسها، يفهم منها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتيهم بآية ، وإنما الرفض مبني على أسباب مختلفة فصلناها قريبا . وكان آخر ما ذكرنا أن طالبي الآيات لما لم يقتنعوا بما أتى منها وطلبوا آية أعظم وأبهر ، أُنذروا بما هو سنة الله في الأمم الماضية من إنزال العذاب بعدها إن لم يؤمنوا بها أيضا ، ولم يشأ الله استئصال أمة بعث إليهم آخرَ أنبيائه بإنزال العذاب عليهم ، لاسيما وان هذا النبي لا يفتأ يدعو لهم قائلا : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

وعلى قول الفاضل الهندي متمم كتاب السيرة أن معجزة شق القمر كانت هي آية نبينا الباهرة التي يأتي بعدها العذاب في سنة الله إن لم يؤمنوا بها أيضا[1] وهي كانت على تحقيقه آخر آيات الهداية ، ولهذا وقعت قبل الهجرة بقليل التي هي أيضا من سنة الله لما أراد إنزال العذاب على قوم نبي ، فيأمر النبي ومن معه أن يخرجوا من بينهم، وكان يومُ بدر يومَ إنزال العذاب على مشركي مكة .

فقد تبين مما سبق منا إلى هنا أن القرآن ، فضلا عن عدم شهادته بنفي وجود معجزة غيره لنبينا صلى الله عليه وسلم التي ادعاها منكرو معجزاته الكونية ، فيه دلالة بل دلالات على وجود معجزات له غير القرآن . وألطف نواحي المسألة دلالة بعض الآيات التي يستشهدون بها على عدم وجود معجزة له غير القرآن ، على وجودها .

---

(١) انظر هذا القول من ذاك الفاضل ثم انظر كيف تكون هذه المعجزة الباهرة التي يأتي بعدها العذاب عبارة عن تخييل الانشقاق من غير وقوع الشق ، ذلك الرأي الذي حكاه عن ولي الله الدهلوي والغزالي ولم يرد عليهما بل أجازه . وقد نقلناه من قبل مع الرد عليهم .

فيظهر أن معالى مؤلف « حياة محمد » لم يتتبع القرآن عنـد دعوى النفى وإنما اتبع المستشرقين واقتنع بما أوردوه من الشواهد . وزيادة على عدم تتبعه بنفسه لم يستعمل دقته فيما وجد حاضرا عنده من أدلتهم المأخوذة من القرآن ، فقد ساق آية الأنعام الطويلة دليلا على رفض القرآن الطلبات والاقتراحات بصدد المعجزات وهى قوله تعالى: « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها .. » الآيات، مع أن فيها قوله: « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » دليلا واضحا على أنهم أتتهم آية من قبلُ فلم يؤمنوا بها . لـكن المؤلف لم ير هذه الجملة الناقضة لدعواه حين أورد الآية لإثبات تلك الدعوى ، فكان دليله يضره بينما هو ينفعه .

* * *

والآن نورد شواهد من القرآن نفسه تدل على وجود معجزات لنبينا صلى الله عليه وسلم غير القرآن ، وإن كان بعض تلك الشواهد مجملا لا يدل على حادثة معينة . ولسنا بصدد التفصيل لواقعات المعجزات، فمحلها كتب الحديث والسيرة وكتب دلائل النبوة[١] وحسبنا فى صددنا ما أشير إليه فى الآيات الآتية :

١ — وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ـ الأنعام ـ

٢ — وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ـ يس ـ

٣ — وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ـ القمر ـ

٤ — وإذا رأوا آية يستسخرون وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ـ الصافات ـ

٥ — وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم

---

[١] وقد أحصى الفاضل الهندى متم السيرة التى بدأ كتابتها المرحوم مولانا شبلى النعمانى ، معجزاته صلى الله عليه وسلم الثابتة بالروايات الصحيحة فى كتب الحديث والسيرة وغير الثابتة بها .

حيث يجعل رسالته ـ الأنعام ـ

٦ — زيادة الواو الدالة على آية أو آيات مقدرة يعطف عليها مابعدها فى قوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ـ العنكبوت ـ والمعنى ألم تكفهم الآيات ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم .

٧ — زيادة الواو فى قوله تعالى : « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى » ـ طه ـ والمعنى ألم تأتهم آية ولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى .

٨ — ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ـ الأنعام ـ وتمام الآية « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » والشواهد الثلاثة الأخيرة من شواهد نفاة المعجزات غير القرآن ، معكوسة عليهم

٩ — قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ـ آل عمران ـ

١٠ — وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا ـ الأنفال ـ

١١ — إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ـ الأنفال ـ

١٢ — وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ـ الأنفال ـ

١٣ — فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ـ الأنفال ـ

١٤ — ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول

للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ـ آل عمران ـ

١٥ — إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ـ الأنفال ـ

١٦ — ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ـ الأحزاب ـ

١٧ — يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ـ الأحزاب ـ

١٨ — لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا ـ التوبة ـ

١٩ — يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون ـ التوبة ـ

٢٠ — يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم ـ المائدة ـ نزلت فى بنى النضير من اليهود لما ائتمروا بالنبى صلى الله عليه وسلم حين أتاهم مع بعض خواص أصحابه يستقرضهم فى دية رجلين، وقد كانوا عاهدوا النبى على ترك القتال وعلى أن يعينوه فى الديات فقالوا اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد، ثم تآمروا على أن يطرح أحدهم رحى من فوق الجدار الذى جلس مستندا إليه فنزل جبريل وأخبر بذلك .

٢١ — والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر ـ النحل ـ نزلت فى مهاجرى المسلمين إلى الحبشة لما خاف عليهم إخوانهم

فى مكة بما كان يعمل المشركون على إحراج مواقفهم بالمهجر، متوسلين إليه بالتأثير عند ملك الحبشة بإرسال الهدايا إلى موظفى قصره . فالله تعالى خيب مسعاهم وطمأن المؤمنين على حالة إخوانهم المهاجرين .

٢٢ — وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ـ الإسراء ـ نزلت فى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم منبئة بدنوّ هلاك الذين أخرجوه من بلده. وكان المؤمنون وقت الهجرة ونزول الآية فى غاية الضعف ، فما مضت سنة حتى قتل صناديد قريش فى بدر وفاز المسلمون بالنصر الموعود

٢٣ — أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر ـ القمر ـ

٢٤ — وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ـ النور ـ كان المؤمنون وقت نزول الآية فى قلة وعجز لا ينامون الليالى آمنين على حياتهم من مهاجمة الأعداء المحيطة بهم . فمن ذا الذى كان يطوف بباله أن تكون من المسلمين دول عظمى تعلو كلمتهم فى وجه البسيطة كما تبشر به الآية ؟ حتى انه كان من المستبعد أن يتغلب المسلمون على قبائل العرب المجتمعة على معاداتهم . والآية المتقدمة تنبئ بتمزق القبائل أمامهم .

٢٥ — إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ـ القصص ـ

٢٦ — لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ـ الفتح ـ الآيتان تبشران بفتح مكة، وكانت الأولى منهما نزلت أثناء الهجرة منها والثانية عند العودة من الحديبية .

٢٧ — قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ـ الفتح ـ إشارة إلى الحروب الواقعة فى عهد الخلفاء الراشدين .

٢٨ — الم غُلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ـ الروم ـ والآيات الإحدى عشرة الأخيرة تتضمن الإخبار عن الغيب الذى هو من المعجزات الكونية، لكونه مخالفا لسنة الكون .

٢٩ — وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ـ الأحقاف ـ

٣٠ — سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ـ الأسراء ـ

٣١ — اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ـ القمر ـ

قد بينا ما فى آيتى القمر من مؤيدات وقوع معجزة انشقاق القمر، بل وقوع غيرها أيضا، وأبطلنا تأويلات المنكرين المتعمدين والغافلين . والآن نقف على معجزة الإسراء وننظر فى نصها ونرد أوهام المتأولين . والدكتور هيكل باشا مؤلف كتاب «حياة محمد» الذى أغفل معجزة شق القمر فى كتابه بالمرة كما أغفل غيرها ، تعرّض لنبأ الإسراء لاعلى أنه معجزة، بل ذهب فى سبيل نفى إعجازه مذهبا أبعد من المعجزة، لأن المعجزات من الممكنات فى مذهب العقل السليم وقد فصلناه فى أول هذا الباب ، وما ذهب إليه هيكل باشا فى تأويل معجزة الإسراء وهو وحدة الوجود محال كما علمت تحقيقه فى الفصل الأول من الباب الثانى من هذا الكتاب [1] . ولا يدرى معاليه أن وحدة

---

[١] وإنى جد متعجب من أن كاتبا كبيرا فى طليعة الأدباء والعقلاء بمصر مثل الدكتور هيكل باشا ، يأبى عقله أن يؤمن معجزات أنبياء الله الكونية فينكرها ، فى حين أنه يقبل خرافة وحدة الوجود المستحيلة، حتى يفسر بها معجزة الإسراء. ومعناه أنه لا يؤمن بالمعجزة حال كونها ممكنة، ويؤمن بها عند تصويرها فى صورة المحال .

الوجود فكرة لاتخص على تقدير صحتها وإمكانها بنبي دون نبي ولا بإنسان دون إنسان ولا بموجود دون موجود ولا بوقت لذلك النبي أو ذلك الإنسان أو ذلك الوجود ، دون وقت ، لأن كل الوجودات فى مذهب وحدة الوجود موجود واحد وهو الله . فنضرب عن هذا التأويل الحديث لمعجزة الإسراء ، المستغنى لبطلانه عن الابطال صفحا ، وننظر فى التأويل القديم :

آية الإسراء فى القرآن صريحة غير قابلة للتردد والتشكك فى أن الله تعالى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . فكما لو قلت سريت من محل فلانى إلى محل فلانى لا يكون وجه للتردد والسؤال هل كان ذلك بجسمك أم بروحك وفى اليقظة أم فى المنام ؟ فكذلك لا يجوز الاختلاف فى معنى هذا السُّرَى ولا فى أن العبد اسم للروح أو الجسد أولهما معا ، كما وقع بين القائلين بالإسراء الجسمانى والإسراء الروحانى .

نعم يخطر بالبال كيف يمكن السُّرى ليلا أى فى جزء من الليل من مسجد إلى مسجد بينهما مسافة شهرين ذهابا وإيابا ؟ ثم لما نُظر إلى تعبيرات القرآن ورؤى أنه لا يقول سَرى محمد بل يقول إن الله أسرى به مع التسبيح لهذا الذى أسرى به وتنزيهه عن الكذب والعجز ، زال كل شبهة وكل تردد عن أساسه . فإذن يلزم أن يكون فعل الإسراء الذى يقول الله تعالى إنه فاعله والذى يسبح قائله لنفسه من حيث إنه فاعله ويعبر عن المُسرَى به ، بعبده المشرَّف بتمحضه فى عبوديته ، ثم يذكر الغاية لهذا الفعل بقوله : « لنريه من آياتنا » ــ فعلا فى منتهى الخطورة والأهمية ، ويلزم أن يبقى مصونا عن كل تأويل ينقص من خطورته وأهميته [1] .

---

[١] حتى إن محاولة تقريب الإسراء من الأذهان وإثبات إمكانه بأمثلة من مكتشفات العلم فى العصر الأخير ، كما توسل إليه أيضا مؤلف « حياة محمد » ــ وحكاه فضيلة الأستاذ المراغى فى تعريفه بهذا الكتاب من غير نكير بل بشىء من الإعجاب ــ بعد أن توسل بوسائل كثيرة أخرى فى =

ففى جنب هذا التصريح المعظم يذوب كل ما قيل أو يقال فى تأويله . فمنه ما ذكر ابن هشام فى سيرته وابن جرير فى تفسيره من روايتين عن معاوية وعائشة رضى الله عنهما ، وهما أن محمد بن إسحق قال حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة أن معاوية كان يقول لما سئل عن المعراج إنه كان رؤيا صادقة ، وأن ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد يعنى ابن إسحق قال حدثنى بعض آل أبى بكر أن عائشة كانت تقول : « ما فقد جسد رسول الله » ، مع أن فى الرواية عن معاوية انقطاعا، لأن ناقل الخبر إلى ابن إسحق لم يسمعه عن معاوية لعدم كونهما فى عصر واحد ؛ وفى الرواية عن عائشة لم يذكر اسم من روى عنها من أقاربها وإنما عبر عنه ببعض آل أبى بكر ، وفيها شئ آخر: وهو أن عائشة لم تكن فى زمن الإسراء بموقف أن تقول القول المروى عنها لأن الإسراء وقع قبل الهجرة بسنة أو أكثر وتزوج النبى بها فى المدينة، وهى على المشهور فى التاسعة من عمرها، فتكون فى زمن الإسراء طفلة فى السابعة ، ولم يبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلته تحت مراقبة عائشة التى لم تكن زوجه وقتئذ ولا مراقبة غيرها من آل أبى بكر حتى يكون من حقها أو حقه أن يقول : ما فقد جسد رسول الله .

والدليل الثانى للمؤولين قوله تعالى : «وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس» فيعبر عن الإسراء بالرؤيا . والجواب ما فى صحيح البخارى ومسلم من قول ابن عباس

= إنكار المعجزات الكونية ، مما ينقص من خطورة هذه الحادثة لدرجة تنزيلها من السماء إلى الأرض، وتعتبر عندى نزعة من نزعات إنكار المعجزة ، ورد مالا يمكن إنكاره من حادثاتها إلى أحضان العلم الطبيعى شكل من أشكال الإنكار . لأن العلم الطبيعى يبنى كل شئ إلى سبب طبيعى ، فى حين انا نعنى بالمعجزة ما يكون فوق الطبيعة سببا وعلما ، فلا يوجد لها سبب من الطبيعة ولا طريقة من العلم . وإنما مبناها على إرادة الله التى هى السبب الأعلى ، والتى تستند إليها الطبيعة وغيرها على السواء. فعلى قارئ هذا المبحث أن يعتنى قبل كل شىء إلى هذه الدقيقة . ولو كان للعلم سبيل إلى المعجزة التى هى من خواص النبوة لكان التقدم فى العلم يصعد بالعالم إلى أن يجعله نبيا من الأنبيا ، وليس هذا مذهبنا بل مذهب القائلين بالنبوة المكتسبة الراجع إلى نفى النبوة الحقيقية والذى سبق منا إبطاله

رضى الله عنهما « إن هذه الرؤيا رؤيا عين أُرِيَها رسولُ الله لما أُسرى به إلى بيت المقدس» كقول الراعى :

فكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر نفسا كان قبلُ يلومها

وقول المتنبى :

مضى الليل والفضل الذى لك لايمضى ورؤياك أحلى فى العيون من الغمض

فيفهم أنه قد يقال للرؤية فى اليقظة رؤيا إذا وقعت فى الليل . فإن اعتُرض على الاستشهاد بقول المتنبى والراعى فى اللغة فلا كلام على الاستشهاد بقول ابن عباس .

ولى فى المسألة رأى آخر وهو أن النزاع على فرض وقوعه بين الصحابة فى الرؤيا المذكورة فى الآية ، يلزم أن يكون راجعا إلى ما بعد الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى المنصوص عليه فى صدر السورة ، فتكون الحادثة مفترقة إلى قسمين ، ويمكننا أن نسمى القسم الأول الإسراء كما سماه الله والقسم الثانى المعراج كما وقع فى الرواية عن معاوية . والأول ثابت بالكتاب والثانى بالحديث المشهور . والرؤيا المذكورة فى الآية الثانية على أى معنى كانت ، راجعة إلى هذا القسم الذى وقع فى ذيل الإسراء المذكور فى الآية الأولى لا إلى الإسراء نفسه . وإلا فكيف يمكن بعد أن قيل بأجلى صراحة توقظ النائم عن نومه والغافل عن غفلته : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا» أن يقال فى آية أخرى إن حديث الإسراء كان رؤيا منامية ؟!

ولا يصعب فهم ما ذهبنا إليه من تفريق المسألة إلى قسمين وجعل الرؤيا راجعة إلى القسم الثانى ، من لفظ ابن عباس : «إن هذه رؤيا عين أُرِيَها رسول الله لما أُسرى به إلى بيت المقدس» حيث جعل الإسراء ظرفا للرؤيا ولم يجعل الرؤيا ظرفا للإسراء ، فيكون الخلاف فى الرؤيا الواقعة فى الإسراء الذى لا خلاف فيه ، فابن عباس لايرضى أن يكون عروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات ورؤية ما رآه فيها ليلة

أسرى به إلى المسجد الأقصى ـ وهو الذى عبرنا عنه بالقسم الثانى من واقعات تلك الليلة ـ حالةً منامية كما لم يكن الإسراء إلى المسجد الأقصى الذى هو القسم الأول حالة منامية ؛ وعلى قول معاوية فى الرواية الضعيفة عنه يكون الإسراء عيانا وما بعده رؤيا صادقة ، وإلافليس لمعاوية ولالأى مسلم يفهم الكلام العربى ويفقه الفرق بين أساليب الإلقاء أن يتردد فى تصديق كون الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى المصرح به فى أول السورة المسماة به ، واقعة عيانية . فإذن لا بد أن تكون رواية الرؤيا عن معاوية إما محمولة على ما بعد الإسراء أو مكذوبة عليه . وهكذا نعتبر كل رواية فى تفسير الحادثة تخالف نص القرآن ، مرفوضة .

وحمل الرؤيا فى الآية الأخرى على الحالة المنامية كما ينافى الصراحة الرائعة للآية الأولى، يتنافى أيضا مع ماذكر فى آية الرؤيا نفسها من جعل تلك الرؤيا فتنة للناس إذ الرؤيا المنامية مهما أمعنت فى الغرابة لا تكون فتنة للناس . فلو كان نبأ الإسراء من أوله إلى آخره رؤيا فى المنام، لم يلتئم أول الآية التى ذكر فيها الرؤيا مع آخرها ؛ وقد روي أن حكاية النبي صلى الله عليه وسلم ما جرى فى ليلة الإسراء أثارت الدهشة فى سامعيها من المسلمين والمشركين ، حتى كان بينهم من ارتد عن الإسلام استبعادا للأمر ، وذهب بعض من أخذتهم الريبة إلى أبى بكر وحدثوه حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال إنكم تكذبون عليه يعنى أنه استبعد أيضا ، قالوا ها هو ذاك فى المسجد يحدث الناس ، فقال بعد أن اقتنع بأنه حديثه : « لئن كان قد قاله لقد صدق ، إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه »

والعجب أن الكاتب الكبير الهندى الذى مر ذكره غير مرة والذى ألف فى عصرنا كتابا فى السيرة قيما جدا، إذا قسناه بكتاب معالى هيكل باشا وجدنا مسافة الفرق بينهما أكثر من مسافة الفرق بين كتاب معاليه وبين كتاب واحد من المستشرقين فى هذا الموضوع ، وخص مجلدا كبيرا من مجلداته ـ وقد قسم هذا المجلد فى الترجمة

التركية إلى مجلدين ـ بحياة نبينا الروحانية أعنى معجزاته ؛ العجب أن هذا الكاتب [١] مع عدم تردده فى وجود معجزات له صلى الله عليه وسلم غير القرآن ، وقد أحصاها فى المجلدين المذكورين من كتابه ، ومع عدم تردده فى كون الإسراء واحدا من أعظم تلك المعجزات ؛ اختار مذهب الرؤيا فيه مطلقا ، أو على الأقل لم يكن واضحا فى التفريق بين قسميه اللذين ذكرناها واللذين أحدهما ثابت بالكتاب يكفر منكره والثانى ثابت بالسنة المشهورة . ثم أجاب عن الاعتراض على هذا المذهب بعدم معقولية كون الرؤيا فتنة للناس لدرجة أن مسألة الإسراء سببت ارتداد طائفة من المسلمين الذين كانوا أسلموا قبلها .. أجاب عن هذا الاعتراض بعدم قبول رواية الارتداد مع ما فيها من امتياز أبى بكر رضى الله عنه بالمسارعة إلى تصديق النبى صلى الله عليه وسلم حتى لقب بالصديق .

وأنا أقول فلنسلم أن هذه الروايات مختلقة عن آخرها ، ولكن ماذا نقول فى تصريح آية الرؤيا بكونها فتنة للناس ؟ ! فلا بد أن تكون هناك بالنظر إلى نص القرآن فتنة إن لم تكن للمسلمين فللمشركين ، بإثارة استبعادهم وانتهازهم فرصة امتحان الرسول بأسئلة عن القدس والمسجد الأقصى وعن الطريق بين البلدين . ولا يعقل أن تكون الرؤيا المنامية داعية إلى إعظام الأمر لحد أن تجعل فتنة للناس بأى وجه كان ، فإن أجاب أخونا الفاضل المذكور باحتمال أن يكون المشركون لم يظنوها رؤيا ، فمن المستبعد جدا أن يظنوا ما حدثهم رسول الله على أنه رؤيا ، عيانا وليس بمُجدٍ لذلك أن تُعدّ هذه الاعتراضات عقلية ، فهى عقلية مبنية على أساس نقلى هو كون القرآن صرح بأن الله جعل الرؤيا التى رآها رسوله فتنة للناس ، فنحن لا محالة مضطرون إلى الأخذ بقول ابن عباس فى الرؤيا كيلا يكون لآية الرؤيا نفسها معنى مختل غير معقول ،

---

[١] أو بالأصح متم كتابه بعد وفاته وهو الفاضل سليمان الندوى .

فيكون لفظ الرؤيا حقيقة فى معنى الرؤية مطلقا ويكون قـول ابن عباس أو استعمال القرآن بالذات شاهدا لغويا يجب إكمال ما فى المعاجم من النقص توفيقا له ، أو يكون استعمال الرؤيا فى معنى الرؤية استعمالا مجازيا خاصا بالرؤية ليلا كما ذهب إليه بعض المفسرين ، وكما وقع فى شعر المتنبى والراعى المار الذكر .

***

ثم إن هذا المؤلف الفاضل عقد للمعجزات ٣١ فصلا وذكر فى الفصل الرابع عشر الذى خصصه مع الفصل الثالث عشر لمعجزة الإسراء ، أسرارها وأحكامها وبشائرها ونعمها ومناداتها ، مُجيدا فى الذكر ومفيدا غاية الإجادة والإفادة ، فكاد يطبق سورة الإسراء التى فى القرآن الكريم من أولها إلى آخرها على واقعة الإسراء وما تضمنته من الأسرار والأحكام . ونحن نذكر ما يمكن ذكره فى بعض صفحات ، مما خصص له المؤلف ٢٥ صفحة . ففى سورة الإسراء .

١ — إعلان كونه صلى الله عليه وسلم نبى القبلتين .

٢ — إشارة إلى انتهاء ولاية اليهود وحراستهم القدس وتفويض ذلك إلى آل إسماعيل .

٣ — إشارة إلى انتهاء دور الوعظ والنصح لكفار قريش واقتراب دور العذاب منهم ، بإخراج الرسول من بينهم مهاجرا .

٤ — الأحكام والوصايا فى المعراج .

٥ — الأمر بالصلاة والإشارة إلى أوقاتها الخمسة .

(١) ففى معجزة الإسراء والتنويه به فى مطلع السورة المسماة باسمه ، مناداة النبى صلى الله عليه وسلم وإعلانه نبى القبلتين : فقد كان سيدنا ابراهيم أُعطى ولاية الأرض المقدسة فقسمها بين ابنيه : شِبه جزيرة العرب وفيها مكة ، لإسماعيل ، وسوريا وفيها القدس ، لإسحق ، فتعهد القدس بنو إسرائيل الذي هو لقب يعقوب بن اسحق ،

وفيهم أنبياء بنى إسرائيل من يوسف إلى عيسى عليهم السلام . وتمهد مكة بنو إسماعيل ، وكانت قبلة بنى إسرائيل بيت المقدس وقبلة بنى إسماعيل الكعبة ، فجُمع فى نبينا ميراث ابراهيم المنقسم بين نجليه . فلذلك صلى إلى القبلتين بعد أن فرضت الصلاة ، ولذلك أُسرِىَ به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وصلى فيه بالأنبياء ، فأعلن كونه نبى القبلتين ، وفى هذه الليلة فرضت الصلاة ، كما أنه أشير إلى أوقاتها الخمسة فى سورة الإسراء نفسها .

(٢) كانت سورة الإسراء نزلت بمكة . ولما أنه ليس لرسول الله اتصال باليهود فى مكة ، لم يكن القرآن يخاطبهم ، فخاطبهم أول مرة فى هذه السورة اشارة إلى افتتاح دور جديد فى الإسلام باقتراب الهجرة إلى المدينة وتأسس المناسبة فيها بين المسلمين واليهود ، فذكر أن اليهود الذين أوتوا التوراة هدى لهم قُضى إليهم أنهم ليفسدن فى الأرض مرتين بغياً وعتواً وليُجزونّ بسوء أعمالهم . ففى المرة الأولى سُلط عليهم بختنصر فدمرهم وخرب ملكهم ثم تابوا فتاب الله عليهم وأعاد إليهم دولتهم ، وفى المرة الثانية سلط عليهم الرومانيون فقتلوهم وخربوا ديارهم . ثم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم أعطاهم الله فرصة التوبة للمرة الأخيرة : فإن تابوا وأطاعوا الرسول فالله يرحمهم ، وإن عادوا إلى المعاصى عاد الله إلى العقوبة . فإن لم ينتهزوا الفرصة فسيحرمون نهائيا حراسة بيت المقدس ويجمع ميراث اسرائيل الى ميراث إسماعيل فيتولاهما النبى صلى عليه وسلم معا ، وهذا نص القرآن :

« وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألاّ تتخذوا من دونى وكيلا . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا . وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدُن فى الأرض مرّتين ولتعلنّ علواً كبيرا . فإذا جاء وعد أولهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا . إن أحسنتم

أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » .

(٣) وفي هذه السورة أيضا إنذار نهائي لكفار قريش فقد كانوا يستعجلون النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب تمرداً عليه ، فأنبئوا أن الله لا يعذب قوما حتى يبعث إليهم من يهديهم إلى صراط الله وحتى ييأس الهادي من إجابتهم الدعوة . وفي هذه الحالة يُرى اتفاق المترفين والمستكبرين على إسكات الحق وخنق صوته ، ويكون الذين ينحازون إليهم الواثقين بقوتهم وثروتهم ، والمنحازون إلى الهادي هم الضعفاء والفقراء ، كما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم مع قومه . فكانت الحالة مؤذنة بقرب مجيء الأمر للنبي ومن معه بالهجرة وإنزال العذاب على الباقين . وفي هذه السورة إشارة إلى كل هذا ، حتى ان فيها تبشير المؤمنين بفتح مكة بعد الهجرة وزوال نعمتي الإشراف عليها وحراسة الكعبة من أيدي كفار قريش وانتقالها إلى المؤمنين ، انظر إلى قوله تعالى :

« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما . ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا » وقوله « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيرا » وقوله « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا» وقوله « وقل رب أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق واجعل

لى من لدنك سلطانا نصيرا . وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

فكأن فى نبأ استفزازهم النبى صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من أرضه وتلقينه الدعاء الخير فى مُدخله ومُخرجه ، إشارةً واضحة إلى اقتراب هجرته من مكة ، ففى ذكر عدم لبثهم فيها بعد خروجه منها إلا قليلا وتعليمه أن يسألَ السلطان النصير له من عند الله فى مدخله ومخرجه ، ثم يقولَ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، إشارةٌ إلى اقتراب موعد الهلاك من كفار قريش والنصر للمؤمنين عليهم وفتح مكة ، حتى ان النبى صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة فاتحا وطهّر الكعبة من الأوثان قرأ هذه الآية من سورة الإسراء النازلة فى مكة قبل الهجرة أعنى : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

(٤) إن الله تعالى دعا عبده الخاص إلى لقائه الأقدس لتولية الكعبة وبيت المقدس وأوصاه الوصايا الآتية كشروط التولية :

« لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا . وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربى ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خِطئاً كبيرا . ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قُتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً . ولا

تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا. وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » .

ثم قال « ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة » كما قال فى سورة النجم بعد قوله : « ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » : « فأوحى إلى عبده ما أوحى »

والوصايا المذكورة فى الآيات التى كتبناها اثنتا عشرة وصية جامعة لأسس الخير والشر فى الدنيا . يقول المؤلف : « وهذه الأوامر الإلهية تكملة الأوامر العشرة التى تلقاها سيدنا موسى من ربه فى الطور » ثم ذكر الأوامر العشرة هكذا :

لا إله لكم غيرى .

لا تحلفوا كاذبين .

اذكروا يوم السبت .

احترموا الوالدين .

لا تسفكوا الدماء .

لا تزنوا .

لا تسرقوا .

اجتنبوا شهادة الزور ضد جيرانكم

لاتطمعوا فى امرأة جاركم .

لا يضلكم مال جاركم .

وفى السورة إشارة أيضا إلى الصلوات الخمس التى فرضت فى ليلة الإسراء وهى قوله تعالى « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر » أى أدمها من

وقت زوال الشمس الى اجتماع ظلمة الليل ، وليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين بالاستمرار بل إقامة كل صلاة فى وقتها الذى حُدِّد لها ببيان جبريل ، كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة الى بيانه . فيدخل فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء . ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلاة من غير فصل بينها لما أن الإنسان يكون فيما بين هذه الأوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض ، بخلاف أول وقت العشاء والفجر فإن الاشتغال فيما بينهما بالنوم يقطع أحدهما عن الآخر ، ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات . والمراد بقرآن الفجر صلاة الفجر سميت به لكونه ركنها كما تسمى الصلاة بالركوع والسجود تسميةَ الكل باسم الجزء ، ومن السنة إطالة القرآن فى صلاة الفجر .

بقى أن نقول . من العجب اختيار أخينا الفاضل الهندى متمم السيرة الذى كشف اللثام بمهارة عن أسرار ليلة الإسراء وأحكامها ، كونَ الإسراء نفسه حالة منامية ، وهو لا يفرق بين الإسراء والمعراج وإنما يعتبرهما حادثة واحدة مذكورة باسمين ، أليس عجيبا أن تكون تلك الأحكام الجامعة لأسس الخير والشر الآمرة ببعضهما والناهية عن الآخر ، أوحيت فى الرؤيا ، حتى الصلوات الخمس أيضا فرضت فى المنام !! وإن كانت رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم لا تقاس برؤيا غيره ونومه بنوم غيره . فهل سورة الإسراء أيضا التى طبق الكاتب معظم آياتها على حادثة الإسراء نزلت فى المنام على خلاف سور القرآن الأخرى ؟ ! فالحق أن المعراج أيضا ونعنى به ما بعد الإسراء لم يكن حالة منامية وقد فسرنا به قول ابن عباس فى تفسير قوله تعالى « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » كما لا احتمال أصلا لأن يكون الإسراء حالة منامية .

وهنا انتهينا بحمد الله من الكلام فى مسألة المعجزات . ونريد الآن أن نتكلم فى مسألة البعث بعد الموت ، فنقول ومن الله التوفيق والهداية إلى القول الحق :

مسألة البعث

لمنكرى البعث بعد الموت ، وربما يقال عنهم منكرو الحشر ، صورتان للإنكار وطريقتان توصلانهم إليه . فالصورة الأولى إنكار الحشر بالمرة جسمانيا وروحانيا ، وهو مذهب ملاحدة الماديين . والصورة الثانية إنكار الحشر الجسمانى فقط وهو مذهب الفلاسفة الإلهيين أى المعترفين بوجود الله . وقد أنكرهما الأستاذ فريد وجدى لما أنكر البعث بعد الموت قبل تولى الوظيفة الأزهرية . وفى الأيام الأخيرة التى أخذ يعترف بالآخرة فى مجلة الأزهر اعترافا يختلسه أثناء كلماته ، من غير إلمام إلى إنكاره القديم بشىء من الندامة والرجعة ، لابد أن يكون اعترافه مصروفا إلى الحشر الروحانى ، لكون هذا الاعتراف المختلس حدث منه بعد نزوعه إلى مذهب الروحيين من علماء الغرب القائلين بوجود الروح ، وليبق على الأقل أدنى رابطة بين قوله الحديث وقديمه الذى لم يعترف إلى الآن بخطئه فيه ، فلا يكونَ الأستاذ فريد وجدى المقر كأنه غير الأستاذ المنكر تماما

ومذهب الإسلام الجزم بوقوع الحشر وتحقق عالم الآخرة عند مجىء وقته جسمانيا وروحانيا معاً ، لأن كتاب الله صريح بهذا الصدد لا يكون وراءه صراحة ، ويكون إنكار الحشر الجسمانى بعد تلك الصراحة بل الصراحات إنكاراً للقرآن ، ولذا أفتى علماؤنا بكفر الفلاسفة القائلين بالحشر الروحانى فقط : أما رد الأستاذ فريد وجدى جميع آيات القرآن الواردة فى البعث والحشر وما يلاقيه الإنسان فى نشأته الآخرة ، إلى المتشابهات التى لا تفهم معانيها فليس إنكاراً للقرآن فقط ، بل إنكارا أيضا لما فى بداهة العقول وهو كون تلك الآيات مفهومة واضحة المعانى [1] .

---

[١] نعم نحن عارفون بكون مراد الأستاذ أن تلك الآيات متشابهة غير مفهومة المعانى، لاستحالة وقوع تلك المعانى المفهومة المخالفة لسنن الكون وللعلم الحديث المثبت الذى سبق أن جعل له الأستاذ الدولة فى الأرض . وإذا كان ذلك مراده لا أن تلك الآيات لا يفهم منها معنى من المعانى ، كان معنى الرد إلى المتشابهات تكذيب القرآن فى تلك الآيات لا سيما فى قوله تعالى مثلا « أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى » وقوله « فلينظر الإنسان =

وأما ما يرى فى بعض كتب أصول الدين عند تعداد المذاهب فى المعاد ، من أن مذهب جمهور المتكلمين المعاد الجسمانى فقط ، فليس معناه حشر الأجساد خالية عن الحياة إذلا معنى له ، وإنما سبب هذا المذهب كون أولئك المتكلمين غير قائلين بوجود الروح مجردة عن البدن ، فهى عندهم عرض قائم بالبدن فلا حاجة فى مذهبهم عند البعث بعد الموت إلى إعادة الروح لكون إعادة البدن تتضمن إعادتها. لكن المحققين من المتكلمين كالحليمى والغزالى والراغب وأبى زيد الدبوسى قائلون بوجود الأرواح وحدوثها مع الأبدان ـ وهو مذهب أرسطو وابن سينا ـ ثم بقائها بعد مفارقة الأبدان إلى أن تعاد لها أبدان تتلاءم مع النشأة الثانية ، وهذه الأرواح هى المرادة من الأجزاء الأصلية المحفوظة للإنسان كما فى « تهافت الفلاسفة » لخواجه زاده . وبهذا تنقذ مسألة المعاد عن لزوم إعادة المعدوم بعينه التى يدعى منكروها استحالتها بل بداهة استحالتها .

وقوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه » ليس بقطعى الدلالة على هلاك الأرواح مع كل شىء هالك ، لاحتمال أن يكون معناه هلاك كل شىء سوى الله، حتى فى حال وجوده، لكونه ممكنا يحتاج فى وجوده إلى من يوجده وهو الله ، فلا وجود لما سوى الله لذاته، وكفى بذلك هلاكا . والهلاك بهذا المعنى يشمل الأرواح أيضا الباقية بعد الموت .

وجمهور المتكلمين القائلون بجواز إعادة المعدوم بعينه يستدلون بهذه الآية على فناء الأرواح مع الأبدان ويحملون الحشر بالإعادة ، لا بجمع الأجزاء المتفرقة التى لا مدخل لها فى تعيين هوية الإنسان، وضمها على الأجزاء الأصلية المحفوظة . وهو أى جمع الأجزاء مذهب المحققين المتفقين مع الفلاسفة فى عدم تجويز إعادة المعدوم بعينه .

ومع كون مذهبهم أسلم من النقاش ، ولا مانع عندى من اختياره ، فلى بحث فى

= مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر » وقوله « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » بناء على أن قدرته تعالى لا تتعلق بالمستحيلات ، وهذه الآيات تصر على دعوى كون الله قادراً على بعث الموتى الذى هو مستحيل عند الأستاذ .

دعوى استحالة إعادة المعدوم التي انتصبت مشكلةً قديمةً أمام مطلب الحشر الجسماني [1]
وليس معناها أن قدرة الله لا تسع إيجاد نشأة ثانية للإنسان في عالم ثان كما خلقهم في
حياة الدنيا ، وإنما الكلام في امكان أن يكون أشخاص الناس المُعادون في النشأة
الثانية عين الأشخاص الذين عاشوا في الدنيا وعملوا أعمالا يحاسبون عليها ويجزون
بها في نشأتهم الثانية إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وأن لايكون المجزىُّ غير العامل .
فهل يمكن عقلياً الاحتفاظ بهذه العينية الأولى في الخلق الثاني أو يستحيل ذلك عقلا ؟ وإن
كان لا محل للكلام بين العقلاء المعترفين بوجود الله وقدرته على الممكنات ، في قدرة
الله على خلق الخلائق سواء في النشأة الأولى أو في النشأة الثانية . فعلى المسلم المتعلم
غير المقلد في دينه وعقيدته أن يطمئن إلى كون ذلك ممكنا ككل ما يدخل في عقيدته
من متعلَّقات قدرة الله المشروطة بإمكانها في حد ذاتها ، مع تثبيت معنى الإمكان في
ذهنه على الوجه الصحيح العلمي ، وإني لا أقصد بالعلم علم الملاحدة الحديثَ الذي يرى
ما لا يدخل تحت التجربة الحسية مستحيلا كإحياء الموتى ، لأن ذلك العلم لايميز المحال
من الممكن بمقياسه الصغير الذي هو التجربة الحسية والذي بهذا القياس أيضا لا
يعترف بوجود الله ، وكان الأستاذ فريد وجدي حين أنكر معجزات الأنبياء والبعث
بعد الموت أنكرها بناء على مقياس العلم المذكور .

فمشكلة الحشر الجسماني في العلم الحديث غيرُها في العلم القديم [2] ، بل هي في
العلم الحديث ليست بمشكلة أصلا، وإنما عبارة عن كون أصحاب ذلك العلم أو بالأصح
بعض أصحابه الذين هم الملاحدة الضالون في حدود علومهم عن سبيل العقل ، التبس
عليهم عدم وقوع الحشر والبعث بعد الموت فعلا حتى الآن ، بعدم إمكان ذلك أبديا
فظنوا أنهم — ولا دليل عندهم غير التجربة — بتجربتهم للماضي جربوا المستقبل أيضا .

[١] حتى إنك ترى الصدر الشيرازي صاحب «الأسفار الأربعة» يتشدد في تنديد المتكلمين لقولهم بجواز إعادة المعدوم بعينه وينحى عليهم باللوائم البذيئة .

[٢] ولذا قلنا في صدر هذا المبحث إن لإنكار الحشر من منكريه طريقين توصلانهم إليه .

أما مشكلة إعادة المعدوم بعينه بعد الاعتراف بوجود الله وقدرته على خلق الخلائق للدنيا والآخرة ، أى المشكلة القديمة المتولدة من دعوى عدم إمكان أن يكون المخلوق ثانياً عين المخلوق أولا الذى هو صاحب العمل الصالح أو العمل السيء ، فأقوى أدلة المدعين على عدم هذا الإمكان أن المُعاد لو كان عين المبتدأ لزم تقدم الشيء أعنى المبتدأ على نفسه أعنى المعاد ، ذلك التقدم المحال الذى هو مرجع بطلان الدور . فإذا قيل لهم اعتراضا على دليلهم هذا: إن الإنسان فى العشرين من عمره مقدم على نفسه فى الأربعين، بل إن مثل هذا التقدم يحصل له بين أمسه ويومه ، أجابوا بأن هذا لا يضر لعدم تخلل العدم بين المقدم والمؤخر كما تخلل بين المبتدأ والمُعاد :

والحق عندى أن المانع من الإعادة إن كان لزومَ تقدم الشيء على نفسه فهو واقع فى رجل واحد بالنسبة إلى زمانيه فى حياته الدنيا ، ولا نسلم بكون تخلل العدم بين المقدم والمؤخر وعدم تخلله فارقاً مؤثرا فى الجواز وعدم الجواز ، لأنه إذا كان معنى عدم جواز دخول العدم بين الشيء ونفسه أنه لا يجوز أن يكون الشيء موجوداً ثم معدوما ثم موجودا فى أزمنة مختلفة، فما المانع من ذلك ؟ وهل الله غير قادر أن يخلق مرة ثانية أحدا من الذين خلقهم ثم أرداهم ، ومن أين يجب أن يكون كل مايخلقه فى المرة الثانية، خلقا آخر غير الأولين ؟ ومن أين يلزم فيما خُلق ثم عُدم ثم خلق ثانياً ، أن يبقى فى حال عدمه شيء منه ليكون حلقة اتصال بين وجوديه وأن لا يمكن خلقه بعينه من دون ذلك ؟ حتى أنهم تصوروا إمكان إعادة المعدوم فى مذهب المعتزلة فقط القائلين بأن هويات المعدومات الممكنة متمايزة ثابتة فى العدم ثبوتا منفكا عن الوجود الخارجى ، لولا أن ذلك المذهب باطل . ولكن لماذا يحتاج خالقه ثانيا إلى بقاء مثل هذه الوسائط؟ ألئلا يخطىء عند الإعادة فيخلق خلقا آخر على ظن أنه عين المخلوق الأول ؟ فهل لا يكفيه لئلا يخطىء فى الخلق، بقاء المخلوق الأول بعد عدمه، فى علمه ؟ ومنشأ المشكلة وهم

أتعجب غاية التعجب من تعلقه بأذهان الناس وفيهم أعاظم العقلاء مثل الشيخ الرئيس ابن سينا وكثير من محقق المتكلمين المتأخرين وكلهم لا يستنكفون عن الاعتراف بوجود الله وسعة قدرته. أما شتم صاحب الأسفار لجمهور المتكلمين بسبب هذا الوهم الحاصل فيه وفي قادته فشيء لا يكفيه التعجب.

وتوضيح الأمر أن تقدم الشيء على نفسه باطل لاشك فيه كما في الدور الباطل، وكذا دخول العدم بين الشيء ونفسه، لكن لا شيء في إعادة المعدوم بعينه من التقدم والدخول المذكورين الباطلين، كما أنه لا تقدم ولا تأخر بين الإنسان ونفسه بالنسبة إلى زمانيه في الدنيا، لأن العين والنفس في الصورتين ليستا عينا ونفسا من كل وجه، بل القدم غير المؤخر فيهما بقيد معتبر في كل واحد من الطرفين يجعله غير الطرف الآخر ويجعل تقدم المتقدم على المتأخر ممكنا. فزيد الذي في عالم الآخرة المثاب في الجنة أو المعذب في جهنم وزيد الذي كان في الدنيا غيرانِ طبعا، مهما كانا ذاتا واحدة كما يقال الإثنان غيرانِ، فلا يكون تقدم زيد الدنيوي على الأخروي تقدم الشيء على نفسه. ولو لم يكن الزيدان المذكوران غيرين لوجد هذا في دنياه نعيم الجنان أو عذاب جهنم ووجد ذاك في الجنة أو النار حالاتِ كونه في الدنيا، وهذا مستحيل كاستحالة وجود رجل واحد في آن واحد في دارين مختلفتين. وكذا الإنسان في شيخوخته غيره طبعا في شبابه، وإلا كان شيخا وشابا في زمان واحد وهو محال.

فظهر من هذا أن الزمان بل المكان أيضا داخل في مشخصات الأشخاص وأن دخوله لا يمنع الحشر الجسماني على طريقة إعادة المعدوم بعينه التي في مذهب جمهور المتكلمين، كما زعمه خصوم هذا المذهب، لأن المطلوب في كون المُعاد عين المبتدأ ليست العينية من كل وجه المستحيلة والمستلزمة دخول العدم بين الشيء ونفسه أو تقدمَ الشيء على نفسه بل يكفي وجود الاتحاد الذاتي بين المبتدأ والمعاد على وجه يصح بينهما الحمل بهو هو، وإن تغايرا من حيث أن المبتدأ متقدم الوجود على المعاد، لكن لا يمنع هذا

التقدم وهذا التغاير كونَ المتأخر عين المتقدم ومتحدا معه من حيث الذات ، كما لا يمنع التقدم والتغاير بين زيد الشاب وزيد الشيخ كونهما ذاتا واحدة [1] . والفرق بين كون زيد رجلا واحدا فى شبابه وشيخوخته وبين كون زيد المعاد فى الآخرة متحد الذات معزيد السابق فى الدنيا ، لدخول العدم بين زيدين فى الصورة الثانية وعدم دخوله فى الصورة الأولى ، ليس بفارق معتدبه ، لأنه إذا أمكن دخول التقدم والتأخر بين الشئ ونفسه يمكن دخول العدم أيضا ، والتفريق بين الدخولين فى الإمكان وعدم الإمكان تحكمٌ لا يمكن إثباته من مدعيه . والسبب فى إمكان دخول التقدم والتأخر بين الشئ ونفسه فيما أمكن ، أن المتأخر ليس عين المتقدم من كل وجه ، فهما غيران مع الاتحاد الذاتى كما أوضحنا من قبل ، وإذا كانا غيرين جاز أن يدخل بينهما العدم أيضا كما دخل التقدمُ والتأخر .

ولقد أخطأ العلماء المحققون الذين لم يجيزوا إعادة المعدوم حاكمين باستحالة تقدم المبتدأ على المعاد مع كونهما ذاتا واحدة ، قياسا على استحالة تقدم الشئ على نفسه الذى فى الدور المحال ، أخطأوا فى حكمهم هذا وقياسهم ، لأن هذا التقدم الذى فى الدور يتضمن التناقض بأن يكون الشىء موجودا قبل وجوده . ولا تناقض فى تقدم زيد الذى فى الدنيا على نفسه فى الآخرة ، وسبب الفرق بينهما أن الشىء مع نفسه فى الدور نفسُه من كل وجه ولا مغايرة بينهما أصلا ، بخلاف تقدم المبتدأ على المعاد . فلا تناقض فيه ، فمدار الاستحالة والإمكان على وجود التناقض وعدم وجوده ، فدخول التقدم بين الشىء ونفسه محال فى الدور لاستلزامه التناقض وكذا دخول العدم محال فيه ، وممكن دخول كل منهما فى إعادة الموجود فى الدنيا إلى الوجود الثانى فى الآخرة بعد

---

[١] بل ان هذا التغاير القليل بين شيئين ، لازم ونافع ليصح الحكم بينهما بهو هو ، فضلا عن كونه مانعا ومضرا ، بناء على أن المنطقيين يشترطون صحة الحمل بين موضوع القضية ومحمولها ، بأن يكونا متحدين فى الخارج ومتغايرين فى الذهن ، وبعبارة أخرى متحدين بالذات ومتغايرين بالاعتبار . ومعنى هذا الاشتراط أن العينية من كل وجه تضر صحة الحمل . ولذا احتاج قول الشاعر : «أنا أبو النجم وشعرى شعرى» إلى التأويل

العدم ، إذ لا تناقض فى هذا التقدم والتأخر ، كما لا تناقض فى تقدم زيد الشاب على زيد الشيخ ، ولا تناقض أيضا فى دخول العدم بين زيد فى الدنيا وزيد فى الآخرة كما كان دخوله فى الدور موجبا للتناقض : فإذا قلنا إن حركة المفتاح متوقفة على حركة اليد لا يجوز أن نقول وحركة اليد متوقفة على حركة المفتاح لكونه دورا ، وذلك لأن القول الأول يتضمن تقدم حركة اليد على حركة المفتاح تقدمَ العلة على معلولها ، والقول الثانى يتضمن العكس أعنى تقدم حركة المفتاح على حركة اليد بأن تكون حركة المفتاح علة لحركة اليد كما كانت حركة اليد علة لحركة المفتاح ، فتكون حركة اليد متقدمة على المتقدم عليها وهو حركة المفتاح ، والمتقدم على المتقدم على الشىء متقدم على الشىء ، فيلزم تقدم الشىء على نفسه أى يلزم وجوده قبل أن يكون موجودا وهو تناقض مستلزم لوجوده وعدم وجوده معا فى آن واحد ، ولا تناقض فى وجود زيد فى الدنيا قبل وجوده فى الآخرة ولا فى وجوده فى الدنيا شابا قبل وجوده شيخا لعدم كون كل من الوجودين المتقدمين علة للوجودين المتأخرين ولا الوجودين المتأخرين علة للوجودين المتقدمين ، بل الله موجدها متقدمَين ومتأخرَين ولأن زمان المتقدم ومكانه مختلفان عن زمان المتأخر ومكانه أو على الأقل زماناهما مختلفان ، ولهذا أمكن هذا التقدم والتأخر بين الوجودين ولم يضرا بمسألتنا بل نفعاها ، حتى لو كان زيد فى زمان وجوده فى الدنيا ومكانه فيها موجودا أيضا فى جنة الآخرة أو جحيمها كان محالا ، وسبب الاستحالة على هذا التقدير ليس التقدم والتأخر بل كون الواحد اثنين ، وكذا لو كان زيد شابا وشيخا فى زمان واحد.

ولنذكر مثالا ثانيا لتقدم الشىء على نفسه فى الدور المحال ليزداد ما يقابله من التقدم الممكن وضوحا : مثلا يصح القول بأن الدجاجة تخرج من البيضة ويصح القول أيضا بأن البيضة تخرج من الدجاجة. ولكن لا صحة لقول القائل مشيرا إلى بيضة معينة ودجاجة معينة : إن كلا منهما خرجت من الأخرى ، إذ لا يمكن أن تخرج الدجاجة من البيضة التى باضتها هى نفسها بعينها . فلا بد إذا كانت هذه الدجاجة خرجت من

البيضة كما خرجت البيضة من الدجاجة ، أن تكون تلك البيضة خرجت من دجاجة غير هذه الدجاجة ، وإلا لزم تقدم هذه الدجاجة على نفسها وأن تكون موجودة قبل وجودها لتخرج منها البيضة التى خرجت هى أى الدجاجة منها ، وهو تناقض محال ودور باطل .

وصفوة القول فى إثبات النشأة الأخرى أنها ثابتة ببلاغات صريحة محكمة من الله فى الكتاب الذى أنزله على رسوله المؤيد رسالته بالمعجزات . فهذا دليل حدوث عالم الآخرة فى المستقبل ووقوع ما ورد بشأنها فى كتاب الله فعلا وجسمانيا . ويلزم مع هذا الدليل النقلى مهما كان دليلا قطعيا أن يثبت إمكان ذلك العالم بدليل آخر عقلى ، على معنى أن لا يوجد مانع عقلى من خلق هذا العالم بعد ثبوت وجود الله الذى تسع قدرته جميع الممكنات والذى خلق الحياة الدنيا قبل الحياة الأخرى . وقد تيسر لنا الفراغ بحمد الله من إقامة هذا الدليل العقلى على إمكان المعاد إما بالاستعانة من بقاء الروح بعد افتراقها عن البدن أو بتحقيق جواز إعادة المعدوم .

ولنا أن نستدل على وجود النشأة الثانية للإنسان بدليل « كانت » على وجود الله ، كما جعلناه فيما سبق دليلا على وجود الأنبياء ترجيحا على كونه دليلا على وجود الله ، بل الدليل المذكور يقوم على وجود النشأة الثانية قبل أن يقوم دليلا على وجود الأنبياء فى رأينا ، وقبل أن يقوم دليلا على وجود الله فى رأى « كانت » .

ولنا أيضا أن نقول فى إثبات الحياة الثانية للإنسان فى عالم آخر : إن كون الإنسان مخلوقا أو موجودا فى غاية الأهمية ، لا يتناسب قطعا مع كون وجوده مقصورا على حياته الدنيا القصيرة . فالذين يعتقدون أن الإنسان فردا أو أمة ، يظهر فى وجه الأرض مدة كما يظهر النبات ثم يغيب ويتلاشى أبدا ويُنسى كأنه لم يكن موجودا ولا شيئا مذكورا ، فهم قبل كل شىء يحتقرون أنفسهم ويحتقرون عقولهم فى ضمن احتقارهم أنفسهم وينكرون البعث بعد الموت بهذه العقول الحقيرة . أما ما قرأته قبل سنين فى مقالة

نشرت فى جريدة « الأهرام » لواحد من الماديين من أنهم ينتظرون من رقى العلم فى المستقبل أن يكتشف دواء لكل داء ويرفع الموت فيحصل للبشر الخلود ونعيم الجنان فى الدنيا ، فلا ينفع الذين ماتوا من أعاظم العقلاء وأكابر المحسنين عملا الماضين والآتين قبل حلول ذلك الزمان المخيل ، ولا يكون عزاء للمتخيلين أنفسهم البعيدين عن زمان الاكتشاف ، فلا ينقذهم من الاحتقار ولا ينقذ غيرهم من الضياع الأبدى .

وأما استخراج خلود الروح من ثبوت وجودها بالكشفيات الجديدة ثم استخراج وجود عالم الآخرة من خلود الروح ، كما وقع للأستاذ فريد وجدى رئيس تحرير مجلة الأزهر فى بعض تطوراته الجديدة ، من غير إسناد ذلك العالم إلى نصوص القرآن لكونها عنده متشابهة لا تصلح دليلا لإثبات أى مطلب — فاستخراج لا يخرج منه مايصلح للدلالة على المطلوب ، لأن وجود الروح لايستلزم خلودها ولا خلودها يستلزم وجود عالم الآخرة مطلقا ، فضلا عن وجوده فى صورة جسمانية كما هو المعتقد فى دين الإسلام ، مبنيا على منطوق آيات كثيرة جداً من كتاب الله محكمات .

خاتمة الأبواب الثلاثة المتقدمة

نرى من اللازم المفيد أن نسجل هنا ونحن فى مختتم الباب الثالث من هذا الكتاب على نتيجة مساعينا فى الأبواب الثلاثة التى أثبتنا فى الباب الأول منها وجود الله وفى الثالث وجود الأنبياء وفى الثانى حدوث العالم ، فلولا ما ثبت فى البابين الأولين من وجود الله وحدوث العالم لاسيما وجود الله لما أمكن إيضاح كيفية وجود العالم ووضع فلسفة عامة لكيانه أولا ونظامه ثانيا . وملاحدة الماديين والطبيعيين فى عجز تام عن وضع هذه الفلسفة العالمية ، على الرغم من أنهم علماء الطبيعة الذين احتكروا اسم العلم لما يعلمون ، واختلافنا معهم أنهم يعترفون بوجود هذا العالم المحسوس الذى يعبر عنه بالطبيعة ولا يعترفون بموجود فيما وراءه . نعم ، العالم المحسوس الذى هو عالم الطبيعة

لايقف عند حد بل يزداد يوما عن يوم بكشف جديد من علماء الطبيعة ، فيظهر غداً وجود كثير مما لم يكن لنا بالأمس علم بوجوده ، وملاحدة الماديين لا ينكرون ذلك ، لكنهم لا يعترفون بوجود مازاد على العالم المحسوس إلا بعد أن ثبت وجوده بالتجربة الحسية التي يقوم بها العالِم الكاشف ، ولا يؤمنون بالغيب الذى نؤمن به ، ما دام غيباً خارجاً عن متناول الحس ، وإن شئت فقل : لا يؤمنون بشيء فيما وراء الطبيعة إلا بعد أن اطلع عليه علم الطبيعة بتجاربه الحسية وألحقه بالطبيعة ، فلا شيء عندهم فيما وراء الطبيعة ما بقى فيما وراءها . وهذا العالم المحسوس موجود عندهم من نفسه من غير موجد أنشأه ومالك يتصرف فيه ويمشّيه على النظام الذى سن له . وقد قلنا فى مقدمة الباب الأول من هذا الكتاب إن هذه البيوت والمنازل التى يسكنها الناس فى المدن والقرى من قصور الملوك إلى أكواخ الفقراء ، إذا كان لابد لكل منها مِن بان، فمَن الذى بنى السماوات والأرض ومَن هو مالكها المتصرف فيها والمهيمن عليها وفاعل هذه الأفعال البديعة التى يتضمنها الكون ؟

فالذين لايؤمنون بوجود خالق الكون وواضع نُظمه، مثلهم كمثل المنكرين لوجود من بنى تلك البيوت والقصور مدّعين كونها مبنية من نفسها ، ما داموا لم يروا بانيَها وهو يبنيها . ونحن المؤمنين بالغيب تحت إشراف العقل وإرشاده نعترف عند رؤية البناء ، بوجود البانى وإن لم نره . فالفرق بيننا وبينهم بسيط إلى هذا الحد ، فهل يسع الملاحدة أن يدّعوا إمكان وجود بيت أو قصر من تلك البيوت والقصور التى هى صنع البشر ، بنفسها من غير وجود بان وصانع ؟ فإن لم يسعهم ذلك فكيف يسعهم القول بوجود صرح العالم بسماواته وأرضه ، بنفسه ، من غير وجود بانيه ؟ أليس للسموات والأرض أهمية كأهمية واحد من البيوت المبنية بأيدى البشر حتى تستغنيا عما لايَستغنى عنه من البانى ، أم كان استغناؤهما عن البانى ، لكونهما فى غاية العظمة والبداعة ؟ أما الاحتمال الأول وهو كونهما فى الأهمية دون البيوت المبنية بأيدى البشر

فباطل بالبداهة ، وأما الاحتمال الثانى وهو أن يكون البناء الأعظم والأبدع مستغنيا عن البانى حين كان أقل البنيان وأحقره غير مستغن عنه ، فى غاية البعد من العقل .

لالا ، إن القائلين باستغناء العالم عن الصانع لم يقولوا به لتفاهته ولا لكونه فى غاية العظمة بل لأنهم وجدوا صرح العالم حاضراً أمام أعينهم مصنوعا ، من غير حاجة إلى نشدان صانع له.. ولو لم يجدوه حاضراً لما وسعهم القول بوجود أصغر جزء منه من غير صانع . فسبب استغناء العالم عندهم عن الموجد هو وجوده من غير حاجة إليه فى نظرهم ، وهم ليسوا بأذكياء لحد أن يتنبهوا لما فى هذا التعليل من المصادرة على المطلوب. ومن السهل على القارىء أن يفهم مبلغ ذكائهم من عدم أبههم بالعقل كما يأبهون بالحس، ذلك الأمر الذى أحوجنا على طول الكتاب إلى الدفاع عن كرامة العقل حيال الحس .

فإن قيل: ملاحدة المادية والطبيعية قائلون بأن العالم لا أول لوجوده فهو موجود من الأزل ولهذا استغنى عن الموجد لأن إيجاد الموجود تحصيل للحاصل ، وليس للمؤمنين بالله أن ينكروا وجود مالا أول لوجوده واستغنى عن الموجد لأن الله تعالى عندهم لا أول لوجوده وهو مستغن عن الموجد لهذا السبب ، فكما أن الله تعالى لا أول لوجوده ولم يسبقه العدم فاستغنى عن الموجد ، فليكن العالم كذلك عند الملاحدة .

قلت عقلاء البشر مضطرون ـ لقطع التسلسل فى تعليل وجود الموجودات المحتاجة إلى علة موجدة ـ إلى الاعتراف بوجود موجود بنفسه لا أول له ولا موجد يوجده ، ليكون علة أولى لسائر الموجودات وينتهى فيه تسلسل العلل. ومعنى هذا أن وجود الله بنفسه من غير موجد يوجده نعترف به اضطراراً وعلى خلاف القياس. وإلا فعقل البشر لا يدرك موجودا لا أول له ولا موجد[1] وإن كان يدرك ضرورة وجود هذا الوجود بعد النظر فى وجود العالم ، ولولا الضرورة القاضية لما اعترفنا به . وبعد الاعتراف بوجود واحد لا أول لوجوده لا نحتاج إلى وجود موجودات كذلك ، بل لا نجيز

[١] ولذا قال اسپنسر بلسان طفله الساذج : من أوجد الله ؟ (ص ١١٤ جزء ثان) .

وجود موجود آخر من هذا القبيل لأن الضرورات تقدر بقدرها . فالفرق إذن بيننا نحن القائلين بوجود إله واحد خالق للكائنات وبين منكرى الإله الخالق القائلين بوجود الكائنات بأنفسها وطبائعها من غير موجد ، أننا نعتقد موجودا واحدا يجب وجوده لإسناد وجود سائر الموجودات إليه ، وهم يعتقدون وجود موجود واجب الوجود بعدد الموجودات فى العالم ، لأن الوجود بنفسه من غير موجد يكون واجب الوجود ، مع أن القول منا بوجود موجود واحد واجب الوجود لم يحصل إلا اضطرارا ، فلا يجوز أن يُتعدى فى القول به حد الاضطرار ، ومع أن موجودات العالم غير جديرة بأن تكون واجبات الوجود .

ولا يقال: إن ملاحدة المادية والطبيعية لا يدّعون كون العالم موجودا بنفسه من غير موجد كالبناء من غير بان ، بل يقولون إنه فعل الطبيعة وأثرها ، لأنا نقول : إن كان ما عبروا عنه بالطبيعة موجودا ذا علم وقدرة وإرادة تكفى لإيجاد العالم وتمشيته بعد إيجاده على وجه النظام المشهود، وكان هذا الوجود لا يحتاج فى وجوده إلى أى شىء، حين كان وجود كل شىء محتاجا إليه ، فهذا هو الله الذى نقول به نحن المؤمنين بالغيب ولا يبقى خلاف بيننا وبينهم إلا فى التسمية والتعبير . لكنا نعلم أن الطبيعة التى يقولون بها بدلا من الله لا يريدون به موجودا مستقلا عن العالم، وإنما هى عندهم كناية عن عدم وجود موجد للعالم ، لكونه موجودا بنفسه وطبيعته . وهذا عندنا هو القول بالمحال لأن الموجود بنفسه لا يكون إلا واجب الوجود كما قلنا ويكون مستحيلا تغيرُه من حال إلى حال ووجوده أو وجود شىء منه بعد العدم ، وعدمه أو عدم شىء منه بعد الوجود ، بل يستحيل تجزؤه وتركبه المستلزم لاحتياجه إلى أجزائه. والعالم المتغير المتجزىء المحتاج على الأقل إلى أجزائه لا يكون واجب الوجود، بل ممكنا يقبل الوجود والعدم متساويين بالنسبة إلى ذاته ، فيحتاج فى وجوده ، إلى مرجح يرجح له جانب الوجود ويوجده بعد ان كان معدوما ، وفى عدمه إلى مرجح يرجح له جانب العدم فيعدمه بعد أن كان موجودا ، وفى وجوده يحتاج أيضا إلى مرجح يرجح له أن

يكون على نوع معين من أنواع الوجود وعلى شكل معين من أشكاله فلو أنكرنا له هذه الحاجات كان قولا برجحان أحدالمتساويين بنفسه على الآخر من غير مرجح، وهو محال متضمن للتناقض . وهذا المرجح عندنا فى وجوده أو عدمه وفى كونه على نوع معين من أنواع الموجود وعلى شكل معين من أشكاله هو إرادة الله كما قال الله تعالى فى كتابه الكريم : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » فلو كان العالَم أو أى جزء من أجزائه موجوداً بنفسه من غير موجد وموجودا على نوع معين وشكل معين من غير معيِّن ، لزم الرجحان من غير مرجح أى لزم كون ما فرض وجوده وعدمه ثم وجوده على نوع دون نوع وشكل دون شكل متساويين بالنسبة إلى ذاته ، خلافَ ذلك أى غير متساويين . وخلاف المفروض محال متضمن للتناقض .

فالملاحدة الزاعمون أن مذهبهم فى عدم الاعتراف بوجود الله مذهب العلم غير المعترف بما لم يثبت وجوده بالتجربة الحسية ، غافلون وجاهلون لحد أن يزعموا التناقض المحال علما . فإذا كان العلم الطبيعى يبحث عن الأثر ويُغفل المؤثر أو يبحث عن المؤثر القريب ويغفل العلة الأولى، فالعقل الذى يميز المحال من الممكن والذى هوأبعد نظراً من العلم الطبيعى وأوسع ، يقضى بأن الكون أثر إرادة علية عليمة مسيطرة على مايدْعونه الطبيعة . ولعل سبب عدولهم فى إدارة الكون من هذه الإرادة العليمة الحكيمة إلى طبيعة لا علم لها ولا إرادة ، بل لا وجود لها أيضا كما حققنا فى محله من هذا الكتاب من أنها كناية عن عدم وجود فاعل لهذا الكون ونظامه ، سبب عدولهم إليها على الرغم من استحالة صدور مثل هذا الأثر العظيم عما لا علم له ولا قدرة ولا إرادة بل لا وجود ، أنه إذا لم يكن لهذا الكون مالك سوى تلك الطبيعة المعدمة التى ليس من شأنها أن تحاسب أحدا على مافعله فى السر والعلن ، فلانوجد فوق الإنسان قوة يُخشى

بأسها ولايؤمَن مكرُها فتحصل له الحرية التامة كما يعبرون ويعتزون به. ومن هذا بنى الفيلسوف « كانت » مسألة وجود الله على دليل الأخلاق فقال لولا الله لانهارت دعائم الأخلاق . ونحن مع استحسان دليله هذا مصرون على القول بأنا لانجده فى القوة والأهمية بحيث تبنى عليه مسألة وجود الله التى هى أعظم المطالب الفلسفية وأهم من كل شىء ومن مسألة الأخلاق أيضا . وقد سبق الكلام عليه فى آخر الباب الأول (ص ٧٨ ــ ٧٩ الجزء الثالث) .

على أن العلم الحديث المثبت الذى يعزى إليه عدم الاعتراف بوجود الله ، آخر مذهب هذا العلم أن كل شىء فى الكون راجع إلى الحركة ولا موجود غيرها، حتى إن المادة التى كانت لها الأزلية والأبدية عند الماديين البوخنريين ، لا وجود لها، وإنما البقية من تلك المادية القديمة هى القوة وهى الحركة . ولا نناقشهم هنا كيف تكون حركة من غير أن يكون هناك شىء متحرك هو المادة أو ما يقوم مقامها بعد زوال دولتها الأزلية والأبدية ، وإنما نسألهم عن سبب هذه الحركة أعنى المحرك ، ولا نرتاب فى أنهم يقولون فى الجواب إن سببها الحركة التى اتصلت بها من جانب الماضى طبق ما ذهب إليه «ذيمقراط» الحكيم اليونانى القديم، كما أن سبب تلك الحركة المتقدمة بدرجة واحدة هو الحركة المتقدمة بدرجتين . وهكذا الحال فى كل سلسلة الحركات الميكانيكية بأن يكون ما تقدم منها سببا لما تأخر وما تقدم المتقدمَ سبباً للمتقدم ، وهكذا دواليك من غير أن تكون لسلسلة الحركات الممتدة إلى جانب الماضى نهاية تبدأ منها السلسلة ولا تكون قبلها حركة . وبفضل هذه اللانهائية تجد كل حركة سببها فيما قبلها ولا تحتاج الحركات المتسلسلة إلى محرك خارج عن أجزاء السلسلة المحرك بعضها بعضا .

هكذا يقولون اليوم ، وبهذا يتضح أن المرجع الحقيقى لاستناد اللاحدة فى قولهم باستغناء العالم الذى هو اسم لمجموعة الكائنات ، عن وجود الله ، ليس عقيدة عدم

احتياج أى موجود فى وجوده وأى حادثة فى حدوثها إلى السبب، وإن كان ظاهر قولهم بأن كل ما كان وما يكون فى العالم ناشىء من طبيعة الكائن، يقتضى نفى السبب ، لكن الحقيقة أنهم لا ينكرون مبدأ العلية ولا يقولون بتكوّن كل كائن بنفسه من غير تأثير فيه من الخارج، وهو الذى يعبر عنه علماء الكلام بالرجحان من غير مرجح ويبطلونه . فالملاحدة أيضا لا يقولون بهذا الذى يتنافى مع مبدأ العلية ، وإنما يقولون بنفى السببية والعلية من خارج العالم، فلكل كائن سبب يوجب كونَه والسببُ كائن آخر له سبب أيضا ولسبب السبب أيضا سبب، وهلم جرا إلى مالا نهاية له من الأسباب المتقدمة المهيئة لمسبباتها التى كل منها أيضا سبب لما بعده . ولعدم انتهاء الأسباب المتقدمة إلى سبب أول لا سبب قبله ، ولكون العالم قديما عندهم لا بداية له ، على خلاف ما قلنا نحن فى الباب الثانى من أن العالم حادث له بداية ، فلا حاجة عندهم لوجود العالم إلى وجود الله ، لأن وجود العالم عبارة عن وجود سلاسل أسباب غير متناهية لمسببات مثلها غير متناهية، ولكون الأسباب غير متناهية فى جانب الماضى وكون جميعها داخلة فى أجزاء العالم، فلا يجىء فى الجانب المتقدم دور الحاجة إلى وجود الله فى خارج العالم ليكون سببا أول لتلك الأسباب وعلة أولى لتلك العلل ، إذ لو جاء دورها لجاء بعد انتهاء الأسباب المتقدمة الداخلة فى العالم، إلى سبب لا يتقدمه سبب من جنسه داخل فى العالم ، لكنهم يقولون إن الأسباب العالمية المتقدم بعضها على بعض غير متناهية .

فالأساس الأخير لمذهب الإلحاد وسندُه الذى يستند إليه نهائيا، قدمُ العالم وتسلسل العلل ، وما يتوقف عليه هدم هذا المذهب إثبات حدوث العالم وإبطال تسلسل العلل والأسباب إلى غير نهاية . وقد كان أعظم غلطة وقع فيها الشيخ محمد عبده وإن يقع فى مثلها رجل من رجال العلم والدين ، إنكارَه لبطلان التسلسل الذي يدور عليه إثبات وجود الله تعالى [١] ونحن بتوفيق الله عزوجل قمنا بواجب هذا الإبطال فى أمكنة عدة

---

[١] سبق منا فى الباب الأول والباب الثانى من الكتاب أن نقلنا نص قول الشيخ بإنكار بطلان التسلسل ورددناه عليه .

من هذا الكتاب أوضح قيام يتمكن من إدراكه الخاص والعام ، ولا نصَن هنا أيضا بصورة مختصرة من إبطال ذلك الباطل ، تطبيقا له على آخر نظرية علمية فى الكائنات أعنى كونها عبارة عن سلاسل الحركات ، فنقول :

تسلسل الحركات إلى غير نهاية فى جانب الماضى على أن لا يكون لأى حركة منها سبب محرك غير الحركة التى قبلها ، فتكون كل حركة ، تقدمتها حركة أخرى تُسبِّبها ، فلا نهاية للحركات الماضية ولا نهاية لأسبابها التى هى عبارة عن الحركات أيضا .. تسلسل الحركات هكذا باطل ، ولا نبنى دعوى بطلانه على برهان التطبيق أو غيره من البراهين المبطلة للتسلسل المعروفة عند علمائنا المتكلمين بل عند الفلاسفة القدماء أيضا والتى اعترض عليها بعض العلماء قديما أو حديثا بحق أو بغير حق [1] وإنما نبنى دعوانا على إبطالٍ فعلى يقتنع به القارىء معنا فنقول : إن دوام الحركات فى جانب الماضى التى لا محرك لها رأسا غير تحريك بعضها بعضا ، ضرب من الوهم والخيال . فالأوهام الكاذبة التى رمى بها الشيخ محمد عبده البراهين المنصوبة لإبطال التسلسل ، موجودةٌ فى التسلسل نفسه لاسيما تسلسل العلل ، لكن الشيخ التبس عليه محل الوهم الكاذب فظن المبطل باطلا والباطل حقا .. تتضح هذه الحقيقة عند تصور المسألة فى عدد متناه من الحركات : فلو فرضنا انتهاء سلسلة الحركات الممتدة من الحال إلى الماضى بعد خمسين حركة متراجعة ، وفرضنا أن سبب الحركة الأخيرة المتصلة بزمان الحال هو الحركة التاسعة والأربعون وسبب الحركة التاسعة والأربعين هو الحركةُ الثامنة والأربعون وسببها السابعة والأربعون ، وهكذا الحال إلى أن نأتى الحركةَ الأولى فرأيناها لا نستند إلى محرك من خارج السلسلة أى لا سبب للحركة الأولى ، وليست حركتها قوّانية « ديناميك » تندفع بنفسها ، بل حركة ميكانيكية منتظمة ، وكذا الحركات التى بعدها .

[١] تقدم الكلام على هذه النقاط فى البابين الأولين من الكتاب لا سيما فى فصل حدوث العالم من الباب الثانى .

فإذا انتفى سبب الحركة الأولى انتفت الحركة الأولى نفسها، وإذا انتفت الحركة الأولى التي كانت سبب الحركة الثانية انتفت الحركة الثانية أيضا ، وبانتفاء الثانية انتفت الثالثة وبانتفائها انتفت الرابعة ، وهكذا يقال في كل حركة بعد حركة منفية الى أن نبلغ الخمسين فرأيناها لا سبب لها ولا حركة . فسلسلة الحركات المؤلفة من خمسين حركة تصير ضربا من الخيال الكاذب إذا لم يكن هناك محرك أصلي سوى تحريك الحركات بعضها بعضا بأن يحرك المتقدم منها المتأخر الذي يليه ، لأنا رأينا عيانا أن لا حركة متقدمة ولا تحريكها للمتأخر . نعم رأينا انعدام الحركات لانعدام أسبابها ، في سلسلة فرضناها مؤلفة من خمسين حركة وهي متناهية ، فهل يكون الحال غيرَ مارأينا من الخيال لوفرضنا سلسلة الحركات لا تنتهي في جانب الماضي إلى حركة لا تتقدمها حركة، أي لو فرضناها غير متناهية ؟ وماذا ينفع سلسلة الحركات التي رأيناها لا وجود لها إلا في الوهم والخيال عند فرضها مؤلفة من خمسين حركة ، ماذا ينفعها أن نضم إليها من أمثالها عددا لا نهاية له من جانب الماضي ، فهل تنقلب الحركات الموهومة المتناهية بانضمام الحركات الموهومة غير المتناهية إليها حركات واقعية ؟ والواقع أن الزيادة في الموهوم الكاذب لا تكون إلا زيادة في الكذب والوهم ، وإن كان في الزيادة اللامتناهية التي لا يمكننا معاينة جميع أجزائها كمعاينة كل جزء من أجزاء السلسلة المؤلفة من خمسين حركة ، بعضُ تغطية وإخفاء لما تضمنته من كاذب الخيال . فإذا لم يكن لتلك الحركات المفروضة محرك غير أن يكون المتقدم منها سببا للمتأخر لزم أن يكون كل ما فرض وجوده من تلك الحركات غير موجودة ، وهو تناقض محال سواء كان عدد الحركات متناهيا أو غير متناه .

فمهما اعترض المعترضون على بطلان التسلسل وانتقدوا البراهين المُقامة لإبطاله، فهذا النوع من التسلسل وهو تسلسل العلل والأسباب الذي تأخذ كل علة فيه وجودها وعليتها من علة أخرى قبلها من غير أن تكون هناك علة أصلية تنتهي فيها سلسلة العلل ولا يكون وجودها وعلِّيَّتها مأخوذة من غيرها ، والذي ينبني إثبات وجود الله على

إبطاله، ليس فى بطلانه أدنى ريبة لعدم وجود سلسلة كهذه إلا فى الوهم والخيال. والذين يعتبرون الكون مجموعة مؤلفة من سلاسل حركات لا بداية لها وكلّ حركة فى كل سلسلة متولدةً من حركة مثلها متقدمةٍ عليها ، يخيل إليهم وجود حركات لا نهاية لها فى جانب الماضى كل حركة سبب لما بعدها مسببة عما قبلها ، ولا سبب لهذه الحركات من خارج السلسلة غير تولد بعضها من بعض . لكن هذه السلسلة المتوقف وجود كل جزء منها على وجود جزء قبله ، لم تكن عبارة عن سلسلة موجودات مسببات عن أسباب موجودة، بل سلسلة موقوفات فى وجودها على موقوفات ومحتاجات إلى محتاجات ، فإن كان أول جزء من هذه السلسلة موجودا فكل ماعداه المبنى وجوده على وجوده موجود أيضا ، لكن لا أول لهذه السلسلة حتى يقال إن كان موجودا فكل ماعداه موجود ، بل يفر هذا الأول كلما أردت النظر فى حاله لتعلم أنه موجود أو غير موجود ، إلى أول منه فتجده موقوفا وجوده على وجود ما قبله وتجد ما تريد أن تعتبره أول ليكون منبع فيضان الوجود منه إلى ما بعده من أجزاء السلسلة ، ليس بأول ، ومهما أمعنت فى الطلب فلن تصل بذهنك إلى أول جزء لهذه السلسلة يكون موجودا بالإصالة ومابعده موجودا بالتبعية له، ولو وصلتَ إليه انقطع التسلسل ونجحت دعوانا وهى وجود الواجب لا دعوى المتمسكين بالتسلسل طلبا للاستغناء به عن الواجب، فإذن لا وجود لسلسلة الأسباب التى يتمسك بها مجانين التسلسل لأن وجودها يتوقف على وجود أولها الذى يكون مبدأ وجود الآخرين ، فى حين أن وجود أول لسلسلة التسلسل انقطاعُ التسلسل وانهدامه .

فالتسلسل الذى هو أعظم لعبة للشيطان بأذهان المنكرين لوجود الله بل وأذهان بعض الغافلين من المؤمنين ، ينقض نفسه بنفسه فى نظر العاقل اليقظان، لأنه إذا لم يكن للسلسلة التى يتخيلها المتخيلون فى التسلسل وجودٌ فلا وجود لما بعد أولها المبنى وجوده على وجوده . وإذن لا وجود لسلسلة حركات غير متناهية يظنونها موجودة، على الرغم من ظهور عدم وجودها عند درسها متناهية ، فما هى إلا سلسلة حركات معلقة الوجود على أسباب غير موجودة على ظن أنها موجودة . ومنشأ الغلط فى الظن إقامة

عدم تناهى الأسباب التى لا وجود لها مقام وجود الأسباب ، وقد أوردت فى الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب أمثلة تزيد فى إيضاح مافى هذا التسلسل من البطلان والنتيجة أن العالم إن كان عبارة عن مجموعة مؤلفة من سلاسل حركات، فلابد أن يكون لها محرك من خارج السلسلة تنتهى هى فيه ، وإلا فلا يمكن وجود حركة واحدة فضلا عن وجود سلاسل حركات، وهذا المحرك هو الله . ثم إنه لو أمكن استغناء عالم الحركات الذى هو عالمنا على آخر رأى العلم ، عن محرك مستقل غير تحريك الحركات بعضها بعضا ولم يترتب عليه ما بيناه من التناقض ، لاحتاج ذلك العالم إلى وجود الله فى نظام الحركات وفى تعيين ما يترتب على الحركات من الغايات ، إن لم يحتج إليه فى نفس الحركات من طريق فرض المحال .

هذا تلخيص إثبات وجود الله وفى ضمنه إثبات حدوث العالم بإثبات البداية له عند إبطال التسلسل اللازم لإثبات وجود الله . أما إثبات وجود الأنبياء فقد أقمنا عليه فيما سبق غير بعيد [1] دليلا أقامه الفيلسوف « كانت » لإثبات وجود الله الذى هو أعلى مطلب فلسفى ، فى حين إنا لم نره متناسبا مع جلالة ذلك المطلب ، لعدم إفادته اليقين الضرورى الذى هو وجوب الوجود كما أفادته الأدلة التى ذكرنا صورة مختصرة منها آنفا . وحسبنا فى القيام بواجبنا إزاء مطلب إثبات النبوة أن نبنيه على دليل يعدل فى الأهمية دليل « كانت » لإثبات وجود الله . وسنقيم دليلا آخر خاصاً بنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم فى الباب الرابع من الكتاب عند الكلام على مسألة فصل الدين عن السياسة .

وأما مسألة معجزات الأنبياء فنخالنا فى غنى عن التنبيه إلى مبلغ عنايتنا بها ، وقد استغرقت مكافحة منكرى المعجزات طول الباب الثالث من الكتاب ، وذلك الباب الثالث قد قرأه القارئ إلى هنا فى شكل كتاب صغير مستقل . والآن ننتهى مما أردنا أن نكتبه نتيجة للأبواب الثلاثة المتقدمة، وعند ذلك ننتهى أيضا من الكتاب الصغير سائلين الله تعالى الهداية والمغفرة لنا وللقارئين .

---

[١] ص ٨٣ — ٨٦

بعد « القول الفصـــل »

عسى قراء فصل القول مني ـ وهذا الفضل بعد الفصل باد ـ
يكون جواب من لاقيت منهم مبينا عنهما في كل ناد :
لئن أسمعتَ عيسى في علاه فلست بمُسمع أذنَ العنـاد
وعيسى لا يزال هناك حيا ولـكن لاحياة لمن تنادى

نشرت «الرسالة» مقالات فضيلة الشيخ شلتوت التي كتبها ردا على كتابي «القول الفصل» والتي أشادت بها «الرسالة» معلنة عنها قبل نشرها . أما أنا فما كنت كتبت الجواب على هذا الرد، استغناء بما يتضمنه الـكتاب نفسه عن الجواب على ردود مثلها تقع على خارج الصدد طائشة عن ساحته المحصنة بالحجج، واكتفاء بما كتبه العلماء الأعلام في نقض تلك المقالات . ولـكني رأيت في رد الشيخ الموجه جُلُّهُ إلى تعليقة صغيرة كنت أوردتها في الـكتاب عرضا ، ما يوهم أني افتريت عليه أو على عضو مجهول من جماعة كبار العلماء ، شكا في كون نبينا محمد صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء أو شكا في كفر الشاك ، وقد اختلقتُ هذا العضو في خيالي . فهذا الإيهام يسكت كتابي وكتب العلماء الأعلام عن الجواب عليه ويوجب على نفسي القيام به مستقلا .

وبعد أن التزمتُ الجواب على مقالات الشيخ لهذا السبب الخاص بنقطة معينة منها تتعلق بذمتي وأمانتي في البحث ، لم أكفَّ عن التكلم عليها في صورة عامة، سواء كان ماوقع منها في داخل الصدد أو خارجه . وأنا أقدم الـكلام في الصدد وأرجئ غيره وإن كان فيه الأمر الذي اعتبرته الدافع الأول إلى نشر هذا الجواب ، فأقول :

بجانبنا نحن القائلين برفع عيسى عليه السلام إلى السماء ونزوله منها عند اقتراب الساعة ـ ومعنا علماء الإسلام أجمعون غير شـذاذ آخر الزمان ـ ستون حديثا برواية واحد وثلاثين صحابيا مذكورين بأسمائهم في « إقامة البرهان على نزول عيسى في آخر

الزمان » لمؤلفها الفاضل جزاه الله خيرا ، وليس بجانب الخصم حديث واحد يؤيد شذوذه ، غير عدم المبالاة بجيش الأحاديث المؤيدة لجانبنا .

أما الآيات فلنا منها آيتان ناطقتان بالرفع إحداهما قطعية الدلالة لا تحتمل التأويل وهي آية النساء والأخرى ظاهرة الدلالة وهي آية آل عمران ، وآيتان ظاهرتان في النزول . وليس للخصم من الآيات إلا ما توهمه من المنافاة بين الرفع والتوفي في آية آل عمران أعني قوله تعالى « يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ » فنحن لا نحتاج إلى تأويل أي آية واردة في هذه المسألة ، بل نحمل الكل على ظاهره حتى آية التوفي التي هي مستند الخصم الوحيدُ، نتركها على ظاهرها من غير تأويل كما يتبين مما يأتي . والخصم المنكر لرفع عيسى ونزوله يتمسك بقوله تعالى « إني متوفيك » ظنا منه أن التوفي ظاهر في معنى الإماتة ، ثم يرهق آيتي الرفع على تأويلهما بما ينطبق على هذا التوفي، فيؤوّل القطعي لتطبيقه على الظاهر وهو ليس بظاهر، وتأويله ليس تأويلا بمقبول من المعنى وإنما هو إفساد وإلغاء للنص . فما فعله الشيخ كاتب المقالات في آيات كتاب الله ليس إلا تكلفات لا داعي لها غير تبرير شذوذه . وفضلا عن هذا فهي تتضمن أخطاء ومفاسد كثيرة نعرضها على أنظار أهل الدقة الراغبين في تحقيق الحقائق :

الأول ، ظنه أن التوفي نص أو ظاهر في معنى الإماتة .

الثاني ، عدم استماعه لما كتبت في « القول الفصل » أن التوفي بمعنى أخذ الشيء بتمامه يساوي التوفي بمعنى الإماتة من حيث الاستناد إلى اللغة بل يفوقه، حتى إن الزمخشري ذكر معنى الإماتة في « أساس البلاغة» بعد قوله «ومن المجاز» . فإذا كان معنى الأخذ التام مساويا لمعنى الإماتة أو أظهر منها في أن يكون هو المراد في قوله تعالى : « إني متوفيك » أي إني آخذك من العالم الأرضي الذي أنت فيه ، فلا ضرورة في تأويل قوله بعده « ورافعك إلي » برفع روحه [1] .

---

[١] أما قوله تعالى في سورة المائدة حكاية عن عيسى عليه السلام «فلما توفيتني كنت أنت =

الثالث، لاضرورة تدعو إلى هذا التأويل حتى ولو كان التوفى بمعنى الإماتة كما زعمه الخصم ، والذين حملوا « متوفيك » من المفسرين على معنى مميتك لم ينكروا رفع عيسى إلى السماء بل قالوا «أماته ثم أحياه ورفعه أو أماته حين رفعه» كما يظهر من مراجعة تفسير الفخر الرازى . أما رفع روحه فقط فلم يقل به أحد سوى الشيخ محمد عبده ـ فيما نقله عنه كاتب مقالات الرد ـ ظنا منه أى من الشيخ أنه مقتضى حمل التوفى على معنى الإماتة ، وتبعه كاتب المقالة، وهو متبوعه أيضا فى ظن أن التوفى ظاهر فى معنى الإماتة. لكن التابع أشد استحقاقا للوم من المتبوع، لأنه تجلد فى البقاء على ظن شيخه ولم يصده « القول الفصل » عن تبعية المخطئ . وإذا كان المرء قد خذلته هداية الله للحق فلا يزال يفضل متابعة المخطئ على متابعة المصيب ويتجلد للحق والإنصاف زاعما أنه يتجلد لخصمه . ونحن نستمر فى ضربه بأخطائه التى كلمناه عنها فأصممناه وبما أضاف إليها فى مقالاته من الأخطاء الجديدة حتى نرجعه إلى الحق أو نقضى عليه على باطله عند قتل المسألة بحثا.

الرابع، من عجائب ولوع الشيخ كاتب المقالات بمتابعة المخطئ ولو كان على غير مذهبه ولو كانت المتابعة بعد التنبيه على خطأ المتبوع ، أنى كنت فى « القول الفصل » نبهت على خطأ لغوى وقع فيه المفسرون لقوله تعالى « إنى متوفيك » بقولهم «مستوفى أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى عاصما لك من قتلهم ، من توفيت مالى » فقلت إن

= الرقيب عليهم » بعد قوله « وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم » فلحمل التوفى فيه على معنى الأخذ لا الإماتة، سبب آخر غير أصالته وتقدمه على معنى الإماتة فاتنى ذكره فى « القول الفصل » فاذكره هنا وهو الإشارة التى يستفيدها صاحب النظر الدقيق من قوله قبله « ما دمت فيهم » ولا ينكشف مثلها لمثل الخصم ، حيث يقول عليه السلام « مادمت فيهم » أى ما دمت مقيما فيما بينهم غير منتقل من أرضهم إلى عالم آخر ، ولا يقول ما عشت أو مادمت حيا كما قال لما تكلم فى المهد صبيا ، حتى يكون فراقه إياهم بالموت . فيسقط بهذا التحرير قول الخصم فى مقالة الفتوى التى انتقدتها فى « القول الفصل » : « ولا سبيل إلى القول بأن الوفاة هنا مراد بها وفاة عيسى بعد نزوله من السماء بناء على زعم من يرى أنه حى فى السماء وأنه سينزل منها آخر الزمان ، لأن الآية ظاهرة فى تحديد علاقته بقومه هو لا بالقوم الذين يكونون آخر الزمان وهم قوم محمد باتفاق لا قوم عيسى » .

التوفِّى بمعنى المستوفى أى الآخذ حقه من تمام أجله هو عيسى والله هو الموفى أى معطى ذلك التمام ، لكن هؤلاء المفسرين التبس عليهم التوفى بمعنى الأخذ المتعدى إلى مفعول واحد بالتوفية المتعدية إلى مفعولين كما فى قوله تعالى « فوفاه حسابه » ومرماهم فى هذا التفسير دفع المنافاة التى ربما يتوهمها متوهم كالشيخ كاتب المقالات، بين قوله «متوفيك» وبين قوله « ورافعك إلى » فهم لا يشتركون مع الشيخ الكاتب فى حمل التوفى على معنى الإماتة ولاسيما فى إنكار رفع عيسى حيا ، وهو لا يتابعهم فى مذهبهم الحق وإنما يتابعهم فى خطئهم اللغوى، لا لكون هذا الخطأ ينفعه فى مذهبه الشاذ بل يضره، وإنما لكونه خطأ يتفق مع عادته فى الركون إلى الأخطاء والأغلاط . انظر قوله فى مقالة الرد الأولى « الرسالة » عدد ٥١٤ ص ٣٦٣ « إن كل ما تفيده الآيات الواردة فى هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفيه أجله ورافعه إليه » فقوله « وعد الله عيسى بأنه متوفيه أجله » عين قول المفسرين « مستوفى أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى » بكل مافيه من خطأ فى اللفظ وإصابة فى المعنى والمرمَى، وهو كون الله لم يرد بقوله لعيسى « إنى متوفيك » أنه مميته . فأخذ كاتب المقالة من قولهم ماأخطأوا وترك منه ماأصابوا أى أخذ اللفظ وترك المعنى، وهو خطأ آخر من الشيخ الكاتب حيث لا تمكن متابعة أحد فى لفظه دون مَعناه، ولو تبعهم فى المعنى أيضا لكان على مذهبهم فى رفع عيسى دون إماتته ، لكن الشيخ صرح فى مقالته السابقة « للقول الفصل » المنتقَدة فيه «الرسالة ٤٦٢ ص ٥١٥ » بأن التوفى بمعنى الإماتة وبنى مذهبه فى إنكار رفع عيسى على هذا المعنى . فهل هو ، حين قال فى خلاصة البحث من تلك المقالة وعند ما كرر تلك الخلاصة فى مقالة الرد على « القول الفصل » : « إن كل ما تفيده الآيات الواردة فى هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفيه أجله » ، يرجع عن مذهبه إلى مذهب المفسرين فيحمل التوفى فى « متوفيك » على غير معنى الإماتة ؟ إذ لامعنى لوعد الله عيسى بإماتة أجله . فالحق ان الشيخ لم يكن واعيا لما قاله فيما نقلناه عنه آنفا وهو نقله عن مقالته المنشورة

فى السنة الماضية قبل نشر « القول الفصل » ولم تكن نحن يومئذ واقفين عليه وقفة الناقد ، فلما كرره بعد سنة فى مقالة الرد علينا ولم يوقظه تنبيه « القول الفصل » على ما فى تفسير المفسرين لقوله تعالى « متوفيك » بمستوفى أجلك من الخطأ فى الملفوظ مع الإصابة فى المقصود المخالف لمذهب الشيخ كاتب المقالة ، بل لما رأيناه كأن هذا التنبيه منا على خطأ المفسرين حثه على تقليد ذلك التفسير ممن لا يتفقون معه فى المذهب ، ازددنا يقظة على غفلة الرجل وإعجابه بأخطاء المخطئين ولو كانوا من خصوم مذهبه .

الخامس، أن الشيخ كاتب مقالات الرد على « القول الفصل » لا يزال يردد دعواه فى عدم وجود مستند فى الكتاب والسنة لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رُفع بجسمه إلى السماء وأنه سينزل منها فى آخر الزمان، لأنه لا يأبه للسنة مبدئيا مهما كثرت نصوصها وتعاضدت أسانيدها، فليس عنده حديث يفيد اليقين غير حديث « من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » والكذب على النبى عليه السلام ينحصر عنده فى إسناد ما لم يقله إليه ولا يعم نفى ماقاله أو فعله ، عنه ، فلا خوف على نُفاة الحديث، والخوف كل الخوف على المثبتين، وكل من روى عن النبى حديثا من الصحابة والتابعين ومن بعدهم غير حديث « من كذب على . . الخ » يمكن دخوله تحت إنذار هذا الحديث مهما صح سنده ذلك، مالم يفد اليقين مثله ، فكأنه صلى الله عليه وسلم كمّ أفواه أمته بهذا الحديث من غير كمٍّ فيه نفسه أومع كه أيضا ، فالويل لرواة الحديث وجامعيه مثل البخارى ومسلم وأبى داود وغيرهم من حفاظ السنة الملقين أنفسهم فى خطر الكذب على النبى والتبوء بمقاعدهم من النار ، فى مقابل توهم الخدمة للإسلام بضبط آلاف مؤلفة من الأحاديث لا يطمئن إليها القلب ولا تكفى لتكوين عقيدة . ولا بد لمن يقترّ فى تقدير السنة قدرها إلى هذا الحد ويكون تكذيب الأحاديث أسهل عليه من تصديقها، غير مبال باحتمال الصدق القائم الغالب لا سيما فيما استصحه علماء الحديث — وهو كثير فى أحاديث النزول — لابد لهذا المقترّ ، لا أن لا يخاف تكذيبَ الصادقين من الرواة

والجامعيين فقط ، بل أن لا يخاف تكذيبَ النبي عليه الصلاة والسلام أيضا .

أما الآيات فطريق رفضها لمكذبي الأحاديث إرهاق معانيها باسم التأويل، إلى أن تنطبق على أهوائهم وإن كان فيه تحريف الكلم عن مواضعه.. فهذا قوله تعالى فى سورة النساء « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه » وهو قطعى الدلالة فى رفع المسيح لا يحتمل التأويل برفع روحه كما زعمه الخصم تقليدا لشيخه محمد عبده ، لأن كلمة « بل » بعد النفى أو النهى يجب أن يكون ما بعدها إثباتا لضد المنفى المتقدم أوأمرا بضد المنهى عنه كما هو مصرح به فى كتب النحو ، مع أن رفع الروح لايضاد القتل والصلب المنفيين قبل « بل » لإمكان اجتماعه معهما ، فحمل الرفع فى « بل رفعه الله إليه الوارد لتأكيد نفى القتل والصلب بإثبات مايضادهما ، على معنى رفع روحه، يلغى النفى السابق وينزله منزلة الهزل .

وقد لفتُ الخصم فى «القول الفصل» إلى هذا المانع القطعى عن تأويله الرفع برفع الروح ، فإذا به يكتب مقالة الرد محافظا على تأويله وساكتا عن المانع الذى ضربته به ضربة الأصم ـ حيث لايسمع الأنين فيبالغ فى الضرب ليسمعه ـ وإذا بالمضروب فى مسألتنا كان هو الأصم معنويا لا يدخل فى أذنه البرهان ، فيشتغل فى مقالات الرد تارة بتجنّيات علىّ بعيدة عن الصدد وتارة بنقل أقوال وآراء مختلفة فى قيمة الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع ، من غير تمييز بين حق تلك الأقوال وباطلها وقويها وضعيفها ، وإنما لمجرد التشكيك فى عقيدة رفع عيسى ونزوله الموروثة فى الإسلام ، بالتشكيك فى دلالة الآيات والأحاديث عليها . والشيخ نعرفه أنه لايتحرج من عدم الاعتداد بالأحاديث، فها نحن الآن نجابهه ونتحداه بآية الرفع المحكمة ماذا جوابه عليها وعلى مانعها عن تأويله منعا لا يُتخطى ولا يغالَب إلا بالتصام . ومن العجب أن الشيخ كاتب مقالات الرد لايجيب عن دليلنا فى آية النساء الممتنعة بنفسها وأسلوبها المعجز عن تأويل الرفع الوارد

فيها برفع الروح ... لا يجيب عن دليلنا هذا الناصع والذى يزداد نصوعه فى الظهور بعد أن أحلنا على تأويله بجرح حاسم ... لا يجيب عن دليلنا ثم لا يمنعه التهيب أمام الكتاب والسنة من ترداد القول بأنه ليس فى الكتاب ولا فى السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رُفع بجسمه إلى السماء !! .

إن الكتاب والسنة إن لم يدلا على رفع عيسى بجسمه إلى السماء فهل هما يدلان على رفع روحه كما ادعاه، أو لا يدلان على أى واحد من الرفعين ؟ لكن الكتاب فضلا عن السنة ـ أعنى أحاديث النزول الكثيرة الصريحة الدالة على رفعه بجسمه بالاقتضاء ـ صريح فى رفع عيسى غير مقيد بالجسم ولا بالروح بحيث يكون إنكار هذه الصراحة مكابرة وكفرا ، ويبقى النزاع فى تحديد المسمى بعيسى هل هو الروح أو الجسم أو الروح مع الجسم ، ولا شبهة فى تعين الأخير ، إذ لا شبهة فى إثبات القرآن الرفع للذى نفى عنه القتل والصلب بعينه ، وليس ذلك هو الروح المجردة . فإن كان لأى عاقل وجه معقول فى أن يفهم من قولك مثلا : « يرفعنى مصعد العمارة كل يوم إلى الدور الرابع منها الذى أسكنه » أن المرفوع إلى الدور المذكور والساكن فيه روحك فقط، كان لمنكر رفع عيسى وجه فى ادعاء أن المرفوع منه روحه لا نفسه ، وهذا فى غاية الظهور إلا عند من لا يكادون يفقهون حديثا ، مع أنا قد قضينا على ذلك الادعاء بمانع آخر استنبطناه من أسلوب النظم المعجز وذكرناه آنفا ومن قبل فى « القول الفصل » وهو كون رفع روحه لا يضادُّ ما قبل « بل » من قتله وصلبه . فكأن الشيخ بتأويله فى رفع عيسى يلغى رفعه ويعاكس القرآن فيما أثبت لعيسى وفيما نفى عنه ، فيقول الله « وما قتلوه وما صلبوه ... بل رفعه الله إليه » ويقول الشيخ : قتلوه والله رفع روحه إليه !!! ولا أظننى مفشيا سرا إذا قلت عن سائق الشيخ كاتب مقالات الرد على « القول الفصل » ، إلى هذه المغامرات : إنه لا يؤمن بالقرآن إيمانه باستحالة الخوارق فيدك القرآن دكا إذا رأى آياته تنطق بالمستحيل عنده وعند فئته .. ثم إنه لا يخاف القرآن خوفه من قراء مقالاته المؤمنين بالقرآن ، فيحاول تمشية مخالفاته لئلا يعجبه من آياته،

عن طريق التأويل لا عن طريق الإنكار ، ويحمّل القرآن كل مالا يحتمله من سخافات هذا التأويل المترجم عن الإنكار .

السادس ، كان الخصم المنكر لرفع عيسى عليه السلام فى مقالتيه السابقة لنشر « القول الفصل » واللاحقة به الرادة عليه ، لا يزال فى تمشية شذوذه متمسكا بتأويل رفعه المنصوص عليه فى كتاب الله برفع روحه بعد وفاته ، غير سامع لما قلنا فى إبطال هذا التأويل كأن فى أذنيه وقرا ، وقد ذكرناه وقضينا منه العجب فى الرقم السابق .

غير أننا سمعنا منه فى مقالة الرد الثانية « الرسالة » عدد ٥١٦ نغمة أخرى تبشر بكنز جديد من التأويل وجده ولجأ إليه بعد أن اقتنع فيما بينه وبين نفسه بإفلاس كنزه الذى ورثه من الشيخ محمد عبده ، وهذا الكنز الجديد هو : قول الإمام الرازى فى تفسير قوله تعالى ، مخاطبا أيضا لعيسى عليه السلام « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » ، قول وجده فى شدة من فقر الدليل وحرقة من حمى الهزيمة فعض عليه فى مقالة الرد الثانية بالنواجذ . وهذا نص الرازى بعد قوله « المراد من هذه الفوقية الفوقيةُ بالحجج والبرهان » : « واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه فى قوله « ورافعك إلى » هو رفع الدرجة والمنقبة لا بالمكان والجهة كما أن الفوقية فى هذه الآية ليست بالمكان بل بالدرجة » .

وقبل مناقشة قول الإمام الرازى هذا الذى هو متمسَّك الخصم الجديدُ وكنزه العتيد ، نقول : من رأى هذا النقل فى مقالة الرد الثانية يظن أن الإمام الرازى منكر لرفع عيسى بجسمه إلى السماء كالشيخ كاتب المقالة ، نعم لاشك فى حصول هذا الظن عند القارىء . ولأجل ذلك أتى به صاحب مقالة الرد، لكنا نرجوا القارىء أن لا يتعجل حتى يقرأ قول هذا الإمام بنصه أيضا فى تفسير قوله تعالى الذى قلنا عنه إنه دليل قطعى فى رفع عيسى لا يحوم حوله أى تأويل « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين أوتوا الكتاب افى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه » : « المسألة الثانية رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

ثابت بهذه الآية . ونظير هذه الآية قوله تعالى فى آل عمران (إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا) .. ثم قال تعالى (وكان الله عزيزا حكيما) والمراد من العزة كمال القدرة ومن الحكمة كمال العلم، فنبه بهذا على أن رفع عيسى من الدنيا إلى السماوات وإن كان كالمتعذر على البشر لكنه لا تعذر فيه بالنسبة إلى قدرتى وإلى حكمتى . وهذا نظير قوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) فإن الإسراء وإن كان متعذرا بالنسبة إلى قدرة محمد إلا أنه سهل بالنسبة إلى قدرة الحق سبحانه » .

فهل فى شرعة الإسلام أو فى شرعة الأمانة والعدالة والإخلاص فى البحث أن يُكتم قول الإمام هذا المفصل المدلل المسجل فى محله الخاص، ويعلن قوله الذى لا يعادله فى القوة والوضوح وهو فى غير محله ؟ فكأن الإمام الرازى أخفى هذا القول السخيف من الأنظار فلم يذكره فى محله الذى هو تفسير آيتى الرفع أو آيتى النزول، وفسر تلك الآيات، لاسيما آية الرفع المحكمة كما فسره غيره من المفسرين معترفا بدلالتها على الرفع والنزول المعروفين عند المسلمين ومعتقدا لهما كما اعتقدوه . فليس ذلك القول هفوة منه مخالفة لأقوال جميع العلماء بل لأقواله نفسه أيضا فى محالّ القول كما ذكرنا . لكن الخصم الشاذ المنكر لرفع عيسى ونزوله يتبع القول الشاذ طبعا ، ومن قال له إن الإمام الرازى لا يخطئ أبدا ، لاسيما فى قوله المناقض لأقواله ؟ وعجيب جدا أن يكون جيش الأحاديث النبوية الواردة فى نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان مع جيش رواتها من الصحابة ومَن بعدهم وجميع العلماء المقتفين آثارهم المقيمين للسنة وزنها ، ومع آيات الرفع والنزول فى القرآن وجيش مفسريها وفيهم الرازى أيضا — فى جانب، وقول آخر للرازى وجده الخصم فى زاوية من تفسيره الكبير ، فى جانب مقابل ثم تترجح كفة هذا القول عنده على جانب الجيش العرمرم !! .

فضلا عن أن قول الرازى فى تفسير قوله تعالى « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » يكون المراد من رفع عيسى المذكور قبله فى قوله « ورافعك

إلى» الرفع بالدرجة والمنقبة قياسا لهذا الرفع على فوقية متبعيه بالحجة والبرهان، يلزمه أن يكون الذين يفوقهم عيسى بالدرجة والمنقبة هم الذين يفوقهم متبعوه بالحجة والبرهان أعنى الذين كفروا ، إتماما لهذا القياس ؛ لكن هذه الفوقية ضئيلة جدا بالنسبة إلى مرتبة عيسى العظيمة . وهذا مع أن كون فوقية متبعيه بالحجة والبرهان لا يستلزم كون المراد من رفع عيسى المذكور قبله بالدرجة والمنقبة ، ومع أن الأولى أن يحمل فوقية متبعيه أيضا على الفوقية الحسية الشبيهة بالفوقية المكانية فتكون الآية متضمنة لمعجزة الاخبار عن المستقبل الذى يستمر فيه غلبة المؤمنين بعيسى وهم المسلمون والمسيحيون، على اليهود الكافرين به إلى يوم القيامة كما أن عيسى فى السماء طول هذه المدة ، وتكون فوقية عيسى على هذا التقدير هى المقيس عليها دون فوقية متبعيه، على عكس ما فى التقدير الأول الذى لا نراه جديرا بالأخذ لما ذكرنا ولكون التعبير فى « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » لا تلتئم معه حق الالتئام، بناء على أن فوقيتهم بالحجة والبرهان حاصلة مفروغ عنها غير محتاجة إلى جعل جديد مستمر .

ثم إن الرازى لو أمعن النظر فى قوله تعالى « ورافعك إلى » مقيدا بالجار والمجرور الخاص دون أن يقول «ورافعك» فقط ارجع عن قوله فى قياس رفعه على فوقية متبعيه بالحجة والبرهان ، لأن متبعيه لم يُرفعوا إلى الله وإنما جُعلوا فوق الذين كفروا ، بل لو قام الرازى بتمشية قوله ذاك الشاذ مع الرفع المذكور فى آية النساء المحكمة أعنى قوله تعالى « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .. وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه» كما سعى فى تمشيته مع الرفع المذكور فى آية آل عمران أعنى قوله « ورافعك إلى » ـ وكان هذا من واجبه بل واجب تمشيته مع آيتى النزول وأحاديث النزول جميعا ، لأن الرازى لا يمكنه إنكار آية النساء ولا إنكار ما قاله هو نفسه فى تفسيرها كما لا يمكنه إنكار أحاديث النزول ـ لتنبه لخطائه الفاحش، فضلا عن أن يصر على الخطأ بعد التنبيه كما فعله من تمسك بقوله، حيث يكون المعنى حينئذ وما قتلوه وما صلبوه بل رفع الله درجته ومنقبته . ولا شك فى أن تذييل نفى القتل والصلب بالجملة المصدرة ببل وقع

لتأكيد نفيهما بإثبات ما ينافيهما ، ثم لا شك فى أن رفع الدرجة والمنقبة لا ينافى وقوع القتل فقد يكون أعداؤه قتلوه وصلبوه ويكون الله قد رفع درجته ومنقبته ، بل رفعُ الدرجة والمنقبة بالشهادة يأتلف مع القتل والصلب أكثر منه مع عـدم القتل والصلب ، حتى إن النصارى بنوا العلالى والقصور على هذا القتل والصلب اللذين قالوا بوقوعهما ، فلا يكون تذييل نفيهما فى القرآن بإثبات رفعه مؤديا لما سبق له على تقدير تفسيره برفع الدرجة والمنقبة ، أى لا يكون الله تسنى له فى هذه الآية ما أراد تفهيمه من المعنى وحاشاه ثم حاشاه ، وقد علم القارئ مما ذكرنا فى « القول الفصل » وفى هذا الذيل أن تأويل الرفع برفع الروح تكلف زائد على صراحة النص وكذا تفسيره برفع الدرجة ومثل هذه التكلفات إنما ترتكب لضرورة تدعو إليها وتنفع فى إصلاح المعنى لا لحاجة فى نفس المتكلف يقضيها بها وهى تفسد المعنى بدلا من إصلاحه .

ونحن نرى فضيلة الشيخ الولع بالقول الشاذ المضطرب ، يحاول عبثا فى مقالة الرد الثانية إيجاد المنافاة بين قتل عيسى ورفع درجته ـ بعد أن تعلم منا لزوم المنافاة بين طرفى « بل » الواقعة بعد الجملة المنفية ـ قائلا : « إن المنافاة متحققة ، لأن الغرض من الرفع رفع المكانة والدرجة بالحيلولة بينه وبين الإيقاع به كما كانوا يريدون والمعنى أن الله عصمه منهم فلم يمكّنهم من قتله بل أحبط مكرهم وأنقذه وتوفاه لأجله فرفع بذلك مكانته » . فنحن نرى هذا القول الطويل فى تفسير « بل رفعه الله إليه » مليئاً بالزيادات على النص الذى هو الرفع إليه فقط بل بالزيادات على رفع الدرجة الذى هو نفسه أيضا زيادة على النص . والمقصود من الزيادة على الزيادة بيان وقوع الحيلولة بينه وبين قتله ليتحقق به المنافاة بين ما قبل « بل » وما بعدها . ونحن نقول : من أين لصاحب الزيادة أن يفهم وقوع الحيلولة بينه وبين قتله من رفع درجته ، وقد قلنا إن رفع الدرجة يلائم القتل والصلب بدلا من أن ينافيهما ، فهو يسعى من عند نفسه لأن يضمّن رفع الدرجة معنى لا يُفهم منه . وقد كانت الحيلولة وصورة الحيلولة مفهومتين من النص وهو « بل رفعه الله إليه » قبل تفسيره برفع الدرجة وقبل إضافة الجمل الطويلة إلى هذا التفسير من بطن

المفسر ، القائلة « بكون الله عصمه منهم فلم يمكنهم من قتله وانقذه من مكرهم وتوفاه لأجله فرفع بذلك مكانته » .

ثم ماذا تقولون أيها القراء إن لم يف هذا التفسير وتلك الجمل الطويلة المضافة إليه من غير حق، بحاجة « بل » فيما بعدها إلى الشيء الذى ينافى القتل والصلب ويكون أساسا لنفيهما فيما قبلها ، لعدم احتوائها رغم طولها لذلك الشيء ، فلم يتم الكلام بتلك الجمل الطويلة ولم يصح السكوت عليها ، لخلوها عن ذكر كيفية عصمته من شر أعدائه وهى التى يتجلى بذكرها ما تحتاج إليه — « بل » من المنافاة بين ما قبلها وما بعدها ، مع مافى تلك الجمل من قوله « وتوفاه لأجله » الذى يرجع به المفسِّر الشاذ من حيث لا يشعر، إلى مذهب المفسرين القائلين برفع عيسى حيا إلى السماء كما أوضحناه فى الرقم « ٤ » . فيا له من سعى زائد لم يأت الساعى بفائدة مطلوبة بل أبعده عنها ودل على أن تفسيره الآية بما فسرها أحق باسم التغيير . والسبب فى ذلك أن ما يتطلبه « بل » فيما بعدها من الرفع الذى ينافى القتل والصلب ويحول بين المرفوع وبين الإيقاع به من أعدائه الماكرين والذى به يتماسك به ما بعد « بل » مع ما قبلها ، هو رفع مكانه من الأرض إلى السماء لارفع مكانته ودرجته ، كما أنه هوالمفهوم من قوله تعالى « بل رفعه الله إليه » من غير حاجة إلى تفسيره برفع درجته ثم تفسير هذا التفسير بما لا ينفع فى استكمال المعنى وربما يضره . فالآية بمجردها عن زيادات هذا المفسر المتخبط صريحةٌ فيما سيقت له من تأكيد نفى القتل والصلب بإثبات ما ينافيهما ومحكمةٌ لاتقبل التأويل ولو كتب الشيخ فى تأويلها ألف مقالة ووقفت « الرسالة » صفحاتها على مقالاته ! وكلما زاد فى مقالات التأويل وقع فى خطأ جديد . فقد كان فى مقالة الرد الأولى مصراً على تأويل رفعه برفع روحه معترفا بالرفع المكانى لا لعيسى بل لروحه ، وكان هذا زيادة على النص من جانب المؤول ، وفضلا عن الزيادة مفسدة لمعنى الآية لإمكان اجتماع رفع الروح مع القتل والصلب المطلوب نفيهما وتأكيد نفيهما بإثبات ما ينافيهما ؛ ولم يكن لينفع الشيخ تنبيهنا فى « القول الفصل » على فساد هذا التأويل وإفساده لمعنى

الآية ، حتى كتب مقالة ردّه الأولى مصرا عليه ، ولكن لا أدرى ماذا حصل له بين مقالته هذه وبين المقالة الثانية التى أتبعها ؟ أأنصف فى نفسه وأخذ يرى بطلان تأويله الذى تمسك به مصراً عليه ، أم غره قول الإمام الرازى الذى وجده كنز مختف فى حفائر تفسيره الكبير فأضله ضلالا جديدا . وعلى كل حال فهو مفضله فى مقالته الثانية على ضلاله القديم معرضا عن التأويل برفع الروح وملتجئا فى هذه المرة إلى التأويل برفع الدرجة والمرتبة المعنوية، مع أنه مثل أخيه فى إفساد معنى الآية ـ كما علمت تفصيله ـ وإنما بقى له تكلف التأويل فى المرتين ، والتكلف فى المرة الثانية أكثر، مع مالزمه فيها من تغييره لدعواه الأولى فى التأويل ـ وتغيير الدعوى يعد إفحاما عند العارفين بقانون المناظرة ـ أو على الأقل من تغيير الدليل الذى هو قريب من تغيير الدعوى فى الإفحام .

وإنى أوصى الشيخ كاتب مقالات الرد بالانتهاء عن الاستمرار فى معاندة الحق، فلن ينجيه أى تأويل أو تحريف عن مخلب هذه الآية الناطقة بما تنطق به فى النفى والإثبات الواقعين على جانبى « بل » فهى دليل قطعى الثبوت والدلالةِ على عقيدة المسلمين فى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء كما اعترف به حتى من تمسك الشيخ بقوله للمحافظة على عناده، أعنى الإمام الرازى القائل أن رفع عيسى إلى السماء ثابت بهذه الآية.

ولئلا يبقى المجال للشيخ فى تمسكه بالتأويل المأخوذ من قول الإمام فى غير محله ، إلى أن يظفر بقول آخر من علماء التفسير يفتح له بابا لتأويل جديد ويعوقه عن الاعتراف بالحق ، فكرتُ فى طريق الفصل بينى وبين الشيخ الذى لم يكفه « القول الفصل » حين كفى غيرَه وحسدنى الشيخ عليه ، فرأيت أن أستفتى علماء الدين واللغة والأدب بمصر وجميع من يُحتكم إليهم لقطع النزاع فى تمييز الكلام البليغ من غيره ، بل وفى تمييز الكلام الدال على معنى مفهوم ومعقول من الكلام الشبيه باللغو والهذيان ، ... أستفتى جميع هؤلاء العلماء والفضلاء ، ولا أعتقد أن قول الشيخ كاتب مقالات الرد فى مقالته الأخيرة « الرسالة » عدد ٥١٩ بعد أن نقل رأى فضيلة الشيخ المراغى فى مسألة رفع عيسى عليه السلام « بأن قول الله سبحانه (إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك

إلى ومطهرك من الذين كفروا) الظاهر منه أنه توفاه وأماته ثم رفعه ، والظاهر من الرفع بعدالوفاة أنه رفعُ درجات عند الله » ، « ولعلنا بعد إظهار فتوى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى نستريح من لغط بعض العلماء الرسميين الذين عرف عنهم أن تمسكهم بالرأى وما يزعمون أنه دين ليس إلا بمقدار جهلهم برأى فضيلته وهو شيخ الجامع الأزهر ، فإذا ما عرفوا رأيه وهو شيخ الجامع الأزهر [١] خلعوا أنفسهم من ربقة رأيهم الأول وسارعوا إلى اعتناق رأيه بل تسابقوا فى توجيهه وتأييده » ... لا أعتقد أن قول الشيخ كاتب المقالات هذا أو قول فضيلة الشيخ المراغى ذاك يكم أفواه علماء الأزهر أو يرفع الأمان عن آرائهم وينزلهم منزلة ظلال لا استقلال لوجودها ، وإنما أعتبر هذا الإقرار من الشيخ كاتب المقالات حجة قاصرة على نفسه تنزع كل قيمة عن رأيه فى مسألة رفع عيسى وتجعله رأى مقلد لصاحب المقام الذى ليس هو أيضا إلا مقلدا لشيخه محمد عبده . فلا يخرج الأمر فى المسألة التى يدعون أنها خلافية ، إلى ما وراء شيوخ الشذوذ بعصر المعروفين الآخذين بعضهم من بعض والذين انتقدتهم أجمعين فى « القول الفصل ».. وقد عرفتَ أن الشيخ محمد عبده الذى هو قدوتهم بنى رأيه فى المسألة على ظن أن التوفى فى « متوفيك » ظاهر فى معنى الإماتة كما بنى فضيلة الشيخ المراغى رأيه فى فتواه على ظن شيخه هذا [٢] وعرفت أنه لاعذر لأحد فى البقاء

[١] لعل الشيخ كاتب مقالات الرد يريد تهديد العلماء الرسميين يعنى الأزهريين بتكرار هذا العنوان لفضيلة الشيخ المراغى .

[٢] وهنا شىء آخر فى غاية الدقة والأهمية لم يفهمه الأستاذ الأكبر القائل بأن الظاهر من الرفع بعد الوفاة رفع درجات ولا الأستاذ الذى اتبعه : لأن دعوى الرفع بعد الوفاة ليست إلا قول الأستاذين نفسهما التابع بعضهما بعضا وليس لها مبرر إلا ذكر قوله تعالى « ورافعك إلى » بعدقوله « إنى متوفيك » لكن « متوفيك » ليس بمعنى « مميتك » بل « آخذك » تأليفا له مع قوله فى سورة النساء « وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه » القطعى فى الرفع الجسمانى . فلو كان المراد من توفى المسيح المذكور فى آل عمران إماتته ومن رفعه المذكور بعده رفع درجته لما كان وجه لأن =

على ذلك الظن بعد انتشار « القول الفصل » كائنا من كان الظان ...

أعود إلى ما كنت أريد أن أقوله ، فأستفتى جميع علماء الدين واللغة والأدب بمصر وأناشدهم أن يعلنوا الحق ويؤدوا الشهادة لله والعلم والأدب والذوق السليم :

هل يجوز أن يكون حاصل معنى النفى والإثبات فى قوله تعالى «وماقتلوه يقينا بل رفعه الله إليه » ماقتلوه بل رفع الله درجته إليه؟ وما معنى هذا ؟ فهل رفعت درجته إلى معنى الألوهية؟ وكنا نحن نفهم من رفعه إليه قبل تفسيره برفع الدرجة، رفعه إلى محل ملائكته المقربين وهو السماء، فكأنه قيل: «بل رفعه الله إلى سمائه» بتقدير مضاف ، مع أن هذا التقدير أيضا لا يمشى مع تفسير الرفع برفع الدرجة، فلا يقال رفع الله درجته إلى سمائه اللهم إلا إذا كان مخالفونا بهذا التفسير رجعوا إلى مذهبنا. وفضلا عن هذا الذى أسفر عن عدم التئام تفسيرهم الرفع بما فى جملة الرفع من ذكر المرفوع إليه، هل يمكن أن يكون فى رفع درجته ومنقبته تأكيد لعدم وقوع القتل والصلب وتوضيحه بوقوع مالا يجتمع معهما ؟ وبعبارة أخرى : هل يمكن أن يكون الله سبحانه أفاد وقوع الحيلولة بين عيسى وبين ما حاول أعداؤه من قتله وصلبه لو أتى فى صراحة من القول بما أتى به مخالفونا فى تفسير الآية فقال « وما قتلوه وما صلبوه بل رفع الله درجته » وهل فى رفع درجته ضمان كاف لعدم وقوع القتل والصلب ؟ فإذا لم يكن عندكم ذلك الضمان فى هذا البيان

= يتأخر هذا الرفع أعنى رفع الدرجة إلى مابعد موته ولا يحصل فى حين إنقاذه من أيدى أعدائه الذى تصور فيه الأستاذ التابع رفع درجته وسبق الكلام عليه . فهذه دقيقة مهمة جدا رغم كونها لم يأذن الله بأن يتنبه لها الأستاذان جزاء منه على تلاعبهما بآيات كتابه . أما رفع الدرجة لأحد بعد موته فإنما يتصور إذا مات موتا غير عادى كأن يقتله أعداء الدين فأصبح شهيدا، لكن الأستاذ التابع اختار كون موت المسيح حتف أنفه بعد إنقاذه من القتل والصلب وليس فى هذا الموت ما يكون سببا لرفع الدرجة . وقد عرفت مما ذكرنا فى « القول الفصل » أن الجمل الثلاث المذكورة فى قوله تعالى « إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا » بيان لحالة واحدة هى كيفية إنقاذه من أعدائه، بأخذه ورفعه إلى السماء وإبعاده بهذه الصورة من محيط الكفار، ومعلوم أن الواو لا يدل على الترتيب الزمانى .

كما لم يكن عندى، فخذوا هذا القول من الشيخ المعاند وخذوا الشيخ بهذا القول وسجلوه عليه لئلا يتحرك !

كانت فى تأويل رفع عيسى برفع روحه توجد على الأقل أو بالأصح على الأكثر، قيمة هزلية لمعنى الآية — إن جاز أن يكون فى كتاب الله هزل — لدلالتها على الاعتراف بالقتل والصلب فى صورة إنكارهما، وإن كان ذلك خلاف ماسيقت له الآية — وبه يحصل الهزل، لكن التأويل الذى اختاره الشيخ كاتب مقالات الرد أخيرا ولجأ إليه وهو رفعه بالدرجة والمنقبة يقضى على معنى الآية بالمرة ويجعلها من سقط الكلام الذى لا يتماسك أوله مع آخره كقولك مثلا ما جاءنى زيد فى هذا اليوم بل استيقظ من نومه مبكرا . . قولوا بربكم هل يوجد فرق بين هذا الكلام وبين أن يقال ما قتلوا عيسى بل رفع الله درجته ومنقبته ؟ وهل لوقتلوه لم يرفع الله درجته أو لو قتلوه لم يرفع روحه إليه ؟ أفى هذه الأقوال معنى محصل يصمد بقائله إلى مرتبة الواعين لما يقولون ، فضلا عن أن يكون القائل متكلما بكلام بليغ متوسط المرتبة فى البلاغة، فضلا عن الكلام المعجز؟ .

فليعلم الشيخ الساعى لهدم عقيدة المسلمين فى رفع عيسى ونزوله اتباعا لهوى شيخيه وشذوذهما ، أن لامندوحة ولا مناص يفسح له ويسمح بالخلاص عن التسليم بأن آية النساء هذه قطعية فى رفعه عليه السلام رفعا ينافى قتله ولا يجتمع معه ، وما هو برفع روحه أو رفع درجته، ليكون نظم القرآن محتفظا ببلاغته واعجازه ولا يتنزلَ إلى دركة القول الهذر ، كما أن أحاديث نزوله فى آخر الزمان المتواترة بجملتها قطعية فى النزول والرفع معا ، والآيات الأخرى بعضها ظاهرة فى الرفع وبعضها ظاهرة فى النزول ، وفى مجموع هذه الأدلة كفاية بالغة لتكوين عقيدة دينية يطمئن إليها القلب فى رفعه إلى السماء أولا ثم نزوله لماجاء أوانه، إلا قلب من يشك فى قدرة الله على هذا الرفع والإنزال.

فإن لم يُحكم بنقص فى دين المنكر المستهتر استخفافا بالأحاديث المتواترة فى جملتها وتلاعبا بالآية القطعية الدلالة إلى أن يخليها من معقول المعنى، فلا بد أن يحكم بنقص فى

تفكيره لا يصح معه أن يتولى منصب الإفتاء فى عقائد الناس. وكيف يكون تام التفكير من لا يفتأ يدّعى المنافاة بين قتل عيسى وبين رفع روحه إلى الله أو رفع درجته عنده، ولا يفهم أبدا أن كلا من هذين الرفعين قابل للاجتماع مع قتله ، فلامانع إذن أن يكون القرآن على زعم هذا الشيخ فى تأويل رفعه برفع الروح أو برفع الدرجة ، مقرا بقتل عيسى وصلبه معوضا له عليهما برفع درجته عند الله كما ورد فى آية أخرى: «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » هذا ، وإن كنت قلت فى « القول الفصل » إن الشيخ ليس على مذهب النصارى القائلين بقتل عيسى وصلبه .

السابع ، إنى أسأل الذين لم يتركوا بابا من أبواب التأويل المسدودة على وجوههم إلا طرقوه لئلا يعترفوا بالحق الظاهر من آيات رفع عيسى الذى هو رفعه نفسه إلى السماء لا رفع روحه فقط أو رفع درجته ومنقبته ، لاسيما آية الرفع الوارد فى جملة مصدرة ببل بعد نفى قتله وصلبه مؤيدة لذلك النفى .. أسألهم بعد قصم ظهورهم بهذه الآية : ماذا فهموا من قوله تعالى «ومطهرك من الذين كفروا» الذى يلى قوله « إنى متوفيك ورافعك إلى » وهو آية الرفع الثانية التى لا تتراءى فى بادىء النظر مستعصية على التأويل بفضل قوله « متوفيك » أو بالأصح بفضل خطئهم فى تفسيره ، استعصاء الآية الأولى؟ . أسألهم وأسأل الذين احتكمتُ إليهم فى الرقم السابق : هل يفهمون معنى معقولا من تطهير عيسى من الذين كفروا إن لم يكن رفعه بجسمه إلى السماء بل رفع روحه بعد توفيه أو رفع درجته ؟ وكان المؤولون بأحدهما ـ إصرارا على إنكار رفعه المنصوص عليه فى الآيتين ـ قالوا إن الرفع المذكور فى هذه الآية بعد التوفى يقتضى ذلك ، وماذا يقولون إذن فى تطهيره من الذين كفروا المذكور بعد الرفع المذكور بعد التوفى ، هل يبقى معنى حىّ معتد به لهذا التطهير إن لم يكن الرفع جسمانيا كما هو الظاهر ؟ فهم ، لا يهتمون من الجمل الثلاث الواردة فى هذه الآية أعنى « إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا » إلا بالجملة الأولى فيُعملونها ويهملون الثانية

والثالثة ، فكأنهم يميتونهما كما أماتوا عيسى ؛ ونحن لا نهمل أيا من الجمل الثلاث ونبقى كلا منها على ظاهره ، فالرفع على ظاهره والتطهير من الذين كفروا على ظاهره والتوفى أيضا على ظاهره لكن لا بمعنى الإماتة كما زعموه وحطّموا عليه جميع ماعداه من النصوص ، بل بمعنى آخر ثابت فى اللغة كثبات معنى الإماتة أو أكثر ثبوتا منها وهو الأخذ والقبض . والقرينة على تعين هذا المعنى فى الآية الرفع المذكور بعده والتطهير المذكور بعد الرفع وآية الرفع فى سورة النساء التى تستعصى على المتلاعبين بتأويل رفعه قصدا لإنكاره ، فمعنى الآية إنى آخذك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا بإبعادك عن العالم السفلى المتوسخ بالكفرة الفجرة ؛ فالرفع المذكور فى هذه الآية أيضا يلزم أن يحمل على ظاهره لأن فى قوله ومطهرك من الذين كفروا اقتضاءً لهذا الحمل وتأييدا للظاهر من غير أن يكون هناك مانع عنه فى «متوفيك» كما عرفته . أما الشيخ كاتب مقالات الرد فقد غشى بصرَه غيم هواه فى إنكار رفع عيسى عن طريق التأويل والتلاعب بالتأويل ، فلم يبصر قوله تعالى « ومطهرك من الذين كفروا » بعين الدقة ، بل لم يبصر قول الإمام الرازى فى تفسيره : « مخرجك من بينهم ومفرق بينك وبينهم » على الرغم من أنه نقله بنصه فى مقالة الرد الثانية : « الرسالة » عدد ٥١٦ وعلى الرغم من أن الإمام الرازى كان سندَه فى أحد تلاعباته بتأويل آية النساء المحكمة .

الثامن ، أن عقيدة المسلمين فى رفع عيسى عليه السلام ونزوله إن لم يكن لها مستند من الكتاب والسنة المطهرة كما ادعاه الشيخ كاتب مقالة الفتوى ومقالات الرد على «القول الفصل» لزم أن يكون أساس هذه العقيدة أسطورة من الأساطير ، فمن هو إذن مختلق هذه الأسطورة فى الإسلام ؟ فإن قلنا اختلقها بعض علماء الدين الكاذبين أو الغافلين ، فالعلماء كلهم من عهد الصحابة بل المسلمون كلهم إلى حدوث القاديانية فى الهند وظهور الشيخ محمد عبده بمصر يعتقدون رفع عيسى ونزوله ، فليس فى استطاعة الشيخ كاتب المقالات فى « الرسالة » أن يُرِى أحدا من المتكلمين والمحدثين والفقهاء والمفسرين

ينكر رفع عيسى ونزوله ، حتى الإمام الرازى الذى تمسك الشيخ الكاتب فى مقالة الرد الثانية بقول نقله عن تفسيره فى غير محله كما يتمسك الغريق بكل حشيش ، وقد عرفت قول هذا الإمام فى محله مما نقلنا عنه بنصه .. فقد يكون المفسرون مختلفين فى تفسير آيات الرفع وآيات النزول ويكون لبعضهم قول مرجوح فى تفسير بعض تلك الآيات مخالف لأقوال الآخرين ، ولكن لا جرم أن كلهم متفقون فى أساس عقيدة رفع عيسى ونزوله . ولعل هذا الإجماع منهم مبنى على تواتر الأحاديث فى نزوله المقتضى أيضا للرفع السابق عليه ، إن لم يكن إجماعهم على الرفع مبنيا على قوله تعالى « وماقتلوه يقينا بل رفعه الله إليه » المحكم فى دلالته .

وهذه النقطة من موضوع رفع عيسى ونزوله وأعنى بها مسألة تلق الخلاف الواقع بين العلماء فى تفسير الآيات الواردة بشأنه عليه السلام ، يحتاج إلى وقفة اهتمام منا بأمرها تجلية للحقيقة وتبديدا لغيم المغالطة المحشود حولها لقصد التشويش على الأذهان ، فقد ساق الشيخ فى مقالة الرد الثالثة ما حلا له من أقوال المفسرين فى آيتى النزول اللذين يصرفونهما إلى معان لاتتعلق بحادثة النزول ويفضلونها على المعانى المتعلقة بها ، إزاء مالا يحلو له من أقوال الآخرين ، وأراد من هذه السياقة إحداث ظن بل يقين فى أذهان القارئين غير الأيقاظ بأن هؤلاء المفسرين لايقتنعون بنزول عيسى فى آخر الزمان كمالا يقتنع الشيخ ، استغلالا لأقوالهم فى تأييد رأيه الشاذ وانحرافا عن محجة النصيحة والإخلاص فى نقل الأقوال ، فقد يظن من قرأ المقالة واطلع على أن الإمامين النووى والزمخشرى اللذين يخالفان الإمام ابن جرير القائل برجوع كلا الضميرين المجرورين فى قوله تعالى « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » إلى عيسى والمرجّح لاحتمال كون الآية مشيرة إلى حادثة نزوله قبل موته ؛ يختاران غير هذا المعنى رائيين فى قراءة أبى بن كعب « ليؤمنن به قبل موتهم » مانعا عنه .. يظن من قرأ ذلك أن النووى والزمخشرى لا يعترفان بوقوع حادثة النزول فى آخر الزمان التى هى محل

النزاع بينى وبين الشيخ كحادثة الرفع أو على الأقل يشـكان فيها كما يشك الشيخ ويشكك .. وليس الأمر كذلك قطعا ، لأن حادثة نزوله مضمونة الثبوت عند جميع العلماء بالأحاديث المتواترة فى جملتها البالغة ستين حديثا برواية واحد وثلاثين صحابيا ، وإنما يخالف من يخالف فى حمل بعض الآيات على الإشارة إلى تلك الحادثة التى لاشبهة لأحد فى وقوعها ، كما أن حادثة رفعه مضمونة الثبوت بآية النساء وأحاديث النزول معا. وباقى الآيات بعضها ظاهرة فى نزوله وبعضها فى رفعه ، حتى إن الآية المذكورة آنفا الواردة عقب آية النساء القطعية الدلالة على الرفع وهى قوله تعالى « وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته »، قريبة الظهور من القطعية فى الدلالة على النزول، وحتى إن قول ابن جرير فى ترجيح هذا الاحتمال «إنه أولى بالصحة والصواب» ليس إلا أقل ما ينبغى أن يقال عنه ، لأن الاحتمال المقابل الذى ذهب إلى ترجيحه النووى والزمخشري بإرجاع الضمير الثانى إلى أهل الـكتاب، غير معقول فى ذاته لـكون إيمان أهل الـكتاب جميعا بعيسى قبل موتهم خلافَ الواقع والقائلون به يدعون وقوع هذا الإيمان عند موتهم، لـكن نص القرآن «قبل موته» لاحين موته، وليس لهذا الاحتمال مرجح غير قراءة أبيّ لـكنها قراءة شاذة لا تعد قرآنا ولا يكون الاستناد إليها تاما؛ ولـكون هذه الآية قريبة الظهور من القطعية فى الدلالة على نزول عيسى ترى فى نهاية بعض الروايات لأحاديث نزوله، قولَ الراوى : « اقرأوا إن شئتم قوله تعالى (وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) وقد أعاده أبو هريرة ثلاث مرات .

فلا كلام لأحد ممن يُسمع كلامه فى ثبوت نزوله عليه السلام بأحاديثه الجرّارة، بحيث يكون كلام الشيخ كاتب المقالات بشأنها فى «الرسالة» أدنى من صوت جناح بعوضة وأنكر ، ومثله كلامه فى إنكاره حتى غلبةَ الظن برفعه أو نزوله من آيات الرفع والنزول الواردة فى كتاب الله، وقدأوضحنا مبلغ بعض منها فى الدلالة القطعية.

فإذا فرضنا أن عقيدة المسلمين فى رفع عيسى ونزوله لا تجد مستنَدا يكفيها من

قول الله وقول رسوله وأقوال رواة قول الرسول من الصحابة والتابعين وأئمة الحديث والاجتهاد والتفسير ولو بقدر ما وجده كاتب المقالات وكفاه من المستند على خلافه في قول للإمام الرازي مخالف لأقوال غيره بل مناقض لأقواله نفسه أيضاً[1] فنعود ونقول: من أين تولدت هذه الأسطورة التي اعتقدها المسلمون ، ولا مصلحة لهم في اختلاق منقبة لعيسى عليه السلام ترفعه إلى السماء ثم تنزله منها إذا جاء أوانه منقبةً ثانية ، ولا في اختلاق ستين حديثا من لسان نبيهم مصدقا لها بواسطة ثلاثين رواة من الصحابة مسمَّينَ بأسمائهم؟ فإن كانت تلك العقيدة الشاملة أسطورة على الرغم من جموع الأحاديث والآيات المحتشدة حولها، فالمعقول أن تكون الأسطورة في نفس تلك الأحاديث والآيات لا في اختلاق الأحاديث الدالة عليها ولا في فهمها واستنباطها من الآيات ، ومعنى هذا القول عدم كون الأحاديث المذكورة عندهم لم يعتد بها، أحاديث الرسول الناطق بالوحي، سواء صحت نسبتها إليه أو لم تصح، ولا الآيات التي استنبطوا منها تلك العقيدة كلام الله !! .

نعم ، إن الوضع الصحيح المعقول لهذه المسألة التي ينازعنا فيها الشيخ كاتب مقالات الرد ، أن تحلل على هذا الشكل الذي ذكرنا آنفا مهما كان ثقيلا ، فالمعقول أن يكون المسلمون أخذوا هذه الأسطورة من الكتاب والسنة، وأن يكون الكتاب والسنة أخذاها من المسيحية على منوال قول الأستاذ فريد وجدي عن العلم الحديث الغربي الذي دالت إليه الدولة في الأرض وآمن به نوابغ الشرق الإسلامي: «إنه نظر نظرة في الأديان فرأى اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض» وقد أوردت قول الأستاذ فريد هذا في

---

[١] قد علمت قول الإمام في تفسير آية النساء: «إن رفعه إلى السماء ثابت بهذه الآية» . ولننقل هنا قوله في تفسير آية الزخرف : « وإنه لعلم للساعة » : «أي شرط من أشراطها فسمى الشرط الدال على الشيء علما لحصول العلم به وقرأ ابن مسعود « لعلم » وهو العلامة وقرأ أبي « لذكر » وفي الحديث أن عيسى ينزل على ثنية في الأرض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس» .

أول «القول الفصل» وفى أمكنة كثيرة من هذا الكتاب المشتمل على «القول الفصل».

وليس هذا القول منى فى مغزى شذاذ العلماء المصريين من إثارة الخلاف فى مسألة رفع عيسى ونزوله ، مجرد سوء الظن فى فئة سيئى الظن بالسنة ، أو قياسا قاسيا من قول الأستاذ فريد وجدى عن العلم الحديث ؛ فقد نقل الشيخ بقلمه فى أخرى مقالات الرد علينا « الرسالة » ٥١٩ عن الشيخ رشيد رضا[١] فى جوابه على سؤال ورد إليه من تونس فى مسألة عيسى : « ليس فى القرآن نص صريح فى أن عيسى رفع بجسده وروحه إلى السماء[٢] وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء إنما هذه عقيدة النصارى ، وقد حاولوا فى كل زمان منذ ظهور الإسلام بثها فى المسلمين » ثم تكلم عن الأحاديث وقال « إن هذه المسألة (يعنى مسألة نزوله) من المسائل الخلافية حتى بين المنقول عنهم رفع المسيح بروحه وجسده إلى السماء » .

فيفهم من هذا أن الأحاديث هى واسطة بث هذه العقيدة النصرانية فى المسلمين. ومعنى الجملة الأخيرة من كلام الشيخ رشيد أن أحاديث النزول لا قيمة لها فى إثبات نزول عيسى ولو بقدر إثبات رفعه بالكتاب، فثبت ماقلنا ان تلك الأحاديث ليست غير أساطير [عند فئة الشذوذ] بثها النصارى فى كتب السنة للمسلمين وفيها صحيحا البخارى ومسلم وغيرهما أو بالأصح بثها النصارى فى منابع تلك الكتب الأولية ، ثم يقال ومن أين دخلت أنباء رفعه ونزوله لاسيما أنباء رفعه فى الكتاب التى لها قيمة دلالتها أكثر من قيمة أحاديث نزوله ، مهما لم تكن هذه الدلالة قطعية عند الفئة ؟ فلزم أن تكون آيات الكتاب أيضا أساطير من آثار بث النصارى ، على الرغم من أن فى آية النساء

---

[١] وبهذا الشيخ يتم عدد المشايخ الثلاثة الذين هم سلف الشيخ كاتب مقالات الرد وسنده فى اختيار مسلك التشكيك فى مسألة رفع عيسى ونزوله والذين إليهم ينتهى كل شذوذ حدث فى الأزمنة الأخيرة بمصر .

[٢] قد علمت مما ذكرنا فى الرقم (٥) أن الشك فى هذا يرجع إلى الشك فى كون عيسى مؤلفا من الروح والجسد !!

تصحيحا لما يعتقده النصارى من قتل المسيح وصلبه . ومن هذا يعرف أن مرض الشذوذ فى هذه المسألة مداه أعمق مما يُظهرونه من عدم الاعتماد على قوة دلالة الكتاب عليها أو قوة ثبوت الأحاديث الواردة فيها ، والشيخ كاتب مقالات الرد فى « الرسالة » أقل بكثير من أن يساور جبال الآيات والأحاديث واعتمادات العلماء عليها ثبوتاً ودلالة فيجعلَ عالى تلك الجبال سافلها إلى أن لا يبقى فيها ما يكفى لغلبة الظن فضلا عن اليقين؛ فقد رأيتم كيف عجز عن زعزعة آية النساء وحدها أعنى قوله تعالى « وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه » قيد شعرة عن مكانها فى الدلالة .

التاسع ، ومع ما أشرنا إليه من عمق الشبهة المؤدية بالشيخ ومن أخذ عنهم إلى شذوذ الرأى فى أمر عيسى عليه السلام ، فنحن لا نزال حائرين فى السبب الذى جرّأهم على نفى مستند فى الكتاب أو السنة يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأنه رفع بجسمه إلى السماء . والشيخ ليس بغافل ولا جاهل لحد أن لا يرى مستندات الكتاب التى أحصيناها إلى هنا ، فضلا عن مستندات السنة ؛ لأنه إن كان عيسى لاسيما عيسى الذى ما قتلوه وما صلبوه مؤلفا من الجسم والروح فلا بد أن يكون المرفوع بنص القرآن الناطق برفع عيسى، هذا «المؤلَّف» ولا بد أن يتكون فى كل معتقد لصدق القرآن وكون عيسى مؤلفا من الروح والجسد ، عقيدة كذلك يطمئن إليها قلبه . وهل يظن الشيخ الذى لا يطمئن قلبه إليها أن عقائد المسلمين عامتهم وخاصتهم فى هذا الرفع منذ نزول القرآن إلى زمان الشيخ أو زمان شيوخه الذين أخذ عنهم ، مبنيةٌ على الهواء لا مستند لها ؟ فإن كان عنده ذرة من الإنصاف فليُعَدِّ عن التشكيك فى مستند هذه العقيدة الإسلامية فهو ظاهر لكل من يقرأ القرآن ويفهم لغته ، فإنكار هذا المستند الصريح يؤول إلى إنكار كون القرآن كتابا صالحا للاستناد كمسانيد كتب الحديث . فإن كانت أحاديث نزول عيسى اختلقها رواتها المسلمون تقليدا للأسطورة النصرانية، فمن اختلق آيات رفعه ودسها فى القرآن للتقليد نفسه ؟ ومهما كنت غير محسن الظن بالشيخ فلا

أظنه مستهترا لحد أن يقول بكون الأديان أساطير مشتقا بعضها من بعض كما قال الأستاذ فريد وجدى بك بأن ذلك عقيدة نوابغ الشرق الإسلامى بعد اتصاله بالغرب كما كان رفع عيسى ونزوله عقيدة المليين من النصارى والمسلمين .

لكن الحق الذى يلوح لى فى تقدير عقلية الشيخ تجاه هذه المسألة أنه يدرك — بقدر ما أدركه أنا — عدم كفاية ما أتى به من تزييف الأحاديث أو تأويل الآيات لهدم ما تأسس عند المسلمين من عقيدة رفع المسيح عليه السلام ونزوله ثم قلبها إلى أسطورة نصرانية ، لولا أن يكون عنده ما يعتمد عليه فى عملية الهدم اعتمادا جديا غيرُ التلاعب بتأويل النصوص البالغ حد التحريف والاعتساف أو التزييف الخارج عن الإنصاف . لكن الشيخ يشتغل بهذه المظاهر الضعيفة غير الكافية لدك الجبال ويكتم السبب الحقيقى فى عدم اعترافه بحادثتى الرفع والنزول ، فيسعى لنشدان مهرب فى لفظ القرآن يخلصه من تلك العقيدة الإسلامية متكلفا فى هذا السعى غاية التكلف وساترا للمانع الحقيقى ، ناهيك من تكلفه بتبديل رفع عيسى المذكور فى القرآن وتحويله إلى رفع روحه أو درجته غير المذكورين فيه. فهذا الأمر الظاهر يكفيه فى فهم تكلفه إن لم يفهم الموانع الموجودة فى أسلوب القرآن التى أرينا بعضها فى « القول الفصل » وبعضها فى هذا الذيل ، وكلها يمنعه عن استبدال ما هو غير مذكور فى القرآن مكان المذكور فيه ، ولو كان عند الشيخ من الصراحة والشجاعة نصف ما عنده من الإقدام على معاندة الحق ، لأبان عما يضمره تحت لسانه من السبب الحقيقى فى عدم اعترافه بعقيدة الرفع والنزول ، فأراح الناس من استغراب ما اختاره لنفسه فى النقاش من الموقف الحرج واستراح ، وذلك السبب الحقيقى هو — كما أشرنا إليه فى « القول الفصل » — كون حادثة رفع عيسى إلى السماء ونزوله منها من المستحيلات عند أهل الثقافة العصرية الذين لا يؤمنون بالمغيبات والذين يسعى الشيخ كاتب مقالات الرد منذ إنكاره الشيطان ليكون منهم [١] سواء

[١] فكأنه لا يرى ما يدل عليه القرآن إذا خلى وطبعه وهو رفع عيسى إلى السماء ثم نزوله =

اعترف به أو لم يعترف جريا على نظام الدس والاستبطان اللذين أفشى عنهما الأستاذ فريد أيضا واللذين لم ينته دورهما بعدُ في الشرق الإسلامي، لاسيما بالنسبة إلى الشيوخ المعممين المستفيدين من الوظائف الدينية . فحقيقة الأمر التي لا يبوح بها الشيخ أن مستنده في إنكار عقيدتنا بشأن رفع عيسى ونزوله، هو العلم الحديث الذي يستند إليه منكرو المعجزات وسائر المغيبات ، حين كان مستندنا في عقيدتنا الآيات والأحاديث القديمة التي لا يقيم لها العلم الحديث وعلماؤه وزنا غير وزن الأساطير . كان هذا العلم قد قذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير وكان الشرق الإسلامي على قول الأستاذ فريدوجدي بك لما رأى دينه بعد اتصاله بالغرب ماثلا فيها، لم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله . والشيخ كاتب المقالات يعرف كل هذا ، فإن كان لا يعرفه فقد تعلمه من قول الأستاذ فريد المنشور في « الأهرام » قبل سنوات . تعلَّمه وكوّن منه عقيدة لنفسه تسهّل في عينيه هدمَ عقائد المسلمين واحدة بعد واحدة مع ما تستند إليه هذه العقائد من الآيات والأحاديث . أما هدم العلم الحديث القاذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير فالشيخ يراه أكبر من أن يحاوله كما قال الأستاذ فريد بالنسبة إلى الشرق الإسلامي عامة . وويل للإسلام في أيام محنته من علمائه الذين لا يخذلونه فحسب مع أهله وذويه الخاذلين ، بل ويجهلون عليه أيضا مع أعدائه الجاهلين .

= منها من الممكنات عقلا فيأوله بما يمكن ، بناء على ما تقرر عند علماء الإسلام من أنه إذا تعارض العقل والنقل يؤول النقل . لكن رفع عيسى ونزوله وغيرها من الخوارق قد حققنا في « القول الفصل » أنه من خوارق العادة لا من خوارق العقل ، فلا كلام في إمكانها العقلي بعد ثبوت وجود الله خالق الكائنات . ولعل الشيخ لا يعرف الإمكان والاستحالة بالضبط ولا عدم كون تحديدها من اختصاص العلم الحديث المبني على التجربة التي تضيق دائرتها عن دائرة العقل ، ولم يقرأ ما كتبناه في « القول الفصل » بهذا الصدد . فهذا المانع العلمي المزعوم مع حمى الضغينة الحاصلة من الانهزام أمام « القول الفصل » ولدا في قلب الشيخ غير المطمئن عنادا اطمأن إليه فهو رائده فيما كتبه وفيما سيكتبه، فينزل عيسى المرفوع ولا ينزل الشيخ عن دعواه المبنية على العناد، ومن يضلل الله فما له من هاد .

العاشر ، أن لمسألة رفع عيسى ونزوله شكلين فى وضعها موضع البحث والنظر ، الأول : وضعها لمعرفة أى القولين من إثباتهما له أو نفيهما عنه صادق مطابق للواقع ، أو على الأقل معرفة أى القولين أحق بالترجيح والاختيار على تقدير وقوع الاختلاف فى المسألة ؟ .

والشكل الثانى: أن الرفع والنزول واقعان لا شك فيهما وأن إنكارهما ضلال عن الحق والصواب ، لكن التردد فى كون هذاالضلال كفرا أو ما دون الكفر ؟ فسألة التكفير أو عدم التكفير إنما يتصور هكذا أى بعد تعين الأمر الواقع بحصول غلبة الظن فيه على الأقل ، وعند ذلك لايجوز التردد فى أصل الحكم بوقوع الرفع والنزول أو عدم وقوعهما كما فى الشكل الأول .

وكما أن الذى يهم طالب الاطلاع على الحقيقة الواقعة فى هذه المسألة هو الشكل الأول ، أعنى البت فى أمر عيسى عليه السلام هل رفع إلى السماء أم لم يرفع وهل ينزل منها فى آخر الزمان أو لا يكون له نزول كما لم يسبق له رفع ؟ .. كما أن المهم فى ذاته هو هذا الشكل ، فبالنظر إلى نشر الفتوى فى مجلة «الرسالة» كان المهم المنتظر وضع المسألة موضع البحث على شكلها الأول أيا ما كانت صورة الاستفتاء ؟ إذ لا يهم القراء معرفة تكفير المنكر أو عدم تكفيره بقدر ما يهمهم معرفة الواقع من أمر عيسى . وكان هذا الشكل هو المقصود أيضا فى نظر الشيخ المفتى كاتب مقالات الرد على « القول الفصل » لكونه متضمنا لمذهبه الخاص فى المسألة وهو نفى حادثتى الرفع والنزول بالمرة ، لانفيهما الراجع إلى نفى الكفر فقط للمنكر مع ترجيح صحة وقوع الحادثتين ترجيحا عاديا مبنيا على غلبة الظن بوقوعهما . وقد يكون المستفتى لم يحسن عرض المسألة على المفتى ، ومع هذا فمن المستبعد جدا أن يقصد المستفتى معرفة ما يترتب على إنكار الرفع والنزول من الكفر أو عدم الكفر ، لينكرهما إن لم يوجب الكفر وليقربهما إن أوجب ، كائنا ما كان الواقع وما كان الرأى الراجح فى المسألة عند المفتى .

وقد خيل إلى بعض الأذهان أن الشيخ كاتب المقالات لاينازعنا فى أصل المسألة فهو مقتنع برفع عيسى ونزوله كما أننا مقتنعون، وإنما ينكر كفر من ينكرهما قائلا بعدم كفاية الأدلة القائمة عليهما من الكتاب والسنة فى الحكم بكفره لعدم كون تلك الأدلة قطعية مفيدة لليقين. وفى هذا التخييل — الذى صادفت بين قراء مقالات الشيخ، من يدعيه — تخفيف على الشيخ وتفسير لمذهبه فى مسألة رفع عيسى ونزوله بما لا يبعد كل البعد عن المذهب المتوارث فى الإسلام ، بناء على أن إثبات الكفر للمنكر ليس فى السهولة بدرجة اثبات أصل المسألة الذى هو الرفع والنزول نفسهما ، لكن شيئا من هذا التفسير وذاك التخييل لا يقوم على أساس من الصحة وإنما هو غفلة من أولئك المحسنين الظن بالشيخ وأمثاله تعوّد ناشرو الأفكار الزائغة بين المسلمين أن يستفيدوا من مثلها فى ترويج أباطيلهم ، بل الشيخ ينازعنا فى أصل المسألة قبل وصفها فينكر رفع عيسى ونزوله وينكر بعد ذلك طبعا كفر من ينكر رفع عيسى ونزوله. وفى الحقيقة أن تكفير المنكر إنما يتصور بعد الاعتراف بثبوت الحادثتين بأدلتهما من الكتاب والسنة فإذا لم يُقبل ثبوتهما كما ادعاه الخصم كان تكفير المنكر ساقطا بطبيعة الحال .

وإنما قلنا إن الشيخ ينازعنا فى أصل المسألة وهو مقصوده من هذا النقاش فينكر رفع عيسى ونزوله بالمرة ، فهذا مذهبه الذى يسعى لترويجه فى فتواه وفى مقالاته التى يدعم بها الفتوى ، لا أنه ينكر كفر المنكر فقط ويتفق معنا فى تصديق الرفع والنزول كما يتخيله الملتمسون له عذرا واقترابا من المذهب المتوارث فى الإسلام . والدليل على ماقلنا فى أصل مذهب الشيخ ومقصده من النقاش أنه يعترض على أدلتنا من الكتاب والسنة فى إثبات الرفع والنزول ساعيا لنقضهما بالتأويل فى أدلة الكتاب والتزييف فى أدلة السنة ، وأدلتنا من الكتاب والسنة ليست أدلة إثبات الكفر لمن ينكر حادثتى الرفع والنزول ، بل أدلة إثبات الحادثتين نفسهما . ثم إن الاستفتاء — نظراً إلى ما نقله الشيخ عنه فى صدر مقالته الأولى المنشورة قبل انتشار « القول الفصل » —

صريح فى السؤالين ، الأول: «هل عيسى حى أو ميت فى نظر القرآن الكريم والسنة المطهرة ؟ » والثانى : « ماحكم المسلم الذى ينكر أنه حى؟ » فالسؤال الأول المستفسر عن حياة عيسى سؤال عن صحة رفعه ونزوله التى سميناها أصل المسألة ، وسمينا السؤال عنها الشكل الأول فى وضع المسألة موضع البحث . وكان جواب الشيخ فى فتواه على هذا السؤال كما هو مصرح به فى مقالته الأولى « الرسالة » عدد ٤١٢ ومكرر فى مقالته الثانية المنشورة بعد سنة « الرسالة » عدد ٥١٤ ــ وهى مقالة الرد الأولى على « القول الفصل » : « ليس فى القرآن الكريم ولا فى السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض» والجواب أيضا صريح فى أنه ليس فى الكتاب ولا فى السنة دليل يُستند إليه ويعتمد عليه لاعتقاد أن عيسى عليه السلام رفع بجسمه إلى السماء وأنه سينزل منها ، فإن رأى المعتقدون دليلا لهما فى الكتاب والسنة فقلب الشيخ لا يطمئن إليه ولا يعتمد عليه ! [١] وأى شىء يطالب فى تعيين مذهب الشيخ كاتب المقالات بعد هذا القول الصريح فى إنكار رفع عيسى ونزوله ؟ فليقرأه الغافلون المخففون عن مذهبه

---

[١] وإن شئت فضم إلى هذا القول المصرح به فى مقالته الأولى من المقالات الخمس التى كتبها ردا على « القول الفصل » ، قوله فى آخر مقالة الرد الثالثة « الرسالة عدد ٥١٧ » : « ليس فى القرآن الكريم ما يفيد بظاهره غلبة الظن بنزول عيسى أو رفعه فضلا عما يفيد القطع الذى يكفر منكره كما يزعمون » .

• وأنا أقول : لا خوف من الكفر على مذهب الشيخ الفسيح الذى قطع به وأشاده بعنوان «التحقيق» من أن مايجب الإيمان به يرجع إلى الأصول التى اشتركت فيها الأديان السماوية بأجمعها . . لاخوف على أحد من الكفر ولو أنكر نصوص القرآن القطعية بأجمعها ما دام القرآن تفرد بها ، لعدم كون مسألة رفع عيسى ونزوله ولا تلك النصوص التى تفرد القرآن بها ، من الأصول التى اشتركت فيها الأديان السماوية بأجمعها . وقد لفت مذهب الشيخ هـذا الذى نستنكره ، نظر صديق العلامة الكبير مؤلف « نظرة عابرة » أيضا ، فسجله عليه تسجيلة غير عابرة .

الزاعمون أنه لاينكر عقيدة الرفع والنزول المتوارثة في الإسلام وإنما ينكر كفر المنكر.

نعم ، إن ههنا شيئا أوقع هؤلاء المخففين عن مذهب الشيخ في الغلط، وهو أنه ينفي الكفر عن المنكر في جواب السؤال الثاني من الاستفتاء، وذلك بعد نفي الرفع والنزول نفسيهما في جواب السؤال الأول .. وكان بين المرحلتين للنفي المذكورتين في الجوابين واللتين إحداهما إنكار الرفع والنزول وعدم التصديق بوقوعهما وثانيتهما إنكار كفر المنكر ، مرحلة التصديق بوقوعهما مع الكف عن تكفير من ينكرهما اكتفاء بتضليله لم يذكرها الشيخ في فتواه مع كونها الأجدر بالذكر ممن لايقدم على تكفير المنكر إن كان يصدّق بوقوع الحادثتين، بل تخطّى من مرحلة انكارهما الى مرحلة عدم تكفير المنكر باذلا لهذه المرحلة عظيم اهتمامه في مقالاته ، فظن بسبب هذا الاهتمام من لم يستكملوا يقظتهم في مطالعة المقالات المنشورة أن قلب الشيخ يطمئن إلى المرحلة المتوسطة بين الطرفين رغم عدم تعرضه في كلامه لهذه المرحلة، بناء على عدم كونه موافقا لمذهبه الذي هو إنكار الرفع والنزول بالمرة . ولم يحترز عن حصول هذا الظن في الأذهان البسيطة بل رغب فيه مع كونه مخالفا لمذهبه في شأن عيسى، تشويشا للأمر على القارئين وتلبيسا للواقع بخلافه، لأنه خاف الانهزام في ترويج مذهبه مباشرةً المنكر للرفع والنزول فأراد ترويجه في ضمن إنكاره لتكفير من ينكرهما وأراد تصعيب الموقف على خصومه، لأنه يرى إثبات الحكم بكفر من ينكر الرفع والنزول أصعب من إثبات الرفع والنزول، لا سيما في نظر قوم عصريين يباح عندهم للكافر كفره ولا يجوز لأحد تكفيره ، فكأنهم فهموا من قول الأوائل « لاذنب أعظم من الكفر » إعظام التكفير ومنعه ليمتنع معه الكفر . فالشيخ يستخدم الحيلة في ترويج شذوذه الذي هو عدم الاعتراف بالرفع والنزول لعيسى عليه السلام فيضع تأمينا عليه بتصويره في صورة عدم الاعتراف بكفر من ينكرهما ويجعل محل النزاع في بادئ النظر تكفيرَ منكر الرفع والنزول، لا صحة القول بهما نفسهما، مع أنه ينازعنا فيها كما أثبتناه بأدلة صريحة من كلامه .

وأنا الذى أعلم أن نزاع الشيخ معى فى أصل وقوع الرفع والنزول قبل وصفه ، ومع العلم بذلك أراه يجرنى إلى موقف البحث فى كفر منكر الرفع والنزول أو عدم كفره ، بدلا من البحث فى كونه محقا فى الإنكار أو ضالا عن الحق والصواب ، ويقصد بذلك تحريج الموقف علىّ ـ ما كنت لأستصعب أن أجاريه فى الموقف الذى يريد أن أقف فيه فأُكفِّرَ منكر رفع عيسى ونزوله وأُكفِّرَ أيضا من لا يكتفى بالكف عن تكفير المنكر بل يضيف إليه الكف عن تضليله وتخطئته تنزيلا للآيات والأحاديث الواردة بشأنهما منزلة العدم .. لكن كتابى « القول الفصل » لم أحكم فيه على أحد بالكفر وإنما اتهمت أناسا بعدم الإيمان بالمعجزات لعدم إيمانهم بالمغيبات ، ولم يكن ذلك تجنبا منى وابتعادا عن الصراحة ، بل لعدم الفائدة فى إكفار أحد فى هذا الزمان الذى لا أسهل على كثير من الناس فيه من أن يكفُرَ ثم يقول ما كفرت ، على مثال ما وقع فى حكايات الزمن القديم المستظرفة من قول رجل بليد : « كانوا يقولون لا يصلَّى بغير وضوء فقد صليت أنا وما ضر صلاتى شيئا » . وماذا موقف الشيخ الذى لم يكفر فى إنكار رفع عيسى ونزوله ، لما أنكر وجود الشيطان كائنا حيا عاقلا كما وصفه الله فى عشرات من آيات كتابه فقال مثلا « يا إبليس ما منعك أن لا تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فإنك رجيم » إلى أن قال « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » وقال « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » وقال « كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو » وقال « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين » ثم اعتذر الشيخ بما هو أقبح من ذنبه فقال « إن الله يجارى فى آيات الشيطان عقيدة العرب الجاهليين » فإذا ضاقت عليه الحيلة فى تأويل الآيات والاستخفاف بالأحاديث الواردة فى رفع عيسى ونزوله ،

من ردودنا القاضية عليهما فسيقول إن الله ورسوله يجاريان فى تلك الآيات والأحاديث الأساطيرَ النصرانية ، فإن كفر الشيخ فى شىء من هذا ولم يعترف بأنه كفر فماذا يحصل من تكفيره ؟ .

ولا نريد من الحكم بالكفر على أحد إلا مقابلة ما كان سببا لذلك من قول أو فعل ، بمنتهى التقبيح وتحذير المسلمين من مثل تلك المخاطرة بأنفسهم لئلا يستحقوا نار جهنم الخالدة . هذا إذا كان المخاطر من عامة الناس المحتاجين إلى التنبيه والإرشاد ، وأما إن كان من خاصتهم المشتغلين بالنشر والتأليف فالمقصود من تكفيره تحذير المسلمين من أن يأتمنوه فى دينهم ويعوّلوا على آرائه فيه ، وإن شئت فقل إن المقصود تعريفهم به على أنه من مستبطنى الإلحاد فى الشرق الإسلامى الذين أشار الأستاذ فريد وجدى بك فى إحدى مقالاته القديمة إليهم وإلى أنهم مشتغلون بتهيئة الأذهان لقبول ما استبطنوه دسا فى مقالاتهم وقصائدهم .

والذين يتسامحون فى مسائل الكفر ويلومون من يحذّر الناس من الوقوع فى الكفر من دون لوم الواقع ، فهذا التسامح فى غير محله يكون تشجيعا للكافر على كفره واستخفافا بعذاب الله المترتب عليه . ولا يغرن المسلمين ظهور المتسامح فى مظهر الرحيم للخلق وإظهاره المحذرَ فى مظهر القاسى المشدد ، لأنه إذا كان قول المشدد أكثر موافقة لما هو المفهوم من قول الله ورسوله فلا بد أن يكون التسامح الذى لم يتخذ عند الله عهدا ، فضوليا فى رحمته للذين قال الله عنهم « فما أصبرهم على النار » ولا سيما فضوليا فى رحمته المترجمة عن رحمة الله التى هى غير تابعة لرحمة من لا يعنيه الكفر والإيمان ، بمعنى أنه لا يغضبه الأول ولا يسره الثانى ، لأن منشأ هذا التسامح عدم أهمية أن يكون دين البلاد — وفيه دين المتسامح — عرضة للخطر عنده من كفر الكافر واقتفاء غيره بأثره . أما عدم اعتراف المتسامح بهذا الخطر فمن قلة اهتمامه وعنايته بأمر الدين ، فلو كان مثل هذا الخطر متوجها إلى ما هو عزيز عنده كماله ومنصبه لأقلقه أدنى شبهة توقعه

فيه وأرّقه أضعف احتمال وقوعه ، والله تعالى يقول « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » .

وما رأيته فى بعض المجلات نقلا عن قول من كان يقول أنا مسلم على مذهب الشيخ محمد عبده ، وقد أراد به الناقل مدح الشيخ بسعة الصدر حيث يعدّ مسلما أكثر من يعدهم غيره خارجين عن الإسلام ، فشىء يضر القائل والناقل والشيخ صاحب المذهب الذى يجوز عنده ما يكون كفرا عند غيره . وماذا ينفع المتمسكَ بمذهب الشيخ محمد عبده الشاذ تمسكه ؟ بعد أن قال النبى صلى الله عليه وسلم «يافاطمة لاأغنى عنك من الله شيئا » .

ولا يرد علينا فى هذا المقام قوله صلى الله عليه وسلم « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » لأنا لا نريد بالتشديد فى مسائل الكفر والإيمان إخراج مرتكبى الكبيرة مثلا عن الإيمان كما هو مذهب المعتزلة أو إدخاله مع ذلك فى الكفر كما هو مذهب الخوارج ، وإنما نريد التحذير من نقص فى الإيمان بقدرة الله أو زيغ فى العقيدة أتى إلى الشرق من علم الغرب المادى مثل إنكار المعجزات والمغيبات أو تقليد لغير المسلمين وتشبهٍ بهم لا لمصلحة سوى التقليد والتشبه ، حتى إن بعض المتشبهين لا يحس بأى أذى فى قلبه من أن يظنه من رآه ، أجنبيا عن الإسلام فى دياره بل يعتز بهذا التشبه ولا يبالى بذلك الظن . فهو كافر عندى تنقصه عزة النفس الإسلامية وتقوم مقامها الاستهانة بالإسلام ، وليس فى الاحتفاظ بهذه العزة فى قلب المسلم باجتناب ما ينافيها أىّ حرج. وليعلم من يهمه أن يلقى الله مسلما من أهل هذا الزمان الذى كثرت فيه ألفاظ الباحثين فى مسائل الدين ، أن الإسلام الذى من يبتغ غيره دينا فلن يقبل منه، دين فى غاية العلو والحساسية ، دين يجدر بالمسلمين أن يتعلموا الكرامة من كرامته ، فمن يكرم دينه يكرم نفسه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم . فهذا الدين لا يعذر المسلم على أى تقصير فى تعظيمه

فيفارقه بأدنى استهانة منه بجانبه (١) وإن تغاضى عما فرط فى أداء واجباته بشرط أن يكون ذلك فى ملامة نفس وندامة قلب ، فمن الممكن لمقترف كثير من المحرمات مع مراعاة هذه الشروط أن يسلم دينه بسلامة إيمانه، ولاسلامة لإيمان من يستحل ما حرمه الله أو يستخف بكرامة دينه، فشارب الخمر مع الاعتراف بذنبه مسلم، والقائلُ ولو من غير شرب : «ماذا يلزم من هذا ؟» كافر ، كما أن شارب الماء متشبها بشارب الخمر مذنب.

ومن المفيد أن أنقل هنا ما قلت فى آخر مقالة كنت كتبتها قبل سنين فى مجلة « الفتح » الإسلامية بعنوان « فتنة القبعة الجديدةُ ومغزاها الجديد » :

« أما حديث (هلا شققت عن قلبه) (٢) وحسنُ الظن بالمسلمين وترجيحُ الاحتمال الواحد على تسعة وتسعين احتمالا إذا كان الواحد ينجيهم من الكفر وتعليقُ الحكم به على اتفاق الفقهاء وأمثال ذلك من الوصايا الفقهية الموجبة للأخذ بالتساهل والكفّ عن التشديد فى مسائل الكفر والإيمان، فتلك أحكام الإسلام المدنية السمحة التى ينبغى أن يعمل بها فى الأزمنة والحالات الطبيعية وفى أزمنة قوة الإسلام وعدم الخوف عليه من أعدائه . ففى تلك الأزمنة كان يُخاف على حياة الذين تحس منهم أمارات الإعراض عن الإسلام ، بدلا من أن يخاف على حياة الإسلام نفسه، فكان يخفف عنهم فى الحكم رحمة بهم . والآن ، وقد تجرأ أعداء الإسلام فى داخل بلاده وعقر دياره على إعلان الحرب ضده وانقلب حديث حسن الظن بالمسلم إلى حسن الظن بعدو المسلم ، يحق لى أن أقول للعلماء الغافلين المتجاهلين لهول الموقف وخطورته الذى يُغضب الحليم ويوقظ النائم ويستفز الغيور ، كما نرى الدول المراعية لقواعد الحرية والمتأدبة بلطف المدنية

---

[١] وإنى أمثل هذه الاستهانة المكفرة التى يستهين بها بعض الناس فى زماننا ، بأن يقال أنا تركى أو عربى أولا ثم مسلم .

[٢] خطاب لأسامة بن زيد لما قتل فى واقعة فدك مرداس بن نهيك مع تلفظه بكلمة التوحيد ثم اعتذر بأنه قالها بلسانه .

تأخذ حِذرها فى زمن الحرب والخطر على كيانها وتعمل بكل حزم وشدة .. والآن يحق لى أن أقول لهؤلاء العلماء :

ألا فارحموا الإسلام ولا ترحموا أعداءه ، ولا تستخرجوا من أحكامه وقوانينه نصيرا وظهيرا لأعدائه ، ولا تجعلوا الإسلام دين غفلة وغباء وحمق يرحم أعداءه الذين لا يرحمونه ويخلى لهم الجو حتى يرموه من خلفه ويُجهزوا عليه .. »

الحادى عشر ، أن سيدنا عيسى قتله اليهود وصلبوه فى عقيدة النصارى ، وبعد قتله بأيام أحياه الله ورفعه إلى السماء ، وفى عقيدتنا نحن المسلمين رفعه الله من غير أن يسبقه القتل . فالمسلمون والنصارى متفقون على رفعه . وعند الشيخ شلتوت أنه لم يقتل ولم يصلب ولم يرفع بل عاش ما عاش فى الأرض بعد حادثة محاولة قتله ثم مات فيها ميتة عادية وانتهى أمره . فعيسى اليهود مقتول بأيديهم وعيسى النصارى والمسلمين مرفوع إلى السماء وهو فيها الآن ، وعيسى الشيخ شلتوت عاش فى الأرض ومات فيها كما يعيش ويموت غيره من الناس . فأسأله إذن : أين عاش بعد حادثة محاولة قتله ؟ ثم أين مات وأين قبره الآن ؟ وسيكون جواب الشيخ على هذا السؤال إن كان له جواب : عيسى الآن حيث كان عيسى اليهود !! .

* * *

والآن انتهينا من الجواب على مقالات الشيخ فى مسألة رفع عيسى عليه السلام ونزوله ومن درس تلك المسألة علميا ، وأتينا أقواله فيها خارج الصدد متجنين علينا ومعنفين . فمن ذلك : مسألة وجود عضو فى جماعة كبار العلماء أو فى اللجنة المفرزة من الجماعة عند درس أمر الطالبين القاديانيين ، شذ هذا العضو عن زملائه فى اللجنة أو الجماعة ، فاعترض على فصلهما من الأزهر شكا منه فى كفر من أنكر كون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ، كما هو أحد مبادئ الطائفة القاديانية المدعين نبوة غلام أحمد القاديانى الهندى بعد سيدنا محمد . فاتهمنى الشيخ كاتب مقالات الرد على « القول الفصل » بأنى

اختلقت هذا العضو الشاذ فى خيالى وعزوت إليه الطعن فى حجية حديث « لا نبى بعدى » وفى الإجماع المنعقد على ختم النبوة بنبينا وفى قطعية دلالة قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » عليه ؛ ثم رأيت الشيخ الكاتب أول من يخطر بالبال أن يكون ذلك العضو إن لم يتأخر التحاقه بجماعة كبار العلماء عن زمان درس أمر الطالبين القاديانيين .

وتوضيح هذه المسألة أن الشيخ عبد المجيد اللبان تغمده الله برحمته كان هو الذى تحدّث إلىّ عن وجود ذلك العضو المعترض فى فصل الطالبين زمن مفاوضة الجماعة أو اللجنة المفرزة منها فى أمرهما وفيهم الشيخ المغفور له نفسه .. تحدث إلى عنه من غير تصريح باسمه وكونه واحدا أو أكثر ، ثم استعاننى فى حل شبهته أى شبهة المعترض كاستعانه غيرى ممن كان يحسن الظن بهم ، فذكرته حديث « لا نبى بعدى » وذكرته الإجماع المنعقد عليه ، فطلب غيرهما فقرأت آية الأحزاب أعنى قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » فحكى تمسك المعترض باحتمال كون المراد خاتم الزينة وإن كان احتمالا ضعيفا حيث يكفى فى درء تهمة الكفر عن الطالبين وينجيهما من الفصل ، فيكون معنى « خاتم النبيين » على هذا الاحتمال : زين الأنبياء ، وإذا ثبت الاحتمال سقط الاستدلال .

جرى هذا الحديث بينى وبين المغفور له حتى كتبت ما كتبته فى مقدمة هذا الكتاب (٤٥٧ جزء أول) عن تفسير هذه الآية ، وما ألفت كتابا مستقلا فى الرد على تأويل الخاتم بالزينة كما فهمه الشيخ كاتب مقالات الرد على « القول الفصل » . ولم أكتب ما كتبته عبثا من غير حاجة إليه فى هذا العصر الغريب الذى يحتاج فيه الإنسان إلى الكتابة فيما لم تسبق الحاجة إليه فى عصور الإسلام الماضية .

ولا شك أن الشيخ اللبان ما كذب فى القول عن وجود رجل فى اللجنة أو الجماعة قائل باحتمال آية الخاتم ما لا تحتمله . أما احتمال كونى كذبت واختلقت القصة فمن

المستحيل الذى لا يستطيع أن يقدره الشيخ كاتب مقالات الرد، وإنما يتصور الكذب ممن يعيبنى فى مقالته بأن تركيا كفرت بى «على تعبيره» أى تبرأت منى ، والتى كانت تبرأت منى هى حكومة تركيا الجديدة اللادينية ، وهذا التبرؤ الذى أتشرف أنا به — وقد تبرأت أنا منها قبل تبرؤها منى — يكون منقصة فى نظر الشيخ يرمينى بها ويذكرها دليلا لاحتمال اختلاق الكذب منى . وها أنذا أذكر ما ذكره ، منقصة مسجلة عليه تؤذن بكونه ممن يتصورمنه الكذب ويسهل عليه القول بكذب غيره قياسا له على نفسه ، فمن منا لا يتحرج من أن يكذب ؟ أنا الذى تبرأت منى حكومة تبرأت عن دينها ، أم الشيخ الذى عد تبرؤ هذه الحكومة منى عارا على ؟ ومما يؤيد كون الكذب الذى يحاول أن يرمينى به الشيخ ، فى جانب الشيخ ، أنه يستبعد جدا عدم اطلاعه على هذا الخلاف الحادث فى جماعة كبار العلماء وهو أقرب إليهم منى ولو قبل التحاقه بهم وأشد اتصالا بمشيخة الأزهر ، لكنه يتجاهل وينفى وجود شخص كهذا فى الجماعة تكذيبا لما كتبته فى «القول الفصل» واعتمادا منه على أن المطلعين على المسألة من العلماء الأحياء فى داخل الجماعة أو خارجها لا يجترئون على تصديق معلنين الحق ومسمين ذلك الرجل الشاذ ، ومكذب الصادق عمدا هو الكاذب .

أما قولى عن الشيخ إنه أول من يخطر بالبال أن يكون ذلك الشاذ الثالث فى كفر من أنكر ختم النبوة بنبينا كما هو مذهب القاديانية ، إن لم يتأخر تعيينه عضوا لجماعة كبار العلماء ، فكان ذلك استهجانا منى لمسلك الشيخ فى التجرؤ على معتقدات الإسلام والعبث بآيات كتابه . فإذا وجد بين كبار العلماء من يشك فى دلالة « خاتم النبيين » المنصوص عليه فى القرآن وصفا لنبينا ، على كونه آخر الأنبياء دلالة قطعية — ولا بد أن يكون موجودا بالنظر إلى أنى سمعته من الشيخ اللبان الذى لا أرتاب فى صدقه — فالشيخ كاتب مقالات الرد الذى أنكر أخيرا دلالة الكتاب والسنة على رفع عيسى عليه السلام ونزوله ، وأنكر من قبل وجود الشيطان كشخص حى عاقل ينسب إليه كتاب الله فيما لا يحصى من آياته أفعالا وأوصافا لا تحصى أيضا ولا يتصور لغير الأحياء

والعقلاء. فلما اعتُرض عليه بهذا أجاب أولا بأن القرآن لم يحدد كنه الشيطان وماهيتَه، فتغاضى عمـا حدده القرآن وعدده من أفعاله وأحواله التى تكفينا ولا تلتئم قطعا مع ما يدعى الشيخ ويحدده للشيطان من الماهية على أنه عبارة عن نزعات الشر المنبثة فى العالم، ثم أجاب بأن القرآن جارى عقيدة العرب الجاهليين فى تصوير الشيطان، فجعل القرآن يتبع عقيدة المبطلين فى حين أنه نزل لإحقاق الحق وإبطال الباطل... فهذا الشيخ إن قلت عنه: إنه أولى بأن يكون ذلك العضو إن كان يومئذ داخلا فى الجماعة، ماظلمته ما ظلم هو نفسُه القرآنَ وأهانه !!

هذا توضيح حكاية العضو الشاذ من جماعة كبار العلماء الذى تحدثتُ عنه عرضا فى تعليقة قصيرة من تعليقات « القول الفصـل » طال اشتغال الشيخ بها فى رده، حتى اتخذها رأس مال لنقد مافى الـكتاب بجملته وتبرئة الذين انتقدتُ أقوالهم فى الـكتاب، بجملتهم. أنظر ماذا يقول عن الحـكاية المذكورة :

« يبيح هذا الشيخ [يعنينى] لنفسه أن يرمى وجوه أهل العلم بدون أدنى تثبت، بتهم خطيرة فى مثل هذه العبارة الركيـكة الملتوية، فيزعم أن نزعة كاتب هذا البحث قاديانية ويزعم أن هناك عضوا فى جماعة كبار العلماء شذ فعارض فصل الطالبين القاديانيين وأن هذا العضو يتردد فى الإفتاء بكفر من أنـكر ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنه يطعن فى حجية الحديث الوارد فيه ويطعن فى الإجماع المنعقد عليه ويطعن فى دلالة الآية القطعية عليه [1] يتصور عضوا فى جماعة كبار العلماء هذا شأنه وتلك عقيدته ويؤلف كتابا فى الرد عليه لم ينشره بعد، وهو لا يعرف شخصه ولا يكلف نفسه السؤال عنه حتى تسعفه بالمصادفة فيجمع فى خياله بين بحث شلتوت وممارضة العضو المجهول فى فصل الطالبين، بل يجمع بين بحث شلتوت وكفر هذا العضو المجهول [2] بإنكاره مسألة من أمهات مسائل الدين وأصوله فيقول: « إن كان الشيخ شلتوت لم

---

[١] « القطعية » فى كلامى متأخر عن « عليه » وصفة للدلالة لا للآية.

[٢] ليس فى كلامى اتهام العضو المجهول بالـكفر ولا بإنـكار مسألة من أمهات مسائل الدين وإنما اتهمته بالتردد فى الإفتاء بكفر المنـكر.

يتأخر التحاقه بهيئة كبار العلماء فهو أول من يخطر بالبال أن يكون ذلك الشاذ .

« ولست فى حاجة إلى أن أقول : إنه لا يوجد بين كبار العلماء قاطبة ، ولم يكن فيها من قبل شخص كهذا الذى تصوره الشيخ وألبسه تلك العقيدة ظلما وعدوانا .

« ولست فى حاجة إلى أن أقول إن زمن التحاق بالجماعة متأخر عن درس مسألة هذين الطالبين وتنفيذ القرار فيهما .

« ولكنى بعد هذا أسأله ، وقد علم أن هذا العضو لم يكن شلتوت من هو إذن حتى نعرف على الأقل ثانى من يخطر بالبال فى مثل هذا المجال :

« أسأله وأنا واثق أنه لا يستطيع أن يجيب لأن هذا الشيخ [يعنينى] وأمثاله لا يقولون ما يقولون عن علم أو بحث ولكن عن خرص وتظنن وتمويه وتشويه « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

وأنا أقول إن الشيخ كاتب المقالة يتخذ عدم وجود الشيخ اللبان اليوم حيا وعدم استقلال الأعضاء المصريين فى أداء الشهادة بالواقع تحت قيد الوظيفة الأزهرية ، فرصة لاجترائه على المجازفة بالقول نفيا لوجود عضو معترض على الحكم ضد الطالبين عند مداولة الأفكار فيما بينهم ، كيف لا يستفيد من هذه الفرصة وقد ساء ظن الرجل بعلماء الأزهر إلى حد أن يقول فى آخر مقالته الأخيرة ، وقد نقلناه عنه من قبل أيضا :

« ولعلنا بعد إظهار فتوى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى نستريح من لغط بعض العلماء الرسميين الذين عرف عنهم أن تمسكهم بالرأى وما يزعمون أنه دين (تأمل) ليس إلا بمقدار جهلهم برأى فضيلته وهو شيخ الجامع الأزهر ، فإذا ما عرفوا رأيه وهو شيخ الجامع الأزهر خلعوا أنفسهم من ربقة رأيهم الأول وسارعوا إلى اعتناق رأيه بل تسابقوا فى توجيهه وتأييده » .

ثم أقول ولم يراع الشيخ حق الصدق فى تصوير حكاية العضو المجهول الشاذ محاولا تشويه ما قلت عنه فى التعليقة كما أشرت إليه أيضا فى أثناء نقل كلامه ، فكأنى على تصويره اتهمت ذلك العضو بالكفر وبإنكار مسألة من أمهات مسائل الدين وهى ختم

النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، مع أن ما أسندته إليه تردده في الإفتاء بكفر المنكر لا إنكاره هو ، ومن العجب أنه اعترف بقولي عنه انه يتردد في الإفتاء بكفر المنكر ، فكيف إذن يكون المتردد في الإفتاء بكفر المنكر منكرا مثل الذي يتردد في الإفتاء بكفره ؟ وقد أخطأ أيضا في تعيين الطاعن في حجية الحديث والإجماع وفي قطعية دلالة الآية ، ولعله ظن قولي « طعنا منه » الذي كان مربوطا بما في قربه من « المنكر » ، مربوطا بفعل التردد البعيد .

ولنا أن نذهب في تحقيق الحق إلى ما وراء المفهوم منه إلى هنا فنقول ، بعد هذا التنبيه على أن اتهامنا العضو المذكور بالشك ينحصر في شكه في كفر المنكر وعلى أنا لم نعين الشيخ كاتب المقالات على أنه هو ذلك العضو الشاك مهما قلنا بكونه أولى أن يكونه .. لنا أن نقول : ما هذا الاستبعاد من الشيخ في احتمال وجود عضو كهذا في الجماعة وفي احتمال كونه هو نفسه ؟ مع أن الأسس التي وضعها في مقالاته ليتوسل بها إلى التشكيك في ثبوت رفع عيسى ونزوله ثبوتا أصغريا مبنيا على غلبة الظن ، فضلا عن ثبوتهما لحد أنه يكفر منكرها ، تفتح الباب على الأقل إن لم يكن للشك في ثبوت ختم النبوة بسيدنا محمد بواسطة أدلته من الكتاب والسنة والإجماع ، ففي كفر الشاك في ثبوته بتلك الأدلة التي كلها نقلية لا عقلية . والشيخ صرح في مقالة الرد الثانية « الرسالة » عدد ٥١٦ « بأن الأدلة النقلية قد ذهب كثير من العلماء إلى أنها لا تفيد اليقين ولا تحصل الإيمان المطلوب ، ولا يثبت بها وحدها عقيدة » . فإذا وجد الخلاف في قوة الأدلة النقلية لحد أن كثيرا من العلماء قد ذهبوا إلى أنها لا تفيد اليقين وكان لهذا الخلاف قيمة تذكر عند الشيخ للتمسك به في أي مسألة ، فهل يكون من حق المتمسك بهذا الخلاف في مسألة رفع عيسى ونزوله وفي ثبوت أصل المسألة فضلا عن ثبوتها مع وصف أنه يكفر منكرها ، أن يستبعد وجود عضو في جماعة كبار العلماء يشك في كفر من أنكر ختم النبوة بسيدنا محمد ، ولاسيما استبعاده لأن يكون هو نفسه ذلك العضو

لو لم يتأخر دخوله فى الجماعة ؟ ـ وكل ذلك مبنى على حديث الخبر الصادق الذى هو الشيخ الالبان ـ إذ الخلاف الذى ذكره لـكثير من العلماء فى إفادة الأدلة النقلية اليقين يجعل مسألة ختم النبوة أيضا فى ثبوتها اليقينى خلافيـة ويمنع على الأقل إكفار المنـكر أو على الأقل يجعله أيضا خلافيا ! ! [١] فليعلم الشيخ أن القضية العلمية لا تكتسب بحشد مايجده فى الـكتب من حق أو باطل ونقله إلى مقالات يكتبها لتأييد باطله ، فربما يجره ذلك إلى أباطيل أخرى أكبر من باطله ، وإنما الشرط الأول فى اكتساب القضايا ، الموازنة العقلية المنطقية التى نراها تخذل الشيخ فى كتاباته جزاء من الله على عدم احترامه العقائد الإسلامية وتلاعبه بآيات كتاب الله وأحاديث رسوله فى سبيل الإصرار على هواه .

ثم ليعلم الشيخ الذى يردد قوله تبجحا : « ولست فى حاجة إلى أن أقول كذا ولا إلى أن أقول كذا .. » : أنى لست فى حاجة إلى أن أختلق حكاية فى خيالى أو أتـكلم لاعن علم أو بحث ولـكن عن خرص وتظنن وتشويه وتمويه ، لأتوسل بكل هذه الوسائل الخسيسة إلى نقد آراء الشيخ شلتوت أو غيره ممن انتقدتهم فى « القول الفصل » يشهد به الـكتاب نفسه الذى كله بحث وكله درس وتحليل علمى ، حتى إن الشيخ شلتوت تعلق فى رده عليه بما وجد فيه من تعليقة صغيرة لئلا يدركه الفرق من غزارة أبحاثه العلمية ؛ وفى مقابل هذا جاء رد الشيخ ينحصر فى أبحاثه باللوائم علىّ وعلى موقفى بمصر مهاجرا من تركيا ويشبه النقاش السياسى المفعم بالمغامز أكثر من النقاش العلمى المدعم بالأدلة . فهو يعدُّنى فضوليا فى تأليف « القول الفصل » بل

[١] وللشيخ فى تلك المقالات نص يرفع وجوب الإيمان بكون النبوة ختمت بنبينا صلى الله عليه وسلم ويجيز الشك لمن أراد أن يشك فيه ، لا سيما الشك فى كفر من أنكره ؛ لعدم كون مسألة الختم أى ختم النبوة بنبينا من الأصول التى اشتركت فيها الأديان السماوية جميعا ، وهو القائل فى مقالة الرد الثانية « إنما يجب على الناس أن يؤمنوا بهيرجع عند التحقيق إلى الأصول التى اشتركت فيها الأديان السماوية جميعا » .

متمديا على الناس الأبرياء، ويرى الذين انتقدت أفكارهم وأقوالهم من الكتاب والعلماء فوق النقد يُتلاعب عنده بالآيات والأحاديث ولا يُتلاعب بهم. وكما أنى مذنب فى تأليف الكتاب ونشره ، فقرّاء كتابى الذين يقول عنى وعنهم « اتصلوا بقوم عزيز علينا أن نتركهم صيداً فى شبكتهم » مذنبون على رأيه فى تقدير الكتاب ورؤيته جديرا بالقراءة والرغبة كأنهم لا عقل لهم ولا تمييز بقدر ما عند الشيخ منهما [1] وهذا جزع صريح وعويل قبيح ينادى بأن قلب الشيخ يحترق من الحسد ثم يكون هذا العويل جوابا وردا على كتابى !! .

أما منطقه فى دفاعه عن نفسه وعن الشيخين اللذين خصهما بالدفاع فغريب جدا وملآن بالتدليس والتلبيس ، فهو يذكر فى الدفاع عن الأستاذ الأكبر المراغى قوله فى تقريظ كتاب « حياة محمد » : « لم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا فى القرآن وهى معجزة عقلية » ويسكت عن قول فضيلته بعده مارًّا به مر الكرام : « وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به   حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم »

مستشهدا بهذا البيت على أن لامعجزة له صلى الله عليه وسلم غير القرآن، فإن كانت

---

[١] وفى مكان آخر من مقالته يصف هؤلاء القوم الراغبين فى قراءة كتابى بأنهم جماهير رأيت مسايرتهم فى أهوائهم وعقائدهم أجدى لى وأسبغ للخير والنعمة على يعنى أنهم عامة لااعتداد برغبتهم وتقديرهم . وكان الشيخ قال عما فى كتابى من الانتقادات انها اتهامات مضحكة فأقول ولكنه ضحك كالبكاء . والمضحك الحقيقى كون الشيخ يظهر موقف المحافظين الصابرين فى زماننا الذين هم كالقابضين على الجمر بشهادة الحال وإخبار الحديث النبوى ، كأنه موقف المسايرين على الأهواء العصرية الذين يجدون من فئة الاستبطان الآتى ذكرها المتمركزة فى عقر البلاد الإسلامية ، مايغريهم بنقض عرى الإسلام ويدر عليهم خيرات الدنيا ومنافعها، ومن وراء هذه الفئة قوة أعظم منها تؤازرها وتشرف عليها بعين ساهرة ؟ والشيخ يعرف كل هذا الفرق بين الموقفين وعنده من الخيرات الخاصة بالعصريين ما لا يحسده عليه المحافظون وإنما يرثون له مما يعوزه من مخافة الله واستحياء الناس لحد أنه يستبيح لنفسه أن يعكس الأمر فيصور القابضين على الجمر فى بحبوحة من الدنيا التى هى جنة نشته وهو يتبوأ منها حيث يشاء .

فليست بقاهرة مثله [1] بل معيبة للمقول . ونحن قد انتقدنا هذا الاستشهاد فى « القول الفصل » وقلنا إنه نتيجة عدم الفهم لمعنى البيت والغفلة عن أبيات أخرى للبوصيرى فى نفس القصيدة . ونقول هنا بمناسبة كون الشيخ شلتوت ظهر فى مظهر الدافع عن فضيلة الشيخ المراغى ولم يدافع ، وإنما جر نقدا ثانيا عليه ، وهكذا يفعل المحامون غير الموفقين ، والمحامى الموفق لا يتولى الدفاع عن قضية لا تقبل الدفاع . فلنأت نحن بنقد جديد على فضيلته إن لم يأت محاميه بدفاع . وقد فعلنا ذلك كيلا يخرج القارئ من البحث الذى تعرض له الشيخ المحامى ثم لم يأت بشىء ، صفر اليد ! فنقول ولا نختلق حكاية خيالية أو نتكلم عن خرص وتظنن ، فإن زاد الشيخ المتشبه بالمدافع ، من غير دفاع ، زدنا :

إن فى قول فضيلته مآخذ من وجوه فأولا لا معنى لما يفهم منه وهو كون معجزات نبينا غير القرآن غير قاهرة لأن المعجزة إن لم تكن قاهرة فليست بمعجزة وإن كانت معجزة كانت قاهرة وفى إعجازها القهر . ولعله يريد الإشارة إلى عدم ثبوت ما عدا القرآن من معجزاته لا قاهرة ولا معجزة كما هو مدعى مؤلف « حياة محمد » بحجة أنه لم يرد ذكرها فى القرآن وما ورد منها فى كتب الحديث والسيرة غير مؤيد بالقرآن فلا اعتداد به عنده ، وهو يضع جميع ما ورد فى تلك الكتب تحت شبهة الكذب بغية فتح السبيل إلى رفض الروايات المتعلقة بمعجزاته صلى الله عليه وسلم غير القرآن ؛

---

[١] على أن فى إعجاز القرآن القاهر نظرا عند الشيخ المراغى الذى قال فيما كتبه تأييدا لفتنة ترجمة القرآن المثارة فى تركيا : « إن الأمم العربية الآن ومن أزمنة طويلة خلت لا يفهمون الإعجاز من العلم العربى وقد انقضى عصر الذين أدركوا الإعجاز من طريق الذوق وآمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك ونحن الآن نقيم على الإعجاز أدلة عقلية فنقول إن القرآن تحدى العرب ولأنهم عجزوا ، وهذا يدل على أنه من عند الله » فالمفهوم من هذا القول أن إيمان العرب اليوم بإعجاز القرآن وفيهم الفصحاء والبلغاء ، لا يجاوز الإيمان التقليدى على رأى الشيخ ، فلا فرق بين القرآن وغيره من معجزات محمد صلى الله عليه وسلم فى كونها مسألة تاريخية غاب شهودها واحتملت الصدق والكذب !!

وفضيلة الشيخ المراغى يقول قوله المار الذكر عند تقديم كتاب « حياة محمد » إلى القراء المسلمين ، فإذن عقلية فضيلته متفقة مع عقلية مؤلف الكتاب فى سوء الظن بالروايات التى وثق بها أئمة الحديث والفقه وبنوا عليها الشطر الكبير من أحكام الإسلام لأن الإسلام لا يُبنى على الكتاب فقط بل على السنة أيضا بشهادة الكتاب نفسه .

الثانى، أن معجزاته صلى الله عليه وسلم غير القرآن فيها ما يستند إلى الكتاب ، فهل فضيلته ينكرها أيضا مع معالى مؤلف « حياة محمد » ؟

الثالث ، أن فضيلته يفهم من بيت البوصيرى الذى أُعجب به أن معجزات نبينا غير القرآن ـ وهى التى يسميها معاليه بالمعجزات الكونية ـ تعمى العقول أى تنافى العقل وتخرقه، كما صرح معاليه فى عدة أمكنة من مقدمة الطبعة الثانية لكتابه أن تلك المعجزات مما لا يقره العقل ولا يصدقه ، وبالنظر إلى إعجاب فضيلته بما فهمه من بيت البوصيرى فهو متحد مع مؤلف « حياة محمد » فى هذه العقلية أيضا . لكن العقلية المذكورة إن كانت تعاب على معالى مؤلف الكتاب المذكور فهى أشد معابة على فضيلة الشيخ المراغى . وكيف لا يعرف رجل علم دينى يشغل مشيخة الأزهر مرتين أن معجزات الأنبياء خارقة للمادة أى لسنة الكون لا خارقة للعقل وهى عند العقل من الممكنات بالنسبة إلى قدرة الله لا من المستحيلات التى لا تتعلق بها قدرته كجمع النقيضين ورفعهما، والمسألة معروفة لا تخفى على من له إلمام بعلم أصول الدين .

الرابع، من المستبعد جدا أن يكون فضيلة الشيخ المراغى جاهلا بموقف المعجزات من الإمكان والاستحالة مع كونه معروفا فى علم أصول الدين ، إلا أن يكون منكرا لهذا الإمكان المعترف به عند علماء الإسلام مع المنكرين تقليدا لملاحدة الغرب الطبيعيين كالأستاذ فريد وجدى بك .

الحاصل أنا لو فرضنا كون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بفضل استنادها إلى القرآن مستغنية عن معجزات أخرى كونية تعمى بها العقول أى مستحيلة عند العقل، فإذا قول

فضيلته فى معجزات سائر الأنبياء التى كلها كونية ؟ فيلزم إذا كانت المعجزات الكونية تنافى العقل وتمييه ، أن تكون معجزات أولئك الأنبياء المذكورة فى القرآن والتى لا ينكرها معالى مؤلف « حياة محمد » ولا فضيلته وإنما يعيبانها بكونها تعيا بها العقول ولا تقرها ويفضلان معجزة نبينا السالمة من هذا العيب ـ أساطير غير واقعة ويكون القرآن المشحون بها معنيا بأساطير غير واقعة ، بناء على أن ما يعيا به العقل ولا يقره لا يقع ولا يتعلق به حتى قدرة الله ، ولهذا ترى علماء الإسلام المتكلمين يختارون عند النص فى كتبهم على قدرة الله قولهم : « قادر على جميع الممكنات » .

ولك أن تقول : إن فضيلة الشيخ المراغى يرى بحصر المعجزة القاهرة فى القرآن إلى اعتباره حجة واعتبار غيره من معجزات الأنبياء شبهة كما فعله الشيخ رشيد رضا بحجة أن أمثالها تقع من أناس كثيرة فى كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهد العتيق والجديد... وقد رددت على هذا الشيخ أيضا فى « القول الفصل » . وسواء كان فضيلته متفق العقلية مع مؤلف « حياة محمد » أو مع الشيخ رشيد رضا فليس له منجاة من المؤاخذة ، ولهذا اختار محاميه الشيخ شلتوت طريقا فى الدفاع عنه متنحيا عن وضع قوله بنصه الذى انتقدته ، موضع البحث والتحليل ، فأين بيت البوصيرى الذى استشهد به فضيلته لدعواه فاهما منه ما لا يفهمه صاحب البيت ولا علماء الإسلام المتكلمون المؤمنون بمعجزات الأنبياء من غير تفريق بين معجزة كونية ومعجزة عقلية ؟ [1] أين بيت البوصيرى فى قول المدافع الفار من الدفاع ؟ .

وكنت قلت فى « القول الفصل » عند نقل أقوال معالى هيكل باشا فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه ، المثيرة لشبهة الكذب فى جميع ما فى كتب الحديث ، على الرغم من أن أكثر الأحكام الشرعية الإسلامية وفيها صلاتنا وصيامنا وزكاتنا وحجنا ، تنبنى تفاصيلها على أقوال الرسول وأفعاله المروية فى تلك الكتب : « هل الأستاذ

---

[١] ولنا مؤاخذة أخرى للمفرقين بين المعجزة العقلية والكونية بسطناها فى « القول الفصل »

الأكبر المراغى يحاول بتقديم كتاب هيكل باشا للمسلمين تهيئة جو ملائم لإلغاء كلية الشريعة الأزهرية ؟ » فغيّر الشيخ شلتوت قولى فى « القول الفصل » بهذا الصدد تغييرا فاحشا مع وضعه بين القوسين فى حين أن القول المنقول بين القوسين لا يجوز تغييره ولو بكلمة واحدة . وهذا أمانة الشيخ شلتوت فى نقل الأقوال وإسنادها إلى أصحابها ! والتغيير المشار إليه مما يمكن الاطلاع عليه لمن أراده عند مقارنة النقل بالأصل « القول الفصل » ص ٨٤ ـ ٩٠ « الرسالة » ص ٣٦٥

وفى الدفاع عن الشيخ محمد عبده الذى نقلت أقوالا وآراء منه فى أمكنة مختلفة من «القول الفصل» وانتقدتها عليه ، يذكر قوله فقط فى تعريف النبى والرسول ، ثم يقتصر دفاعه عنه عليه قائلا: إن الأستاذ الإمام صاحب « رسالة التوحيد » الذى تكلم فيها عن الرسالة والمعجزة ودلالتها على صدق الرسول وعن الوحى وكونه ممكن الوقوع وواقعا فعلا . لكنى اعترضت على ما قاله الأستاذ الإمام فى تأليفه الآخر معرفا للنبى والرسول وذكرت عنوان ذلك التأليف فى «القول الفصل» .

فكان واجب الشيخ المدافع أن يدافع عن قول إمامه فى التأليف نفسه نفيا للقول الذى عزوته إليه أو تحريرا لما أراده منه فلا ينفعه قوله فى كتاب آخر ، إلا أن يكون هذا القول فى صيغة الاعتراف بخطئه فى القول الأول والإعلان عنه . فالشيخ شلتوت لم يأت إذن فى الدفاع عن قول الشيخ محمد عبده الذى تكلمت أنا عليه ، ولو بقدر ما أتى به واحد من القضاة الشرعيين صادفته فى مجلس من المجالس ، وبعد سماع دفاعه اضفت إلى محل ذلك القول من « القول الفصل » ما يكون جوابا عن ذلك الدفاع على أن ينشر فى طبعة الكتاب الثانية ، وقد تيسرت هذه الطبعة بحمد الله وتوفيقه.

ثم إنى لم أذكر فى «القول الفصل» تعريف النبى والرسول الذى شذ فيه الشيخ محمد عبده عن أئمة الإسلام والذى خصه الشيخ شلتوت بالدفاع ضالا عن طريقه مصورا إياه فى صورة مثال لاتهاماتى المضحكة (على تعبيره) ... لم أذكره تصيدا للتهم على محمد عبده

متمسكا بقوله فى كتاب وتاركا وراء ظهرى قوله الآخر فى كتاب آخر — مع أنى لا أعرف ما فعله بالضبط فى الكتاب الآخر ولا أعدنى مكلفا بمعرفته عند مؤاخذته بقوله الذى عرفته بنصه — وإنما ذكرته بناء على أنى وجدته صالحا لأن يكون مستند طائفة الكتاب المصريين الذين أنكروا معجزات الأنبياء إنكارا للخوارق وأنكروا النبوة الحقيقية مستبدلين بها العبقرية ، فأردت أن أهدم مستندهم وأحول دون تصيدهم القلوب الضعيفة بشهرة محمد عبده وقوة مركزه عند مكبريه ، فإن كان فى استطاعة الشيخ الدافع عنه إنكار وجود تلك الطائفة أو ادعاء عدم صلاحية القول الذى أنكرته على قائله ، لأن يكون مستندا لهم فى ضلالهم وإضلال غيرهم ، فليأت بأحد الأمرين ولا يتملل بما فعله محمد عبده فى تأليف فلانى له ، لأن الطائفة المستمدين أن يستغلوا أقوال الشيخ محمد عبده لضلالهم ، يرون أنفسهم أحرارا فى اختيار ما يشاءون منها .

بل أقول للشيخ الذى كان تأثير « القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » فيه أن قابل النصح بالرفض والإنكار لا بالادكار والاعتبار ، وهو يدعى فى مقالة الرد أنه لا ينكر المعجزات والمغيبات أو يتراءى كذلك ، نظراً إلى سعيه لتزكية الشيخ محمد عبده وتبرئته عن إنكارها ... أقول له :

لا أقل من أن فى مصر التى ليس فى وسع أحد أن يمنعنى من أن أعتبرها وطنى يهمنى خيرها وشرها باعتبار أنها بلدة إسلامية وعريقة فى الإسلام ، لا أقل من أن فيها كتابا ينكرون معجزات الأنبياء باسم الخوارق ، أو على الأقل ينفونها عن نبينا صلى الله عليه وسلم ويعتبرون تجرد نبوته منها ميزة له ومنقبة ، أى تجردا مما تعيا به العقول. وإنكارهم هذا مطلقا أو إنكارا خاصا لنبينا يرجع إلى إنكارهم المغيبات التى لا يعترف بها العلم الحديث المستند إلى التجربة الحسية ؛ وهم ينكرون النبوات أيضا بين صراحة من إقبالهم على العبقرية وإهمالهم النبوة ودلالةٍ من إنكارهم المعجزات التى يؤدى إنكارها إلى إنكار النبوة أيضا لاشتراكهما فى علة الإنكار وهى كونهما من المغيبات ، ويلائم

هذا الإنكار تعريف النبي للشيخ محمد عبده المذكور في « القول الفصل » .

لاأقل من أن هناك منكرى المعجزات والنبوات وقد ذكرتهم في كتابي بأسمائهم وأوردت من أقوالهم شواهد مفصلة ومطولة ، وهناك على قول الأستاذ فريد وجدى المنشور في «الأهرام» قبل بضع عشرة سنة نوابغ البلاد الإسلامية من الكتاب والشعراء، لما اتصلوا بعلوم الغرب الحديثة ووجدوها ـ وقد دالت إليها الدولة في الأرض ـ قذفت بالأديان جملة إلى عالم الأساطير ورأوا دينهم ماثلا فيها ، لم ينبسوا بكلمة لأنهم يرون الأمر أكبر من أن يحاوله محاول ، ولكنهم استبطنوا الإلحاد وتمسكوا بها متيقنين أنه مصير إخوانهم كافة متى وصلوا إلى درجتهم العلمية، وشغلُ هؤلاء النوابغ اليوم ـ على ما كتبه الأستاذ فريد أيضا ـ تهيئةُ الأذهان لقبول ما استبطنوه دسا في مقالاتهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفاديا من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض .

فأين هؤلاء النوابغ الناشرون لمبادئ الإلحاد المتسترون في نشرها وعرضها على الأذهان؟ لابد أنهم موجودون وراكضون بأقلامهم في عالم الصحافة والتأليف دائبين في القيام بواجبهم منتدبين إليه من جانب الشيطان الذى لا يصدق الشيخ وجوده. وهؤلاء الكتاب لم أختلقهم أنا في خيالي كما اختلقت عضوا شاذا في جماعة كبار العلماء، بل أفشى وجودهم الأستاذ فريد وجدى رئيس تحرير « مجلة الأزهر » الحالى وأفشى أيضا عجز الشرق الإسلامى عن الدفاع عن دينه الذى هو دين (بالفتح) لم يزل في ذمة علمائه على ما قاله الأستاذ غيرَ مقضى ! فأين كنتم أنتم أيها الشيخ المدافع عن الذين ناضلتهم في كتابي لما وجدتهم ينكرون المعجزات وسائر المغيبات أو يدافعون عن المنكرين كما تدافعون أنتم عن المدافعين ؟ أين أنتم الذين فررتم جبنا عن محاربة الملاحدة المستبطنين المحاربين ضد الإيمان بالغيب وعقائد المؤمنين به « دسا في مقالاتهم وقصائدهم » ، ما قلتم يوما : هذه عقائد قوم عزيز علينا أن نتركها تندك واحدة بعد واحدة بكيد هؤلاء الملاحدة الدساسين ، حتى إذا تعين الواجب أى محاربة المحارب والجهاد في سبيل الدين

القريب ، فى عهدة القرباء من المهاجرين والأنصار أخذتم أنتم وأمثالكم الفارون عن الجهاد فى سبيل الدين، مكانكم فى صفوف أعدائه كما أنكم رأيتم الاتحاد والقوة والدنيا فى جانبهم وأخذتم ترموننا بدسائسهم ودسائسكم؟ .

هل فى استطاعة الشيخ أن ينكر كون معالى مؤلف «حياة محمد» حاول فى كتابه لاسيما فى مقدمة طبعته الثانية تجريدَ حياة نبينا عن المعجزات الكونية الخارقة لسنة الكون بحجة أنها مما لا يقره العقل ولا يصدقه ، ولزمه بهذه الحجة نفى تلك المعجزات عن سائر الأنبياء أيضا الذين اعترف لهم كتاب الله بتلك المعجزات ؟ وهل فى استطاعته أن ينكر كون فضيلة الأستاذ الأكبر كتب كلمة تحبيذ لما فعله معالى المؤلف، معترفا بأن تلك المعجزات مما تعيا العقول به أى مما لا يقره العقل فلم يصادف مافعله معاليه وما فعله فضيلته إنكارا من جانب الشيخ المنكر علىّ إنكارى عليهما ، بل أتى فى فتواه على مسألة رفع عيسى ونزوله بمثال آخر من عنده للإنكار لم يكن دافعه فيه غير دافع الأولين فى إنكارهما وهو كون هذا الرفع وهذا النزول يعيى عقل الشيخ وإن تعلل فى فتواه وفى ردوده على بدوافع أخرى كلها مناورات لإخفاء الوجهة الحقيقية إلى أن ينقضى دور الدس والاستبطان لطائفة منكرى الخوارق والمغيبات ؟

فإن لم يكن الشيخ منهم بل كان معترفا بإمكان المعجزات ووقوعها كما تظاهر به فى دفاعه عن الشيخ محمد عبده واستشهاده بكلامه فى رسالة التوحيد ، فلماذا لم ينكر على مؤلف « حياة محمد » ومقرظه طول الزمن وإنما أنكر علىّ لما أنكرت عليهما ؟ بل لماذا لم ينكر تعريف النبى على الشيخ محمد عبده، ذلك التعريف الذى ينفى النبوة الحقيقية المعروفة عند أهل الأديان وأعنى بها النبوة الملابسة بالمغيبات، إلى أن توليت القيام بواجب الكشف عن الطائفة المحاربة من وراء الكمين لعقائدنا نحن المؤمنين بالغيب، مع الكشف أيضا عن إمام الطائفة وقائدهم ثم الكشف عن مؤخرة الجيش المحارب التى هي الشيخ الماثل أمامنا مدافعا عن الطائفة وإمام الطائفة الأول والثانى ؟ وبهذا يتجلى لعين الأسف

أن أول معول وآخره ينزلان على أساس صرح العقائد الإسلامية يكونان بأيدى رجلين من رجال الدين . وقد عرف قراء « القول الفصل » أنى لم أقتصر حملاتى على جهل إمام الطائفة بل حملت على علمه أيضا ، لكن الشيخ المدافع عنه لم يتعرض له لأنه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله .

ثم إن الشيخ المؤخرة يعرف جيدا أن الاستفتاء فى مسألة رفع عيسى ونزوله أتاه من أحد الهنود الذى لا يعنيه أمر عيسى فى رفعه ونزوله إلا من حيث ان رجلا اسمه غلام أحمد القاديانى ظهر فى الهند وادعى أنه المسيح المنتظر وأنه لا أصل لكونه أى المسيح المنتظر المسيح عيسى ابن مريم صلوات الله عليه المرفوع إلى السماء حين هم اليهود بقتله، إذ لا أصل لرفعه المتقدم حتى يكون لنزوله فيما يأتى ؛ وهذا الرجل الذى غر طائفة من الناس فى الهند وتزعمهم ، ادعى غير هذا وأكثر من هذا أى كونه نبيا وكون النبوة لم تختم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، حتى احتاجت اللجنة القائمة فى الأزهر من قبلُ بدرس موضوع الطالبين الالبانيين القاديانيين، إلى درس مسألة ختم النبوة أيضا هل يكفر منكره، وشذ من شذ فيها. ولينكر الشيخ المؤخرة وقوع هذا الدرس وذاك الشذوذ ، فهما ثابتان عندى وعند غيرى سماعا من الشيخ اللبان الصادق القول .

هكذا كان منشأ الاستفتاء المذكور ، فجاءت فتوى الشيخ المتأخرةُ مؤيدة للمذهب القاديانى فى ناحيته المستفتَى عنها وكان مرادى من نسبة النزعة القاديانية فى كتابى « القول الفصل » إلى صاحب الفتوى، هذا التأييد . فكيف ينكر الشيخ المفتى الذى جاءت مقالته المنشورة على « الرسالة » موافقة للمذهب القاديانى ، كيف ينكر علىّ ما قلت فى « القول الفصل » من أن الشيخ شلتوت جدير بأن يكون هو المعترض فى اللجنة الأزهرية على فصل الطالبين الالبانيين القاديانيين ، وكيف يعد قولى ذلك افتراء على نفسه ، مع أنه فى مقالته الأولى القديمة وفى مقالته الجديدة الرادة علىّ ، لا يزال يؤيد المذهب القاديانى ويفضله على مذهب علماء الإسلام، منكرا لرفع عيسى عليه السلام

إلى السماء ونزوله منها فى آخر الزمان ، ولم أقل بالضبط إنه هو ، وإنما قلت جدير بأن يكونه . واليوم أزيد على مافى الكتاب فأقول : وليس بمستبعد من الشيخ المفتى المدافع عن الشيخ محمد عبده صاحب التعريف الشاذ للنبى الذى ينطبق على عباقرة المصلحين من الناس أكثر من انطباقه على الأنبياء والمرسلين ، ليس بمستبعد منه تأييد المذهب فيما بقى عما ذكر فى الاستفتاء ، لولا نظام الدس والاستبطان يمنعه وقتيا من هذا التأييد .

ومما يجب التنبيه إليه أن النزعة القاديانية التى عزوتها فى الكتاب إلى الشيخ والتى زدت عليها ههنا ، ليس معناها أنه معتنق لمذهب تلك الطائفة الهندية أتباع غلام أحمد ، وإنما هو لكونه فى مذهب الطائفة العصرية غير المؤمنين بالغيب ، يشارك الطائفة الأولى فى نواحيها السلبية المنافية للعقائد التى توارثها المسلمون منذ صدر الإسلام إلى زمن تيار الزيغ الغربى المادى .

وما كتبته عن داء الشيخ المضمر الذى يدفعه إلى دائه الظاهر فى مسألة رفع عيسى ونزوله ، غير خاف على فراسة المؤمن الناظر بنور الله ، فعليه دلائل من إنكاره الشيطان وسكوته على إنكار المنكرين للمعجزات ، بل دفاعه عن المدافعين عن المنكرين ودفاعه عن الشيخ محمد عبده صاحب التعريف الفاسد للنبى — وإن لم يدافع عن التعريف نفسه ، وعدم قبوله لأى دليل على رفع عيسى ونزوله حتى إنه نفى حصول غلبة الظن به من الآيات والأحاديث بله اليقين ، فكأن الآيات والأحاديث فى ذلك الصدد التى لا تكفى لتكوين عقيدة فى إثبات رفع عيسى ونزوله على زعمه ، كفت فى تكوين عقيدة للشيخ فى نفى الرفع والنزول تجعله قائلا فى مقالة الرد الثانية ص ٤٠٨ «الرسالة» عدد ٥١٦ :

« وقد تناولنا هذه الآيات فى الفتوى ودرسناها دراسة علمية واضحة وعرضنا إلى آراء المفسرين فيها وبينا أنه ليس فيها دليل قاطع على أن عيسى رفع بجسمه إلى السماء بل هى — على الرغم مما يراه بعض المفسرين — ظاهرة بمجموعها فى أن عيسى قد توفى لأجله وأن الله رفع مكانته حين عصمه منهم وصانه وطهره من مكرهم »[1] .

---

[١] مامعنى تطهير عيسى من مكرهم؟ وقد لجأ إليه الشيخ فى سبيل إرهاق القرآن على قبول مذهبه .

فعدم رفع عيسى وعدم نزوله ثابتان عنده على رغم الآيات والأحاديث الواردة فيهما، فكأنه وهو غير واثق بدلالة الآيات والأحاديث على رفعه ونزوله، واثق بدلالتها على عدم رفعه ونزوله . ولا شك أن عكس الأمر فى المسألة وأدلتها إلى هذا الحد إنما يكون مبنيا على وجود مانع عند الشيخ عن الرفع والنزول غير عدم دلالة الآيات والأحاديث — الدالة عليهما رغم إنكار الشيخ — مانع يستحيل التغلب عليه وهو مخالفتهما لسنة الكون وللعلم الحديث الطبيعى الذى لا يعترف إلا بما ثبت بالتجربة الحسية .

ومما يدل على داء الشيخ المضمر قوله فى مقالة الرد الأولى « الرسالة » عدد ٥١٤ وهو يخاطبنى وزملائى المدافعين عن عقيدة رفع عيسى ونزوله : « لا . لا . إنكم أيها الموهون لا تريدون بذلك إلا أن تجاروا سلفا لكم ضعفوا عن الحجة والبرهان ولم يتعودوا الإخلاص للحق فراحوا يردون الآراء بتشويهها والتنفير منها ، كانوا يقولون: هذا رأى المعتزلة وهذا يتفق مع قول الفلاسفة وذاك رأى ابن تيمية .... الخ وها أنتم أولاء تتبعون سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع فتحاولون تشويه الآراء بمثل قولكم : هذه روح قاديانية ، هذه مسايرة لآراء المستشرقين ، هذا تجديد فى الدين... الخ ولكن اعلموا أن الفكر الإسلامى قد أخذ يستعيد صفاءه ويسترد إخلاصه للحجة والبرهان كما كان شأن السلف الصالح من المؤمنين » .

ففيه إشارة إلى كل ما ذكرته هنا فى تعيين المرمى الحقيقى للشيخ فى كتاباته الذى لم يحن بعدُ حينُ البوح به منه فإذا حان حينه لا يكتفى الشيخ بإنكار وجود الشيطان وعروج عيسى ونزوله بل يقترح تصفيةَ عقيدتنا من كل مالا يدخل فى متناول التجربة الحسية ولا يقبله العلم الحديث المثبت كوجود الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتجريدَ القرآن من آيات المعجزات وسائر الخوارق ، كما اقترح الأستاذ فرح أنطون على الشيخ محمد عبده .

ومثل هذا القول ورد فى إحدى مقالات الأستاذ فريد وجدى التى كتبها قبل سنوات عند ماجرى النقاش بينى وبينه على صفحات « الأهرام » فى معجزات الأنبياء،

وذلك بمناسبة ما كتبه المرحوم أحمد زكى باشا فى تأويل ما جاء فى القرآن عن (وادى النمل) فعقب عليه الأستاذ ورد كل مافى كتاب الله من الأنباء التى يراها منافية للعقل والعلم وفيها معجزات الأنبياء وسائر الغيبيات حتى إن فيها « خروج الناس من القبور للبعث » ، إلى المتشابهات غير المفهومة . وقوله الذى أردنا نقله هنا للمقارنة مع قول الشيخ فى جملته الأخيرة :

« وبعد فإن الأمر جلل لا يحتمل التلاعب بالكلام فإما مذهب يجمع بين الثقافة المصرية والدين فنسير إلى الإمام كما سار آباؤنا مثقفين متآخين وإما وقفة تعقبها قهقرى ، وعندذاك لايجدينا التضييق الذى يظنونه تقديسا للكلام الإلهى وما هو منه فى شئ » .

فيجب على القارئين أن يتأملوا ويعطوا التأمل حقه من هاتين الكلمتين كلمة الشيخ وكلمة الأستاذ والأستاذ أكثر مصارحة من الشيخ ، ومع هذا فالذى يرى فيه الشيخ استعادة الفكر الإسلامى لصفائه ما هو إلا مذهب الجمع بين الثقافة المصرية والدين ، على أن يكون هذا الجمع عبارة عن جعل الدين يسير على هوى تلك الثقافة فيطرح كل ما لا يقبله مبدأها القائل كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به والذى يؤمن به الأستاذ ولا يزال يردده فى مقالاته على الرغم من كونه مبدأ العلم المادى وكون الأستاذ انقلب منذ زمان طويل ضد ذلك العلم ، وعلى كل تقدير يطّرح كل ما لا تقبله الثقافة المصرية واعتُبر إلى الآن داخلا فى الدين ، من الدين وإن كان دخوله فيه بواسطة الكتاب والسنة مثل رفع عيسى ونزوله . ثم لو كانت الثقافة المصرية التى يُلتزم أن يسير الدين على هواها سارت مع الحقيقة لهان الخطب أو بالأولى لرضينا تلك المسايرة ولكن الأمر ليس كذلك ، إذ لا حقيقة بمعنى الكلمة فى نظر هذه الثقافة حتى تسير معها بل الغلطة الناجحة تعتبر حقيقة عندها كما تعتبر الحقيقة الفاشلة غلطا ، وقد عرف القارئ مما كتبنا فى مواضع بين كتابنا إلى هنا انتهاء الثقافة المصرية فى المذهب الربحى .

وفى قول الأستاذ « كما سار آباؤنا مثقفين متآخين » مغالطة القارىء الذى لامعرفة له بسير آبائنا : فآباؤنا لم يسايروا الثقافة المصرية القديمة المترجمة من فلسفة اليونان مسايرة عمياء بل انتقدوها ولم يطبقوا الإسلام عليها بل طبقوها على الإسلام فأخذوا ما يوافقه وردوا ما ينافيه بأدلة مبنية على مبادىء تلك الفلسفة ، فما فعله آباؤنا هؤلاء الفحول هو الذى يعيبه اليوم عليهم الشيخ شلتوت زميل الأستاذ فى محاولة إعادة الإسلام إلى صفائه بإذابته فى بوتقة الثقافة المصرية ، قائلا : « كانوا يقولون هذا رأى المعتزلة وهذا يتفق مع قول الفلاسفة وذاك رأى ابن تيمية » فيمنعهم لماذا كانوا أهل السنة والجماعة ولم يكونوا معتزلة أو مجسمة أو أذناب الفلاسفة القائلين بقدم العالم الذى توسل به القدماء إلى نفى كون الله تعالى فاعلا مختارا وتوسل به ملاحدة الغرب إلى إغناء العالم عن وجود الله ، ثم يمنعنا نحن المتبعين سنن من قبلنا الثابتين على عقائد آبائنا المسلمين : لماذا لانغدوا عبدية عبقرية ولماذا لاتروج قاديانيين أو أذناب المستشرقين ؟؟

وصفوة القول أن المسألة المقصودة بالذات من قلق الشيخ كاتب مقالات الرد ليست ظهور عدم نجاحه فى إنكار رفع عيسى ونزوله ، لأنه لا بد من ظهوره بما كتبه أهل الحق من العلماء ويكتبونه بعد هذا ، وإنما المصيبة الكبرى عنده أنى قبضت على ناصية المؤامرة ضد الإيمان بالمغيبات مثل المعجزات والنبوات ، المدبرة بأيدى نوابغ الكتاب الموجودين فى البلاد الإسلامية المتفقين مع شذاذ العلماء الذين عبدوا طرق المؤامرة لأولئك الكتاب فكتب لأسمائهم الخلود بأيديهم والذين يحاولون الحصول على رتبة النبوغ لأنفسهم أيضا بفضل شذوذهم واشتراكهم فى المؤامرة مع الكتاب النابغين والعلماء الخالدين .

وأهم النواحى المقلقة للشيخ كونه هو السبب المباشر لنشر « القول الفصل » الكاشف عن الطائفة المؤامرة وكون مساعيه المبذولة لإخفائها بشغل العقول والأفهام بالآيات التى حملها مالاتحتمله من التأويل والأحاديث التى تجرأ على الاستهانة بها ، منتهية إلى الفشل .

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع

فى عدم جواز فصل الدين عن السياسة

قد نبهنا فى مقدمة الكتاب (ص ١٦٢ ـ ١٦٥ جزء أول) بعض التنبيه إلى أهمية هذه المسألة فى نظر الإسلام الذى له عين ساهرة على حقوقه، بالرغم من استخفاف محدثيها بما فيها من خطر عليه، وتصويرها فى أعين الناس كأن الفصل بين الدين والسياسة عبارة عن مراعاتهما مستقلا أحدهما عن الآخر من غير أن يكون أى إخلال أو إضرار بأى منهما. لكن حقيقة الأمر أن هذا الفصل مؤامرة بالدين للقضاء عليه، وقد كان فى كل بدعة أحدثها العصريون المتفرنجون فى البلاد الإسلامية كيد للدين ومحاولة الخروج عليه لكن كيدهم فى فصله عن السياسة أدهى وأشد من كل كيد فى غيره، فهو ثورة حكومية على دين الشعب ـ فى حين أن العادة أن تكون الثورات من الشعب على الحكومة ـ وشق عصا الطاعة منها أى الحكومة لأحكام الإسلام، بل ارتداد عنه من الحكومة أولا ومن الأمة ثانيا إن لم يكن بارتداد الداخلين فى حوزة تلك الحكومة باعتبارهم أفرادا، فباعتبارهم جماعة، وهو أقصر طريق إلى الكفر [1]

---

[١] ومن البلية أن الحركات التى تثار فى الأزمنة الأخيرة وترمى إلى محاربة الإسلام فى بلاده بأيدى أهله والتى لا شك أنه الكفر وأخبث أفانين الكفر، يباح فعلها لفاعليها ولا يباح تسميتها باسمها لمن عارض تلك الحركات وحارب المحاربين. ولله در المعرى حيث يقول:

وتعارف القوم الذين عرفتهم بالمنكرات فعطل الإنكار

ولو قال «فأنكر الإنكار» لكان أوفق بزماننا. =

من ارتداد الأفراد ، بل إنه يتضمن ارتداد الأفراد أيضا لقبولهم الطاعة لتلك الحكومة المرتدة التى ادعت الاستقلال لنفسها بعد أن كانت خاضعة لحكم الإسلام عليها . وماذا

= ثم إن محاربة الإسلام ومحاربة المحارب تجريان فى مصر التى يقال عنها زعيمة العالم الإسلامى ، فى أسلوب عجيب مبهم ناشئ من خبث نوايا المحاربين ومن ضعف مركز المعارضين ، كأن الطرفين المتحاربين لا يفهم كل منهما عند النقاش ما يرمى إليه الطرف الآخر ، فيقوم مثلا حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء سابقا ويقترح فى مجلس النواب توحيد القضاء فى مصر بإدماج المحاكم الشرعية فى المحاكم الأهلية . وهذا الاقتراح فصل مهم من مبدأ فصل الدين عن السياسة الذى سار فى طريقه بمصر وقطع غير قليل من مراحل تطوره ، ويقول المعارضون لاقتراح دولته : إن الإسلام ليس دين عبادة فقط بل دين حكم أيضا ، وإدماج المحاكم الشرعية فى المحاكم الأهلية المتضمن لإلغاء المحاكم الشرعية ينافى كون الإسلام دين حكم . لكن دولة إسماعيل صدقى باشا الذى لا يجهل كون الإسلام دين حكم ، يريد إلغاء هذا الحكم ، لكونه ممن لا يقبلون حكومة الدين على الناس وإن شئت فقل حكومة الله على الناس وإنما يقبلون حكومة الناس على الناس ، هذا هو مراد إسماعيل صدقى باشا مما اقترحه على مجلس النواب ، ولكن ليس للإسلام قوة فى مصر بقدر أن يقال للذين يضمرون له شرا — وربما يظهرونه أيضا — مرادكم القضاء على دين الأمة بواسطة القضاء على دين الدولة . ومن العجب أن دولة الباشا من رجال دولة دينها الإسلام ومن نواب أمة فى برلمانها دينها الإسلام .

ولا بد أن نذكر هنا بكل تقدير قول الدكتور على الزينى بك المدرس بالجامعة المصرية ثم العميد لكلية التجارة فى كتابه : « أصول القانون التجارى » جزء أول ص ٤٢

« وإذا كانت الشريعة قد أثرت فى نهضة القانون التجارى فى أوائل القرون الوسطى فأفادت فى دفع العادات والقوانين التجارية فى اتجاهها الجديد ، فإنها قد تأثرت بدورها فى أواخر تلك القرون وفى العصور الحديثة بالقوانين الأوروبية التى بدأت تزاحمها فى تطبيقها داخل بلادها . وكان أسبق القوانين التى دخلت مصر وبدأت تطبق فيها بجانب الشريعة الإسلامية القوانين التجارية ذاتها التى ساعدت هى فى تكوينها . ثم عدّل فجأة النظام القانونى المصرى فيما يتعلق بالمعاملات المدنية والتجارية عامة وحلت فيه القوانين الأوروبية المدنية والتجارية محل الشريعة الإسلامية التى اقتصرت أحكامها على الأحوال الشخصية من ذلك الوقت . ومما أسلفنا نرى أولا أن غزو القوانين الأوروبية لمصر لم يؤثر أصلا فى موضوع أحكام الشريعة الإسلامية فقد بقيت هذه الأحكام على ما هى عليه ولم تمس بتغيير أو تعديل نظرا لتقديسها من البدء إلى النهاية . وقد رأيت أنها على قدمها لم يتفوق عليها أى قانون من القوانين الحديثة فى سبيل تسهيل المعاملات التجارية وسهولة إثباتها . ونرى ثانيا أن التأثير

الفرق بين أن تتولى الأمر فى البلاد الإسلامية حكومة مرتدة عن الإسلام وبين أن

= الذى وقع عليها وقع فى تطبيقها » .

لابد أن أذكر هذا القول إزاء اقتراح صدقى باشا ، ليتبين أن فى مصر غزاة من أهلها فى سبيل القوانين الأوروبية وإحلالها محل الشريعة الإسلامية وهم الذين نفذ الاستعمار فى قلوبهم فاستهواها ، وحماة مستنكرين هذا الغزو ومقدرين لما بأيديهم من تراث الإسلام حق قدره . لأواجي فى هذا الكتاب إعطاء كل من الفريقين ما يستحقه من الشكر أو النكر . والشيخ الأكبر المراغى أيضا من المحاولين لغزو الشريعة الإسلامية رغم مركزه الأزهرى وإن كانت الخطة التى رسمها للغزو غير خطة صدقى باشا ، بلك أن تقول عنها خطة خفية وهى عين خطة التغيير والتعديل التى يراها الدكتور الزينى أسوأ الخطط ، لعدم ائتلافها مع قداسة الشريعة الإسلامية والشيخ الأكبر ينكر هذه القداسة وسيجىء نقل مقاله بصدد الإنكار مع ردنا عليه . والمفهوم منه أنه من دعاة فصل الدين عن السياسة بطريقة خاصة له سرية .

هذا ودولة إسماعيل صدقى باشا المار الكلام على اقتراحه فى برلمان مصر من أحس المحبذين للانقلاب الكمالى فى تركيا حتى إنه كان قدهنأ الأستاذ عزيز خانكى داعية مصطفى كمال بمصر وعدو الدولة العثمانية المسلمة إلى حد أنه أنكر فى نقاش جرى بينى وبينه على جريدة الأهرام كون الفضل فى فتح القسطنطينية للسلطان محمد الفاتح . هنأه بكلمة منشورة فى الجرائد لأجل كتابه المسمى « ترك وأتاتورك » ورآه جديرا بأن يطبع عشرة آلاف عدد منه على نفقة الحكومة المصرية ثم يوزع على طلبة المدارس . وهذا الاقتراح من دولته ما أعار قيمة لذلك الكتاب الذى لا يمكن تقويمه وإنما أنزل دولته منزلة داعية داعية مصطفى كمال بمصر . ولو لم يكن لداعية مصطفى كمال بمصر فضلا عن داعية داعيته ، إلا أنه يدعو لرجل كان أكبر ميزته — وفيه سر مانال‍ه عند الدول الغربية من الإعظام والاهتمام — عداوة الإسلام وكراهية العرب لكون الإسلام نشأ فيهم ثم أعدى غيرهم ، حتى إنه بسبب هذه العداوة والكراهية قد تنازل فى حياته عن اسم « مصطفى » والله غالب على أمره حيث نزع هذا الإسم العظيم المبارك عنه بيده . فسبحانه وقد أقسم بنفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها ؛ فلو لم يكن لدعاة الرجل إلا أنهم يدعون لعدو الإسلام والعرب لكفى فى كف مسلم عربى أبى عن هذه الدعاية فضلا عن استذناب الدعاة .

فإن كان دولة الباشا يعد ذلك الممسوخ من مصطفى كمال بطلا ويتغاضى إزاء بطولته عن معاداته الإسلام وكراهيته العرب فهو جد مخطىء فى ذلك ، فهل كان من لوازم البطولة إلغاء الخلافة وإحداث ثورة ضد دين أمة الترك التى أسلمت منذ أكثر من ألف سنة وسجل لها التاريخ جهادا طويلا فى سبيل الإسلام ؟ ألم يفكر صدقى باشا فى هذه الدقيقة عند منح الرجل رتبة البطولة ، أم كان أهم

تحتلها حكومة أجنبية عن الإسلام[1] بل المرتد أبعد عن الإسلام من غيره وأشد، وتأثيره الضار فى دين الأمة أكثر ، من حيث ان الحكومة الأجنبية لا تتدخل فى شؤون الشعب الدينية وتترك لهم جماعة فيما بينهم تتولى الفصل فى تلك الشؤون ، ومن حيث ان الأمة لا تزال تعتبر الحكومة المرتدة عن دينها من نفسها فترتد هى أيضا معها تدريجا، إن لم نقل بارتدادها معها دفعة باعتبارها مضطرة فى طاعة الحكومة ، ومن حيث أن

= النواحى فى بطولته عند الباشا قضاؤه على الخلافة ودين الدولة ؟ ومما يوجب الدقة أن أول مانحيه رتبة البطل كان الأوربيين وكان المسلمون تبعالهم فى ذلك كما كانوا فى كل شىء ، فقد قرأت فى الجرائد أن عدد ما ألف فى أوربا بشأن مصطفى كمال زاد على ستمائة كتاب . فيستنتج العقل من هذا أنه رجل حاول الأوربيون أن يجعلوا منه بطلا أكثر من أنه بطل فى الحقيقة . وماذا فعل حتى استحق لقب البطولة عندهم ؟ فإن كان هذا اللقب مكافأة له على إخراجه اليونان من أزمير فى غد الحرب الماضية كانت الإنكليز والفرنسيس الذين كانوا أصحاب الكلم يومئذ حلفاء اليونان فكيف يكافىء الحليف عدو الحليف الغالب ويهتف له ؟ ولماذا لم يهتف لقاهر اليونان فى الحرب الثانية مع كون الهاتفين حلفاء اليونان المقهورة فى كلتا الحربين ؟ فلماذا هتفوا للقاهر الأول ولم يهتفوا للقاهر الثانى بل خفوا إلى محاربته إنجادا للحليفة ؟ فهل كان ذلك الهتاف امتيازا خاصا بالقاهر التركى ؟ وهو ليس بأول قاهر تركى : فقد وصل جيش أدهم باشا من قواد عهد السلطان عبد الحميد فى مدة شهر إلى أبواب أثينة فلم يدع ذلك القائد استحقاقه لعرش تركيا ولا منحه الإنكليز والفرنسيس لقب البطل ولم يؤلفوا فيه كتابا واحدا ولم يعيدوا إلى الترك جزيرة كريت التى كانت سبب تلك الحرب بينهم وبين اليونان . فكان إذن سر استحقاق مصطفى كمال لجائزة البطولة فى وعده للإنكليز والفرنسيس أثناء المفاوضة معهم فى لوزان بل أثناء محاربة اليونان لإخراجها من الأناضول ، بإلغاء الخلافة والدولة العثمانية الإسلامية وإقامة جمهورية لادينية مقامها وكانت ثورة الغالب على اليونان فى تركيا ضد الإسلام وآدابه وتقاليده ، إنجاز ذلك الوعد أى ثمن رتبة البطولة الممنوحة سلفا وإلا فلم يكن الرجل مجنونا توهم القضاء على دين البلاد من لوازم البطولة، كما لم يكن الإنكليز مجانين إلى حد أن يهتفوا لقاهر حليفتهم، من غير فائدة تعادل التضحية بالحليفة. وإنما كان الرجل حريصا رأى استجلاب مودة الدول المعادية للاسلام ومساعدتها لتحقيق مطامعه مشروطا بهذا العمل الممقوت الذى كان منذ قرون طويلة أمنية لأعداء الإسلام غير مقضية .

[١] وقد قلنا فى مقدمة الكتاب أن مدار الفرق بين دار الإسلام ودار الحرب على القانون الجارى أحكامه فى تلك الديار، كما أن فصل الدين عن السياسة معناه أن لا تكون الحكومة مقيدة فى قوانينها بقواعد الدين .

موقفها الاضطرارى تجاه حكومة تأخذ سلطتها وقوتها من نفس الأمة ليس كموقفها الاضطرارى تجاه حكومة أجنبية لها قوة أجنبية مثلها .

ومن هذه النقاط الدقيقة المهمة كان ضرر الحكومة الكمالية بأمة الترك المسلمة أشد من أى حكومة أجنبية مفروضة الاستيلاء على بلادها . وربما يعيب هذا القول علىّ من لاخلاق له فى الإسلام الصميم ، والعائب يرى الوطن فقط فوق كل شىء ، مع أن المسلم يرى الوطن مع الإسلام فهو يتوطن مع الإسلام ويهاجر معه فإن كان يقع جزء من بلاد تركيا تحت احتلال اليونان الوقت لأزمير فتركيا كلها ببلادها وسكانها خرجت بعد حكومة الكماليين من يد الإسلام .

وبينما أنا أستشهد بحال تركيا الحديثة الكمالية على مضار فصل الدين عن الدولة نرى فضيلة الأستاذ الأكبر المراغى شيخ الجامع الأزهر يقول فى كلمة منشورة عنه فى الجرائد ما معناه : « ان فى إمكان أى حكومة إسلامية أن تخرج عن دينها فتصبح حكومة لادينية ، وليس فى هذا مانع من أن يبقى الشعب على إسلامه كما هو الحال فى تركيا الجديدة » فيستشهد بحالة تركيا الحاضرة على نقيض ما استشهدت أنا بها عليه . والأستاذ الأكبر ليس فى حاجة إلى الفحص عن النشء الجديد التركى المتخرج على مبادىء الحكومة الكمالية التى اعترف الأستاذ الآن أول مرة بأنها حكومة لادينية ، ولا فى حاجة إلى التفكير فى كون الشعب التركى القديم المسلم يفنى يوما عن يوم ويخلفه هذا النشء الجديد اللاديني .

ليس فضيلته فى حاجة إلى الفحص عن هذه الحقيقة المرة إذ لا يعنيه حال الترك ومآلهم مسلمين أو غير مسلمين ولا حال الإسلام المتقلص ظله عن بلادهم بسرعة فوق التدريج ، حتى إن الأستاذ لا يعنيه تبعة الفتوى التى تضمنها تعزّيه ببقاء الشعب على إسلامه مع ارتداد الحكومة فى تركيا والتى تفتح الباب لأن يقول قائل : إن الحكومة ما دامت ينحصر كفرها فى نفسها ولا يُعدى الشعب فلا مانع من أن تفعل حكومة

مصر مثلا ما فعلته حكومة تركيا من فصل الدين عن السياسة بمعنى أنه لا يُخاف منه على دين الشعب، كأن الدين لازم للشعب فقط لا للحكومة مع أن الحكومة ليست إلا ممثلة الشعب أو وكيلته التى لا تفعل غير ما يرضاه ، فإذا أخرجها أفعالها عن الدين فلا مندوحة من أن يخرج موكلها أيضا لأن الرضى بالكفر كفر . وهذا مايعود إلى الشعب من فعل الحكومة فحسب ، فضلا عما يفعل الشعب نفسه بعد فعل الحكومة الفاصل بين الدين والسياسة ويخرج به عن الدين ولو فى صورة التدريج ، اقتداءً بحكومته التى يمدّها من نفسه لاسيما إذا كانت حكومة نيابية برلمانية .

وقد حصل لنا من فصل الأستاذ المراغى بين أمة الترك وحكومتها فى الخروج عن الدين ، مساعدة نستطيع بفضلها إيضاح ماطرقناه من موضوع فصل الدين عن السياسة بسهولة : ذلك أن المسلمين ـ إلا من شذ منهم من القاسية قلوبهم ـ فهموا فظاعة الفتنة اللادينية فى تركيا ، وكان من المسلمين من لم يفهم قبل الانقلاب التركى الكمالى مبلغ خطر فصل الدين عن السياسة على الإسلام وضرره به ، مع أن ما فعل فى تركيا ليس غير فصل الدين عن السياسة .

إن السبب الذى حدانى إلى حشر مسألة فصل الدين عن السياسة مع مسائل الألوهية والنبوة التى هى موضوع هذا الكتاب المتصل بعلم أصول الدين ـ على الرغم من عدم كون مسألة الفصل والتحذير منه من مسائل هذا العلم الباحث فى عقائد الإسلام وإنما مسألة الفصل والتحذير منه ترجع إلى ناحية العمل [1] ـ كون الدافع الأصلى إلى تأليف هذا الكتاب ما رأيته ورآى معى كل غيور على أهل ملته بعيون دامعة من تشتت شمل

---

[١] وذلك أن ترجع مسألة عدم جواز فصل الدين عن السياسة إلى مسألة وجوب نصب الإمام المعدودة من المسائل الكلامية لأن المقصود من نصب الإمام من جانب المسلمين تقييد الحكومة بأن تكون أعمالها فى حدود الشريعة الإسلامية. فيكون هذا الإمام خليفة عن رسول الله بذلك التقييد.

المسلمين وهبوطهم إلى حضيض الذل والمسكنة منذ طروء الضعف على اعتصامهم بدينهم القوى القويم .

فالمسلمون إن لم يكن الله قدقدر أن يقطع دابرهم بالاستمرار فى سبيلهم إلى الدمار، فهم فى حاجة إلى تدارك أمرهم بالرجوع إلى حضانة الإسلام فيتربوا فيها ويبعثوا من جديد إلى حياة الدنيا والآخرة . ولا ينفعهم البحث عن أسباب البعث فى حضانات أجنبية فينشأوا أمة ممسوخة لا شرقية ولا غربية ولا مسلمة ولا كتابية .

ولا يكون منشأ هذه الفوضى الدينية والاجتماعية والسياسية اللائى لا يقيدها نظام غير نظام التطفل للأمم ، إلا الوهن فى العقيدة ، فالأخلاق من غير دين عبث كما قال الفيلسوف فيخته والأمة من غير أخلاق أضل من الأنعام وأبعد من أن يشد بعضها بعضا . والدين لابد أن يجئ من قبل الله ليتحلى المتدين قبل كل شئ بمخافة الله التى هى رأس الحكمة ومعدن الشفقة على خلق الله .

لكن البلاد الإسلامية عامة ومصر خاصة مباءة اليوم لفئة تملكوا أزمة النشر والتأليف ينفثون من أقلامهم سموم الإلحاد غير مجاهرين بها ، وربما يتظاهرون بالدين . وقدتهم الأستاذ فريد وجدى عند تهديدى بالعلم الحديث وسماهم نوابغ البلاد الإسلامية كما سبق ذكره فى مقدمة الكتاب . ومهما كان هؤلاء اكتسبوا بأساليبهم الجذابة قلوب القراء ، فضلا عما ربحت تجارتهم ، لكنهم لابد أن يشعروا فى قرارة نفوسهم أنهم ليسوا فى موقف شريف غنى من ناحية الصراحة والشجاعة واستراحة الضمير .

فأردت فى هذا الكتاب كشف النقاب عن أبحاث لا يريد هؤلاء الكتاب الدخول فيها ، وقد سماه معالى هيكل باشا الدخول فى حرب مع الجمود لا ثقة لهم بالانتصار فيها كما سبق أيضا فى مقدمة الكتاب . وإنى أرى من الواجب تصحيح عقائد هذه الفئة الممتازة من حملة الأقلام أو تحطيم المكامن التى يحاربون الدين من ورائها ، فلابد من أحد الأمرين فإما أن يكونوا مسلمين فى السر والعلن أو يسلم قراؤهم من شرورهم .

وتشكيكهم فيما كتبوا أو خطبوا ويبدأ من مسألة وجود الله، فالعلم الحديث الذى يعتصمون به لا يثبته والعلم القديم لا يُعتدعندهم بإثباته لعدم ابتنائه على التجربة الحسية . وكم نادى الأستاذ فريد وجدى بك بالدستور العلمى القائل «كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به» وهو دستور الفلسفة الوضعية الملحدة التى أكبرها هيكل باشا فى مقدمة «حياة محمد» وقد تكلمنا عليه فى مقدمة هذا الكتاب، واحتقر المنطق التجريدى والفلسفة الميتافيزيقية اللذين بنى عليهما علماؤنا مع الفلاسفة الموحدين إثبات وجود الله. فتلك الفئة يريدون إثبات وجود الله الذى ليس من الماديات، بواسطة مادية فلا يستطيعون طبعا، ولا يعتمدون على عقولهم اعتمادهم على حواسهم . ونحن حين تولينا إثبات وجود الله تولينا معه الدفاع عن كرامة العقل ورأينا منذ رأينا الضعف فى دين المتعلمين المصريين، ضعفا فى عقولهم أيضا ، وحسبنا فى الدلالة على ضعف عقولهم ضعف اعتمادهم أنفسهم على عقولهم .

فلو لم تكن هذه الفئة النافذة الكلم فى عالم الصحافة تحت أسر هذا المرض الزمن يساور قلوبهم الشك فى دينهم على الرغم من كونهم أسروا قلوب الناس المعجبين بأقلامهم وألسنتهم ، لَمَا أخر الأستاذ فريد وجدى إثبات وجود الله فى مجلة الأزهر إلى أجل غير مسمى من أدوار البحوث النفسية الجارية فى الغرب، ولما تسابق مشاهير الكتاب عصر متخذين آخر الموضوع لتأليفاتهم عبقرية سيدنا محمد بدلا من نبوته، ولما اقترح دولة إسماعيل صدقى باشا فى البرلمان إلغاء المحاكم الشرعية وإدماجها فى المحاكم الأهلية ، وأخيرا لَمَا قال فضيلة الأستاذ الأكبر المراغى ما قاله فى شأن علم الفقه بمناسبة مناقشة الرسائل التى قدمها لأول مرة الطلاب المتخرجون من كلية الشريعة لنيل شهادة الأستاذية، وسيجىء الكلام منا على ذلك المقال. فهل الله موجود ثابت الوجود حالا وعلميا؟ وهل سيدنا محمد نبى ثابت النبوة أو عبقرى أكثر منها ثبوتا؟[1] وهل الشريعة الإسلامية شريعة

[١] فكأن الكاتب عن عبقريته يكتب فى موضوع متفق عليه لا فى موضوع مختلف فيه =

إلهية حقيقة ؟ كل ذلك موضوع اليوم تحت الشبهة . وقدرأيت استيقان هذه الأمور الثلاثة جماع حاجة هذا العصر فكتبت لهذا الكتاب ، وهذاالباب الرابع منه المعقود لدرس مسألة فصل الدين عن السياسة والذى وصلنا إليه الآن ، يتضمن النظر فى ثالث الثلاثة المذكورة المؤدى إلى لزوم وجود حكومة متدينة على رأس أمة متدينة تعمل فى مصالحها وتقيها من طروء الفساد عليها وعلى رأس الحكومة دينها يعمل فيها ماتعمل هى فى الأمة .

فقد عنيت فى كتابى هذا بإثبات وجود الله إثباتا علميا بحقيقة معنى الكلمة وأرجو أن لا يخالج قلب أحد شك فى وجوده بعد مطالعة الباب الأول والثانى من الكتاب بدقة ، ما لم يكن ممن ختم الله على قلوبهم .

ثم عنيت بإثبات وجود رسل الله ومعجزاتهم ليكون مجىء الدين من قبل الله اللازم لكونه مستنداً للأخلاق ، معلوما للناس بطريقة رسمية ، فضلا عن أن وجود الرسل المبلغين عن الله لازم لوجود نشأة أخرى يحاسب الناس فيها على أعمالهم فى نشأتهم الأولى محاسبة منطبقة على تبليغات الرسل .

أما وجود النشأة الآخرة فهو من الأهمية بحيث ان الفيلسوف الكبير « كانت » سلك فى إثبات وجود الله مسلك بنائه على وجود تلك النشأة كما سبق فى آخر الباب الأول ، فوجود النشأة الأخرى ثابت عنده قبل ثبوت وجود الله .

هذه فلسفة الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فلسفة عقيدتنا نحن المتدينين التى تتوقف سعادة الدارين للأمم على أن تركزها فى قلوبها أفرادا وجماعات وتنشىء أبناءها على مبادئها وآدابها . إلا أنها فى حالتها الحاضرة لا تتعدى أن تكون أقوالا

= ويكتب ما لا يشك فيه لا ما فيه شك . ولكون الكاتب العصرى يكتب فيما يتعلق بالإسلام للتشكيك ولا يكتب لإزالة الشك ، يختار موضوعا لكتابه عبقرية محمد الذى لا خلاف فيه ولا تعنيه نبوته المختلف فيها ، فوقفه منها الحياد التام . ولا يقال لماذا يكتب فى هذا الذى يكون فيه الكتابة كتحصيل الحاصل ، لإمكان الجواب بأنه يكتب ليتسلى القارىء ويتملى الكاتب .

مكتوبة فى هذا الكتاب أو بالأوضح حبرا على ورق ، فمن ينفذها ويعمل بها وينشرها ويجعلها خطة مرسومة مطاعة إن كانت أقوالا مقنعة مطابقة للحق ؟ فهل يكون نشرها وتنفيذها بواسطة قراء الكتاب فيقرأها من يقرأها ويوصى بها إلى من لم يقرأها فتعم بين الأمة وتعمل بها الخاصة والعامة ؟ وهذه مسألة : هل يكون صلاح الأمة والعمل بما يؤدى إلى نجاحها بحركات فردية من نفسها أم بواسطة هيأة تتولى أمرها وتكون لها سلطة عليها ؟ وبعبارة أخرى ، ممن يبدأ الصلاح : من الأمة فتُصلح هى الحكومة أم من الحكومة فتُصلح هى الأمة ؟ والمعروف هو الترتيب الثانى وإن كان لا ينكر تأثير كل من الطرفين فى الآخر ، وهو أسهل بالنسبة إلى الأول وأخصر ، إذ لو أمكن صلاح الأمة وانتظام شئونها من تلقاء نفسها لاستغنت كل أمة عن اتخاذ حكومة ذات سلطة عليها[1] .

ومقتضى هذا الأساس أن مبدأ الديانة إن كان حقا مسلما به وكان التمسك بالدين

---

[١] ولكن الحكومة ... من يصلحها إن لم تكن صالحة من نفسها ولم تقبل الصلاح والتدين بطرق سلمية ؟ فهل يتعين عندئذ قلب الحكومة وتقويمها بالسيف ؟ وجواب هذا السؤال منا ، لا ... لأن شن الحرب الأهلية فى زماننا ضد الحكومات التى يكون حق السلطة فى جانبها متفقة مع جميع قوى السلطة المدخرة لحفظ البلاد ، لايجترئ عليه العاقل ، ولا يكسب جماعة المتهورين خيرا من وراء مؤامرتهم ، لا لأنفسهم ولا للبلاد لعدم إمكان الغلبة ضد الحكومة التى حسبها أن يكون الجيش وقائده الأعلى الغير المسؤول معها . والسائرون على السلطان عبد الحميد فى تركيا ثم السلطان وحيد الدين ، حصلوا على مؤازرة من الجيش ، ثم صار القول فى تلك البلاد قول الجيش الذى استحال من جيش الدولة إلى جيش الحزب ، فقد وقع دخول تركيا فى الحرب العالمية الأولى بغير استئذان من السلطان محمد رشاد ومن الصدر الأعظم محمد سعيد حليم باشا الأمير المصرى .

ولو أن جماعة الإخوان المسلمين المتشكلة فى الأزمنة الأخيرة بمصر والحاصلة على قوة واسعة دينية وشعبية لا يستهان بها ثم المحاربة للحكومه ، حاربتها وسعت لفتحها وإصلاحها المنشود ، من طريق النجاح فى الانتخاب والحصول على الكثرة البرلمانية ، لما أهدرت نفسها وأمكنتها خدمة البلاد فى دينها ودنياها .

خلاصة الطريقة الصالحة لإصلاح الحكومة إصلاح خاصة الأمة المثقفين واكتسابهم بالبحث والمناظرة ثم محاربة الحكومة إذا احتيج إليها ، بأيدى هؤلاء الصالحين وفتحها بوسائلهم السلمية .

لازما للأمة لاسيما الأمم الإسلامية وشرطا حيويا لكيانها، فاللازم أن تكون حكومتها متدينة أي خاضعة للدين حتى يتسنى تدين الأمة ويسلم لها البقاء على دينها .

ولا نتوقع من القارىء أن يقول عنا في نفسه : ما بال المؤلف يشتغل بهذه الأمور المعلومة فهل من قائل بخلافها حتى يحتاج إلى تثبيتها ؟ وما صلتها بموضوع هذا الباب من كتابه وهو فصل الدين عن السياسة ؟ ولو قال ذلك كان جوابنا عليه : فها نحن أولاء اتينا هذه المسألة، لأن القول بفصل الدين عن السياسة معناه ادعاء عدم لزوم الدين للحكومة بزعم أن في دين الأمة كفاية واستغناء عن ديانة الحكومة، ومعنى عدم لزومه للحكومة أن لا يكون له أي للدين سلطة عليها ورقابة على أعمالها كما كانت للحكومة سلطة على الأمة ورقابة على أعمالها . لكننا نحن القائلين بعدم جواز الفصل بين الدين والسياسة نرى هذا الفصل مساويا لفصل الدين عن الأمة بل أشد ضررا وأكثر مفعولا ، لأن الحكومة تستطيع التأثير في الأمة ولا تستطيع الأمة التأثير في الحكومة ما دامت خاضعة لحكمها ، فليس في مقدور الأمة التأثير في حكومتها غير تغييرها . فإذا لم يغيرها أو عجزت عن تغييرها فلا شك في تأثير الحكومة فيها وتمشيتها على هواها وتنشئة أبنائها على مبادئها دون تأثير من الأمة في الحكومة [١] .

فليس معنى تجويز فصل الدين عن السياسة إلا تجويز تجرد الحكومة عن الدين وهل يجوز في حق الحكومة هذا التجرد الذي لا يجوز في حق الأمة ؟ إلا أن الراغبين في تجريد الحكومة من الدين يسمونه فصل الدين عن السياسة تخفيفا لخطره وسوء

---

[١] فإذا لم تتقيد الحكومة في البلاد الإسلامية بقوانين الإسلام وألقت حبل الأمة على غاربها في مراعات الأحكام الشرعية على الأقل إن لم ترهقها أو تحثها على إهمالها، يتهزه المستعدون من الناس لهتك الآداب والحرمات للجرى في طرق الشهوات ، لاسيما المترفين المتصلين بالحكومة المنفصلة عن الدين ، فيعدى الفساد من هذه الطبقة السافلة المسماة بالطبقة العالية إلى الذين اتخذوها قدوة الحرية المستهترة، فيعم الفجور في الرجال والسفور في النساء حتى يتعذر على أنصار المحافظة على الآداب الإسلامية تنفيذ مبادئهم في عقر أسرتهم لا سيما النشء منها .

تأثيره فى سمع الأمة المتدينة ، فهم يتوسلون إلى القضاء على دين الحكومة بأن يعبروا عن هذا القضاء بالفصل بين الدين والسياسة ، ثم يتوسلون بالقضاء على دين الحكومة إلى القضاء على دين الأمة [١] .

وإذا لم يكن معنى فصل الدين عن السياسة تجريد الحكومة من الدين لتعمل بعقلها القصير محررة من قيود الدين وأحكامه فماذا يكون معنى هذا الفصل ؟ وقد كانت الحكومات الإسلامية منذ عصر الصحابة رضى الله عنهم إلى عهد قريب مما نحن فيه اليوم من السنوات النحسات ، يحكمن على الأمة ويحكم عليهن الإسلام من فوقهن ؛ فإن فعلن فى خلال هذه الخطة المرسومة ما يخالف حكما من أحكام الدين فإنما كان ذلك يعد ذنبا على الحكومة الفاعلة كما يقترف أحد من المسلمين إثما متبعا هوى نفسه خافقَ القلب من مخافة الله ومخافة الناس . أما مجاهرة الخروج عن رقابة الإسلام ومحاولة فصل الدين وعزله عن السياسة أى عزله عن حكمه على الحكومة ووضع هذه المسألة موضع البحث فى شكل مشروع جديد ومذهب اجتماعى جديد ومحاولة تقليد الحكومات الأجنبية عن الإسلام فى ذلك ــ وقد سبق فى مقدمة الكتاب نقل كلمة عن هيكل باشا تتضمن الإشادة بالفصل ــ فلم تكن تطوف ببال أي حكومة من حكومات المسلمين مهما كانت فاسقة مستهترة فى أفعالها ، لأنه إعلان حرب من الحكومة على الإسلام كما هو المعتاد فى الحروب تعلنها الحكومة ثم يعتبر ذلك إعلانا من الأمة أيضا.

---

[١] ولم يكن ما أثاره الأستاذ قاضى المنصورة الشرعى سابقا ثم نقيب المحامين الشرعيين ثم النائب فى البرلمان ، قبل ما ينيف على عشر سنين من مسألة « الإسلام وأصول الحكم » ، غير مسألة فصل الدين عن السياسة . وكان الأستاذ أراد التذرع إلى ترويج مبدأ الفصل بدعويين كل منهما مصادم للبداهة ، أولاهما : لم تكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم حكومة . فكأنه لم يكن يأمر وينهى أو لم يكن مطاعا فى أمره ونهيه . وثانيتهما : كانت لأبى بكر حكومة لكنها حكومة لادينية أى حكومة زمنية لا صلة لها بالدين . فيفهم من احتياج الأستاذ إلى بناء مرامه على هاتين الدعويين مبلغ بعد مسألة فصل الدين عن السياسة عن طبيعة الإسلام ومنطقه وسيجىء تفصيله.

فإن شئت التخفيف عن شدة التعبير بإعلان الحرب فقل إعلان استقلال من الحكومة التي كانت تابعة في أحكامها لأحكام الإسلام ، ضد متبوعها وهو لا يقل في المعنى عن إعلان الحرب لتمردها على متبوعها وخروجها عن طاعته .

وقد ذكرنا فيما ذكرنا في مقدمة الكتاب من الكلمات المتعلقة بمسألة فصل الدين عن السياسة أنه ليس معناه استقلال كل من الدين والحكومة عن الآخر ومساواتهما في هذا الاستقلال، بأن لا يتدخل كل منهما في أمر الآخر وإن كانت هذه المساواة أيضا محالا يرضاه الإسلام الذي لا يرضى الكفر .. لكن مسألة الفصل يرمى إلى أكثر من هذا وأمرّ ، لأن السياسة التي يتولاها جانب الحكومة ويتخلى عنها جانب الدين عند الفصل والتي معناها السيادة والإشراف على كل من يدخل تحت سقف البلاد ، لا بد أن تضع الدين تحت أمر الحكومة ونهيها مع كل مايدخل تحت ذلك السقف ، ومجردُ هذا الوضع ينافي عزة الإسلام الذي يعلو ولا يعلى عليه كل المنافاة ويوجب الكفر ، حتى ولو فرض أن الحكومة تحترم دين الأمة دائما وتخدمه من غير أن يكون هذا الاحترام وهذه الخدمة فرضا عليها ، ولا تمسه بشيء من الاضطهاد مع كونها قادرة عليه؛ من حيث ان سياسة البلاد بيدها لا بيد الدين . وغاية هذا الاحترام كون الدين في حماية الحكومة كما كانت مصر في حماية الإنكليز . ولا شك أن هذا الوقف بمجرده يمس كرامة الدين كما مس كرامة مصر، فضلا عن أن السائس كثيراً مايبغي على المسوس والسيد على المسود. وقد كانت صلة الدين في الدولة العثمانية المرحومة بحكوماتها وسلاطينها موضحة في هذا المثل التركي : « باش باشه باغلى ، باش شريعته باغلى » يعني أن الرأس مربوط بالرئيس والرئيس مربوط بالشريعة .

فإذا فصل الدين عن السياسة في عهد أي دولة ، تُطوى المادة المصرحة بدينها عن دستورها كما وقع في تركيا الحديثة الكمالية، فقد حُذفت في عهد مصطفى كمال الكلمة القائلة في الدستور التركي القديم بأن دين الدولة الإسلام واستبدل معها القانون المدني

السويسرى بالقانون المأخوذ من فقه الإسلام المدون فى « مجلة الأحكام العدلية » وأمر بلبس القبعة وأبيح زواج المسلمات مع غير المسلمين فلم يؤل أىّ جهد فى تغيير ظاهر الدولة العثمانية الإسلامية وباطنها .

وقد وجد فى داخل تركيا وخارجها من المسمين بأسماء المسلمين ولا يزال يوجد ، من يدعى أن فصل الدين وتبديل القوانين وحذف دين الدولة من الدستور ولبس القبعة وإباحة الزواج العام وإلغاء النكاح الشرعى ومنع السفر لأداء فريضة الحج وغير ذلك حتى ترك الحلف باسم الله فى الأيمان الرسمية ... لا يضر الإسلام . والحق أن ترويج فصل الدين عن الدولة سواء كان هذا الترويج من رجال الحكومة أو الكتاب المفكرين فى مصلحة الدولة والأمة ، لا يتفق مع الإيمان بأن الدين منزل من عند الله وأن أحكامه المذكورة فى الكتاب والسنة أحكام الله المبلغة بواسطة رسوله ، وكل من أشار بمبدأ الفصل إلى المجتمع فهو إما مستبطن الالحاد ـ وقد أفشى الأستاذ فريد وجدى قبل توليه رئاسة تحرير « مجلة الأزهر » أن نوابغ الكتاب والشعراء فى البلاد الإسلامية يستبطنون الإلحاد ويهيئون الأذهان لقبوله دسا فى مقالاتهم وقصائدهم ـ وإما بليد جاهل بمعنى فصل الدين عن الدولة ومغزاه ، مع ظهور كونه عبارة عن عزل الإسلام عن حكومته على حكومة الدولة ومنعه من التدخل فى شئونها ، ولأجل ذلك يمنع علماء الدين فى العادة مع قبول مبدأ الفصل ، عن الاشتغال بالسياسة[1] فإذا خرج عن الإسلام من لا يقبل سلطة الدين عليه بالأمر والنهى وتدخله فى أعماله حال كونه فردا من أفراد المسلمين ، فكيف لا يخرج من لا يقبل هذه السلطة وهذا التدخل ، بصفة أنه داخل فى هيأة الحكومة ؟ ولماذا يكون من حق الله أن يتدخل فى أمور عباده منفردين ولا يكون من حقه التدخل فى أمورهم فى شكل الدولة مع كونها أهم ؟ فهل الله يعلم صالح الفرد وخيره وشره ولا

---

[١] واجتناب الجمعيات الدينية ومجلاتها بمصر عن السياسيات ناشئ من كون مصر قد قطعت بعض مراحل العمل بمبدأ فصل الدين عن السياسة .

يعلم صالح الجماعة وخيرها من شرها ؟ أو يبالى بأمره ولا يبالى بأمرها ؟ مع أن الظاهر كون الجماعة أكثر استعدادا واستطاعة للخير والشر من الأفراد ، وفى رأس الخير العمل لإعلاء كلمة الله الذى هو أشرف واجبات المسلمين .

وقد يكون فصل الدين عن الدولة أضر بالإسلام من غيره من الأديان لكون الإسلام لا ينحصر فى العبادات بل يعم نظره المعاملات والعقوبات وكل ما يدخل فى اختصاص المحاكم والوزارات ومجالس النواب والشيوخ ، فهو عبادة وشريعة وتنفيذ ودفاع ، ويكون عموم نظر الإسلام هذا لكل شأن من شئون الدولة مَعابةً عليه فى زعم المروجين لفصل الدين عن الدولة، معابة تؤكد لزوم الفصل ، فى حين أن ذلك فى نظرنا وفى نفس الأمر مزية للإسلام تُصعده إلى سماء الرجحان بالنسبة إلى سائر الأديان وتكون أمنع مانع لمبدأ الفصل . فالإسلام المحيط بمقتنعيه من كل جانب دين لهم ودولة وجنسية. فهو يزيل جميع الفوارق فيما بينهم ويذيب كل جنسية وقومية فى جنسيته، ففيه الوحدة الاجتماعية التى تبحث عنها كل أمة لتوحيد الأقوام المختلفة ولا تجدها ، وفيه المساواة الحقيقية لافضل لأحد على أحد إلا بالتقى، والتقىّ لايدعى الفضل على أحد حتى فى التقى فلا يتفضل أحد على أحد فى الإسلام .

لا يقال [1] كما أن الإسلام جنسية فالنصرانية لامانع من اعتبارها أيضا جنسية ، وكذا اليهودية وغيرها . لأنى أقول : الإسلام ينطوى على كل ما يحتاج إليه الدولة والأمة من القوانين فهو مستغن بنفسه عن غيره لا يدانيه فى هذه الخصلة أى ملة ، فجميع قوانينه مستنبطة من الكتاب والسنة ، مستنبطة فعلا ومدونة فى آلاف مؤلفة من كتب الفقه وكتب أصول الفقه . فهل رأى تاريخ الإنسان وتاريخ الأديان دينا

---

[١] ولا يقال أيضا إن العمل بالقوانين الشرعية فى بلاد الإسلام التى كثيرا ما يسكن فيها أقليات غير مسلمة يكون تحكما على تلك الأقليات، لأنى أقول تحكم الأكثر على الأقل لا مندوحة عنه فى اختيار القوانين ولو كانت موضوعة من قبل الناس لا مأخوذة من الشرع كما سيجىء بيانه ، بل التحكم والتحيز أكثر فى القوانين الموضوعة واندر فى القوانين الشرعية .

كذلك ؟ وكنا قد أشدنا فى الباب الثالث من هذا الكتاب عند نقد أقوال معالى هيكل باشا فى مقدمة كتابه « حياة محمد » ، بما أنفق علماء الإسلام فى ضبط وجمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من الهمم الجبارة والمساعى المشكورة ، والحال أن مساعى أئمة الفقه المجتهدين أكثر من المحدثين وتمحيصهم الأحاديث التى تستند إليها الأحكام العملية فى العبادات والمعاملات وجميع أنواع الموضوعات الفقهية ، أبلغ واجتهاداتهم فى تتبع معانى الكتاب والسنة مما يحير العقول، فقد دونوا علما كبيرا من أدق العلوم مسمى بعلم أصول الفقه مستقلا عن علم الفقه يبحث فى طرق استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها والآثارُ المؤلفة فى ذينك العلمين مع علم الحديث كنوز الإسلام لا تفنى جدتها ولا تبلى جدتها ، فهى معجزة نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم اللاحقة بمعجزاته فى حياته [راجع ج٢ جزء أول] ، حتى إن مساعى أئمة النحو فى سبيل الخدمة للغة القرآن، التى لا يوجد لها مثيل فى خدمة أية لغة للاحتفاظ بالفصحى مصونة عن التغيير ، من معجزات الإسلام أيضا ، وهذه المعجزات العلمية لا تقل عن معجزة فتوحات الإسلام بل تفوقها، وكثيرا ما يذكرها الكتاب العصريون حين لا يذكرون هذه المعجزات الدينية المدنية .

ثم من أفرى الفرى ما انتقل من السنة بعض الأعداء المحرفين إلى السنة بعض المؤلفين منا ، أن قوانين الفقه الإسلامى مأخوذة من قانون الرومانيين . والقائل به أو بإمكانه جاهل لم يدرس علم الفقه ولا علم أصول الفقه . ولو درس لوقف على مأخذ كل مسألة ومرجعها فى الكتاب والسنة .

وقد ألف فى هذه المسألة صاوا باشا الرومى من علماء الحقوق ومن رجال الدولة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى كتابا بالفرنسية سماه « نظرية الحقوق فى الإسلام » كما فى تعليقات الأمير شكيب أرسلان على « حاضر العالم الإسلامى » فى فصل « إسلام الفرس ومبدأ التشيع » .

قال المؤلف أعنى صاوا باشا فى أول كتابه : إنه هو أيضا كان يعتقد هذا الاعتقاد

نظير غيره ويبنى ذلك على مايعرف من كون بنى أمية لبثوا فى الشام مدة طويلة يعملون بالأحكام التى كانت باقية من أيام الرومانيين، فلاعجب فى أن يكون هو أوغيره قدتوهموا أخذ قسم المعاملات فى الشريعة الإسلامية من القانون الرومانى الذى كان العمل به فى سورية . إلا أنه أحب أن يدرس هذا الموضوع درسا دقيقا ويتعرف كيفية نشوء التشريع فى الإسلام فاستنجد بعض علماء أصول الفقه من الأتراك وقرأ الفقه الحنفى جيدا وذكر الكتب التى طالعها أو راجعها وتجرد لمعرفة هذا الأمر مدة طويلة ، فوجد هذا الذى معناه أن التشريع الإسلامى مأخوذ من القانون الرومانى رأيا ضعيفا أشبه بأن يكون خيالا من أن يكون حقيقة .

وقال فى ص ١٦ من كتابه : « إن الصناعة والتجارة لم تكونا مهملتين فى الحجاز. وكان الأشراف يعتنون بهما وطالما كانوا يعملون الرحلة إلى الشام ويجلبون منها ما يلزم لبلادهم إذ كانت المدنية السورية وقتئذ أكمل من مدنية الجزيرة العربية وكان أشراف قريش الذين من عادتهم التردد إلى دمشق وسائر مدن سورية يطلعون على الأوضاع الرومانية التى بها معاملاتهم . ولهذا كان مما يرد على خواطر الناس حتى الذين منهم يعظمون شأن الشريعة المحمدية ، أن الأحكام التى يتألف منها الفقه الإسلامى إنما هى مستعارة من التشريع الذى كان العمل بها جاريا قبل الهجرة . فالخطأ فى هذه المسألة لا يخفى ، فالذى لم يطلع حق الاطلاع على منابع الفقه الإسلامى وتاريخ هذه الشريعة هو معذور إذن ، إذا ذهب به الظن إلى هذا المذهب فإن الأسباب التى تحتمل عليه كثيرة أشرت إلى بعضها وسأشير إلى البعض الآخر » .

ثم قال : « إن الخصومات التى كانت تتولد فى الإسلام فى السنين الأولى من تبسطه فى الشام والعراق كانت تنفصل بحسب القانون الرومانى تفاديا من وقوف سير العدل ومن الخلل فى الأحكام، فالفاتح المسلم رأى أن يوسع القانون الذى جاء من الحجاز بما استعاره من القانون الذى وجده فى البلدان التى فتحها ، ولهذا ذهب أكثر علماء

أوربة إلى كون الخلافة الإسلامية أدخلت فى فقهها أحكاما كانت احتاجت إلى استمدادها من قانون رومة ، لفصل القضايا بين رعاياها ومما لا مرية فيه أن كثيرا من المعاملات التى كانت معروفة فى الشام والعراق لا سيما مما يتعلق بالإيجار والرهن لم يكن معروفا فى الحجاز . فأمراء الإسلام كانوا معذورين فى الأخذ من القانون الرومانى الذى كان مكملا فى سورية وكان يدرس فى أشهر مدرسة للحقوق فى ذلك العصر ألا وهى مدرسة بيروت التى أسسها الإمبراطور « ژوستينيانوس » وكان يدرس فيها «درونى» مساعد « تريبونين » الفقيه المشهور .

«هذه هى المقدمات التى بنى عليهـا العلماء الأوربيون اعتقادهم بأن تشريع فقهاء الإسلام الذين بدأوا التشريع فى أيام الخلفاء العباسيين الأوائل إنما هو مجموعة أحكام تضاهى ما كان جاريا من العمل فى سورية قبل الفتح الإسلامى . فأنت ترى الأسباب التى حملت على هذا الظن وهى معقولة . إلا أن الحقيقة هى غير ما فكروا به فى أوربة . ويكفى أن ينظر الإنسان إلى هذه المسألة نظر المدقق ويتابع سير الشريعة الإسلامية فى تقدمها وفى أطوارها حتى يعلم استقلال الشرع الإسلامى واصالة منبعه وأن هذا ليس من ذاك .

«ولاشك أن لكل تشريع منهما مختلفا عن الآخر . ففقه ژوستينيانوس هو عمل مبنى على العقل السليم البشرى وقد أصطبغ بالصبغة المسيحية . وأما فقه الإمام الأعظم فهو مبنى على كتاب الله (القرآن) وسنة الرسول ولن نرى فى الفقه الإسلامى حكما واحدا غير مدعم على هذا أو هذه . فاختلاف المنبعين لا ريب فيه يظهر لكل من درس فقه ژوستينيانوس وفقه أبى حنيفة » .

ولم يكتف هذا المؤلف المدقق أعنى صاوا باشا الرومى بهذا بل دخل الموضوع كما قال الأمير شكيب : « واورد خلاصة اجتهاد الإمام أبى حنيفة وأصحابه أبى يوسف ومحمد ابن الحسن الشيبانى وزفر ثم من بعدهم من الأئمة ولخص تاريخ التشريع الإسلامى وبين

مآخذه كلها وأثبت فلسفة الفقه الإسلامى المعبر عنه بعلم الأصول وقال إنه لا يقدر إنسان أن يعلم مأخذ الشرع الإسلامى إن لم يقرأ أصول الفقه وقال إنى أدعو من يهمه هذا الموضوع أن لا يحكم فيه قبل أن يطالع هذا التاريخ المتسلسل للفقه الإسلامى مطالعة كافية . ثم قال : أنا مسيحى معتقد بدينى ولكن المسيحى الحقيقى هو الذى يعامل جميع الناس بالحق ولهذا أنا أفحص الشريعة الإسلامية فحص رجل مسيحى وأقدر قدرها بدون ظلم ولا ميل فأجدها لذلك جديرة بأعظم الاحترام »[1] .

قال المرحوم الأمير شكيب : « وكتاب صاوا باشا هو أحسن كتاب قرأته بلغة أوربية فى هذا الموضوع والفرق بينه وبين غيره من المؤلفين أنه يبنى حكمه على أدلة وبراهين ووثائق ونصوص وحقائق تاريخية وأن أولئك يبنون على ظنون وتخرصات وعلى نظر من جهة واحدة وعلى قولهم لا بد أن يكون كذا .وهناك أسباب تدعو إلى الظن بأنه كذا وكذا . ومن يدرى فقد يكون كذا وكذا وهذه أشياء لا تصلح أن تكون مدارا للأحكام ، ولا يقال لهذا تمحيص وإنما يقال لها تخمين . وما أصدق الآية الكريمة : إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

وأنا أقول : فى كتاب صاوا باشا وما نقله عنه الأمير شكيب ونقلت أنا الآخر عنه على طوله ، شهادة قيمة وعبرة عظيمة لأولى الأبصار[2] وضربة قاضية على المرجفين

---

[١] وكان العالم الحقوقى على شهباز أفندى المدرس فى مدرسة الحقوق بالآستانة فى زمن السلطان عبد الحميد مسيحيا أرمنيا أسلم فى نتيجة تدقيقاته فى الفقه الإسلامى . ولعل احتفاظ صاوا باشا الرومى بدينه وقع احتفاظا من الله بقيمة شهادته الغالية للتشريع الإسلامى وهو مع هذا أقرب إلى الإسلام بكثير من المسلمين الذين قلدوا الأوربيين فى إثارة الشبهة ضد هذا التشريع باحتمال كونه مأخوذا من القانون الرومانى والله لا يضيع أجر المحسنين .

[٢] من أول المحتاجين إلى الاعتبار والاتعاظ من هذا معالى هيكل باشا مؤلف كتاب « حياة محمد » الذى أسفر فيما كتبه مقدمة للطبعة الأولى من كتابه ومقدمة ثانية للطبعة الثانية ، عن كونه يحسن الظن فى كتب المؤلفين الغربيين من ناحية صدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق ، =

فى هذه المسألة ممن لا خبرة لهم بعلمى الفقه وأصول الفقه الإسلاميين . ومن العجب أن الذين كتبوا فيها من المسلمين تقليدا للأوربيين ما قرأوا الفقه ولا أصول الفقه بقدرما قرأ صاواا باشا المسيحى العثمانى. فمن قرأ منهم مثلا مبسوط شمس الأئمة السرخسى فى الفقه الحنفى الذى طبع فى مصر قبيل الحرب الماضية على ثلاثين مجلدا ؟ وهو واحد من الآف المؤلفات الفقهية الإسلامية ، ومن قرأ شرح الإتقانى على أصول حجة الإسلام البزدوى الذى سمعت من صديق العالم الكبير فضيلة الشيخ زاهد أنه موجود فى دار الكتب المصرية على عشر مجلدات ؟ .

وقبل الانتهاء من هذا البحث فلنعزز قولى الأمير شكيب وصاوا باشا الرومى ردا على فرية انتحال الفقه الإسلامى من قوانين الرومانيين ، بثالث هو قول الدكتور على الزينى المدرس بالجامعة المصرية ثم العميد لكلية التجارة فى كتابه «أصول القانون التجارى» وهذا الدكتور الفاضل يقول فى مسألة الانتحال بالعكس وهذا نصه : فى ص ٣٢ جزء أول :

«الحروب الصليبية وفضل العرب فى تكوين القانون التجارى ــ ومما تجب ملاحظته فى هذا الدور وكان له أثر بالغ فى تكوين العادات التجارية الجديدة أن الحروب الصليبية فى ذلك الوقت حصلت قبل أن يتم تدوين تلك العادات أو فى إبانه وساعدت الجمهوريات الإيطالية على نشر تجارتها فى شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية ، إذ كانت مراكبهم تنقل المحاربين من الصليبيين الذين لم يكونوا محاربين بل كانوا تجارا أيضا وتنقل المؤن وتعود بالعروض والسلع. وبذلك اتصل التجار الإيطاليون بالمسلمين واطلعوا على نظامهم الفقهى والقضائى الرائع بحكمته وبساطته وخلوه من التعقيدات الشكلية فساعدهم ذلك وشجعهم عن التخلص من تعقيدات القانون الرومانى والقانون الكنسى.

= كل الإحسان ويسىء ظنه كل الإساءة بما فى كتب الحديث والسيرة من الروايات عن حياة النبى صلى الله عليه وسلم متعلقة بأفعاله وأقواله . فقد عرفت من شهادة صاوا باشا المدقق فعلا فى مسألة مهمة لا يجوز لأحد أن يحكم فيها إلا بعد تدقيق الأمر من كثب كما فعله صاوا باشا ، كيف تكلم علماء أوربا عنها وحكموا فيها وكيف بنوا حكمهم على الظن الكاذب والتخمين الخالب .

ولسنا نقول ذلك تحيزا أو تعصبا لشريعتنا المجيدة بل يقوله ممنا أحد من فطاحل كتاب الغرب وهو ليريبور بيجونيير فى مقدمته على شرح القانون التجارى الإنجليزى ص١٥ وهذا نص قوله: (إن العادات التى ادخلها التجار الإيطاليون فى كل مكان يتكون معظمها من عناصر مستمدة من القانون الرومانى ولو أن منها أيضا عناصر مأخوذة من عادات العرب أو الأتراك) ونغتفر له قوله ان معظمها من القانون الرومانى، لأن الكل يسلمون بأن هذه العادات ماوجدت إلا للتخلص من أحكام القانون الرومانى الكثيرة التعقيدات الشكلية، ومن الطبيعى أن يعز على كاتب غربى فى إبان النهضة الغربية الحاضرة أن يصدر منه اعتراف كامل بأن هذه النهضة تلقت أسسها أو بعض أسسها عن مدنية شرقية أصبحت الآن متداعية، ولو أن هذا التلقى حصل فى وقت كان الوضع فيه معكوسا بالنسبة لهاتين المدنيتين » .

وقال هذا الدكتور الفاضل فى ص ٤١ (تأثير الشريعة الإسلامية فى تكوين العادات التجارية فى القرون الوسطى) :

«ذكرنا فى بند سابق على لسان بعض مشاهير كتاب الغرب أن تجار الجمهوريات الايطالية فى القرون الوسطى استفادوا من عادات العرب والأتراك ـ ولفظ الأتراك ظل يستعمل أجيالا طويلة على لسان الغربيين كرادف المسلمين [١] ـ واستمدوا منها

[١] أعظم مفخرة امتاز بها قومى الترك إلى أن جاء دور الانقلاب الكمالى اللادينى فى تركيا، وأعظم مخزاة للترك بعد ذلك الانقلاب . فليس بكثير إذن أن ألف فى أوربا المعادية للإسلام منذ الحروب الصليبية مايذيف على ستمائة كتاب، تكريما لرجل قضى على إسلام الترك الذين لايعرف أوربا إلا إياهم مسلمين، حتى إنها تستعمل لفظ التركى كرادف المسلم . ولعل ذلك لانتهاء الحروب الصليبية المبتدئة من عهد السلاجقة الأتراك ، فى أيدى الترك العثمانيين وتحول تلك الحروب فى عهدهم من شكل الدفاع إلى شكل الهجوم. فلذلك اعتبرت اوربا انتهاء الدولة العثمانية وانتهاء الخلافة معها بفضل مصطفى كمال، انتهاء دولة الإسلام. فليس بكثير تلك الكتب المؤلفة فى أوربا بشأنه وليس بكثير كتاب الأستاذ عزيز خانكى عنه بمصر ، ليس بكثير من الأستاذ ولا معيب عليه إذا كان فى عروقه شئ من دم المحاربين الصليبيين يسوقه إلى الاشتراك بكتابه هذا فى الشماتة بموت دولة الإسلام، ولا أدرى ماذا كان سائق إسماعيل صدقى باشا إلى تهنئة مؤلف الكتاب ؟

عناصر جديدة أدخلوها فى تكوين عاداتهم التجارية. وهنا محل لبيان كيف حصل ذلك.
فالشريعة الاسلامية أوحيت أمهات أحكامها إلى الرسول الكريم وفصلت أحكامها فى أحاديثه [1] وأحاديث الصحابة والتابعين والشروح العديدة التى وضعت لها فى أوائل القرون الوسطى وجاءت آية فى التدقيق الفقهى وتفريع المسائل واستخلاص أحكام الجزئيات ببيان ومنطق لا يوزن بالمقارنة إليه منطق الفقه الغربى الحديث. وامتازت أحكام الشريعة الاسلامية عن القانون الرومانى الذى كان قانونا عاما لأوروبا فى ذلك الوقت [2] بخلوها من الاجراآت والتعقيدات الشكلية التى تدعو إلى بطء المعاملات وعرقلة التجارة. فالعقد فى الشريعة الاسلامية يتم بمجرد توافق الايجاب والقبول بدون حاجة إلى تسليم أو تسلم أى يكفى فيه رضا العاقدين. والكتابة ليست شرطا لا لصحة العقود والتصرفات ولا لإثباتها بل تثبت جميعا بشهادة الشهود أو بالقرائن مهما كانت قيمة الدعوى أو بالاقرار أوباليمين. وهذا هومالم يصل إليه أحدث القوانين الأوروبية إلا فى القرن الماضى وهو أيضا آخر ما وصل إليه إلى يومنا هذا من درجات الرقى والتقدم وعلى الخصوص فى التشريع التجارى وإثبات الديون التجارية.

« وقد اتصل التجار الإيطاليون وغيرهم من الغربيين بالمسلمين فى إبان الحروب الصليبية وبعدها وأحكام الشريعة الإسلامية على ماوصفنا من البساطة والخلو من التعقيد والرسميات مما جعل أحكامها ملائمة بنوع خاص للسرعة والثقة التى تقتضيهما المعاملات التجارية. فكان من الطبيعى أن يتأثروا بنظامها ويستفيدوا منها فى وضع نظام جديد

---

[١] لله در هذا الدكتور الفاضل كيف يقدر قدر السنة فى كونها متممة للكتاب. فلوضاعت السنة وانحصرت الثقة فى القرآن كما ادعى الدكتور هيكل باشا، لضاع معها تفصيل القرآن الذى وعدنا الله بحفظه.

[٢] كان الرومان فى آخر الأمر على ماذكر فى ص ٣٠ من كتاب هذا الدكتور الفاضل، سمحوا للدائنين بأن يضعوا أيديهم على أموال المدين وإدارتها بواسطة قيم إلى أن تباع ويوزع ثمنها بينهم وفاء لدينهم، بعدأن كانوا قبل ذلك يعطون الدائنين حق الاستيلاء على شخص المدين واستعباده وتشغيله فى مقابل الدين أو قتله وتوزيع جسده بينهم كل بقدر حصته.

لتجارتهم يتخلصون بواسطته من القيود والتعقيدات التى ألفوها فى القانون الرومانى.
إننا لا نستطيع أن نجزم أنهم أخذوا هذا الحكم بالذات أو ذاك عن كتب الفقه الإسلامى مالم يكن تحت يدنا وثائق تبرر هذا الجزم وهى ليست فى يدنا، وكانا نستطيع أن نجزم بأنهم تأثروا بالفقه الإسلامى وأحكام الشريعة الإسلامية وارتسمت فى أذهانهم صور منها استعانوا بها فى تحويل الأحكام الرومانية إلى الاتجاه الجديد الذى اتخذته العادات التجارية ، إذ من المستحيل أن ينتقل الإنسان فجأة من نظام نشأ عليه وتربى فيه إلى غيره دون مؤثر خارجى، خصوصا إذا نزل هذا النظام من نفس الإنسان فى منزلة النظم الدينيه كما كان القانون الرمانى فى ذلك الوقت » .

وانا أقول : هذا ما يقال وبمقل قوله فى تأثير الشريعة الإسلامية وفقه الإسلام فى قوانين أوروبا الحاضرة التى أساسها مأخوذ من القانون الرومانى . أما تأثير القانون الرومانى فى فقه الإسلام فلنا فى نفيه قول جازم ، ومن وجود سند من الكتاب والسنة صراحة واستنباطا لكل حكم يحكم به فقهاء الإسلام ، دليل على هذا النفى حاسم .

ومن المستندات القيمة المثبتة لهذه القضية ، ما نعد عدم ذكره عند تثبيت القضية بناء على كونها اتضحت بما ذكرنا إلى هنا واستغنت عن الزيادة، استغناء يتضمن البخس فيما يستحقه من الإشادة إن لم تكن إيذانا لكثرة الدليل فلتكن عرفانا للجميل .

... من هذه المستندات القيمة جدا ماقرأت أخيرا من كلمة لسعادة صليب سامى باشا منشورة فى «الأهرام» (عدد ٢١٦٦١) بعنوان « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى الخاص» أكتبها هنا بنصه ولا أدرى كيف أشكر سعادته عليها ، أفى إعجابى بما رأيت فيها من فضيلة السعى لتأييد الحق الذى يكاد يضيمه المغرضون من الغربيين ومقلديهم من الشرقيين الغافلين ، أم من إجادة ذلك السعى الموفق القائم على قوة القريحة ودقة الفهم.

قال سعادته: « قرأت فى « الأهرام » تحت عنوان: الشريعة الإسلامية ومحكمة العدل ، أن صديق معالى حافظ رمضان باشا وزير العدل فى الحكومة المصرية بوصفه

رئيسا لوفد مصر لدى لجنة المشترعين فى واشنطن التى انعقدت لوضع مشروع قانون محكمة العدل الدولية ، طالب اللجنة بتمثيل الشريعة الإسلاميه فى محكمة العدل الدولية ، كنظام قانونى مستقل مستندا فى طلبه هذا إلى ما قرره مؤتمر القانون المقارن الذى عقد فى مدينة لاهاى سنة ١٩٣٨ من الشريعة الإسلامية هى نظام قانونى مستقل غير مأخوذ من التشريع الرومانى . ولا شك عندى فى صحة قرار المؤتمر المشار إليه ، ولست أحاول هنا تأييد قراره الذى أعده من البديهيات ، لأن القانون الرومانى قائم على أساس سلطة رب الأسرة الذى أنزله القانون منزلة الآلهة فجعل له على أعضاء أسرته — من زوجة وأولاد ومن انتسب إلى أسرته من نساء بالزواج ومن رزق بهم من حفدة — السلطان الكامل بما فى ذلك حق الموت[1] . كما جعل له على أموال هؤلاء جميعا الحق المطلق بحيث يصبح المالك وحده لأموالهم يتصرف فيها كيفما شاء .

« أما الشريعة الإسلامية فأساسها حرية الفرد . فالابن إذا ما بلغ سن الرشد ، أصبح مستقلا بشخصه وماله عن سلطة الأب ، وإذا كان الإبن لا يزال قاصرا فماله وديعة لدى وليه . والمرأة إذا ما تزوجت لا تفقد حقها فى مالها الخاص ، ولا يمنع زواجها حق الإرث من أهلها ، وليس لزوجها سلطان على مالها ، بل يظل ملزما بالإنفاق عليها ، ولو كان لها مال ، وليس لزوجها سلطان عليها سوى ماله عليها من الحقوق المترتبة على الزواج .

وبدهى لو أن الشريعة الإسلامية قد أخذت أحكامها من التشريع الرومانى ، لكان نظام سلطة رب الأسرة أول ما تأخذه منه ، ألا ترى أن القانون الفرنسى الذى نقل أحكامه عن التشريع الرومانى لا يزال متأثرا بهذ التشريع ؟ فالزوجة فى حكم القانون الفرنسى لا تزال ناقصة الأهلية لزوجها على أموالها ما للولى أو الوصى على أموال القاصر من الحقوق ، وليس لها حق التقاضى ، مدعية أو مدعى عليها إلا بإذن زوجها .

[١] هكذا عبارة الأهرام ، والظاهر أن فيها غلطا مطبعيا والصحيح حق الموت .

«فدعوى البعض إذن أن القانون الرومانى مصدر الشريعة الإسلامية دعوى غير مقبولة أصلا .

» وتحضرنى فى هذا المقام مناقشة دارت بينى وبين أحد العلماء الفرنسيين فى هذا الموضوع ، وقد تطرق بنا الكلام إلى دعواى بأن بعض العبارات القانونية اللاتينية قد أخذت عن العرب أنفسهم ومن هذه العبارة قول الرومان بداية والفرنسيين فى أثرهم عن الخطأ فى التفسير Lapsus Calami فقلت له إن اللفظ الأول مأخوذ لفظا ومعنى من كلمة « ليس » ، العربية ، واللفظ الثانى مأخوذ لفظا ومعنى أيضا من كلمة «قلم» العربية أيضا . ولكن محدثى لم يقتنع بصحة دعواى ، بحجة أن اللغة اللاتينية أقدم من اللغة العربية .

«والذى أريد أن أحدث القراء عنه اليوم، أن الشريعة الإسلامية كانت مصدرا لأهم قاعدة من القواعد الأساسية للقانون الدولى الخاص ، التى تعد فى القوانين الغربية ، من أحدث ما وضعه التشريع الأجنبى الحديث . فأقول :

«لما فتح العرب الأمصار فى صدر الإسلام ، كان فى وسعهم أن يخضعوا أهلها جميعا فى أقضيتهم لأحكام الشريعة الإسلامية ، سواء فى ذلك من اعتنق منهم دين الإسلام ومن بقى على دينه ، لأن من حق الغالب أن يخضع المغلوب لحكمه ، ومن حق كل دولة أن تجعل قوانينها سارية على جميع رعاياها .

«ولكن دين الإسلام يأبى التحكم فى عقائد الناس ، ويأمر بتركهم وما يدينون يحتكمون فى أقضيتهم لقاضى دينهم ، ليحكم بينهم بحكم دينهم . فقد جاء فى القرآن الكريم ، فى شأن الذميين ما يأتى « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين (٤٢) .

وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين (٤٣)

إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء (٤٤)

وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين (٤٦)

وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون (٤٧)

«هذه هي السياسة التي جرى عليها الإسلام ، في حكم البلاد التي خضعت لسلطانه. وقد كانت هذه السياسة الحكيمة ، التي سار عليها العرب في فتوحاتهم ، المصدر الفقهي لإحدى القواعد الأساسية للقانون الدولي الخاص ، وهي قاعدة « شخصية قوانين الأحوال الشخصية » Personnalité des lois du statut personnel التي تقررت في بلاد الغرب لأول مرة في مجمع أكسفورد سنة ١٨٨٣ ، وفي مؤتمر لاهي سنة ١٩٠٤ وأخيرا في اتفاقية «مونترو» سنة ١٩٣١

«وعلى ذلك فحكم الإسلام يقضي :

«أولا — بأن القاضي الشرعي يختص بنظر قضايا غير المسلمين ، إذا تراضوا على حكمه . وبذلك يصبح اختصاصه في هذه الحالة بالاصطلاح الحديث (اختصاصا اختياريا)

«أما إذا لم يتراضوا ، فيكون الفصل في قضاياهم لقاضي دينهم، ويصبح اختصاصه بها (إجباريا) .

«ثانيا — إن حكم هذه القاعدة مقصور على المسائل التي لها علاقة بالدين ، وهي المسائل التي نص عليها في التوراة والإنجيل .

«ثالثا — إن علة هذا الاختصاص وجوب الحكم في هذه المسائل بحكم دين الخصوم

لأن القاضى الشرعى لا يحكم إلا بدين الإسلام».

وإلى هنا من مبدأ الكلام على أرجوفة احتمال أن يكون فقه الإسلام مأخوذا من القانون الرومانى وإبطالِ تلك الأرجوفة بوجود مانع قطعى لذاك الاحتمال ـ وهو كون الفقه الإسلامى مستندا إلى الكتاب والسنة بشهادة ثلاثة شهود إخصائيِّين مسيحيين ـ وسلم اتضح فى عين القارىء الفارقُ العظيم بين قوانين مستندة إلى العقل البشرى والقانون المستند إلى كتاب الله وسنة رسوله، حتى إن أحد الشاهدين المسيحيين سجل بنص من لفظه على هذا الفارق ، وحتى إنه لو لم يكن هذا الفارق لما أمكن دفع شبهة الأرجوفة المذكورة بلسان حاسم .

ولكن ماذا يقول القارىء العزيز إذا أطلعته على أن عالما مسلما شاغلا لأكبر منصب علمى دينى بمصر ينكر اتصال علم الفقه الإسلامى بالدين أى بكتاب الله وسنة رسوله فيخفى عليه هذه الحقيقة الناصعة التى لم تخف على عالم مسيحى ، فلا يكون هذا العالم الأجنبى عن الإسلام أجنبيا بدقته عن فقه الإسلام بقدر ما يكون عالمنا أجنبيا عنه .

فإن كنت لا تصدق بمقلك وقوع هذه العجيبة التى تحتم علينا أن نقف عندها وقفةً تبدد ظلام عقدتها وأن نجمل تبديده ذيلا وعديلا لمهزلة احتمال كون الشريعة الإسلامية مأخوذة من القانون الرومانى [1] ، فاليك مقالة انتشرت فى مجلة «الرسالة» عدد ٣٩٦ بقلم واحد من أساتذة كلية الشريعة عنوانها « أسبوع فى تاريخ الأزهر » بمناسبة مناقشة الرسائل التى قدمها لأول مرة المتخرجون من تلك الكلية لنيل شهادة الأستاذية فى الشريعة الإسلامية . وقد قرأنا فى المقالة الكلمة الآتية بنصها :

« وكنت ترى فى هذا المحيط الأزهر الصاخب زوارا من غير الأزهر ، جاءوا

---

[١] مع كون هذه المسألة العجيبة التى أردنا أن نقف عندها وقفة الباحث ، لها صلة تامة بالموضوع الذى عقدنا هذا الباب الرابع من الكتاب لدرسه ، يظهر ذلك عند التوغل فى عمق المسألة

ليشهدوا هذه المناقشة العلمية التاريخية التى تدور فى الأزهر لأول مرة والتى يرأسها رجل من أفذاذ المفكرين وكبار المصلحين [يعنى فضيلة الشيخ المراغى] وهبه الله عقلا ممتازا وفكرا رشيدا وقلبا جريئا .

«ودارت المناقشة وتجلت فيها حرية الرأى سافرة ليس من ورائها حجاب ، سليمة لم تفسدها مداراة ولا مصانعة ولا تخوّف ، وانطلق العلم فيها على سجية لا يتعثر فى تركيب من تراكيب المؤلفين ، أو لفظ من ألفاظ المصنفين ، وسمعنا مبادىء لا نعدو الحقيقة إذا عددناها جديدة فى جو الأزهر ، أو حسبناها توجيها صالحا للتفكير العلمى بين العلماء والطلاب ، ومبدأ لتحول دراسى خطير فى حياة هذا المعهد العظيم .

« وكان من المبادىء الجليلة التى سمعناها ما قرره فضيلة الأستاذ الإمام المراغى من أن الدين فى كتاب الله غير الفقه ، وأن من الإسراف فى التعبير أن يقال عن الأحكام التى استنبطها الفقهاء وفرعوا عليها واختلفوا فيها ، وتمسكوا بها حينا ورجعوا عنها حينا : إنها أحكام الدين ، وإن من أنكرها فقد أنكر شيئا من الدين ، فإنما الدين هو الشريعة التى أوصى الله بها إلى الأنبياء جميعا ؛ أما القوانين المنظمة للتعامل والمحقّقة للعدل والدافعة للحرج فهى آراء الفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية تختلف باختلاف العصور والاستعدادات ، وتبعا لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها وتبعا لاختلاف البيئات والظروف . ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه مع ما ترى من اختلاف الفقهاء بعضها مع بعض ، وتفنيد كلٍّ آراء مخالفيه وعدّها باطلة لحقت علينا كلمة الله : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

وأنا أقول : إن كان الأمر كما قال صاحب المقالة فى مجلة الرسالة ولم يكن الفقه بمعنى العلم المدون المعروف هو الدين بعينه ، فلا ريب فى أن التفقه فى الدين الذى هو الفهم المتقن للدين والذى اعتنى بشأنه فى كتاب الله حيث قال تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا

إليهم لعلهم يحذرون » وفى سنة رسول الله حيث قال صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيرا يفقّهه فى الدين » رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما والإمام أحمد فى مسنده عن معاوية ورواه أحمد أيضا والترمذى عن ابن عباس والبيهقى عن أبى هريرة ــ متصل بالدين وأن الفقه أحق العلوم اتصالا بالدين ، والفقهاء ولا سيما الأئمة المعروفون رحمهم الله أحق الناس بالتفقه فى الدين المذكور فى كلام الله ورسوله ، فمحاولة قطع صلة الدين الإسلامى بعلم الفقه المتضمنةُ لدعوى الاستغناء عنه فى الإسلام ، من الأستاذ المراغى شيخ أكبر معهد دينى فى العالم الإسلامى الحاضر ، جديرة بأن تعد من أشراط الساعة .

وليس مراد الأستاذ الإمام من نفى الدين عن الفقه الذى كان المسلمون يتعلمون منه حتى الآن أحكام دينهم والذى لا يزال يدرس فى الأزهر ، إثباتَه فى علوم أخرى تدرس فيه وتكون أحق من الفقه عنده بأن يُتلقى علمَ الدين ويعتبر علم الشريعة بين المسلمين ، وإلا فالأستاذ لا يعجبه علم الكلام البتة مع من لا يعجبهم من قديم ، وقد علم القارىء فى الباب الأول من هذا الكتاب (ص ٢٠٠ جزء أول) كيف يسمى الأستاذ فريد وجدى للحط من قيمة علم الكلام فى مجلة الأزهر التى يرأس تحريرها تحت إشراف الأستاذ الأكبر المراغى .. ثم إنه أى الأستاذ الأكبر لا يقيم لتفاسير القدماء وزنا ، وقد علم مبلغ تقديره لعلم الحديث من تقريظه لكتاب الدكتور هيكل باشا الذى طعن فى عامة كتب الحديث ، أما علم أصول الفقه فهو يدور مع الفقه وتنقطع صلته بالدين مع انقطاع صلته به .

فإذن لا دين فى الأزهر باعتراف فضيلة شيخ الأزهر وإمامه ، بمعنى أنه لا علم يدرس فيه وفى كليانه يصح أن يسمى علم الدين ، ولا صحة لما اشتهر عند الناس من كون الأزهر معهدا دينيا ، بله كونه أكبر معاهد العالم الإسلامى الدينية ، ولا لما تواطأ عليه المسلمون من اعتبار ما فى كتب الفقه من الأحكام والقوانين أحكام الشريعة الإسلامية وقوانينها ، فتكون ما يسمونه الشريعة الإسلامية شريعة عندية لأناس يسمّون الفقهاء .

وإذن لا صحة أيضا لقول الأستاذ الأزهرى الكاتب عن أسبوع فى تاريخ الأزهر: « ودارت المناقشة وتجلت فيها حرية الرأى سافرة ليس من دونها حجاب ، سليمة لم تفسدها مداراة ولا مصانعة ولا تخوف » لأن وجود الأزهر نفسه ممهدا دينيا على تقدير فضيلة الشيخ القائم برئاسته مبنى على أساس المصانعة والمكاذبة . وليس فى الإمكان — إن كان هناك جد — أن يقول القول المنسوب إليه عند مناقشة الرسائل المقدمة لنيل شهادة الأستاذية للشريعة الإسلامية ، قبل إلقاء منصبه فى رئاسة الأزهر ، وهو ملغى فعلا بقوله هذا ، وشهادة الأستاذية للشريعة الإسلامية شهادة كاذبة يتكاذب بها النائل والمُنيل ، إذ لا شريعة إسلامية يدرس علمها فى كلية الشريعة .

وليس الفقه عبارة عن اختلاف الأئمة المجتهدين الذى بنى عليه الشيخ استهانته بعلم الفقه وإبعاده من الدين ، بل فيه مع قياس الفقهاء كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة ، فالإعراض عن الفقه بالمرة بسبب المسائل التى اختلف فيها أئمة المذاهب الإسلامية يشبه كون السوفسطائيين المنكرين لثبوت أية حقيقة وأية معرفة ، أخذوا أول أسلحتهم من وقوع الاختلاف بين آراء العقلاء بل بين آراء عاقل واحد فى أزمنة مختلفة ، فأنكروا وجود الحقيقة فيما اتفقوا عليه أيضا وفيما ثبتوا فيه أيضا كما سبق ذكره فى الباب الأول من هذا الكتاب (ص ٢٣٧ جزء ثان) .

ولو قيل لفضيلة الأستاذ الإمام ما رأيك فى الدين الذى لا يوجد عندك فى الفقه ؟ وفى قولك عنه « إنه الشريعة التى أوصاها الله إلى أنبيائه »[1] إجمال يحتاج إلى البيان ،

---

[١] وفى اختيار صيغة الجمع أعنى « الأنبياء » إشارة إلى أن الأستاذ الإمام يهمه من الدين ما اتفق عليه الأنبياء فى شرائعهم . وكأنه لا يعد من الدين حتى ما اختلف فيه الأنبياء واختصت به شريعة نبى دون نبى ، فضلا عما اختلف فيه العلماء من أمة نبى واحد . . وكأن الآية التى وجدها ضد أقوال المختلفين من فقهاء الإسلام ورماهم بها ، يجدها ضد نقاط الاختلاف أيضا من شرائع الأنبياء ويرميهم بها .

وهذا القول من الأستاذ الأكبر يشبه قول فضيلة الشيخ شلتوت فيما كتبه من مقالات الرد =

فبين رأيه فيه وفسر قوله المجمل وقال عند ذلك ما لم يقله فقهاؤنا المجتهدون ، كان هذا منه اختلافا معهم فى تعيين الدين وتفسيره يُدخله نفسه فى الآية التى قرأها عليهم بسبب اختلافهم ، أعنى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

ثم إن هذه الآية الكريمة تُقرأ أيضا بالنظر إلى المعنى الذى فهم منه الأستاذ ، على اختلاف الاجتهاد الواقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فى مسائل الدين ، فيكونون هم أيضا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا والذين برّأ الله رسوله منهم . على أن هذا الاختلاف الذى ضرب به الأستاذ الإمام عرض الحائط ، له قيمته عند علماء الإسلام: ففى (مختصر جامع بيان العلم وفضله) للحافظ ابن عبد البر : « قال محمد بن عيسى (الترمذى) سمعت هشام بن عبد الله الرازى يقول من لم يعرف اختلاف الفقهاء فليس بفقيه . وعن عطاء لا ينبغى لأحد أن يفتى الناس حتى يكون عالما باختلاف الناس فإن لم يكن كذلك رد من العلم ما هو أوثق من الذى فى يديه » .

أما قراءة الأستاذ الإمام قوله تعالى هذا أعنى « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » على أئمة الإسلام المجتهدين المختلفين فى بعض المسائل ، وجعله السبيل إلى إنقاذهم من أن ينطبق عليهم ، إخراجَ آرائهم ومذاهبهم من الدين ؛ فكلتا هاتين الفكرتين اعتداء عظيم من الأستاذ الأكبر المراغى على رؤساء أئمة الإسلام أصحاب المذاهب المشهورة فى الفقه مثل الإمام أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل رضى الله عنهم[1] ... اعتداء يدور بين أمرين إما إكفارهم وإكفار أتباعهم بتهمة الاختلاف

= على « القول الفصل » الرسالة عدد ٥١٦ «أن ما يجب على الناس أن يؤمنوا به يرجع عند التحقيق إلى الأصول التى اشتركت فيها الأديان السماوية جميعها » والمفهوم من ذلك أن أساتذة الشذوذ فى الأزهر كبيرهم وصغيرهم اشتركوا وتواضعوا على أن يجعلوا الناس فى حل من الإيمان بما جاء به من الله نبى واحد ، مهما كان معدودا من الضرورات فى دين ذلك النبى . فلا يكون مثلا الإيمان بالصلوات الخمس ولا صوم رمضان ضروريا لأحد من المسلمين لكونه فريضة خاصة بدين نبى واحد، وإن كان هذا النبى الواحد نبى ذلك المسلم !!!

[١] حديث الأسبوع التاريخى للأزهر وما عزى فيه إلى الأستاذ الأكبر المراغى من الأقوال نشر فى « الرسالة » بقلم واحد من أساتذة كلية الشريعة بكل إكبار وإطراء ولم ينفه الأستاذ الأكبر،

فى الدين ، تطبيقا عليهم قول الله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » المتوعد بقطع صلة رسوله بهم ، وإما أن يعد أقوالهم وآراؤهم فى مذاهبهم خارجة عن ساحة الدين كأقوال وآراء علماء القوانين الزمنية اللادينية [1] وهذا التوجيه على هؤلاء الأئمة فى غاية الخطورة . والعجب أن الأستاذ الأكبر هذا الذى يهدد المسلمين وأئمتهم المختلفين على مذاهب ، بالإكفار تراه فيما سيأتى منه أنه من أحرص الناس على فتح باب الاجتهاد فى الفقه . . فكيف يمكنه تصور الاجتهاد من غير اختلاف بين المجتهدين ، والأستاذ الأكبر لابد من أن يدرك التناقض بين حظر الاختلاف فى المسائل الدينية وفتح الباب على حرية المجتهدين فيها .

ولهذا فإنى أقول فيما يهدف إليه الأستاذ عند تهديد أئمة المذاهب الفقهية بالآية التى قرأها عليهم بغير حق : إن مقصوده إلزام المدافعين عن الأئمة ، بالشق الثانى من الأمرين الآنفين اللذين يخيرهم بينهما ، وهو إخراج الإسلام (الفقه) من الدين . بدلا من الشق الأول الذى يتضمن إكفار الفقهاء .. ثم أقول : لكن يتوجه على اختيار الشق الثانى الذى اقترحه الأستاذ الأكبر تخفيفا على أئمتنا نحن المسلمين ، أنه لا يمكن منطقيا ترجيح هذا الشق على الشق الأول مهما كان فيه القضاء على أئمتنا ، بناء على عدم إمكان إخراج فقه الإسلام المستند إلى الكتاب والسنة ، من الدين ولو كان هذا الاستناد محصول الأنظار الدقيقة ، وهو غير خاف على الأستاذ الأكبر بل غير خارج عن حديثه .

ولا سبيل بعد هذا لتخليص الأستاذ من المأزق الذى أوقعه فيه « الأسبوع

---

[١] وهذا التوجيه من الأستاذ الأكبر فى موقف أئمة المسلمين الفقهاء يشبه قول الأستاذ على عبدالرازق بك (باشا) فى حكومة سيدنا أبى بكر : إنها كانت حكومة زمنية لادينية ، وسيأتى مناقصه، ويؤيد هذا الشبه اقتراح فضيلته فى أثناء مشيخته الثانية على هيأة كبار العلماء الذين كانوا قرروا فصل الأستاذ قاضى المنصورة الشرعى عن الأزهر ، إلغاء القرار السابق بحجة مرور عشر سنين عليه .

التاريخى للأزهر » . . لا سبيل بعد هذا غير سبيل إخراج الكتاب والسنة أيضا من الدين كما أخرج علم الفقه الإسلامى . أما إيضاح المقام بأكثر من هذا فلا يطالبنى به القارىء تفاديا من اتهام الأستاذ الأكبر بسوء الظن بالكتاب والسنة أو اتهامى أنا بسوء الظن بالأستاذ الأكبر .

لا ، لا إن دخول أئمة المسلمين أمثال من ذكرتهم رضى الله عنهم فى الذين فرقوا دينهم وبرأ الله رسوله منهم ، أو خروج آرائهم ومذاهبهم المبنية على صريح الكتاب والسنة أو المستنبطة منهما ، عن الدين لا يقول به مجنون يعود إليه عقله أحيانا ، لاالأستاذ الإمام ولاتلميذه الذى يهتف له ولقوله ، والذى يحتمل أن يكون من الأزهريين المبعوثين إلى الغرب لطلب العلم تاركين عقولهم القديمة هناك مع ما كانوا تعلموه من قبل فى الأزهر ، وقد كان محرر جريدة « السياسة » أوصاهم بهذا ، كما سبق ذكره فى أوائل المطلب الأول من الباب الأول من هذا الكتاب (ص ١٠٤ جزء ثان) فإن لم يكن منهم فهو من الباعثين بعقله وبما تعلمه فى الأزهر مع المبعوثين .

وإنما لهذا القول أى قول الأستاذ الإمام مغزى لم يبُح به قائله وقد خفى على محبذيه ومنكريه ، وسأبديه أنا بما آتانى الله من قوة الفهم لمقاصد هؤلاء العلماء المصريين لم يبح الأستاذ الإمام بمغزى ما قاله ، ولعله لم ير فى هذه المرحلة أن يرسل تمام زمام التحوط وأوجس شيئا من الخيفة على الرغم من قول الأستاذ الصغير عن حفلة مناقشة الرسائل : « والتى تجلت فيها من حرية الرأى سافرة ليس من دونها حجاب ، سليمة لم تفسدها مداراة ولا مصانعة ولا تخوف ».. فأى مناسبة تدعو فى حفلة إعطاء شهادة الأستاذية للمتخرجين من كلية الشريعة إلى كلمة تمس كرامة الفقه الذى أعده أنا وعلماءه من معجزات نبى الإسلام ، وهو الذى يدرس فى تلك الكلية باسم الشريعة ؟ أم أية فائدة تعود إلى الكلية أو المتخرجين أو الأستاذ الإمام قائل الكلمة ورئيس المشرفين الأعلى على الكلية ، إن لم يكن لقوله مغزى آخر ؟ .

يحاول الأستاذ الأكبر المراغى بقوله المنقول من قبل ترويج آخر آمال لهم وتمزيق آخر أوصال للإسلام وهو فصل الدين عن الحكومة ، فقد رام أن يتوسل إليه بفصل الدين عن الفقه وقطع صلته به . فكأنه يقول إن الفقه ينطوى على قوانين سنها الأئمة المجتهدون وهى قوانين زمنية لادينية . وخلاصته ادعاء أن فصل الدين عن السياسة قد وقع من زمان قديم فى الإسلام منذ اتخاذ الحكومات الإسلامية آراء أئمة الفقه التى لا صلة لها بالدين ، قوانين معمولا بها فى بلاد الإسلام ، فلهذا يجوز لنا أن نهملها ونسن بدلا منها قوانين أخرى أوفق لزماننا وسياستنا ، ولا نكون إن فعلنا ذلك بدّلنا ديننا إلى دين غير الإسلام، أو فصلنا الدين عن السياسة أول مرة ... والقرينة القائمة من كلامه على ما قلنا قوله بعد قوله « فإنما الدين هو الشريعة التى أوصى الله بها إلى الأنبياء » ، « أما القوانين المنظمة للتعامل والمحققة للعدل والدافعة للحرج فهى آراء الفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية تختلف باختلاف العصور والاستعدادات وتبعا لاختلاف البيئات والظروف » .

قاله الأستاذ الإمام وبنى عليه ماادعاه من عدم كون « الفقه » المتكون من آراء الفقهاء دينا ، ولم ينبهه على خطائه الفاحش فى دعواه هذه قوله نفسه عن تلك الآراء «مستمدة من أصولها الشرعية».. وكثيرا ماتكون تلك الآراء مستندة على النصوص الشرعية الصريحة ، وفيها أيضا مااتفقوا عليه كما أن فيها مااختلفوا فيه . فكيف يكون الفقه وقوانينه المتكونة من آراء الفقهاء المستمدة من أصولها الشرعية أى المستنبطة من النصوص الشرعية أو المبنية على صراحة النصوص، غير الدين ؟ [1]

---

[١] ولله در الدكتور على الزينى المدرس بالجامعة المصرية ثم العميد، حيث يقول فى كتابه «أصول القانون التجارى » ص ٤١ جزء أول ، وقد نقلناه عنه من قبل أيضا فيما نقلناه :

« الشريعة الإسلامية أوحيت أمهات أحكامها إلى الرسول الكريم وفصلت أحكامها فى أحاديثه وأحاديث الصحابة والتابعين والشروح العديدة التى وضعت له فى أوائل القرون الوسطى وجاءت آية فى التدقيق الفقهى وتفريع المسائل واستخلاص أحكام الجزئيات ببيان ومنطق لايوزن بالمقارنة إليه=

وكان الأولى بالأستاذ الأكبر أن لا يتوسل إلى ترويج مبدئه بالاعتداء على الفقه وإخراج أقوال الفقهاء أئمة الإسلام من الدين ، بل يبقيهم في مقاماتهم المسلَّمة الدينية ويقول: ونحن نجتهد ونضع القوانين الجديدة مستمدين من الأصول الشرعية فتكون آراؤنا أيضا فقها ودينا كما كانت آراؤهم . لكنه لم يفعل هكذا وسعى لإخراج الفقه وآراء الفقهاء من الدين بدلا من إدخال نفسه وأشباهه في عداد الفقهاء المجتهدين في الدين ، لأن الدخول في عدادهم لاسيما عداد أئمتهم ولاسيما لاتصال بالدين كاتصالهم والاستمداد من الأصول والنصوص الشرعية كاستمدادهم أمرٌ صعب بعيد عن أئمة الزمان بعد الثريا من يد المتناول ، بعيد مع ذلك عن مقصود الإمام المراغي الذي هو فصل الدين عن السياسة وتخليص الحكومات في سن القوانين عن التقيد بقيود الشرع الإسلامي . فلو قام هذا إلى مزاحمة أئمة الفقه في مضمار الاستمداد والاستنباط من النصوص كان

= منطق الفقه الغربي الحديث » .

وقال في ص ٤٢ « إن غزو القوانين الأوربية لمصر لم يؤثر أصلا في موضوع أحكام الشريعة الإسلامية فقد بقيت هذه الأحكام على ماهي عليه ولم تمس بتغيير أو تعديل نظرا لتقديسها من البدأ إلى النهاية . وقد رأينا على قدمها لم يتفوق عليها أي قانون من القوانين الحديثة .. » .

انظر أيها القارئ هذا الدكتور القانوني المسلم وادع الله تعالى أن يحفظه ويكثر من أمثاله في دكاترة مصر وأساتذتها بل وعلمائها ، كيف يقدر الشريعة الإسلامية قدرها واستنادها إلى الوحي الإلهي وقداستها من البدأ إلى النهاية ، وكيف ينبه إلى أن أئمة الفقه دونوا بالاستفاضة من هذا الينبوع الإلهي قوانين لا يوزن بالمقارنة إلى ما فيها من المنطق والتدقيق الفقهي منطق الفقه الغربي الحديث ، انظر هذا العرفان للجميل نحو الفقه الإسلامي وفقهائه وقارنه مع البيان الذي أدلى به الأستاذ الإمام النافي لصلة علم الفقه المدون في الإسلام بالدين والمدعي لكون قوانينه عبارة عن أقوال وآراء فقهاء لا تمتاز على أقوال وآراء غيرهم من وضعة القوانين . وإني كلما فتحت باب مكتبتي الفقيرة على مصراعيه وواجهت أكبر مايزينه بأجزائه الثلاثين الصفوفة من مبسوط شمس الأئمة السرخسي ، أقول : ان علم الفقه الذي دونه أئمة الإسلام وانتقل إلينا بين دفات هذه الأسفار العظيمة ، حسبه معجزة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكم تتصاغر إلى نفسي إزاء هذه الآثار الخالدة ، فأستحيي أن أعدها من علماء الدين ومن مشايخ المسلمين ، ويمنعني حيائي أن أقول عن أئمتنا الفقهاء ما يريد أن يقوله فضيلة الشيخ المراغي : هم رجال ونحن رجال .

كما استنبط كون الفقه وآراء الفقهاء المجتهدين خارجا عن الدين ، من قوله تعالى « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » وكان هو نفسه أيضا فى استنباطه من هذه الآية المختلف عن استنباط الفقهاء والمفسرين ، من الذين فرقوا دينهم وبرأ الله رسوله منهم ، فعلى هذا الاستنباط القاسى على أئمة الفقه وعلى المستنبط نفسه يلزم أحد الأمرين إما خروج الفقه — بل التفسير أيضا — من الدين أو دخول الفقهاء والمفسرين المختلفى الآراء ، فى الذين فرقوا دينهم وأوعدهم الله بتبرئة رسوله منهم .

نعم ، راج بعد ابن تيمية وأتباعه المولعين بالشذوذ والخروج على مذاهب أئمة الفقه الأربعة الذين اعتُرف لهم بالفضل والشهرة الفائقة عند علماء الإسلام ، أن حدثت فى بعض الناس شهوات الحط من مقامات أولئك الأئمة فى التفقه فى الدين التى لا تدرَك كما قال الإمام مالك فى حق الإمام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنهما ، ونقله ابن خلدون المالكى المذهب فى مقدمة تاريخه . وكثيرا ما يتوسلون إلى الهجوم على مراكزهم الرفيعة بذم التقليد فكانوا يدعون الناس إلى اللامذهبية حتى قال قائلهم :

الدين قال الله قال رسوله   والنص والإجماع فادأب فيه
وحَذارِ من نصب الخلاف سفاهة   بين الإله وبين قول فقيه

فكأن من اتبع مذهب إمام معروف من أئمة الفقه ينصب الخلاف بين الله وبين قول ذلك الإمام ، وكأن ذلك الإمام خالف الله تعالى فى قوله وأهمل فى فقهه قال الله وقال رسول الله والنصَّ والإجماع . وليس بواقع أنّ تابع إمامٍ نصب الخلاف بين الله وبين قول إمامه ، وإنما الواقع أن ناظم الشعر المذكور ينصب الخلاف بين نفسه وبين الأئمة ويعد هذا الخلاف خلافا بينهم وبين الله .

والمسألة عبارة عن النزاع فى جواز التقليد وعدم جوازه ، ولا نزاع فى جواز التقليد فى الفروع للعامة ، بل لا إمكان لكون جميع الناس فقهاء حائزين لرتبة الاجتهاد . وأنا لا أبعد عن الحق إن ألحقتُ علماء هذا الزمان — وأنا داخل فيهم محتاج إلى تقليد أحد الأئمة الأربعة الكرام — بالعامة فقد رأيت مبلغ تفقه رئيس العلماء

بعصر فى الدين من استدلاله على فصل الدين عن السياسة بقوله تعالى « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » فإما أن يكون أئمة الفقه المختلفون فى مذاهبهم منذرين بهذه الآية أو لا يكون لعلم الفقه صلة بالدين بحيث يجوز لكل أحد من العقلاء أن يضع فقها آخر بمجرد عقله من غير مخافة فيه على دينه . وقد رأيتَ مبلغ اجتهاده من استدلاله على نفى معجزات نبينا عليه الصلاة والسلام الكونية بقول البوصيرى رحمه الله :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

ظنا منه أن البوصيرى أيضا قائل بنفى تلك المعجزات . فمن كان تقصيره فى تمحيص المسائل وتحقيق الحق بحد أن يغفل عند تفسير هذا البيت بنفى المعجزات غير القرآن، عن أبيات البوصيرى الأخرى الناطقة بمعجزاته صلى الله عليه وسلم وهى فى نفس القصيدة التى فيها البيت المذكور ، وقد سبق تمام الكلام على هذه المسألة فى الباب الثالث... من كان تقصيره فى تتبع الحقيقة بهذا الحد ولم يكن عنده علم بأن المعجزات ليست مما يعيا العقول ولا بصيرةٌ تنبهه على أن رجلا من قدماء المسلمين كالبوصيرى لا يمكن أن يقول بنفى المعجزات الكونية الذى هو من البدع المصرية ، إن لم تنبهه معرفته بسائر أبيات القصيدة ، كيف يصلح لاستنباط الأحكام من الكتاب والسنة وكيف يستجمع شروط الاجتهاد فى تتبع النصوص وتفهم المعانى ؟ وفوق كلّ ذلك كيف يكون مجتهداً فى الفقه الإسلامى من لا يعلم أو يتجاهل أن ذلك الفقه مربوط رأسه بالكتاب والسنة فينكر صلته بالدين ويقيس أحكامه بالقوانين الزمنية الموضوعة من قبل الناس .

ولو فرضنا للأستاذ الإمام قدرة الاستنباط مثل ما للأئمة المجتهدين أو عشر معشار جزء مما لهم ، فلا يمكنه التأليف بين الأصول والنصوص الشرعية وبين الأهواء المصرية التى يريد أن يجعلها متغلبة على كل قيد دينى . فلهذا رأى من الأسلم والأسهل عليه والأوفق لمرماه إبعاد فقه الفقهاء المجتهدين عن الدين وعبّد لنفسه ولأضرابه السبيل

إلى الابتعاد عنه عند وضع القوانين فيكونون فقهاء من الطراز المصري أي محايدين عن الدين « لايبك » كما أن فقهاء الإسلام القدماء بالنظر إلى مادعاه محايدون . ولا أدرى كيف يؤلف الأستاذ الإمام دعواه المتعلقة بالفقهاء القدماء مع مااعترف به من كون آرائهم مستمدة من الأصول الشرعية ولا كيف يؤلف ما أعد لنفسه ولأضرابه من منهج التقنين المحرر من كل قيد ، مع قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

بقى أن دعاة الاجتهاد السابقين وإن أخطأوا وتعدوا حدود الإنصاف عند تطبيق الشعر القائل بأن الدين قال الله قال رسوله إلى آخر البيتين على أتباع إبى حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وعظم خطاهم لكونهم فتحوا الطريق لدعاة الاجتهاد في زماننا، لكنه لا يجوز قياس أحد الفريقين بالآخر من حيث ان الفريق الحديث الذين يتزعمهم الأستاذ الإمام المراغى يدعون إلى الاجتهاد المطلق العنان غير مقيدين بقول فقيه ولا بقال الله وقال رسوله كما يقتضيه مبدأ فصل الدين عن السياسة وكما يقتضيه إبعاده الفقه عن الدين. فلو علم الفريق الأول ما انتهت إليه دعوتهم في زماننا من محاولة عزل الدين عن الحكم في البلاد الإسلامية بواسطة عزله عن مركزه المتبوع في سن القوانين، ومعناه إخراج تلك البلاد عن كونها بلاد الإسلام التى تمتاز عن غيرها بقوانينها ولا عبرة بأى ميزة غيرها ، لندموا على ما فعلوا واستغفروا الله .

نعود إلى ما كنا فيه: ثم إن هذه الفكرة من الأستاذ الإمام فكرة تنزيل الفقهاء أئمة الدين الواضعين للقوانين الشرعية منزلة واضعى القوانين الزمنية غير المتقيدين فى وضعها بالقيود الدينية ، تشبه ما فعله الكتاب المصريون بمصر من تنزيل الأنبياء إلى منازل العباقرة منكرين لهم النبوة الميتافيزيقية والمعجزات الخارقة لسنن الكون ، لما عجزوا هم وسادتهم الماديون عن الصعود إلى مراتب الأنبياء فينزلونهم إلى مراتبهم أنفسهم .

وأشبه من هذا بما فعله أن الأستاذ على عبد الرازق قاضى المنصورة الشرعى سابقاً،

سبق له أن ألف كتابا فأنكر فيه خلافة أبى بكر، بله مَن بعده وجرد حكومته من الدين بأن جعلها حكومة زمنية « لا ييك » أمليس شبَهٌ جلى بين كون هذا الأستاذ القاضى قَطَعَ صلة حكومة أبى بكر بالدين وبين كون الأستاذ الإمام المراغى قطع صلة الفقه بالدين ؟ وكان فضيلة الأستاذ على عبد الرازق قد عوقب بقطع رابطته بالأزهر ، فطلب الأستاذ الإمام قبل سنين إعادة هذه الرابطة المقطوعة . وكلتا الحادثتين من كلا الأستاذين ترمى إلى طلب فصل الدين فى مصر عن الحكومة ، ذلك الأمر الذى عقدنا لدرس ماهيته ومايعنيه ، هذا البابَ الرابع من كتابنا هذا . والأستاذ القاضى يتقدم فى إثبات الدعوى المشتركة بأكثر من الأستاذ الإمام ، فكأنه يقول إن فصل الدين عن السياسة قد وقع منذ عهد أبى بكر وعمر فما بالنا نتردد نحن اليوم فيه . وكل من الأستاذين يدعو إلى مبدأ الفصل تحت ستار من التضليل..وانظر إلى درجة الاستحالة الحاصلة لمصر فيما بين الحادثتين من الزمان ، حيث يُدانُ الأستاذ الأول من قِبل الأزهر ويكون الأستاذ الثانى شيخ الأزهر الذى ليس فوقه من يَدينه غيرُ مالك يوم الدين .

فقد انجلى مما ذكرنا إلى هنا أن المقصود الأصلى للأستاذ الإمام من إبعاد الفقه عن الدين إبعاد الدين نفسه عن ساحة الحكم وإسقاطه من رتبة القانونية، فى حين أنه يتظاهر بإسقاط قوانين الفقه من رتبة الديانة ويتظاهر بالإعراض عن الفقه بدعوى عدم اتصاله بالدين، ومقصوده الإعراض عنه لاتصاله بالدين. ولماذا يدرس فى كلية الشريعة الأزهرية إن لم يكن الفقه طريق التعلم بدين الإسلام لمن يريد أن يتعلمه ويتبحر فيه ؟ .

والحقيقة أن الاستاذ الإمام لايحب الفقه ولايحب تعلمه لانه لايعجبه أن يكون دين الإسلام حاكما فى الدولة بطريق القوانين المأخوذة من الفقه وإن كانت مصر تركت العمل بهذه القوانين وبمحاكمها الاهلية من زمان، لكن الاستاذ الإمام يريد تهيئة الجو للقضاء أيضا على البقية الموجودة فى المحاكم الشرعية[1] ولا ينتهى من السعى إلى أن يتم فصل

[١] كما اقترح به دولة إسماعيل صدقى باشا فى برلمان مصر .

الدين عن الدولة[1] وإخراج تعليمه من كلية الشريعة أو إخراج كلية الشريعة من الازهر أو الازهر من مصر ويتم واجب الاستاذ الإمام فيه بالنظر إلى أنه جاء للقيام بهذا الأمر الذى لم يجرؤ عليه غيره فإذ قرئ الدين بعده فى المدارس يقرأ لا ليقدس تقديسا ولكن كما يقرأ التاريخ ويكون الأمر كما قال الأستاذ فريد وجدى فى نقاش جرى بينى وبينه على صفحات الأهرام وعين عقبه مديرا ورئيس تحرير « لمجلة الأزهر » التى كان اسمها وقتئذ « نور الإسلام » :

« .. فى تلك الأثناء ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها فدالت الدولة إليه فى الأرض فنظر نظرة فى الأديان وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير) ثم أخذ يبحث فى اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديسا ولكن ليعرف الباحثون الصور الذهنية التى كان يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر فى سبيلها روحه وماله .

« وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا، ووجد دينه ماثلا فيها فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك بهامتيقنا أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية. وقد نبغ فى البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يبثون الأذهان لقولها دسا فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفاديا من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض » .

---

[١] وكان هذا السعى متوقعا منه بالنظر إلى تقريظه لكتاب هيكل باشا الذى لم يكتم إعجابه فى مقدمة الكتاب بالمبدأ الغربى الرامى إلى فصل الدين عن الدولة .

اتجاه جديد للأستاذ على عبد الرازق :

وبعد كتابة هذا البحث الدال على اتفاق فى مبدأ فصل الدين عن السياسة بين الأستاذ الإمام المراغى وبين الأستاذ على عبد الرازق ، قرأت كلمة فى جريدة « الأهرام » عدد ٢٠٦٨٢ للأستاذ الأخير يفهم أنه أعد فى الآونة الأخيرة فى وزارة العدل مشروعان جديدان لتعديل قانونى المواريث والوصية اتجه فيهما إلى خلاف حكم الشرع الإسلامى المعمول به إلى الآن ، ثم ظهر اتجاه جديد ثان يرمى إلى إعادة النظر فى المشروعين والأستاذ يعارض وجهة المشروعين ويؤيد فكرة إعادة النظر فيهما قائلا :

« وإنى لأرجوا أن يتحقق هذا الخبر وأن يتغلب هذا الاتجاه الجديد على الاتجاهات الأخرى التى اتجه إليها قبل اليوم رأى الباحثين فى التشريع بالنسبة إلى الأحوال الشخصية، فقد كان فى تلك الاتجاهات خطر كبير على الفقه الإسلامى وشر بعيد المدى . فإذا تحقق هذا الخبر وتغلب هذا الاتجاه الجديد فقد دفع عن المسلمين ذلك الخطر ووقاهم شر الفتنة التى كادت أن تصيبهم .

« إن هذا الاتجاه الجديد دون غيره هو الذى يتفق مع ما تقضى به أصول التشريع العامة من أن القوانين لا ينبغى أن تكون موضعا للتغيير والتبديل فى عجلة وسفه ولا فى طفرة ثائرة ولكن فى رفق وأناة وفى تدرج بطىء ؛ وإن هذا الاتجاه الجديد دون غيره هو الذى قد يصون لتلك البقية الباقية من الفقه الإسلامى ما يجب على المسلمين أن يصونوه لها من حياة وكرامة .

« . إنه لم يكد يبق حيا من الفقه الإسلامى فى عامة بلاد المسلمين إلا هذا الجزء الذى يمس الأحوال الشخصية . فأما الأجزاء الأخرى فقد أضاعها أهل الفقه الإسلامى وباعوها طمعا فى جاه أو خوفا من غير الله وأسلموها لجيش التشريع الحديث والتمدن الحديث ، فدمرها ذلك الجيش وعفرها فى التراب .

« فإذا نحن فتحنا على هذه البقية الباقية من الأحوال الشخصية باب الإصلاح على مصراعيه كما فعل الذين كانوا ينظرون فى أمر هذا التشريع من قبل . وإذا نحن جعلنا مثلهم أمر الأحوال الشخصية هينا يمكن تناوله بالتغيير والتبديل فى يسر وسهولة لا حرج معهما ولا عسر فيهما ، فقد أوشكنا أن نقترف إثم الذين فرّطوا من قبل فأضاعوا الفقه وباءوه .

«هذا الاتجاه دون غيره هو الذى قد يحفظ على الأمم المسلمة وحدتها الدينية التى كتب الله أن تكون بين المسلمين (وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)

« ولقد كان الفقه الإسلامى من أكبر العوامل فى بناء هذه الوحدة الإسلامية . وكان من أمتن الأسس فيها . فإذا لم يبق لهذا الفقه حياة ، وإذا ما صار أمره إلى أن يصبح رسوما وأحاديث فقد أوشك المسلمون يومئذ أن يعمهم الله بالفرقة وأن يقطع أمرهم بينهم وأن يتناكروا فلا يعرف بعضهم بعضا ، ولا يرجع آخرهم لأولهم ، ولا يهتدى لاحقهم بسابقهم ، ويومئذ لا تغنى عنهم تلك الدعوة الجوفاء التى يتصايح بها من يزعمون أنهم يدعون إلى الوحدة الإسلامية وهم يسكتون عن هذه المعاول الهدامة التى تنقضُّ متتابعة على أسس هذه الوحدة الإسلامية وتعمل فيها هدما وتخريبا » .

وأنا أقول هذا تحول عظيم جدا وحكيم غاية الحكمة فى رأى الأستاذ على عبد الرازق الذى تعرفته أنا بكتابه «الإسلام وأصول الحكم» داعيا إلى مبدأ فصل الدين عن السياسة ، وقد قرأت قبله ترجمته إلى اللغة التركية وكنت يومئذ فى بلاد اليونان . ولا يقال إن الأستاذ كتب كتابه تأييداً لإلغاء الخلافة لا تأييدا لمبدأ فصل الدين عن السياسة حتى تعد كلمته الأخيرة تحولا عظيما منه فى رأيه ، لأنى أقول إلغاء الخلافة لم يكن عبارة عن نزاع فى لقب الخليفة ممن يتولى عرش الحكم فى تركيا أو غيرها ولم يكن النزاع بين أنصار الخلافة وأعدائها نزاعا لفظيا إلى هذا الحد . بل الخلافة التى هى بمعنى الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عبارةٌ عن التزام أحكام الشرع الإسلامى ممن يتولى الحكم على المسلمين ، لأنه إنما يكون

بهذه الطريق خليفة عن الرسول ، وإلغاء الخلافة الذى هو إلغاء هذا الالتزام لابد من أن يترتب عليه فصل الدين عن الحكومة وعزله من أن يكون ذا سلطة عليها ، وقد حصل هذا الحال فعلا فى تركيا بعد إلغاء الخلافة تخلفها حكومة لادينية . فإما أن يكون الأستاذ مؤلف الكتاب من قبل تأييدا لإلغاء الخلافة ، لم يفهم معنى هذا الإلغاء وهو جد مستبعد، أو يكون قد عاد إليه صوابه بعد بضع عشرة سنة من زمان نشر كتابه، فكتب هذه الكلمة المنشورة فى الأهرام . والرجوع إلى الحق ولو بعد حين فضيلة يشكر عليها .

نعم فى كلمة الرجوع شئ من بقية رأيه السابق وهو قوله : « إن هذا الاتجاه الجديد دون غيره هو الذى يتفق مع ما تقضى به أصول التشريع العامة من أن القوانين لا ينبغى أن تكون موضعا للتغيير والتبديل فى عجلة وسفه ولا فى طفرة ثائرة ولكن فى رفق وأناة وفى تدرج بطئ » .

وعلى كل حال فإنى سعيد بأن أجد فى جل هذه الكلمة ويجدَ القراء معى تأييدا تاما لما كتبته فى هذا الباب الرابع من كتابى ضد مبدأ فصل الدين عن السياسة، وتشديدا على القائلين به لا يقل عن تشديدى ، لا سيما على الذين يستخفون بالفقه الإسلامى ويرونه فى بعد عن دين الإسلام كالأستاذ الإمام المراغى. ثم يزيد فى قيمة التأييد والتشديد صدورهما من أول المثيرين لفتنة فصل الدين عن السياسة بمصر فى ضمن التحبيذ لإلغاء الخلافة وكونهما أى التأييد والتشديد فى أسلوب يقضى على أساس تلك الفتنة ويقضى أيضا على مافى كلمة الأستاذ نفسها من نقطة الضعف التى أشرنا إليها آنفا ودأبى أنا فى كتبى ولله الحمد إعطاء كل ذى حق حقه ، بل إعطاء كل كلمة من ذى حق حقها [1].

* * *

فقد اتضح مما كتبنا إلى هنا أن الإسلام له تشريع مستقل مبنى على نصوص الكتاب والسنة أو استنباط أئمة الفقه المجتهدين منهما . وهذا التشريع الإسلامى المنطوى على

[١] أما كتاب الأستاذ « الإسلام وأصول الحكم » فلى فى نقده كلمة أرجأتها إلى نهاية الجزء .

كل ما نحتاج إليه فردا وأمة ودولة ، نراه موجودا بأيدينا وفى خزائن دور الـكتب التى ورثناها من أسلافنا أثمن من كل كنز أثرى وغير أثرى يوجد فى الدنيا ، وقد عملت به الدول الإسلامية العظمى ، إلى أقرب عهد منا . فوجود هذه الشريعة المباركة الفسيحة الأرجاء التى يعجز عن الإتيان بمثلها بل بعشر معشار مثلها لو أعد له أكبر لجنة من العلماء القانونيين ، من حقه أن يكون أعظم مانع لنا من فصل الدين عن السياسة. إذ بعد ما تبين كون هـذه الشريعة مستندة إلى الأصلين أعنى بهما الـكتاب والسنة — استنادا شهد به حتى شاهدان كبيران من فضلاء المسيحيين — اللذين تلقتهما الأمة الإسلامية من نبيها العربى صلى الله عليه وسلم ، فهنالك شقان من الاحتمال لا ثالث لهما: إما أن يكون هذان الأصلان اللذان تفجّر منهما بحر تلك الشريعة الزاخر ، من صنع النبى نفسه أو يكون من الله سبحانه وتعالى . لـكن الشق الأول لا إمكان له لـكونه صلى الله عليه وسلم أميا ، فتعين كونهما من الله ووجب علينا أن نعض عليهما وعلى الشريعة المتفجرة منهما بالنواجذ، ومنه تبين عدم جواز فصل هذه الشريعة الإلهية العامة لديننا ودنيانا عن سياستنا ، إذ لا يتصور أن يكون الله تعالى أصاب فى ديننا وأخطأ فى دنيانا وسياستنا .

وهذا التدقيق المنطق المتعلق بمسألة عدم جواز فصل الدين عن السياسة ، يسفر عن دليل جليل فى إثبات مسألة النبوة خاص بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ يبعد من رجل أمى أن يكون مصدرا لقوانين الدين والدنيا والآخرة فيستنبطها علماء الإسلام المجتهدون من أقواله المنقسمة إلى الـكتاب والسنة وأفعاله ... يبعد هذا ولا كبعد أن يكون هذا الأمى العربى بز ببلاغة ما أتى به من الـكتاب العربى بلغاء العرب . وهذه الميزة لنبينا أعنى كون الـكتاب والسنة منطويتين على قوانين الدين والدنيا والآخرة معجزة له نختص بمعاينتها نحن المسلمين الأواخر ونُسأل عنها غدا بين يدى الله ، إن لم ندرك ما أدركته الأوائل من عهد تحدى القرآن وعجز العرب ، عصر الذين فهموا

إعجاز القرآن من طريق الذوق [١] . وأئمة الفقه والاجتهاد رضى الله عنهم هم الذين ظهرت هذه المعجزة الأخيرة الباهرة الباقية فى كل عصر بفضل مساعيهم الجبارة المتجلية لأهل البصر من علمى الفقه وأصول الفقه ، فنعم ما فعلوا وبئس ما فعله من أبعد فقه أولئك الأئمة المجتهدين عن الدين وأنكر هذه المعجزة الحاضرة كما أنكر المعجزات الأخرى ـ تقليدا للدكتور هيكل باشا ـ غير القرآن الذى قال عنه إنه مضى عصر الذين أدركوا إعجازه من طريق الذوق .

***

ولنشرع الآن فى درس مسألة هامة فنكشف عن الفرق بين أن يكون القانون موضوعا من تلقاء البشر وبين أن يكون مأخوذا من الوحى الإلهى كما هو عيب التشريع الإسلامى فى نظر أعدائه ومقلدى هؤلاء الأعداء من جهلة المسلمين ، ومزية كل المزية فى نظرنا وفى نفس الأمر ، ونحن نثبت هذه المزية ونبينها بوجوه .

١ — الأول أن كون القانون مستندا إلى الوحى الإلهى يجعله محترما فى نظر المكلفين بمراعاته والوقوف عند حدوده . وأى احترام للقانون يعدل وصفه بالقداسة ؟ وهذا فى حين أنه يكون خضوع الإنسان للقوانين التى هى صنع إنسان مثله ثقيلا على النفوس العزيزة ولو كانت تلك القوانين عادلة ، ولو كان واضعها إنسانا كبيرا . لأن وضع القانون نوع من الحكم بل هو سنام الحكم ، وحكم الإنسان على الإنسان نوع من الاسترقاق والاستعباد ، ولذا قال المتنبى عن نفسه :

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حكما

فأين الأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة « الجامعة » ومناظر الشيخ محمد عبده ،

---

[١] وهذه المعجزة على الرغم من أن الكتاب العصريين الذين ينكرون معجزاته صلى الله عليه وسلم ثم يستخرجون من غير المعجزات معجزات كفتوحات المسلمين فى الصدر الأول ، لا يذكرونها فهى أغرب مما يذكرون وأقرب منه إلى الخوارق ومن أجل ذلك أولى بالذكر .

الذى كان يرى فى أن يكون البشر عباد الله بدلا من أن يكونوا أبناء الله ـ والأول تعبير القرآن والثانى تعبير الإنجيل ـ مساسا بكرامة الإنسان كما سبق فى أوائل الباب الأول من هذا الكتاب ؟ (الجزء الثانى ص٥٢ـ٥٣) فكيف يختار هذا الأستاذ فصل الدين عن السياسة ـ وقد سبق ذلك أيضا ـ وفيه استعباد الإنسان للإنسان ؟ فهل لا يمس هذا بكرامته ويمس بها استعباد الله ؟ فإن كان منشأ هذا التلقى المعكوس هو الإيمان والاعتراف بسلطة الناس على الناس وعدم الإيمان بسلطة الله على الناس، الناشىء من عدم الإيمان بوجود الله ووجود رسله المبلغين عنه ، فإنا كتبنا ما كتبنا فى هذا الباب الرابع المعقود للفصل فى مسألة فصل الدين عن السياسة ، بعد ما فرغنا من إثبات وجود الله ورسله فى الأبواب المتقدمة . ولا كلام لنا فى هذا الباب مع الملاحدة .

وأنا أذكر مثالا فى لزوم وصف القداسة للقانون ، ليكون مطاعا عند ذوى النفوس العزيزة، لما أقيم النكاح المدنى فى تركيا الحديثة مقام النكاح الشرعى بأمر من الحكومة، لم يندر فى كتاب المسلمين بل علمائهم أيضا من قال أجازة لهذا التبديل : لا فرق بين النكاحين إلا أن النكاح الشرعى كان يعقده المأذون الشرعى أو إمام مسجد الحارة أو رجل دينى آخر والنكاح المدنى يعقد فى البلدية وكل منهما ينعقد بالإيجاب والقبول وشهادة الشهود ، فما المانع إذن من هذا التحول ؟ .

لكن الذى ينبغى للمسلم عندى بعد أن رأى عدم الفرق بين النكاحين فى أركان العقد، أن لا يقول ما المانع إذن من هذا التحول؟ بل يقول ما السبب المقتضى إذن للتحول؟ ومن المصادفات التى استغربتها أنى تكلمت فى هذه المسألة مع صديقى المغفور له حافظ نوزاد افندى مفتى كوملجنة لما كنت فى تراكيا الغربية فوجدته على الرغم من مجاهداته المشهورة المشكورة ضد الكماليين فى تلك البلاد ، لا يتعاظم الخطر الكامن فى استبدال النكاح المدنى المحدث فى تركيا بالنكاح الشرعى. قال إن فقهاءنا لا يذكرون فى كتبهم شرطا لصحة النكاح غير الإيجاب والقبول وشهادة شاهدين عليهما . فقلت بعد كلام طويل إن فى النكاح

الشرعى صبغة دينية إن لم يصرح بها عند العقد أو ينبه إليها فلا شك فى كونها معتبرة بين الطرفين، وهى كون هذا القران بين الذكر والأنثى بإذن الله وإباحته فلولم يبحه الله خالقنا إبقاء لنسل البشر وصيانة لعفة الجنسين كان حراما وشق على الأب أن يسلم بنته أوأخته إلى فراش رجل أجنبى فلم يمكن رضاه له إلا لاستناده إلى قانون إلهى . فخطورة الأمر بحالة لا يكفى القانون الموضوع من جانب البشر فى إرضاء أصحاب الغيرة والأنفة لاحتمالها [1] ومن هذه الملاحظة الدقيقة كان العرف بين المسلمين فى النكاح أن يبتدئوا الكلام فى العقد بإذن الله وسنة رسوله وإن كان الفقهاء لم يصرحوا فى كتبهم باشتراط تلك الصيغة وهذه الملاحظة التى ذكرناها ، فى صحة انعقاد النكاح ؛ إذ لم يكن يخطر ببال أحد منهم أن يأتى زمان يرغب فيه المسلمون أن يصبغوا أنكحتهم بصبغة غير شرعية [2] ثم إن النكاح مطلقا مدنيا أو شرعيا لا يمتاز عن السفاح إلا بمراسم تحف

---

[١] عائل لزوم المحافظة فى النكاح على صبغته الدينية لزوم ذكر اسم الله عند ذبح أوصيد ما يؤكل لحمه من الحيوانات ، إذ معناه أن الله تعالى تفضل علينا فأباح قتلها بطريقة مخصوصة لنأكل لحومها فنحن نجترئ على هذا الفعل الخطير مستندين إلى إباحة الله وإلا فأنى يكون من حقنا إراقة دماء محقونة لا يأتينا ضرر أو خطر من أصحابها .

[٢] أقول : ومثل هذا النظر الدقيق الذى يحل شبهة المستخفين بخطر العدول من النكاح الشرعى إلى النكاح المدنى، تنحل به أيضا شبهة المستخفين بخطر استبدال القبعة بالطربوش الذى تعود المسلمون لبسه وامتازوابه عن غيرهم ، ولا يسمع إلى قول المستخفين : «إن الإيمان الذى فى قلب المسلم لايذهب بنوع أو شكل من قماش كما لا يعود بنوع أوشكل آخر منه» ، ما دام غرض المستبدل أو الآمر به التشبه بغير المسلمين أى جعل مشابهتهم هى المقصودة من الاستبدال ، لا تصور فائدة معقولة مترتبة عليه . . وحينئذ ينطبق عليه حديث «من تشبه بقوم فهو منهم» ومعناه من اعتنى بمشابهة قوم وسعى لها فهو يعد منهم ويلتحق بهم التحاقامعنويا على الأقل. ولاشك فى صدق هذا الحديث وصحته حتى ولوفرض عدم صحة ثبوته حديثانبويا، لكون قلب المتشبه بالقوم معهم ومحبته وقفا عليهم . ومن ظل قلبه مع غير المسلمين ومحبته وقفا عليهم فهو يلتحق بهم فى الحكم والمعنى ويخرج عن الإسلام .

ونحن نلفت إلى أننا لا نحكم بهذا الحكم القاسى على المشابه، بل على المتشبه أى المتكلف بالمشابهة والساعى لها . . والفرق بينهما أن المتشبه يعمل للمشابهة ويهدف إليها . أما المشابه فيمكن أن يعمل لفائدة يحصل عليها ويحصل الشبه من غير أن يهدف إليه . . فمن أراد استعمال الشوكة والسكين =

به وترجع إلى الشكل والصيغة، ومع هذا فليس لأحد فى أى أمة أو ملة أن يعد السفاح مباحا كالنكاح ، بحجة عدم الفرق بينهما فى المعنى والمقصد، وهو اقتران الرجل بالمرأة . فإذن كما أن النكاح الممتاز عن السفاح بالصيغة والشكل يكون حلالا ولا يحل السفاح، يمتاز النكاح الشرعى بصيغته عن النكاح المدنى فيحل فى نظر الشرع ولا يحل النكاح المدنى .

ثم قلت: فإذا لم يكن أدنى فرق فعلى بين النكاحين الشرعى والمدنى غير صيغة الأول وصفته الشرعية فلا يكرهه من يكرهه ويتحول عنه إلى النكاح الخالى من هذه الصيغة ، إلا لكراهة هذه الصيغة الشرعية وهو كفر وارتداد يقع فيه من يعقد نكاحه ملتزما لتجريده من صيغته الشرعية [١] فلا يصح نكاح من أعرض عن النكاح الشرعى مستبدلا به النكاح المدنى ، لرجوع أمره إلى نكاح المرتد .

فلما قلت ذلك اقتنع صديقى المرحوم بالخطر العظيم الذى فى النكاح المدنى المرجوع إليه من النكاح الشرعى ، واقتنع بكون هذا النكاح سفاحا رغم عدم الفرق بين النكاحين فى استجماع أركان العقد . لأن العدول من النكاح الشرعى لا لسبب من الأسباب ولا لوجود الفرق بينه وبين النكاح المدنى فى المعنى، بل كراهةً لاسم الشرع وتعمدا لأن

ـــ فى أ كله دون الاكتفاء بأصابعه طلبا للنظافة أو السهولة أو الترف فإنما يهدف إلى أحد هذه الأمور لا مشابهة قوم ابتدعوا استعمال هذه الأدوات . ولابس القبعة من المسلمين فى بلاد الإسلام من غير أن تكون له فى لبسها فائدة تذكر ، إنما يهدف إلى التشبه بغير المسلم فيكفر ، ونحن لا نظلمه إذا حكمنا عليه بالخروج عن الإسلام ، وإنما نحكم عليه بما يريده هو ويسعى أن يكون .

[١] وقد صرح المدعو عبيد الله الذى كان نائب « آيدين » فى البرلمان العثمانى حين كنت فيه نائب « توقاد » وكان الرجل فى دينه وسياسته وزيه كالحرباء . ثم عين فى زمن الكماليين الذين ابتدعوا النكاح المدنى فى تركيا عاقد ذلك النكاح ؛ صرح فى خطبته التى ألقاها مقدمة لأول نكاح عقده ، بأن السماء لا تتدخل بمعاملات تجرى فى الأرض . فباح بما قصدته الحكومة من تغيير اسم النكاح الشرعى وكفر هو وحكومته بهذا التصريح الذى قرأته فى جرائد تركيا إن لم يكفرا قبل ذلك .

يكون نكاحا غير شرعى ، يوجب البتة ارتداد العادل وكونَ نكاحه سفاحا [١] .

٢ — الوجه الثانى لا كلام فى احتياج كل مجتمع بشرى يريد أن يعيش عيشة مدنية، إلى حكومة وقوانين يطيعها الناس وهى تصونهم عن الفوضى وتقف كلَّ أحد عند حده. ولا كلام أيضا فى لزوم أن يكون جميع الناس سواء أمام القانون فلا يكون فى استطاعة بعضهم أن يُميل القانون إلى جانب مصلحته على حساب بعض . فإذا كانت القوانين من موضوعات الإنسان الذى يجب أن يكون تحت طاعة القانون عند تطبيقه، يكون القانون تحت طاعته عند وضعه . وهذه وصمة لا تصفوا منها القوانين الموضوعة من قبل البشر ومنقصة تفتح الباب لما يقال عنه التلاعب بالقانون . وليس التلاعب بالقانون خاصا بإهماله أو تطبيقه على مالا ينطبق عليه ، فقد يكون القانون ملعبةً فى أول وضعه إذا لم يكن للواضعين قيود يتقيدون بها وحدود يقفون عندها [٢] ولا يجوز أن يكونوا هم أنفسهم واضعى تلك القيود أيضا كالقوانين الأساسية (الدساتير) التى يضعها الناس ثم يكونون مقيدين بها عند وضع القوانين العادية . . لا يجوز أن يكون الأمر كذلك لئلا يلزم التسلسل فى مهمة التقيد بالقانون عند وضع القانون أولا يلزم كون القانون المفروض أن يطيعه الناس، تابعا للناس. ومعنى هذا أن القيود الموضوعة من قبل الناس ليكون الناس

[١] والنكاح المدنى بالنظر إلى عدم اختلافة عن النكاح الشرعى نكاح مدنى وشرعى معا كما أن النكاح الشرعى شرعى ومدنى معا لا محجى، لكن ملاحدة الترك ألقوا بين اللفظين خصومة وتضادا وجعلوا النكاح الشرعى غير مدنى والمدنى غير شرعى فألزمناهم بأنعالهم .

[٢] وقد حدث فى تركيا الجمهورية أن وضعوا قانونا سموه « قانون الخيانة الوطنية » وكان واضعوه قد تعدوا حدود وضع القانون فى بلاد تدعى لشعبها الحرية ، حتى أخطأ نقيب المحامين يومئذ أعنى لطفى فكرى بك فى فهم معنى هذا القانون وفعل ما يخالفه فسيق إلى المحكمة وكان النائب العام يتجرمه على موجب القانون المذكور فاعترض عليه النقيب المتهم قائلا : « فأين يبقى حرية القول وحرية النقد » فأجاب النائب بأن الحرية محترمة فى حدود القانون وكان النائب مصيبا فى اتهامه لأن مبدأ حرية القول كان ملغى فى تركيا الجمهورية بذلك القانون وإنما نقيب المحامين أخطأ فى مغزاه وإن كان الحق معه فى نفس الأمر إلا أن القانون الظالم كان قد ألغى أيضا الحق المبنى على نفس الأمر فى تركيا، ولذا أصبح الحق القانونى مع النائب العام !

مقيدين بها عند وضع القوانين وتكون تلك القيود حدود الواضعين وقانونهم الأعلى الذى يجب على كل قانون أن لا يتعارض به ولا يخرج عليه ؛ لا تكفل بهذه المهمة ، إذ من الممكن دائماً حدوث أهواء جديدة تتغلب على الإنسان فتجعله يمحو ما أثبته ويثبت ما محاه ، فلا يمكن أن يحصل الإنسان على قانون من عنده يكتب له الأبد ليحترس به مبادىء الإنسانية العليا ، أولا يكونُ له مبدأ إنسانى أعلى .

الحاصل أن الإنسان إن لم يكن فى حاجة إلى ما يزعمه من القوانين فلماذا يكون فى كل أمة من يتولى وضع قوانين يطالب الناس باتباعها فيما يشاءون من الأفعال ؟ وإن كان الإنسان فى حاجة إلى القوانين فلماذا لا يكون هناك قوانين يجب على واضعى القوانين أن يتبعوها عند وضعها ؟ أليس واضعو القوانين للناس من الناس ؟ .

وقد لفت أنا النظر إلى هذه النقطة الدقيقة لما كنت نائبا فى البرلمان العثمانى الأول المنعقد بعد إعلان الدستور ، فى خطبة ألقيتها نقدا لمشروع تعديل المادة الخامسة والثلاثين من الدستور . لفت إليها وقلت ما معناه هل الإنسان يخضع للقانون أم القانون يخضع للإنسان ؟ وهل لا يجب أن يكون فوق أناس يضعون القوانين للناس قوانين يتقيدون بها عند وضع القوانين إن كان من المسلم به افتقار الإنسان إلى قوانين لا يتعدى حدودها

ولنذكر مثالا ثانيا وهو أن القانون المصرى يمنع الكلام ضد رؤساء الحكومات على الرغم من عدم وجود ما يمنع أولئك الرؤساء من الكلام ضد مقدسات الأمم، وكان مصطفى كمال رئيس الجمهورية التركية يعتدى على دين الإسلام ويشتمه الفينة بعد الفينة ويسرف فى شتمه، فأثارت هذه الحالة حفيظة الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة « الفتح » الإسلامية وكتب عن مصطفى كمال أنه سكران ، فحكمت عليه محكمة مصر بالعقوبة عملا بالقانون الذى يحمى رؤساء الحكومة عن الشتم ، وإن كانوا هم أنفسهم يشتمون الإسلام الذى هو دين دولة مصر وأمتها ودين مئات مليون من الناس ، وإن كان مصطفى كمال سكران فى الحقيقة وكان السكر غير معدود عنده من المعائب .

كانت مصر مقلدة فى قبول ذلك القانون للغرب الذى نظر إلى كون رؤساء الحكومات فى العادة يترفعون عن المخاصمات الدينية والمجادلات السياسية ولم تنظر مصر ولا قضاتها إلى كون مصطفى كمال منغمسا فى الاشتغال بتلك المخاصمات والمجادلات .

فى أفعاله ؟ ألم يكن واضع القانون من البشر بشرا مفتقرا إلى وقفه عند حده ؟ وكان لفتى إلى هذه الدقيقة الهامة فى صدد التنبيه على أن أفضل القوانين الأساسية (الدساتير) مالا يكون وضعه أو تعديله من حق البشر بأن يكون سماويا ، وأفضلها بعدهما هو أشبه به فى العناية بصونه عن التغيير والتعديل حتى كأن تعديله فوق متناول البشر . وكانت خطبتى تلك استغرقت يومين[1] .

هذا هو الوجه الثانى من وجوه امتياز القانون المأخوذ من الوحى الإلهى على القوانين الموضوعة من عند البشر . وهو خاص بالقوانين الأساسية ، أما الوجه الأول والوجه الآتى فهما عامان لجميع القوانين ، والمفهوم من هذا أن وجوب كون القانون مستندا إلى الوحى الإلهى أشد وآكد فى القوانين الأساسية .

الوجه الثالث أنا قد قلنا فيما سبق إن الإسلام جنسية . والآن أقول إنه جنسية فوق

---

[١] كان السلطان عبد الحميد أعلن الدستور فى أول عهده وفتح البرلمان العثمانى ولما كان ذلك الدستور يخول السلطان حل البرلمان متى شاء ، حله بعد سنتين وعطل الدستور ٣٣ سنة . ثم أعلنه مرة ثانية فى سنة ١٩٠٨ وكان حزب الاتحاد والترقى الذى تزعم الساعين لإلجاء السلطان إلى إعادة الدستور وجد أيضا فى طليعة الساعين فى البرلمان المنعقد فى هذه المرة لتعديل المادة القديمة من الدستور الناصة على مسألة حل البرلمان ، ووضعه فى قالب آخر يحول دون التلاعب بهامن جانب السلطان وحكومته بسهولة ، وكنت أنا بين النواب الواضعين للمادة الجديدة وكان رجال الحزب المذكور يومئذ فى خارج الحكومة وفى غير مأمن من نوايا السلطان . فلما تولوا الحكومة وتغلبوا على السلطان محمد رشاد أرادوا إضعاف البرلمان من جديد وإعادة القوة منه إلى السلطان الضعيف الخاضع لإرادتهم ليستعملوها كقوتهم أنفسهم ويحلوا البرلمان الذى أخذ النواب المعارضون يزداد عددهم فيه على مر الأيام حتى يجرى الانتخاب العام الثانى قبل أن ينفلت الحكم من أيدى رجال الحزب .

فلهذه الأسباب والمقاصد حاولوا أن ينقضوا فى السنة الأخيرة من سنى البرلمان الأربع ما وضعوه فى السنة الأولى من مادة الدستور الجديدة المتعلقة بمسألة حل البرلمان ، وإنى أوردت كلمتى الطويلة ضد محاولتهم هذه . وكنت رفعت عقيرتى فى الجواب على تظاهرهم برد حقوق السلطان المجحفة فى الدستور الجديد إلى أصلها ، قائلا إن حقوق السلطان المنصوص عليها فى الدستور غير محتاجة إلى التزييد وإنما هى محتاجة إلى التخليص .

الجنسيات ، ذلك أن أفضل الجنسيات ما يكون سببا لتأسيس الوجدان المشترك بين أفراد الجنس ، إذ بهذا الاشتراك فقط يحصل بينهم الاتحاد الحقيق الذى هو الاتحاد الفكرى. ومن هذا لم يفضل عليه الاتحاد القومى، لعدم كفايته فى تأسيس الوجدان المشترك ولعدم قابليته للتوسع السريع، فكان الاتحاد فى المذهب السياسى أو الاجتماعى أقوى منه. ويؤيده أن الرجل تراه ينحاز إلى جانب زملائه فى الحزب السياسى والاجتماعى أكثر من انحيازه إلى إخوانه القوميين .

والجنسية المعتنى بها اليوم عند الأمم المتمدنة هى الجنسية الوطنية المفسرة بالاجتماع تحت قوانين مشتركة والاستفادة من حقوق متساوية ، ولو كان المجتمعون تركبوا من أقوام مختلفة . فلا عبرة بالاختلاف القومى أمام الاشتراك فى القانون الذى هو معنى الوطنية . وهذا القانون وإن كان المعتاد بل الملتزم عند الأمم المتمدنة العصرية أن يسنها المواطنون أنفسهم فى برلمانهم ، لكن الحصول على توحيد القلوب بهذا القانون غير مضمون كالحصول عليه بالقانون المأخوذ من الدين . بل الحصول على العدالة أيضا غير مضمون بالقوانين الموضوعة من عند البشر وإن كان واضعها نفس الأمة التى تطبق عليها، لأن تلك القوانين لا تسن مطلقا بإجماع آراء الأمة وإنما تسن بأكثر الآراء النسبى ، فيكفيه أن يكون زائدا على النصف ولو بواحد . وليس بمضمون ولا لازم أن يكون رأى هذا الأكثر حقا بل يفضل خطأ الأكثر على صواب الأقل كما هو المعروف فى الأسلوب البرلمانى، فتكون العبرة بعدد الآراء لا بقوتها واصالتها . وليس بمضمون أيضا أن يكون هذا القدر من الكثرة حقيقيا فهو صنعى على الأكثر ، لأن النواب المجتمعين فى البرلمان تدخل الشبهة فى صحة نيابتهم عن الأمة بدخول أنواع الحيل فى انتخاباتهم . وكل شىء فى الأساليب المأخوذة من الغرب شكلى واعتبارى لا حقيقى ، فيقال مثلا إن فى البلاد حرية لاسيما حرية القول والنقد وهى محترمة غاية الاحترام ثم يقال لكنها حرية مقيدة بالقانون والقانون تضعه الحكومة مع الحزب الذى تستند إليه فى البرلمان فتكون حرية

على حسب أهوائهما وتكون مضايقة للذين تحاولان مضايقتهم .

ولا خلاف بين العقلاء أن أفضل حكم فى البلاد وأعدله ما يكون حاكمه القانون لا الفرد كما فى الحكومات المطلقة ولا طائفة من الأفراد كما فى الحكومات الدستورية التى لا يكون الحكم فيها إلا بتغلب بعض الأمة على بعض ، ومعنى هذا أن تلك البلاد مهما يُعنى بكون الحاكم فيها القانون بأن تراعى أحكامه بدقة وبدون أدنى محاباة وتحيز، فلا جرم أن القوانين الموضوعة من قبل الناس إن لم يكن تحيز فى تطبيقها فلا بد أن يكون فى وضعها وتقنينها ، ولا كذلك القوانين المستندة إلى الوحى الإلهى كما يقول المثل الفرنسى . Chacun pour soi dieu pour tous

ومن هذا لا تخلو البرلمانات من الميمنة والميسرة ويكون الحكم لمن غلب، وكثيرا ما يكون الفقراء بل متوسطو الحال أيضا تحت حكم الأغنياء لا تحت رحمتهم فيبخلون عليهم حتى بالتعلم . ولهذا كان طلب العلم فى مدارس الحكومة بمصر خاصا بأولاد الأغنياء لعجز غيرهم عن تأدية المصروفات المدرسية الغالية وهم يعلمون أن احتكار العلم من لوازم احتكار الحكم ولا يخفى أن الأغنياء قلة فى كل أمة فيكون الحاكم هو القلة فى حين أن المفروض كون الحاكم فى الديمقراطيات الكثرة [1] .

فظهر أن الحكم الجمهورى والديمقراطى الذى يعتبر أكفل أشكال الحكم لإرضاء

---

[١] ولا يقال ان حكومة مصر كانت تمنح المجانية للتلامذة المتفوقين فى الامتحانات تفوقا ممتازا وللذين يدانيهم فى التفوق حق طلب المجانية على أن يكون الخيار للحكومة فى قبول الطلب فيستفيد الفقراء من هذه المنحة . لأنى أقول الطلاب المتفوقون قلة ضئيلة وكثرة المتعلمين إنما تتألف من متوسطى الحال المكلفين بدفع للصاريف المدرسية فتكون كثرة التعلم فى الأغنياء الذين هم القلة وتكون قلة التعلم فى الفقراء الذين هم الكثرة .

على أن منحة المجانية للمتفوقين ليست منحة خاصة بأولاد الفقراء بل يزاحمهم فيها الطلاب المتفوقون من أولاد الأغنياء الذين هم قلة فى كثرة الطلاب حين كان المتفوقون من أولاد الفقراء قلة فى قلة. وزيادة على هذا فإن منحة المجانية للمتفوقين من الدرجة الثانية الذين لهم حق طلب المجانية والحكومة الخيار فى قبوله ، تعمل فيها المحسوبية النافقة فى مصر فعلها فيكون الفوز فيها أيضا لأولاد الأغنياء .

الشعوب لا يكفل توحيد أكثر القلوب فضلا عن جميعها ولا يخلو عن محاباة بعض وضرار بعض [1] وقد أخذ به الغربيون لعدم وجود القانون الإلهى عندهم بسبب عدم وجود علم الفقه المستنبط من كتابهم وسنة نبيهم ولا أصول الفقه، ولو وجد لأخذوا به وآثروه طبعا على القوانين البشرية ومن ذا الذى لا يؤثر القانون الموضوع من قبل الله على ماهو صنع الإنسان الظلوم الجهول، إلا أن يكون غير معتقد لدينه «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» ، ولم يقل كتاب الله هذا القول لمجرد التشديد فيمن لم يحكم بما أنزل الله وإنما قاله تبيانا لحقيقة قد تخفى على بعض الناس [2] .

ثم لاشك فى أن من الشروط الأساسية لسعادة الأمم بعد أن تكون قوانين حكومتها قوانين عادلة تراعى حقوق جميع الأفراد والطبقات ، أن تراعى العدالة فى تطبيق تلك القوانين كما روعيت فى وضعها . لكن الحكومة العاملة بالقوانين الشرعية الإلهية

---

[١] فإن قيل أليس فى القوانين الشرعية اختلاف بين أهل المذاهب كالحنفية والمالكية والشافعية . أقول لم يكن أصحاب المذاهب كالأحزاب فى التحيز لمن ينتمى إليهم وإنما اختلافهم فى فهم معانى الكتاب والسنة واستنباط الأحكام منهما . ولا يكون استنباط الأحناف مثلا فى مصلحة أنفسهم دون غيرهم ، فإذا كان الحكم المستنبط شديدا فى مذهبهم يقاسى شدته الحنفى والشافعى معا، وإن كان خفيفا يخف عليهما معا ولا يقاس هذا على القوانين التى تسن فى غير مصلحة الفقراء مثلا إذا سنها الأغنياء، وفى غير مصلحة الأغنياء إذا سنها الفقراء .

[٢] فلو قدره المسلمون قدره — وهو ميزان قدرهم قدر إسلامهم — لتعارفت قلوبهم وتوحدت كلمتهم وكانت لهم جنسية فوق الجنسيات المعروفة لا تحد بحدود الدول بل تعم الأمم الإسلامية كلهم وإن تباعدت بلادهم واختلفت حكوماتهم ، فما دامت وحدة القوانين التى تقوم عليها الجنسية الوطنية محفوظة فيما بينهم تكون تلك البلاد المتنائية كأنه وطن مشترك وسكانها أمة واحدة من جنس واحد.

وليس لأى بلاد مختلفة تخضع لقوانين بشرية أن تتفق آراء أبنائها فيتخذوا لهم قوانين مشتركة وتحصل لهم جنسية واحدة ، وكيف يتسنى لها ذلك الاتفاق الذى لا يتسنى لآراء أهل وطن واحد ؟ ولا ينتقض قولنا هذا بتركيا الحديثة التى اتخذت قوانين سويسرا قانونا لها الآن تركيا التى وضعت نفسها موضع المقلد الأعمى لم تتخذ تلك القوانين قانونا لها بما الستة آراء عقلائها وإنما كان ذلك لعبة لعبها مصطفى كمال بأمة الترك استهانة بهم كما لعب ألعابه الأخرى .

تكون هى التى تراعى العدالة فى تطبيق القوانين أيضا والتى ترى نفسها تحت مراقبة وازع من مخافة الله ، لا الحكومة التى لا تؤمن بالله ولا بقوانينه ، ولذا قال « كلفين » المصلح المسيحى الشهير : « الملك الذى لا ينشد مجد الله فليس بالذى يقيم مملكة وإنما يقيم لصوصية » .

نعم ، سبق فى تاريخ الإسلام قضاة العدل وقضاة الجور وورد : « قاضيان فى النار وقاض فى الجنة » وتناقلت الألسن حكايات القضاة المرتشين حتى اتخذ منها أعداء الإسلام من الأجانب والمسلمين المتفرنجين دعاية مستمرة ضد المحاكم الشرعية ، إلا أن تلك المحاكم وقضاتها الشرعيين المفروض كونهم مؤمنين بالله وبقوانينه المنزلة لا يمكن أن يميلوا عن الحق أكثر من المحاكم غير الشرعية وقضاتها غير المربوطة رؤوسهم بحكومة الله ، ولقد صدق المعرى فى قوله :

وما الناس إلا خائفو الله وحده إذا وقع النمى فى كف ناقد

فهذه الحكومة الإلهية التى لا تقاس بالحكومة الإلهية المصطنعة من جانب ملوك النصارى لأنفسهم أو كنائسهم ، وهذه القوانين الإلهية الحقيقية المأخوذة من الكتاب والسنة مباشرة أو استنباطا والتى لا يجدها غيرنا ، موجودة عندنا نحن المسلمين ، لكن الذين ورثوا الإسلام من آبائهم وجهلوا قوانينه ، يعادونها عداوة المرء لما جهل ويرغبون فيما عند المعدمين ، وقد استفزهم ماسن « ويلسون » رئيس الجمهورية الأمريكية السابق من النظام العالى بعد الحرب الماضية ، فوضع الأمم التابعة للقوانين السماوية تحت انتداب الدول الانجليزية والفرنسية العاملة بالقوانين الأرضية ، فكأنه أراد أن يجعل الأرض سماء والسماء أرضا ، استفزهم استفزازا مقلوبا لا يجدر بكرامة الاسلام ورجولته ، فاتخذه مصطفى كمال شر ذريعة لإجلاء الإسلام عن تركيا المجاهدة فى سبيله ستة قرون بل عشرة ، وكفى هذا التنازل المزرى فى إرضاء أعداء الإسلام وأعداء تركيا القديمة — وعلى رأسهم الإنجليز — عن تركيا الحديثة فأحبوها رغم أنها حاربتهم فى الحرب العامة الأولى مع المحاربين واكتسبت هى استقلالا جديدا بزوال استقلال الإسلام عن

رأسها . ولا بد أن يرى قومى الترك يوما قريبا أو بعيدا شؤم هذا المكسب على حساب الإسلام ويرى معهم المساومون فى هذا البيع الملعون [٤] وأرى أنا إن شاء الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا .

---

[٤] فإذا استثنينا أدوار غلبة الدولة العثمانية على الدول الأوربية الصليبية فهى قد عاشت بعد أدوارها المذكورة قرونا يتألب عليها ضغط تلك الدول لتتجرد عن صبغتها الإسلامية فلا تحكم فى بلادها حكما مبنيا على قواعد الشرع، وإن شئت نقل فتفصل الدين عن سياستها، فأبت الضيم على ضعفها واستمرار ضعفها فى ازدياد من توالى المحاربات مع أعداء الإسلام العديدة إلى أن ماتت فى نتيجة الحرب الماضية وهى مسلمة ، بيد مصطفى كمال صنيعة الدولة الصليبية التى هى صاحبة الكلمة فى معاهدة « لوزان » ميتة تقوم مقام النصر إن فاتها النصر ، كما قال « دجوفارا » من وزراء رومانيا ومن المؤرخين فى كتاب ألفه عقب تلك الحرب وسماه « مائة مشروع تقسيم لتركيا » عدد فيه هذه المشروعات الواقعة فى التاريخ من جانب الدول الصليبية ونقل عنه الأمير شكيب أرسلان مباحث كثيرة فى تعليقاته على « حاضر العالم الإسلامى » . قال هذا الوزير المؤرخ بعد كلام طويل ص ٣٢٦ : الجزء الثالث « ثم إن احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة كانا من مزايا العثمانيين يدور عليهما التاريخ العثمانى كله » ثم قال « فإن كان الشعب التركى الآن قد غلب فإنه قد فقد كل شئ إلا الشرف » أقول وكان شرفه فى إسلامه ! .

ثم إن هذا القول من الوزير الرومانى كان قبل قيام مصطفى كمال فى الأناضول بأمر سرى من السلطان الذى كان مرسله إليها مفتشا عاما للجيش مع تلك الوظيفة السرية وانتهى أمره فى مدة أربع سنين إلى إخراج جيش اليونان من أزمير التى كان احتلها بموافقة الدول الغالبة وإخراج السلطان من بلاده فظهرت النتيجة كما قال أحد الإنجليز : « إن السلطان حاول أن يكايد الإنجليز بمصطفى كمال فكاده الإنكليز به » ولم يقتصر كيدا لرجل على السلطان بل كاد الترك أيضا فجعلهم أمة ممسوخة مفصولة الدين عن الدولة وجعل لهم الغلبة فى غد الحرب لا على اليونان فقط بل على حلفائها العظمى أيضا ، الغلبة الرائقة السابقة لأوانها الذى لم يأن فى تقدير الألمان الذين هم كانوا أقوى من الترك إلا بعد بضعة وعشرين عاما من الحرب التى غلبوا فيها مع الترك والبلغار والنمساء، واستمر كيد الإنجليز الترك بواسطة مصطفى كمال حتى أضلهم فى الحرب العامة الثانية عن حليفتهم القديمة التى ظهرت جدارتها بالمحالفة فى هذه الحرب أكثر منها فى الحرب الأولى، فلو حالفوها فى الثانية لاحتمل قويا تغير الوضع العالمى الذى نراه اليوم.

وقال دجوفارا أيضا فى كتابه بعد إحصاء مائة مشروع : « هذه كانت فى مدة ستة قرون، مساعى المسيحيين ومحاولتهم نحو السلطنة العثمانية التى كانت من أعظم الممالك التى عرفها تاريخ البشرية » وقال: « كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضة مستندة على شرع سماوى » وقال: « العداوة =

فى الله من كل ما ضيعتَه خلف　　　وليس لله ان ضيعت من خلف

ماذا كان دافع الرئيس ويلسون إلى إدخال ذلك المبدأ المضر المزرى بالأمم الإسلامية فى النظام العالمى ؟ فهل كان جاهلا لحد أن يتوهم كون غير المسلمين المتوطنين فى بلاد

= الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين فى الدين والحرية الدينية التى كان يتمتع بها المسيحيون فى السلطنة العثمانية » وقال : « مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية » أقول فواجب الإنصاف على الذين يستخفون بهذه الدولة بعد زوالها أن يفكروا فيما لو كان مكان هذه الدولة غيرها مستهدفا لأعداء الإسلام من كل جانب لما دامت بنصف مدة دوامها. ولو كانت هذه الدولة الأنقروية التى تخلفها والتى تحبها اليوم أعداء الدولة العثمانية لكونها فعلت بها ما لم يستطع الأعداء أن يفعلوه من الخارج ، لما دامت بنصف النصف من تلك المدة .

وقال الأمير شكيب عن أقوال دجوفارا فى الثناء على معاملات الدولة العثمانية مع رعيتها المسيحيين وحمل تبعة العداوة بينها وبين الشعوب المسيحية على تلك الشعوب : « بقى علينا أن نترجم خلاصة هذا الكتاب تأليف دجوفارا الرومانى مؤثرين منقولنا على مقولنا لأنها شهادة رجل أجنبى عنا بل رجل سياسى مسيحى بلقانى كانت الأمة التى ينتمى إليها، من جملة الأمم التى تحررت من حكم تركيا » .

وقال الأمير شكيب أيضا عن المؤلف دجوفارا : « ثم ذكر فى خلاصة كتابه أن أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها فى إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للأمم المسيحية التى كانت خاضعة لها، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القومية وتتماسك وتنهض وتتآلا وتسير سيراً قاصداً فى طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية . وسواء كان هذا المؤلف قد أعلن هذه الحقيقة أم لم يعلنها فإنها الحقيقة التى لا شائبة فيها. ولذلك نجد ملاحدة أنقرة يجعلون من جملة حججهم فى التفصى من الشريعة الإسلامية قولهم إنه لولا مراعاة هذه الشريعة لكانت السلطنة التركية بقيت على عظمتها الأولى ولم يطرأ عليها هذه المصائب التى لزمتها مدة قرون بسبب وجود الثلث من سكانها وربما أكثر من الثلث مسيحيين وبأن الشريعة كانت تمنع السلاطين من إجبارهم على الدخول فى الإسلام أو الجلاء » .

أقول : ولئن كان حقا ما قاله ملاحدة الترك من كون تمسك الدولة العثمانية بالإسلام وجهادها فى سبيله جر عليها عداوة نصارى الدنيا وجرت هذه العداوة مصائب جمة لم تنته إلا بانتهاء الدولة ، لكن رقى هذه الدولة إلى أوج عظمتها ثم بقاءها هذه المدة الطويلة فى جهاد متوال لأعداء الإسلام منقطعة النظير بين الدول الإسلامية فى طول بقائها وكثرة أعدائها بل واتساع ملكها ، نعمة =

الإسلام لا يأمنون جور القوانين الشرعية عليهم كما يأمنون جور القوانين المسنونة فى البرلمان الذى يشترك فيه المسلم وغير المسلم ؟ مع أن المسلمين الذين لابد أن تكون الأكثرية عندهم فى تلك البلاد يستطيعون التغلب فى البرلمان على غيرهم متى شاءوا ذلك منصفين أو جائرين ولا يستطيعون الجور إذا عملوا بقوانين الشريعة الإسلامية .

= من نعم الإسلام على هذه الدولة ومعجزة من معجزات الجهاد فى سبيله لا يقدر على إنساء تلك النعمة وتلك المعجزة من تمادى فى معاداة العثمانيين حتى بعد انقضاء عهدهم، من ملاحدة أنقرة وغيرهم .

فقد يخرج فى مصر التى لم تأل الإنكليز جهداً فى نشر الدعاية بين أبنائها ضد الدولة العثمانية ، حتى دخلت تلك الدعاية المعادية فى كتب المدارس الحكومية وحتى كتب الأستاذ محمد عبد الله عنان قبل بضع سنين مقالة فى مجلة « الرسالة » يقول فيها : « لم يعتز الإسلام بالترك لا فى حالتها الحاضرة ولا يوم كانت دولة شامخة » ؛ يخرج رئيس الحزب الوطنى محمد فريد بك رحمه الله يكتب تاريخ الدولة العثمانية ويقول فى أول كتابه :

« وبعد فقد مضى على الشرق أجيال طوال رأى فيها أهلوه من أهوال الأحوال ما تشيب له الأطفال وتندك من وقعه عزائم الرجال بل شوامخ الجبال وما كان ذلك إلا بعد أن انفرط عقد بنيه وتناثر نظام أهليه وتشاغل كل بنفسه عن أخيه وذويه فأغار الدهر بخيله ورجله على الشرق ودولة وقلب لأبنائه ظهر المجن وقلبهم بين الإحن والمحن فتناسوا ما كان لهم من فخامة الاقتدار وجلالة الحضارة وضخامة العمران وأصالة الإمارة وانغمسوا فى بحار الكسل والخمول ذاهلين واستكانوا إلى المذلة والهوان صاغرين حتى باتوا وأصبحوا وهم على شفا جرف هار وقد أوشكوا أن يقضى عليهم بالدمار والاندثار ويكونوا عبرة لأولى البصائر والأبصار .

« لكن العناية الصمدانية تداركتهم بلم الشعث ورم الرث ورتق الفتق ورقع الخرق فأضاءت الأفق الإسلامى بظهور النور العثمانى وأمدته بالنصر اللدنى والعون الربانى فقامت الدولة العلية بحياطة هذا الدين وحماية الشرقيين ودعت إلى الخير وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر فكانت من المفلحين ثم وقفت فى طريق أوربا حاجزاً منيعا وسوراً حصينا وحالت دون أطماعها وألزمتها بكف غاراتها بأنواعها ثم اهتمت بالإصلاح وسعت فى تأييد النظام فصار بها بين الدول المقام الأول والرأى الراجح والقول النافذ فكانت لا يضاهيها دولة من الدول بما أحرزته من الأملاك الواسعة فى قارة أوروبا وآسيا وأفريقية ونالت من العزة والتوفيق ما يجدر بكل شرقى أن يتذكره الآن لتستفزه عوامل الغيرة ودواعى النشاط إلى بذل نفسه ونفيسه فى سبيل تقويتها وتعزيز رايتها وتأييد كلمتها لما كان ولا يزال

وأنا لاأنسى ما وقع فى البرلمان العثمانى وكنت يومئذ نائب « توقاد » وقد استمر بين الأروام والبلغار العثمانيين نزاع على الكنائس الموجودة فى « مكدونيا » التى كانت فى ذلك الحين من أجزاء البلاد العثمانية ، وكل من الفريقين يدعى الاستحقاق لتلك الكنائس فساقت الحكومة المسألة إلى مجلس النواب ليفصل بينهما فصعد آريستيدى باشا الرومى نائب أزمير منبر الخطابة وهو يعلم أن حزب الاتحاد والترقى المستولى على الوزارة والبرلمان يميل إلى جانب البلغار لكونهم كثرة فى مكدونيا بالنسبة إلى الأروام

= لها من الحسنات الحسان على كافة بنى الإنسان من غير نظر إلى الأجناس والمذاهب والأديان مما لايراه الباحث فى أى دولة غيرها قديما أو حديثا بل نرى عكس ذلك ونقيضه فى الدول ذات الدعاوى الطويلة العريضة التى تتقول بأنها عماد المدنية والإنسانية وهى مع ذلك تصدر أوامرها الرسمية بارتكاب الفظائع والبشائع التى لايكاد يصدقها السامع مما تمسك اليراع عن تعداده فى هذا المقام لعدم دخوله فى موضوع الكتاب لاسيما وأن التلغرافات والجرائد تتوارد علينا كل يوم ببيان هذه الأنباء الشنيعة. وذلك بخلاف الدولة العلية فإن جميع الناس تعيش فيها بغاية الحرية والسلام وكل المطرودين من الدول الأوروبية يفدون إلى أراضيها فيرتعون فى بحبوحة الراحة والهناء آمنين على أنفسهم وأعراضهم وعروضهم، وقد أصبحت الآن ملجأ وحيدا لكل من تلفظه الدول الأخرى من أبناء الإنسان فماذا يكون حظ هؤلاء المذكورين إذا جارتهن فى هذا المضمار وناظرتهن فى هذا الفعال ؟

«هذه حسنة من أقل حسناتها يحق للعثمانى مهما كان جنسه ودينه أن يفاخر بها ويذكرها فى كل فرصة وفى كل حين وفى ذلك أكبر داع وأعظم باعث إلى الوقوف على تفاصيل تاريخها.. الخ »

فعلى قول هذا المؤلف المؤرخ المصرى أعنى محمد فريد بك الذى لاشك فى أنه — بصفة كونه زعيم الحزب الوطنى على الأقل — يمثل مصر أصدق تمثيل من الأستاذ محمد عبد الله عنان كاتب المقالة فى مجلة «الرسالة» مدعيا لعدم اعتزاز الإسلام بالترك يوماً من الأيام...على قول هذا المؤلف المرحوم أن الدولة العثمانية المرحومة ، فضلا عن أنه لو لم تكن حمايتها للاسلام ووقوفها طول حياتها فى وجه أعدائه لعاد الإسلام غريبا قبل ستة قرون من غربته الحاضرة الظاهرة للعيون ، عم نفع هذه الدولة وحمايتها لغرباء آخرين من بنى الإنسان المختلفى الأجناس والأديان .

أما المغفور له مصطفى كامل باشا زعيم الحزب الوطنى المصرى قبل محمد فريد بك فمعاداة الدولة العثمانية على قوله تتضمن معاداة الإسلام ومعاداة مصر وتنشأ من مشايعة الإنكليز عدوة الثلاثة المذكورة جميعاً ، يشهد به كتابه المسمى « المسألة الشرقية » من أوله إلى آخره .

وكون نوابهم من مساعدى الحزب فى البرلمان ، وهذا على الرغم من أن الكنائس المذكورة من وقف الأروام ، فقال : « إن لهذه الدولة دار الفتوى تفصل فى المسائل المعروضة عليها بموجب القوانين الشرعية فأحيلوا الأمر على رأى تلك الدار ونحن الأروام راضون عما ستصدره من القرار » وكان الباشا الرومى يعلم أيضا أن كلمة دار الفتوى لا تكون إلا حقا وأن الوزارة لا تقدر على استمالتها إلى خلاف الحق .

ومن الأمثلة الدالة على سمو نظر الشرع الإسلامى فى تقدير الأمور حق قدرها من غير محاباة ، وكنت قد ذكرته فى خطبة ألقيتها قبل أكثر من ثلاثين عاما فى قونيه بجامع السلطان علاء الدين الغاصّ بجماعة لا تقل عن عشرة آلاف رجل من أهل قونية وكان والى البلدة معمر بك من حزب الاتحاد والترقى المستولى على الحكومة العثمانية يومئذ ـ وهى تتأهب للدخول فى معركة انتخاب النواب من جديد ـ بين حضار المسجد . وكان مرمى خطبتى حث الناس على الثبات فى الاحتفاظ بحرية آرائهم ضد كل تغرير أو تضييق يفعله من يفعل لاجتناء الأصوات . فلما وصلت سلسلة الكلام فى الخطبة إلى المثال الذى سأذكره فاجأنى الوالى باعتراض حاول فيه إثارة جماعة المسجد علىّ ولكن الثورة انعكست على نفس الوالى وتعبت أنا فى إنقاذه من مهاجمتهم .

أما المثال فهو مسألة فقهية تنص على مذهب الإمام أبى حنيفة إذا وقع النزاع بين مسلم وذمى على طفل يدّعى المسلم أنه عبده والذمى أنه ولده وأقام كل من الطرفين شهودا لإثبات مدعاه ، فالقاضى ينظر فى ترجيح إحدى البينتين المتساويتين على الأخرى ، إلى مصلحة الطفل الذى يكسب نعمة الإسلام عند تسليمه إلى المدعى المسلم ونعمة الحرية عند تسليمه إلى المدعى الذمى ، ثم يحكم الإمام أبو حنيفة بترجيح المكسب الثانى الذى ليس بيد الطفل أن يناله لولم يكسبه الشرع الإسلامى إياه ، أما المكسب الأول فهو بيده دائما عند المقارنة بين الأديان بالنظر والاستدلال ، والشرع الإسلامى الذى هو واثق من قوة حجة الإسلام وظهوره ، يمنح هذا الطفل ما ليس كسبه بيده . وأما

ما كسبُه بيده فهو الملزم المقصِّر إن فاته بعد أن عُمِّرَ ما يتذكر فيه من تذكر . وهذه الفتوى من أعظم إمام دينى كأبى حنيفة النعمان الدالة على عظمة مبلغ تبلغه شريعة الإسلام مما يعبر عنه كتّاب زماننا بسعة الأفق... هذه الفتوى تفهم أهميتها فى تقدير شريعة الإسلام قدر الحرية حق الفهم إذا فُكر مع هذه الفتوى أن شريعة الإسلام لا ترى فى أكبر ملك من غير المسلمين كفؤا لأدنى بنت من بنات المسلمين ليستحق أن يتزوجها .

ويجب التنبيه هنا ونحن بصدد نفى التحيز الملازم للقانون البشرى عن القانون السماوى، إلى عدم صحة ما يُظن من أن العمل بالقوانين الدينية يوجد امتيازا لرجال الدين على غيرهم فيجرى التحيز فى القانون الدينى أيضا ؛ لأن ذلك امتياز العلم لا امتياز الحكم . ومنشأ الغلط فى هذا الظن قياس علماء الدين فى الإسلام من الذين لم يعرفوا الإسلام ولم يدرسوه، على رجال الكنائس الذين يضعون القوانين الدينية من عند أنفسهم فيتحكمون على القانون ويستبدون فيه بآرائهم وهم سواء فى ذلك مع رجال الحكومات الزمنية القادرين على وضع ما شاءوا من القوانين . فقد كان رجال الكنيسة قبل فصل الدين عن السياسة فى الغرب حكامَ البلاد مستبدين بقوة التشريع ، فانتقل هذا الاستبداد منهم بعد الفصل إلى رجال الحكومة الزمنية الناجحين فى انتخابات النواب . ولا كذلك علماء الإسلام المجتهدون فضلا عمن دونهم لأنهم لا يرون لأنفسهم حق التشريع أبدا ، إنما التشريع فى الإسلام لله ولرسوله بوحى من الله .

أما ما ادعاه الشيخ رشيد رضا صاحب « المنار » فى كتابه « الخلافة » من وجود حق التشريع فى الإسلام لغير الله ورسوله بناء على كون الإجماع حجة شرعية، فالجواب عليه أن الإجماع يجب أن يكون معه سند من الكتاب أو السنة، فهو ليس بحجة مستقلة وإن كان العمل بتقديمه على الكتاب والسنة عند التعارض . فالإجماع لا يضع شرعا جديدا خلاف ما فى الكتاب والسنة حتى عند تعارضه مع الكتاب أو السنة وتقدمه عليهما ، وإنما يكون مرجِّحا لسند على سند مأخوذَين من الكتاب أو السنة . كما أنه

أى الإجماع لا يدخل التحيز الذى لا تخلو عنه القوانين الزمنية ، فى قانون الشريعة الإسلامية ولا يحكّم بعضَ الناس على بعض فيجعله صاحب الكلمة فى وضع القوانين.

فالحاكم فى الدولة الإسلامية هو القانون بتمام معنى الكلمة والكل حتى الخليفة تحت حكمه وسلطته، وليس لأحد حكم على القانون الذى ليس من صنع البشر، بخلاف القوانين البشرية، فإنها مهما كانت تعتبر حاكمة على الناس فالحاكم فيها فى الحقيقة بعض الناس على بعضهم . لأنه إن كان القانون حاكما على الناس فواضعوا القانون الحاكمون على القانون سواء كانوا رجال الكنائس أو رجال الحكومات يكونون هم الحكام على الناس أكثر من القانون ، وفيه مالا يتفق مع عزة نفوس الذين لم يشتركوا فى وضع القانون وطولبوا بإطاعته ، ويدخل فيه التحيز البتة من هذه الناحية ويدخل فيه الجور ويدخل فيه التلاعب ويدخل الاستبداد والافتئات فى جميع تلك الحكومات الباهية بأن تتسمى حكومة ديمقراطية ـ نسبة إلى ديمقراط الفيلسوف اليونانى المنكر لوجود الله ـ وفيه أيضا كون وصف القداسة التى تضاف إلى القانون ادعاء محضا . والقانون السماوى منزه عن هذه النقائص على الرغم من أن المصريين يعيبونه بالجمود، فى حين أن جموده الآبى عن أن تتلاعب به الأهواء من أول فضائله .

فإذا كان المثل الأعلى للحكومة أوالمحكمة أن تكون قانونية بحقيقة معنى الكلمة وكان التفاضل بين حكومة وحكومة أو بين محكمة ومحكمة بقدر بقدر صدق استنادها إلى القانون وبقدر ما تكون الكلمة العليا فيها للقانون لا لشخص من الأشخاص ولا لطبقة من الطبقات ولا لحزب أو أى قسم من أهل البلاد ، إذا كان الأمر كذلك فالحكومة المستندة إلى قانون هو صنع الحكومات نفسها أو صنع البرلمانات المتساندة مع الحكومات[1] لا تكون حكومة قانونية بحقيقة معنى الكلمة ولا المحكمة العاملة

---

[١] مشينا فى نقد القانون البشرى على أصول الأمم الراقية التى يكون واضع القانون فيها هى الأمة نفسها ، أما الأمم الآخذة قوانينها من أمة أجنبية عنها كتركيا الجديدة التى أخذت قانون =

يمثل هذا القانون محكمة قانونية عادلة بتمام معنى الكلمتين ، وتوقّعُ أن تكون الكلمة العليا في أي أمة للقانون، لا لأناس معدودين ممتازين ومتغلبين على غيرهم بأي وجه من وجوه الغلبة ، توقع هذا من قانون وضعه طائفة من تلك الأمة بعد البحث والنقاش فيما بينهم وبعد أن كان القول للغالب ، تناقضٌ . ولا يسلم القانون البشرى من أن يكون واضعه بعض البشر ولا قانون أمة من هذا القانون البشرى أن يكون واضعه بعض الأمة، فهو يمثل دائما بعض الآراء ولا يمثل في أي أمة رأى الجميع ، وما يستند إلى رأى البعض لا يكون قانونا بتمام معنى الكلمة خاليا عن التحكم . ومن هذا لا يُعتبر أقوال الفقهاء المجتهدين حجة في الإسلام مهما كثر عددهم مالم تصل الكثرة إلى حد الإجماع . وليس معنى هذا أن رأى العلماء المجتهدين يكون قانونا في الإسلام إذا اتفقوا عليه مع كونهم أيضا من البشر ، لعدم خروج اجتهادهم عن أساس الكتاب والسنة كما نبهنا إليه .

ويمكننا أن نبين عدم كون القانون البشرى قانونا حقيقيا بأن نقول : القانون الذى يأمر بشيء أو ينهى عن شيء في الأكثر لا بد أن يتضمن ما ينافى الحرية ويقيدها وأن يشمل هذا التقييد حتى حرية الواضعين أنفسهم ليكون قانونا عاما . فإذا كان البشر واضعَ القوانين وكان حرا في إصدار ما يشاء قانونا وإلغاء ما يشاء منه في اليوم الثانى، يكون القانون الذى يقيد الحريات لا يقيد حرية الواضعين ، وهذا ما نسميه التلاعب بالقانون، فهل من الحق أن يكون لواضعى القوانين مالا يكون لغيرهم من هذا التلاعب عن طريق استطاعتهم لتغيير القوانين ؟ حتى إن الإكثار من هذا التغيير الذى يكون من حق البشر إذا كان من حقه وضع القوانين وتعديلها ، يجعل واضعى القوانين من الحكومة والأمة

= سويسرا المدنى واتخذتها قانونا لها بدلا من قانونها الشرعى ، فإنها لا تعتمد على الله وعلمه وحكمته وحسن اختياره لعباده ولا على نفسها وعقلها وحسن اختيارها كأمة مستقلة رشيدة، وإنما تعتمد على عقل أمة أجنبية غير مسلمة وحسن اختيارها حتى إن ما اختارته لنفسها يصلح عندها لغيرها أيضا .

كأنهم لاقانون بالنسبة إليهم، لاسيما إذا تخطوا فى الوضع والتغيير حدود العقل والعدل. ومن هنا يظهر خطأ الذين يعيبون قوانين الشرع بالجمود وعدم قبول التغيير، لأن القانون فى مرماه وفى معناه يعنى الجمود والثبات فى طريقة معينة وخطة مستقيمة من غير تحول عنها إلى اليمين أو الشمال.

وقد تدفع الناس جريتهم واستقلالهم فى وضع القوانين إلى الخروج عن حد العقل والعدل، مثلا أن المعقول أن يكون محل جريان القانون منحصرا فى الوقائع المتأخرة عن وضعه فلا يسرى القانون إلى ما قبله فإذا سُرى به إليه كان هذا تعسفا ظاهرا. وقد شنقت حكومة أنقرة الـكمالية الشيخ المغفور له محمد عاطف الاسكليبى مؤلف رسالة ضد لبس الشعب التركى القبعة مع أن تأليفه كان قبل أمر الحـكومة به ونهيها عن الـكلام ضده. فكنت أنا أعده من المظالم الخاصة بحكومة أنقرة الاستبدادية، ثم اطلعت على أن نظام التقنين الأوربى يجيز سريان القانون إلى ما قبله إذا صرح الواضع به [1] وهذا يؤيد ما قلته من أن القانون البشرى ليس بقانون، فقد يكون موجودا عند عدمه كالقانون السارى إلى ما قبل وضعه وقد يكون معدوما عند وجوده كالقانون الذى يرد عليه القانون السارى إلى ما قبله فينسخه حالا وماضيا.

وفى أوربا فريق من العلماء المجددين يذهبون إلى اعتبار القانون كائنا حيا يتطور كما تتطور العلاقات الاجتماعية التى يحكمها القانون، وبمجرد وضعه يصبح مستقلا عن شخص واضعه وينمو ويرتقى تبعا للظروف الاجتماعية التى تحيط به، ولذلك يجب تفسيره بشـكل ينجو من الجمود ويجعله متمشيا مع الحياة وملائما لها، بصرف النظر عن غرض الشارع وقابلية اللفظ الذى استعمله فى نص القانون، وهذا هو الطريقة التى يحاول أن يتبعها الأستاذ فريد وجدى بك فى نصوص الـكتاب والسنة ليجعلها قابلة

---

[١] راجع «مدخل القانون والنظام القضائى فى مصر» للدكتور على الزينى المدرس بالجامعة المصرية.

لكل تأويل يقتضيه الحال والزمان ، مهما ابتعد المؤول عن صراحة النصوص[١] .

والذي هو الأجدر عندي بالصدق والجد وضع قانون جديد بدلا من اعتبار التلاعب بالتأويلات التي لا يحتملها لفظ القانون القديم ، تفسيراً له واحتفاظا به . وليس عند الأوربيين العاملين بالقانون البشري ما عند الأستاذ فريد وجدي بك من الضرورة القاضية باللجوء إلى هذه الطريقة الخادعة ، فنُرى أنهم يعترفون بأن الأصل في القانون أن يكون ثابتا مصونا من التغيير والتبديل ثم لا يلبثون مجتنبين عن التلاعب بلفظ القانون فينتقلون إلى التلاعب بتفسيره .

والقانون البشري نفسه ، فضلا عن تفسيره لا يخلو على كل حال من أن يكون خديعة يخدع بها الناس بعضهم بعضا ويتخذها أداة العدالة فيما بينهم ، عدالة تقسمهم إلى طبقتين حاكمة وضعت القانون أواستأذنها مَن وضعه ومحكومة افتات عليها الواضع ، فهي عدالة مخلة بالمساواة . أما القانون الإلهي فالحاكم فيه هو الله ، والناس حتى السلطان سواء أمامه غير محسِّين بثقل الحكم لكونه على السوية ولكونه من الله الذي خلقهم .

وأما تعييب هذا القانون بالجود فقد عرفت من التحقيق السابق أن الجود من الأوصاف الأساسية اللازمة للقانون . وقد عمل المسلمون بقوانين الشريعة الإسلامية على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم وأقوامهم طوال تاريخ الإسلام المنطوي على دول مختلفة في المدينة والشام وبغداد والمغرب ومصر والهند وتركيا اعترف العالم بعظم شأنها ، فما شكت دولة إسلامية أو أمة مسلمة في المشرق والمغرب من جمود الشريعة الإسلاميه ولم يمر ببال

[١] حتى إن الأستاذ يزيد على طريقة المجددين الأوربيين فيعطى المؤول حق إلغاء النص بالمرة إذا عجز عن تأويله . ويعتبر الأستاذ هـذا الإلغاء نوعا من التأويل والتفسير يجتمع مع بقاء النص محفوظ المقام . ومثال هذه التوسعة في التأويل من الأستاذ أنه اعتبر جميع الآيات الواردة في القرآن حكاية عن معجزات الأنبياء وكذا آيات البعث بعد الموت ، آيات متشابهة غير مفهومة المعاني ولا مطلوبة الفهم : وبهذه الطريقة المتسعة في التأويل أيما اتساع ، يكون الإسلام عند الأستاذ دينا عاما خالدا .

أحـد فصل الدين عن الدولة للتخلص من هذا الجمود ، إلى أن خلف من بعدهم خلف أضاعوا المجد القديم وأضاعوا معه العقل السليم الفارق بين ما ينفعهم وما يضرهم فقاموا يبغون حولا عن قانونهم ودينهم وآدابهم [١] .

وفى تركيا الحديثة الكمالية غُيِّر كل شىء وغُيرت الحروف لينشأ النشء منقطعى الصلة بتاريخ الإسلام وتاريخ الترك المسلمين [٢] ومعارفهم، لكون الكتب المؤلفة فى ذلك الصدد مكتوبة بالحروف العربية التى سيكون الترك الأحداث بعيدين عن قراءتها [٣] وأنت ترى مصطفى كمال الذى هو فاعل هذه الأفعال وجاعل الترك ينبذ تاريخها لاختلاطه بتاريخ الإسلام ، لايزال يذكر اسمه فى بلاد المسلمين مثل هند ومصر بإكبار واحترام. وهذا هو الغفلة المتناهية والخسران المبين ، لا يزال العالم الإسلامى فى هذه الغفلة ولا أزال أنا منذ أكثر من عشرين سنة أسعى لأنبههم ، لكنهم قلما يصغون إلى أقوالى مقلمين عن تقليد الأوربيين وحكوماتهم فى إكبار الرجل، بناء على أن أوربا قبلة المسلمين فى هذا العصر ، وهم لا يفحصون عن سبب هذا الإكبار ولو فحصوا لوجدوا السبب

---

[١] ومن العجب أن الضغط على الدول الإسلامية لكفها عن العمل بقوانين الشرع الإسلامى كان يأتى فى الزمن القديم من الدول الصليبية وكان يقتصر على مسألة التسوية بين المسلم والذمى وكان لهم عذر فى ذلك أو على الأقل عذر فى الظاهر ، والآن ينوب عن الدول الأجنبية الضاغطة فريق من المسلمين المتعلمين فى مدارس تلك الدول نيابة تعدت حدود الاصالة غير معذورين ولا مقتصرين على مسألة دون مسألة ، فهؤلاء النواب عن الأعداء أشد من الأعداء .

[٢] وابر الترك الحديث من أراد أن يرى قوما لا تاريخ لهم .

[٣] قانون تركيا الحديثة يعاقب من يكتب بالحروف العربية بالسجن مدة ثلاثة أشهر وغرامة عشرة جنيهات وقد سمعت أن نجم الدين صادق صاحب جريدة « اقشام » ومن أعضاء مجلس النواب ومجلس الوزراء كتب فى الأيام الأخيرة المتقدمة على توليه وزارة الخارجية مقالة يدعى فيها عدم كفاية هذه العقوبة، بناء على أن تبديل الحروف من العربية إلى اللاتينية من أسس الجمهورية التركية، فيلزم أن تعد مخالفته خيانة وطنية ويجازى الكاتب بالحروف العربية جزاء الخائن .

كونه بلغ فى محاربة دين الترك مالم يبلغه الأربيون فى أعصار . فقد بز الرجل فى العمل على ضرر الإسلام والنيل منه أعداءه القدماء من الدول ، وقد بزّ المسلمون فى غفلتهم عن أمر دينهم الغافلين . وقديما قيل :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

رجعنا إلى ما نحن فيه من أن الشريعة تلتئم مع كل زمان ومكان وأمة إلا الأمة المشغوفة بتقليد الأجانب . وكتاب الدكتور على الزبنى المدرس بالجامعة المصرية الإسلامية الذى سبق ذكره فى كتابى هذا غير مرة يكفى القارىء فى إعطاء فكرة عن مسايرة القوانين الحديثة الأوروبائية مع الشريعة الإسلامية بفروق طفيفة يكون الرجحان عندها فى جانب الشريعة . ونحن نحذر القارىء من أن يجعل هذا التقارب بين الشريعة الإسلامية وبين قوانين أوربا الحديثة من الأسباب المخففة لجريمة استبدال القانون الأوربى فى بعض بلاد المسلمين بالشريعة الإسلامية ؛ بل إن هذا التقارب يكبّر جريمة الاستبدال فى عين المسلم اليقظ . فكثرة الفرق بين القانون الإسلامى والأوربى يكون مانعا فى نظر هذا المسلم الغيور على إسلامه من الاستبدال ، وقلة الفرق بينهما تكون فى نظره أمنع مانع ، لأن قلة الفرق بين القانونين تنبئ عن قلة الحاجة إلى الاستبدال ، والإقدامُ إلى الاستبدال مع قلة الحاجة إليه ينبىء عن عدم المبالاة بمحافظة القانون الإسلامى حتى إذا انتهت قلة الفرق إلى عدم الفرق بالمرة بين القانونين فى المعاملة كما سبق ذكره فيما بين النكاح الشرعى والمدنى يكون سبب ترجيح ما هو أجنبى عن الإسلام كونه أجنبيا عنه ، فيكون كفرا بالإسلام وارتدادا عنه .

***

بقيت نقطة هامة فى درس مسألة فصل الدين عن السياسة وهى أن من الناس من يتفق معنا فلا يجيز فصل الدين عن السياسة ، لكنه يخوّل حكومات المسلمين حرية تامة فى وضع القوانين ويدعى أنه لا يوجد قانون يسنونه أو عمل يعملونه إلا ويسمه الإسلام ، لأنه

دين عام خالد وهو مذهب الأستاذ فريد وجدى بك الذى لا يرى حتى فى أعمال مصطفى كمال منافاة لدين الإسلام . وهذا الرأى أسوأ من فصل الدين عن السياسة لكونه فصلا وإنكارا للفصل معا. ففيه فصل ومكر وفيه القضاء على الإسلام باسم الاسلام [1]

---

[١] وقد قال « ا د . انكلهارد » من سفراء فرانسة فى تركيا فى مقدمة كتابه « تركيا والتنظيمات » « فى تاريخ إصلاحات الدولة العثمانية » :

« كان الغرض العام من التنظيمات تقريب الهيأة الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية المسيحية التى عاشت منذ قرون بعيدة عنها معنى وسياسة . ولا شبهة فى خطورة ماهية المشكلات التى يتضمنها هذا المشروع، فقد كان العامل فى وقف الأمبراطورية العثمانية فى موقفها بالقرون الوسطى الذى غمسها يوما عن يوم فى ظلام تلك القرون الكثيف والذى سينتج يوما من الأيام اندراسها التام ، بقاء الحكومة العثمانية منفردة فى خارج الهيأة الدولية الأوربية . وكان السبب الحقيقى فى هذا الانفراد هو الدين .

« وفى الحقيقة أن الإسلام الذى قد كان مؤسس الحكومة العثمانية بقى حاكما مطلقا فوق الحكومة ناظما. فقد كان القانون المدنى متحدا مع القرآن ، ولكون تشكيلات الأمة اشتبكت بالعقائد الدينية بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن بعض كانت تشكيلات الأمة لاتقبل التغيير كالعقائد الدينية .

« فوجب لتحصيل الائتلاف الذى لا تستطيع تركيا الاستمرار على الاستغناء عنه ، إما إزالة الحائل فى البين بالمرة أو تخفيف وطأته ، ومعناه إما أن تحول الحكومة من الروحانية إلى الدنيوية بتخليصها عن تأثير القوانين الدينية كما وقع فى العالم المسيحى ، وإما أن تخلص بالتدريج عن الحدود والقيود الدينية من طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيرا موسعا .

« وللاحتراز من الحالات الموجبة لاشمئزاز شعب جاهل متعصب لايلبث أن ينفعل ويتأثر من كل شيء ، كانت الحكومة العثمانية اختارت الشق الثانى » .

فهذه الكلمة المنقولة من كتاب « ا د . انكلهارد » الذى ألفه فى سنة ١٨٨٢م للبحث فى تاريخ انقلابات الدولة العثمانية منذ عهد السلطان محمود الثانى وطبع ترجمته بقلم على رشاد بك إلى التركية فى سنة ١٩١٢ — تعلن ما كان يضمر المتفرنجون الأتراك أن يفعلوه فى الآونة الأخيرة بدين المسلمين ثم ظهر مع الانقلاب الكمالى اللاديني وما يضمره المتفرنجون العرب فى مصر وغيرها ولم يظهر تمامه بعد .

وتعلن أيضا ماهية ما بنى عليه الأستاذ فريد وجدى بك مذهبه فى كون الإسلام يسع كل تفسير .

ويقرب من هذا، أولا يبعد كل البعد، مسلك الشيخ محمد عبده الذى جعل جواب اتهام الأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة « الجامعة » عدمَ فصل الدين عن الحكومة فى الاسلام، بكونه سبب تأخر المسلمين؛ إحالةَ التهمة على جمود علماء الدين. وبالنظر إلى أن تعييب علماء الدين بتهمة الجمود حدث فى الأزمنة الأخيرة التى حدث فيها الانهماك من متعلمى الشرق فى تقليد الغربيين باسم التجديد، وإلى أنه وُجد فعلا فى الأمور التى أريد تقليدهم، ما يخالف صراحة النصوص الشرعية كالسفور ومنع تعدد الزوجات.. فبالنظر إلى هذا يُعلم أن العلماء مهما لانوا والتزموا المرونة ما كانوا ليتملّصوا فى نظر المجددين من وصمة الجمود إلا بعد إباحة الخروج على أحكام الاسلام وبالاختصار إلا بعد فصل الدين عن الحكومة. فالأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة «الجامعة» ومناظر الشيخ محمد عبده يعيب الاسلام بعدم كونه مفصولا عن الحكومة ويحمل عليه سبب تأخر المسلمين والشيخ يهاجم على العلماء الجامدين فى الجواب عن اعتراض خصمه على الاسلام بعدم قبوله الفصل عن الحكومة، بدلا من أن يهاجم على مبدأ الفصل، فإن لم ينته جواب الشيخ إلى التسليم بدعوى خصمه فى فضل الفصل فهو منته إلى مايساويه، لأن العلماء

= وامتياز هذا المذهب فى ضرب الرقم القياسى فى تفسير الإسلام يفهم من أن الإسلام أعلن إهماله بالمرة فى تركيا مع إعلان الجمهورية اللادينية (لاييك) قبل وصول تفسيره إلى هــذا الحد الذى اختاره الأستاذ له.

وفى قول هذا المؤلف الفرنسى عن اتصال الحكومة العثمانية بالإسلام لحد كونه أى الإسلام مؤسس تلك الحكومة وبقائه حاكما مطلقا فوق الحكومة، وعن كون المقاومة لإسلام هذه الحكومة على طول عهدها، شغلا شاغلا لدول أوربا المسيحية حتى إن تلك الدول لجأت إلى طرق الحيل بعد أن رأت عدم نفع الشدة فى المقاومة .. فى هذا فخر عظيم للدولة العثمانية المرحومة وإرغام للأستاذ محمد عبد الله عنان كاتب المقالة فى مجلة « الرسالة » قبل بضع عشرة سنين منكراً لاعتزاز الإسلام بالترك حتى يوم كانت دولة شامخة. وكيف لا يعتز الإسلام بدولة يصفها المنكر نفسه بالشموخ وتشهد الدنيا باتصالها مع الإسلام اتصال الجسم مع الروح؟

المتهمين بالجمود ذنبهم فى نظر المجددين يتلخص فى نصب مراقبة من أحكام الشرع الإسلامى على أعمال الحكومة قائلين هذا جائز وذاك غير جائز ، غير متسامحين معها فى كل ما تفعله .

فيُفهم أن الشيخ كان يتوقع منهم أى من العلماء اجتهادا واسعا يسع كل رغبات المجددين المصريين حتى لاتبقى الحاجة إلى فصل الدين عن السياسة لإجابة تلك الرغبات. لكن المجتهد على حسب أهواء المجدد المصرى لا يكون مجتهدا بالمعنى المعروف عند الفقهاء وإنما يكون مجتهدا عصريا كالمجدد الذى له أيضا فى الإسلام معنى سام تحرف كما حرف المجتهد . وبالمعنى الأعم قليلا من ذلك المعنى السامى فالمجدد الإسلامى المصلح لا يكون همه التوسعة فى الدين فقط بل قد يكون التشديد من التجديد.. والذى يجب على المجدد مراعاته أن يكون التجديد فى مصلحة الإسلام وأن لا يكون اجتهاده متضمنا لتشريع مستقل من جانب البشر بأن لا يستند إلى أصل ثابت بالتشريع الإلهى أو يخالف أصلا من تلك الأصول. فيجب أن لا يبعد عن البال أن التشريع فى الإسلام لا يجوز إخراجه عن كونه حق الله فيلزم أن يكون كل تشريع مرجعه إلى التشريع الالهى، وقد علمت مما كتبنا فيما سبق أن مراعاة ذلك مما يقتضيه العقل والعدل .

وكان الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة «المنار» كثير الشكوى مثل أستاذه من جمود العلماء وشديد الطلب لفتح باب الاجتهاد، مع أن الذين أقفلوا هذا الباب أقفلوه لئلا يدخل من لم يكن أهلا له ، وكان طلاب الفتح يقولون ليجتهدْ من رأى نفسه أهلا له، فإن لا يكن مجتهدا مصيبا يكن مجتهدا مخطئا وله أجر واحد ، مع أن هذا الأجر الواحد عند الخطأ والأجرين عند الاصابة كل ذلك مخصوص لمن حاز مرتبة الاجتهاد . أما من لم يقف عند حده وظن أن اجتهاده فى أن يكون مجتهدا يجعله مجتهدا ، فله إثم الضال والمضل .

وقد علمت أن غلط الشيخ رشيد وغيره فى توسعة باب الاجتهاد يذهب إلى حد أن يعطى البشر حق التشريع وهو باطل من ناحية العقل والنقل ، أما العقل ففيما

قدمناه كفاية فى ذلك ، وأما النقل فحسبك قوله تعالى « وإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ولكون التشريع أمرا فوق مرتبة الإنسان يقول الإمام الشافعى فى ذم الاستحسان الفقهى « من استحسن فقد شرّع » والقائلون بالاستحسان لا يسلّمون بكونه تشريعا فلو سلموا لاتفقوا مع مانعيه، وقد علمت أيضا عدم صحة استدلال الشيخ رشيد على وجود حق التشريع للبشر بكون الإجماع حجة شرعية .

ومع أن الشيخ رشيد الذى هو تلميذ الشيخ محمد عبده من المتوسعين فى فتح باب الاجتهاد ففضيلة الأستاذ المراغى شيخ الجامع الأزهر الذي هو أيضا على ما سمعته من تلاميذ الشيخ محمد عبده ، أكثر توسعا من الشيخ رشيد ، حيث أجاز فى مقالته التى نشرها فى «السياسة الأسبوعية» و«الأهرام» قبل مايقرب من عشرين سنة ترجيحا لقراءة المصلين الأعاجم القرآن على لغاتهم والتى انتقدت أنا هذا الرأى عليه فى كتابى «مسألة ترجمة القرآن » ، أجاز فى تلك المقالة أن يكون المجتهد فى الكتاب والسنة غير عارف باللغة العربية فيستنبطَ الأحكام من التراجم . فهو يجيز كون المجتهد فى القرآن مقلدا لمترجمه فى فهم معانيه . ومن الغريب المتناقض أن فضيلة الأستاذ يسلم فى مقالته بأن ترجمة القرآن ليست بقرآن ، فكيف إذن يكون الاجتهاد فى الترجمة واستنباط الأحكام منها اجتهادا فى القرآن واستنباط الأحكام منه ؟ [1]

والشيخ صاحب المنار لا يجيز الاجتهاد لغير العارف باللغة العربية فهو متعصب للعربية كأستاذه محمد عبده المتعصب لها إلى حد اعتبار العربية والإسلام شيئا واحدا، وفضيلة

---

[١] ثم إن فضيلة الشيخ لا ينتبه للتناقض بين كونه حريصا على فتح باب الاجتهاد فى الدين الذى لا يخلو عن اختلاف المجتهدين وكونه قد قرأ فيما سبق منا على أئمة الفقه المختلفين فيما بينهم، قوله تعالى « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

الأستاذ الراغى متساهل فى العربية إلى حد أنه لا يوجب القراءة العربية فى الصلاة على المسلمين الأعاجم ولو كانوا قادرين عليها . والحق أن القرآن عربى والإسلام دين عام للبشر ولا منافاة بين عموم الإسلام وعربية القرآن كما زعمه الأستاذ فريد وجدى بك ، وهذا الأخير يعد الترجمة قرآنا .

والشكاية من جمود العلماء التى واظب عليها الشيخ محمد عبده وحببته هذه الشكاية إلى الكتاب المصريين ، ماهى إلا تسويل من الغربيين يرجع إلى تعيير المسلمين بالثبات على العمل بالقوانين المأخوذة من كتاب الله وسنة رسولهم ، فمراد أول الشاكين وهو الغربيون الأجانب عن الإسلام من جمود المسلمين هوهذا الثبات فى ارتباطهم بالقوانين الدينية، ومعنى هذاأن الجمود الذى يشكى منه ليس جمودعلماء الإسلام بل جمودالإسلام نفسه ، فما دامت أىّ محكمة من محاكم البلاد الإسلامية تعمل بشىء منصوص عليه فى القرآن والحديث ولا تستطيع تغييره لكونه منصوصا عليه فى الإسلام ، فالمسلمون وعلماؤهم لا يتخلصون فى نظر الغرب من وصمة الجمود . ولا يدرى الشيخ محمد عبده أصل هذه الشكاية ولا أي شيطان أوحاها إليه وهو يؤيد بها دعوى أعداء الإسلام ولا يقدر على إنقاذ علمائنا من عيب الجمود مهما أكثر فيهم المجتهدين حتى يجعل من كل مسلم مجتهدا ، مادامت ربقة الإسلام فى أعناقهم .. وإن كان يدرى فالمصيبة أعظم .

وقد سمعت من صديق مصرى أن الشيخ رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده كتب فى تفسير قوله تعالى « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار » : إن هذه الآيات تنطبق على مقلدى أئمة المذاهب الأربعة كما تنطبق على المشركين ، فيتبرأ الإمام أبو حنيفة يوم

القيامة من أتباعه الأحناف وكذا الإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد يتبرأون من أتباعهم المالكيين والشافعيين والحنابلة. وأصاف الصديق أن ما كتبه الشيخ رشيد كان موعزا إليه من أستاذه الشيخ محمد عبده . وإنى أحذر قارئى أقوال كل من الشيخ التلميذ والشيخ الأستاذ وفيها هذا القول فى تفسير هذه الآيات ، أن يتلقوها بالقبول ويتبعوها فيها فيتبرأ منهم يوم القيامة بل يكونوا مشركين كاتباع الأئمة الأربعة رضى الله عنهم وعن أتباعهم، لأن انطباق قوله تعالى «ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله» على أى طائفة من الناس [١] معناه كونهم مشركين بالله ويعضده كونهم لا يخرجون من النار كما نص عليه آخر الآية .

وسمعت أيضا من ذلك الصديق أن الشيخ محمد عبده كان مستشارا بمحكمة الاستئناف وكان هذا المنصب قد عرض على بعض علماء الأزهر الكبار فلم يقبلوه رغم ضخامة مرتبه بالنسبة إلى مرتبات الأزهريين فى ذلك العهد ، لكون محكمة الاستئناف تحكم بالقوانين الفرنسية، فلما تولى الشيخ مقام الإفتاء بالديار المصرية احتفظ لنفسه بمنصب المستشارية، فقال القائلون يومئذ : شيخ يفتى هنا بقانون الشرع وهناك بقانون فرانسة . وأنا أقول : لا غرو فى ذلك فإن الشيخ لم يكن من العلماء الجامدين وفوق ذلك فإنه مجتهد خوّله اجتهاده أن يجمع بين العمل بالقانون الشرعى والقانون الفرانسى!!

---

[١] نعم ، نحن نعرف أن تهديد المقلدين بهذه الآية لم يبتكره الشيخ رشيد فقد رأينا الحافظ ابن عبد البر يوردها فى باب ذم التقليد من كتابه « جامع بيان العلم وفضله » وهو خطأ قد يوقع بعض أهل الحديث فى مثله ضعف الفقه . فإن كان الشيخ التلميذ أو أستاذه اعتمد عليه فقد قلد المخطئ فى حين أنه يذم التقليد مطلقا ، والحافظ بن عبد البر نفسه صرح فى ذلك الكتاب بإجماع العلماء على جواز التقليد للعامة مع أن الآية التى أوردها فى ذم التقليد إن كانت منطبقة على تقليد أئمة المذاهب الفقهية المدونة، انطبقت على تقليد العامة أيضا الذى صرح نفسه بالإجماع على جوازه، وهو تناقض ظاهر.

لكنه ظلم وحرام على اسم الدين والعلم والفضيلة والعدالة والأمانة أن يكون الشيخ محمد عبده المفتى فى دار الفتوى الإسلامية بما أنزل الله والحاكم فى محكمة الاستئناف بغير ما أنزل الله ، إماما حائزا لرتبة الاجتهاد فى الإسلام كما حازها الإمام أبو حنيفة النعمان الذى مات فى السجن ولم يسوغه ورعه أن يتولى القضاء الشرعى فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور .. وكما حازها الإمام مالك والشافعى وأحمد ... حرام وظلم عظيم أن يكون الشيخ محمد عبده الذى خفى عليه بطلان التسلسل فى العلل توقف إثبات الواجب على إبطاله كما سبق فى أواخر الباب الثانى من هذا الكتاب، ولم يصب فى تحديد محل النزاع بين المذاهب فى مسألة أفعال العباد المشهورة كما يظهر مما كتبته فى « تحت سلطان القدر » ص ٣٣ و ٣٦ وكل واحد من الخطائين لاسيما الأول عظيم إلى حد أنه يكفى فى إسقاطه عن رتبة الإمامة فى العلم ، كما أن جمعه بين المحكمتين ومؤازرته لقاسم أمين فى فتنة السفور يسقطه عن رتبة الأمانة فى الدين . . حرام وظلم أن يكون هذا الشيخ وتلميذه الشيخ رشيد رضا المستهين بمعجزات الأنبياء التى أشاد القرآن بذكرها ، استهان بها فعدها شبهة لا معجزة وقال إنها موجودة فى زماننا ككل زمان مضى وإن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل . قال هذا فيما كتبه دفاعا عن كتاب هيكل باشا الذى ألفه فى حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأخلاه عن المعجزات المنسوبة إليه فى كتب السيرة وكتب الحديث وقد صرح فى طبعته الثانية التى ذكر فيها دفاع الشيخ أيضا ، برفع الثقة عن جميع تلك الكتب ، كما أصر على إنكار معجزة شق القمر ولم يعبأ بالأحاديث الواردة فيها والتى أخرجها أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والحاكم والبيهقى عن على وابن مسعود وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وابن عباس وأنس..هذا الشيخ الذى هذا ورعه وعدله وأمانته ، أما شذوذه واستهتاره فى التأويل فيفهم من كونه ادعى

أن قوله تعالى « انشق القمر » لا يدل على انشقاق القمر وأن معناه « ظهر الحق » وقد سبق بحث كل ذلك[1] .. هذا الشيخ وأستاذه وفضيلة الشيخ المراغى الذى لم ير صلة علم الفقه بالدين [2] ولا صلة الدين بالعلم [3] ولا من اللازم لمستنبط الأحكام من القرآن أن يعرف اللغة العربية[4] ولم يفهم أقوال الفقهاء الأحناف المانعين عن الصلاة بتراجم القرآن للقادرين على قراءة القرآن العربى فالتبس عليه القدرة على القراءة بالقدرة على فهم المعنى التباسا ظاهرا فاستمد من أقوالهم فى فتواه الباطلة عن مسألة ترجمة القرآن .. ولم يتنبه للتناقض بين كونه حريصا على فتح باب الاجتهاد فى الدين الذى لا يخلو من اختلاف المجتهدين وكونه قد قرأ فيما سبق على أئمة الفقه المختلفين فيما بينهم قوله تعالى « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » وفهم من البيت القائل :

لم يمتحنا بما تعيى العقول به　　　حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

أن البوصيرى صاحب « البردة » من المنكرين لمعجزات نبينا صلى الله عليه وسلم الكونية غافلا عن أبياته الأخرى فى القصيدة نفسها الناطقة بالمعجزات المذكورة .. حرام أن يكون هؤلاء المشايخ الثلاثة ورابعهم الأستاذ فريد وجدى مدعى كون الإسلام يسع كل تأويل فى نصوصه حتى ما ينافى ويناقض صراحة تلك النصوص ويأتلف بكل قانون تسنه الحكومات حتى القوانين التى أخذتها حكومة مصطفى كمال فى تركيا من

---

[١] وسبق الكشف عن أصل هذه الأمراض الزمنة المستولية على عقول المتدينين العصريين بمصر وعقول الراكنين إليهم من علماء الدين ، وهو استحالة وقوع مالا يقبله العلم المادى من الخوارق الكونية المخالفة لقوانين الطبيعة وسبق الاشتغال أيضا فى أول الباب الثالث من هذا الكتاب بمعالجة هذا الداء العضال .

[٢] راجع ص ٤٢٥

[٣] راجع ص ١٠١

[٤] كما يظهر من مراجعة كتابى « مسألة ترجمة القرآن » ص ١٢ والذى لا يفهم أقوال الفقهاء فى تلك المسألة حق الفهم فضلا عن أن يكون مجتهدا مثلهم وهو يظهر من مراجعة ص ٢٣ — ٢٧

السويسرة أو ابتدعتها لمحاربة الإسلام نفسه والمتمسكين به ... يسع الإسلام فى زعمه كلّ ذلك لكونه دينا عاما خالدا .. وهو أشجع المجتهدين وأشدّهم .. حرام عليهم أن يكونوا نماذج أبطال العلماء الفاتحين لباب الاجتهاد [1] .

والحق أنه لامندوحة من أن يكون جمهور المسلمين مقلدين فى فروع أحكام الدين، وهم أكيس من أن يترددوا فى تعيين من يكون خيرا لهم أن يقتدوا به، أمن هؤلاء الأئمة الأربعة الأولين أم من هؤلاء الأئمة الأربعة الجدد ؟ .

وأما العلماء فقد عرفت حال الذين يرون أنفسهم فى آخر الزمان أهلا للاجتهاد منهم.

فههنا أمور ثلاثة نحن نأباها ونجعل اجتنابها أساس الاجتهاد فى الإسلام ونرى المتوسعين لا يحذرونها وهى الذهاب إلى حد أن يكون المجتهد مشرعا أو إلى أن يكون مجتهدا من ليس أهلا للاجتهاد أو إلى أن يفسر النصوص بما لا تحتمله . والنقطة الأولى التى تعد عيبا على الإسلام عند أعدائه وعند مقلديهم من المسلمين الغافلين ، أكبر مزية يفوق بها الإسلام غيره من الأديان .

وأنا الذى ظهرت فى هذا الكتاب بمظهر المجتهد فى كثير من المسائل المتعلقة بأصول الدين المبنية على الأدلة العقلية أو على فهم المعانى من النصوص ، لا أجترئ على ادعاء قدرة الاجتهاد لنفسى فى فقه الإسلام مع كون كل من المصيب والمخطئ فى اجتهاده فى الفروع ينال الأجر ولا يناله المخطئ فى اجتهاده فى الأصول على المذهب المختار . وسبب هذا الفرق ليس إلا أن الاجتهاد فى الفروع أى الفقه أكبر مزيةً وأصعب منالا، حتى إذا حاز الرجل تلك المرتبة فله الأجر فيما أصاب وفيما أخطأ وإن كان أجر المجتهد المخطىء نصف المصيب . والذين يطمحون إلى رتبة الاجتهاد من العلماء المعاصرين هم

---

[١] وان شئت فألحق بهم فضيلة الشيخ شلتوت الذى هو أنشط المجتهدين فى الزمان الأخير وأشطهم عن الإصابة .

الذين يكون جل رؤوس أموالهم الخطأ والخطل فى درس المسائل فيحاولون أن يمدّوا من الأئمة المجتهدين فلا يضرّهم الخطاء بل ينفعهم ولو بنصف ما ينفع الصواب، فلذلك نراهم لا يخافون أن يخطئوا .

الظانون من علماء الزمان بمصر منذ عهد الشيخ محمد عبده أنهم بلغوا رتبة الاجتهاد إن أصروا على ظنهم هذا فإنى أدعو العائشين من تلامذة الشيخ وورثة أفكاره إلى الامتحان ثم أقول إن المجتهد الذى يستعمل مقابلا للمقلد نوعان مجتهد فى الأصول ومجتهد فى الفروع كما أن المقلد نوعان مقلد فى الأصول ومقلد فى الفروع وإن المجتهد فى الفروع ـ ويقال له الفقيه أيضا ـ أعلى رتبة من المجتهد فى الأصول الذى يطلق عليه المستدل فى الغالب كما أن المقلد فى الأصول أدنى مرتبة من المقلد فى الفروع حتى وقع الخلاف بين العلماء فى صحة إيمانه .

وبالنظر إلى هذا التقسيم فالتقليد الذى ينبغى لكل مسلم أن يترفع عنه لكونه خطرا على إيمانه هو التقليد فى الأصول . أما التقليد فى الفروع الذى هو ضرورى للعامة فلا يستطيع أن يترفع عنه علماء الزمان ولاسيما المدعون منهم الاجتهاد . بل لا أظن هؤلاء المدعين إن دعوتهم أولا إلى التبرؤ من التقليد فى الأصول الذى هو أخس نوعيه .. فكيف يمكنهم إثبات وجود الله قبل كل شىء بالنظر إلى كونهم متطفلين على هواة العلم الحديث الذى لا يعتد إلا بما يثبت وجوده بالتجربة الحسية وإلى كون أولئك الهواة مستخفين بالأدلة العقلية والمنطقية كما سبق نقل هذا الاستخفاف صراحة فى مقدمة الكتاب من الدكتور هيكل باشا والأستاذ فريد وجدى . وسبق أيضا أن هذا الأستاذ الذى هو لسان الأزهر الناطق يختار على مرأى ومسمع من علماء الأزهر إرجاء إثبات وجود الله إلى أجل غير مسمى من البحوث النفسية الجارية فى الغرب .. والله الذى سيثبت وجوده عند هؤلاء الأساتذة فى المستقبل ثبوتا علميا هو العالم متى يكون ذلك الإثبات العلمى المنتظر .

فهم إن كانوا يؤمنون بالله اليوم يؤمنون مقلدين لأهل العلم القديم الذين يثبتون وجود الله بأدلته العقلية المنطقية ونحن نعتبر هؤلاء الأساتذة ومنهم علماء الأزهر الراضون بالأستاذ فريد وجدى بك لسانا لهم ، مقلدين لأهل العلم القديم لامستدلين بما يستدل به أولئك العلماء، لسببين الأول كونهم متفقين مع الكتاب المصريين في الاستخفاف بالعلم القديم وأدلته العقلية المنطقية، والثانى كونهم فى العلم القديم أتباع الشيخ محمد عبده الذى ينكر بطلان التسلسل بجميع أنواعه وفيها تسلسل العلل الممكنة الذى يتوقف إثبات الواجب على بطلانه، على الرغم من أن الشيخ منكر لهذا التوقف أيضا وهو مخطئ فى كل ذلك خطأ عظيما كما بيناه فى مواضع من هذا الكتاب . فأتباع الشيخ الأزهريون عاجزون عن إثبات وجود الله سواء كان بواسطة العلم الحديث أو بواسطة العلم القديم ولهذا رضوا بتسويف هذا الإثبات من الأستاذ فريد وجدى إلى اكتشافات البحوث النفسية الجارية فى الغرب ولم ينكروا عليه .

***

إن فصل الدين عن السياسة كان أول من أثاره مبدئيا وجاهر بالدعوة إليه الأستاذ على عبد الرازق بك (باشا) حيث ألف فيه كتابا سماه «الإسلام وأصول الحكم» ونشره ، وكان يومئذ قاضى المنصورة الشرعى فأدى نشر هذا الكتاب إلى قطع صلته بالأزهر ، وإن كان مبدأ الفصل قد عُمل به فى مصر وقطع شأوا من العمل مبتدئا من يوم تجريد الوزارة المصرية عن العضو الشرعى المسمى شيخ الإسلام والذى يكون جميع الحل والعقد الصادر عن مجلس الوزراء موقوفا على موافقته، ويلى كرسيه فى المجلس مقعد الرئيس متعينا للنيابة عنه عند غيابه ، ومقامه مرجع المحاكم الشرعية فضلا عن المفتين ، بل محاكم البلاد كلها . غير محكمة الجزاء والتجارة حيث يكون القاضى الشرعى رئيس محكمة الحقوق أيضا العاملة بقوانين الشريعة الإسلامية .

هذا ما وقع فى تركيا ودام إلى الانقلاب اللاديني الحديث الذى ظهرت مقدماته فى حكومة حزب الاتحاد والترقى وتم فى عهد الكماليين، وإنما كان يتقدمه فصل المحاكم

الجزائية فقط عن المشيخة الإسلامية ، المحدثة بمدمراجمات مزعجة من الدول الكبيرة المسيحية ، ومثلها في الحدوث محكمة التجارة . فكانت هذه المشيخة تمثل أكبر وزارة وأوسع دائرة حكومية تعادل مشيخة الأزهر شعبة من شعبها مختصة بالإشراف على المعاهد الدينية ، وبالنظر إلى هذا فشيخ الأزهر لا يجاوز مستوى سلطته الحكومية مستوى مدير الجامعة ، وإكباره باسم شيخ الإسلام كما يقع من بعض المتحمسين أو اعتباره في مرتبة الوزراء بل تفضيله على بعضهم ، إكبار مصطنع لا مبرر له مما يدخل في اختصاصه من السلطة الحكومية ، إلا كون مرتبه أكبر من مرتب الوزراء ، وهذا مما يدل على كون مصر لا تكبر غير المنفعة المادية ، وكان صديق الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب قال لي وأنا قريب العهد بنزول مصر : «يوزن علم العلماء في الأزهر بمقدار ما يتقاضى من المرتب الشهري فيعتبر أعلم الناس أكثرهم مرتبا[1]» .

أما استقلال مشيخة الأزهر عن الوزارة وارتباطها بالملك فلا يصح مبررا لإكبارها كأحد موظفي القصر ، وقد مر زمان على مصر أريد فيه فك ارتباط شيخ الأزهر بالملك وجعله مربوطا برئاسة الوزراء حتى ان فضيلة الشيخ المراغي نفسه اختار فيما مضى الرابطة الثانية ، فهذا المنصب يتردد بين أن يكون من الوظائف الداخلة تحت أمر جلالة الملك أو تحت

---

[١] لا يكون إعظام مقام رجل ديني بالتسمية والكلام ولا بتقديمه في المجامع والمحافل ، فكل بلاد أخذت حكومتها تنفصل وتبتعد عن الدين فمقام الرياسة الدينية فيها تنخفض وتتصاغر على حسب ذلك الانفصال والابتعاد إلى أن تنتهي الحال إلى ما انتهت إليه في تركيا الجديدة اللادينية . أما ابتعاد رئيس الدين نفسه عن الدين ساعيا إلى هدم أصوله وقواعده القديمة المتأسسه كما وقع في عهد مشيخة الأستاذ الأكبر المراغي وكان يبدي ما أضمره نحو قوانين الإسلام في ملابسات شتى ، منها كلامه مع وفد الشبان العراقيين المنشور في الأهرام ٢٨ فبراير ١٩٣٦ : «إن من ينظر في كتب الشريعة الأصلية بعين البصيرة والحذق يجد أنه من غير المعقول أن تضع قانونا أو كتابا أو مبدأ في القرن الثاني من الهجرة ثم تجيء بعد ذلك فتطبق هذا القانون في ١٣٥٤ هجرية» — فشيء أفظع مما تنتهي إليه الحال في تركيا .

أمر رئيس الوزراء وتفهم درجته على تقدير ارتباطه بالقصر من درجته على تقدير ارتباطه بخارج القصر ، ولا يقاس قطعا بمنصب المشيخة الإسلامية التى لمن تولاها مقعد ممتاز فى مجلس الوزراء مع الاتصال المباشر بالسلطان مقترنا اسمه باسم رئيس الوزراء الملقب بالصدر الأعظم على أن يكون نصبهما خاصة من حقوق السلطان المنصوص عليها فى الدستور . وقد كان البروتوكول فى الدولة العثمانية يقدِّم الصدر الأعظم على خديو مصر كما ذكر فى مذكرات أحمد شفيق باشا، ولعل شيخ الإسلام كذلك .

ليس المقصود هنا المباهاة بالموازنة بين الدرجات لاسيما درجة الصدر الأعظم وشيخ الإسلام المنتقلين إلى تاريخ العهد القريب مع الخلافة الإسلامية ، وإنما المقصود التنبيه على أن منصب الرئاسة الدينية بمصر أقيم فى خارج السلطة الحكومية بمكان ضئيل محدود لايسمع منه صوت فى سياسة الدولة وفى محافظة معالم الإسلام غير صوت الدنانير .

نعود إلى الأستاذ على عبد الرازق بك وكتابه الذى ألفه حين كان قاضيا شرعيا بمدينة المنصورة وأراد بتأليفه تأييد ما فعله مصطفى كمال فى تركيا من إلغاء الخلافة ، وإن لم يصرح فى كتابه بهذا التأييد . وكان المدافعون الترك عن فتنة الإلغاء يقتصرون فى نقد الخلفاء وتزييف الخلافة على التكلم فى ما بعد عهد الخلفاء الأربعة الراشدين على الأقل ، فابتدأ الأستاذ قاضى المنصورة التزييف من خلافة أبى بكر مدعيا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن له حكومة حتى يكون أبو بكر خليفته فيها ، وإنما كانت له نبوة وهى لاتقبل الخلافة ، قال المؤلف عما له صلى الله عليه وسلم : « رسالة لاحكم ودين لادولة » أما تلقيب أبى بكر من الصحابة بخليفة رسول الله وعدم إنكار أبى بكر ذلك اللقب فيقبله المؤلف على أنه تعبير مجازى مستعمل فى معنى الزعامة على المسلمين المنتقلة إلى أبى بكر بعد وفاة رسول الله ، لا الخلافة بالمعنى المصطلح المتضمن للرئاسة الدينية .

نزع الأستاذ على عبد الرازق بك الدين من حكومة أبى بكر لينزع منها الخلافة حتى قال ص ٩٠ « طبيعى ومعقول إلى درجة البداهة أن لا توجد بعد النبى زعامة

دينية ، وإنما الذى يمكن أن يتصور وجوده بعد ذلك فإنما هو نوع من الزعامة جديد، ليس متصلا بالرسالة ولا قائما على الدين ، هو إذن نوع لاديني .

« وإذا كانت الزعامة لادينية فهى ليست شيئا أقل ولا أكثر من الزعامة المدنية والسياسية زعامة الحكومة والسلطان لا زعامة الدين . وهذا الذى قد كان » .

اجتهد الأستاذ قاضى المنصورة الشرعى فى تبرير حكومة مصطفى كمال بعد تجردها عن الخلافة والدين ، بتنزيل حكومة أبى بكر إلى درجة حكومته واعتبارها حكومة لادينية مثل حكومته كما تراه فى نص كتابه . ويترتب على هذا أن يكون حكومة الترك قبل مصطفى كمال التى لم تتجرد عن الصبغة الدينية أقرب إلى الدين من حكومة أبى بكر . ولا يخفى على أحد أن كلا من هذا اللازم وملزومه فرية ما فيه مرية . لكن الأستاذ أعقل من ادّعاء أن يكون أبو بكر معادلا لمصطفى كمال فى التباعد عن الدين ولا أن يكون ملوك الترك المسلمون من آل عثمان وغيرهم أقوى صلة بالدين وأقرب إلى الله من حكومة أبى بكر . ومن أجل هذا لا أود أن أتعدى فى نقد مدعيات الأستاذ حدود ما يمكن أن يكون مراده منها تحريا للحق والصلاح .

فهو يريد قطع صلة الحكومات أية حكومة كانت بالدين على معنى أنها تنفصل بطبيعة موضوعها وغايتها عنه . فأى أمة أوملك خلطت حكومتها بالدين وجعلتها خلافة عن رسول الله فقد أخرجتها عما وضعت له وإن كان بعض الملوك تكلف فأراد تحلية حكومته بصبغة الدين توهما منه فيها تقوية حكومته وإعلاء قدر مقامه فى عيون الناس . وإن اختارت أمة هذه الصبغة لحكومتهم توهما منهم فى ذلك تقوية دينهم فالدين للشعب والسياسة للحكومة ، ولا علاقة لها بالدين إلا بأن يكون رجال الحكومة أيضا متدينين فى حالاتهم الشخصية مثل الشعب الذى يمثلونه . والمقصود من هذا الفصل بين الحكومة ودين الشعب تحرير المتولين للأعمال الحكومية عن التقيد بالقيود الدينية ليكونوا أحرارا فى العمل بما يرون فيه نفع الدولة والأمة ، فهذا التفريق بين الدين والدولة زعما ينفع

الدولة والأمة ولا يضر الدين فى شىء ، فلكل منهما عالم غير عالم الآخر . هذه غاية ما يمكن أن يكون مراد الأستاذ ويكون مع ذلك معقولا فى إرادته .

وأنا أقول بعد التنبيه على إنه أعقل من أن يكون مراده فى تقدير حكومة أبى بكر حكومة لادينية ، كذا وكذا : إنه لابد من وجود نقص فى تفكير الأستاذ أو على الأقل فى غيرته على الدين ، حيث لا يفهم ما فى فصل الدين عن الدولة من ضرر بالغ للدين أو لا يبالى بهذا الضرر إن كان يدعو إلى الفصل على الرغم من فهم ذلك ، فهل هو لم يفهم إلى الآن ماحدث فى تركيا بعد إلغاء الخلافة وفصل الدين عن الحكومة من ابتعاد المجتمع عن الإسلام تبعا لابتعاد الحكومة ، أوفهمه ولكن تجاهل لهواستمر على إكبار محدث هذا الانقلاب فى تلك البلاد ، وعده نهوضا حقيقيا لها وتمنى مثله لمصر ولو كان هذا التمنى مختفيا فى قلبه لم يعلنه بعد كما تمناه وأعلنه الأستاذ فريد وجدى ؟ (ص٣٦٨ جزء أول) فهذان الاحتمالان لا يبعد من الأستاذ مؤلف كتاب « الإسلام وأصول الحكم » القائل (ص ٣٧ ـ ٣٨) فى مقالاته على الجرائد بمناسبة مسألة ترجمة القرآن المحدثة فى تركيا الكمالية للاستغناء بها عن القرآن العربى :

«هل كان فى شىء من مصلحة المسلمين لدينهم أو دنياهم تلك التماثيل الشلاء التى كان يقيمها ملوك مصر ويلقبونها خلفاء . بل تلك الأصنام يحركونها والحيوانات يسخرونها . ثم ما بال تلك البلاد الإسلامية الواسعة غير مصر التى نزعت عنها ربقة الخلافة وأنكرت سلطانها وعاشت ومازال يعيش كثير منها بعيدا عن ظل الخلفاء وعن الخضوع الوثنى لجلالهم المزعوم ، أرأيت شعائر الدين فيها دون غيرها أهملت وشؤون الرعية عطلت ـ أم هل أظلمت دنياهم لما سقط عنها كوكب الخلافة ، وهل جفتهم رحمة الأرض والسماء لما بان عنهم الخلفاء ؟ كلا .

باتوا فما بكت الدنيا لمصرعهم ولا تعطلت الأعياد والجمع

« معاذ الله لا يريد الله جل شأنه لهذا الدين الذى كفل له البقاء أن يجعل عزه

وذله منوطين بنوع من الحكومة ولا بصنف من الأمراء ، ولا يريد الله جل شأنه لعباده المسلمين أن يكون صلاحهم وفسادهم رهن الخلافة ولا تحت رحمة الخلفاء ، الله جل شأنه أحفظ لدينه وأرحم لعباده » .

أقول ، ولا أكتم شديد أسفي من كون الأستاذ المؤلف قد أتى في الجمل الأخيرة المنقولة عن كتابه بالمثل الأعلى من كلمات حق أريد بها الباطل : إن الخليفة في عرف الناس يطلق على واحد يمتاز بين ملوك الاسلام، فهو لقب يخوَّل إليه من جانب المسلمين في أقطار العالم أو يرثه من أسلافه المنتهين إلى أبي بكر الصديق ولا يجوز تعدده وإن جاز انتقاله من أسرة إلى أسرة ومن قوم إلى قوم كالخلفاء الأمويين والعباسيين والعثمانيين، هذا هو الخلافة في عرف الناس والتي يظن الناس أنها المقصودة من إلغاء مصطفى كمال وتحبيذ الأستاذ المؤلف هذا الإلغاء ؛ لكن الخلافة الحقيقية عندي والمقصود إلغاؤها من الملغين في تركيا والمؤيدين لأفعالهم من خارج تركيا، هي الخلافة عن رسول الله صلى عليه وسلم في تنفيذ ماأتى به من شرعة الإسلام، وهذه الخلافة توجد في جميع الحكومات الاسلامية المستجمعة لشرائطها على قدر الإمكان وإن كان العرف العام جاريا على تخصيص واحدة معينة من تلك الحكومات بها ، لأنه إذا كانت هناك حكومة مع المراعاة لشرائط الحكومة الإسلامية ووظائفها فلا جرم توجد فيها النيابة التي ذكرنا وهي عبارة عن الخلافة بعينها . فاللازم في تحقق الخلافة اتباع الحكومة لقواعدها الإسلامية ، فيكون اتصاف حكومات الإسلام بالخلافة واستحقاق صاحب الحكم فيها بلقب الخليفة، على قدر ذلك الاتباع . وهذه الخلافة لا تكتسب باعتبار المتبير كالوراثة والتوجيه من قبل شخص أو جماعة ، ويجوز تعدد الخليفة بهذا المعنى الحقيقي على قدر تعدد الحكومات من هذا القبيل ، ولا يكون امتياز الخلافة بالمعنى السابق المعروف على الخلافة بالمعنى الثاني الحقيقي إلا في كون الأولى مسلسلة متصلة الإسناد بالخليفة الأول المتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم ومبروكة من هذه الناحية ، ومع هذا فقد يكون ما ذكرنا من الخلافة بالمعنى

الثانى أصح وأفضل من الخلافة بالمعنى الأول بالنظر إلى اختلاف أشخاص الخلفاء فى تحقيق معنى النيابة عن رسول الله فى أنفسهم .

قلنا إن الخلافة بالمعنى الثانى الحقيقى هى المقصودة بالإلغاء فى ضمن إلغاء الخلافة بالمعنى الأول الرسمى ولاسيما المقصودة من تحبيذ الإلغاء بتأليف كتاب الأستاذ المؤلف، لأن فصل الدين عن السياسة الذى يدعو إليه هذا التأليف حاصل فى إلغاء هذه الخلافة بالمعنى الثانى الحقيقى المنبئ عن اتباع الحاكم فى حكومته لقوانين الإسلام ومتفق مع ما يرمى إليه الملغى ومؤيده فى كتاب ألفه، من تحرير الحكومات من التقليد بقيود الشريعة الإسلامية ، ولا شك فى مضرة هذا المرمى وذاك التحرير بالدين . لكن المؤلف يتعزى بوجود خلفاء فى تاريخ الإسلام لم تنفع حياتهم الإسلام وما ضره موتهم ، ويلتبس على القارئ أمر الخلافة الحقيقية المقصودة من الإلغاء بالخلافة الرسمية الشكلية . وقد اعتمد فى هذا التشويش على أن الخلافة التى ألغيت فى تركيا كانت هى تلك الخلافة الرسمية المنتقلة من السلف إلى الخلف والتى لا يستفيد الدين من وجودها كما لا يخسر من عدمها على ما هو المشهود فى كثير من الخلفاء . لكن هؤلاء الخلفاء الرسميين وحكوماتهم إن لم يكونوا نافعين للدين ما كانوا ممنوعين من أن ينفعوه ويخدموه ، وبعد إلغاء الخلافة فى تركيا مع إبقاء الحكومة أصبحت الحكومة المفترقة عن الخلافة مفترقة عن الدين أيضا ، كأن الذين ألغوا الخلافة ألغوا معها الدين ولا شك فى إلغائهم دين الحكومة إن لم يكن دين الأمة ، ومؤلف الكتاب نص على الاعتراف بهذا الإلغاء أى إلغاء دين الحكومة وأيده حتى بدعوى أن حكومة أبى بكر الصديق رضى الله عنها كانت أيضا لادينية ، وحسب الأستاذ هذه الدعوى قاضيةً على كتابه قبل قضاء الناقدين .

فإن كان له دعوى أخرى قائلة بأن لادينية الحكومة لا تنافى ديانة الأمة كحالة تركيا الحاضرة لانصدقه فى دعواه . والتردد فى كون معالم الإسلام أخذت تندرس فى

تركيا التى استتبع إلغاء الخلافة فيها إلغاء الدين حتى مُنع السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وسدت المحاكم الشرعية والمعاهد الدينية واستبدل النكاح المدنى بالنكاح الشرعى والحروف الأفرنجية بالحروف العربية وعُمد بذلك إلى قطع صلة الترك بالتاريخ الذى سبق لها فى الإسلام مهما كان هذا التاريخ مجيدا وعنى بتنشئة أبنائها المتعلمين نشأة لادينية وبعدم ذكر اسم الله جل شأنه فى الألسنة الرسمية ولم يسمح للصحف أن تنشر مقالات دينية ولو ردا على مقالات الاعتداء على الدين ... تردد لا يناقَش من تمسك به مثل التمسك بالكفر العنادى. والسبب فى انهيار دعائم الدين فى تركيا بعد إلغاء الخلافة وجعل فصل الدين عن الحكومة من لوازم ذلك الالغاء ، ظاهر مثل ظهور المسبب الذى هو وقوع ذلك الانهيار نفسه فى تلك البلاد وفى غيرها إذا حذت حذوها فى مبدأ الفصل ، لأن الدين والحكومة إذا افترقتا تغلبت الحكومة التى لا تفارق السلطة والسياسة ويفقدهما الدين، على الدين ، لأنهما إذا افترقتا فالسلطة التى فى جانب الحكومة تجعل الدين المفترق عن الحكومة تحت رحمة الحكومة، إن شاءت أكرمته وإن شاءت أهانته ، ولنقلْ: فإن كانت حكومة عاقلة مؤمنة بالدين على الرغم من انفصال الدين عنها وتحررها عن ربقته، تختار الشق الأول وفيه ما ينافى كرامة الدين من حيث أنه يعيش محميا ، فى حين أن مصر التى هى وطن المؤلف لا ترضى أن تكون تحت الحماية ، على أن الحكومة لو كانت عاقلة مؤمنة بالدين لما فصلت الدين عن نفسها وفضّلت أن تعمل تحت سلطة الدين عندما كانت الأمة تحت سلطتها. وإن كانت حكومة غير مؤمنة تشن على الدين حربا عوانا مضمونا لها الغلبة فى تلك الحرب لكون السلطة بيدها فى حين أن الدين أعزل من ذلك السلاح الحاسم .

اضطرنى الأستاذ المؤلف إلى إيضاح ما هو مستغن عن الإيضاح إذ لست أنا فى حاجة إلى إثبات وقوع الدين المجرد عن السلطة عند فصله عن الحكومة ، فى موقف العاجز المهان ، بعد أن رأى الناس خروج الخليفة عبد المجيد المجرد عن السلطة

والذى أطرى كثير من كتاب مصر هذا الوقف له وأسرف فى إكباره قبل خروجه من تركيا فى منتصف الليل ، بناء على أمر جاء من أنقره إلى مدير البوليس باستانبول ورآه الأستاذ أيضا قبل تأليف كتابه فلم يكفه زاجراً عنه وعن دعواه فيه المنكرة لخسارة الدين المفصول عن الحكومة، لما أنه لم يكن فى الإمكان إخراج الإسلام من تركيا محمَّلا للقطار الذى حُمِّل عبد المجيد أو للباخرة التى حُمِّلت آلَ عثمان ذكورا وإناثا فيشهدَ الناس إخراج الدين من البلاد كما أُخرجوا ويقتنع المسلمون الذين عقولهم فى عيونهم بذلك الإخراج ويكفّ الأستاذ عن تأليف كتابه استحياء من أولئك المسلمين

اطلعت على كتاب الأستاذ ، أو بالأصح على ترجمته إلى التركية من المسرعين الترك إلى استغلاله فى أغراضهم اللادينية [1] قبل مجيئى إلى مصر من تراكيا الغربية اليونانية وكنا نصدر فيها مع ولدى إبراهيم جريدة باللغة التركية سميناها يارين (الغد) فنشرت فيها كتابا عن الإمامة الكبرى مجزءا على أعداد الجريدة ضمنته الرد على كتاب الأستاذ .

لا يعترف الأستاذ فى كتابه بوجود حكومة النبى صلى الله عليه وسلم حتى تكون حكومة أبى بكر بعده خلافة عن حكومته ، ولهذا اشتغل كتّاب الرد عليه من العلماء فى مصر — مثل الشيخ بخيت رحمه الله والشيخ الخضر سلمه الله اللذين رأيت كتابيهما بعد كتابى — بتثبيت لوازم الحكومة الموجودة فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم التى يشتغل الأستاذ المؤلف بتأويلها وردها إلى غير معنى الحكومة . ولم أتوسع أنا فى تثبيت تلك اللوازم عند الرد على الأستاذ توسعَ الرادين عليه فى مصر ، إلا أنى عُنيت بغزوات النبى عليه الصلاة والسلام أكثر من عنايتهم وتمسكت بها فى إثبات حكومة

---

[١] والمسلم الجاد فى إسلامه تحترق كبده كمدا أن يرى مصر العربية فى حالة من الزيغ يستغلها ملاحدة الترك الجدد ، بعد أن كان قدماؤهم المسلمون أخذوا دينهم من العرب .

النبي كل التمسك حتى قلت إن غزواته صلى الله عليه وسلم كما قهرت الكفار وكسرت خصورهم فهى تقضى على الكتاب ودعوى مؤلفه الباطلة فيه رغم تقدمها الزمنى عليه بكثير . وقد كانت مناقشتى الأستاذ فى نشرات جريدتنا (ياربن) معلقة على ترجمة كتابه ، والآن بعد أن رأيت أصل الكتاب فلا مانع من أن أنقل السطور الآتية منه ثم أرد عليه ، ص ٥٢ :

« لاشك أن الحكومة النبوية كان فيها بعض مايشبه أن يكون من مظاهر الحكومة السياسية وآثار السلطنة والملك. وأول مايخطر مثلا من أمثلة لشؤون الملكية التى ظهرت أيام النبي صلى الله عليه وسلم مسألةُ الجهاد ، فقد غزا صلى الله عليه وسلم المخالفين لدينه من قومه العرب وفتح بلادهم ، وضم أموالهم وسبى رجالهم ونساءهم . ولا شك فى أنه صلى الله عليه وسلم قد امتد بصره إلى ماوراء جزيرة العرب ، واستعد للانسياب بجيشه فى أقطار الأرض ، وبدأ [1] فعلا يصارع دولة الرومان فى الغرب ويدعو إلى الانقياد لدينه كسرى الفرس فى الشرق ، ونجاشى الحبشة ، ومقوقس مصر الخ .

« وظاهر أول وهلة أن الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة إلى الدين ولا لحمل الناس على الإيمان بالله ورسوله ، وإنما يكون الجهاد لتثبيت السلطة وتوسيع الملك .

« دعوة الدين دعوته إلى الله تعالى، وقوام تلك الدعوة لا يكون إلا البيان وتحريك القلوب بوسائل التأثير والاقناع . فأما القوة والإكراه فلا يناسبان دعوة يكون الغرض منها هداية القلوب ، وتطهير العقائد ، وما عرفنا فى تاريخ الرسل رجلا حمل الناس على الإيمان بحد السيف ، ولا غزا قوما فى سبيل الإقناع بدينه ، وذلك هو نفس المبدأ الذى يقرره النبي صلى الله عليه وسلم فيما كان يبلغ من كتاب الله .

قال تعالى [2] « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وقال [3] « ادع

---

[١] إشارة إلى غزوة مؤتة وسرية أسامة بن زيد .

[٢] سورة البقرة [٣] سورة النحل

إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » وقال « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر »[1] « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد »[2] « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[3] .

« تلك مبادىء صريحة وأن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، كرسالة إخوانه من قبل ، إنما تعتمد على الإقناع والوعظ ، وما كان لها أن تعتمد على القوة والبطش ، وإن كان صلى الله عليه وسلم قد لجأ إلى القوة والرهبة فذلك لا يكون فى سبيل الدعوة إلى الدين ، وإبلاغ رسالته إلى العالمين ، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان فى سبيل الملك ولتكوين الحكومة الإسلامية ولا تقوم حكومة إلا على السيف ، وبحكم القهر والغلبة ، فذلك عندهم هو سر الجهاد النبوى ومعناه » .

لا نزيد على هذا فى النقل عن كتاب الأستاذ الذى زاد فى تأويل هذه المسألة ، مسألة جهاد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يخرج من البحث رغم زيادته فى دق أبواب التأويل بنتيجة تنفع أساس مدعاه الذى حام حوله فى كتابه أعنى به فصل الدين عن السياسة ونفى المانع عنه فى الإسلام ، فهو ينكر حكومة النبي ولا ينكر محارباته ويدعى أنه لا يحارب للدين ، ويحصى الآيات الناطقة بأنه لا إكراه فى الدين وأنه صلى الله عليه وسلم ليس بمسيطر وإنما هو نذير وما عليه إلا البلاغ ، فكيف تتفق محارباته مع هذه الآيات فإن لم تكن محارباته للدين فلابد أن تكون للحكومة ، وقد ادعى أنه لا حكومة له ، فإما أن يكون هذا خلفا أى تناقضا من المؤلف أو انتقادا صريحا للنبى بمحارباته على خلاف مسلك الأنبياء أو تكون حكومة النبي أيضا لا دينية فى مذهب المؤلف كحكومة أبى بكر .

وقد رأينا المنافاة ظاهرة لا تقبل التأويل بين نفى أن يحارب النبي صلى الله عليه وسلم للدين وبين قوله تعالى « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم

---

[١] سورة الغاشية [٢] سورة آل عمران [٣] سورة يونس .

جهنم وبئس المصير » وقوله « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » وفى آية أخرى « ويكون الدين كله لله » فهل ينكر الأستاذ الذى ينكر المحاربة للدين، الجهادَ فى سبيل الله وفى سبيل إعلاء كلمته ؟ فإن أنكره فهل ينكر قوله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم » فلا شبهة فى وقوع الغزوات النبوية ، ولا شبهة فى وجود آيات المحاربة فى كتاب الله . وهل يكون الجهاد المذكور فى كتاب الله المأمور به المسلمون إلا دينيا . فإن وجد التعارض بين تلك الآيات وأمثاله الكثيرة كقوله تعالى « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » وقوله « فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » وقوله « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » فالقرآن يعتبر أعداء المسلمين أعداء الله ويأمر بإعداد العدة والقوة لإرهابهم . وهل تكون حرب للدين فوق هذا ؟ فإن تعارضت هذه الآيات مع الآيات التى عددها الأستاذ مثل « لا إكراه فى الدين » أو « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » أو « إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » أو « وإن تولوا فإنما عليك البلاغ » ونسخت إحدى الطائفتين الأخرى لزم أن يكون الناسخ آيات الجهاد ، والمنسوخ آيات الاكتفاء بالوعظ والإرشاد ، ولا احتمال للعكس ، إذ لا يتصور بعد الحرب للدين، النهى عنها بناء على أن الدين لا يؤيَّد بالحرب وإنما يستند إلى الإقناع كما ادعى الأستاذ ، وإلا كان هذا النهى تخطئة للحرب الماضية الواقعة بأمر من الله .

ولك أن تدفع التعارض بين الطائفتين المذكورتين فى كتاب الله من غير ذهاب إلى نسخ إحدى الطائفتين ولكن بالتأويل فى آيات الاكتفاء بالوعظ والإرشاد لا فى آيات المحاربة التى لا تقبل التأويل ، فقوله « لا إكراه فى الدين » معناه لا حاجة فيه

إلى الإكراه فقد تبين الرشد من الغى وظهرت حجة الإسلام ، أو معناه قوله أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، والمراد أنك لاتهدى من اخترت ولكن الله يهدى من يشاء ، وكذا قوله إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر وقوله ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء. ولعل الكل تسلية النبى عليه الصلاة والسلام ودفع الحزن عنه على عدم إيمان قومه كما قال « لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يكونوا مؤمنين » وذلك فى أوائل عهد الدعوة حين كان المسلمون فى قلة وضعف ، ثم قال تعالى ، « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وابصرهم فسوف يبصرون » ثم قال « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » وقال « ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » وقال « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون الخ » فكيف يمكن القول بعد هذه الآيات التى أوردناها نماذج وتركنا أكثر منها ، بأن محارباته صلى الله عليه وسلم لم تكن للدين وبأنا ماعرفنا فى تاريخ الرسل رجلا حمل الناس على الإيمان بالله بحد السيف ؟ والأستاذ يعترض علينا بالتاريخ ونحن نعترض عليه بآيات القرآن الصريحة الحاثة على الجهاد فى سبيل الله أيما حث ، فهل يمكن أن يكون الجهاد المذكور فى القرآن الموعود من الله الجنة ثمنا له ، عملا غير دينى ؟ [1] وإذا لم تكن محاربات النبى صلى الله عليه وسلم للدين

[١] وفى مبسوط شمس الأئمة السرخسى فى أول باب « معاملة الجيش مع الكفار » ص ٣٠ الجزء العاشر : « وإذا غزا الجيش أرضا لم تبلغ أهلها الدعوة لا يحل لهم أن يقاتلوهم حتى يدعوهم إلى الإسلام ليعرفوا أنهم على ماذا يقاتلون ؟ وهو معنى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : « ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما حتى دعاهم إلى الإسلام » ولو قاتلوهم بغير دعوة كانوا آثمين فى ذلك ، ولكنهم لا يضمنون شيئا مما أتلفوا من الدماء والأموال عندنا . وقال الشافعى رحمه الله تعالى يضمنون ذلك لبقاء صفة الحقن والعصمة إلا أن يوجد الإباء منهم ؛ ولا يتحقق ذلك إلا أن يبلغهم الدعوة . ولكنا نقول العصمة المقومة تكون بالإحراز وذلك لم يوجد فى حقهم ، ولئن كانت العصمة بالدين كما يدعيه الخصم فهو غير موجود أيضا فى حقهم .

ولا للمُلك الذى نفاه عنه فى أول البحث فلماذا تكون إذن ؟ .

ولعل مايضطر الأستاذ إلى تحريف الواقع فى إنكاره المحاربة للدين عقليته المتأثرة من استنكار الغربيين هذه الحرب وتعييبهم الإسلام بها ، والمألوف من كتاب مصر وعلمائها عند الدفاع على مثل هذه الاتهامات الغربية الموجهة إلينا والذى أعيبهم أنا به، هو الدفاع المشوب بالتهيب والهرب الناشىء من قوة الغرب المتغلب على الشرقيين ، لكنى عندما توليت نقاش الغربيين أو مقلديهم فى مسائل تختلف أنظارهم فيها عما عندنا ، أناقشهم بجرأة لاهرب معها ولاوجل ، وليس بمعقول عندى إذا جرت مناظرة بين امرىء وبين الأقوياء منه فى السلاح المادى أن يناظر مشغولَ الذهن بضعفه فى ذلك السلاح فتتشوّشَ طريق المناظرة عليه ، مع أن ما رأيته بمصر تجاوز هذه المرحلة ، مرحلة التأثر والتهيب فأصبحت عقليات المسلمين المتكلمين عند درس المسائل الإسلامية عقليةَ الغرب بعينها وأصبح مايعيبه الغرب عيبا عندهم أيضا، كما فعل الأستاذ فى استنكار الحرب للدين حتى احتاج إلى أن يقول ان نبينا لم يحارب لدينه فوقف أمامى موقفاً سهل التغلب عليه فى المناظرة ووقف أمام الغربيين الواقفين على محارباته صلى الله عليه وسلم، موقف محرِّف الواقع المتزلف . ولست أنا مثل الأستاذ فأعيبُ الحروب الأخيرة الاقتصادية على الذين يعيبون الحروب الدينية ، وأعيّب المعائب على أمة عندى أن تحارب لتشبع هى وتجوع غيرها ، فكل غاية مادية تُبنى عليها المحاربة والمقاتلة بين البشر غاية خسيسة منشؤها الشره المعيب الحيوانى ، وأين هى بالنسبة إلى حرب دينية يقصد بها إعلاء كلمة الله وسوق الناس إلى ما يرشدهم ويسعدهم فى الدارين ، فضلا عن أن المحارب لله تمنعه مخافة الله عن أن يظلم فى الحرب وتجعلُ له فيها حدودا لا يجاوزها أثناء المحاربة ولا بعد انتهائها بالغلبة ، وهذه الحدود لا تشبه ما يسمى حقوق الدول التى هى ملعبة فى أيدى المتحاربين لاسيما فى يد الغالب . ثم إن كون الدين الذى يُسمى لتأييده من وراء الحرب ، حقا أو باطلا فى نفس الأمر خارجٌ من بحثنا ، ويكفينا فى تفضيل هذه الغاية على غاية

المنافع المادية ، فرضُ كونه حقا فى اعتقاد المحاربين ، وخصيصا يكفينا كون الكلام هنا فى الإسلام ، فقد كان المسلمون الذين يحاربون لنشر الهداية الاسلامية يذهبون إلى البلاد التى فتحوها بكل خير ونعمة فيتخذون الداخلين فى دينهم إخوانا لهم متساوين فى المرتبة والشرف ، لا مزية لأحد على الآخر من المسلمين القدماء الغالبين أو الجدد المغلوبين إلا بالتقى ، ويقولون عن غير الداخلين إلى دينهم : لهم مالنا وعليهم ما علينا ماداموا يؤدون الجزية ، وهى ضريبة غير مثقلة ترمى إلى الاستمرار فى حث أهل الذمة على الإسلام . ولينظر الأستاذ ما فعلت الدول العصرية الغالبة سواء كانت فى الحرب العالمية الأولى والثانية أو فيما قبلهما من الحروب بالمغلوبين وما لا تزال تفعل مجتهدة فى امتصاص ماعندهم من المنافع . ولا يمكن أحدا من أفراد الأمم المغلوبة بأى وسيلة من الوسائل أن يرتقى إلى درجة تساوى درجة الغالبين فينظروا إليه نظرهم إلى واحد منهم ويحبوه كما يحبون واحدا منهم ، وليس بمتصور مثلا أن يكون نظر الإنجليز إلى أحد من المصريين أو الهنديين كنظرهم إلى واحد من الإنجليز ، ومكانهُ فى قلوبهم كمكانه فيها .

راج فى العصور الأخيرة بقيادة الغربيين انقسام العالم على وحدات قومية وعنصرية يدعو كلٌّ قوم وكل عنصر أفراده إلى التعصب والتحزب تحت رايته ووهنت رابطة الدين بين الدعايات القومية بل عيبت واعتُبرت رجعية ووحشية ، وكان من أهم نتائج هذا التطور أن سيقت الدولة العثمانية الجامعة لأقوام وعناصر مختلفة من المسلمين، إلى الانشقاق والافتراق وسُرّت بذلك الدول التى تعاديها وتعادى معها الإسلامَ ؛ واليوم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تواجهت الإنجليز البريطانيون والأمريكيون بخطر استيلاء البلشفية على نصف أوربا الشرقى ثم عدواها منه إلى غربها أيضا ، ودلت سرعة هذا الاستيلاء والعدوى المسفرةُ عن عجز مقاومة القومية أمام تيار البلشفية ، على أن مستقبل البشرية موعود للجامعات الفكرية والمذهبية ـ إن حقا أو باطلا ـ التى هى

أكثر استعدادا لتوسيع دائرة انتشارها بسبب كون مبادئها أسهل وأسرع تمثيلا وتمثلا، في حين أن مبادئ القومية لا تقبل ذلك التوسع أبطأ مافيها من واسطة التمثيل والتمثل، فلا يتمكن أحد من غير الإنجليز مثلا إذا شاء أن يكون انجليزيا ليتضامن معهم تضامن الإنجليزي بالإنجليز ، ويتمكن آلاف من غير المسلمين أن يكونوا مسلمين في آن واحد أو من غير البلاشفة أن يكونوا بلاشفة ليتضامنوا فيما بينهم تضامن المسلمين بالمسلمين والبلاشفة بالبلاشفة . ومن أسباب ضعف المبادىء القومية تجاه المبادىء المذهبية ، دينية كانت أو اجتماعية أن المبادىء المذهبية التي تخاطب العقل وتقبل الاكتساب أكثر ملاءمة لطبيعة الإنسان الممتاز في فطرته بالعقل ؛ فلما كانت الأمم الساعية في العصور الأخيرة وراء التضامن القومي الذي لا يكون الامتياز به امتيازا عقليا ولم يقدر المبادئ الدينية قدرها ، لاسيما الإسلام الذي هو أشد الأديان اتصالا بالعقل وأنسبها للحصول على التضامن بين المنتمين إليه ، ابتلاها الله أي الأمم بالبلشفية التي هي شر المبادىء المذهبية ، جزاء لإعراضهم عن خير المبادىء المذهبية التي هي الدين .

نعود إلى الأستاذ المؤلف الذي ضاقت عليه السبل في تعليل محاربات النبي صلى الله عليه وسلم: فإن حارب لتأييد ملكه وحكومته فلا ملك له ولا حكومة وإن حارب لتأييد دينه فلا محارب للدين عند الأستاذ . ثم لاح له أن تكون محاربات النبي صلى الله عليه وسلم لتأييد زعامته لأمته وتقوية سلطته على الناس المبعوث إليهم لدعوتهم إلى الإيمان بالله وحده، تلك السلطة التي يلزم أن لا يعوزها الأنبياء وأن يكونوا من ناحيتها أقوى وأملك من الملوك .

ونحن نتعجب من فكرة الأستاذ هذه التي لا تخلو من التراجع من نفي حكومة النبي . ولكننا لا نتمسك به في الرد عليه ، وإنما نستخدم هذا الاعتراف الصريح من الأستاذ بسلطة النبي على أي وجه كانت ، في هدم أساس كتابه الذي يحوم حول فصل الدين عن السياسة مدعيا أن لا مانع عنه من جانب الدين فنقول : في أي جانب توجد

هذه السلطة اللازمة للنبي والتي تجعله قادرا على المحاربة لتأييد زعامته الدينية، عند فصل الدين عن السياسة بعد عهد النبي ؟ أفي جانب الدين ، أم في جانب السياسة ، أم في الجانبين معا ؟ ثم نقول لا محل للشق الأخير لكونه مثل وجود حكومتين في مملكة واحدة ، فتعين تجريد أحد الجانبين من السلطة التي تجعل الجانب الموجودة هي فيه قادرا على الحرب . ثم لا يتصور أن يكون ذلك الجانب المجرد جانب السياسة لعدم إمكان السياسة بدون سلطة حتى إن السياسة هي السلطة بعينها ، وكذا الحكومة. فلابد أن يكون المجرد من السلطة جانب الدين عند فصله عن الحكومة السياسية . وفيه ما قلنا فيما سبق من إلقاء الدين في حضيض العجز والمذلة ، بناء على أن القوة تدور مع السلطة وهو ظاهر . ففي تجويز فصل الدين عن السياسة والسلطة التي تلازمها، تجريد الدين من القوة وإطلاق يد الحكومة المفصولة عن الدين من التقيد بقيود الدين . فكل حكومة مقيدة بالقيود الدينية فهي ممتزجة بالدين غير مفصولة عنه ، وفي رأس هذا النوع من الحكومة حكومة أبي بكر الصديق خلافا للأستاذ المؤلف قاضي المنصورة الشرعي القائل بأنها حكومة لادينية .

كان غاية في الإغراب ادعاء أن يكون رئيس حكومة المسلمين الذين جرت العادة في صدر الإسلام على كونه هو إمامهم أيضا في الصلوات الخمس والذي كان تعيينه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في شخص أبي بكر مستدلا من استخلافه في مرض موته لأن يصلي بالناس نيابة عنه ، والذي قال رضي الله تعالى عنه في خطبته للناس بعد مبايعته « أطيعوني ما أطعت رسول الله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم »... غاية في الإغراب والشذوذ ادعاء أن يكون رئيس حكومة كهذا رئيس حكومة لادينية، فهل رأيتم أو سمعتم حكومة زمنية لا علاقة لها بالدين تدور رئاستها مع الإمامة في الصلاة؟

إن الأستاذ المؤلف غير ممكن أن لا يعرف هذه البديهيات ولا يعرف أن رمي حكومات أبي بكر وعمر وعثمان وعلي باللادينية مكابرة متناهية ، إلا أن الأستاذ كتب كتابه تأييدا

اصنع أنقرة فى إلغائها الخلافة — وإن لم يصرح فى كتابه بهذا التأييد كما قلنا من قبل أيضا — وأراد أن يضرب الرقم القياسى فيبتز بطولة الاستهتار الجدلى من كتاب تركيا الحديثة المؤيدين لأعمال انقره ، فحصل على مراده ، لأنهم على إيغالهم فى الشطط كانوا يقتصرون على الطعن فى خلافة الخلفاء المتأخرين ولا يطوف ببالهم مهما أعوزوا الإنصاف، الطعن فى خلافة الخلفاء الراشدين المنصوصة فى حديث « الخلافة بعدى ثلاثون سنة »، فإذا الأستاذ المؤلف يبدأ الطعن من خلافة أبى بكر .

وكنت أنا قد قلت فى « الإمامة الكبرى » الذى سبق ذكره من قبل والذى نشر مجزءا فى « باريز » ، قلت فيه نقدا لكتاب الأستاذ المار الذكر والذى أريدَ بنشره فى مصر تبريرُ ما فعله مصطفى كمال فى تركيا من إلغاء الخلافة الإسلامية وإقامة حكومة أنقرة اللادينية : « تبًّا لحكومة مبتدَعة لا يمكن الدفاع عنها إلا بالطعن فى خلافة أبى بكر وإنكار ما فى حكومته من الصبغة الدينية كما فعله الأستاذ قاضى المنصورة»

واليوم أقول فى كتابى هذا : ليس لأحد من عقلاء الشرق والغرب شك فى كون حكومة أبى بكر وعمر مثلا أعلى للحاكم الصالح العادل الذى يراعى حقوق الأمة ويسعى فى مصالحها أكمل مراعاة ومسعاة .. حتى إن عمر يوصى الناس من علا منبر الخطبة أن يقيموه إذا رأوا فى حكمه أى عوج فيقوم رجل ويقول إنا نقيمه بالسيف فيحمد الله عمر على وجود ذلك القائل فى شعبه ، وكنا نحن المسلمين نحمل كمال حكومة الشيخين فى الصلاح والفلاح على اهتمامهما بأحكام الإسلام وعلى كمال اقتفائهما آثار النبى صلى الله عليه وسلم حتى إن أبا بكر حارب لتنفيذ قانون إسلامى يجعل فى مال الغنى حقا معلوما للفقير . وبالاختصار كنا نعرف سر أفضلية حكومتى الشيخين من فضل الدين الذى أتى به النبى العربى، لكن الأستاذ يحاول فى قطع صلة فضائلهما الظاهرة الباهرة بالإسلام، أن لا يعترف بفضل الدين الإسلامى فى سمو حكم هذين الرجلين العظيمين الذى يشهد العالم بكونهما مثال الحكم السامى الانسانى .

فالأستاذ إذن كان كاتب دعاية وبطل رواية لا يمثل أمثالها إلا المبشرون أعداء الإسلام وأعداء مفاخره

وربما يُعدّ سهلا عليه مقابلة مؤاخذاتي بعدم الاكتراث لها أو بالدفاع عن كتابه أمام الدنيا الأخيرة التي أفسدت التيارات اللادينية عقلية عقلائها ، ولكن الموقف سوف يكون صعبا عليه عند الاحتكام إلى الله في المحشر تحت خصومة أبي بكر وعمر .

فالأولى بسعادة الأستاذ (على كلا المعنيين للسعادة) أن يستعجل في التأهب لذلك الموقف بتوبة علنية يسمعها قراء كتابه « الإسلام وأصول الحكم » معترفة بكونه مخطئاً في تأليفه . وإلى مخطئه الصائلَ عليه وصديقه الحقيق ، يسرني أن أنفعه بتخطئتي ساعياً لتعمير آخرته ، وقد لمست منه الأمل في تأييده الاتجاه الجديد الذي سبق ذكره في رقم ٣٢١ فاللازم الذي يفيد الأستاذ المؤلف في مستقبله الكبير ، رجوعه بنفسه عما قال في كتابه فآذى روحَ أبي بكر .. اللازم رجوعه بنفسه مُلغياً لذلك الكتاب ، لا رجوعُ هيئة كبار العلماء الأزهريين يوم ترشيح الأستاذ لوزارة الأوقاف عن قرارهم القديم القاضي بفصله عن الأزهر بسبب ذلك الكتاب ، ملغين سابقَ قرارهم بلاحقه .

وهنا أختم الكلام في هذا الكتاب بأجزائه الأربعة ، حامداً لله تعالى وسائلا أن يجمع شمل المسلمين بجامعة التمسك بدينه الذي أنزله على خاتم رسله ، كما قال خليفته أبو بكر : « لن يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

لواحق ووثائق

١

فى الفترة المتخللة بين انتشار الجزء الأول من كتابى والأجزاء التالية منه، انتشرت مقالة فى جريدة «شباب محمد» الغراء ١٦ ربيع الأول ١٣٧٠ بتوقيع عبدالرحمن الججمونى تخاطبنى وتناقش فى موقف الإمام الغزالى من مذهب وحدة الوجود وهذا نص المقالة :

موقف حجة الإسلام الإمام الغزالى من وحدة الوجود

خطاب من عالم جليل إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ مصطفى افندى صبرى

شيخ إسلام الخلافة العثمانية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ــ وبعد اطلعت على موقفكم الرائع حتى وصلت إلى صفحة ٢٦٦ فوجدت رأيكم فى حجة الإسلام الغزالى قد جاء من طريق ما أنكرتموه مما نقله الأستاذ أحمد أمين بك وغيره من النقول المقتضبة فرميتموه بتهمة القول بوحدة الوجود وقلتم فى أواخر صفحة ٢٦٧ (فالإمام الغزالى الذى تنكّر للمحسوس والمعقول وتنكّر لملوسه من نوعيهما وقع من التصوف فى هاوية وحدة الوجود) ثم عدتم فى صفحة ٣٦٦ إلى الكلام عن هذه الوحدة وقلتم (ورأيت بعد تفكير ملى أن هذه النظرية العظيمة الخطر والضرر، مشتقة من القول بأن وجود الله عين ذاته كما ذهب إليه الفلاسفة وتبعهم جمع من محققى المتكلمين) وهذا تصريح من فضيلتكم بأن وحدة الوجود ليست خاصة بالتصوف [١].

---

[١] يخطىء فضيلة صاحب الخطاب فى فهم تصريحى ، ويظن مذهب الفلاسفة وبعض المحققين من المتكلمين الذى اشتق منه مذهب وحدة الوجود ، مذهب وحدة الوجود وهما متضادان رغم اشتقاق بعضهما من بعض

مصطفى صبرى

ولما كان الإمام الغزالى سجل فى كتبه التى تمسك بها أخيرا مالا يتفق مع وحدة الوجود بوجه ما . أردت أن ألفت نظر فضيلتكم إليه :

١ — تجدون سماحتكم فى أول جزء من الإحياء عقيدة الإمام الغزالى تحت عنوان (كتاب قواعد العقائد) وبعد أسطر قليلة يقول فى تنزيه الله تعالى (وهو فوق العرش والسماء . وفوق كل شىء) إلى أن قال (وإنه بائن عن خلقه) ومن غرائب الاتفاق أن ابن تيمية وهو أكبر خصوم الغزالى يتفق معه على غير قصد ، فى هذا التعبير وذلك فى رسالته ، إبطال وحدة الوجود ، المنشورة فى المجلدين ٢٥ ، ٢٦ من مجلة المنار حيث يقول فى المجلد ٢٥ ج ٦ ص ٤٤١ مانصه (فالسلف والأئمة يقولون إن الله فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة) وابن تيمية يقصد بذلك بيان عقيدة غير القائلين بوحدة الوجود وقد سبقه إلى ذلك الإمام الغزالى كما تقدم فهو غير قائل بوحدة الوجود ، ولذلك عدد ابن تيمية القائلين بوحدة الوجود قبل ما تقدم ولم يعد الغزالى منهم ، فلو كان قائلا بها لكان أول المعدودين .

٢ — وتكلم الحافظ السيوطى فى ابطال الحلول والاتحاد ، وهى عبارة عن وحدة الوجود فألف رسالته (تنزيه الاعتقاد عن الحلول والاتحاد) فبدأ بنقل عبارات عن الغزالى من كتاب الإحياء. وقال فى آخرها مانصه (انتهى كلام الغزالى وبدأنا بالنقل عنه لأنه فقيه أصولى ، متكلم صوفى وهو أجل من اعتمد عليه فى هذا المقام لاجتماع هذه الفنون فيه)

وتجدون هذه الرسالة فى كتابه الحاوى بالجزء الثانى ص ٣٠٤ طبعة القدسى ، وقد عددتم السيوطى من علماء مصر الذين رضيتم عنهم فى أوائل ص ٣٦٦ من كتابكم الجليل .

٣ — وقد ألف الإمام الغزالى كتاب الإحياء حال سياحته وتمسك به إلى آخر حياته ، وعكف على دراسته ببغداد بعد رجوعه إليها من سياحته ، كما تراه فيما نقله السيد

مرتضى الزبيدى عن الحافظ بن عساكر فى ترجمته للغزالى ، فى مقدمة أول جزء من كتاب (إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين) فى الفصل الرابع من الترجمة المذكورة ، وقد نقل هذه العبارة ، وارتضاها الدكتور أحمد فريد رفاعى بك فى كتابه « الغزالى » بالجزء الأول ص ١٧٢ فى التنويه بكتاب الغزالى « المنقذ » ثم أتى بنص هذا الكتاب فى الجزء الثالث ص ٩٣ – ١٩٥ وفى ص ٩٥ منه يذكر الغزالى أنه أناف على الخمسين من سنه ، وهو متوفى سنة ٥٠٥ هجرية فيكون تأليفه للمنقذ قبل وفاته بخمس سنوات فقط ، وبين فى ص ١٨٢ أن خروجه من بغداد كان فى سنة ٤٨٨ هجرية ، وبلغت مدة العزلة « السياحة » إحدى عشرة سنة ، فكان رجوعه من السياحة سنة ٤٩٩ هجرية أى قبل وفاته بست سنوات، وقد تمسك فى هذا الكتاب بالإحياء كما تراه فى ص ١٦٢

٤ — صرح الغزالى فى ص ١٦١ من المنقذ أن تخيل الحلول والاتحاد خطأ وأنه يبين وجه الخطأ فى كتابه « المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » فهذا صريح فى عدم قوله بالحلول والاتحاد وهما عين وحدة الوجود ، وكما تمسك الغزالى فى المنقذ بكتابيه «الاحياء والمقصد الأسنى» تمسك أيضا بكتبه الموجودة «التهافت» و «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » و «القسطاس المستقيم» و « كيمياء السعادة » وذكر كتبا أخرى لم توجد ، والموجودة هى التى يصح أن يتمسك بها الباحث فى الغزالى له أو عليه ، ويصح التمسك أيضا بالكتب المذكورة فى الكتب الموجودة بالمنقذ ، وما عداذلك من الكتب الكثيرة المنتشرة، وخصوصا ما طعن فى نسبتها إليه مثل (المضنون به على غير أهله) فهى فى محل شك، ولايصح الاستدلال بها له أو عليه ، ومنها « كتاب منهاج العابدين » الذى ذكره السيد مرتضى الزبيدى فى تعداد كتب الغزالى فى أواخر الترجمة المذكورة ، وبين أن السبكى لم يعده فى كتب الغزالى وهو أحسن من ترجم للغزالى ، وتحرى عن كتبه، وقد رضيتم عنه فى تعداد علماء مصر كما ذكرتم فيما تقدم:

لذلك حررت هذا إلى فضيلتكم راجيا الاطلاع عليه والتكرم بإفادتى عما ترونه.
والرأى مفوض لفضيلتكم .
وتقبلوا فائق الاحترام ؟

عبد الرحمن الجمجمونى
كفر بجر — فؤادية

وأنا أقول: قرأت خطاب فضيلة الأستاذ المنشور وأنا مشغول بالإشراف على طبع الأجزاء التالية من الكتاب ، فتعجبت أولا من كون نصيب كتابى من مطالعة فضيلة الأستاذ ، أو نصيب الأستاذ من مطالعة الكتاب الشعور بواجب الدفاع عن الإمام الغزالى فيما وجهت إليه من الانتقادات ، وخصوصا فيما عزوت إليه من القول بوحدة الوجود . وتعجبت ثانيا من تعجّل فضيلته فى مؤاخذتى على الحكم باشتراك الإمام فى القول بوحدة الوجود مع القائلين بها من الصوفية ... تعجّل قبل الاطلاع على حقيقة هذا المذهب ، أو على الأقل قبل الاطلاع على رأيى فى حقيقته ، وكان يكفيه الجزء الأول من الكتاب مخبرا بأن مسألة وحدة الوجود يأتى تدقيقها متأخرا عن الجزء الأول الذى ينحصر فى مقدمة الكتاب الخاصة بأسباب تأليفه . فلهذا أرجأت الرد على مقال الأستاذ إلى مختتم الجزء الرابع الذى هو الجزء الأخير . ثم إن الأستاذ يأتى فى دفاعه عن الإمام الغزالى بشهادات من كتب العلماء المعروفين المعترفين بجلالة قدر الإمام أو براءته من القول بوحدة الوجود ؛ لكنى أنا بنيت انتقاداتى على أقوال الإمام نفسه فى مسائل معينة وفضيلته يبنى أكثر دفاعه على أقوال غيره عنه، وقد سبق فى مقالة الأستاذ أحمد أمين بك (٢٦٦ جزء أول) أن الإمام يقول بما ينقله عن على كرم الله وجهه : « نحن لا نعرف الحق بالرجال » .

ليس كتابى كتاب التراجم عن العلماء المعروفين بل كتاب العلم والموازنة بين العلم القديم والحديث لأقف حديثه الذى طغى على القديم، عند حده وأتوسل به إلى وقفا

التيارات المصرية اللادينية وما قصرت الـكلام على العلم الحديث بل لم آل جهدا عند الـكلام على مسألة وحدة الوجود ومسألة القضاء والقدر ، فى الاستعانة بدقائق العلم القديم والمنطق . فواجبى الذى التزمته فى الـكتاب هو القضاء على الدعاوى والمساعى الموجهة ضد عقـائد الإسلام ومبادئه . فمن أراد أن يجرّنى وأنا فى طريقى الطويلة الدقيقة المحتاجة إلى تجريد الذهن من الشواغل وسون الموضوع من التشتت ، إلى الخوض فى ترجمة الإمام الغزالى، كان كمحوِّلٍ وجهى عن المقصد الأسمى إلى مادونه ، غير قادر لخطورة الغاية التى أبتغى الوصول إليها ، حق قدرها.

سعيت فى هذا الـكتاب لإحياء عقيدة وجود الله ووجود أنبيائه ووجود معجزات أنبيائه الخارقة وكافحت العلم الحديث الذى سموه العلم المثبَت وبنوه على التجربة الحسية ولم يؤمنوا بغير ماثبت بهذا العلم ، على أنها حقائق ثابتة ثبوتا علميا . . لم يؤمن الغرب وتبعه الشرق الإسلامى الجديد ــ وهذه المملـكة المصرية تُعَدُّ منذ عهد الأستـاذ الإمام محمد عبده ، زعيمة الشرق الإسلامى الناهضة نهوضاً علمياً قائلاً بدستور العلم الحديث : « كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به » ذلك الدستور الذى ردّده رئيس تحرير مجلة الأزهر فى مقالاته والذى يدخل وينهار تحت سطوته وغلبته جميع العقائد الدينية المعترِفةُ بالغير منظور ونبوة غير منظورة ووحى ومعجزة وبعث وحشر وسؤال وحساب وثواب فى الجنة وعذاب فى النار كما عدده الأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة « الجـامعة » فى مناظرة الأستاذ الإمام محمد عبده ، وكان نصيب هذا الإمام فى هذه المناظرة الإفحام أمام خصمه . والدليل عليه تمسك الجيل المثقف الناشىء بعد عهد المناظرة وعلى رأسهم رئيس تحرير مجلة الأزهر، برأى الخصم. ألم يقرأ كاتب الخطاب قول رئيس التحرير الذى أسجّله عليه فى كتابى عند كل مناسبة: «..فى تلك الأثناء ولد العلم الحديث، ومازال يجـادل القوى التى كانت تساوزه حتى تغلب عليها ، فدالت الدولة إليه فى الأرض ، فنظر نظرة فى الأديان ، وسرى عليها أسلوبه فقذف بهـــا جملة إلى عالم الميتولوجيا

(الأساطير) ثم أخذ يبحث عن اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض ، فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديسا ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد لها الإنسان نفسه ، ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر في سبيلها روحه وماله .

«وقد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية ، فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا ، ووجد دينه ماثلا فيها فلم ينبس بكلمة لأنه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية ... »

فها أنذا حاولت في كتابي ما رآه الشرق الإسلامي أكبر من أن يحاوله ، وحملت على عاتق الضعيف المهزول بشتى أسباب الضعف والهزال ، قضية الإسلام الكبرى فدخلت معترك الشكوك التي أثارها أعداء الإسلام وفيهم الظاهرون في ثياب الأنصار ودافعت عن علم أصول الدين والعقل والمنطق التي أستهين بها كلها في الشرق الإسلامي الحديث، فعززتها ورفعت شأنها وأرسخت معالمها وناضلت في هذا السبيل كثيراً من كبار فلاسفة الغرب، فتوليت في الدفاع عن قضية الإسلام الدائرة في الألسنة ، أصعب ناحيتها التي هي الناحية العلمية، واستأنفت المناظرة الجارية بين الأستاذ الامام والأستاذ المنشيء وقضيت في الاستئناف على خصم الإمام ،كما استأنفت القضية القائمة بين الأستاذ الإمام وبين علماء الأزهر القديم حتى حصل الأول على الحكم من جانب الرأى العام ضد هؤلاء العلماء في إثبات الوحدانية لله تعالى وأعلن عجزهم عن هذا الإثبات. فأثبتُ عجز العازى إليهم العجز نفسه .

الحاصل أقول ـ وملئى الأسف على أن فضيلة صاحب الخطاب اضطرني إلى تعداد ما فعلت في كتابي ـ إن فضيلته يسعى لانقاذ الإمام الغزالى من الاتهام وأنا أسعى لإنقاذ عقائد الإسلام في الشرق الإسلامي ، من الانهدام ، فقد كفى ما في مصر من السعى

وراء الشهرة ، حتى راجت فى مصر بين العلماء شهرة الغزالى وشهرة ابن رشد الحفيد معاً فى حين أن هذين الشهورين متخالفان جداً فى المبادىء العلمية ، فماذا قول القائلين فى رواج المتخالفين كأنهما متحالفان (بالحاء) وما هذا إلا رواج التناقض ، ألم يقرأ القارىء فى كتابى هتافَ « قصة الفلسفة الحديثة » للأستاذ أحمد أمين بك والأستاذ زكى نجيب محمود ، لفلسفة هيجل التى يتصادق فيها المتناقضـان وتسميتَها بفلسفة هيجل العليا ؟

ولا أنسى كلام فاضل من فضلاء المسلمين مثل الأستاذ الجليل محمد احمد الغمراوى المتلىء القلب إيماناً بالدين وحماسة فى الدفاع عنه .. لا أنسى كلامه ضد علماء الكلام وتفضيـلَه العلم المستند إلى التجربة على العلم المستند إلى العقل ، وخدمتَه فى هذا التفضيل من غير تعمد، لدعوى الملاحدة ثم ختم كلامه ضد علماء الكلام بقوله: «حتى جاء أمثال الغزالى فوضعوا الأمر فى نصابه » وكم للغزالى من أقوال مقبولة وأخرى مردودة

حكى الأستاذ الأكبر المراغى فى ذكرى الأستاذ الإمام محمد عبده قول الإمام الغزالى : « أستصغر كل من بالـكفر لا يُعرف وبالضلال لا يوصف » فانتقدته عليه (انظر ١٣٥ جزء أول) .

أنكر فضيلة الشيخ شلتوت وجود الشيطان ، ثم أيد إنكاره بقول من الإمام الغزالى يوهم عدم وجوده (٣٠٦ جزء أول) .

رفع الإمام الغزالى فيما نقل عنه الأستاذ الـكبير أحمد أمين بك، الأمان عن شهادة الحس والعقل وعن عالم اليقظة، تأييدا لمذهب الفلسفة الريبية، فانتقدته عليه (١٦٦جزء أول)

قال الفاضل الهندى سليمان الندوى متم كتاب السيرة لمولانا شبلى النعمانى : « من العلماء من فسر معجزة انشقاق القمر بأنه تراءى لأهل مكة كذلك وإن لم ينشق فى نفسه » قال ومن هؤلاء العلماء شاه ولى الله الدهلوى فى كتابه « حجة الله البالغة » وإليه يميل الغزالى » فانتقدته عليه (١٧١ جزء رابع) .

وقال معالى هيكل باشا فى مقدمة الطبعة الثانية لـكتابه « حياة محمد » ص ٥٣ :
«وأكبر ظنى أن الذين كتبوا السيرة يؤيدون هذا الرأى لولا أحوال العصر أيام المتقدمين ولولا ان ظن المتأخرون أن فى ذكر ما لم يرد به القرآن من خوارق المعجزات ما يزيد الناس إيمانا على إيمانهم ؛ لذلك حسبوا أن ذكر هذه المعجزات ينفع ولا يضر . ولو أنهم عاشوا إلى زماننا ورأوا كيف اتخذ خصوم الاسلام ماذكروه منها حجة على الإسلام وعلى أهله لالتزموا ماجاء به القرآن ولقالوا بماقال به الغزالى ومحمدعبده والمراغى وسائر الدققين من الأئمة» (٥٧ جزء رابع) وهؤلاء المؤلفون والـكتاب عزوا إلى الإمام الغزالى أقوالا وآراء يستغلونها فى مبدأ إنـكار المعجزات الخارقة، وواجبى الذى التزمته فى كتابى أن أقضى على منابع هؤلاء المستغلين .

أما مذهب وحدة الوجود الذى يقول به القائلون من المتصوفة ويحبذه كثير من الناس الذين يسمعونه من قريب أو بعيد ولا يفهمون معناه حق الفهم ، هذا المذهب لا شك لصلة الإمام الغزالى به عند مكبرى الإمام ومكبرى ذلك المذهب ، فقد قال الإمام نفسه فى كتابه مشكاة الأنوار ونقل عنه المحقق الدوانى فى شرح العقائد العضدية [1] : « ترقى العارفون من حضيض المجاز إلى ذروة الحقيقة فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس فى الوجود إلا الله » وهذا النص من الغزالى يرمى إلى مذهب وحدة الوجود على مافسره المحقق الـكلنبوى فى تعليقاته الـكبيرة القيمة على شرح الدوانى.. [2]

---

[١] هـذا الشرح وتعليقات الفاضل الـكلنبوى عليه كانا من الـكتب المدرسية المعتبرة فى المعاهد الدينية ببلادنا .

[٢] والفاضل الـكلنبوى يصرح فى هذه التعليقات (ص ٤٤٥) بأن الإمام الغزالى من القائلين بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، ولا يخفى أنه قول بالإيجاب فى أفعال الله تعالى المنافى لـكونه فاعلا مختارا فيها . وقد قال صاحب الفصوص فى فص أيوب إن السبب فى عدم إمكان ما هو أبدع مما كان، كون العالم على صورة الرحمن.

وهذا التفسير ينطوى أيضا على تصريح من الغزالى بتشبيه العلم الظاهر الذى يسمى به العلوم المأخوذة من الكتاب والسنة ، بالمكان الوضيع الذى لا يرى منه مكان العلم الباطن (راجع ٩٤ جزء ثالث) وهناك كلمة ممقوتة معزوة إلى الغزالى نقلا عن مشكاته قائلة بأن لا إله إلا الله توحيد العوام، وتوحيد الخواص لا موجود إلا الله ، والمازى يحاول التأييد لمذهب وحدة الوجود بتلك الكلمة (راجع ٩٥ جزء ثالث) . وقد اهتم صدر الدين الشيرازى فى الأسفار الأربعة بقول للإمام الغزالى لا يقوله إلا غلاة الإتحاديين، واهتممت أنا بالرد على ذلك القول فى الرقم (١٧٢ – ١٧٦ جزء ثالث)

نعم ، بينما أرى أقوال الإمام الغزالى التى تنم على اعتناقه لمذهب وحدة الوجود نميمة ظاهرة تستجلب عليه أعنف الحملات ، أريد أن أظن اعتناقه لذلك المذهب الباطل [١] غلطا ناشئا من أقواله فى وحدة الشهود ، لا ناشئا من تعيين الحقيقة لله تعالى على أنها الوجود المطلق، تلك الفلسفة الصوفية التى تمسك بها صاحب الفصوص وأعوانه مشتقةً من المذهب الفلسفى والكلامى القائل بأن حقيقة الله الوجود المجرد عن الماهية . وقد أشرت إلى هذا الظن الذى أقصد به مصلحة الإمام، فى هامش الصفحة (٢٨٩ جزء ثالث).

والذى يهمنى ويعنينى عند الكلام على مذهب وحدة الوجود بما يقتضيه موضوع الكتاب والمفهوم من اسمه ، تدقيق المذاهب من منشئه ومآله حتى يتبين بطلانه فى نظر القارىء ، كائنين من كانوا أصحاب المذهب . ومعنى هذا ان المهم إبطال المذهب لاتعيين الذاهب. فإن ذكرت الأسماء مع الأقوال التى رأيتها فى كتب المؤيدين للمذهب أو المنكرين، فالمطلوب رد الأقوال المؤيدة على قائليها ولو كان القائل الغزالى . فإن كان الغزالى لم يقلها ، أو قالها ثم رجع عنها فليس ذلك يضرنى بل يسرنى بصفة أنى توليت

[١] ولا يجوز لقارىء الصفحات الطويلة العريضة التى خصصتها لشرح ماهية هذا المذهب من الكتاب أن يشك فى بطلانه .

إبطال ذلك المذهب ، واستعدوا للغزالى بل باحث المذهب ومبطله.

أما كون الغزالى على هذا المذهب أو كونه ثابتـاً عليه إلى آخر عمره ، فلا يهمنى تحقيق ذلك . وربما يمنعنى أو يعوقنى الاشتغال بتحقيق هذه النقطة ، عن القيام بحق ما توليته وادعيته من إبطال ذلك المذهب الغامض بصورة مبتكرة لم تخطر ببال أحد غيرى ، ولا أغالى إذا قلت إن الاشتغال بتحقيق موقف الغزالى من المذهب ، أجنبى عن صدد النظر فى نفس المذهب لإثباته أو إبطاله .. فلست أنا أريد أن أقول بوحدة الوجود إن كان الغزالى قال به ولا أن أتخلى عنـه إن لم يقل الغزالى أو قال ثم رجع عنه ، حتى أوجه كل اهتمامى أو جُله إلى الاطمئنـان على تحقيق رأى الغزالى فيه ، وإنما هو شأن غير الباتّين فى الحـكم بعقولهم أنفسهم ، فيوازنون درجة المذاهب فى الصحة أو السقامة بدرجة مراكز المنتمين إليها . فلو قصَرتْ استطاعتى أنا الذى أدركت بإلهام من ربى أن مذهب وحدة الوجود يحفه البطلان من كل جانب ، وتوليت إثبات وإيضاح تلك الأباطيل . . . لو قصرت استطاعتى عن إبطاله بتقويض دعائم المذهب فى نفسه وصميمه، فحوّلتُ وجهى إلى الـكلام فى نسبة هذا المذهب إلى الغزالى، وأقمت تحقيق القول فى موقف الغزالى منه، مقام تحقيق القول فى صحة المذهب أو فساده فى نفسه ؛ لـكنت متعزيا بالأول عن الثانى الذى هو مطلوبى من كتابى، وهو كتاب المبادىء لا كتاب التراجم .

لواحق ووثائق

٢

وجاءنى أيضا فى الفترة المتخللة بين انتشار الجزء الأول من الكتاب وانتشار الأجزاء الباقية ، خطاب من قارىء كريم فى بغداد نسيت اسمه ولم أجد الخطاب بين أوراقى المبعثرة التى كثيرا ما يكون لى الوصول منها إلى ما أضعه فى مكان خاص ثم أنسى ذلك المكان، أصعب علىّ من الوصول إلى غيره .. قارىء كريم يغدق علىّ الثناء ويغالى فيه فيلقبنى فقيه الأمة ثم يسألنى عن جواز تشريح الميت رغبة فى خدمته المشهودة لعلم الطب .

وإنى أستكثر لنفسى لقب الفقيه بله فقيه الأمة، وإن كنت أميل فى هذه المسألة إلى التجويز بشرط عدم الإسراف والاستهتار فى العبث بأعضاء الميت الذى يوجب الإسلام صيانتها واحترامها فى الأحاديث النبوية المبسوطة فى خطاب القارىء .. أستكثر لقب الفقيه لنفسى ولهذا لم ينته كلامى فى هذا الكتاب إلا بعد التنبيه فى أواخره إلى أن الاجتهاد فى الفقه مرتبة عظيمة لا أعدنى بلغتها وعمرى يجاوز الثمانين ، كما أنه قد سبق فى أول الكتاب أن والدى لما رآنى مدرسا شابا فى جامع السلطان محمد الفاتح بالآستانة لم يطمئن على كفايتى للقيام بحق تلك الوظيفة .. ولم يكن هو يومئذ غالطا فى رؤيته أو غامطا حق ، كما أنى لست اليوم بأحدهما .. أقول قولى هذا وأنا أفضل الحق والصدق فى كل شىء . لأن مرتبة الاجتهاد فى الفقه يتوقف بعد قوة الفهم على ذاكرة قوية ومطالعات جد واسعة تنقصاننى من ناحية الفطرة والمزاج والظروف والحياة الهادئة البعيدة عن غوائل السياسة التى قضيت فيها أكثر من نصف عمرى..فالجهاد الدينى والسياسى مما عاقنى عن بلوغ مرتبة الاجتهاد ، كما أن صدق القول حال بينى وبين النجاح فى السياسة . وكتابى هذا بعد اعتزال السياسة إن دل على معنى ينبىء عنى فإنما يدل على جهاد أكثر من الاجتهاد الذى يبحث عنه فىّ كاتب الخطاب.. وعلى رغمى إن دل على الاجتهاد فى العلم أيضا فإنما يدل على الاجتهاد من نوع آخر ، وهو الاجتهاد فى العلوم العقلية التى تلتئم مع فطرتى ومزاجى والتى لا يبتعد عنها علم أصول الدين ، ولا يبعد عنها أيضا التعمق فى اختيار المعنى الأقرب إلى انطباق النص عند تفسير آيات القرآن..فقصر باعى فى المسائل الفقهية الواسعة الأرجاء ــ التى فيها المسألة المستفتَى عنها ــ لا يمنعنى من الخوض فى معمعان الحرب ضد تيارات الشكوك والفتن اللادينية .

لواحق ووثائق

٣

قد سبق منا فى هذا الجزء الأخير من الكتاب (رقم ١٦٥) كلام عن خطبة الشيخ جمال الدين الأفغانى التى ألقاها فى حفلة بالآستانة فاستهدفت نقد السامعين من علماء الدين ، وفيهم والد فضيلة الشيخ عبد القادر المغربى على تصريح فضيلته المنقول فى الرقم المذكور، مع دفاعه عن الخطيب دفاعا لا يخلو من الغرابة، لتضمنه اتهام والده فى سبيل تبرئة الشيخ جمال الدين .

وأخيرا تلقيت من فضيلة صديقى الأستاذ الجليل الشيخ محمد إحسان الوظاف فى قلم المحفوظات التاريخية بسراى عابدين، صورة من خطبة الشيخ جمال الدين التى ألقاها فى حفلة افتتاح دار الفنون العثمانية (جامعة) ١٩ يوم الأحد من شهر ذى القعدة سنة ١٢٨٦ وانتشرت فى « تقويم الوقائع » التى هى جريدة الدولة الرسمية بعدد ١١٩٢ يوم الأربعاء من ذى القعدة سنة ١٢٨٦ [١] والخطبة ملقاة باللغة العربية لا باللغة التركية كما قال فضيلة الشيخ عبد القادر المغربى وبنى عليه دفاعه عن الخطيب . وهذا نصها نثبته هنا خدمة للتاريخ وشكرا لفضيلة الصديق :

« الحمد لله الذى أظهر من سماء الدولة العزيزية الإسلامية شموساً مشرقات وأضاء بأنوارها كل العالم بجملها وكلاء وأقرهم فى مجرة الخلافة وأبرز من فلك السلطنة العثمانية المحمدية بدوراً بارقات ونوّر بضيائها جميع بنى آدم قصيرها وزراء وأثبتهم فى منطقة

---

[١] ومن غريب المصادفات أن هذا العام الهجرى هو عام تولدى مع تقدم سبعة أشهر وسبعة أيام على يوم إلقاء الخطبة، أعنى ١٢ ربيع الأول ١٢٨٦ ولى بيتان فى ذلك أنشدتهما مفتخرا ومضمنا لمصراع من قصيدة البوصيرى :

أكرم به مولدا واسما لشرفنى ... بمصطفى الله فى الأمرين تسويتى

فلى المزيد على ما قال قائله ... « فان لى ذمة منه بتسميتى »

العدالة . والصلاة على العقول العاليات والنفوس الزاكيات لا سيما العقل الكل ومقنن السبل والمقتبسين من أنواره الذين بلغوا أعلى المقامات . وبعـد يا إخواننا افتحوا عين البصيرة وانظروا بنظرة العبرة وقوموا من نوم الغفلة واعلموا بأن الملة الإسلامية كانت أعز الملل رتبة وأجلها قدراً وأكثرها فطانة ودراية وفراسة وأشدها مجاهدة وأبلغها سعياً إلى أن أدى الملة[1] طلب الراحة والكسل إلى ملازمة زوايا المدارس وخبايا التكايا حتى كاد أن تنطمس أنوار محاسنها وتندرس أعلام معارفها وتميل شموس إقبالها إلى الكسوف ويدور إجلالها إلى الخوف وغلب على بعضها أقوام ألبسوه ثوب الذلة وجعلوا أعزة ذلك البعض أذلة بسبب عدم الانتباه والبطالة وقلة الاجتهاد والدراية والآن ــ الحمد لله ــ بيامن أمير المؤمنين وظل رب العالمين أيد الله به الدولة والدين وبهمم وكلائه ووزرائه الراشدين الكاملين قد أصبحت الملة الإسلامية فى هذه الممالك المحروسة العزيزية مستنيرة الأطراف مشرقة الأكناف يكاد سنا برقها يخطف الأبصار وطلعت شمس شرف السلطنة المحمدية من مغربها وانتشرت أنوارها على كل الأقطار .

يا إخواننا إن أمير المؤمنين ووكلائه الراشدين قد مهدوا لنا مكاتب وبيت الحكم والعلوم ودار المعارف والفنون لأن نجتهـد فى تحصيل أنواع المعارف ونعرج بها إلى مدارج الإنسانية ونخلص أنفسنا من الجهـل والصفات الحيوانية فيجب علينا أن ندعو ونشكر لهم على نعمهم هذه وأن نجتهد فى تحصيل الكمالات الموصلة إلى العز والشرف وأن نحفظ أعمارنا من الإضاعة والتلف وأن نغتنم الفرص وأن لا نترك ما يفيدنا والملة ونصرف أعمارنا فيما لا يفيد وأن لا نضيع شرف السلف وحقوق الخلف ولابد لنا من أن نحرم على أنفسنا الراحة ونصرف أفكارنا فى إعزاز أبناء الجنس والملة وأن نسلك الطرق الموصلة إلى مراتب الحكمة وأن نسعى فى تحصيل زيادة شرف الأمة.

---

[١] هكذا فى الأصل . ولعل صوابه : طلب الملة .

يا إخواننا أفلا تعتبرون بغيركم من الطوائف المتمدنة قد بلغوا بجدهم وسعيهم إلى غايات المعارف ونهايات المعالى وليس فى هذا الآن مانع من الترقيات مع جميع أسبابها إلا الكسالة وقلة العقل والجهالة أقول ذلك وأحمد الله على ما أنعم على بنعمة الهجرة والالتجاء إلى هذه الدولة المؤيدة العادلة جعلنى وإياكم من العارفين بقدر نعمها وإحسانها وأدام علىّ وعليكم رضاها ومراحمها وتخليد سرير ملك صاحبها إلى آخر الزمان آمين »

لواحق ووثائق

٤

وهذه عشر مقالات قديمة نشرت فى الأهرام قبل ١٧ عاما أولاها المؤرخة ١٩٣٣/٨/٦ لأحمد زكى باشا ، وثانيتها للأستاذ فريد وجدى ردا على مقالة الباشا ، ثم مقالتى أنا المؤرخة ١٩٣٣/٨/٢٦ ردا على مقالة الأستاذ ، ثم المقالات الست التى تعاطيناها مع الأستاذ أو بالأولى تراشقنا بها ثم مقالة الأستاذ المؤرخة ١٩٣٣/١٠/٣ ردا على مقالة الشيخ رشيد رضا الذى رأى الأستاذ ميله إلى جانبى فى مسألة المعجزات والمتشابهات .

وقد وقع قبل انتهاء النقاش بينى وبين الأستاذ تعيينه مديراً ورئيساً لمجلة الأزهر التى كان عنوانها يومئذ «نور الإسلام» وقع هذا كمكافأة للأستاذ مقابل خروجه فى مقالاته على عقائد المسلمين ، ومع هذا فمقالته الرابعة التى عنوانها « تفصيل بعض ما أجملناه فى المتشابهات » تنم على بعض تراجع صريح من غلوائه ينحو نحو تعميرما فى مقالاته المتقدمة من خرائب الزيغ ، فلعله أتاه تنبيه من الذين منحوه الوظيفة الأزهرية ، إلى المحافظة على الظواهر بتصليح ما يمكنه مما أفسده ، فتراه فى هذه المقالة يغير لسانه وينكر إنكاره لمعجزات الأنبياء وأحوال الآخرة مع وصفها بخارق العقل فيحوله إلى خارق العادة وقد تعلم منى الفرق الكبير بين التعبيرين .

وها هى المقالات العشر :

فتوحات قدسية .

أين وادى النمل المذكور فى القرآن ؟

بقلم شيخ العروبة أحمد زكى باشا

١

شكر المحسن واجب . والمحسن على كاتب هذه السطور فى هذا اليوم هو السيد « أحمد بط » الذى سألنى على صفحات « الأهرام » عن مكان هذا الوادى : وادى الرمل .

فهو الذى يرجع إليه الفضل فيما انتهيت إليه من تحقيق هذا الموضوع على طريقة لم أرها من قبل .

٢

هو الذى حفزنى إلى مراجعة كثير من التفاسير وكتب الأدب ، فلم أظفر بواحد من أصحابها قدأعمل فكره أو بذل جهده لتمييز موقع هذاالوادى تعيينا مضبوطايتطابق على الحقيقة التى يأمر بها القرآن ، والتى ينشدها الإسلام .

بل كان همهم الأكبر منصرفا إلىالعرض عن الجوهر . فخاضوا وخاضوا فى تخريجات لفظية وتقعرات نحوية «وتفانين» حروفية ، من أجل تمييز ماترتب على حرف «على» بدلا من حرف «الباء» إلى مالابد منه لكل مفسر يتولى شرح الكتاب النازل من عند الله بالتوحيد ، أعنى غرامهم .. به .. به . . بالكثرة والتكثير . فقد أخذوا كلهم يعرفوننا بأن «النملة» قد تكون بفتح النون وضم الميم وقد تكون بضمهما معا ، كما أنها تكون عند بقية خلق الله بفتح النون وسكون الميم . فهذه ثلاثة أقوال فى لفظ واحد.. أفما هى الكثرة التى هم بها مولعون فى تبيين دين التوحيد ؟!

٣

أما الوادى نفسه فقد انتهى بهم التكثير إلى الخرقة فيه وإلى الاختلاف على موضعه وإن كان لا يمكن أن يكون إلا موضعا واحدا بعينه . ولكن ... انظر إلى اختلافهم فيه . وسنعرض عليك أقوالهم مبتدئين من مشرق الشمس على الترتيب الجغرافى .

١ ـ وادى النمل هو واد تسكنه الجن ومراكبهم النمل . أفرأيت انتها كا للحق وازدراء بالعقل مثل هذه الخرقة ؟ . ولم يقولوا لنا أين هو الوادى ، ومن الذى أنبأهم بأن سكانه من الجن الذين يمتطون صهوات النمل . بل هذا بهتان . ورضى الله عن الآلوسى صاحب التفسير الذى حارب هذا القول السخيف بأنه « مما لا يلتفت إليه » !

٢ ـ وادى النمل ، هو فيما وراء الهند ثم فيما وراء الهند . وإن شئت التحقيق فهو فيما بين الهند والصين . ولكمال الإيضاح وزيادة التبيين يقولون ـ على ما رواه ياقوت فى معجم البلدان ـ إنه فى بلاد التبت (بضم التاء الأولى وتشديد الباء المفتوحة) وهى المعروفة عند الأفرنج باسم Tibet و Thibet

وعنها يصدر القماش المعروف فى مصر باسم « التبيت » وما تزال المركز الأكبر للديانة البوذية

٣ـ «وادى النمل، هو فيما وراء الهند أو اليمن، معروف عند العرب مذكور فى أشعارها» . هكذا ورد فى تفسير الآلوسى دون أن يعرفنا بصاحب هذا القول الذى خلط بين «وادى النمل» وبين « وادى نمل » على ما سنذكره قريبا . وأنت تعلم ما فى قوله « أقصى اليمن » من غموض وإبهام . ولذلك فإننى أرى أن قول ياقوت أفضل من هذا الكلام على نوع ما . لأنه يقول إن فى «رداع» أحد مخاليف اليمن « وادى النمل المذكور فى القرآن المجيد » .

ولقد وقع ياقوت أيضا فى نفس الخلط بين «وادى النمل» و«وادى نمل» . فالوادى الثانى هو الذى فى بلاد اليمن وقد ذكره الهمدانى فى كتاب « صفة جزيرة العرب »

دون أن يشير إلى مرور سليمان بجنوده فيه . لأن ذلك محال ولأنه لم يكن بمحال . حينئذ وجب القول بأن نسبة وادى النمل المذكور فى القرآن إلى أرض اليمن ، إنما هو خرافة يجب استبعادها .

٤ ــ وادى النمل هو وادى السدير من أرض الطائف. هذا قول الكذاب الأكبر كعب الأحبار . وما نعلم أن فى أرض الطائف واد باسم السدير (مصغرا أو مكبرا) فلا أثر له فى « صفة جزيرة العرب » للهمدانى و « معجم ما استعجم » للوزير البكرى و « معجم البلدان » لياقوت الحموى . هذا وقد انعقد الإجماع على أن « السدير » إنما هو فى أرض العراق نعم أن فى اليمن سديرا آخر . ولكنه غير مشهور . وكذلك فى أرض مصر بمديرية الشرقية غيضة باسم «السدير» رآها ياقوت الحموى بجوار مدينة العباسة وهى قد اندثرت بل انطمرت ، فلا أثر لها الآن على ما وصل إليه علمى .

وأعود إلى الطائف وأرضها لأرجو فاضلا من أهلها إفادتنا عما يحقق أو يكذب تلفيق أكبر كذاب ، أعنى كعب الأحبار ، ومن ذا الذى يتولى هذا البيان غير صديقى المفضال خادم العلم الإسلامى والعمرانى بثغر جده وهو الشيخ محمد نصيف حرس الله مهجته .

٥ ــ روى الزمخشرى والآلوسى عن قتادة ومقاتل (من كبار علماء الحديث) أن «وادى النمل واد كثير النمل بأرض الشام» . وفى هذا البيان اقتراب كبير من الحقيقة، مع ما فيه من إبهام . فنى الشام أودية لاعداد لها . وانظر إلى تحديدهما لوادى النمل بأنه « كثير النمل » وترحم معى على الذى « فسر الماء بعد الجهد بالماء » .

٦ ــ ونجىء الآن إلى ما فيه حصر بالتحقيق وضبط بالتحديد . نجىء إلى أرض فلسطين . فماذا ترى ؟ ترى ياقوت الحموى يعرفنا فى كلامه على وادى النمل بما نصه « قيل إنه بين بيت جبرين وعسقلان». ثم هو يقول فى كلامه على بيت جبرين «إن بينها وبين عسقلان واد يزعمون أنه وادى النمل التى خاطبت سليمان » .

وجاء بعده الرحالة الأشهر ابن بطوطة فقال فى كلامه على بيت المقدس أن « بظاهر عسقلان وادى النمل ويقال إنه المذكور فى الكتاب العزيز »

أفرأيت كيف أنهم يقولون بصيغة التأكيد أن هذا الوادى موجود فى أرض الجن ، وفى أرض التبت ، وفى أرض اليمن وفى أرض الحجاز ؟ ولكنهم عندما يقتربون من موضع الواقعة ومن مكان الحادثة يستعملون صيغة الاحتمال « قيل » ـ « يزعمون » يقال !!!!

٤

التحقيق الجغرافى

أفلا تعجب معى ، يافتى العرب ، عندما ترى أن القول الأقرب للصواب هو عند ياقوت وابن بطوطة موضع التشكيك والارتياب ؟

إن الحق الذى يتبادر إلى الأذهان هو وجود « وادى الرمل » فى أرض فلسطين على مقربة من بيت المقدس ، حيث كانت عاصمة سليمان ، وحيث كانت جيوش سليمان .

فلا يمكن أن يرضى العقل ولا أن يستريح القلب فى تفسير الآية الكريمة إلا بأنها تشير إلى وادى الرمل الذى قيل لنا انه بين بيت جبرين وبين عسقلان .

وكاتب هذه السطور ، طالما تردد فى تلك الربوع ، وكانت له وقفات على أطلال عسقلان ولكن الله لم يشأ له الذهاب إلى بيت جبرين ، ولا التعرف بوادى النمل الممتد بينهما .

فلعل هذه الخصيصة تكون محفوظة لأحد الأفاضل من أبنــــاء فلسطين مثل الأساتذة : المظفر ، ومخلص ، والبرغوثى ، وطوطح ، وغيرهم من أعلام ذلك البلد الذى يوشك انقسام عربه على أنفسهم فى وقت الشدائد أن يجعل منه أندلسا ثانية . والعياذ بهم وبالله !

فمنهم ننتظر البيان ، ومنهم نترمق الإفادة . وإلا ففلسطين ليست ببعيدة والمسجد الأقصى قاب قوسين أو أدنى .

٥

تخريج بطريق التأويل

أم يكون النص القرآني منصرفا بطريق التلويح والتلميح إلى شدة الخوف والهلع أرغم كثرة العدد ؟

إن ذلك من أساليب القرآن المجيد

وإلى هذا المعنى ذهب الجاحظ ، وناهيك بالجاحظ !

فقد روى المجبى فى كتاب « ما يعول عليه فى المضاف والمضاف إليه » المحفوظ فى دار الكتب المصرية ان « وادى النمل يضرب به المثل المكان الكثير السكان قال الجاحظ فى قوله (حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) نخبر أنهم بأجمعهم وقفوا على ذلك الوادى وأن ذلك الوادى للنمل ولم يقل بوادى النمل بل كان ذلك الوادى معروفا بوادى النمل فكأنه كان حمى لهم . والنمل ربما أجلوا أمة عن بلادهم »

٦

النتيجة

الذى يرضاه ضميرى ، وترتاح إليه روحى هو أن سليمان (عليه السلام) ذهب على رأس جيشه من بيت المقدس إلى عسقلان لأمر من الأمور ، كاستقبال أسطوله الذى كان يأتيه بالتحائف من وراء البحر ، أو لاستلام أخشاب الأرز ، أرز لبنان ، التى كان يبعثها إليه صديقه الملك حيرام ، صاحب مدينة صور وما إليها .

وكان جيش سليمان قد بلغ ٤٠٠٠٠ مقاتل ، فضلا عن عربات الحرب وعددها ١٤٠٠ . مر هذا الجيش اللجب بالطريق المسلوكة إلى الآن من بيت المقدس إلى بيت جبرين . ولما تحرك الجيش لدخول الوادى الممتد بينهما ، كان سكانه منتشرين فيه

بكثرة لأعمال الفلاحة والحصيد . وهم من الأكارين والفلاحين (من الشعوب النجسة عند بنى إسرائيل : كنعانيين ويبوسيين وعموريين وأضرابهم) وطالما اضطهدهم بنو إسرائيل ، من عهد يعقوب إلى داود إلى سليمان . فلما رأوا الجيش المقبل ، وهم يعلمون ما لاقى آباؤهم وما يلاقون هم من التنكيل والتقتيل ، دوى فيهم صوت النذير بالانكماش فى بيوتهم لئلا يحيق بهم ما يخافون من غطرسة الجنود وبطش الجيوش. وهكذا لجأوا إلى بيوتهم كما يفعل النمل إذا أحس باقتراب الخطر .

فتكون الآية من باب تشبيه القوم بالنمل فى كثرة العدد وفى الحقارة والمهانة فى نظر بنى إسرائيل .

وتكون تسمية الوادى بوادى النمل إشارة إلى « المكان الكثير السكان » على ما قرره الجاحظ .

وفوق كل ذى علم عليم

وبالله التوفيق ومنه الهداية إلى التحقيق

احمد زكى باشا

وادى النمل ومذهب القرآن

للأستاذ محمد فريد وجدى

قرأت فى «الأهرام» ما كتبه سعادة احمد زكى باشا عن وادى النمل وما جنح إليه من تأويله . وأنا مع علمى بأن ما حداه إلى ذلك إلا غرض شريف وهو تبرئة القرآن من الأمور التى تستعصى على العقل ويتوسل بها المشككون ومن يلف لفهم إلى الطعن فى الإسلام ، لا أرى أن هذا التأويل من الوسائل الحاسمة فى هذا الباب ، ولا هو بالطريقة المثلى التى نص الكتاب نفسه على اتباعها فى مثـــل هذه المواطن . وإلا فما هو قائل فى أهل الكهف الذين ظلوا نائمين ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا ، وفى الطباق السبع للسموات والأرض ، وفى خلقهما فى ستة أيام ، وفى مجىء عرش بلقيس إلى سليمان من اليمن إلى فلسطين قبل أن يرتد إليه طرفه ، وفى تسخيره للجن والريح والطير ، وفى دابة الأرض التى تخرج منها فتكلم النـاس قبيل يوم القيـامة ، وفى استراق الجن للسمع وإرصاد الشهب لطردهم عنها ، وفى خروج الناس من القبور للبعث إلى غير ذلك من الأمور التى ينافى ظاهرها العقل والعلم وأصبحت اليوم من المـآخذ على القرآن . وقد حشرت مجلة (العصور) المصرية فى بعض أجزائها عدداً منها وطلبت إلى العلماء فى لهجة ساخرة فتواهم فيها ؟

لا شك فى أن كل هذا يعجز عن تأويله الباشا الفضال ويعجز عنه أمثاله من صادقى العزم فى الانتصار للاسلام ، مع العلم أن الأديان كلها قد أتت الناس بما يفوق ما أتى به هذا الدين من أمثال هذه الأمور

إلا أن القرآن قد انفرد من بين الكتب السماوية بنص حاسم لهذه الحيرة لا يحتمل التأويل فجعله بمنجاة من الشبهات التى ترد عليه من ناحيتها ، وهو قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهـات ،

فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

ومعناه أن الله يا محمد أنزل عليك القرآن مشتملا على ضربين من الآيات أحدهما آيات محكمات بينات المعانى لا تحتمل إلا معنى واحدا لا يضل فيه الفهم ولا يشك فيه العقل ، هن أصل الكتاب وينبوع أصوله وإليهن المرجع فى معرفة الحلال والحرام والحق والباطل والعدل والظلم الخ ، وثانيهما آيات متشابهات أى محتملات للتأويل ويجوزفيهاالأخذ والرد ، ويحتدم حولها الجدل بين المؤمنين . والمشككين فى الأمور التى تعلو متناول العقل . فأما الذين فى قلوبهم انحراف عن الحق فيعمدون إلى هذا القسم من الآيات فيجادلون فيها إرادة إثارة الشبهات على القرآن ، ورغبة تفسيره على حسب أهوائهم ، وما يعلم تفسير هذا الضرب من الآيات إلا الله وحده ، والراسخون فى العلم الذين لاتزعزعهم الأهواء يقولون إننا نصدق بمحكمات القرآن وبمتشابهاته وإن كنا لا نفهم لها معنى وما يتعظ إلا أولو العقول .

هذا الموقف الحكيم الذى دعا إليه القرآن أمام أمثال ماقدمنا من الآيات التى أصبحت تكأة للشاكين فى الإسلام اليوم والتى يرددونها فى نواديهم ، ويلقون بها إلى الذين يريدون التأثير فيهم من ضعاف الإيمان ، هو الذريعة الحاسمة فى جعل القرآن بمعزل عن جميع ضروب الشبهات التى يتخيل العقل أن تتوجه إليه

ولا عجب أن ينص القرآن نفسه على مثل هذا الموقف من بعض آياته ؛ لأنه بعد أن منح العقل والعلم سلطانهما المطلق ، وحذر الإنسان من اتباع مالا يعلم ، لم يرد أن يصطدم هذا العقل من الشؤون غير الطبيعية بما يجعله يتنازل عن حقه الذى منحه إياه ، فآتاه بهذا الحد الفاصل بين ما يطلب إليه فهمه والعمل به من آى الكتاب ،

وما لا يطلب إليه فهمه ولا إدراك معناه منه، وكل ماطالبه به أن يكل أمر ما يصادفه في القرآن من ذلك إلى الله ، وأن لا يجادل أحداً فيه قط، قاطماً بأنه مما استأثر بعلمه وحده

ومن العجيب أن الله لأجل أن يصد النـاس عن تلمس فهم هذه الآيات المتشابهة سمى المتتبع لها زائغا عن طريق الحق ، واتهمه بأنه يرمى من وراء عمله هذا إلى إثارة الشبهات ، وتهييج الريب فى نفوس المؤمنين .

لو كان هذا الموقف قد نبه إليه واحد من المدافعين عن الإسلام لأمكن رده عليه ولاتهمه الخصوم بأنه إنمـا يفعل ذلك ليخلص القرآن من المطاعن التى توجه إليه ، ولـكن ماقولك وهو تحذير صريح من موحى القرآن نفسه وقد علم ما يستطيع الإنسان فهمه وما لا يستطيـع فهمه منه ، فـكلفه بالتوسع فى تفهم الأول وردعه عن تفهم الثانى، ووصفه بأنه ليس من مقدور العقل الوصول إلى عمله؟

فهل يحسن بباحث بعد اليوم أن يتناول مثل هذه الأمور بالتأويل وقد أمر بالامتناع عن ذلك ، وهل لمشكك أن يتقحم حمى الإسلام من هذه الناحية متهما القرآن بأن فيه أمورا لا تتفق والعقل ، وقد احتاط موحيه لذلك فحال بينه وبين مايرمى إليه كما رأيت ؟ « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

محمد فريد وجدى

وادى الزلال بعد وادى النمل

بقلم حضرة صاحب السماحة الشيخ مصطفى صبرى
شيخ الإسلام السابق فى الاستانة

انتهت مسألة وادى النمل وصرحت الأهرام بانتهائهـا ولست أريد أن أكتب بصددها لـكن مقالة الأستاذ فريد وجـدى فى الرد على شيخ العروبة مع الرادين قد تضمنت خطأ جديداً علمياً لا يقل خطره فى الدين عن عثرة سعادة البـاشا فى تأويل وادى النمل بل الخطر فى خطأ الأستاذ أعظم وأعم حيث أن سعادته تكلم فى وادى النمل الوارد فى سورة النمل بتأويل واه وبنى معنى الآية عليه ومع هذا فللآية معنى مفهوم عند الباشا وغاية تأويله أنه ينقص واحدة من معجزات سيدنا سليمان ولا يوهم إنـكار معجزاته الأخرى خاصة ومعجزات سائر الأنبياء عامة وأين هذا من رد تلك المعجزات إلى متشابهات القرآن التى لا يستطيع العقل فهم معانيها لانطوائها على أمور لا تتفق مع العقل والعلم فقد أسفرت مقـالة الأستاذ عن عقلية حديثة الحادية تنـكر معجزات الأنبياء عليهم السلام فى ادعاء أنها تنافى العقل والعلم بالرغم من كونها منصوصا عليها فى القرآن وغيره من الـكتب المقدسة ويحمد الأستاذ على أن ما فى القرآن منهـا أقل مما أتت به الأديان الأولى وتلك العقلية تطاولت على ما رواه الأستاذ إلى حد أن بعض آيات القرآن أصبحت من المـآخذ عليه وإلى حد أن مجلة (المصور) المصرية قـــد حشرت فى بعض أجزائها عدداً منها وطلبت إلى العلماء فى لهجة ساخرة فتواهم فيها

وقد أصبحت الدنيا فى عصر محنة الإسلام عجائب فالأستاذ يشكو من أولئك الساخرين وأنا أشكو منه وأتوجس فى شكواه الشماتة بالعلماء وأراه فيما يتوسل به لتهريب القرآن عن سخريتهم لم يزد فى الطين إلا بلة حيث يعد ما سخروا منه متشابهات غير مفهومة المعنى ويناول أيديهم سلاحا من الاعتراف

أما كون القرآن نفسه قد نبه على وجود المتشابهات فيه ونهى عن اتباعها ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل فأقام حول حماه حارسا من هذا التنبيه كما تعزى به الأستاذ فلا يجدى نفعاً فى الذب عنه بعد أن ردت الكثرة من آياته إليها وكانت مواضع ضعف وسخرية منه للساخرين وما هو إلا تكثير تلك المواضع بدلا من معالجتها ولا تكون معرفة القرآن بمواضع أدوائه وتنبيهه عليها من المعالجة فى شيء .

فالحق أن صادقى العزم فى الانتصار للإسلام والقرآن لا يكونون يحسنون صنعهم ويقومون بواجبهم برد كثرة من آى القرآن التى يراد بها أن يفهم معناها ومغزاها المخاطبون كالآيات الحاكية لمعجزات الأنبياء التى تحدوا بها أقواما بعثوا إليهم وكآيات البعث والنشور اللذين عنى القرآن بإثبات وقوعهما وبتقريبهما من الأذهان والأفهام إلى المتشابهات التى لا تفهم معانيها

ثم إن المهم المقدم على كل شيء فى الانتصار للإسلام فى زمان قد سرت العقلية الإلحادية المار ذكرها إلى كثير من الذابين عن الإسلام المجاهدين فى سبيله أن يعلم هؤلاء المجاهدون المنتصرون أن النصرة للدين والمجاهدة فيه لن تنفع ولن تقترن بنجاح إذا قامت على أساس أن الدين ضرورة اجتماعية دون أن يكون حقيقة ثابتة سماوية لا سيما الإسلام غير القابل لأدنى شائبة النفاق لا يتمتع بمثل ذلك الأسلوب من الانتصار وهو سر عدم نجاح المساعى المصروفة اليوم وما كانت مساعى القدماء الموفقين فى جهادهم وانتصارهم قائمة على هذا الأسلوب فيتحتم على كل من يدعى الانتصار للإسلام ويجلس للدفاع عما جاء فى كتابه أن يقتنع بأنه يدافع عن أعظم حقيقة لا يخاف عليه من مناقضة عقل أو علم بشرط أن يكون العقل عقلا والعلم علماً فيعمل فى دفاعه وانتصاره بكل صراحة ولا يسلك سبل الإبهام والإيهام ولا يحدث نفسه باحتمال الانهزام فيعد له وسائط الرجعة إلى الوراء ويترك الإسلام وسط المعركة مخذولا وينجى نفسه فحسب أو على الأكثر مع المسلمين وعندهم أسماؤهم فقط أو مع مثال مزيف

الإسلام بل يموت مع الإسلام ويحيى معه ويعلم أن الله الذى له الدين الخالص حى لا يموت

فرأيت من أخص واجبى تجاه دينى بمناسبة التنبيه على خطأ الأستاذ فريد وجدى فى مقالته أن ألفت نظر المسلمين وعلماء الدين إلى هذه الحقيقة التى ذكرتها ولم أر فى مصر من يجهر بها وقد مكثت أنتظر من ينبه على خطأ الأستاذ قبل أن يتمكن فى أذهان القراء وكم أحببت أن يكون المنبه غيرى لما أن لى مع الأستاذ نقاشا طويلا فى (مسألة ترجمة القرآن) لم يجف مداده فى كتابى المسمى باسم المسألة نفسها وبعده فى صفحات مجلة (الفتح) الإسلامية فلما خاب انتظارى ومضى أسبوع على مقالة الأستاذ توليت أنا واجب التنبيه الملقى على عاتق العلم وكان فى نيتى أن أراعى الاختصار فى القول ولكن الحديث ذو شجون

رد الأستاذ قول النملة لأصحابها وتبسم سيدنا سليمان مما قالته ومجىء عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه ، وتسخير الريح والجن والطير له وغيره مما نص عليه القرآن الكريم من المعجزات التى اختصه الله بها بل وخروج الناس من القبور للبعث — إلى المتشابهات التى يكف عن تأويلها ويؤمن بها مع منافاة ظاهرها العقل والعلم امتثالا بقول القرآن نفسه (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله) الآية

ولا يخفى على أهل العلم أن المتشابه الذى أشير إليه فى الآية يقتصر عند علماء الأصول على مثل (حم والم وكهيعص وطسم) المفتتح بها بعض السور من القرآن وعلى مثل (الرحمن على العرش استوى) و (يد الله فوق أيديهم) و (والسماوات مطويات بيمينه) مما يعده العقل والعلم محالا لتضمنه وصفا من الأوصاف الجسمانية المستحيلة فى حقه تعالى فيؤمن به لوروده فى كلام الله ويوكل العلم بكيفيته إلى الله من غير تأويل على القول المختار ويطلق على هذا القسم (متشابه المعنى) كما يطلق على القسم الأول (متشابه اللفظ)

أما معجزات الأنبياء عليهم السلام المذكورة فى القرآن ، أما خروج الناس من قبورهم وبعثهم بعد الموت فليست من المتشابهات فى شىء لا من متشابه اللفظ ولا من متشابه المعنى وليست مما ينافى العقل والعلم فى شىء فردها إلى المتشابهات أخو إنكارها وعدها مما ينافى العقل والعلم جهر بإنكارها وجهل عظيم أسند إلى العقل والعلم بغير حق لأن كل ما أظهره الله على أيدى أنبيائه من المعجزات معدودة من خوارق العادة الممكنات لا من خوارق العقل المستحيلات وكيف تكون مستحيلة وقد وقعت فى سالف الزمن ونطق القرآن بوقوعها وآمن به المسلمون

وكيف يكون البعث بعد الموت محالا عند العقل وقد قال الله تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وذكر فى القرآن أمثلة مشهودة لإحياء الموتى كقوله تعالى (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير) وقوله (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم)

أفيعتبر الأستاذ هذه الآيات البينات متشابهات غير مفهومة المعانى ؟

ومثل بعث (الذى مر على قرية ..) وهو عزير على ما هو مشهور عند المفسرين وبعث حماره بعد إماتتهما مائة عام بعث أصحاب الكهف بعد أن لبثوا فى رقادهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا الذين عرض بهم الأستاذ فى مقالته والذين ملأ الله بقصتهم شطرا كبيرا من سورة الكهف ليعتبر بهم المؤمنون أفصحيح أن سورة الكهف على طولها

من المتشابهات؟ أى من أقسام القرآن التى لم يطلب إلى الناس فهم معانيها بل صدهم الله عن تلمس فهمها على تعبير الأستاذ ويالله من حل لمشكلة القرآن يجعل سورة طه من أطول سوره قد نزلت ليقرأها المسلمون ولا يفهموا معناها وهم مصدودون عن فهمها مع أن كل ذلك مذكور فى القرآن على أنها من آيات الله الدالة على قدرته ولتكون أمثلة البعث الواقع فى الحياة الدنيا فيستدل بها على أن البعث فى الحياة الأخرى واقع أيضا وليس لوقعته كاذبة فإذا قال قائل عن تحول عصا موسى حية أو انفلاق البحر بضربه بها وإحياء عيسى الموتى أو تولده من غير أب أو تكلمه فى المهد صبيا وكون النار بردا وسلاما على إبراهيم والتقام الحوت ليونس وتسبيحه فى بطنه وحشر سليمان لجنوده من الجن والإنس والطير أو حشر الناس يوم البعث أنها من المتشابهات يعنى أنها منافية للعقل والعلم أو على الأقل لا يعلم ماذا أراد الله بها فقد أنكرها أو تشبه بالمنكر إذ الإيمان يستلزم الإيقان ويجافى التجاهل وفى اعتبارها من المتشابهات تجاهل بها بل تناقض مع الإيمان والاقتناع بمضمونها وليست فى معجزات الأنبياء المذكورة فى القرآن ناحية يحجم العقل عن فهمها إلا ناحية إمكانها الذى يتفرع عليه صدق وقوعها فمن تنبه لإمكانها واهتدى عقله إليه بنور العلم والتوفيق لا يرى فى النصوص الدالة عليها ما يستعصى فهمه على العقل ومن لم يعترف بإمكانها فلن يستطيع فهم معانى النصوص الدالة عليها ويكون عدم فهم معانيها كناية عن إنكارها فهذا معنى عد المعجزات وإحياء الأموات يوم البعث من المتشابهات

وليس أيضا خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام الذى نطق به القرآن وعده الأستاذ من المتشابهات فى شىء منها سواء قدر كل يوم من تلك الأيام الستة بما عهد عند الناس أو بما ذكر فى قوله تعالى (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) وكلا الاحتمالين سواء فى حكم العقل بإمكانه ولقد أوشك الأستاذ أن يصيب المتشابه فى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ولكن شاء القدر أن

بخطئه وأن لا يوجد فيما أورده من الأمثلة للمتشابه واحد يصح عده منه فلو قرأ ما بعد قوله تعالى عن خلق السماوات والأرض أعنى قوله (ثم استوى على العرش) لوجد المتشابه بعينه

نعم فى الناس من يعتقد بأن نواميس الكون نواميس طبيعية لا يمكن تبديلها ولا يقبل العقل والعلم ما يخالفها من القول كائنا من كان قائله وهم ملاحدة المادية ومقلدوهم من المسلمين الضعاف العقول لا أقل من أن يوصموا بسخافة العقل فى دعوى الإيمان بوجود إله خالق الكائنات ومرسل الرسل مع التشبث بأذيال الملحدين والتقول بأقوال المنكرين لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومعجزات الرسل عندهم من المحالات المخالفة لنواميس الكون التى لا تقبل التبديل والتغيير فهم يعترفون بنشوء البشر من القرود أو على الأقل باحتمال نشوئه منها لكون الفيلسوف الغربى (داروين) قال به ولا يعترفون عن قرارة قلوبهم بنشوء ثعبان من عصى موسى ولا بإمكان نشوئه منها لكون قائله هو الله ويعترفون مع أصحاب مذهب التطور بإمكان نشوء الحيوان من النبات لقول قائلهم (لا فاصل جوهرى بين العالمين عالم النبات وعالم الحيوان) ثم تراهم ينكرون تولد عيسى من أمه بغير أب ويعدونه محالا عقليا وعلميا بالنسبة إلى عقلهم القاصر وعلمهم المتناقض الأنحاء

لكن العلماء الراسخين والحكماء الإلهيين الذين يثبتون موجوداً واحداً واجب الوجود ممتنع العدم يعتبرون جميع ما عداه من الكائنات ونواميسها ممكن الوجود والعدم لا يميل بنفسه إلى أى جانب من الوجود والعدم فلولا أن تكون إرادة الذات الواجب الوجود المتعلقة بإيجاد علة لوجوده لما وجد ولولا أن عدم العلة علة لعدم الممكن لما عدم عدمه الذى تقدم على وجوده وهذا مقتضى الإمكان الخاص المقيد بالطرفين المعرف بسلب الضرورة عن طرفى الوجود والعدم فلو مال الممكن الذى تساوى طرفاه إلى أحدهما بنفسه لزم الرجحان بلا مرجح المستلزم لخلاف المفروض المستلزم لاجتماع

النقيضين وهكذا يكون المحال العقلى لا فى تكلم نملة وسماع سليمان كلامها أو تولد عيسى من غير أب أو انفلاق البحر لموسى أو انشقاق القمر لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم لأن كله من الممكنات الداخلة فى الكون الممكن بجميع أجزائه القابل للوجود والعدم على السواء فوجوده بترجيح خالقه له وعدمه بعدمه

فنواميس الكون التى لا يرى الماديون إمكان تبدلها نظم موضوعة عند العلماء الراسخين فى العلم بيد واضعها العليم القدير أن يبدلها متى شاء وإن لم يستطع غيره تبديلها فعدم الإمكان بالنسبة إلينا لا إلى الخالق اللهم إلا أن لا يعترف بالخالق والخلق ومعجزات الأنبياء تسمى معجزات بالنسبة إلينا وهى ممكنات بالنسبة إلى مرسل الرسل من أهون ما تتعلق به قدرته ويكون الله قد خالف بها سنته الأكثرية فى خلقه وخرق العادة لتأييد أنبيائه لا أنه خرق العقل وجاوز حد الإمكان وهذه قاعدة العلم ومن ضروريات الإيمان والاعتراف بكون الكون ونواميسه أثر قدرة وإرادة إذ لا بد أن تكون آثار المريد قابلة للتبدل على حسب إرادته

أما بعث الناس من قبورهم وصدورهم أشتاتا ليروا أعمالهم أو خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام فليس شىء منهما من الممتنعات ولا من الممكنات الخارقة لسنة الله الأكثرية مثل المعجزات بل كلاهما جار على سنته الخاصة به جرى أحدهما من قبل وسيجرى الآخر إذا جاء أجله ولله الأمر من قبل ومن بعد

مصطفى صبرى

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقا

٢٦ ـ ٨ ـ ١٩٣٣

مذهب القرآن فى المتشابهات

للأستاذ محمد فريد وجدي

قرأت ما كتبه الأستاذ مصطفى صبري أفندى وإنا لنزيده بيانا :

شرع الله الاسلام ليكون دينا عالميا خالداً ، وقد نص على أنه آخر الأديان ، وأن الرسول الذي جاء به خاتم النبيين ، وأن الكتاب الذى أنزل عليه هو الكلمة السماوية النهائية للبشر

وقد بناه على قاعدة العقل وأساس العلم وحرم على أهله التقليد ، وطالب كل مكلف بأن ينظر بنفسه لنفسه ، محملا إياه تبعة أعماله ، وملقيا على كاهله عهدة سلوكه ؛ مصرحا بأن إيمان المقلدين لا يقبل عند الله ، ومطالباً الآخذ به بالدليل على كل ما يعتقده ويعمل به ، معلنا إياه بأنه سيحاسبه على كل جليل ودقيق حتى على خطرات نفسه ، ومفضياً إليه بأن هذه المحاسبة لا يغنى عنه فيها شفيع يشفع فيه ، ولا مقرب يتوسل له ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته : « اعملى يافاطمة فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا »

هذا حدث جلل فى تاريخ الأديان جعله الله فاتحة لعهد جديد من عهود البشرية يتآخى فيه الدين والعقل ، ويتفق فيه الوحى والعلم ، تقوم الإنسانية منه على حال من وحدة القوى فى كل مجالات النشاط المادى والروحى بحيث لا تصطدم فى ترقيها بعقبة ، ولا ترتطم فى توثبها للغايات بحائل . مطلقا لها حرية البحث والنظر وواعدا الجاد فيه بالأجر على ذلك وإن أخطأ . نعم وإن أخطأ حفزا له للجهاد وراء الحقيقة ، ودفعا له عن الوقوف دون الغاية

هذا كله جدير بدين يصف نفسه بأنه الدين العام الخالد ، وأنه خاتمة الوحى الإلهى ، وأنه صالح لكل زمان ومكان

أخذ آباؤنا الأولون بهذه الأصول فانتقلوا فى سنين معدودة إلى درجة من الوجود العالى لم تنلها أمة قبلهم ولا بعدهم

وقد أتى على المسلمين دور التاثوا فيه بأدواء الأمم فظهرت أعراضها عليهم فى كل بقعة من الأرض فساووا سواهم فى كل نتائجها

فى تلك الأثناء ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها ، فدالت الدولة إليه فى الأرض ، فنظر نظرة فى الأديان ، وسرى عليها أسلوبه فقذف بهـــا جملة إلى عالم الميثولوجيا ، ثم أخذ يبحث فى اشتقاق أصولها بعضها من بعض ، واتصال أساطيرها بعضها ببعض ، فجمل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديسا ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى كان يستعبد الإنسان لها نفسه ، ويقف على صيانتها مجهوده غير مدخر فى سبيلها روحه وماله

وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ، ويقتبس من مدنيته المادية فوقف فيما وقف عليه على هذه الميثولوجيا ، ووجد دينه ماثلا فيها ، فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقنا أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية

وقد نبغ فى البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دسا فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفاديا من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض

وقد عثرنا نحن فى جولاتنا العلمية على ما عثروا عليه فكانت صدمة كادت تقذف بنا إلى مكان سحيق ، لولا أن من الله علينا بوجدان المخلص منها وهو قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » الآية فسجدنا شكراً لله وقلنا هذه مانعة الصواعق بل مانعة الغرق فتشبثنا بهـــا وادخرناها إلى وقتها ، ثم أفضينا بها إلى الناس وأثبتناها فى بعض مؤلفاتنا

هذا موقف منطقى لدين يعلن السلطان المطلق للعقل والدولة الخالدة للعلم ، ويجرد الإنسان من كل أوهامه وأهوائه وورائته ليصل به إلى إباحة النظر الحر والتفكير المستقل

وإلا فهل يعقل أن موحى الإسلام جل شأنه يطالب الآخذ بدينه بالدليل على العقائد الرئيسية وا كلا إياها إلى تقديره الشخصى ، وحارمه من كل شفاعة وكل صلة بغير الحق الصراح ، ثم يكلفه بأن يأخذ فى الأمور الثانوية بأشياء تخالف الظاهر وتنقض نواميس الكون ، يحار العقل فى فهمها ، دون أن يعين له موقفا معقولا منها؟

فنحن نخوض هذا البحث لا باعتبار أنه شهوة عقلية ، ولكن باعتبار أنه حاجة دينية يجب أن تمحص ونحن على مفترق طريقين ، فإما أن نعرف أننا أمام دين لا تنال منه المحللات العلمية فيصدق فيما يقوله من أنه الدين الأخير للبشرية ، وإما أن نستكين إلى حكم القدر فنترك العلم يعبث به ثم يقذفه إلى عالم الميثولوجيا فى أنوف سبقته من الأديان البشرية

فقد فهمنا من الآية التى ذكرناها هنا أن آيات القرآن قسمان قسم طولبنا بفهمه وتعقله وإقامة الأدلة على صحته ، وقسم لم نطالب بتفهمه لمجيئه على غير مقتضى الظاهر وعدم انطباقه على القدر الذى وهبناه من القوى العقلية وهو لا يتعلق لا بالعقائد الرئيسية ولا بالأصول الاجتماعية والأدبية ، فنؤمن به إجمالا واكلين أمره إلى الله كما أمرنا هو نفسه بذلك

فهل يوافقنا أئمتنا الأولون على هذا الفهم ، أم هى بدعة من لدنا دفعتنا إليها نزعة الحادية ؟ فإليك بعض ما قاله أولئك الأئمة :

روى أقدم المفسرين الإمام الطبرى عن بعضهم أنهم فسروا المتشابهات بأنها الأحرف التى بدئت بها بعض السور . وروى الطبرى عن البعض الآخر بأنهم فسروها بالآيات المنسوخة فى الكتاب . ولكنه عاد فروى عن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال :

« منه آيات محكمات ما فيه من الحلال والحرام ، وما سوى ذلك فهو متشابه »

ثم قال الطبرى : « وقال آخرون المحكمات من آى الكتاب مالم يحتمل من التأويل غير وجه واحد ، والمتشابه منها ما احتمل من التأول أوجها »

وروى هو نفسه عن محمد بن جعفر بن الزبير أنه قال : « محكمات فيهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ، وليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه . وأخر متشابهات فى الصدق لهن تصريف وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم فى الحلال والحرام لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق »

فأنت ترى من هذا القول الأخير لابن الزبير أن من الآيات ما تحتمل التصريف والتحريف والتأويل وهذه قد نهى الله عن تفسيرها مقررا أن مدلولاتها مما اختص هو بعلمه وأن لا أمل للناس فى فهم مؤداه

وقال العلامة النيسابورى فى تفسيره : «فيعنى ههنا بالمحكم ماهو المشترك بين النص والظاهر ، وبالمتشابه القدر المشترك بين المجلل والمؤول »

إلى أن يقول: « ثم يقال لكل مالا يهتدى الإنسان إليه متشابها ، إطلاقا لاسم السبب على المسبب »

إلى أن يقول : « إن كل واحد من أصحاب المذاهب يدعى أن الآيات الموافقة لمذهبه محكمة ، ويقول خصمه متشابهة . فالمعتزلى يقول (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) محكم (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) متشابه . والسنى يقلب الأمر فى ذلك »

فأنت ترى أن آباءنا الأولين قدفهموا المتشابه بأنه مايخالف حكم العقل وما أدى إليه العلم

وقد نهج العلامة النيسابورى طريقا للسلامة من الخلط بين المحكم والمؤول والمتشابه فقال : والانصاف أن الآيات ثلاثة أقسام ، أحدها ما تتأكد ظواهرها بالدلائل العقلية فذاك هو المحكم حقا ، وثانيها التى قامت الدلائل القاطعة على امتناع ظواهرها (أى على أنها لو أخذت على ظواهرها تخالف حكم العقل) فذاك هو الذى يحكم فيه بأن مراد الله غير ظاهره . وثالثها الذى لا يوجد مثل هذه الدلائل على

طرفى ثبوته وانتفائه فهو المتشابه ، بمعنى أن الأمر اشتبه فيه ولم يتميز أحد الجانبين عن الآخر . ولكن ههنا عقدة أخرى وهى أن الدليل العقلى مختلف فيه أيضا بحسب مارتبه كل فريق وتخيله صادقا فى ظنه مادة وصورة فكل فريق يدعى بمقتضى فكره أن الدليل العقلى قائم على ما يوافق مذهبه ، وتأكد به الظاهر الذى تعلق به ، فلاخلاص من البين إلا بتأييد سماوى ونور إلهى. «ومن لم يجعل الله له نور فما له من نور »انتهى.

وقد أتى إمام المفسرين فخر الدين الرازى فى تفسيره على نحو هذا بتوسع وهو متقدم على النيسابورى . ونص الإتقان على أن هذه الآية قد صرفت على وفد نجران وهم نصارى ، قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم وحاجوه فى عيسى عليه السلام فقالوا : « أليس هو كلمة الله وروحا منه ؟ » أى كما ينص عليه القرآن فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : « بلى » . فقالوا « حسبنا ذلك »

ومؤدى هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم اعتبر ما ورد فى عيسى عليه السلام مما رأيت متشابها ، وأن العمل على فهمه على مقتضى الظاهر خروج عن أسلوب القرآن فيما نص على أنه مما استأثر الله بعلمه وسد على الناس طريق تأويله

وهذا يوافق ما فهمناه من المتشابه فلا سبيل إلى إنكاره ، كما لا سبيل إلى إغفال ما فهمه كبار المفسرين بل أعمهم منه

فلو اعتبرنا قول العلامة النيسابورى وهو : « الآيات ثلاثة أقسام أولها ما تتأكد ظواهره بالدلائل العقلية ، فذاك هو المحكم وثانيها التى قامت الأدلة القاطعة على امتناع ظواهرها ، فذاك الذى يحكم فيه بأن مراد الله فيه غير ظاهره . وثالثها الذى لا توجد مثل هذه الدلائل على طرق ثبوته وانتفائه فهو المتشابه »

قلنا لو اعتبرنا هذا القول لرأينا ان كل ما ورد فى القرآن من آيات المعجزات والثواب والعقاب والقصص وما أشبهها يتحتم حمله على الوجه الثانى والثالث مما قامت الأدلة على امتناع ظواهره أو مالا توجد أدلة على ثبوته ولا على انتفائه

فهل يتفق وحكم العقل بأن جهنم التى تبلغ حجوم شررها القصور الشامخة يستطيع من يلقى فيها أن يحيا ويأكل ويشرب ويتجادل ويطلب إلى الله الخلاص ؟

لا يتفق ذلك والعقل حتما فهو من القسم الثانى من الآيات التى قال عنها النيسابورى لا يعلم مراد الله منه

وهل يوجد دليل على وجود سد يأجوج ومأجوج ، وعلى الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا الخ ، أو دليل على عدم وجودهما ؟

لا يوجد فهو من القسم الذى ينص الأستاذ النيسابورى على أنه متشابه ونهينا عن محاولة الخوض فيه

ولو أخذنا بقول مجاهد من أن الآيات المحكمات هن ما فى القرآن من حلال وحرام وما عداه فتشابه كان فى ذلك لنا سعة ليس بعدها سعة تجعل كل ما ورد فى القرآن بمعزل عن الشبهات

ولو نهجنا نهج أهل السنة فاعتبرنا كل الآيات التى لا توافق مذهبهم من المتشابهات كقوله تعالى : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » الخ كان لنا مندوحة لحشر كل الآيات التى لا توافق حكم العقل ولا سنن الكون من المتشابهات وهى أولى من تلك

فى أى مذهب من مذاهب المتقدمين نظرنا وجدنا حصنا منيعاً نتقى فيه قذائف العلم ونحتمى به من سهام البحث الحر ، فيكون الدين فى جوهره الخالص بمنجاة من شبه الملحدين ودسائس المشككين

وبعد فإن الأمر جلل لا يحتمل التلاعب بالكلام ، فإما مذهب يجمع بين الثقافة العصرية والدين فنسير إلى الأمام كما سار آباؤنا متفقين متآخين ، وإما وقفة تعقبها قهقرى ، وعند ذلك لا يجدينا هذا التضييق الذى يظنونه تقديسا للكلام الإلهى وما هو منه فى شىء ، بل هو خلاف ما نص عليه فى آية محكمة لا تحتمل التأويل

٣٠ — ٨ — ١٩٣٣ محمد فريد وجدى

المتشابهات والمعجزات والنشأة الأخرى

بقلم سماحة الشيخ مصطفى صبري
شيخ الإسلام السابق بالاستانة

لجأ الأستاذ فريد وجدى فى الدفاع عن قوله بأن آيات القرآن المنبئة عما وقع فى الدنيا من معجزات الأنبياء وما يقع فى الآخرة من بعث الناس بعد الموت ومحاسبتهم على أعمالهم ثم إدخالهم الجنة أو النار وما أعد لهم فيهما من أنواع النعيم أو العذاب ، كل ذلك متشابهات لا تفهم معانيها ولا يقبلها العقل والعلم — إلى اختلاف المفسرين فى تفسير المتشابهات التى نص القرآن نفسه على وجودها فيه وقال بعد نقل كلمات من بعض المفسرين « فأنت ترى أن آباءنا الأولين قد فهموا المتشابه بأنه ما يخالف حكم العقل وما أدى إليه العلم »

وليس نزاعنا مع الأستاذ فى تقدير معنى المتشابهات بعد أن اعترف الأستاذ بأن المراد منها ما يخالف حكم العقل والعلم فلا يضرنا قول المفسر النيسابورى الذى نقله الاستاذ :

« إن كل واحد من أصحاب المذاهب (يعنى الإسلامية) يدعى أن الآيات الموافقة لمذهبه محكمة ويقول خصمه متشابهة فالمعتزلى يقول (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) محكم (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) متشابه »

وإنا مع عدم كوننا بمقرين على النيسابورى توسعه بهذا الحد فى تفسير وتكثير متشابهات القرآن ، لسنا فى المناظرة بحاجة إلى الإكثار من نقل أقوال المفسرين واختلافاتهم فهو لا ينفع الأستاذ ولا يضرنا وإنما يشوش على القارىء فيخل بفهم محل الخلاف بيننا وبين الأستاذ فالخوض فى نقل كلمات المفسرين يكون من الاشتغال بما لا يعنينا بعد أن اتفقنا معه فى أن المتشابه ما لا يفهم معناه وما يخالفه حكم العقل والعلم من حيث انه يتضمن حكما لا يمكن فى نظرهما

فأما ما كان المتشابه عند أى مفسر فهو عندنا نحن والأستاذ ما لا يفهم معناه وما يخالف حكم العقل والعلم والخلاف بيننا انا نقول باقتصار المتشابه بهذا المعنى على آيات قليلة جدا والأستاذ يدعى كثرته إلى حد أنه يبلغ نصف القرآن لأنه يرد كل ما جاء فيه من معجزات الأنبياء وأنبائهم مع أقوامهم وأنباء البعث والنشور والحساب والميزان والصراط والجنة والنار إلى المتشابه الذى لا يفهم معناه ولا يقبله العقل والعلم

ومابال الأستاذ يشغلنا ويملل نفسه بأقوال من سلف من المفسرين المختلفين فى تفسير المتشابهات المذكورة فى آية من سورة آل عمران قريبة من أولها ففى إمكاننا أن نجرد النقاش معه من مسألة المتشابه ونحدد محل الخلاف بيننا فى أن ما جاء فى القرآن من المعجزات وأحوال الآخرة هل هى مفهومة المعانى أو غير مفهومتها من حيث أن معانيها ممكنة الوقوع أو مستحيلة عند العقل والعلم فنحن نقول بالشق الأول والأستاذ قال بالشق الثانى فى مقالته الأولى وأصر عليه فى مقالته الثانية وأتى فى الثانية بمثال فقال :

« هل يتفق وحكم العقل بأن جهنم التى يبلغ شررها القصور الشامخة يستطيع من يلقى فيها أن يحيى ويأكل ويشرب ويتجادل ويطلب إلى الله الخلاص لا يتفق ذلك والعقل حتما »

وقال أيضا والواعتبرنا هذا القول (يعنى قول المفسر النيسابورى) لرأينا أن كل ماورد فى القرآن من آيات المعجزات والثواب والعقاب والقصص وماأشبهها يتحتم حمله على الوجه الثانى والثالث مما قامت الأدلة على امتناع ظواهره أو مالا توجد أدلة على ثبوتة وانتفائه »

ونحن نقول لا يجوز قطعا أن تعتبر آيات المعجزات والثواب والعقاب والقصص وما أشبهها مما قامت الأدلة على امتناع ظواهره أو مالا يوجد دليل على ثبوته وانتفائه لا يتفق هذا الاعتبار والإسلام الآمر بالإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ولا يمكن القول بأن أحداً من المفسرين المتدينين بالاسلام ذهب إليه والأستاذ يجد كل شىء فى التفاسير ولا يجد واحداً من المفسرين قال بامتناع معجزات الأنبياء وامتناع

أحوال الآخرة المنصوص عليها فى القرآن أو اعتبارها مما لا يوجد دليل على ثبوته وانتفائه وحسبهم إخبار الله بوقوع ما سبق منها ووعده بوقوع ما سيأتى دليلا لثبوته حاسما فكان الواجب للاستاذ أن لا يخلط مقالته بكلماتهم فيوهم القراء أن له فيما ادعاه أسوة من علماء التفسير ومستندا من أقوالهم بل يقتصر فى الاستناد على أقوال الملاحدة التى يعبر عنها بالعلم الحديث ومذهب علماء الإسلام على بكرة أبيهم فى هذا الباب ملخص بالبيت الآتى من منظومة خضر بك الكلامية .

وواقع كل مانص الصدوق به   من ممكن كصراط أو كميزان

أما ما ذكره الأستاذ من شدة نار جهنم وكيف أنه يستطيع من يلقى فيها الحياة وما يتبعها فالله تعالى يقول عنه وقوله الحق وله الملك (لا يموت فيها ولا يحيى) ويقول (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) ويقول (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) وكل ماورد فى القرآن عن نعيم الجنة أوعذاب جهنم مهما كان مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ومهما بلغ من الشدة فهو ممكن والله قادر عليه كما أنه قادر على بعث الناس من قبورهم لكونه من الأمور الممكنة فى حد ذاتها كما خلقهم وأحياهم أول مرة وقد بينا فى مقالتنا الأولى كيف أن واجب الوجود واحد وكل ما عداه من الكائنات ونواميسها ممكن قابل للوجود والعدم والتغيير والتبديل مستند فى وجوده بشكله الحاضر أو تحوله منه إلى إرادة موجده الواجب الوجود ومنه يعلم أن امكان المعجزات وامكان أحوال الآخرة، ولايقول بعدم امكان شئ منها إلا الذين ينفون الإله الصانع للكائنات الناظم لنواميسها بقدرته وإرادته واختياره وهم يقولون بالطبيعة فتكون نظم الكائنات عندهم أمورا حصلت بطبيعتها وليست آثار مؤثر أو معلولات علة فإن اعترفوا بالعلية التى لا مندوحة عن الاعتراف بها فى الشرق والغرب وفى العلم القديم والحديث

فكأنهم — لإنكارهم انتهاء سلسلة العلل إلى العلة الأولى التي هي معدن العليات وصاحبة الكمال في العلية لكونها علة لغيرها وعدم كونها معلولة لعلة تتقدمها — ينكرون العلية من أساسها ومن هذا يسمون طبيعيين منكرى العلية فمذهبهم مردود عليهم في الشرق والغرب والعلم القديم والحديث ولا يتسع المجال لنا في مقالة أو مقالتين لإبطال مذاهب الملاحدة الماديين والطبيعيين أو لنقل كلمات الرادين عليهم من علماء الشرق والغرب

والذى يهمنا هنا أن الأستاذ اعترف في جوابه على مقالتى بما أشرت إليه من العقلية الجديدة الإلحادية الضاربة أطنابها بين كتاب مصر ومن سرايتها إلى كثير من المجاهدين في الإسلام المتخذين لهم من تلك المجاهدة مهنة بل أتى الأستاذ بما فوق الاعتراف الذى أشرت إليه وقد أدهشنى قوله :

« في تلك الأثناء ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التي كانت تساوره حتى تغلب عليها ، فدالت الدولة إليه في الأرض ، فنظر نظرة في الأديان ؛ وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميثولوجيا . ثم أخذ يبحث في اشتقاق أصولها بعضها من بعض ، واتصال أساطيرها بعضها ببعض ، فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديسا ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد الإنسان لها نفسه ، ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر في سبيلها روحه وماله »

« وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية فوقف فيما وقف عليه على هذه الميثولوجيا ، ووجد دينه ماثلا فيها ، فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقنا انه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية »

« وقد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية

فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دسا فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفاديا من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض

« وقد عثرنا نحن فى جولاتنا العلمية على ما عثروا عليه فكانت صدمة كادت تقذف بنا إلى مكان سحيق ، لولا أن من الله علينا بوجدان المخلص منها وهو قوله تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) الآية فسجدنا شكراً لله وقلنا هذه مانعة الصواعق بل مانعة الغرق فتشبثنا بها وادخرناها إلى وقتها ، ثم أفضينا بها إلى الناس وأثبتناها فى بعض مؤلفاتنا

«هذا موقف منطق لدين يعلن السلطان المطلق للعقل والدولة الخالدة للعلم ، ويجرد الإنسان من كل أوهامه وأهوائه ووراثاته ليصل به إلى اباحة النظر الحر والتفكير المستقل

» وإلا فهل يعقل أن موحى الإسلام جل شأنه يطالب الآخذ بدينه بالدليل على العقائد الرئيسية واكلا إياها إلى تقديره الشخصى ، وحارمه من كل شفاعة وكل صلة بغير الحق الصراح ، ثم يكلفه بأن يأخذ فى الأمور الثانوية بأشياء تخالف الظاهر وتنقض نواميس الكون يحار العقل فى فهمها ، دون أن يعين له موقفا معقولا منها ؟

«فنحن نخوض هذا البحث لا باعتبار أنه شهوة عقلية ، ولكن باعتبار أنه حاجة دينية يجب أن تمحص ونحن على مفترق طريقين ، فاما أن نعرف أننا أمام دين لا تنال منه المحالات العلمية فيصدق فيما يقول من أنه الدين الأخير للبشرية ، وإما أن نستكين إلى حكم القدر فنترك العلم يعبث به ثم يقذفه إلى عالم الميثولوجيا فى ألوف سبقته من الأديان البشرية »

من قال لك أيها الأستاذ إن معجزات الأنبياء وأحوال النشأة الأخرى التى قصها الله فى كتابه بل فى كتبه محالات عقلية أو علمية ؟ من قال لك بذلك من غير ملاحدة الماديين والطبيعيين النافين لوجود الإله القادر المريد المختار المعتبرين لجميع الأديان أساطير

وخرافات ؟ ومن قال لك إن العلم الحديث مقصور على علمهم الحقيق باسم الجهل أكثر منه باسم العلم ؟ وأجهل منهم من جمع إلى اعتناق الإسلام انجذابه إلى ما يسميه منكروا الأديان عن آخرها ، علما واشترك معهم فى التسمية بملء فيه . كما أن الذين يستنبطون الإلحاد من الكتاب والشعراء ويهيئون الأذهان لقبوله دسا فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين به غير أمثالهم تفاديا من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض ، ألأم الناس وأجبنهم وأشأمهم لبلادهم ومواطنيهم وهم أصحاب الدرك الأسفل من النار. فإن كانت العقلية الإلحادية علماً وقامت قائمة العلم الحديث عليها فالويل بعد اليوم للازهر وقد أدخل العلم الحديث فى دروسه وويل للمسلمين من خريجيه القادمين. فاذن الحق مع الذين كانوا يخالفون هذا الادخال ويسمَّون أهل الجمود ، وإن الجمود بل الجهل خير من علم يذهب عن تعلمه إلى نفى خالق الكائنات وسلطانه وقدرته على جميع الممكنات والجنون أنفع من عقل يأمر صاحبه بكفر من خلق العقل والعاقل

لكن الأمر ليس كما زعمه الأستاذ وأن الذين أدخلوا العلم الحديث فى دروس الأزهر ليسوا بأعداء الإسلام والأزهر إلا أن ما ذكرته فى مقالتى الأولى وأيدته مقالة الأستاذ الجوابية من العقلية الإلحادية الجاهلية الفاعلة فعلته فى مصر كما أفاده الأستاذ والتى تباع فيها وتشترى بين كتابها وشعرائها دسا فى مقالاتهم وقصائدهم وتهيأ الأذهان لقبولها ، إن لم يُقضَ عليها لا عما يخافون من لؤمهم من مقاطعة المسلمين أو معاقبة الحكومة الإسلامية بل بسلاح العلم الصحيح فهى تقضى على الإسلام والحكومة الإسلامية .

أما مكافحتها بسلاح ابتدعه الأستاذ وهو جعل ما يبلغ نصف القرآن متشابهات غير مفهومة المعانى لكون معانيها مما لا يقبله العقل والعلم من آياته، فهى مكافحة إن لم تسر الملحدين أعداء الإسلام فلا تخدعهم ولا يقاتلهم هذا السلاح بل يقتل القرآن ويجعل أكثر آياتها مهملات ناطقة بالمحالات، والله لا يحوج الإسلام إلى الدفاع عن نفسه

بسلاح الاستاذ الذى ينعكس على المدافع عنه ويعبث به قبل أن يعبث به العلم ثم يقذف إلى عالم الميثولوجيا كما هددنا الأستاذ به . ألا تراه أنه يؤمن بالعلم الحديث الذى يرى الأديان جميعا وفيها الإسلام مخالفة لحكم العقل فيقذفها جملة إلى عالم الميثولوجيا أى الأساطير والخرافات ثم يجعل منها مجموعة لا لتقدس تقديسا بل ليرى الأجيال الحديثة حماقة آبائهم الأولين المتدينين، ويسلّم بكون ذاك العلم الحديث الذى فعل هذه الأفعال بالأديان مؤيدا بالعقل ، هذا حكم الأستاذ فى العلم الحديث الذى يعادى الأديان عامة والإسلام الذى هو موضوع مقالته وموضوع المناظرة بيننا خاصة . يعنى أنه حق متيقن بجميع أجزائه عدل فى كل أفعاله فاعل لما يفعله عالما به وإذا جاء إلى جانب الإسلام فيقول عنه إن أكثر مافى كتابه من الآيات لا تفهم معانيها ويردها العقل والعلم على وأنا أردها إلى علم الله. وهذا حكم الأستاذ فى كتاب الإسلام فأيا من الإسلام والعلم الحديث الذى يعارضه أصبح الأستاذ مرجحه على الآخر ؟ العلم الحديث الذى يصدقه بعقله أم الإسلام الذى لا يصدق به وإنما يصدقه متجردا من عقله وقد صرح فى مقالته بأن الله « بنى الإسلام على قاعدة العقل وأساس العلم وحرم على أهله التقليد » فهل يعد الأستاذ نفسه التى قالت بعدم اتفاق نصف القرآن مع العقل فترده إلى المتشابهات تقليداً لقول القرآن فى آية المتشابهات، بنى قوله هذا على قاعدة العقل وأساس العلم؟ فان كان ينتهى فى أساس تدينه بالإسلام إلى تقليد القرآن فى آية المتشابهات وفى اعتقاده أن الإسلام لا يصح أن يبنى على التقليد فما باله يناقض نفسه ويقنع بهذا التدين المبنى على التقليد؟ وما باله يقلد القرآن ويتبعه فى آية المتشابهات ولا يقلد القرآن ولا يتبعه فى آيات المعجزات وآيات البعث والنشور والثواب والعقاب والجنة والنار ولا يقنعها بعقله حيث يثبت عقله فى الحكم والجزم بعدم إمكان مدلولات تلك الآيات ويصر على هذا الحكم وعلى الحكم بصحة ما يعارضها وينفيها من العلم الحديث ؟ فما هذه التناقضات من الأستاذ وهل منشأ كل هذا ليس إلا كون تقليده للعلم الحديث أقوى من تقليده للقرآن وأرجح عنده؟ وهل هذا غير المكان السحيق الذى قال الأستاذ عن صدمة العلم الحديث

انها تـكاد تقذف به إليه لولا أنه وجد المخلص فى آية المتشابهات ؟ فليجمع الأستاذ شمل عقله وليخلص نفسه من هذه التناقضات التى هى المحالات بعينها الا آيات المعجزات والبعث والنشور وما بعدهما، وليعلم أن السلامة من التناقض أقدم من الإيمان بالعلم الحديث المبنى على أساس التجربة، ففى المنطق أن الأوليات متقدمة على المجربات

واجب علينا أن نورد أمثلة من الآيات التى يعجها عقل الأستاذ تحت قيادة العلم الحديث فيردها إلى المتشابهات أى الآيات غير مفهومة المعانى ، وإن أدى إيرادها إلى طول المقالة وزيادة الثقل على (الأهرام) القراء فلتعذرنى أمام احتياج تمام المقالة إليه، ولنبدأ بآيات المعجزات :

«وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيهـا النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن اشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحـا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين فمـكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين إنى وجدت امرأة تملـكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ... اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون قال يا أيها الملأ أيـكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين قال الذى عنده علم من الـكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلمـا رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تـكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل لها أهكذا عرشك

قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » « ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور » هذا ما ورد فى سورتى القرآن من معجزات داود وسليمان فلنكتف به ولننتقل إلى الآيات الدالة على معجزات غيرهما مثل ماورد من معجزات موسى فى سورة القصص: « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى أنى أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين » والذى جاء فى سورة طه من معجزاته يستوعب طول السورة إلا بعضا من أواخرها وفيها قصة سحرة فرعون وإيمانهم تجاه معجزة موسى فكيف آمنوا على تقدير كون المعجزات غير ممكنة وأخبارها التى تقصها متشابهة غير مفهومة ولم لم تتشابه المعجزة والسحر على السحرة حتى ميزوا الأولى من الثانى وتبين لهم أنها من عند الله فآمنوا بها أ كان هذا الإيمان منهم بغير فهم أم كان إيمانهم أيضا متشابها غير مفهوم المعنى ومعناه أنه لم تقع حادثة كهذه؟ ولا تحصى آيات القرآن الدالة على معجزات موسى وقلما تخلو منها سورة من سور القرآن وهذا ما فى سورة آل عمران من معجزات عيسى : « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن

الصالحين قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» وقال فى سورة مريم : « واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس .. » لنقف هنا وقفة نسأل الأستاذ أليس كون خلق عيسى فى بطن أمه من دون أن يمسسها بشر هيناً على الله بمفهوم من صراحة الآية وكيف يقضى الإنصاف بكون هذا متشابها غير مفهوم المعنى فإذا كان هيناً فكيف لا يكون ممكنا فهل نقول بأن الله كذب فى قوله والعياذ به أم نقول بأن المحال هان عليه مع أن قدرة الله لا تتعلق بغير الممكنات ؟ فالأسلم من جميع المحاذير أن نقول بأن الأستاذ لا يعلم الممكن من الممتنع .. ولنعد إلى ما نورده من سورة مريم: « فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسياً» مفهوم ؟ «فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » مفهوم ؟ حتما يفهمه كل من يقرأه حتى يستشكل بعض الناس قوله « يا أخت هارون » ولا تتسع المقالة للجواب على مشكلاتهم، وليس فى قصة عيسى ومريم ماهو جدير بأن يعد متشابها إلا قوله «فأرسلنا إليها روحنا» وعلى ما أظنه - وليس عندى بسبب الهاجرة ما أحتاج إليها من كتب التفسير وغيرها - فالمفسرون يحملون الرسول على جبريل ويتأولون الروح به. ومن هذا يعلم أنه ليس فيما نقله الأستاذ فى مقالته

الأخيرة عن التفاسير آية يصح أن تعد من المتشابهات إلا ما نقله عن تفسير الفخر الرازى أعنى « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه»

ومثله قوله تعالى «والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين» وتقتصر نقطة التشابه على التعبير بكون عيسى روح الله أو روحا منه لا على خلقه بغير أب وكون أمه أحصنت فرجها كما قال القرآن وأنكره المنكرون. ولنعد إلى قصة مريم مع قومها: «يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا» مفهوم ؟ « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا... ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ...» وفى سورة المائدة: « إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » مفهوم؟ « قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك » مفهوم ؟ « وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين»

مصطفى صبرى

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً

المتشابهات والمعجزات والنشأة الأخرى (٢)

بقلم سماحة الشيخ مصطفى صبرى
شيخ الإسلام السابق بالاستانة

وقصص معجزات الأنبياء كثيرة فى القرآن يخيل إلى من رآها من منكرى الأديان الغافلين أن الأديان مشتقة الأصول بعضها من بعض ، وحسبنا فى الرد عليهم أن نقول كيف يشتق دين التوحيد من دين التثليث؟ أما قصص الأنبياء وكون ما ورد فى القرآن منها مماثلا لما جاء فى الكتب المقدسة الأولى فذاك أمر طبيعى، وقد نبه علماء الأصول على أن النسخ لا يجرى فى الأخبار ولا فى أصول الشرائع وإنما يجرى فى الأحكام الفرعية العملية ولذا قال تعالى « مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل » ولو تخالفت الكتب المقدسة فى الأخبار وأصول الدين لكان بعضها قد كذّب الآخر أو صحح خطأه . وفى آخر سورة يوسف التى يقول الله فيها حكاية عن يوسف (اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا » ويقول « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا » ـ « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه » فهل يصح أن نقول عنه « ما كان حديثا يفترى ولكن حديثا بالمحال أو بما لا يفهم ؟ » وكيف تكون فيما لا يفهم عبرة لأولى الألباب ، مع أن أولى الألباب الحديثة لا يعترفون بإمكان هذه القصص فضلا عن وقوعها . وفى سورة الأحزاب من معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا » وفى سورة الأنفال «إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفرو الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان» وفى سورة آل عمران « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى

إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين» وفي سورة الأحقاف « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم » وفي سورة الجن « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ... إلى آخر الآيات الحاكية عن أقوال الجن » وفي سورة الإسراء « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا »

والقرآن كله معجزة نبينا عليه وعلى إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه، فهل هو محال أيضا عند الأستاذ وهل جميع آيات القرآن متشابهات غير مفهومة المعنى أى غير مفهومة الإعجاز وهل قوله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) متشابه ناطق بالمحال أو غير مفهوم المعنى؟ فإذا لم يفهم معناه فكيف يتحدى به الإنس والجن وإذا كانت في قدرة الله معجزة القرآن أفلا يكون العاقل مضطرا إلى الحكم بقدرته على معجزات الأنبياء المذكورة فيه استدلالا بهذه المعجزة المشهودة لنا على وقوع تلك المعجزات في سالفة الأزمان؟

بل المسألة لا تختص بالمعجزات لأن إنكارها إن كان مما يقضى به العلم الحديث النافى بكل ما لا يؤيده الإحساس والتجربة، فإنكار الإله أولى ما يقضى به ذلك العلم، ووجوده أبعد ما تستأنس به العقلية المستمدة منه ، والله متعال عن متناول الحواس الظاهرة والتجارب المادية ولا كتعالى المعجزات عنها لأن من المعجزات واحدة على

الأقل نشاهدها وندركها بالعيان وهى القرآن. بل نقول إن إنكار العلم الحديث المعجزات والبعث بعد الموت والجنة والنار مبنى ومتفرع على انـكاره للإله الخالق القادر فإذن كيف يؤمن الأستاذ بوجـود الله ويؤالف إيمانه به مع إيمانه الوثيق بالعلم الحديث النافى لوجود كل ما لا يدرك بالحواس ولا يعلم بالتجارب فيلزم أن يكون وجود الله أول المتشابهات عند الأستاذ، وفى الحقيقة إذا اقتنع الإنسان بوجود إله خالق السموات والأرض فلا يتعسر عليه الإقرار بمعجزات الأنبيـاء وتتسع عنده دائرة الإمكان وإذا اعترف بأن القرآن كلام ذلك الخالق الأجل فلا يتردد فى الاعتراف بجميع ما فيه ولا يستبعده أدنى استبعاد ولا يعدله بكلام العلم الحديث الذى يمكن أن يخطأ حتى فى تجاربه

وقد فاتنا الاتيان بعد آيات المعجزات بأمثلة من آيات الساعة والحشر والسؤال والحساب والثواب والعقاب ولـكن لا يحسن لنا أن نكتب سور القرآن على صفحات الأهرام وما لا يدرك كله لا يترك قله فمنها : « إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فـكانت هباء منبثـا وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحـاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنـات النعيم . ثلة من الأولين وقليل من الآخرين وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة ... وأصحـاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون ءإذا متنا وكنـا ترابا وعظاما ءإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ثم إنكم أيها الضالون المـكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم هذا نزلهم يوم الدين نحن

خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تمنون ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون » هذا ما فى سورة واحدة فإن كانت هذه الآيات متشابهة غير مفهومة المعانى ولا مطلوبا منها الفهم فقد ضاعت أنفاس القرآن فى تفصيل أحوال اليوم الآخر وضاعت أنفاسه فى إثبات مجىء ذلك اليوم والاستدلال عليه بالنشأة الأولى والتوعد على المكذب المستبعد لمجيئه وانظر إلى قوله « والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب إن كل نفس لما عليها حافظ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل وما هو بالهزل » فهل يصح أن يقال بعد ذلك ولكنه قول بالمحال أو متشابه غير مفهوم المعنى ولا مطلوب الفهم؟ وقوله «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير » وقوله « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » «وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » « أولم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير » « ويقولون أءنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون فى جنات النعيم على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إنى كان لى قرين يقول إءنك لمن المصادقين أءذا متنا

وكنا ترابا وعظاما أءنا لمدينون قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه فى سواء الجحيم قال تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون » « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون » « ياأيها الذين آمنوا اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور »

وفيما أوردناه كفاية

بقى أن الاستاذ يجب عليه أن يخفف من غلوائه فى إعظام العلم الحديث فهو مهما تغلب على القوى التى كانت تساوره ودالت إليه الدولة فى الأرض فلن تدول إليه دولة السماء حتى يكون له الحق فى أن ينظر نظرة فى الأديان فيقذف بها جملة إلى عالم الميثولوجيا أى الأساطير والخرافات. فالعلم الحديث لم يخلق بعد نملة أو بعوضة أو حبة فهل له أن يستخف بالدين الإلهى ويكفر بصاحبه ويتحدى خالق السماوات والأرض وخالق مافيهما من أسرار لم تمتد يده بعد إلى واحد من مليون بل ميليار منها وخالقَ الإنسان الذى وضع العلم الحديث والقديم وخالقَ عقله الذى استمد منه فى وضع العلوم . فمن أكبر الجناية أن ينكر عقل من العقول أو علم من العلوم معتمدا على ما اكتشفه من بعض الأسرار المودوعة فى مواد الكون، مصدرَ ومرجع كل عقل وعلم، مع أن هذا العقل المنكر عقل يخلد إلى الأرض ويختلط بالتراب، منه نشأ وسيعود إليه وما للتراب والعقل أو العلم؟ وماذا على إذا سميت هذا العقل الكافر بربه ونعمة ربه حماقة وذلك العلم جهلا؟ وإنى جد أسف على أن مثل الأستاذ الذى شاب شيبته فى خدمة الدين يستخذى فى أول اصطدام مع هذا العلم الكافر ويخضع لدولته ويدير كلامه كأنه من جاليتها .

وليس الأستاذ من علماء العلم الحديث ولا أنا، بيد أنى أعلم أن العلم الحديث الذى يُعنى به الأستاذ ما يسمونه العلم المثبت المبنى على أسس الإحساس والتجربة .

ليس من حق هذا العلم أن يتكلم ويحكم فى إثبات الواجب أو نفيه والاعتراف بالأديان أو إنكارها فإن تكلم وحكم فقد تعدى حدوده وخرج عن موضوعه فلا يكون مسموع الكلمة ولا نافذ الحكم ولا يجوز أن يكون معنى توقف أصحاب العلم الحديث فيما وراء علومهم ، أن الحق منحصر فى دائرة تلك العلوم الضائقة وان ما عداها باطل إذ الدنيا لا يمكن أن تعيش بالعلوم المثبتة فقط بل معناه أن تلك العلوم يحكم فى ساحتها التى تختص بها ولا تتدخل فيما يخرج عن ساحتها وما لم تصل إليه خطواتها فلا تتعجل فيه القول بالإثبات والنفى ، نعم تقول إنه ليس بثابت فى نظرها لكونه خارجا عن موضوعها وليس معناه أنه ليس بثابت أصلا فيمكن أن يكون ثابتا ويتولى إثباته علم آخر ، حتى ان ما لا يكون مثبتا فى نظر العلوم المثبتة قد يكون مثبتا فى نظر العالم بالعلوم المثبتة لأن العالم لا يتقيد بما يتقيد به العلم فيمكن أن يكون له حظ من علم آخر ويكون فيه إثبات ما لم يثبت فى العلوم المثبتة بل يجب أن يكون عالم تلك العلوم أرحب صدرا منها فى النفى والإثبات إذ لو لم يكن كذلك واقتصر علمه على مسائل تلك العلوم كان هذا العالم جامدا جدا وجاهلا بالرغم من كونه إخصائيا فى العلوم المثبتة. ومن هذا يتبين أن تسميتها بالعلوم المثبتة شطط وتضليل فقد يضل بعض الناس فيظنون أن ما لم يثبت فى تلك العلوم فليس بثابت وليس الأمر كذلك لاحتمال أن يكون مثبتا بعلم آخر وأما ظن أن ما أثبتته العلوم الأخرى لا يعتبر مثبتا ولا يكون له من القوة ما للذى أثبتته العلوم المثبتة فهو خطأ ناشىء كما قلنا من الشطط تسمية تلك العلوم المثبتة وإنكار لكيان غيرها من العلوم وربما يكون غيرها أشرف منها وأرقى مرتبة فى سلم العلم .

ومثل هذه الأحوال والنظر إلى علوم الغرب من بُعدٍ أثَّر فى العقول غير الراجحة والعقائد غير الراسخة فذهب بأهلها إلى أن يظنوا بدينهم الحنيف الظنون وخيل لهم أنه لا يتفق مع

العقل والعلم وأنه أسطورة مشتقة من أساطير الأولين، مع أن دينهم وإن كان لا يتفق مع بعض العلوم الحديثة بمعنى تقاصر فهم ذلك البعض عنه لكون نظره مقصورا على الطبيعة والمادة وكون الدين فوقهما وعلمه علم مافوق الطبيعة، لكن العقل لم يكن فى عصر من عصور الإنسانية ليستوحش الدين ويناوئه ويجافيه بل تلقاه بكل حنين وأنسة واحترام وتعارف معه فى أول لقائه تعارف المواطنين أحدهما مع الآخر لكونهما من العالم العلوى ورآه من أخص مايمتاز به الإنسان عن الحيوان كما امتاز عنه بعقله قال العالم الفرنسى (جورج ل . فونس غريو) مؤلف كتاب مبادىء الفلسفة وهو من الكتب المدرسية المؤلفة على وفق بروجرام الليسانس الفرنسى، فى مبحث الفرق بين الإنسان والحيوان وذهنيهما :

« إن الإنسان ذاتا مثل المادن وحياة مثل النبات وهو يشترك مع الحيوان فى الإحساس وفى طبقة الذهن السفلى لكنه النوع الوحيد الممتاز بالعقل أى قدرة العلم بنفسه والعلم بالعالم والاكتشاف للقوانين المتعلقة بنفسه والعالم والاعتلاء من معرفة الأشياء ومعرفة قوانينها إلى معرفة صانع الأشياء وقوانينها الأعظم والاعتراف بسلطان الحق وعظمة الواجب فى الدنيا والاحترام بالحق فى أمثاله حسبما يحس لزوم كونه محترما فى نفسه فالإنسان هو الحيوان الذى له نسبة إلى العلم والأخلاق والمجتمع والدين وليس لأسمى فرد من غير نوعه علم ولادين » . وقال هذا المؤلف فى مبحث الأهواء المتولدة من التأمل:

« ومنها هوى التدين الذى يختص بها ذووالعقول فالإنسان يعلى فكرة بفضل عقله إلى خالق الأشياء فيسند العلم المحيط الموجد للقوانين الكلية والجود غير المتناهى الذى اقتضى إرادة تلك القوانين والقدرة العليا التى أخرجتها إلى ساحة التحقيق ، إلى ذات واحد أجل وأعلى فالإنسان كما يحس بتوسع ستار الأسرار إلى ما وراء حدود العلم بكثير يحس بكون تلك الأسرار مغلوبة فى يد قهر ذلك الذات كالقوانين المثبتة المعلومة له فيتولد من هذا إحساس مبهم بعض الشىء ممتزج بمفاهيم العقل التى هى أصرح .

« ففى الانسان مفهوم التدين والإحساس بالتدين معا وهذا المفهوم وهذا الإحساس

اللذان أصبحا من امتزاجهما خميرا ، يتولد منهما هوى يحملان الإنسان على حرمة الإله الذي يعلم ويحس بأنه مخلوقه وعبده وعلى مخافته وخشيته وعبادته والضراعة إليه فالذي يطمئنه الدين هو هذا الهوى » .

وعدم كون العلم الإنساني منحصرا في العلوم المثبتة من أجلى المسائل التي لا يطوف الاختلاف بشأنها في خلد المشتغلين بالعلم ولو صح انحصاره فيها فأين الفلسفة التي يصرح العلماء في كتب مبادىء الفلسفة بأنها علم العلل وعلم العلوم الحاكم عليها وأين المنطق وهو ميزان العلوم وقد قال (اسپنسر) وغيره :

« إن المعلومات البشرية على ثلاث درجات الأولى المعرفة العامية وفوقها العلم وفوقه الفلسفة فالمعرفة العامية عبارة عن المعلومات غير المرتبطة بعضها مع بعض والعلم عبارة عن المعلومات المضبوطة بعض الضبط تحت جهة واحدة والفلسفة عبارة عن المعلومات المنضبطة على وجه أتم ولذا يقال لها علم تنسيق العلوم كما يقال علم العلل وعلم العلوم وغاية الكل قضاء حاجة التفحص بالبيان والتعليل والحصول على جواب الأسئلة الأربعة السؤال الأول من أي مادة وجد هذا الشيء الذي يراد بيانه وتعليله ؟ الثاني كيف وجد يعني أي صورة اكتسبت هذه المادة كي تصير الشيء الذي هو موضوع البحث ؟ الثالث من أوجده ؟ ويسمى العلة الفاعلية . الرابع لماذا أوجده ؟ ويسمى العلة الغائية فالعلوم غير الفلسفة تبحث عن أجوبة السؤالين الأولين فقط ولا تجيب على السؤالين الأولين الفلسفة ففيها يسأل من أين جاء العالم وإلى أين يذهب فهي علم المبدأ والمعاد وفيها يبحث عن المبادىء الأول والعلة الأولى » .

مصطفى صبري

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقا

٦ ـ ٩ ـ ١٩٣٣

مذهب القرآن فى الآيات المتشابهة

للأستاذ محمد فريد وجدي

قرأت المقالة التى رد بها على الأستاذ مصطفى صبرى افندى فرأيت فيها لا أقول تحاملا على العقل والعلم ولكن غضا من سلطانهما إلى حد أن كل أصحاب الأديان المتغلغلة فى عالم الغموض تستطيع أن تجد منها عونا على الاحتفاظ بعقائدها . ويؤلمنى أن الأستاذ يغفل من حسابه مهمة الإسلام الكبرى فى الأرض ، وهى أن يضع للناس كافة دستورا دينيا قوامه العقل وركنه العلم يوفقون به بين حاجات قلوبهم وعقولهم بحيث لا يصدمون فى تمشيهم نحو الحقيقة بعقبة تقف بهم دون مواصلة السير إلى الغاية القصوى، فلا يجد العلم فى تدرجهم إليها من الإسلام مانعا يعمل على ذلك كما ذلك كل الموانع التى حالت دونها من الأديان السابقة .

نعم ، الإنسانية مدفوعة إلى غاية بعيدة من الارتقاء بكل ما أودع فيها من قوى ظاهرة أو خفية ، ومضطرة لأن تحطم كل ما يصدها عنها من الحوائل ولو أسندها أهلها إلى أقدس مصدر . وفى حالة الأمم اليوم عبرة لمن يعتبر . فجاء الإسلام بدستور لا يدع هذه النزعة الجبارة من العلم ولا الهمة الفائرة من ممثليه أن تنال من قدسيته منالا ، راميا بذلك إلى غاية نص عليها فى كتابه غير مرة وهى أن يكون دين البشرية فى عهدها الأخير ، عهد الشبهات والشكوك والبحوث الجريئة الحرة ، والانقلابات الأدبية والفكرية . وهو بطبيعته قد شرع لا ليكون دينا محليا ولا ليناسب عقلية الشعوب فى طور من أطوار الإنسانية ، ولا ليبقى محبوسا فى قضايا معينة لا تصلح إلا لزمان محدود ولكن ليكون دينا يسع جميع التطورات البشرية الممكنة، فهو لذلك قد أتى بدستور دينى جميع هذه الأمور النسبية حتى لا تصطدم به فى دور من أدوارها ، وحتى يصلح لقيادتها وتعديل عوجها .

وقد بلغ العلم في العهد الأخير من السلطان ما أكسبه قيادة العقول والأرواح معاً ، فاذا غفلنا نحن معشر الدافعين عن الإسلام عن هذا الأمر الواقع فقد غفلنا عن أقوى عاصفة أدبية تواجه العقائد ، وكنا عاملين على وضع ديننا خارج المعاقل التى أعدها لنفسه . وعلى تعريضه مجرداً من كل سلاح إدخره اساعة الخطر .

أما نرى بأعيننا اليوم أن الأديان التى كان لها قيادة القلوب والعقول فى بلاد العلم قد استحالت إلى معابدها ، وقد دب إلى رجالها أنفسهم دبيب الآراء الحديثة فشكّوا فى إمكان بقائهم على ماهم عليه قرناً آخر .

فهل كل هذا لا يكفى أن يحملنا ندرك خطر موقفنا ، وأن يدفعنا إلى تلمس قوانا المذخورة للدفاع عن حقيقتنا إن كنا نعتقد أنها حقيقة ؟

أما الاستخفاف بهذا السيل العرم من الآراء الحديثة والمقررات العلمية التى لا تُبقى ولا تذر فليس له إلا نتيجة واحدة وهى أن نصبح وقد أحيط بنا ونحن فى أمنع ما نتخيله من ملاجئنا ، وعندئذ لا يدفع عنا البلاء ما نحيط به أنفسنا اليوم من أمانى ، ولا ما نمنيها به من أحلام .

لقد تنبهنا نحن لهذا الأمر الجلل بحكم أننا وقفنا فى نقطة تصادم العلم والدين ، وأدركنا كنه الخطر المحدق بالحقيقة التى انتُدبنا للدفاع عنها ، فدفعنا الشعورُ بالضعف إلى النظر فى مذخورنا نبحث فيه هل بقى لنا من وسائل الدفاع عنها شىء ، فهدانا الله ونحن تحت تأثير هذا الفزع الأكبر إلى ذلك المعقل المنيع الذى تتحطم أكبر القوى دونه ولا ينال المستعصمَ به خيال من أذى، ألا وهو آية المحكمات والمتشابهات .

فأصبحت المسألة بيننا وبين مجادلينا من الذين لم يشعروا بهذا الخطر العمم محصورة لا فى البحث فى حدود العقل أو العلم ، وقياس مدى سلطانها ، فقد مضت سنة الأولين ولكن فى هل يوافق أئمتنا الذين فهموا القرآن قبلنا على ما ذهبنا إليه حتى يسوغ لنا أن نستخدم هذا السلاح فى الدفاع الذى نصبنا أنفسنا له .

هذا هو موقفنا اليوم وإنى لمتقد بأنى قد كشفت للناس من صميم الإسلام ومن لباب مافهمه الرجال الأولون ممتصما يحميه من كل طغيان ، لا فى هذا العصر فحسب ، ولـكن فى جميع العصور ، وفى وسط كل ما يتخيل من الانقلابات الأدبية فىالأرض.

ولست أشك فىأن ما كشفته سيكون معول المدافعين عنالحقيقة الإسلاميةفى كل مكان بعـد اليوم .

فإلى القارئين بياناً جديداً فيما نحن بصدده من هذا الموضوع، وهو آخر ما أقوله فى هذا الباب فإن كل كلام يأتى بعده يـكون تحصيلا لحاصل .

أوحى الله القرآن فى عهد بلغ العقل البشرى فيه رشده ، وأصبح قادراً على التفرقة بين ما هو حق وما هو باطل ، وعلم الله أن هذا العهد سيؤدى إلى تولد الشبهات ونجوم الشكوك ، كجعل مناط الإعتقـاد فى دينه الأخير العقل ، وسمح بتأويل كل نص فى الـكتاب يخالف ظاهر ألفاظه حكمه إلى ما يوافق دلائله ، ويلائم مداركه ،لتتم بالإسلام الحجة على البشر ولايجد أهل النظر الحر والتفـكير المستقل سبيلا إلى الإفلات منه .

ولـما كان ينبوع العقائد الإسـلامية القرآن فقد نظر فيه الأئمة الأولون تحت هذا النور الساطع فوضعوا له دستوراً عقلياً يُرضى أعصى العقول قيـاداً وأبعدها انقياداً وأحسن مانقدمه للقراء من صور هذا الدستور الـكريم ما دوّن أمام المفسرين فخرالدين الرازى عند تفسيره لآية المحـكم والمتشابه ، قال رضى الله عنه :

« إن اللفظ (أى القـرآنى) إما أن يكون نصاً أو ظاهراً أو مؤولا أومشتركا أو مجملا . أما النص والظاهر فيشتركان فى حصول الترجيح إلا أن النص راجح مانع من الغير ، والظاهر راجح غير مانع من الغير ، فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمحـكم وأما المجمل والمؤول فهما مشتركان فى أن دلالة اللفظ عليه غير راجحة (أىعندالعقل) وإن لم يكن فىأنه غير راجح فهو مرجوح لا بحسب الدليل المنفرد ، فهذا القدرالمشترك هو المسمى بالمتشابه ، لأن عدم الفهم حاصل فى القسمين جميعاً . وقد بينا أن ذلك يسمى

متشابها ، اما لأن الذى لا يعلم يكون النفى فيه مشابها للإثبـات فى الذهن ، واما لأجل أن الذى يحصل فيه التشابه يصير غير معلوم ، فأطلق لفظ المتشابه على ما لا يعلم إطلاقا لاسم السبب على المسبب . فهذا هو الـكلام المحصل فى المحـكم والمتشابه »

ثم قال :

« إن صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح فى المسائل القطعية لا يجوز إلا عند قيام الدليل القطعى العقلى (تأمل) على أن ما أشعر به ظاهر اللفظ محال . وقد علمنا فى الجملة أن استعمال اللفظ فى معناه المرجوح جائز عنـد تعذر حمله على ظاهره ، فعند هذا يتعين التأول ، فظهر أنه لا سبيل إلى صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح إلا بواسطة إقامة الدلالة العقلية القاطعة على أن معناه الراجح محال عقلا . ثم إذا قامت هذه الدلالة وعرف المـكلف أنه ليس مراد الله تعـالى من اللفظ ما أشعر به ظاهره ، فعند هذا لا يحتاج إلى أن يعرف أن هذا المرجوح الذى هو المراد ماذا ، (أى ليس عليه أن يبحث عن مراد الله منه) لأن السبيل إلى ذلك إنما يكون بترجيح مجاز على مجاز . وترجيح تأويل على تأويل . وهذا الترجيح لا يمـكن إلا بالدلائل اللفظية ، والدلائل اللفظية على ما بينا ظنية ، لاسيما فى الدلائل المستعملة فى ترجيح مرجوح على مرجوح آخر يكون فى غاية الضعف . وكل هذا لا يفيد إلا الظن الضعيف . والتعويل على مثل هذه الدلائل فى المسائل القطعية محال . فلهذا التحقيق مذهبنا أن بعد إقامة الدلالة القطعية على أن حمل اللفظ على الظاهر محال ، لا يجوز الخوض فى تعيين التأويل . فهذا منتهى ما حصلناه فى هذا الباب والله ولى الهداية والرشاد » انتهى .

فأنت ترى من هذا البيان الشافى أن مدار الفهم فى القرآن عند المسلمين على الدلائل العقلية لا على التسليم المجرد عن التعقل والاقتنـاع . ومؤدى كلام الإمام الرازى أن ما نص عليه القرآن وكان موافقاً لحـكم العقل وظاهر اللفظ فهو المحـكم ، وما كان منه مجملا أو مؤولا فهو المتشابه . وكل لفظ لا يصح عقلا أخذه على ظاهره فلا يجوز البحث

عن مراد الله منـه ، إذ لو فعل لـكان مرجحاً مجازا على مجاز أو تأويلا على تأويل ، وهذا خبط ينافى مذهب القرآن فى وجوب التثبت وإدراك حقيقـة الواقع لا الوقوف مع الخيالات .

ثم ضرب الإمام الرازى لما قاله مثلا فقال :

« قال الله تعالى : الرحمن على العرش استوى . دل الدليل على أنه يمتنع أن يكون الإله فى مكان ، فعرفنا أنه ليس مراد الله تعالى من هذه الآية ما أشعر به ظاهرها ، إلا أن فى مجازات هذه اللفظة كثرة فصرف اللفظ إلى البعض دون البعض لا يـكون إلا بالترجيحات اللغوية الظنية ، والقول بالظن فى ذات الله تعالى وصفاته غير جائز بإجماع المسلمين . وهذه حجة قاطعة فى المسألة والقلب الخالى عن التعصب يميل إليه ، والفطرة الأصلية تشهد بصحته .

ثم بين الإمام الرازى صفة الراسخين فى العلم الموصوفين فى القرآن فقال :

«هم الذين علموا بالدلائل القطعية أن الله تعالى عالم بالمعلومات التى لا نهاية لها ، وعلموا أن القرآن كلام الله تعالى ، وعلموا أنه لا يتكلم بالباطل والعبث فاذا سمعوا آية (تأمل) ودلت الدلائل القطعية على أنه لا يجوز أن يكون ظاهرها مراد الله تعـالى بل مراده غير ذلك الظاهر ثم فوضوا تعيين ذلك المراد إلى علمـه ، وقطعوا بأن ذلك المعنى أى شىء كان فهو الحق والصواب، فهؤلاء هم الراسخون فى العلم بالله، حيث لم يزعزعهم قطعهم بترك الظاهر ، ولا عدم علمهم المراد على التعيين عن الإيمان بالله والجزم بصحة القرآن»

نقول هذا كلام لا يحتمـل التأويل وليس وراءه مذهب لطالب حقيقة . ووالله انى لأعجب للذين لا يقبلون هداية الله فى هذا الشأن الخطير ويهون عليهم أن ينسبوا إليه ما توهمه ظواهر بعض الآيات ، معرضين دينه للشبهات ، وقد أمروا أن يستنيروا فيما يأخذون من كتابه بالعقل ، وأن لا يخوضوا فيما يوهم ظاهره الظلم أو الجهل .

الا تـكفينا الآيات المحـكمة من القرآن وقد انقطعت أنفاس المســلم فى تصوير

إعجازها ، ولم نفرغ بعد من الإبانة عن بعض ماحوته من حكم عالية ، ونظم حكيمة، وأصول أصيلة ، ومبادىء لم تقرر إلا بعد أن بلغ هذا العلم رشده وقد اعتبرت مثلاعليا لمدنية فاضلة لم تصل البشرية إلى اليوم لتحقيقها ؟

ألا يتعجب المتعجبون معى من هذا الأمر : وهو أن كثيرا من المسلمين الذين أمروا أن يكتفوا بمحكمات الكتاب ، قد تركوها اليوم جانباً وتمسكوا بمتشابهاته ، وذهبوا فى تفسيرها وتأويلها مذاهب لا تتفق وسيرة السلف منها ، وجشروا إليها من أساطير الأولين ما لا سبيل لنا إلى إثباته هنا ، فأصبحوا حجة على دينهم وقد كلفوا أن يكونوا فى طليعة العالم تمحيصاً للعقائد ، وتخليصاً لها من فضول الخائضين فيها بأهوائهم وأوهامهم ليستحقوا أن يكونوا كما ندبوا له شهداء على الناس فى غلوهم وتقصيرهم، وفى إفراطهم وتفريطهم ؟ أفنستطيع أن نحل من مجموع الناس هذه المكانة بغير ميزان من العقل، ونبراس من العلم، وسلطان من الحجة ، لايبلغ إليها النقد ، ولايتطاول إليها الشك.

لقد فتنهم هذه المتشابهات لقصور ثقافتهم العلمية إلى حد أن أصبح الذى يدعوهم إلى إطاعة الكتاب فى ترك تأويلها وعدم التعويل على ظواهرها ، وإلى الجرى على سنة الإسلام فى تسرية الدستور العقلى عليها ، كما قرر ذلك أسلافهم ، يعتبر فى نظرهم ملحدا فهم بهذا الموقف قد دلوا على أنهم قد تدهوروا إلى حد أنهم يعجزون حتى عن تقليد أئمتهم ، فما ظنك لوطالبهم مطالب بأن يبنوا على ما أسسوا ، أويزيدوا فى مادة ماحصلوا؟

ليس على المسلم أن يقول حيال كل محال عقلا (ان قدرة الله صالحة لإحداث كل شىء) لأن المسلم مع اعتقاده بهذا الأصل فهو مأمور أن يعقل ما يأخذ به لا أن يسلم به تسليما . وهذه ميزة المسلم على غيره ، بل هى التى ترشحه فى مثل عصر العلم الذى نحن فيه لأن يكون شهيدا على الناس كما وصفه به الكتاب ، ولوأخذ بالتسليم لساوى غيره فى الأخذ بكل ما يقدم إليه ، ولبطلت حجته فى دعوى الأمم إلى تحكيم العقل . فلنحافظ على هذه الميزة ولا نحاول أن ننسخها بأيدينا فهى التى ستعطى الإسلام قيادة العقول والأرواح فى أشد العصور حقولا بالشكوك ، وأهوالا بالشبهات .

هذا أمر بدهى لا يحتاج لتأمل ، وهو مذهب الإسلام الذى قام عليه أتباعه الأولون ولكن تعويل كثير من أخلافهم قرونا متوالية على المتشابهات وقصرهم الدين عليها خلافا لما أمروا به يجعلهم يستنكرون ما نقوله الى حد التفكير مع أن ما نقوله من معدن القرآن ، ومن لباب الإسلام وبه استحق أن يكون دين البشرية فى عهدها الأخير

وبعد ، فقد ترك لنا آباؤنا بجريهم على سنة القرآن ملكا لا تغرب عنه الشمس ، وزعامة عامة فى كل الشئون الإنسانية من علم وفلسفة وفنون وسياسة ، ولم يقتصروا على الجرى عليها عمليا ولكنهم وضعوا لكل منها دستورا يحفظها من التدهور ويكفل لها دوام الارتقاء . ولم يهملوا الدين نفسه من دستور قيم ، مستهدين فى وضعه بالقرآن نفسه ، فقرروا تحت اسم علم الأصول ما لم يسبق لأمة مثله ، وما لو كشف للناس اليوم لعدوه من وضع جماعة من الذين هبوا من حياض العلم الحديث وفلسفته العصرية

فأضاع كثير من المسلمين ممالكهم بسبب تنكبهم طريق حفظها التى نهجها آباؤهم الأولون ، بل أضاعوا وجودهم كله ، وتسرب كل خير تركه لهم أسلافهم الى الأمم التى تأخذ بالعلم وتدين به .

واليوم أصبح دينهم فى الميزان حتى لدى عشيرته الأقربين ، ذلك الدين الذى ينص كتابه على أنه دين عالمى خالد ، يدعو الى توحيد الأمم وتوحيد الأديان ، وأتى كتابه على جميع الحوافظ التى تحفظ له هذه المنزلة ، وعلى جميع الأصول التى تميل اليه الرقاب صاغرة ، وقد تولى أئمتنا الأولون هذه الحوافظ بالبيان فألفوا منها دستورا لا يتسرب اليه الوهن مما لو طولع به الناس اليوم لبهرهم كما يبهرهم ما ننقله عن أحدهم .

فاذا دفع حب الجدل بعض الناس لصرف هذا الدستور عن حقيقته ، أو للميل به عن صراطه ، أو لقرنه بما يبطله ويجعله أثرا بعد عين ، فإنهم يجنون على أمتهم شر الجنايات ، ويكون من وراء ذلك أن يسلب الله تلك النعمة منهم ، ويعهد بها الى أمم تستطيع أن تمثلها غيرهم : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » الآية

١٠ — ٩ — ١٩٣٣ محمد فريد وجدى

مذهب القـرآن

إزاء مذهب الأستاذ فريد وجدى

العصر على زعم أن ما جاء فى القرآن عن معجزات الأنبياء وقصصهم وعن اليوم الآخر وثوابه وعقـابه كلهـــا من المتشابهات غير المفهومة والمعقـولة لسماحة الشيخ مصطفى صبرى شيخ الإسلام السابق للدولة العثمانية

«طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون»
« سورة القصص »

« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه» .
« سورة الإسراء »

اصطدم الأستاذ فريد وجدى — على ما روى — فى جولاته العلمية مع العلم الحديث الذى نظر نظرة فى الأديان ثم قذف بها جملة إلى عالم الأساطير والخرافات فكانت نتيجة تلك الصدمة مغلوبية الأستاذ أمام العلم الحديث وخضوعه لسلطانه واستسلامه بعقله وقلبه له واعترافه بما فعل بالأديان ثم اصطدم الأستاذ الذى غاب عنه صوابه بالصدمة الأولى مع مافى القرآن من معجزات الأنبياء وقصصهم ووصف الجنة والنار والبعث والحساب تلك الآيات التى تملأ سور القرآن فكانت نتيجة الصدمة الثانية مغلوبية القرآن أمام الأستاذ حيث رد ما يبلغ نصفه من آياته البينات جبرا إلى المتشابهات غير المفهومة وغير المعقوله وأرهق القرآن على قبول مذهبه فنادى فى عنوان مقالاته (مذهب القرآن فى الآيات المتشابهة) وما هو إلا مذهب الأستاذ افتاته على القرآن وأراد أن يقهر القرآن وهو نفسه تحت قهر العلم الحديث، ولا يبلغ أى قهر وظلم للقرآن مبلغ قهره وظلمه فى تعطيل معظم آياته وتخليتها

عن المعنى المفهوم والمعقول حتى ان هذا التعطيل أبلغ وأنكى من إنكارها ألا ترى أنه يؤذينا قول بعضنا لبعض « كلامك لا يفهم أو فارغ عن المعنى المعقول » فوق ما يؤذينا إنكاره وعدم التسليم به فهل يظن الأستاذ أنه لا يؤذى الله ورسوله أولا يعلم الله ما فيه من معنى الأذى إن لم يعلمه بعض القراء الغافلين الذين يعتمد عليهم الأستاذ .

يرى فىّ الأستاذ فريد وجدى قصور الثقافة العلميـة ويرى فى ردودى على مقالاته ان لم يقل تحاملا على العقل والعلم ولـكن غضا عن سلطانهما ويؤلمه أنى أغفل من حسابى مهمة الإسلام الـكبرى فى الأرض. ويؤلمنى أن أقول إن الأستاذ يرى فىّ وفى مقالاتى ما فى نفسه وفى مقالاته، وأعجب من هـذا أنه يغفل ويعطل نصف القرآن ويرده إلى المتشابه غير مفهوم المعنى ولا مطلوب فهمه منه ، فالقرآن لا ينطق عنده فيما يبلغ نصفه بشىء أو ينطق بالمحال وما لا يقبله العقل والعلم ولا يؤلمنى أن أقول إن مقالات الأستاذ نفسها المسوقة لإثبات هذه الدعوى التى لم يسبق مثلها لا فى الإسلام ولا فى غير الإسلام متشابهاتٌ وما يراه فى نصف آيات القرآن من استحالة المعنى ومخالفة العقل والعلم فهو فى مقالاته لا فى القرآن، فكل ما يرمينى والقرآنَ به فهو فى نفسه وفى مقالاته. وكل هذه المصادمة بالبديهيات والمغالطة فى المغالطات منشؤها أمران :

أحدهما أن الأستاذ لا يعرف المحال العقلى من الممكن ولا يعرف ما ذكره العلماء فى تعريفهما لأنه يعتبر معجزات الأنبياء وبعث الناس بعد موتهم من المحالات العقلية ومذهبنا ومذهب العقل والعلم ومذهب القرآن وجميع المفسرين والمتكلمين والمؤمنين أنها ممكنة لـكن كثيرا من الناس يرون ما لا يرونه بأعينهم أو ما لا يقع فى زمانهم محالا فالمكتشفات الراقية العصرية لو كانوا سمعوها قبل اكتشافها لأنـكروها وعدوها محالات . والعجب أن المفتونين بالغرب لا يرون ممـكناً لقدرة الله ما يرونه وأشباهه ممكناً لقدرة الغرب فلو سألهم سائل عن احتمال أن يجىء يوم يقدر فيه الطب على إحياء الموتى أجابوه بالإمكان ولا ترده عقولهم وإذا سمعوا مثله من الله تأباه عقولهم ويعدونه

محالا ومعجزات الأنبياء التي لا يفتأ الأستاذ يناقشني في إمكانها قد سبق أن واحدا من أصحاب المجلات في تركيا يسمى (هابل آدم) استخف بها وقال إن مكتشفات العصر الحاضر فوق معجزات الأنبياء ونحن حائرون تجاه رجلين من طراز واحد أحدهما يرى معجزات الأنبياء مستحيلة الوقوع والآخر يراها أهون من الواقع . وإنا أثبتنا إمكانها في مقالتنا الأولى إثباتا علمياً وإن بنينا إثباته على مذهب القائلين بوجود اله خالق للكائنات ونواميسها والأستاذ لم يأت بشيء قادح في مقدمة من مقدمات الإثبات ولم يردّ على مقالتي الأولى ولا الثانية وإنما كتب لحسب كما عبر به بعض الأساتذة الكبار بعد أن قرأ مقالة الأستاذ الثانية. فدائرة الإمكان أوسع مما يظنه أمثاله بكثير وقد تنبه له علماء الإسلام واكتشفوا أساس مكتشفات العصر الحاضر وما فوقها قبل ألف سنة أو أكثر فرووا عن إمام أهل السنة الشيخ أبي الحسن الأشعري قوله « في الإمكان أن يرى أعمى الصين جناح بقة أندلس » وقد حقق المتكلمون مسألة إمكان إعادة المعدوم بعينه عند إثبات البعث، فدين الإسلام ائتلف قديما بالعقل واستغنى عن تهريب الأستاذ إياه من مواجهة العقل والعلم برد نصف كتابه إلى المتشابهات .

المنشأ الثاني أن الأستاذ لا يريد أن يصارح القراء بما تحت لسانه تفاديا من أن يقاطعه الناس (على تعبير الاستاذ نفسه) فالدين في نظره كما في أوربا لا يجاوز أن يكون مظهرا من المظاهر وقد صرح به فيما كتبه على صفحات مجلة (الفتح) الإسلامية ردا على الأمير شكيب أرسلان وليس للدين عنده أن ينفذ في قلوب العقلاء فيجد مقره فيها ولا للإيمان أن يبلغ حناجرهم. وصرح في بعض كتبه الأخيرة بأن العلماء المنتهين في غنى عن الدين وهو الموافق لكونه مظهراً من المظاهر فلا يؤمن العاقل بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلا إيمانا سياسياً يستعمر به في الارض أو اجتماعيا يحفظ به أخلاق العامة ولهذا يجوز بل يجب أن يجرى التجديد والتعديل والتبديل في الدين بما يقتضيه الزمان والمجتمع ولا يقف هذا التجديد والتبديل عند حد . وإذا صادف مثل

ذاك العاقل مثلي ممن يتلقون الدين وضعا إلهيا وحقيقة سماوية يضحك من عقله ويجادله بكل ما عنده من المظاهر من غير أن تنفذ مجادلته ومناظرته في قلبه كما لم ينفذ فيه الدين لكن الجد يأبى الله إلا أن تكون له الغلبة لا للهزل ولنوضح بعض ما فعله الأستاذ في موقف المناظرة .

١ — فأولا انه يخالف في كلامه العقل والعلم ويتهمني بالاستخفاف بالعقل والعلم ولنرو شاهدا لما قلنا من مقالته الأخيرة :

« ليس على المسلم أن يقول حيال كل محال عقلا (إن قدرة الله صالحة لكل شيء) لأن المسلم مع اعتقاده بهذا الأصل فهو مأمور أن يعقل ما يأخذ به لا أن يسلم به تسليما وهذا ميزة المسلم على غيره » .

وإنا عند ما اعترفنا بالمعجزات وآيات البعث ما كنا قائلين بأن قدرة الله صالحة لكل شيء وإنما قلنا إن الله قادر على جميع الممكنات وقلنا إن معجزات الأنبياء والبعث بعد الموت من الممكنات العقلية لا من المحالات والأستاذ الذي يرمينا بذاك القول مكابرة يقول حيال كل محال عقلا إن المسلم مع اعتقاده بهذا الأصل أي بكون قدرة الله صالحة لكل شيء فهو مأمور أن يعقل ما يأخذ به لا أن يسلم تسليما فيجب على المسلم أن يعتقد أن الله قادر على كل شيء ويدخل في كل شيء المعجزات وإحياء الأموات على مذهب القرآن القائل (أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير) بل على مذهب الأستاذ أيضا الذي يرد آيات المعجزات والبعث إلى المتشابهات فان رد صراحة القرآن بقدرة الله على إحياء الموتى أيضا إلى المتشابه فلا مندوحة عن إيمانه بها متشابهة لأن آية المتشابهات التي يتنزل إيمان الأستاذ بنصف القرآن إلى الإيمان بها ، آمرة بالإيمان بالمتشابهات حيث يقول الله فيها (والراسخون في العلم يقولون آمنا به) اللهم إلا أن تعتبر آية المتشابهات نفسها متشابهة غير مفهومة المعنى فإذن يوجب الأستاذ على المسلم

أن يعتقد ويؤمن بآيات المعجزات وآيات البعث من دون أن يفهم معناها لكون معناها محالا عنده ويضيف إلى واجب المسلم أن يعقل ما يأخذ به لا أن يسلم به تسليما فإما أن يؤمن بآيات المعجزات والبعث مع الاعتقاد بعدم قدرة الله عليها وقد كلفه أن يعقل ما يأخذ ويؤمن به ولا يسلم به تسليما فيؤمن بما لا يؤمن به ويسلم بما لا يسلم وإما أن يؤمن بها مع الإعتراف بقدرة الله عليها من دون اعتراف بإمكانها مصراً على القول بكونها محالات عقلية فيلزمه أن يقول حيال المحالات إن الله قادر على كل شيء ويؤمنَ بالمحال .

فهذا هو مخالفة العقل ومخالفة العلم الحديث والقديم لا سيما علم أصول الدين الذي ينادي بأن قدرة الله لا تتعلق بالمحالات وأن المعجزات وأحوال الآخرة ممكنات .

٢ — وثانيا أن الأستاذ يناقض نفسه في مقالاته ويخالف مفروضه وقد ثبت هذا بما بيناه في الرقم (١) ولنورد مثالا آخر من مقالته الأخيرة فهو يقول في صدر هذه المقالة بعد أن رمانا بالغض من سلطان العقل والعلم إلى حد أن كل أصحاب الأديان المتغلغلة في عالم الغموض تستطيع أن تجد منها عونا على الاحتفاظ بعقائدها : « ان الأستاذ — يريدني — يغفل من حسابه مهمة الإسلام الكبرى في الأرض وهي أن يضع للناس كافة دستورا دينيا قوامه العقل وركنه العلم يوفقون به بين حاجات قلوبهم وعقولهم » .

هذا الأستاذ الذي يقول هذا القول في صدر مقالته الثالثة ويحرّم على المسلم التقليد في دينه وإيمانه بما كتبه في صدر مقالته الثانية ، يرد نصف القرآن إلى المتشابهات أفيجعل دين الإسلام دين المتشابهات غير المفهومة يقتنع بأن يكون قد جعل الإسلام دينا قوامه العقل وركنه العلم ووفق بين حاجات قلوب المسلمين وعقولهم ؟ أفبهذا القول الذي يضحك العقلاء وينصر الأعداء تراعى مهمة الإسلام الكبرى ؟ أهذا الأستاذ الذي أضاف إلى قوله السابق قوله : « نعم إن الإنسانية مدفوعة إلى غاية بعيدة

من الارتقاء بكل ما أودع فيها من قوى ظاهرة أو خفية ومضطرة لأن تحطم كل ما يصدها من الحوائل ولو أسنده إلى أقدس مصدر» يربط الإنسانية المدفوعة إلى غاية بعيدة من الارتقاء المضطرة لأن تحطم كل ما يصدها من الحوائل، بآية المتشابهات ويستوقف عقلها عندها بأن يقول لها (أى الإنسانية المدفوعة الخ) آمنى ولا تعقلى ولا تفهمى ولا تطلبى الفهم؟ ولو أنصف لرأى أن مهمة الإسلام فى ابتعاد مثله ممن ينصر الإسلام بينما ينصره ويضحك منه العقول والعلوم بينما يدعى تأييده بالعقل والعلم؛ عن الدخول فى مثل هذه المباحث

٣ — أما ما عزاه إلينا من الغض من سلطان العقل والعلم إلى حد أن ندعى أن كل أصحاب الأديان المتغلغلة فى عالم الغموض تستطيع أن تجد منها عونا على الاحتفاظ بعقائدها فعلى الأستاذ قبل عزوه إلينا أن ينظر إلى فعل نفسه وقد حاول أن يضع الإسلام فى مصاف الأديان المتغلغلة فى عالم الغموض برد معظم كتابه إلى المتشابهات وسعى أن يجد فى هذا الرد عونا على الاحتفاظ بعقائده أمام سلطان العقل والعلم ولم نتكلم نحن فى الدفاع عن الأديان كلها ولم نشركها بدين الإسلام إلا فيما تشاركه وتتفق معه من الإيمان بإله خالق السموات والأرض ونواميسها قادرا على إرسال الرسل وتأييدهم بالمعجزات وإحياء الناس بعد موتهم ومجازاتهم على حسب أعمالهم، دافعنا عن الأديان كلها فى هذه المسائل وأصررنا على القول بأن للكائنات إلها خلقها وأرسل الرسل واختصهم بالمعجزات وأنزل الكتب وسيعيد خلق الناس بعد موتهم كما خلقهم أول مرة وإن أنكر كلَّ ذلك بعض العلوم الحديثة والقديمة وبعض العقول وهو علم الملاحدة الماديين وعقولهم، وأنى أنكر سلطان عقلهم وعلمهم حيال قدرة الله التى يتقاصر مدى علمهم وعقلهم عن منازعة سلطانه كائنا ما كان مبلغهم فى الاكتشاف والارتقاء، أنكر عقلهم وعلمهم لا العقل مطلقا ولا العلم مطلقا والأستاذ يظن أن عدم المسايرة مع عقول الملاحدة وعلومهم خروج على العقل والعلم ولا يظن بى أنى أستخف بما وصل إليه علم المادة فى الأعصر الأخيرة من الارتقاء وأقابل خدمته المدنية والإنسانية

بالنكران، كلا وإنما أنكر مزاحمة قدرته لقدرة الله وقد قلت فى مقالتى السابقة الطويلة أن للعلم المادى ساحة اكتشاف يسعى فى داخلها وموضوعا يبحث فيه وهو الطبيعة وليس له أن يتعدى حدوده ويخرج عن موضوعه فان تعدى وتكلم فيما وراء الطبيعة فلا يسمع كلامه لا فى الشرق ولا فى الغرب حتى إنه لا يجوز أن يكون كلامه فى ساحته وموضوعه إلا أن اكتشافه انتهى إلى هذا وما وراءه مخزون عنه لا غير ممكن ، فقد يجوز أن يبلغه فى اكتشاف جديد وهذا فيما يدخل فى موضوعه بله ما يخرج عنه فربما يكون ممكنا وثابتا فى علم آخر أوسع ساحة منه . فالعلوم المادية لا يصح ما أسند إليها من نفى الصانع وسلطانه على الكائنات وقدرته على التصرف فيها كما يشاء فى داخل حدود الممكنات وأعنى بها الممكنات بالنسبة إلى علمه وقدرته اللذين لا يجوز أن يقاسا بعلم وقدرة الخلائق فيُظن أن ما لا يمكنهم لا يمكنه فان أسندت إلى تلك العلوم دعوى الإلحاد أو دعوى وقوف قدرة الله فى الحد الذى تقف فيه قدرة الخلائق فالذنب يكون فى عقلية المدعين من المشتغلين بها أو المقلدين لهم من بعد، لا لتلك العلوم نفسها إذ العلم ليس من شأنه أن يتعدى حدوده ويتصف بالجهل المركب فيدعى لنفسه علم ما لم يعلم إثباتا أو نفيا .

وإنى أرى مثلى مع الأستاذ كمثل الاستاذ مع الدكتور طه حسين الذى أنكر وجود ابراهيم واسماعيل عليهما السلام قائلا : « ان ورود اسميهما فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما تاريخيا فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيهـا » فرد عليه الأسـتاذ بقوله فى نقـد كتاب الشعر الجاهلى :

« معنى قول الدكتور هذا أنه لا يمكن اثبات وجود ابراهيم واسماعيل اذا جرى التاريخ على أسلوبه فى اثبات وجود الرجال وتحقيق الحوادث المعزوة اليهم مستقلا عن نصوص الكتب السماوية لأن التاريخ وسائر العلوم قد أعلنت استقلالها عن الأديان

منذ ثلاثة قرون فالتاريخ يطلب فى إثبات وجود الرجال أدلة حسية وآثارا مادية فوق ما تذكره عنهم الكتب الدينية ومع هذا فالقول بأن إبراهيم وإسماعيل لم يثبت وجودهما تاريخيا ليس معناه أن التاريخ قد قرر بأنهما لم يوجدا ولكن معناه أنه لا يستطيع إثبات وجودهما إثباتا ينطبق على أسلوبه الحسى وهذا العجز من العلم لا ينفى أنهما كانا موجودين وأنهما بنيا الكعبة فنحن نحترم هذا العجز من العلم ونشجعه على الاعتراف به بل ولا نقبل منه أن يدعى علم ما لا ينطبق عليه أسلوبه وإدراك ما لا تصل وسائله إليه » .

هذا هو الحق الذى أنطق الله الأستاذ به فى وقف العلم عند حده قبل سبع سنين فما باله اليوم يثبت للعلم الذى أعلن استقلاله عن الأديان سلطانا ينازع سلطان قدرة الله على خلقه وحكما فى جميع الأديان بالقذف به فى عالم الأساطير والخرافات وما باله ينزه العلم اليوم عن العجز والاعتراف به فيما لا ينطبق أسلوبه عليه ولا تصل وسائله إليه وما باله لا يسمى هذا العجز باسمه بل باسم السلطان المطلق والدولة فى الأرض اللذين يحطمان كل ما يقف أمامهما من الحوائل ولو أسند إلى أقدس مصدر ونحن اليوم نقول كما قال الأستاذ أمس ليقف العلم الحديث المبنى على الحس عند حده وليعترف بعجزه عن التكلم فيما هو خارج عن موضوعه لا بالإثبات ولا بالنفى ولا يكون هذا القول منا غضا عن رقى العلم المادى وتوسعه فى حدوده ولا حطا فى مرتبته كما لم يكن قول الأستاذ بالأمس غضا عنه وحطا فيه وماذا حدث بين الأمس واليوم حتى أوجب قول الأستاذ الحديث فى العلم الحديث فهل نزل وحى على علماء العلم الحديث فنسخ القرآن القديم وقول الاستاذ القديم .

وجملة القول فى العلم الحديث أنى لم أستخف به ولا أستخف بل أقدره قدره وأحترمه وأنتظر من الاستاذ أن يحترم الإسلام والقرآن حيال العلم الحديث ولو بقدر احترامى للعلم الحديث ثم إن العلم يتغير من يوم إلى يوم وينسخ نفسه كما تغير قول الأستاذ عنه

بين الأمس واليوم والإسلام والقرآن باقيان لا يتغيران وقد قرأت قبل بضعة أيام مقالة فى الأهرام بعنوان « تيار الخليج المكسيكى » أتتها من مراسلها الخاص فى نيويورك يقول فيها كاتبها ما نصه :

« من أقوال الغربيين المأثورة أن النساء مشهورات بتغيير أفكارهن على الدوام وأرى أن هذا القول يصح فى العلماء صحته فى النساء بدليل ما يأتونه من التغيير والتبديل فى النظريات التى يجزمون بصحتها ويقرونها كحقيقة راهنة ثم لا يلبثون أن يماكسوها برأى جديد مكذبين اليوم ما قالوه أمس وفى الغد ما يجمع رأيهم عليه اليوم » .

فهل الذى يعدله الأستاذ بقول الله تعالى فى كتابه بل يرجحه عليه هو قول العلم الذى شبهه الكاتب بأقوال النساء وزيادة على هذا فان واحداً من أصدقائى وهو ثقة عدل حكى لى ما قرأه فى الصحف عن (اديسون) المكتشف الأمريكى الكبير أنه قال : « ما اكتشفناه من أسرار الكون بالنسبة إلى ما فى خزائنه لجدير بأن يعد من ملاعب الصبيان » فليرحم الأستاذ الحق ولا يقرنه بسلطان علم الله وقدرته سلطان علم خلقه الذى يشبهونه بأقوال النساء وملاعب الصبيان وصاحب التشبيه الثانى من أجلة رجال العلم الحديث مع أن العلم نفسه براء عن التجرؤ على علم الله والتسلطن فوق سلطانه وأى علم كافر — كما عبرت به فى مقالتى السابقة — وأتفنن فأقول الآن وأى علم جاهل يجهل على علم الله، لكن العلم المسكين البرىء ليس له لسان ينطق بما عزاه إليه المستنطقون الفضوليون ومستنطقوه من الشرقيين فضوليتهم مضاعفة حيث لا يعلمون من العلم الحديث شيئاً إلا تحطيم ديننا بسلطانه وتعطيل قرآننا احتفالا بدولته فليخبروا عما اكتشفوا فى العلم الحديث قبل أن يباهونا بما علم الأجانب منه وليعمروا دنيانا به قبل أن يخربوا ديننا .

٤ — الأستاذ يستمد فى مقالته الثالثة من كلمات الفخر الرازى فى تفسير المتشابه وقد قلت له فى مقالتى الثانية إنه يمكن أن يتوسع بعض المفسرين فى معنى المتشابه

ولكن توسعهم لا يشبه قطعاً توسع الأستاذ لإدخال آيات المعجزات وآيات الآخرة الصريحة المحكمة فى المتشابه غير المفهوم لكون معانيها محالات عنده وعدم مفهوميتها وهى مفهومة ناشئة من استحالة معانيها عند عقل الأستاذ وهذا رأى لا يشارك الأستاذ فيه أحد من المفسرين الإسلاميين ومن جراء ذلك حدثت الخلاف بينى وبينه فى إمكان المعجزات والبعث بعد الموت أو استحالتها فأنا أقول بالإمكان والأستاذ يقول بالاستحالة العقلية فان وجد له أسوة فى أى تفسير أو قدوة فى أى مفسر فليأت به شاهداً وإلا فلا يملل نفسه بنقل أقوال المفسرين التى هى بمعزل عن محل النزاع. أكرر التنبيه على هذه النقطة التى يتراءى الأستاذ كأنه لم يسمع تنبيهى عليها من قبل ثم أقول كما قلت من قبل أيضاً أن مذهبه فى استحالة المعجزات والبعث بعد الموت يبنيه على العلم الحديث المبنى على الحس والتجربة ويفسر عدم علم الحديث لما وراء الحس والتجربة بنفيه وإحالته فإذا كان العلم الحديث ينفى كل ما لا يعلم ويعده محالا ويدخل فيه المعجزات لأنه ما رآها والبعث بعد الموت لأنه ما جربه بعد فإذن يلزم أن يكون العلم الحديث ينفى وجود الله ويحكم باستحالته لتعاليه عن متناول الحس والتجربة والأستاذ على قوله الحديث يتبع العلم الحديث ويؤمن به ترجيحاً على كل شىء فهل يقول مع العلم الحديث بعدم الإله واستحالته كاستحالة المعجزات والبعث بعد الموت فأطلب منه هو خلاصة الخلاصة جواب هذه الأسئلة الثلاثة :

السؤال الأول : إذا كانت المعجزات والبعث بعد الموت من المحالات العقلية التى لا تتناولها ولا تتعلق بها قدرة أحد ولا قدرة الله فهل لا يلزم على هذا أن يكون القرآن كاذباً فى قوله : « أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى انه على كل شىء قدير » وقوله : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » وقوله: «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبأن بما عملتم وذلك على الله يسير» وقوله : « كلا لو تعلمون علم اليقين

لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين » . وفى قوله عن مريم : « أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين » .

السؤال الثانى : وإذا كان القول باستحالة المعجزات والبعث بعد الموت تكذيباً للقرآن فى أصرح آياته القائلة بكونها يسيرة على الله أو هينة أو أهون فهل يكون ردها إلى المتشابهات غير المفهومة بالرغم من صراحتها وكمال وضوحها اعترافاً بعدم اتفاقها مع العقل والعلم ، خدمة للإسلام والقرآن ؟

السؤال الثالث : إن كان العلم الحديث نافياً لوجود الله على ما سبق إيضاحه فهل الأستاذ مع العلم أو مع الجهل الذى رمانا به ؟

فليكن رد الأستاذ على مقالتى هذه منحصراً فى جواب هذه الأسئلة وكفى .

مصطفى صبرى

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً

١٥ـ٩ـ١٩٣٧

تفصيل بعض ما أجملناه فى المتشابهات

للأستاذ محمد فريد وجدي

كتب إلينا بعض الفضلاء يسألوننا عن الحكمة فى الإفضاء بمسألة المحكمات والمتشابهات فى هذه الأيام وقد وسعنا السكوت عليها أمدا طويلا ، وعن مدى تطبيقها لمن يريد الأخذ بها ؟

فنجيبهم غير قاصدين مساجلة أحد ، ولا فاتحين لمجال جديد للبحث فيها نزولا على رأى الأهرام فنقول :

إن الحكمة فى الإفضاء للناس بهذه المسألة اليوم هو ما آنسناه من الميل للخوض فى تأويل بعض المعجزات لتدخل فى دائرة الأمور العادية ، وتخرج عن كونها من الأمور الخارقة للعادة ، كما حدث فى مسألة وادى النمل ، فكان حقا علينا أن نجرد للدفاع عن الكتاب كل الأسلحة التى ادخرها هو لمثل هذه النزعة .

أما مدى تطبيق هـذه الآية فالأئمة الأولون مختلفون فيها كل على حسب وجهة نظره فقال مجاهد : الآيات المحكمات ما فيه من حلال وحرام وما سوى ذلك فهو متشابه يصرف بعضه بعضا . ومنه يرى القارئ أن مجاهداً رضى الله عنه قد وسع من دائرة المتشابهات إلى حد أن جعلها تشمل أكثر القرآن . فلا يمكن أن يتصور عاقل بأنه ينكر هذا القسم أو يكذب به ، ولكنه يرى أن معانيه تعلو عن متناول العقول العادية فتقع وهى تحاول تفهمها فى الشبهات فلا تخلص منها ، وكثيراً ما يتحدث القرآن عن الملأ الأعلى ، وعن العالم الروحانى ، ويتنزل فى التعبير إلى حضيض أفهامنا القاصرة على طريقة التمثيل ، فإذا تناولنا ذلك بالتأويل زلت أقدامنا لا محالة .

وروى الطبرى عن ابن عباس قوله : « المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده

وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به . قال وأخر متشابهات، والمتشابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به » .

فى هذا القول ينطبق وصف المتشابه على قسم كبير من القرآن يدخل فيه تفصيلات ضروب الثواب والعقاب ، وتعليلات معجزات الأنبياء ، وكل مايؤمن به ولا يعمل به كالأمور الاعتقادية البحتة فلا يمكن أن يقال من أجل ذلك أن ابن عباس ينكر شيئاً من المتشابهات أو يكذب به ، ولكن يقال إنه كان يؤمن به أى شىء كان مراد الله منه، ولكنه لا يبحث فيه ولا يحاول تأويله ، اعترافاً منه بأن العقل لا يستطيع فهم ماهو فوق الطبيعة لانقطاع النسبة بينهما .

وقد روى الأئمة الأولون أن أصحاب المذاهب المختلفة كانوا يعتبرون الآيات التى توافق مذاهبهم محكمة ، والتى تخالفها متشابهة ويفعل خصومهم العكس كقوله تعالى: « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » فإن نافى القدر اعتبروا ما ورد فى هذه الآية من الوعيد محكما من ناحية أنها جعلت للعبد مشيئة يستطيع أن يصرفها فيما يريد من إيمان أو كفر ، فاتخذوها دليلا على نفى القدر ، وعدوا قوله تعالى «وما تشاءون إلا أن يشاء الله» متشابها . وكان مثبتو القدر يعكسون الأمر فيقررون بأن الآية الثانية هى المحكمة وأن الأولى هى المتشابهة . فهذا أيضاً توسع كبير فى فهم المتشابهات ، ولم يقل أحد بأنهم كانوا يحسبون منكرين لها .

فالحكم على آية بأنها متشابهة معناه الحكم رفعها عن مستوى الفهم العادى إلى مستواها الأرفع الذى استأثر به الله وحده ، فيؤمن بهـا المسلم إلى أى مآل آلت ، ولا يتطاول إلى تفهمها علماً منه بأنه لا يقع على حقيقة معناها مهما حاول ذلك بقواه العادية .

من هذه الأقوال يتبين القارئ أن أئمتنا الأولين رأوا الورع لا فى توسيع دائرة

المحكمات ، ليتناولوها بالظنون والأوهام ، ولكن فى حصرها فى حدودها ، حتى لا يمكن الخلاف عليها ، ويقوم الناس منها على أمر جامع .

وقد فسر العلامة النيسابورى فى تفسيره قوله تعالى :

« والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » فقال : « هم الذين يستعملون أذهانهم فى فهم القرآن فيعلمون ما الذى يطابق ظاهره دلائل العقل فيكون محكما ، وما الذى هو بالعكس فيكون متشابها ، ثم يعتقدون أن الكل كلام من لا يجوز فى كلامه التناقض ، فيحكمون بأن ذلك المتشابه لابد أن يكون له معنى صحيح عند الله وإن دق عن فهومنا » .

ثم أضاف إلى ما سبق قوله : « لكن هنا عقدة أخرى وهى أن الدليل العقلى مختلف فيه أيضاً بحسب ما رتبه كل فريق وتخيله صادقا فى ظنه مادة وصورة فكل فريق يدعى بمقتضى فكره أن الدليل العقلى قد قام على ما يوافق مذهبه ، وتأكد به الظاهر الذى تعلق به ، فلا خلاص إلا بتأييد سماوى ونور إلهى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

فأئمتنا الأولون كانوا يجعلون الدليل العقلى فيصل التفرقة بين الأمور ، ويعتبرون فى الوقت نفسه بأن الناس يختلفون فيه قوة وضعفا ، ولكنهم ما كانوا يحكمون على فريق من المتخالفين فيه بالكفر .

أما ماورد فى الكتاب من معجزات الأنبياء فهى من الخوارق للعادات التى يؤيد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام . وقد أثبتنا حدوث الخوارق على أيدى الأولياء كرامة لهم، فهل ننكرها على الأنبياء وهى الأساس الوحيد الذى دعموا عليه رسالاتهم.

وكيف ننكرها وقد وردت بالنص فى كتاب الله محكمة ، وكانت من الأدلة المحسوسة على صدقهم . فمن الذى يستطيع أن ينكر أن عصا موسى انقلبت حين ألقاها حية تسعى، وأن عيسى عليه السلام كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله

إلى غير ذلك مما ورد محكما فى الـكتاب ؟ ولـكن الذى نحوله إلى قسم المتشابهات إنما هو تعليل تلك الخوارق بما تعلل به الأمور العادية كما فعلوا بمعجزة سليمان عند ما مر بوادى النمل ، فإنهم بما قالوه قد حولوها إلى أمر عادى ، وهو الذى دعانا إلى كتابة ما كتبناه فى مقالتنا الأولى بالأهرام .

وكذلك يجب أن نمتنع عن البحث فى كيفية إحياء عيسى عليه السلام للموتى ، وإبرائه الأكمه والأبرص ، وكيفية انقلاب عصا موسى عليه السلام حية ، كل ذلك وأمثاله لا يجوز الخوض فيه لأنه فعل الخالق نفسه وقد نسبه إلى قدرته ، فيكون من الفضول التعرض لتفهم تعليله .

فالإسلام يطالب الأخذ به أن يعتقد بحدوث المعجزات فعلا فى عالم الأعيان ، مسندا إحداثها إلى الله ، غير باحث فى كيفية حدوثها مفوضا إليه تعالى أمرها . وهذا ما قصدنا إليه من رد آيات المعجزات إلى المتشابهات . والآيات الدالة عليها محكمات فيما دلت عليه نصا ، متشابهات فيما يرجع إلى تعليلها بالأسباب الطبيعية .

أما مسألة البعث والنشور فلعلى أكثر كتاب العربية تآليف فى إثباتها ، وهو من ضروريات الدين وأسسه التى لا يقبل من مسلم أن يتردد فيها . فالآيات الدالة عليه محكمات فى مدلولها ، وهى من الـكثرة بحيث لا ينبغى أن يدخل مدلولها ذلك تحت المناقشة والجدل . والبعث والنشور ليس أساس الدين الإسلامى وحده ، ولـكنه أساس جميع الأديان السماوية . فكل دين سماوى يطلب إلى الناس عمل الخير وتجنب الشر ، فإذا لم يكن ذلك قائما على أن هناك يوما آخر يجزى فيه المحسن على إحسانه والمسىء على إساءته لتهايل ذلك الدين على نفسه .

هذا ما أردت إيراده لمن بعث إلينا يستزيدوننا تفصيلا لما أجملناه ، وأظن أنى قد وفيت الموضوع حقه والله ولى الكفاية .

محمد فريد وجدى

دفع تهم ورد عدوان

من فريد إلى رشيد

قرأت فى « الأهرام » كلاما عنى للأستاذ رشيد رضا وقرأت فى الصدد نفسه حكمة للجاحظ وهى قوله : « الصدق والوفاء توأمان ، والصبر والحلم توأمان ، فيهن تمام كل دين ، وصلاح كل فساد ، وأضدادهن سبب كل فرقة ، وأصل كل فساد » فعجبت من هـذا الاتفاق ، ورجوت الله أن يجعلنا من أهل الصدق والوفاء والصبر والحلم .

عهدت الشيخ رشيد رضا مناظرا عنيفا ولـكنى ما كنت أعهده كما أراه أخيرا متقولا متجنيا يضع قلمه حيث أراد لا يبالى أين وقع ، ولا يكترث أخطأ أم أصاب !

هاجمنى الشيخ رشيد وأنا آمن ما أكون منه أخذ على أمورا :

أولها — ما كتبته فى المحـكم والمتشابه نقلا عن ثقات المفسرين فحـكم بخطأى وخطأ إمامهم فخر الدين الرازى .

ثانيها — ادعى علىّ أنى أؤيد معارضيه الأتراك من مبدأ اللادينية ، ومن إيثارهم القوانين الأوربية على شريعة الإسلام ، ونقل عنى أنى قلت إن كل هـذا اقتضاه رقى الشعب التركى الذى أصبح لايناسبه التشريع الإسلامى العتيق البالى (اللهم عفوا) .

ثالثها — انى كتبت فصولا فى جريدة الجهاد تحت عنوان ـ الإسلام دين عام خالد ـ وفيها مع مدح الإسلام ما هو مخالف لعقائده .

رابعها — انى نشرت بالجهاد تحت عنوان الإسلام يدعو إلى الأخوة العالمية العامة وإلى توحيد الأديان ، وتحكيم العقل والعلم فى العقائد ، وإن فى آرائنا فى ذلك ماينافى الإسلام .

خامسها — انى صرحت بأن الإسلام الذى جرى عليه المسلمون ينقضه العقل وعلم هذا العصر ، وانه لايمكن قبوله فى هذا الزمان إلا بما أفسره أنا به (أعوذ بالله) .

سادسها — انى أنكرت معجزات الأنبياء وعذاب النار .

سابعها — انى استندت فى إشادتى بالعقل على حديث لا يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم .

هذه جملة التهم التى رمانى بها .

فأما عن الأمر الأول فإنى منتظر أن أقرأ فيما وعد بنشره خطأى وخطأ إمام المفسرين.

وأما عن الأمر الثانى فإنى قد كتبت فى مجلة الفتح ، وهى الصحيفة التى رضيها مناظر لى مجالا لمساجلتى ، قولى وهو :

« أما ما ذكره الأستاذ (أريد مناظرى ذلك) من أن الحكومة التركية تمنع الأذان والصلاة بالعربية ، وتعاقب من يؤديهما بها ، فالجواب عليه هو ما ذكرته مرارا (أريد فى الأهرام والفتح) وهو أن الأتراك فى حالة ثورة لم تنته بعد ، والثورة تدفع إلى كثير من (الإفراطات) ، وضربت مثلا بالأمة الفرنسية التى تجارأت على حذف الدين أصلا من مجتمعها فى إبان ثورتها ثم أعادته بعد أن هدأت أعصابها وثاب إليها اتزانها » .

فهل فهمت من هذا أننى أقررت الأتراك على ماصنعوا وقد وصفته بأنه نتيجة ثورة والثورة فيها إفراط وتفريط وغلو ، وشبهت عملهم بعمل فرنسا إبان ثورتها ؟

فأنا اليوم أطلب إليه أن يأتينى بالأدلة على ماعزاه إلىّ من نص كلامى ، لأنها تهم تضر بمثلى ضرراً لا حد له ، وتحط من كرامتى إلى مدى بعيد ، وها أنا أفصل له طلباتى مستشهدا جميع قراء « الأهرام » عليها فإليه :

١ : من أى كلام لى أخذ على أنى أستحسن مبدأ اللادينية ؟

ب : ومن أي قول لى أخذ تفضيلى للقوانين الأوربية على شريعة الإسلام ، وقد قلت فى جميع كتبى بأن شريعة الإسلام أكمل الشرائع ، وإن أوربا لما تصل إلى مثلها ، وإنها شريعة خالدة تصلح لكل زمان ومكان ، وإن العالم كله سيعول عليها فى المستقبل ؟

ج : ومن أية كتابة لى استمد اتهامى بما ذكره عنى من أنى قلت: إن الشعب التركى أصبح لا يناسبه التشريع الإسلامى العتيق البالى (أستغفر الله) ، أنا الذى أعلنت على رؤوس الأشهاد أن العالم المتمدن كله سيؤوب إليها ، ودللت على ذلك فى بحوث مستفيضة ؟

وأما عن الأمر الثالث وهو انى كتبت مقالات تحت عنوان (الإسلام دين عام خالد) فيها ماهو مخالف لعقائده ، فإنى أرجوه أن يبين لى تلك المخالفات واحدة واحدة.

وإنى لسائله فى هذه المناسبة سؤالات أرجوه الجواب عليها :

ا : إن هـذه المقالات نشرت فى جريدة يومية منذ نحو سنتين فما الذى حمله على السكوت عليها إلى هذا اليوم ؟ أما خشى أن يفتتن الناس بها، وقد رأى عشرات منهم يحبذوننى بسببها كتابة على صفحات تلك الجريدة ، ويثنون على من أجلها نثرا وشعرا، وأخذ جماهير منهم يتحدثون بحسن وقعها فى مجالسهم وأنديتهم ؟ فأى مانع منعه طوال تلك الفترة من التنبيه على أخطائها ، فأخفى ما فى نفسه حتى جمعت تلك المقالات إلى كتاب تخاطف النـاس منه بضعة آلاف وجال جولته فى الآفاق ، وقرظته الصحافة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، وشرع فى ترجمته الهنـود إلى لغتهم وبعض الجماعات الإسلامية فى أوربا إلى الفرنسية والإنجليزية والجاوية وغيرها، فهلا دفعه الواجب الدينى إلى تدارك ذلك الخطر قبل استفحاله ، وتلافيه قبل استشرائه ؟ إنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، ولـكنه اليوم ، بعد أن لم يبق بلد إسلامى فى الأرض لم يتناول هذا الـكتاب بالإعجاب ، هب يعلن على رؤوس الأشهاد أن فيـه أموراً مخالفة لعقائد الإسلام ،

فهلا كانت تلك الغيرة الوثابة منه والخطب سهل ، وتدارك الخطأ فيه ميسور إن كان هناك خطأ ؟

هذا الذى حيرنى من أمر الشيخ وحير جميع الذين قرأوا ما كتبه عنه بالأمس !

ب : لقد وضع الشيخ كتاباً بعد كتابى بنحو سنتين أسماه (الوحى المحمدى) فلماذا لم ينبه فيه على أخطائى فيما تصدى له فيه من أمثال مباحثى كما جرت به عادة المؤلفين ، وثار فى الأيام الأخيرة يعلن الناس بأنى قد شططت فيما كتبت ، ويجرؤ على أن يتقول على ما لم أقل ؟

وأما الأمر الرابع وهو قول الشيخ رشيد بأنى قد نشرت بالجرائد مقالا تحت عنوان (الإسلام يدعو إلى الأخوة العالمية، وتوحيد الأديان الخ) وفيه مايخالف الإسلام الحق وقد مرت على نشر ذلك المقال شهور ، فلماذا لم ينبه الناس إلى تلك المخالفات من نص أقوالى ، وكان هذا واجباً عليه للمسلمين جميعاً وهو خبير بما يجر إليه إهماله ؟

وأما الأمر الخامس وهو أنى قد صرحت بأن الإسلام الذى جرى عليه المسلمون ينقضه العقل ، وإنه لايقبل إلا بما أفسره أنا به ، فهو من أغرب مايوجه إلى من التهم ، فإنى قد صرحت فى كتاباتى كلها بأن الإسلام حاصل على جميع المقومات الأدبية التى تجعله دين الكافة فى كل زمان ومكان ، وبأنه فى غير حاجة لإصلاح جديد وإن أسلافنا قد قاموا منه على طريقة فنحن ندعو إليها ونشيد بذكرها ، فأنا أطالب الشيخ رشيد بأن ينقل من كلامى ما يثبت هذه التهمة ليطلع عليه القارئون .

وأما عن الأمر السادس وهو انى أنكرت معجزات الأنبياء وعذاب النار ، فأنا أكلفه بأن يثبت ذلك من نص أقوالى ، وقد كتبت للأهرام مقالا قبل نشرها لمقالة الشيخ بينت فيه مذهبي فى ذلك ، وقد نشرته الأهرام اليوم ، فأنا أسمح له بأن يغفله من حسابه ، وأريده على أن يأتينى بما اتهمنى به من أقوالى التى نشرت قبله .

وأما عن الأمر السابع وهو انى قد استندت فى إشادتى بالعقل على حديث لايصح

عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فأجيب بأنى قد نقلته من المؤلفات المتداولة فى أيدى المسلمين ، فهب انه لم يصح أليس يؤيد الـكتاب معناه ؟

فما هو ذلك الحديث الذى شن علىّ الشيخ رشـيد غارة شعواء من أجله ؟ هو « الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له » ألم يقل الله تعالى فى الـكتاب عن الـكافرين: « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم (وهو انهم ما كانوا يسمعون ولا يعقلون) فسحقاً لأصحاب السعير » وقال تعالى: « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » . وكرر سبحانه فى الـكتاب قوله: «أفلا تعقلون» مرات كثيرة؟

أليس معنى هذا كله أن الدين هو العقل وأن لا دين لمن لا عقل له ؟

وكيف يكون على دين قيم من ليس له عقل يفرق بين الحق والباطل، وبين الرشد والغى؟

ألم يقل أئمتنا انه لا بأس من رواية الأحاديث وإن كانت ضعيفة إن وافقت مانص عليه الـكتاب من كل وجه ؟

وبعد ، فإن النـاس اليوم يتساءلون ما الذى يدفع الشيخ رشيد منذ اجتمعت القوى ، وتراصت الصفوف لحماية الدين ودفع الشبهات عنه ، لأن يندس فى الجماعة يفرق وحدتها، ويجوس خلال الصفوف يخل تلاؤمها، يطعن فى هذا ويشنع على ذاك ، ويملأ الصحف كتابات فى خلافات لفظية يحول بها طوائف من المسلمين إلى ناحيته لدرء عاديته ، وكف ثائرته ؟

لو كانت ثائرته هذه فى حق صراح لوجب عليه فى هذه الظروف تهدئتها، فـكيف وهى فى باطل محض لا مبرر له ؟

فهل هو يرى أن هذا الظرف أحسن الظروف لحملته الشعواء على اخوانه المسلمين وللإعلان بأنه هو وحده حامى حمى الدين ، وملاذ اللائذين ؟

محمد فريد وجدى

١٩٣٣/١٠/٣

لواحق ووثائق

(٥)

الخطابان المتبادلان بينى وبين حضرة صاحب السعادة طه حسين بك
(صاحب المعالى طه حسين باشا) المستشار الفنى بوزارة المعارف

سيدى صاحب السماحة الأستاذ الجليل :

تلقيت كتابك[1] الممتع الذى تفضلت فأهديته إلىّ .

وإنى أشكر سماحتكم هذا الفضل العظيم وما أشك فى أنى ساجد فى قراءة كتابكم متعة العقل والقلب والشعور جميعاً . قد أقنعنى أيسر النظر فيـه بأنه يصور قلبا ذكيا وبصيرة نافذة وعلما واسعا عميقا بأمور الدين وأمور الفلسفة معا ، وإنى لا أفهم لإنكار المعجزات معنى ولا أفهم أن يحكم العقل الإنسانى الذى مهما يقوى فهو ضعيف فى أمور لايستطيع أن يبلغ كنهها والأمر لايعدو إحدى اثنتين فإما إيمان فيه اعتراف بالنبوات وما تقتضيه هـذه النبوات ، وإما جحود للنبوات وما تقتضيه وأبغض إلى أن يؤمن الناس ببعض الـكتاب ويكفرون ببعضه الآخر .

وقد رأيت من سماحتكم شيئاً من الشك فى بعض ما كتبت ولـكنى اعتقد أنـكم لو قرأتم كتبى فى شىء من الاستقصاء والتعمق لاقتنعتم بأمرين ، أحدهما انى لا أحب التأويل ولا أميل فيه إلى آراء الشيخ محمد عبده رحمه الله ولا أحب أن تحمل النصوص ما لا تحتمل ولا أن أخضع الدين للعلم لأن العلم يتغير والدين ثابت . الثانى انى لم أنكر المعجزات الـكونية ولم أنـكر معجزة ما وقد لامنى فى ذلك صديقى هيكل باشا حين كتب عن الجزء الأول من هامش السيرة ، وظن أن فى تحدثى عن المعجزات خطراً على عقول الشباب ولـكن الحق شىء ولوم اللائمين شىء آخر . وإنى لأرجو حين أفرغ من قراءة كتابك النفيس أن يتاح لى شرف لقاءك لأتحدث إليك فى هذه الموضوعات التى أوثرها أشد الإيثار ولأشكر لك هـذا الغذاء القيم الذى قدمته إلى عقول الناس فى عصر تشتد فيه حاجتهم إلى مثله .

وإنى أرجو أن تتفضل فتقبل تحيتى صادقة وشكرى محمودا ...   طه حسين

---

[١] القول الفصل .

سيدى صاحب السعادة :

تلقيت خطابكم الكريم المعرب عن تقديركم الغالى لكتابى الذى أهديته لسعادتكم وكان هذا أول خطاب ورد إلىّ ممن تكلمت عنهم فى هذا الكتاب فسرنى من عدة وجوه أولا من نصه على أنكم لاتنكرون معجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وثانيا من اعترافكم بأن فى هذه البلاد من ينكرون المعجزات من رجال الأدب وعلماء الدين تصريحا أو تأويلا وإن حضرتكم لا توافقونهم على آرائهم بل توافقوننى فى نسبة ما نسبته إليهم وفى رد ما رددته عليهم . وهذه شهادة لكتابى وتأييد له أى شهادة وأى تأييد .

وهناك تأييد ثالث ينص على أن الإيمان بالنبوة لا تتفق مع إنكار معجزاتهم وقد كان ذلك مما خفى على منكرى المعجزات من المؤمنين بالنبوات .

هذا ، إلى أن كتب الدكتور طه حسين فى كتابه إلىّ ما كتبته أنا فى كتابى من الآية الناعية على الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . وبذلك تم الاتفاق بيننا وحق لى الفخر بأنى قد كسبت كبير أدباء مصر ، ولا حرج إذا قلت كبير أدباء مصر ، ونعما هو عوضاً عمن خسرتهم فى مناقشة مسألة المعجزات من كبار العلماء وصغارهم المكابرين فى بحث المسائل العلمية والمستهترين فى تأويل النصوص . فيهم من أنكر وجود الشيطان ورفع المسيح مدعياً عدم دلالة القرآن عليهما ولاسبب لإنكاره إلا ماهو سبب لإنكار المعجزات من منكريها أعنى كون الشيطان من المغيبات ورفع المسيح من الخوارق . وفيهم من قال إن قول القرآن فى سورة القمر (انشق القمر) ليس معناه انشق القمر وإنما معناه ظهر الحق يقول هكذا ولا يفكر فى أنه تأويل بعيد لحد أن يجعل سورة القمر سورة ظهور الحق وفيهم من فهم من قول البردة :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به ... حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

مدح نبينا صلى الله عليه وسلم بنفى المعجزات عنه على الرغم من أبياتها الكثيرة

الأخرى المادحة بالمعجزات . ومرجع كل هذه المكابرات إنكار الخوارق بحجة مخالفتها لسنة الكون ولكن الدكتور طه أتى فى جواب حجتهم هذه بفصل الخطاب فقال فى كتابه إلىّ إن الدين ثابت والعلم متغير فافترق من منكرى المعجزات فى أساس المسألة واتفق مع الحق وهو ما كنت أنتظره منه بالقياس على مما تعرفته منذ بضع سنين بمقالاته فى الجرائد منحازا إلى جانب الأقوى من الرأى والأضعف من الناس وبما قرأت من كتبه وما قرأت منها إلا القليل كما أن ما سمعته من خطبه انحصرت إلى محاضرته الأخيرة فى جامعة فاروق وقد سمعتها مصادفة فى الإذاعة فسحرتنى ووجدت قوة القلم انضمت إلى قوة اللسان فصارتا فى الدكتور طه قوة واحدة ممتازة ولهذا يجد الإنسان فى كتاباته — ولا كتابة له — جاذبية النطق وسحره وفى خطبه نيقة الكتابة وانتظامها وهذا كما أن قوة البصيرة فيه إدراك وإحساس معا .

لا أطيل عليكم القول وإنما أفصح قبل ختمه عن أملى فى أن يزداد بيننا التفاهم والتواد بقدر ما أتقدم فى مطالعة كتبكم وتتقدمون فى قراءة كتابى الذى بيدكم ولاسيما عند الإضافة إليه ما أرجأت نشره بسبب أزمة الورق رغم كون المنشور جزءا صغيرا من ذلك الكل المسمى (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) ممثلا للباب الثالث من أبوابه الأربعة . وإنى مؤمل أيضاً أن تجدوا فى كل من الكتابين إخلاصا زائدا نحو الدين والعقل إخلاصا يأبى الابتعاد قيد شعرة عن كل من هذين المبدأين العزيزين ، ولا أقول إنكم ستجدون فى كتبى علما واسعا مهما تكرمتم فذكرتموه فيما يصوره كتابى القدم، ولكن الحق والعدل اللذين كل ماعندى من أسباب الفخر هو الصراحة فيهما إنه هو وأخاه الكبير إنما يصوران جهد العقل وجهاده وإن كان جهدا كثيرا وجهادا خطيرا .

وفى الختام أرجو أن تتفضلوا فتقبلوا تحيتى وسلامى واحترامى المخلص .

مصر الجديدة : ١٧ جادى الأولى ١٣٦٣
١٠ مايو سنة ١٩٤٤

مصطفى صبرى

أغلاط الجزء الرابع المطبعية

٦ ، ٢٣ ذلك القول ١٣ ، ٢٠ كلامُ الله ٢٦ ، ٧ الفلسفة ٣٢ ، ١٥ حماقةً ، ٢٠ المستقبل ٣٤ ، ١٩ بيلاردو ٦٢ ، ٢١ أدلة ٦٧ ، ١٤ وكُتب ٧٢ ، ٣ » ١٥_٢٥ ١٢٥ ، ٢٠ تشابهها ١٤٩ ، ٦ البيان (١) » ١٨٤ ، ١٣ أنه كان ١٩٠ ، ٦ على مجيء ٢٠٨ ، ٣ موكولة ٢١٩ ، ٩ ذلك الأمر ٢٢٠ ، ٦ اضطراريا ٢٢٤ ، ١٧ هو الحركةُ ٢٣٣ ، ٢٠ فيها نحن أولاء ٢٤٠ ، ٨ بقانون ٢٥٠ ، ١٨ فليُمدَّ ٢٥٥ ، ٢٣ الكبير الشيخ زاهد ٢٦٣ ، ١٥ إنه ٢٦٧ ، ١٦ فى إنحائه باللوائم ٢٧٦ ، ٢ حملاتى على ضعف إمام الطائفة فى ديانته بنبوة الأنبياء بل على ضعف علمه أيضا بوجود الله ، لكن الشيخ الخ ٢٨٧ ، ١٤ وقد ذكرهم ٢٩٢ ، ١٧ الأستاذ على عبد الرازق ، ١٨ على بضع عشر ٢٩٥ ، ٢٠ (١) ٢٩٦ ، ١٠ حياته [راجع ٣٢ جزء أول] ٢٩٨ ، ١٠ من العمل ٢٠٧ ، ٤ ٣٠٧ ، ٤ إخصائيِّين مسيحيَّيْن ومسلم ٢١١ ، ١٨ ٣١١ ، ١٨ عدد ٥١٦ ، ٢٠ اشتركوا وتواطأوا على ٢١٢ ، ١١ ٣١٢ ، ١١ عن الأئمة ، بالشق الثانى ، ١٢ إخــــراج الفقه ، ٢٣ إلغاء القرار ٢١٣ ، ٦ ٣١٣ ، ٦ وبرأ ، ١٩ من كلية ٢١٤ ، ٦ ٣١٤ ، ٦ أئمة الفقه ٣٢٤ ، ١٠ أو يكون ، ٢٠ منطويين ٣٢٧ ، ٤ أو الأخ أخته ، ٢٣ يلتحق ٣٣٥ ، ٨ وقضاتها ٣٤١ ، ٣ أهميتها ، ٤ حق الفهم – إلى حد الاحتفاظ بها حتى للنصرانى على حساب الإسلام – إذا فكر ٣٤٨ ، ٢٣ فى الآونة ٣٥٣ ، ٤ هذا القول ٣٧٥ ، ١٤ من على ٣٨٣ ، ١٧ وبين علماء الأزهر ٣٨٤ ، ٧ من الأئمة » ٣٨٩ ، ١ لاسيما ، ١٠ الكاملين ٣٩٠ ، ١٦ ماأجملناه ، تمميرها ٤١٤ ، ١٩ وماأشبهها ٤٢٨ ، ٢١ آسف ٤٤٠ ، ٦ مالا يقول .

بقية أغلاط الجزء الثانى

٧ ، ٢٠ بالعقوبات ٢١ ، ١٧ سيدنا ، وكونه ٣٢ ، ٢٠ ولم يبق ٣٤ ، ٨ وأنا أقول : إن رمى ٣٨ ، ١٢ نظراً ١٤،٣٩ وأنا أفهم ٢٠،٤٣ الفلسفة ١٦،١١٩ وقد لجأنا ١٢١ ، ٤ الموجودات ١٢٦ ، ٧ ليبنتز، ١٣ ليبنتز ٧،١٣٠ وجوده ٢٣،١٣٨ لكانت ١٦٣، ١٣ الإنسان ١٨١، ١٥ بجدذر ١٨٧، ١٤ واقفا ٢٢،١٩٦ المفكرين ١٤،٢٠٢ والثانى ٢٠٣، ٢١ العلل، ١٦ مونادولوژى ٢٠٤ ، منها ٤،٢١٤ الحسبانية ١٤ زعم ٢١٥ ، ٢٢ إن لم أومن ٢٣٨، ١٨ جاء ٢٤٢، ٢٠ اعتداد ٢٢،٢٤٧ أيضا: ٢٤٩ ، ١٩ الماديين ٢٥٤ ، ٢ فيما يأتى ٢٦٨ ، ٢ إثبات ٢٧٢ ، ١ فى المجربات ٢٧٥ ، ١٥ منطق ٢٧٧ ، ١٣ جهلاء ٢٨٥ ، ٢٣ «مذهب الماديين والعلم» ٢٨٧ ، ١٥ تجربة ٣٢٩ ، ١٥ ولا يُعَدُّ ٣٤٤، ٥ حقيقية ٣٤٨، ٢١ اللاتينى ٣٤٩ ، ٢ شربوا، ٢٣ المؤيد ٣٥٠ ، ٢١ قولاقلر ٣٥٣ ، ١٩ زرافات ٣٥٦ ، ٢٦ الجوهر ٣٥٩، ١٥ جوستاف ٣٦٠ ، ١٤ المطريات ٣٦١ ، ١١ استثناء ٣٦٤ ، ٤ أحد ، ١٠ المعترفين ٣٦٨ ، ١١ هيوم ٣٨٣ ، ١٤ طاقتهم ، ١٩ فانظر ٣٨٦ ، ٩ الذين ٣٨٧ ، ١٤ الفقه ٣٩٠ ، ٢ الالكترونات ٣٩٣ ، ٩ خلقت ٤٠١ ، ٤ شكسبير ٤١٢ ، ١٦ بوجوده ١٠،٤١٤ السلبى ٤١٧ ، ٧ الجزافية ٤٢٤، ١٩ تتصور ٤٢٥، ١٣ سرماية ٤٢٧ ، ١٠ السبب ٤٢٩، ١٧ لم يتمكن ٤٣٦، ٦ المذكور ٤٤٣، ١ الوجود ٤٥٧، ٣ يريد ١٣،٤٦١ يتوقف ٤٦٢ ، ٣ الطبيعة ٤٧١ ، ٤ وأنا أقول : إن رمى ، ٧ المعترفين ، ١٦،١١٩ وقد لجأنا ١٢٤ ، ٤ عمن أوجد الله ١٥ ، ١٣ فى قوة الاقتناع ، ٢٢ ولا يُعَدّ ٤٧٢ ، ٢ ٣٦٣ ٤٧٢ ، ٦ سرماية ، ١١ ، ٤٦٩ ، ٧ لكان تفوقُ ، ١٣ نالت ، ١٤ ، ٣٩٦ ، ١١ نقلًا عن كتاب .

بقية أغلاط الجزء الثالث المطبعية

٢٩ ، ١٩ اليمن٦ ، ٤٤ ، ١٩ تحت٩ ، ١٧ ٦٤ ، ٨ تخرق٦٩ ، ٦ وإن كان، ٧٤، ٦
آنطون ، ٧٥، ٢الاستبعاد، ٧٥ ، ٨ وبق ٩٣ ، ٢٢الذي قوّل١٠٢، ١١ الذهنى١٠٣، ١٤
ولاوجود١١٤، ١٦ الجزئى١٢٠ ، ١ لأنه ١٢٢، ١٢ عندالفلاسفة ١٢٥، ٢٠ والإرادة
١٤٧ ، ١٤ جائز ١٥٠ ، ١ آمنوا ١٥٢ ، ٢٢ من حيث إنه ١٦٥ ، ١٥ الوجود
١٦٧ ، ٢٠ التعيينات ١٨١ ، ٣ والنافية ١٨٢ ، ١٣ كله لله ١٨٧ ، ٨ هذا المذهب
٢٠٤ ، ٨ فتأمل ٢٢٧ ، ١٠ بهذا القول ٢٣٢ ، ٥ واجب ٢٤٠ ، ١ وأن كل شيء
٢٦٧ ، ٥ ولم يشركوا ٢٦٨ ، ٧ ثم يمكنك توجيه كون الله متعددا بعدد، ٩ كما يكون
٢٧٩، ٢٤ لما اجترءوا ٢٨٣ ، ٢١ من حيث إن ٢٨٤ ، ٨ شطحاتهم ٢٨٧ ، ٣ نقشبند
٣٢٠ ، ١١ على أن لا ينفك ٣٢٥ ، ٨ الوجـود الحاصل ٣٣٤ ، ٦ فمنهم من آمن
٣٣٦ ، ٥ فمند ٣٣٨ ، ١٥ بخيت ٣٣٩ ، ١٨ بخيت ٣٤٢ ، ١٤ معروفة عنـد
٣٥٥ ، ١٢ وإرادته ، ٢١ أحدهما ٣٦٦ ، ٢٢ يصدق عليها أنها لا تدخل ٣٦٩ ،
٨ ببراهين ٣٨٦ ، ٥ السلسلة ٣٩٢ ، ٢٠ المـاتريديين ٣٩٦ ، ٦ بخيت ، ١١
شهيد ، أقول ، ٢٢ التوفيق . » ٣٩٧ ، ١٢ يؤول ٤١٩ ، ١١ كالجبر ، ١٢
الجبرين ٤٢٠ ، ٣ مجبور ٤٢٢ ، ١٢ مؤتلفين ٤٢٦ ، ١ ولا الشيطان (١)
٤٢٩، ٣ مجبورا ٤٣١ ، ٨ تتبعها ٤٣٣، ٢٠ وإن لم تعترضوا ، ٢٢ فى هذا الـكتاب
أعنى الـكتاب الذى نقلنا عنه هذه الـكلمة الطويلة وهو (تحت سلطان القدر)
٤٤٢ ، ٨ الإنسان ٤٤٦ ، ١٤ جائز ، ٢٠ فيؤول ٤٥١ ، ٨ عمرو بن العـاص
٤٥٥ ، ٤ يبقى ٤٥٥ ، ١٤ التكبير ٤٦٣ ، ٢٠ وجود النشأة الأخرى متوقف عليه
٤٦٧ ، ١٤ وبرد ٤٦٨ ، ١٥ نقض ٤٧٣ ، ٩ بأنه إنمـا يتصور ، ١٥ والاسحاقية
٤٧٤، ١٩ الفلسفى ٤٧٤، ٢١ وإذا كان دليلنا ٤٧٧ ، ١٧ لايعلمونه ... مالايعلمونه
٤٧٨ ، ٣ وأنصار ٤٧٩ ، ٢٢ إبطال ٤٩١ ، ٣ ومسئولية .

أسماء الرجال المذكورين فى الجزء الرابع

من « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين »

فهرس الأبحاث المذكورة فى الجزء الرابع

بل إن هذا العلم يمنع المفتونين به عن الإيمان بوجود الله ١٧

النقاش الجارى بين الأستاذ فرح أنطون والشيخ محمد عبده واحتياج هذا النقاش إلى الاستئناف لعدم كون الشيخ ناجحا فى ذلك النقاش ١٧

ولو كان الشيخ محمد عبده أتى بجواب مقنع يشهد له بالغلبة على خصمه لما اجترأ الأستاذ فريد وجدى على أن يقول فيما كتبه ردًّا علىّ عند مناقشة مسألة المعجزات : « إن الشرق الإسلامى لم ينبس بكلمة لما اتصل بالغرب ورأى دينه ماثلا فى عالم الأساطير مع الأديان المقذوفة إليه بيد العلم الحديث، لأنه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله ١٧ـ١٨

منشأ الجرأة للمتوسعين فى تكذيب الأحاديث إلى حد أن لا يبالوا بما يتضمن هذا التوسع فيصعد الأمر من تكذيب الرواة إلى تكذيب الرسول ، كون النبوة عندهم عبقرية ، لا رسالة حقيقية من الله .. فيكون سهلا عندهم على الرواة أن يعزوا إليه مالم يقله ، ويكون سهلا على المصريين أن لا يصدقوه فيما قاله أيضاً ١٩

هذا حال الحديث وطريق رفضه . ثم يجيء دور القرآن ويكون طريقهم إلى رفضه استعمال الجرأة أيضاً إن لم يكن فى تكذيب رواته ففى تأويل معناه لاعبين بعقول القراء الغافلين . فلو نظروا إليه نظرهم إلى كلام الله لالتزموا بعض التحوط وخشوا بعض الخشية أن يكونوا مخطئين فى التأويل .. لكن مبدأ التحول المصرى من النبوة إلى العبقرية يحل جميع هذه المشكلات ويفتح أمام المؤولين أوسع باب ١٩ ـ ٢٠

وآخر نماذج التأويل فى القرآن بعد ما سبق الأستاذ فريد وجدى من رد آيات المعجزات والبعث بعد الموت إنكار الشيخ شلتوت وجود الشيطان ٢٠

بدعة إنكار المعجزات فى صورة تأويلها مأثورة للكتاب المصريين من الشيخ محمد عبده ٢٠

تفسير الشيخ رشيد رضا قوله تعالى « انشق القمر » بقوله : ظهر الحق ، وتفسير الشيخ شلتوت لآيات رفع عيسى عليه السلام، برفع روحه وقوله فى نزوله المعدود من أشراط

الباب الرابع فى عدم جواز فصل الدين عن السياسة فى الإسلام ٢٨١

تتطور العلاقات الاجتماعية التى يحكمها القانون، ولذلك يجب تفسيره بشكل ينجو من الجمود ويجعله متمشياً مع الحياة وملائماً لها بصرف النظر عن غرض الشارع وقابلية اللفظ الذى استعمله فى نص القانون .

ولاشك أن هذه التوسعة فى التفسير تجعله تلاعباً بالقانون ٣٤٥ .

بل القانون البشرى نفسه، فضلا عن تفسيره بالشكل الآنف لايخلو من أن يكون خديعة يخدع بها الناس بعضهم بعضا ويتخذها أداة العدالة فيما بينهم عدالة تقسمهم إلى طبقتين حاكمة وضعت القانون ومحكومة أفتات عليها الواضع ٣٤٥ .

أما القانون الإلهى فالحاكم فيه هو الله والناس حتى السلطان سواء أمامه غير محسين بثقل الحكم عليهم لكونه على السوية ولكونه من الله الذى خلقهم ٣٤٥ .

وأما تعييب هذا القانون بالجمودفقد عرفت أن الجمود من الأوصاف اللازمة للقانون وقد عمل المسلمون بقوانين الشريعة الإسلامية على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم طوال تاريخ الإسلام المنطوى على دول مختلفة فى المدينة والشام وبغداد والمغرب ومصر والهند وتركيا اعترف العالم بعظم شأنها ، فما شكت دولة إسلامية أو أمة مسلمة فى المشرق والمغرب من جمود الشريعة الإسلامية ٣٤٥ ـ ٣٤٧ .

من الناس من يتفق معنا فلا يجيز فصل الدين عن السياسة لكنه يخول حكومات المسلمين حرية تامة فى وضع القوانين ويدعى أنه لايوجد قانون يسنونه أو عمل يعملونه إلا ويسعه الإسلام لأنه دين عام خالد . وهو مذهب الأستاذ فريد وجدى بك .

وهذا الرأى أسوأ من فصل الدين عن السياسة ٣٤٧ .

ويقرب من هذا مسلك الشيخ محمد عبده الذى أجاب الأستاذ فرح أنطون حين عاب عدم فصل الدين عن السياسة فى الإسلام وعزى إليه تأخر المسلمين بإحالة التهمة على جمود علماء الدين ، فيفهم أن الشيخ كان يتوقع منهم اجتهادا واسعا يسع كل رغبات

المجددين المصريين حتى لا تبقى الحاجة إلى فصل الدين عن السياسة لتطمئن تلك الرغبات ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

وكان الشيخ رشيد رضا كثير الشكوى مثل أستاذه من جمود العلماء وشديد الطلب لفتح باب الاجتهاد مع أن الذين أقفلوا ذلك الباب أقفلوه لئلا يدخل فيه من ليس أهلا له .

وقد علمت أن غلط الشيخ رشيد وغيره فى توسعة باب الاجتهاد يذهب إلى حد أن يعطى البشر حق التشريع ، وهو باطل من ناحية العقل والنقل ٣٥٠

وفضيلة الأستاذ المراغى أكثر توسعا من الشيخ رشيد لكونه أجاز أن يكون المجتهد فى الكتاب والسنة غير عارف باللغة العربية فيستنبطَ الأحكام من التراجم فهو يجيز كون المجتهد فى القرآن مقلداً للمترجم فى فهم معانيه .

والشيخ رشيد متعصب للعربية كأستاذه محمد عبده المتعصب لها إلى حد اعتبار العربية والإسلام شيئا واحدا فى حين أن الأستاذ المراغى متساهل إلى حد أنه لا يوجب القراءة العربية فى الصلاة على المسلمين الأعاجم ولو كانوا قادرين عليها. والحق أن القرآن عربى والإسلام دين عام للبشر . ولا منافاة بين عموم الإسلام وعربية القرآن كما زعمه الأستاذ فريد وجدى . وهذا الأخير يعد ترجمة القرآن قرآنا ٣٥١ ـ ٣٢٥ .

الشكاية من جمود العلماء ما هو إلا تسويل من الغربيين يرجع إلى تعيير المسلمين بالثبات على العمل بالقوانين المأخوذة من كتاب الله وسنة رسولهم . ومعنى هذا أن الجمود الذى يشكى منه ليس جمود علماء الإسلام بل جمود الإسلام نفسه . ولا يدرى الشيخ محمد عبده أصل هذه الشكاية وهو يؤيد بها دعوى أعداء الإسلام . وإن كان يدرى فالمصيبة أعظم ٣٥٢ .

والحق أنه لا مندوحة من أن يكون جمهور المسلمين مقلدين فى فروع أحكام الدين .

أما العلماء فقد عرفت حال الذين يرون أنفسهم فى آخر الزمان أهلا للاجتهاد .

فههنا أمور ثلاثة نحن نأباها ونجعل اجتنابها أساس الاجتهاد فى الإسلام ونرى المتوسعين لايحذرونها وهى الذهاب إلى حد أن يكون المجتهد مشرعا أو إلى أن يكون مجتهدا من ليس أهلا للاجتهاد أو إلى تفسير النصوص بما لا تحتمله ٣٥٦ .
